



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
بُورِيقِ الْقِزْبَاوِيِّ

المجلد الثامن



حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

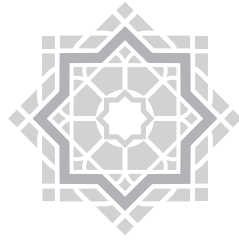
١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م

دار الشَّامِية

للطباعة والنشر والتوزيع



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقُرْظِيَّيْنِ



الْجُورُ الثَّانِي

الْحَقِيقَةُ

عقائد الإسلام ٢٢





مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقُرْضَاوِيِّ

المحور الثاني

العقيدة



عقائد الإسلام

الإمام يوسف القرضاوي



من الدستور الإلهي للبشرية

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾
[البقرة: ١٧٧].

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ءَ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ءَ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾
[البقرة: ٢٨٥].

﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُولِهِ ءَ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَ وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].



من مشكاة النبوة الخاتمة

عن أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ بارزاً يومًا للناس، فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، وبلقائه، ورسله وتؤمن بالبعث»... ثم أدبر فقال: «ردوه». فلم يروا شيئاً، فقال: «هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم». متفق عليه.

عن عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ، ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبته إلى ركبته، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً». قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله، ويصدقه.

قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره». قال: صدقت.

قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

قال: فأخبرني عن الساعة. قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». قال: فأخبرني عن أمارتها. قال: «أن تلد الأمة ربتهها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان».

قال: ثم انطلق فلبث ملياً، ثم قال لي: «يا عمر، أتدري من السائل؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم». رواه مسلم.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، اللهم لك الحمد حمداً كثيراً طيباً، كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك. وأزكى صلوات الله وتسليماته على خاتم أنبيائه ورسوله محمد ﷺ، الذي بعثه الله بالرسالة الخاتمة، رسالة الهدى والعدل والرحمة، اللهم صلّ وسلّم وبارك على هذا النبيّ الكريم، وعلى آله وصحابته، وكلّ من آمن به، ونصر دعوته، ورضي بالله تعالى ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن منهاجاً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

(أما بعد)

فهذا كتاب عقائد الإسلام، أقدمه للقارئ المسلم؛ ليكون له زاداً في طريق الإيمان، ودليلاً لمعرفة ما ينبغي عليه اعتقاده؛ كما أقدمه لغير المسلمين؛ لبيان حقيقة هذا الدين، وما يقوم عليه اعتقاد المسلمين؛ بياناً لعقيدة الإسلام، وأركان الإيمان.

وقد كنت نشرت فصولاً من هذا الكتاب من قديم، منها (وجود الله)، الذي كتبه في ستينيات القرن الماضي، و(حقيقة التوحيد)، و(الإيمان بالقدر)، ورأيت أن أضم هذه الفصول بعضها إلى بعض في كتاب واحد، أستكمل فيه الحديث حول أركان الإيمان؛ ليكون الكتاب بمجموعه

ممثلاً لعقائد الإسلام، من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وما يقرب من ذلك من المسائل والقضايا.

الإيمان بالله:

وأولى القضايا الكبرى في العقائد هي قضية وجود الله، منشئ هذا الكون، وواهب الحياة، وخالق الإنسان. لقد كان إثبات وجود الله قضية قليلة الأهمية عند علمائنا القدامى؛ فقد كان هذا عندهم من الضروريات التي تقتضيها الفطرة.

ولكن تعرّض الدين في أوروبا لمحنة شديدة، بسبب موقف الكنيسة هناك من العلم والعلماء، جعل كثيراً من الناس يكفرون بالدين وبالله، ومهما يكن من تعليل إلحادهم؛ فقد تطاير شرر الإلحاد من أوروبا إلى غيرها، ولا غرو أن ابتلي عالمنا العربي والإسلامي بفئة من الملاحدة، شربوا هذه الثقافة المسمومة.

وزاد الطين بلة أن فُتنَ بعض الشباب بالاشتراكية، ولعبت بعقولهم الماركسية؛ حتى وجدنا مَنْ يكتب وينشر: إنكار الله جهرة علانية، في قلب بلاد العرب والإسلام.

ووجدنا هذه الأفكار تُحدث بلبلة واضطراباً في أنفس كثير من الشباب الطيّبين الذين ليسوا بملحدين، ولا يساريين ولا يمينيين. وكثيراً ما جاءني أسئلة في الإذاعة والتلفزيون، وفي أعقاب المحاضرات والندوات يسأل أصحابها: ما الدليل على وجود الله تعالى؟ وهم لا يشكّون في وجوده سبحانه، ولكنهم يريدون أن يُقنعوا الشاكّين ويُفحموا المُشكّكين.

إن المعركة اليوم ليست مع الأشاعرة ولا الماتريدية ولا المعتزلة ولا الجهمية، إن معركتنا الكبرى مع الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله ولا نبوة ولا كتاب.

ليست معركتنا مع الذين يقولون عن الله تعالى: ليس له مكان؛ بل مع الذين يقولون: ليس له وجود، وعلينا أن نخلقه، كما قال أحدهم!!
ليست معركتنا مع الذين يُؤوّلون صفات الله تعالى، بل مع الذين يجحدون الله بالكلية.

وأي تحويل للمعركة عن هذا الخط، يعتبر توهينًا للصف، وفرارًا من الزحف، وإعانة للعدو.

ومن هنا وجدت: أن إقامة الأدلة على وجود الخالق جلّ جلاله جزء من معركتنا مع الإلحاد، لتسليح الشباب المؤمن، وتثبيت الشباب القلق، وإلزام الفئة المعاندة.

إن إثبات عقائد الإسلام الكبرى لا يتم ولا يستقيم إلا إذا قام الأساس الأول للعقيدة، وهو الإيمان بوجود الله؛ فإذا نفقت سوق الشبهات، وانتشرت سموم الشكوك، وجب أن نقاومها بسلاحها نفسه، مخاطبين العقل والفطرة معًا، وأن نسلح الفئة المؤمنة الواعية لترد على الجاحدين، وتنقذ المتحيرين، وتقتلع بذور الشك من قلوب الشاكين.

والإيمان بالله، يتضمّن الإيمان بوجوده بالضرورة، والإيمان بوحدانيته في ربوبيته وألوهيته، والإيمان بأسمائه الحسنی وصفاته العليا، التي يتجلّى فيها اتصافه بكل كمال يليق به، وتنزّهه عن كل نقص.

وكذلك يركز الإسلام غاية التركيز على عقيدة أخرى، ضلّ الناس في شأنها ضلالًا بعيدًا، وتلك هي عقيدة التوحيد التي هي لبّ عقائد

الإسلام، وروح الوجود الإسلامي: الإيمان بالله واحد فوق هذا الكون، له الخلق والأمر، وإليه المصير، هو ربُّ كل شيء، ومدبر كل أمر، هو وحده الجدير أن يُعبد ولا يُجحد، وأن يُشكر ولا يُكفر، وأن يُطاع ولا يُعصى.

لقد عُني الإسلام كل العناية بالدعوة إلى توحيد الله تعالى، علمًا وعملاً، ومقاومة الشرك اعتقادًا وسلوكًا.

ولا يُقبل إيمان امرئ عند الله ما لم يَقم بتوحيده سبحانه: علمًا واعتقادًا، بأن يؤمن بأنه تعالى واحد متفرد في ذاته وصفاته وأفعاله، لا شريك ولا شبيه له، ولا ولد ولا والد له.

وتوحيده كذلك: قصدًا وعملاً، بأن يُفردَه وَحْدَهُ بالعبودية الكاملة، والطاعة المطلقة.

فتوحيد الربوبية يقتضي الإيمان بأنَّ الله جل وعلا هو الخالق الرازق المعطي المانع الضار النافع مالك الملك، وتوحيد الإلهية يقتضي الإيمان بأنَّ الله تعالى هو وحده المستحق للعبادة، فهو المعبود بحق دون سواه، ولا يتحقق التوحيد ما لم ينضم توحيد الإلهية إلى توحيد الربوبية. إنَّ التوحيد الخالص من شوائب الشرك إذا تحقق في حياة فرد أو قامت عليه حياة أمة آتى أينع الثمرات، وحقَّق أنفع الآثار في الحياة.

الإيمان بالملائكة:

والإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإسلام، كما جاء في القرآن الكريم، وكما ورد في السنة المطهرة. وإذا كان عالم الشهادة: ما يشهده الحس، ويقال له: العالم المنظور؛ فإنَّ العالم

الآخر: عالم الغيب غير المنظور، وهو ما غاب عن حسنا وشهادتنا؛ ومنه الملائكة.

والملائكة مخلوقات نورانية من جملة عالم الغيب، بثها الله في هذا الكون، وجعل لها وظائف متعددة. منهم من اصطفاه الله تعالى لينزل بالوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو جبريل عليه السلام، ومنهم الموكّل بالقطر والنبات، وهو ميكائيل عليه السلام، ومنهم الموكّل بالصّور، وهو إسرافيل عليه السلام. ومنهم حملة العرش، ومنهم الملك الموكّل بالجبّال، ومنهم الملائكة الموكلة بالأرحام، ومنهم الملائكة المسجّلون للأقوال والأعمال والحسنات والسيئات، ومنهم الحفظة الذين يحفظون العبد ويحرسونه، ومنهم: ملك الموت، الذي يقوم بقبض الأرواح، ومنهم خزنة الجنة، ومنهم خزنة النار؛ عياداً بالله منها، وهم الزبانية، إلى غير هؤلاء من الملائكة.

ولم يعد الإيمان بالملائكة - وبكلّ ما هو غيبيّ - شيئاً يثير التساؤل أو يبعث على الإنكار، فإنّ العلم الحديث يكشف كل يوم شيئاً جديداً، يبرهن على أن هناك عالماً غيبياً لا يُدرّك كنهه، ومنه الملائكة، وليس جهلنا بهم وعدم رؤيتنا لهم دليلاً على عدم وجودهم.

ومما يجب على كل مسلم أن يؤمن به: أنّ لله ملائكة كثيرين لا يعلم عددهم إلا الله، وقد فُطروا على الطاعة والعبادة: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التّحريم: ٦]، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]. ومن أنكر وجودهم فقد كفر بما أنزل على محمد صلّى الله عليه وآله.

كما تطرقنا للحديث عن الجن، مع أنه ليس من الأركان، لا في القرآن، ولا في السنة؛ ولكن باعتبارهم مذكورين في القرآن الكريم، وكل ما هو في القرآن يجب الإيمان به كما ورد.

وهم مخلوقون من نار، خُلِقُوا قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ الْإِنْسَانُ؛ كما نص على ذلك القرآن الكريم، وهم خُلِقَ مُكَلَّفَ، طُلِبَ مِنْهُ مَا طُلِبَ مِنَ الْإِنْسِ، من عبادة الله وحده لا شريك له، وتوحيد في الاعتقاد، وصلاح في السلوك، وشرف في الأخلاق.

وإذا كانت الملائكة هي التي تمثل جانب الخير والفلاح والصلاح، وتتجه إلى عبادة الله، وهداية الإنسان إلى الحق، فإن الشياطين يُمَثِّلُونَ جانب الشرِّ والفساد، ويزيّنون للناس المعاصي والشهوات، ويوقعونهم في الشرور والآثام.

الإيمان بالكتب:

كما أن الإيمان بالكتب التي أنزلها الله على رسله جزء من حقيقة الإيمان، وركن من أركانه، ومنها الصحف التي أنزلها الله على إبراهيم عليه السلام، والتوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، والزبور الذي أنزل على داود عليه السلام، والإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام، ثم القرآن الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم.

ويجب على كل مسلم ومسلمة الإيمان بأن الكتب السماوية هي كلام الحق تبارك وتعالى، ووحيه المُنَزَّل على هؤلاء الرسل المذكورين، كما يجب الإيمان إجمالاً بأن الله أنزل كتباً أخرى على رُسُلٍ آخرين، لا نعرف أسماءها وهي حقٌّ وصدقٌ؛ لأنها من عند الله.

ونؤمن بأن هناك رباطاً وثيقاً يربط هذه الكتب جميعها، هو أن منزلها واحد، هو الله عزَّ وجلَّ. وهدفها واحد، وهو: الدعوة إلى توحيد الله عزَّ وجلَّ، وجمع الناس على عبادته، وعلى العمل الصالح، والإيمان باليوم الآخر.

ولا يُقبل إيمانُ مَنْ آمَنَ ببعضِ هذه الكُتُبِ وكفرَ بجزءٍ منها؛ لأنَّ التفريقَ بين الكتب السماوية هو تفريقٌ بين الرسالات، وبين المرسلين. ونؤمن كذلك بأن الكتب السماوية التي نزلت قبل القرآن، أنزلت لأقوامٍ مخصوصين، ولفترة زمنية محدودة، ولم تنزل بشريعة عامّة خالدة، فلذلك لم يتكفل الله ﷻ بحفظها كما تكفل بحفظ القرآن، فصاعت أصولها، وغيّرت أحكامها.

أما القرآن فهو أعظم هذه الكتب على الإطلاق، كما أنه آخرُ كتابٍ أنزل، على آخر نبيٍّ أرسل. وهو الوثيقة السماوية الوحيدة، التي نؤمن أن نأخذ منها معارفنا، دون أن نخشى تسلل الباطل والوهم والتحريف إليها. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. بهذا التأكيد المكرّر للحفظ. وقال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢].

الإيمان بالرسول:

والرسول هم رجال اصطفاهم الله من البشر، واختصهم بالوحي، وأمرهم بتبليغِهِ؛ فالرسول بشر أرسله الله ﷻ إلى الناس من جنسهم؛ ليكون الناس أقدر على الفهم عنهم، والأنس بهم، والافتداء بسلوكهم. والرسول رَجُل؛ فلم تجرِ سنة الله في خلقه أن يرسل إلى الناس امرأة؛ وهو قول جمهور أهل العلم. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩].

كما أن الرسالة منحة إلهية يختص بها من يشاء من عباده، وليست درجة علمية يمكن الحصول عليها بالاجتهاد أو التعبّد أو التعلّم.. وإنما هي اصطفاء واختيار للرسل من بين سائر الناس.

وَأَخْصُ مَا يُمَيِّزُ الرَّسُولَ عَنْ سَائِرِ الْبَشَرِ: أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ مِنَ اللَّهِ وَجَلَّ،
فَالرَّسُولُ لَا يَصْدُرُ فِيهِمَا يُبَلِّغُهُ إِلَى النَّاسِ عَنْ نَفْسِهِ وَرَأْيِهِ، وَإِنَّمَا يَتَلَقَّى
ذَلِكَ بِوَحْيٍ مِنَ اللَّهِ وَجَلَّ.

وهو مأمور بأن يُبَلِّغَ كُلَّ مَا أَوْحَاهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ، وَلَوْ كَانَ عَتَابًا
لشخصه، شاقًّا ثَقِيلًا عَلَى نَفْسِهِ، وَيَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ أَنْ يَكْتُمَ شَيْئًا مِمَّا أَمَرَهُ
اللَّهُ بِتَبْلِيغِهِ.

وَالرُّسُلُ يَتَّصِفُونَ بِأَرْفَعِ الْكَمَالَاتِ الْإِنْسَانِيَةِ، وَيَتَحَلَّوْنَ بِأَسْمَى
الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ. فَالرَّسَالَةُ لَا يَصْلَحُ لَهَا بَخِيلٌ، وَلَا جَبَانٌ، وَلَا عَاصٍ،
وَلَا خَائِنٌ، وَلَا حَقُودٌ، وَلَا حَسُودٌ، وَإِنَّمَا يَصْلَحُ لَهَا مَنْ اتَّصَفَ بِكَرَمِ
النَّفْسِ وَطَهَارَتِهَا، وَتَحَلَّى بِالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ.

وَلَا يَصِحُّ إِيمَانُ مُؤْمِنٍ، وَلَا يَقْبَلُ فِي جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ، مَا لَمْ يَأْمَنَ
بِكُلِّ نَبِيٍّ أَرْسَلَ. فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ آمَنَ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَلَكِنَّهُ كَذَّبَ رِسْلَهُ أَوْ
وَاحِدًا مِنْهُمْ، مِمَّنْ ثَبَتَتْ رِسَالَتُهُ، فَهُوَ كَاذِبٌ فِي دَعْوَى الْإِيمَانِ.

وَإِنَّمَا كُتِّفَ الْمُؤْمِنُونَ بِالْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ جَمِيعًا مِنْ غَيْرِ تَفْرِيقٍ بَيْنَهُمْ؛
لَأَنَّ الدِّينَ الَّذِي أَرْسَلَ اللَّهُ بِهِ جَمِيعَ الرُّسُلِ وَاحِدٌ فِي أَصُولِهِ، وَهُوَ الْإِيمَانُ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَإِنْ اخْتَلَفَ كُلُّ دِينٍ عَنِ الْآخِرِ فِي
صُورِ الْعِبَادَاتِ وَالتَّشْرِيعَاتِ بِاخْتِلَافِ الْأَقْوَامِ وَاخْتِلَافِ الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ.

وَحَاجَةُ النَّاسِ لِلرُّسُلِ تَتِمَثَّلُ فِي حَاجَةِ الْبَشَرِيَّةِ لِمَنْ يَضَعُ لَهَا
الْمَقَايِيسَ الثَّابِتَةَ وَالْمَنْضِبَةَ؛ لَتَرْجِعَ إِلَيْهَا الْعُقُولُ إِذَا اخْتَلَفَتْ، وَتَعُودَ
إِلَيْهَا الْأَفْهَامُ إِذَا ضَلَّتْ، كَمَا تَدُلُّ الرُّسُلُ النَّاسَ عَلَى طَرِيقِ السَّعَادَةِ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

ومهمة الرسول إجمالاً أن يُبين للإنسان كيف يعبد ربّه؟ وكيف يعرف الطريق إلى مرضاته؟ وكيف يُؤدّي شعائر دينه؟

والعقل البشري وحده لا يستطيع أن يستقلّ بمعرفة ما ينفع وما يضر في كل الحالات، ولا أن يدرك الحَسَن والقبيح في كلّ الأعمال، وكذلك لا يستطيع أن يستقلّ بمعرفة الله معرفة صحيحة كاملة، ولا معرفة الحياة الآخرة وما فيها، فهو في أشدّ الحاجة إلى الرُّسل الذين يعلمونه من جهل، ويبصّرونه من عمى، ويهدونه من ضلالة.

والأنبياء ليسوا آلهة، ولا أنصاف آلهة، وتجري عليهم الأعراض البشريّة، فهم يأكلون ويشربون، وينامون ويمرضون.

وإنما هم سفراء الله تعالى إلى الخلق لهدايتهم إلى الحق، ودعوتهم إلى الخير.

وهداية البشر مُهمّةٌ عظيمة، لا يصلح لها إلا مَنْ توفّرت فيهم صفاتٌ رفيعةٌ من الكمالات الإنسانيّة.

فالرُّسل صادقون في أقوالهم وأعمالهم، لأن الرسالة لا يصلح لها كَذَاب، كما أن الرسول ينبغي أن يكون ذكياً، عميق الفهم، حاضر البديهة، قويّ الحجّة، سديد الرأي، فهو يُربّي أُمَّتَهُ، ويُجادلُ خصومه، ويُقيمُ البراهين على صحّة ما جاء به.

كما نؤمن نحن المسلمين بعصمة الأنبياء من الخطايا والردائل التي تنافي تكليفهم هداية البشر، وتنفرّ الناس منهم، ولا سيما الكبائر!!

ومعنى العصمة: أنهم لا يتركون واجباً، ولا يفعلون مُحَرَّماً، ولا يقتربون ما يتنافى مع الخلق الكريم. وهم معصومون في تبليغ الوحي عن الكذب والنسيان والغفلة، ومعصومون عن الزيادة فيه أو النقصان.

وقد رأينا القرآن يعاتب الرسول ﷺ، في أكثر من موضع؛ ولم يمنعه ذلك أن يتلو على الناس هذه الآيات!

وهم معصومون أيضًا من الوقوع في كبائر الذنوب، وعن الصغائر التي تدل على خساسة الطبع، صيانةً لعلو مكانتهم.

وأما صغائر الذنوب التي لا تدل على خساسة قدر، وضعة منزلة، فمذهب السلف جواز وقوعها من الأنبياء، إلا أن الله لا يُقرهم عليها، بل سرعان ما ينزل الوحي مُصححًا وهاديًا، وقد ذكر الله لنا بعضًا مما وقع من أنبيائه، مما عاتبهم عليه وأرشدهم فيه.

الإيمان باليوم الآخر:

ولا بد للإنسان إذا أراد أن يكون مؤمنًا حقًا أن يؤمن بالآخرة، فلا معنى للدنيا بلا آخرة، ولا معنى لحياة يحياها الإنسان - وإن طالت - إذا كانت نهايتها الموت، ولم تكن وراء هذا الموت حياة أخرى تتم بها معنى الحياة التي نعيشها في هذه الدنيا.

إنها دار سعادة المؤمنين المحضة البعيدة عن الآلام والنكبات، التي أعدّها الله لهم لينعموا بها جزاء جهادهم وصبرهم وثباتهم.

ولا بدّ لنا أن نؤمن بالآخرة التي يحكمها الله تعالى وحده: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

ولا بدّ لكلّ منا أن يهيئ نفسه لحساب عادل، لا تضيع فيه حبة خردل لإنسان، ولا يخاف في هذا اليوم ظلمًا ولا هضمًا، وسيأخذ كل ذي حق حقه بحذافيره ممن ظلمه، ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

والمؤمن يؤمن بالساعة، وينتظر قدومها، ولا يغفل عنها حتى لا تنزل فجأة، فتغلق أبواب التوبة والإنابة، وقد كانت مفتحة للتائبين.

حين يقوم الناس من أجداثهم حفاة عراة غرلاً، فيقال لهم: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكَبْتُمْ مَا Χَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وهناك يلاقون ما يلاقون من طول هذا اليوم، ومن زحامه، ومن حرّ شمسهِ، ومن شدّة عرقهِ، ومن انفراد كل إنسان بهمومه وحسناته وسيئاته، لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً، إنّ وعد الله حق.

هناك تتطير الصحف، وتُنشر الدواوين، وتُنصب الموازين، ويقام الحساب الإلهي، فمن الناس من يُحاسب حساباً يسيراً، ومنهم من يُحاسب حساباً عسيراً، ولا يظلم ربك أحداً.

الإيمان بالقدر:

وقضية القدر من القضايا الكبيرة، التي اختلفت فيها أنظار المسلمين أنفسهم تفاوتاً بعيداً، من إفراط الجبرية، إلى تفريط القدرية، إلى تجاوزات الفرق المختلفة، من المُثبتين والثّقات.

ومما يؤسف له أن الفرق المختلفة في هذه القضية تمسك كلٌ فيها ببعض النصوص المؤيِّدة لوجهة نظره في مقابلة خصمه، وضربوا كتاب الله بعضه ببعض، كما قصر كثير منهم نظره على زاوية من الزوايا، وأغفل الأخرى.

ونحن هنا لم ننتسب إلى فرقة من الفرق، إلا إلى أهل السنة والجماعة، التي كلُّ انتمائها إلى الكتاب والسنة، وقد اجتهدنا في حُسن

الفهم لهما، راّدين المتشابهات إلى المحكمات، جامعين بين النصوص بعضها وبعض، بحيث يصدّق بعضها بعضًا، ويفسّر بعضها بعضًا، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وبهذا كان منهجنا واضحًا، مبنياً على كتاب الله وسنة رسوله، فعليهما تأسّس البناء. ثم أخذنا الحقّ حيث وجدناه، عند أيّ فئة كانت، ورددنا الباطل أنّى وجدناه عند أيّ فرقة، وجمعنا الحق بعضه إلى بعض، وكان همُّنا الفكرة الصحيحة دون العنوان، فالعبرة ليست بالعناوين، بل بالمضامين.

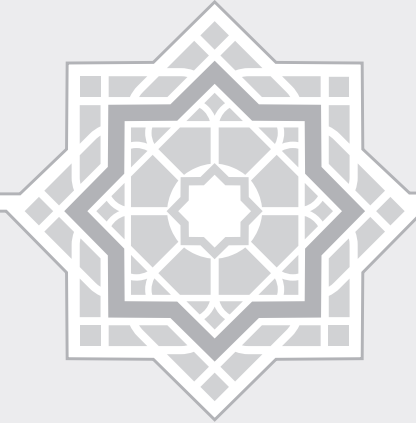
إن عقيدة القدر ينبغي أن تدفع المؤمنين إلى العمل في كلّ الظروف، غير هيّابين ولا وجليّن، مراعين لسُنن الله، آخذين بالأسباب المشروعة، معتقدين أنّ الله تعالى قدّر الأسباب كما قدّر المسبّبات، وأنّ لا وصول إلى المسبّبات والنتائج التي قدّرها الله، إلا بأسبابها. ينطبق ذلك على عمل الآخرة، كما ينطبق على عمل الدنيا، فسُنن الله في الدارين واحدة.

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٣، ١٩٤].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

يوسف القرضاوي

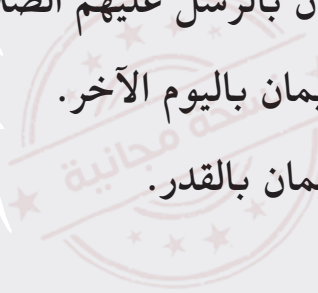
مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ



أركان الإيمان



- الركن الأول: الإيمان بالله.
- الركن الثاني: الإيمان بالملائكة.
- الركن الثالث: الإيمان بالكتب السماوية.
- الركن الرابع: الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام.
- الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر.
- الركن السادس: الإيمان بالقدر.





الركن الأول: الإيمان بالله تعالى

الإيمان بالله أصل العقائد كلها:

إنَّ الإيمان بالله - أي بالذات الغيبية العلوية المختارة القاهرة الجديرة بالطاعة والعبادة - هو رُوح الدين، أيُّ دين، وكذلك هو روح الإسلام، وأصل عقائده كلّها، كما بيّنها كتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ.

فهذا القرآن الكريم حين يتحدث عن أركان الإيمان ومتعلقاته، يجعل الإيمان بالله أولها وأصلها، كما في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقوله: ﴿وَلَكِنَّ الْإِنسَانَ كَفَرَ بِاللّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآلَمَاتِهِ وَآلِ الْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

والرسول الكريم يقول في حديث جبريل المشهور حين سأله عن الإيمان: «الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره»^(١).

(١) رواه مسلم في الإيمان (٨)، عن عمر بن الخطاب.

فالإيمان بالله هو الأصل، وكل أركان العقيدة الأخرى مضافة إليه وتابعة له، فأنت بعد أن تؤمن بالله جل شأنه، تؤمن - بالتالي - بملائكته وكتبه ورسله ولقائه وحسابه وقضائه وقدره. فالإيمان بهذه كلها فرع عن الإيمان بالله، ومبني عليه. ولا يُتَصَوَّر الإيمان بالرسول إلا بعد الإيمان بالمُرْسِل، ولا بالجزاء والحساب إلا بعد الإيمان بالمُجَازِي والمُحَاسِب. والإيمان بالله يتضمّن أمورًا ثلاثة:

- ١ - الإيمان بوجوده ﷻ بالضرورة.
- ٢ - الإيمان بوحدانيته في ربوبيته وألوهيته.
- ٣ - الإيمان بأسمائه الحسنی وصفاته العليا التي يتجلّى فيها اتصافه بكل كمال يليق به، وتنزُّهه عن كل نقص.

* * *



وجود الله

وجود الله فوق الجدل والشبهات:

إنَّ وجود الله تعالى هو أول الحقائق وأكبرها وأظهرها، دلت على ذلك الفطر والعقول والبصائر، وهدى إليه العلم والوحي والتاريخ.

والذين جادلوا في وجود الله قلة مغمورة في كل عصر، ومعظمهم ممَّن جرفتهم الشهوات، وغلبتهم الغرائز الدنيا، فبرَّروا هبوطهم وانحرافهم بالإلحاد، وإنكار وجود الخالق الأعلى، حتى لا يحاسبهم أحد، ولا يحاسبوا أنفسهم على السقوط والانغماس في المملذات البهيمية.

ولا غرو أن قال بعض المفكرين في إلحاد هذا النوع من الناس: إنه إلحاد بطن وفرج، لا إلحاد عقل وفكر. يعني أنهم يَنحَلُّون أولاً، ثم يُلحدون ثانياً، وبتعبير علماء النفس: إنَّ الإلحاد والإنكار عندهم ضرب من الحيل اللاشعورية، لجؤوا إليه لتبرير انحرافهم، والدفاع عن سقوطهم وسوء سلوكهم، وتغطية ضعفهم أمام الشهوات والمملذات.

ومن هنا لم يكن همُّ الأنبياء منصرفاً إلى إثبات وجود الله سبحانه، فقد كان هذا أمراً مفروغاً منه، ومسلاً به لدى أقوامهم. إنما كان أكبر همِّهم تنقية الإيمان بالله ممَّا شابَهُ من أدران الوثنية ونجاسة الشرك الذي أفسد عقول البشر، وجعلهم عبيداً لبعض الأشياء التي سخرها الله لهم، وجعلهم سادةً عليها. كان أكبر همِّهم الدعوة إلى التوحيد.

كان أول ما يدعو إليه الرسول، وأبرز ما ينادي به قومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣]، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾

[النحل: ٣٦].

ولما بُعث محمد ﷺ وجد قومه - كما وجد سائر الأمم - يعبدون مع الله آلهة أخرى، من مخلوقات الأرض وكواكب السماء، ولكنهم لم يجحدوا وجود الله، ولا جادلوا فيه، وهذا ما قرّره القرآن بأجلى بيان: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

وإذا كان هناك فئة قليلة من الدهريين الملحدين، فإن القرآن لم يُقم لهم وزناً، ولم يعتدّ بوجودهم؛ لأنهم يتحدّون الفطرة والبداهة والحسّ. ووجه خطابه أكثر ما وجهه إلى الذين أشركوا، ولهذا كان أول ركن في رسالة الإسلام: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]. وكانت دعوة الرسول ﷺ إلى ملوك الأرض وأباطرتها تتمثل في هذه الآية: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

سبب الإلحاد في أوروبا:

ولكن ظروفًا خاصة مرّت بأوروبا المسيحية في القرن التاسع عشر الميلادي وما قبله، جعلت كثيرًا من المُتَنَوِّرِينَ من أهلها يكفرون بالدين، ويجحدون الله أو يشكّون فيه، والواقع أنهم لم يكفروا بالدين الحق، ولا بالإله الحق، وإنما كفروا بإله الكنيسة الغربية ودينها.

ولقد وقفت الكنيسة في أوروبا تؤيّد الظلام وتحارب النور، وتؤيّد الجهل وتحارب العلم، تؤيّد الإقطاع وتحارب العدل، وتؤيّد الملوك وتحارب الشعوب، تؤيّد الخرافة وتحارب الفكر.. إلخ. فلما اندلعت الثورات الداعية إلى الحرية والمساواة، كان نداء رجالها: (اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس).



لقد حكمت الكنيسة يومئذ بإعدام الألوف من العلماء والمفكرين، وتخريق أجسادهم بالمسامير، بل حakمت جثثهم بعد موتهم. فعلت الكنيسة ذلك كله باسم الدين، وباسم الله، وباسم المسيح. فلما رأى ذلك أحرار الفكر، وعشاق العلم، كفروا بإله تمثله هذه الكنيسة ورجالها، وآمنوا بما عندهم من العلم.

وأعظم ما زهد الناس في الدين: فساد دعائهم، وانحراف منتحليه، خصوصًا في دين يحجر على الناس أن يعرفوا الله، أو يتصلوا به، أو يطرقوا بابه، إلا عن طريق طبقة كهنوتية خاصة تسمى (رجال الدين)، ومن هنا قامت في أوربا مذاهب تقوم فلسفتها على الحس والمادة، وتنكر ما وراء ذلك من (الغيبات)، فلا إله ولا وحي، ولا ملائكة ولا آخرة، ولا جنة ولا نار.

وبلغ الجحود والإلحاد قمته في المذهب (الماركسي)، الذي تبني شعار (الدين أفيون الشعوب)، وأنه - أي الدين - ليس إلا حيلة اخترعها الأغنياء والأقوياء، ليُلْهوا بها الضعفاء والفقراء، ويُمْنُوهم بنعيم الآخرة، لينفردوا هم بنعيم الدنيا. وإن الله لم يخلق الإنسان، بل الإنسان هو الذي خلق الله^(١).

رذاذ من الإلحاد يصيب الشرق:

ولمّا أخذ الغزو الفكري يزحف على ديار العرب والإسلام، انتقل رذاذ من موجة الإلحاد الغربي إلى العالم الإسلامي، فوجد من أبناء المسلمين من يرتاب في وجود الله أو يجادل فيه^(٢).

(١) هي الفكرة التي قام عليها كتاب: أصل الدين لفيورباخ، ترجمة د. أحمد عبد الحليم عطية، نشر المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

(٢) بدأ الإلحاد أولاً بين النصارى من أمثال شبلي شميل في لبنان، وسلامة موسى في مصر، ثم انتقلت العدوى إلى بعض المسلمين.

بعضهم من أولئك الذين تخرّجوا في جامعات الغرب، وعلى أساتذته، وبعضهم من الذين تأثروا - أخيراً - بالدعاية الماركسية والشيوعية، وكلا الفريقين طبّق على الدين هنا ما ذكره الغربيون عن الدين هناك، مع الفرق الواضح بين الإسلام في الشرق، والمسيحية في الغرب.

هؤلاء يزعمون أنّهم مُجدّدون وهم في الواقع مقلّدون، يفكرون برؤوس الغربيين، ويُردّدون أفكار فريق منهم عَفَى عليه الزمن، ومضى عليه قرن أو قرنان، ومع هذا يدّعون أنّهم علميُّون وتقدميون، وهم كما وصفهم القرآن: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨].

* * *



دلائل وجود الله

ومن باب التنزل مع هؤلاء المرتابين والمجادلين، اضطر الذين يكتبون في عقيدة الإسلام أن يبدؤوا بإقامة البراهين على وجود الله سبحانه، ليرتكز الإيمان على أساس عقلي متين، مع أن الأمر أبسط وأوضح من أن يحتاج إلى برهان، أو كما قال الشاعر:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل^(١)
فما البراهين والأدلة التي يقدمها المؤمنون لإثبات وجود الله وعجل
لدى الشاكين والملحدين؟

أولاً: دلالة الفطرة:

إنَّ أول دليل على وجود الله جلَّ جلاله ليس شيئاً خارجاً عن كيان الإنسان، إنه الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

إنه ذلك الشعور الطبيعي البصير الغامر بأن فوق الكائنات المحدودة المتناهية كائناً غير محدودٍ ولا متناهٍ، يهيمن على كل شيء، ويُدبّر كل أمر، يُرَجى ويُخشى، ويُعظّم ويُقصد. شعور ينبع من أعماق الإنسان، ويُستمد من كيانه كله، لا من عقله وحده، ولا من وجدانه بمفرده، شعور يجده الإنسان في نفسه بغير تعلّم ولا تلقين ولا اكتساب.

يُعبّر الفيلسوف الشهير (ديكارت) عن هذا الشعور الفطري فيقول: «إنني مع شعوري بنقص في ذاتي، أحس في الوقت نفسه بوجود ذات كاملة، وأراني مضطراً إلى اعتقادي بأن هذا الشعور قد

(١) البيت للمتنبي، كما في ديوانه ص ٣٤٣، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

غرسه في ذاتي تلك الذات الكاملة المتحلّية بجميع صفات الكمال، وهي الله»^(١).

وكلما كان الإنسان أسلم فطرة وأزكى نفساً؛ رقّ حجابُه، وتفتحت عينُ بصيرته، وارتفع عن جاذبية الطين، وحلّق في أجواء الروح، وحينئذ يشعر بأن وجود الله يملأ عليه أقطار نفسه، ويغمر كيانه كله، فيحس بأنه غير محتاج إلى دليل على وجود ربه سبحانه خارج عن ذاته وكيانه هو، بل يشعر أن وجود الله أظهر من كل شيء، بل هو دليل كل شيء، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

مرّ الفخر الرازي ببعض شيوخ الصوفية، فقليل للشيخ: هذا يقيم على الصانع - الله - ألف دليل، فلو قمت عليه. فقال: وعزّته، لو عرفه ما استدل عليه^(٢)!

وهذا جواب مَنْ وضح الأمر في نفسه، بحيث لا يحتاج إلى إقامة برهان.

وقيل لذي النون المصري: بم عرفت ربك؟ قال: عرفتُ ربي بربي، ولولا ربي لما عرفتُ ربي^(٣)!

ويقول ابن عطاء الله السكندري في هذا المعنى: «إلهي؛ كيف يُستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس

(١) نقلاً عن: الله في العقيدة الإسلامية للشهيد حسن البنا ص ٢٠، نشر دار العلوم للطباعة، وراجع: تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى لديكارت، ترجمة د. كمال الحاج، منشورات عويدات، بيروت وباريس، ط ٤، ١٩٨٨م.

(٢) نفح الطيب (٢٦٣/٥)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت.

(٣) الرسالة القشيرية (٤٨١/٢)، تحقيق د. عبد الحليم محمود ود. محمود بن الشريف، نشر دار المعارف، القاهرة.

لك، حتى يكون هو المُظهر لك، متى غَبَتْ حتى تحتاج إلى دليل يدلُّ عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي تُوصِّل إليك؟!»^(١).

هذا ما نقصده بالفطرة: إن الإنسان - سواء أكان جاهلاً أم عالمًا - لو جرّد نفسه من آثار الوراثة المختلفة، ومحا من ذهنه كل ما يربطه بالمكان الذي يعيش فيه، والمذهب الذي ينتمي إليه، ثم تفكّر بعد ذلك في الكون وفي نفسه، لاندفع بفطرته وطبيعته اندفاعًا اضطراريًا، ليجد نفسه ساجدًا خاشعًا أمام ربه العلي العظيم، الرحمن الرحيم^(٢).

إن الذي علّم الإنسان أن $(١ + ١ = ٢)$ بدون برهان ولا مقدمات منطقية هو الذي علّمه أن له إلهًا لا يستغني عنه، بدون حاجة إلى استدلال، ولا انتقال من معلوم إلى مجهول، ومن مقدماتٍ إلى نتائج.

هذا الشعور الفطري قد يختفي في ساعات العافية والرخاء والغنى، الذي يُطغّي الإنسان، ويحجبه أحيانًا عن رؤية نفسه على حقيقتها، فإذا نزل بالإنسان شدائد القاهرة، ذاب الطلاء الكاذب الذي غشى الفطرة الأصلية، ورجع الإنسان إلى ربه ضارعًا داعيًا مُنبئًا إليه.

(١) حكم ابن عطاء الله السكندري بشرح الشيخ زروق ص ٥٠٦، تحقيق د. عبد الحليم محمود ود. محمود بن الشريف، نشر دار الشعب، القاهرة.

(٢) لعل هذه الفطرة العاقلة - أو العقل الفطري - هي ما يطلق عليه الأستاذ العقاد: (الوعي)، وفي رأيه أن مسألة وجود الله (وعي) قبل كل شيء؛ فالإنسان له (وعي) يقيني بوجوده الخاص، وحقيقته الذاتية، ولا يخلو من (وعي) يقيني بالوجود الأعظم والحقيقة الكونية؛ لأنه متصل بهذا الوجود، بل قائم عليه، والوعي والعقل لا يتناقضان، وإن كان الوعي أعم من العقل في إدراكه؛ لأنه مستمد من كيان الإنسان كله أو من ظاهره وباطنه، وما يعيه وما لا يعيه، ولكنه يقوم به قيامًا مجملًا محتاجًا إلى التفصيل والتفسير. الله للعقاد (٢٢٩/١) وما بعدها، ضمن موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٧٠م.

سأل رجل الإمام جعفر الصادق عن (الله)؟ فقال له: ألم تركب البحر؟ قال: بلى. قال: فهل حدث لك مرة أن هاجت بكم الريح عاصفة؟ قال: نعم. قال: وانقطع أملك من الملاحين ووسائل النجاة؟ قال: نعم. قال: فهل خطر ببالك وانقذح في نفسك أن هناك من يستطيع أن ينجيك إن شاء؟ قال: نعم. قال جعفر: فذلك هو (الله) ^(١).

وإلى هذه الحقيقة يشير القرآن الكريم إذ يقول: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْأَبْرِ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكُمْ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

والقرآن الكريم يُصوِّر أصالة هذه الفكرة وشمولها لكل أفراد النوع الإنساني تصويرًا بليغًا، يأخذ بمجامع القلوب، ويسوقها إلى ربها سَوْقًا حثيثًا، ويعرض ذلك في صورة ميثاق قديم بين الإنسانية وبين ربها على أن تؤمن به وتعبدته وتوَحَّده، فلنسمع إليه يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَنُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

اشترك الأمم في أصل الإيمان:

ولما كان هذا الشعور أمرًا فطريًا كما تبين لنا، وجدنا أصل الإيمان قدرًا مشتركًا بين جميع الأمم، وفي مختلف الأقاليم، وفي شتى عصور التاريخ، وإن كان الكثيرون قد انحرفوا عن الإيمان الصحيح، وخلطوه بأوهام وأباطيل، كدَّرت نقاءه، وأفسدت جوهره.

(١) تفسير الرازي (٣٣٣/٢)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ.

يقول الفيلسوف المعروف (هنري برجسون): لقد وُجِدَتْ وتُوجد جماعة إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنه لم تُوجد قط جماعات بدون ديانة^(١).

ويقول المؤرخ الإغريقي القديم (بلوتارك): لقد وُجِدَتْ في التاريخ مدن بلا حصون، ومدن بلا مدارس، ومدن بلا قصور، ولكن لم توجد مدن بلا معابد^(٢).

والدارسون لتاريخ الأديان يؤكّدون أن الإنسان لن يستطيع مهما بلغ من العلم والتمدن أن يستغني عن الإيمان والدين.

يقول الفيلسوف (رينان) في كتابه (تاريخ الأديان): «من الممكن أن يضمحلّ كل شيء نحْبُه، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحي التدبُّن. بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي، الذي يريد أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة في الحياة الأرضية»^(٣).

ثانيًا: دلالة الكون:

كما أن الفطرة البشرية السليمة إذا تُركت ونفسها بدون مؤثر، اهتدت إلى وجود الله سبحانه، فإن العقل السليم بأدنى تأمل وتفكر مُجرّد عن

(١) الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان د. محمد عبد الله دراز ص ٨٣، نشر دار القلم، الكويت، ط ٢، ١٣٩٠ - ١٩٧٠م.

(٢) انظر: الله والإنسان ص ١١٦، نشر دار الجمهورية، القاهرة، سلسلة كتب للجميع، العدد (١١٣).

(٣) الإسلام دين عام خالد لمحمد فريد وجدي ص ١١، نشر مطبعة دائرة معارف القرن العشرين، ط ١، ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.

الهوى والتقليد والعصبية؛ ينتهي حتمًا إلى نتيجة ناصعة هي: وجود الله وَعَلَى.

ومجال التفكير والتأمل للعقل هو هذا الكون الكبير بسماءاته وأرضه، بإنسانه وحيوانه، ونباته وجماده، بكل ما فيه من الذرة إلى المجرة، من الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة.

والم تأمل في هذا الكون - بما فيه الإنسان - يجد فيه أربعة أدلة رئيسية تهديه إلى ربه الأعلى، هذه الأدلة هي: الخلق، والتسوية، والتقدير، والهداية.

عناية القرآن بالكون:

إن كل شيء في هذا الكون الكبير إذا تأمله الناس حق التأمل، يأخذ بيدهم إلى الله، ويدلُّهم على وجوده، بل على وحدانيته وتفرُّده بالملك والتدبير، كما يدلُّهم على أسمائه الحُسنى وصفاته العليا.

الإنسان نفسه آية فريدة، دالة على الله، فهو وحده عالم خاص، اجتمع له من حسن الصورة، ومن قوى الإدراك والشعور والبصيرة؛ ما لم يحظ به غيره.

ولهذا يوجِّه القرآن الإنسان إلى النظر والتفكير في نفسه، وفيما يحيط به من عوالم، موقنًا أن هذا النظر والتفكير جدير بأن يهديه إلى الحق، ويسوقه إلى الخير، بما يرى ويلمس من آيات الله في الأنفس والآفاق.

يقول تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۖ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۚ﴾

[الذاريات: ٢٠، ٢١].

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾
[الأعراف: ١٨٥].

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم: ٨].

﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي
فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ *
وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى
لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦ - ٨].

ويعرض القرآن كثيراً من مظاهر الكون في الأرض أو في السماء، ثم
يُعقِّب على ذلك بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]، أو: ﴿لِقَوْمٍ
يَذْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٣]

وينكر القرآن على الكافرين أنهم قد أوصدوا عقولهم ومشاعرهم،
فلا ينتفعون بآيات الله، ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ
عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، وكثيراً ما يختتم الآيات بمثل هذه
الفواصل: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦]،
﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧]

ومما ذكرنا نعرف: لماذا يُقسم القرآن كثيرًا ببعض خلائق هذا الكون ومظاهره. إنه يريد أن ينبّه عليها القلوب الغافلة، ويُلَفِّت إليها العقول المُعْرِضَة. ولهذا أقسم بالليل والنهار، والفجر والضُّحى، والشمس والقمر، والنجم والبحر، والسماء والأرض، والشفع والوتر، وما نُبصر وما لا نُبصر.

الأدلة الكونية الأربعة:

والمتمائل في هذا الكون - بما فيه الإنسان - يجد فيه أربعة أدلة رئيسية تهديه إلى ربّه الأعلى، هذه الأدلة هي: الخلق، والتَّسْوِية، والتقدير، والهداية.

١ - دليل الخلق:

المراد بالخلق هو الإيجاد والإحداث، أي إبراز الشيء من العدم إلى الوجود؛ وذلك مثل: خَلَقَ الحياة في الكائنات الحيّة على ظهر الأرض التي بَثَّ فيها من كل دابّة، وأنبت فيها من كل زوج بهيج.

ومثل خَلَقَ الإنسان العاقل الذي لم يكن شيئًا مذكورًا، ثم كان، وهو ما نبّه عليه القرآن في أول سورة أنزلت على رسول الله: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١، ٢].

ومثل خَلَقَ السماوات والأرض، وهو أكبر من خَلَقَ الناس، وقد دلّنا علم الفلك الحديث على عِظَمِ الأجرام العلوية، وسعة المسافات بينها، حتى إنها لَتُقَاسَ بملايين السنين الضوئية.

تُرى، مَنْ خالق الحياة على هذه الأرض؟ وَمَنْ خالق هذا الإنسان العاقل المفكر؟ وَمَنْ خالق هذا الكون كله بأرضه وسمائه؟ هل وُجِدَت



الحياة، ووُجد الإنسان، ووُجدت المخلوقات العلوية والسفلية وحدها بلا مُوجدٍ؟ أم لا بدّ لها من خالق أوجدها؟ ومن هو؟

ماذا يقول الملحدون في ظهور الحياة لأول مرة على هذا الكوكب؟

إن ظهور الحياة المادة الصمّاء، وضع الماديين أمام مشكلة لم يجدوا لها حلًّا ولا تفسيرًا إلا على نحو ما قال الشاعر:

وبات يقدح طول الليل فكرته وفسّر الماء بعد الجهد بالماء^(١)

من ذلك ما قاله بعضهم: إن الحياة انتقلت إلى الأرض من العالم العلوي عن طريق نيزك من النيازك الهائمة في الفضاء. ولكن السؤال يبقى: ومن خلّق الحياة هناك في عالم الأفلاك، أو في أيّ كوكب من الكواكب الأخرى؟

وقال بعضهم: إن المادة فيها طبيعة الحياة، بعد تركيب وتناسق خاص. ولكن السؤال يبقى أيضًا: ومن ركبها ونسّقها وهي مادة عمياء صمّاء؟

«ولا يسع العقل في أمر ظهور الحياة إلا أن يأخذ بأحد قولين: فإما أنها خاصة من خواص المادة ملازمة لها، فلا حاجة بها إلى خالق مريد. وإما أنها من صنع خالق مريد يعلم ما أراد.

فإذا كان العالم كله مادة ولا شيء غير المادة، لزم من ذلك أن المادة أزليّة أبدية، لا أول لها ولا آخر، وأنها موجودة منذ الأزل بكامل قواها،

(١) البيت لعلي بن يحيى المعروف بابن الذروي، كما في فوات الوفيات (١١٦/٣)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت، ط١.

وجملة خصائصها، وأن خصائصها ملازمة لها حيث كانت، بدون تفرقة بين المادة في هذا الكون من الفضاء، والمادة في غير هذا المكان.

ولا معنى - إذن - لظهور الحياة في كوكب دون كوكب، وفي زمان دون زمان، ولا معنى لأن تظل خصائص الحياة بلا عمل ملايين من السنين، بل فوق ملايين الملايين من حساب السنين، ثم تظهر بعد ذلك في زمان يُحسب تاريخه بالآلاف، ولا يقاس إلى الأزل الذي لا يدخل في حساب... فلماذا تأجلت خصائص الحياة كل هذا الزمان الذي لا يدخل في حصر ولا إحصاء؟ ولماذا اختلف التوزيع والتركيب في أجزاء الفضاء وآماد الزمان؟ ولماذا جاءت هذه الحياة مصادفة، ثم دامت هذه المصادفة، بكل ما يلزم لها من تدبير، وليس للمادة الصماء من تدبير؟

على العقل أن يُبدي أسبابه لترجيح القول بهذه الفروض على القول بظهور الحياة من صنع خالق مريد، ولا نعرف أسباباً لترجيح الفرض العسير على الفرض اليسير.

والفرض اليسير هو الفرض الآخر، وهو أن الحياة ظهرت من صنع خالق مريد^(١).

إنّ هذا الفرض اليسير هو الذي يحل لغز ظهور الحياة من المادة الصماء، أو بعبارة أخرى: خروج الحي من الميت، ويحل لغز الوجود كله، حين يستجيب المرء إلى صوت البداهة والعقل، ويرد الخلق والأمر كله إلى الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَآلَنَ تَوْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

(١) الله للعقاد (١/٢٥٧، ٢٥٨).

﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

هذا الدليل يسمّى دليل (الخلق)، أو دليل (الإبداع)، أو (الاختراع). وقد يوجد في صورة أخرى فيسمى دليل (الحركة)، سواء أكانت الحركة بمعنى الانتقال من مكان إلى مكان، أم الانتقال من حال إلى حال، أو الحركة بمعنى الانتقال من حيّز الإمكان إلى حيّز الوجود.

وفحوى هذا الدليل: أن كل متحرك لا بد له من مُحَرِّك، وأن هذا المُحَرِّك لا بد أن يستمد الحركة من غيره. وهكذا إلى أن يقف العقل عند مُحَرِّك أزلّي قائم بذاته، غير محتاج إلى غيره، وإلا لزم الدّور أو التسلسل إلى ما لا نهاية، وكلاهما باطل، وذلك المُحَرِّك هو الله.

وقد عرضه المتكلمون في صورة ثالثة وسمّوه دليل (الحدوث). قالوا: العالم متغيّر، وكل متغيّر حادث، وكل حادث لا بد له من مُحْدِث، ولا بدّ أن يقف العقل عند مُحْدِث غير حادث، وإلا لزم الدّور أو التسلسل المُحَالان. وذلك المُحْدِث هو الله.

وقد استدللّ على حدوث الأجسام بالتغيّر سيّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، كما في قوله عن الكوكب: ﴿لَا أُحِبُّ الْأَفْلِقَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، وقوله عن القمر: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧]، وقوله تعالى عن الشمس: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]. والأفول: الغياب، والغياب وحده لا يدلّ على عدم الإلهيّة؛ لأنّ ربّ إبراهيم عليه السلام غائب عنه، فثبت أنه استدللّ بغيابه بعد حضوره، وهو التغيّر الذي نريد.

والعلم الحديث يقر بحدوث العالم، ويُرجع حدوثه إلى ملايين
يقدرها من السنين.

وعرضه الفلاسفة الإسلاميون - كالفارابي وابن سينا - في أسلوب
آخر وسمّوه (دليل الإمكان).

وفحوى هذا الدليل: أن الموجودات - حسب القسمة العقلية - إما أن
تكون واجبة الوجود جميعًا - وواجب الوجود هو الذي لا يتصور العقل
عدمه، لاستلزام المحال - وإما أن تكون ممكنة الوجود على معنى أنها
يمكن أن توجد، ويمكن ألا توجد، فليس هناك علة لذاتها تقتضي
وجودها أو عدمه، وإما أن يكون بعضها واجبًا وبعضها ممكنًا.

ومحال أن تكون كلها واجبة الوجود؛ لأنها بين متحركة تحتاج إلى
مُحرِّك، وبين مرَّكبة تحتاج إلى علة لتركيبها، ولا بدّ أن تسبقها أجزاءها.
ومحال أن تكون كلها ممكنة الوجود؛ لأنّ الممكن يحتاج إلى علة
تخرجه من حيِّز الإمكان إلى حيِّز الفعل.

بقي الفرض الثالث: وهو أن يكون بعضها ممكن الوجود، وهو هذا
العالم، وبعضها واجب الوجود، وهو الله، وهو السبب الأول لوجود هذا
العالم. ومن المحال أن يكون مسبوقًا؛ لأن الذي يسبقه يكون أولى
بالوجوب.

٢ - دليل التسوية:

وإذا كان الخلق يدل على الله، فالتسوية أدلُّ عليه، والتسوية أخصُّ
من الخلق؛ إذ من الممكن أن يُخلق الشيء غير مُسَوَّى.

فمعنى تسوية الشيء: إحسان خلقه، وإكمال صنعته، بحيث يكون

مُهَيَّئًا لأداء وظيفته، وبلوغ كماله المُقَدَّر لنوعه، وإمداده بما به صلاحه وبقاؤه، وجعله مستويًا معتدلًا، متناسب الأجزاء، بحيث لا يحصل بينها تفاوت يخلُ بالمقصود منها.

والقرآن يُعبّر عن هذه التَّسوية بعبارات مختلفة الألفاظ، متقاربة الدلالة على المقصود، مثل الإحسان في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]. والإيتقان في قوله: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، وإعطاء كل شيء خَلَقَهُ في قوله تعالى على لسان موسى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، ومعنى إعطائه خَلَقَهُ: إعطاؤه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خُلِقَ له.

كما عبّر عن هذه التسوية بنفي التفاوت في خلق الله في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ﴾ [المك: ٣].

وهذه التسوية ظاهرة في الكائنات كلها على وجه العموم، وفي الكائنات الحية على وجه الخصوص، وفي الإنسان على وجه أخص.

أ - تسوية الأرض:

فالأرض - مثلاً - قد سوّاها صانعها، بحيث تصلح مهادًا ومستقرًا لنوع الإنسان، فلهذا مدّها وبسطها، وجعلها ذلولًا، وألقى فيها رواسي كالأوتاد لها حتى لا تميد، وبارك فيها وقَدَّرَ فيها أقواتها، فلو كانت قشرة الأرض كلها صخرية، أو كلها يابسة، أو كلها محيطات، ما صلحت للإنبات وإخراج الثمرات.

ولو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام لامتصّت ثاني أكسيد الكربون والأوكسجين، ولمّا أمكن وجود حياة للنبات.

ب - تسوية الكائنات الحية:

وكل ما على الأرض من كائنات حية، قد سُويّت خلقته، وأُحكمت صنعته، بحيث يؤدي وظيفته في يسر وسهولة.

فالجمل - مثلاً - قد أُعطي الصورة الخَلْقِيَّة التي تلائم عيشته وأسفاره الطويلة في الصحراء، فلهذا خُلق برقبة طويلة، تُعلي رأسه، وتُنأي بعينه عن غبار الرمال، كما مُنِح شَفَة مشقوقة يستطيع أن يتناول بها أشواك البوادي دون أن تؤذيه، وأُعطي سَنَامًا يخزن فيه الدهن إن أعوزه الطعام يومًا في الصحاري القاحلة، ولم تنته رجله بحافر يغوص في الرمال كحواضر الخيل والبغال والحمير، بل انتهت بخف يقدر به على اجتياز الرمال دون أن يسوخ فيها، ولهذا سَمَّوه (سفينة الصحراء). وهكذا نجد أثر التَّسْوِيَةِ في كل الأحياء. فكل حي أُعطي الوسائل التي يحصل بها على غذائه الملائم، وأُعطي من الأجهزة ما يهضم به هذا الطعام.

فالحوانات المفترسة أُعطيت من الأنياب والمخالب ما تتمكن به من الافتراس، كما كُوِّن جهازها الهضمي بحيث يهضم اللحم النيئ.

والأنعام التي تأكل العُشب أُعطيت كرشًا كبيرًا يُعد بمثابة (مخزن) لما تلتهمه بسرعة، إلى أن تجترّ وتعيد مضغه مرة أخرى.

والطيور أُعطيت مناقير تساعد على التقاط غذائها، واتَّخذ المنقار صورة من الطول أو القصّر أو الاستدارة أو غيرها، ممّا يناسب نوع الغذاء الذي يلائمه.

كما زُوِّدَت الكائنات الحيّة جميعها بأسلحة مناسبة تدافع بها عن نفسها في صراع البقاء بينها وبين غيرها، فالناب سلاح، والمِخْلَب

سلاح، والقرن سلاح، والسُّم سلاح، والمنقار المُدبَّب سلاح، والزعانف الحادَّة سلاح، وسرعة العدُو سلاح، والقدرة على الطيران سلاح، والقدرة على الاختفاء سلاح، ولولا هذه الأسلحة التي زُوِّدَت بها تلك الأحياء، لأفنى قُوَّتها ضعيفها، وأبادَ كبيرها صغيرها.

ج - تسوية الإنسان:

وحين ندع الطبيعة وندع الحيوانات وما سُويَّت له، ونرتقي إلى الإنسان، نجد مظاهر التَّسوية وأماراتها أوضح وأعظم، فقد خُلِقَ الإنسان في أحسن تقويم. إن الإنسان قد خُلِقَ لمهمة جليلة، وهي السيادة على الأرض والخلافة فيها، ولهذا أُعْطِيَ من الخصائص والمميزات، والأجهزة الماديَّة والروحيَّة، ما يُعينه على أداء وظيفته، ويُيسِّر له سبيل مهمَّته.

ولو نظرنا إلى التكوين البدني للإنسان لرأينا العجب العجاب من عظمة التسوية، ودقة التصميم، وتناسق الأجهزة المختلفة التي لا يُعدُّ شيئاً بجانبها تصميم أي جهاز يخترعه إنسان منا، فتُدْهش له العقول، وتنطلق بمدحه الألسنة والأقلام.

الجهاز العضلي، والجهاز العظمي، والجهاز الهضمي، والجهاز الدموي، والجهاز التنفسي، والجهاز التناسلي، والجهاز اللِّمفاوي، والجهاز العصبي، والجهاز البولي، وأجهزة الذَّوق والشم والسمع والبصر، كلُّ منها آية من الآيات تسجد لها العقول، وتخضع لها القلوب.

يد الإنسان:

«تقول مجلة العلوم الإنجليزية: إنَّ يد الإنسان في مقدمة العجائب الطبيعيَّة الفدَّة، وإنه من الصعب جدًّا - بل من المستحيل - أن تُبتكر آلة

تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف. فحينما تريد قراءة كتاب تتناوله بيدك، ثم تثبته في الوضع الملائم للقراءة، وهذه اليد هي التي تُصَحِّح وضعه تلقائيًا. وحينما تُقَلِّب إحدى صفحاته تضع أصبعك تحت الورقة، وتضغط عليها بالدرجة التي تقلبها بها، ثم يزول الضغط بقلب الورقة، واليد التي تمسك القلم وتكتب به، وتستعمل كافة الآلات التي تلزم الإنسان من ملعقة، إلى سكين، إلى آلة الكتابة، وتفتح النوافذ وتغلقها، وتحمل كل ما يريده الإنسان. واليدان تشتملان على سبع وعشرين عظمة، وتسع عشرة مجموعة من العضلات لكل منها»^(١).

الأذن الوسطى:

«إن جزءًا من أذن الإنسان - الأذن الوسطى - هو سلسلة من نحو أربعة آلاف حنيّة (قوس) دقيقة معقّدة، متدرّجة بنظام بالغ، في الحجم والشكل، ويمكن القول بأن هذه الحنيّات تشبه آلة موسيقية. ويبدو أنها مُعدّة بحيث تلتقط وتنقل إلى المخ بشكل ما كل وقع صوت أو ضجّة من قصف الرعد إلى حفيف الشجر، فضلًا عن المزيج الرائع من أنغام كل أداة موسيقية في الأوركسترا ووحدتها المنسجمة»^(٢).

حاسة الإبصار في العين:

«ومركز حاسة الإبصار في العين التي تحتوي على مئة وثلاثين مليونًا من مستقبلات الضوء وهي أطراف الأعصاب، ويقوم بحمايتها

(١) في ظلال القرآن (٣٨٤٨/٦)، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٣٤، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

(٢) العلم يدعو للإيمان أ. كريسي موريسون ص ١٢١، ترجمة محمود صالح الفلكي، نشر مكتبة

النهضة المصرية، القاهرة، ط ٧، ١٩٧٨م.



الجفن ذو الأهداب الذي يقيها ليلاً ونهاراً، والذي تعتبر حركته لا إرادية، الذي يمنع عنها الأتربة والذرات والأجسام الغريبة، كما يكسر من حدة الشمس بما تلقي الأهداب على العين من ظلال. وحركة الجفن علاوة على هذه الوقاية تمنع جفاف العين، أما السائل المحيط بالعين والذي يُعرف باسم الدموع فهو أقوى مُطَهِّرٌ^(١).

اللسان جهاز الذوق:

«وجهاز الذوق في الإنسان هو اللسان، ويرجع عمله إلى مجموعات من الخلايا الذوقية القائمة في حلقات غشائه المخاطي. ولتلك الحلقات أشكال مختلفة، فمنها الخيطية والفطرية والعدسية، ويغذي الحلقات فروع من العصب اللساني البلعومي والعصب الذوقي، وتتأثر عند الأكل الأعصاب الذوقية، فينتقل الأثر إلى المخ. وهذا الجهاز موجود في أول الفم، حتى يمكن للإنسان أن يلفظ ما يحس أنه ضارٌّ به، وبه يُحسُّ المرء المرارة والحلاوة والبرودة والسخونة والحامض والمالح، واللّاذع ونحوه. ويحتوي اللسان على تسعة آلاف من نتوءات الذوق الدقيقة، يتصل كل نتوء منها بالمخ بأكثر من عصب. فكم عدد الأعصاب؟ وما حجمها؟ وكيف تعمل منفردة، وتتجمع بالإحساس عند المخ؟»^(٢).

الجهاز العصبي:

«ويتكوّن الجهاز العصبي - الذي يسيطر على الجسم سيطرة تامة - من شعيرات دقيقة تمر في كافة أنحاء الجسم.. وتتصل بغيرها أكبر منها، وهذه بالجهاز المركزي العصبي، فإذا ما تأثر جزء من أجزاء الجسم، ولو

(١) الله والعلم الحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل ص ٥١، نشر دار الشروق، القاهرة.

(٢) في ظلال القرآن (٣٨٤٩/٦).

كان ذلك لتغيّر بسيط في درجة الحرارة، بالجو المحيط، نقلت الشعيرات العصبية هذا الإحساس إلى المراكز المنتشرة في الجسم، وهذه توصل الإحساس إلى المخ، حيث يمكنه أن يتصرّف، وتبلغ سرعة سريان الإشارات والتنبيهات في الأعصاب مائة متر في الثانية»^(١).

عملية الهضم:

«ونحن إذا نظرنا إلى الهضم على أنه عملية في معمل كيماوي، وإلى الطعام الذي نأكله على أنه مواد غُفْل، فإننا ندرك تَوًّا أنه عملية عجيبة، إذ تهضم تقريبًا كل شيء يؤكل ما عدا المعدة نفسها.

فأولاً نضع في هذا المعمل أنواعًا من الطعام كمادة غُفْل دون أي مراعاة للمعمل نفسه، أو تفكير في كيفية معالجة كيمياء الهضم له، فنحن نأكل شرائح اللحم والكرب، والحنطة والسمك المقلّي، وندفعها بأي قدر من الماء... ومن بين هذا الخليط تختار المعدة تلك الأشياء التي هي ذات فائدة، وذلك بتحطيم كل صنف من الطعام إلى أجزائه الكيماوية دون مراعاة للفضلات، وتعيد تكوين الباقي إلى بروتينات جديدة تصبح غذاءً لمختلف الخلايا، وتختار أداة الهضم الجير والكبريت واليود والحديد وكل المواد الأخرى الضرورية، وتُعنى بعدم ضياع الأجزاء الجوهرية، وبإمكان إنتاج الهرمونات، وبأن تكون جميع الحاجات الحيوية للحياة حاضرة في مقادير منتظمة، ومستعدة لمواجهة كل ضرورة، وهي تخزن الدهن والمواد الاحتياطية الأخرى للقاء كل حالة طارئة مثل الجوع، وتفعل ذلك بالرغم من تفكير الإنسان أو تعليله. إننا نضِبُّ هذه الأنواع التي لا تحصى من المواد في هذا المعمل

(١) في ظلال القرآن نفسه.



الكيمائي، بصرف النظر كلية تقريباً عما نتناوله، معتمدين على ما نحسبه عملية ذاتية (أوتوماتيكية) لإبقائنا على الحياة، حين تتحلل هذه الأطعمة وتجهّز من جديد، تقدّم باستمرار إلى كل خلية من بلايين الخلايا، التي تبلغ من العدد أكثر من عدد الجنس البشري كله على وجه الأرض، ويجب أن يكون التوريد إلى كل خلية فردية مستمراً، وألا يورّد سوى تلك المواد التي تحتاج إليها تلك الخلية المعينة، لتحويلها إلى عظام وأظافر ولحم وشعر وعينين وأسنان، كما تتلقاها الخلية المختصة.

فها هنا - إذن - معمل كيمائي ينتج من المواد أكثر مما ينتجه أي معمل ابتكره ذكاء الإنسان، وها هنا نظام للتوريد أعظم من أي نظام للنقل أو التوزيع عرفه العالم، ويتم كل شيء فيه بمنتهى النظام.

ومنذ الطفولة إلى سن الخمسين مثلاً لا يُخطئ هذا المعمل خطأ ذا بال، مع أن المواد نفسها التي يعالجها يمكن أن تكون بالفعل أكثر من مليون نوع من الجزئيات، وكثير منها سام.

إنّ شرح العمل العجيب الذي يقوم به معمل المعدة، ومثل هذه المجموعة من المعجزات لا يوجد، ولا يمكن أن يحدث بأي حال في غيبة الحياة. وكلّ ذلك يتم في نظام كامل، والنظام مضاد إطلاقاً للمصادفة، أليس ذلك كله من صنع الخالق؟! ^(١).

العقل:

على أن هناك شيئاً هو أجلّ من كل ما ذكرناه من مظاهر التسوية في خلق الإنسان، ذلك هو العقل.

(١) العلم يدعو للإيمان ص ١٥٥ - ١٥٧.

إن الإنسان لم يُمنَح قوة عضلية كقوة الثور، ولا سرعة في العدو كسرعة الحصان، ولا صبرًا على المشقة كصبر الجمل، ولا أجنحة يُحلق بها كأجنحة الطير، ولا أنيابًا ومخالب كأنياب الأسد ومخالبه، ولا أعينًا ميكروسكوبية (مكبّرة) كأعين الحشرات الدقيقة، ولا بصيرًا تلسكوبيًا (مقرّبًا مكبّرًا) كبصر الصقور، ولا غرائز هادية كغرائز النحل والنمل والحمام الزاجل ونحوها.

ولكن الواقع أنّ الإنسان أُعطي ما هو أعظم مما أُعطيته هذه الأمم من الحيوان والطير مجتمعة: أُعطي العقل المفكّر، وأُعطي الروح المبصر.

لقد استطاع بعقله أن يستأنس الثور والحصان والجمل، وغيرها من الدوابّ الضخمة في جثثها، القوية في بدنّها، وأن يسخرها في حاجاته ومعيشته.

واستطاع أن يصنع لها عجلة تجرّها، فتضاعف قوتها وسرعتها، وبهذا أطال الإنسان في سيقانها، وقوى من ظهورها.

واستطاع الإنسان بما اخترعه من أجهزة ميكانيكية أن يطوي المسافات الشاسعة في الزمن القليل، وأن يضرب بين القارات حتى جعل العالم (قريته الكبرى)، وأن يجعل كل عمله اليدوي إدارة الأجهزة والسيطرة عليها.

استطاع أن يغوص في البحار كالحيّتان، وأن يُخلّق في الهواء كالطيور، بل فاق الحيتان وسبق الطيور.

لقد تحكّم الإنسان في قوة الطبيعة، ونسف الصخور، وشقّ الأنهار، واستخدم البخار والغاز والكهرباء، وفجّر - أخيرًا - الذرة، وغزا الفضاء

الفسيح، وحاول الصعود إلى الكواكب، وصنع هذا الشيء العجيب المدهش (الكومبيوتر).

إن الإنسان لم يُمنح عينًا ميكروسكوبية (مكبّرة) كأعين الحشرات الدقيقة، ولا بصيرًا تلسكوبيًا (مقرّبًا مكبّرًا) كبصر الصقر، ولكنه استطاع بعقله أن يصنع (ميكروسكوبًا) كهربائيًا يرى به (بكتيريا) كانت غير مرئية، بل يرى به الكائنات الصغيرة التي تعضّها.

واستطاع بتلسكوبه أن يبصر (سديمًا) بلغ من الدقة والصغر أنه يحتاج إلى مضاعفة قوة إبصاره مليوني مرة ليراه.

ولم يُمنح الإنسان حاسة فائقة للسمع كما أُعطيت الحيوانات التي تسمع أصواتًا خارج دائرة الاهتزازات الخاصة بنا، ولكنه استطاع - بفضل وسائله - أن يسمع ذبابة تطير على بُعد أميال، كما لو كانت فوق طبله أذنه، ويستطيع بمثل تلك الأدوات أن يُسجّل وقع شعاع الشمس.

فهل يكون كل هذا العمل العجيب للعقل الإنساني ليس إلا نتيجة تفاعل في المادة التي يتكون منها الجسم، وقع بالمصادفة العمياء؟!

٣ - دليل التقدير:

التقدير: هو خَلْقُ كُلِّ شيء بمقدار وميزان وترتيب وحساب، بحيث يتلاءم مع مكانه وزمانه، وبحيث يتناسق مع غيره من الموجودات القريبة منه والبعيدة عنه، فلا يعطّل وظيفتها، أو يعوّق سيرها لما خلقت له، وبحيث يتمّ بين المخلوقات كلها توازن شامل، ينتظم به سير الوجود كله.

فإذا كانت التسوية: إعطاء كل شيء من الخلق والتصوير ما يؤدّي به وظيفته على الوجه اللائق به، فإنّ التقدير أن يكون بالقدر الذي ينفعه في

نفسه، ولا يضر غيره، ولا يصطدم بالمخلوقات الأخرى، وذلك يتم إذا ما وُضِعَ في مكانه الملائم وزمانه المناسب، وبالكَم الذي يصلح ولا يفسد، وعلى الكيفية التي يتحقق بها التناسق والتوازن بين وحدات الكون وأجزائه.

وهذا التقدير ظاهرة عامة في كل شيء كما نبّه القرآن على هذه الحقيقة إذ قال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

الماء:

فالماء - مثلاً - سوّاه الله بمعنى أنه أحسن خلقه، وهيّأه لأداء وظيفته من السّقي والري والتطهير والتنظيف، ونحو ذلك. ولكن الماء الذي خلقه الله، وأسكنه في الأرض، خلقه بِقَدَرٍ، وأنزله بِقَدَرٍ، بحيث لا يقل عن حاجة الخلق فيكون الجذب والقحط، ولا يزيد عنها فيكون الغرق والضرر، ولا تطفئ المحيطات على اليابسة، ولا المالح على العذب، وإلى هذا يشير القرآن: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ [المؤمنون: ١٨].

الشمس:

أحسن الله خلقها لتؤدّي وظيفتها في إمداد الحياة بالطاقة الضوئية والحرارية، ولكنه خلقها بحيث تجري إلى غايتها في مدار محدود، لا تصطدم بكوكب آخر، ولا تقترب من الأرض قرباً يحرق أحياءها، ولا تبعد عنها بُعْداً يحرمها الحرارة اللازمة للحياة فيها.

وإلى هذا يشير القرآن بقوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨ - ٤٠].

وكل إنسان في أي عصر يستطيع بتأمله وإدراكه الفطري أن يشهد - على قدر حاله - أن كل شيء في الكون قد خُلق بحساب ومقدار، وجاء العلم الحديث بكشوفه ووسائله، فأماط اللثام عن الحكمة البالغة، والأسرار العجيبة الكامنة وراء ما بين المخلوقات من مقادير وحدود، وضوابط وموازنات.

إنَّ في الفضاء الفسيح الذي لا نعرف له حدودًا، ملايين الملايين من النجوم السابحة في أجوازه، وبعض هذه النجوم أكبر من الشمس بآلاف المرات وملايينها، كـ (الشَّعْرَى)، الذي هو أثقل من الشمس بعشرين مرة، ونوره ضعف نور الشمس بخمسين مرة، و(سُهَيْل) أقوى من الشمس بألفين وخمسمائة مرة، وهكذا.

يقول الفلكيون: إنَّ من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، وما لا يُرى إلا بالمجاهر والأجهزة، وما يمكن أن تُحس به الأجهزة دون أن تراه. هذه كلها تَسْبَح في الفلك الغامض، ولا يوجد أيُّ احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر أو يصطدم بكوكب آخر، إلا كما يُحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي، يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة، وهو احتمال بعيد، وبعيد جدًا إن لم يكن مستحيلًا.

ومع هذا التباعد بين كل نجم وآخر، فقد وُضِعَ كل نجم في مكانه؛ بحيث يتَّسق في آثاره وتأثيراته مع سائر النجوم والكواكب، وتؤدي جميعها مهمتها المنوطة بها في بناء الكون وسير حركته.

ولنأخذ الشمس والقمر والأرض وما بينها من علاقات مثلاً لهذا التقدير المحكم الدقيق، الذي كان من آثاره ظهور الحياة الإنسانية على الأرض، واستمرارها إلى اليوم.

إن هذه الشمس هي الوحيدة بين آلاف النجوم، التي تصلح لجعل الحياة على الأرض ممكنة، وإن حجمها وكثافتها، ودرجة حرارتها وطبيعة أشعتها ودرجة بُعدها عنا، كل ذلك لازمٌ لقيام حياتنا على كوكبنا الذي هو الأرض.

يقول العلامة (أ. كريسي موريسون): «تدور الكرة الأرضية حول محورها مرة في كل (٢٤) أربع وعشرين ساعة، أو بمعدل نحو ألف ميل في الساعة، والآن افرض أنها تدور بمعدل مائة ميل فقط في الساعة، ولم لا؟ عندئذ يكون نهارنا وليلنا أطول مما هو الآن عشر مرات، ففي هذه الحالة قد تحرق شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار، وفي الليل قد يتجمّد كل نبت في الأرض.

إنَّ الشمس التي هي مصدر كل حياة تبلغ درجة حرارة سطحها (١٢٠٠) درجة فهرنهايت، وكرتنا الأرضية بعيدة عنها إلى حدٍّ يكفي أن تمدّنا هذه النار الهائلة بالدفع الكافي، لا بأكثر منه، وتلك المسافة ثابتة بشكل عجيب، وكان تغيرها في خلال ملايين السنين من القلة بحيث أمكن استمرار الحياة...



ولو أن درجة الحرارة على الكرة الأرضية قد زادت بمعدل خمسين درجة في سنة واحدة، فإن كل نبت يموت، ويموت معه الإنسان حرقاً أو تجمداً.

والكرة الأرضية تدور حول الشمس بمعدل (١٨) ثمانية عشر ميلاً في الثانية، ولو أن معدل دورانها كان مثلاً (٦) ستة أميال أو أربعين ميلاً في الثانية؛ فإن بُعِدْنَا عن الشمس أو قربنا منها يكون بحيث يمتنع معه نوع حياتنا^(١).

الكواكب والنجوم:

«والنجوم - كما نعلم - تختلف في الحجم، وأحدها يبلغ من الضخامة حدًا لو كان هو شمسنا؛ لكان محور الكرة الأرضية داخلًا في سطحه لمسافة ملايين الأميال.

والنجوم كذلك تختلف في طراز إشعاعها، وكثير من أشعتها يُميت كل نوع معروف من أنواع الحياة، وتتراوح كثافة هذا الإشعاع وحجمه، بين ما هو أقل من إشعاع شمسنا، وما هو أكثر منه عشرة آلاف مرة. ولو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالي فقط، لكنّا تجمّدنا، ولو أنها زادته بمقدار النصف، لأصبحنا رمادًا، من زمن بعيد.

ومن ذلك نجد أن شمسنا هي الصالحة لحياتنا من بين ملايين الشمس غير الصالحة لهذه الحياة...

ويبعد القمر مسافة (٢٤٠,٠٠٠) ميل، ويُذَكَّر المَدُّ الذي يحدث مرّتين تذكيرًا لطيفًا بوجود القمر، والمَدُّ الذي يحدث بالمحيط قد يرتفع إلى

(١) العلم يدعو للإيمان ص ٥٥.

ستين قدمًا في بعض الأماكن، بل إن قشرة الأرض تنحني مرتين نحو الخارج، مسافة عدة بوصات بسبب جاذبية القمر. ويبدو لنا كل شيء منتظمًا لدرجة أننا لا ندرك القوة الهائلة التي ترفع مساحة المحيط كلها عدة أقدام، وتحني قشرة الأرض التي تبدو لنا صلبة للغاية.

والمريخ له قمر، قمر صغير لا يبعد عنه سوى ستة آلاف من الأميال، ولو كان قمرنا يبعد عنا ٥٠,٠٠٠ ميل مثلاً، بدلاً من المسافة الشاسعة التي يبعد بها عنا فعلاً، فإن المدّ كان يبلغ من القوة بحيث إن جميع الأراضي التي تحت منسوب الماء كانت تُغمر مرتين في اليوم بماء متدفق، يزيح بقوته الجبال نفسها، وفي هذه الحالة ربما كانت لا توجد الآن قارة قد ارتفعت من الأعماق بالسرعة اللازمة، وكانت الكرة الأرضية تتحطم من هذا الاضطراب، وكان المدّ الذي في الهواء يُحدث أعاصير كل يوم»^(١).

تُرى مَنْ الذي وضع كل هذه المخلوقات في مواضعها الصحيحة، قَدَّر أحجامها وأشكالها وأبعادها ونَسَبَها وعلاقاتها هذا التقدير المُحكّم العجيب؟ هل عند الماديين الجاحدين من جواب يشفي الصدور؟ كلا.

أما نحن فجوابنا: إنه (الله) الَّذِي خلق كل شيء فَقَدَره تقديرًا، ﴿فَالِقُ
الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾
[الأنعام: ٩٦].

الهواء:

ولو تركنا الكواكب والنجوم وعلاقتها بالأرض، ونظرنا إلى الهواء؛ ذلك الغلاف الغازي الذي يُحيط بهذه الكرة، لوجدنا العلم يقول: «إنَّ

(١) العلم يدعو للإيمان ص ٥٥ - ٥٨.

هذا الهواء المُكوّن من الأوكسجين والنيتروجين - على الأخص - لا يزيد على جزء من مليون من كتلة الكرة الأرضية»^(١).

وكان يمكن أن تمتصه الأرض في فترة تكوينها، وفُتق النظرية السائدة الآن، وكان يمكن أن يكون بنسبة أكبر كثيرًا مما هو عليه، وفي كلتا الحالتين لم يكن وجود الإنسان على ظهر الأرض ممكنًا.

وسُمْك الهواء أو كثافته أمر مقصود مقدّر أيضًا، فلو كان أرقّ وأرفع كثيرًا مما هو الآن، لكانت بعض الشهب التي تحترق الآن كل يوم بالملايين في الهواء الخارجي تضرب في جميع أجزاء الكرة الأرضية، وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق.

«أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة، كان يمزقه إربًا إربًا، من مجرد حرارة مروره.

إن الهواء سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيماوي التي يحتاج إليها الزرع، والتي تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات، دون أن تُضِرَّ بالإنسان إلا إذا عرّض نفسه لها مدّة أطول من اللازم»^(٢).

وإذا نظرنا إلى الغازات التي نَنَسَمُها فسنجد الأوكسجين هو نسمة الحياة لكل الكائنات الحيوانية فوق الأرض، ومنها الإنسان، ولا يستطيع الحصول على هذا الغاز إلا من الهواء، وتُحدّد نسبة الأوكسجين في الهواء عادة بـ (٢١٪)، ولو زادت هذه النسبة إلى (٥٠٪) مثلاً أو أكثر ماذا كان يحدث؟

(١) العلم يدعو للإيمان ص ٦٤.

(٢) المرجع السابق ص ٦٥، ٦٦.

يقول العلم: «إنَّ جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال، لدرجة أن أول شرارة من البرق تُصيب شجرة لا بد أن تُلهب الغابة كلها حتى لتكاد تنفجر»^(١).

«ومن المعلوم أنَّ كل الكائنات الحيوانية تمتصُّ الأوكسجين، وتلفظ ثاني أوكسيد الكربون، أما النبات فهو على العكس، يستعمل ثاني أوكسيد الكربون ويلفظ الأوكسجين. فهناك تبادل مشترك بين الإنسان والحيوان من جانب، وبين جميع النباتات والغابات من جانب آخر. فما نطرده نحن تنتفع به هي، وما تُطلقه هي نَتَسَّمُهُ نحن، وبدونه تنتهي حياتنا بعد خمس دقائق.

فلو لم تكن هذه المقايضة قائمة ما استمرت الحياة إلى اليوم.

فلو كانت الحياة كلها حيوانية، لكانت الآن قد استنفدت كل الأوكسجين.

ولو كانت الحياة كلها نباتية، لكانت قد استهلكت كل ثاني أوكسيد الكربون.

وفي كلتا الحالتين قد تنتهي هذه الحياة وتلك؛ فإنه متى انقلب التوازن تمامًا، ذَوَى النبات، أو مات الإنسان، فيلحق به الآخر وشيْكَاً»^(٢).

تُرى مَنْ الذي قَدَّرَ هذا التناسق، وأقام هذا التوازن، ووضع هذا النظام المحكم؟

(١) العلم يدعو للإيمان ص ٧٠.

(٢) المرجع السابق ص ٧٠ - ٧٢.



ضوابط وموازين:

فإذا تركنا عالم الغازات، ونزلنا إلى عالم النبات والحشرات، رأينا مظاهر شتى لهذا التوازن والتقدير.

ومن هذه المظاهر: ما ذكره العلامة (أ. كريسي موريسون) في فصل (ضوابط وموازين) من كتابه، قال: «ما أعجب نظام الضوابط والموازنات، الذي منع أي حيوان - مهما يكن من وحشيته، أو ضخامته، أو مكره - من السيطرة على العالم منذ عصر الحيوانات القشرية المتجمدة.

غير أن الإنسان وحده قد قلب هذا التوازن الذي للطبيعة، بنقله النباتات والحيوانات من مكان إلى آخر، وسرعان ما لقي جزاءه القاسي على ذلك، ماثلاً في تطور آفات الحيوان والحشرات والنبات.

والواقعة الآتية فيها مثلاً بارز على أهمية تلك الضوابط فيما يتعلق بوجود الإنسان، فمنذ سنوات عديدة زرع نوع من الصَّبَّار في أستراليا، كسياج وقائي، ولكن هذا الزرع مضى في سبيله حتى غطى مساحة تقرب من مساحة إنجلترا، وزاحم أهالي المدن والقرى، وأتلف مزارعهم، وحال دون الزراعة، ولم يجد الأهالي وسيلة لصدّه عن الانتشار، وصارت أستراليا في خطر من اكتساحها بجيش من الزرع صامت، يتقدم في سبيله دون عائق.

وطاف علماء الحشرات بنواحي العالم، حتى وجدوا أخيراً حشرة لا تعيش إلا على ذلك الصَّبَّار، ولا تتغذى بغيره، وهي سريعة الانتشار، وليس لها عدو يعوقها في أستراليا.

وما لبثت هذه الحشرة حتى تغلّبت على الصَّبَّار، ثم تراجعت، ولم يبق منها سوى بقية قليلة للوقاية، تكفي لصد الصَّبَّار عن الانتشار إلى الأبد.

وهكذا توافرت الضوابط والموازن، وكانت دائماً مُجدية.

ولماذا تسيطر بعوضة (المالاريا) على العالم إلى درجة كان أجدادنا يموتون معها أو يكسبون مناعة منها؟ ومثل ذلك يقال عن بعوضة الحمى الصفراء، التي تقدمت شمالاً في أحد الفصول حتى وصلت إلى نيويورك.. ولماذا لم تتطور ذبابة (تسي تسي) حتى تستطيع أن تعيش في غير مناطقها الحارة، وتمحو الجنس البشري من الوجود؟

يكفي أن يذكر الإنسان الطاعون والأوبئة والجراثيم الفتكة التي لم يكن له وقاء منها حتى الأمس القريب، وأن يذكر كذلك ما كان له من جهل تامّ بقواعد الوقاية الصحيّة، ليعلم أن بقاء الجنس البشري - رغم ذلك - يدعو حقاً إلى الدهشة^(١).

الجسم الإنساني:

ولو تركنا ذلك كله، وذهبنا إلى الجسم الإنساني نتأمل في أعضائه وأجهزته وخلاياه، وما بينها من تضامن وتعاون، ومن تناسق وتوازن، لأدركنا من دقة التقدير وإحكام التدبير، ما لا ينقضي منه العجب. وحسبنا أن نعرف من هذه الأجهزة جهاز (الغدد الصماء) التي عاش الإنسان ألوف السنين وملايينها قبل أن يعرف وظائفها؛ فقد بيّن العلم أنها معامل كيماوية صغيرة في الجسم، تُمدّه بالتركيبات الكيماوية الضرورية له ضرورة مطلقة، وتؤثر في وجوه نشاطه، والتي يبلغ من قوتها أن جزءاً من بليون منها تُحدث آثاراً بعيدة المدى في جسم الإنسان. كما بيّن العلم أنها مرتّبة، يُنظّم كلّ منها غيرها، ويضبطه ويوازنه، وأن إفراز غدة يكمل إفراز الأخرى.

(١) العلم يدعو للإيمان ص ١٦١، ١٦٢.

يقول الأستاذ (أ. ك. موريسون): «ومن المتفق عليه: أنه إذا اختلَّ توازن هذه الإفرازات المعقَّدة تعقيدًا مدهشًا، فإنها تُحدث اختلالًا ذهنيًا وجسمانيًا بالغ الخطر.

ولو عمَّت هذه الكارثة لاندثرت المدنيَّة، وانحطت البشرية إلى حالة الحيوانات، هذا إذا بقيت على قيد الحياة»^(١).

تُرى كيف تحقق كل هذا التقدير، وكيف تمَّ كل هذا التدبير، إذا لم يكن هناك خالق أعلى يُقدَّر فيُحسن التقدير، ويُدبَّر فيُحكم التدبير؟!

٤ - دليل الهداية:

خُلِقَ الأشياء المبنوثة في هذا الكون دليلً على الله، وإحسان خَلْقِها وتسويتها لتؤدي ما خُلِقَتْ له دليل آخر على الله، وخُلِقَ هذه الأشياء المسوَّاة بمقدار وترتيب يُحقِّق التوازن والتناسق بينها وبين غيرها دليل ثالث على الله.

وبقي هنا دليل رابع هو دليل (الهداية)، فكما أن كل شيء في الكون قد خُلِقَ على الصورة التي تناسب وظيفته، وتعينه على أدائها، فهو أيضًا قد هُديَ إلى ما خُلِقَ لأجله، وألهم غاية وجوده، ويُسرَّ له الطريق ليدرك غاية الكمال الذي يناسبه. وهذه هي الهداية. إنها شيء فوق الخلق والتَّسوية والتقدير، إنها الإلهام أو التعليم - سمَّه ما شئتَ - إنها الهداية التي يتم بها التقدير، ويكمل الخلق والتدبير.

هذه الهداية عامة مبنوثة في كل شيء في الكون، حي أو جامد، صامت أو ناطق، عاقل أو غير عاقل. فليست هي هداية خاصة بالمكلَّفين

(١) العلم يدعو للإيمان ص ١٦٥.

أو العقلاء، كما قد يُظنُّ لأول وهلة، وليست مقصورة على الكائنات المتحركة بالإرادة، كالناس والدوابّ والطيور والحشرات، وهذا ما ذكره القرآن على لسان موسى حين سأله فرعون: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ [طه: ٤٩] - وقد كان يدّعي هو أنه الربُّ الأعلى - فقال موسى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]. فما من شيء في الوجود إلا أُعطي هُداة، كما أُعطي خَلقه.

أ - هداية الحيوانات:

ومن مظاهر هذه الهداية: أن كل حيوان أُعطي من الحواس والأجهزة الخاصة ما يُعينه على معيشته، وأداء وظيفته المنوطة به.

فتجد طائرًا كالصقر كأنما أُعطي بصرًا تلسكوبيًا، يستطيع أن يشاهد به - وهو مُحلّق في الجو - صيده الصغير على الأرض. ولا بدّ أن للحشرات الدقيقة عيونًا ميكروسكوبية لا ندري مبلغها من الإحكام.

وتجد حاسة العودة إلى الوطن ضعيفة في الإنسان؛ لأنه يُكَمِّل عتاده القليل منها بأدوات الملاحة ونحوها، أما في طائر كالحمام الزاجل؛ فإنه يقطع آلاف الأميال عائداً إلى وطنه بلا (بوصلة) ولا خارطة ولا دليل، فإذا التبس عليه الطريق حيناً، حوّم برهة ثم يقصد قُدماً إلى موطنه دون أن يضلّ.

والنحلة تهتدي إلى خليّتها، مهما طمست الريح في هبوبها على الأعشاب والأشجار كل دليل يُرى.

والطيور تهاجر من قطر إلى قطر، بل من قارّة إلى قارة، ثم تعود إلى مقرّها الأول دون أن تخطئ.

ومن أعجب ما عُرف في هجرات الحيوان وهدايته: هجرة ثعابين الماء، التي تهاجر - حين يكتمل نموها - من مختلف البرك والأنهار، وقد تقطع آلاف الأميال في المحيط، لتقصد كلها إلى الأعماق السحيقة جنوبي برمودا، وهناك تبيض وتموت، أما صغارها - تلك التي لا تملك وسيلة لتعرف بها أي شيء سوى أنها في مياه قفرة - فإنها تعود أدراجها، وتجد طريقها إلى الشاطئ الذي جاءت منه أمهاتها، ومن ثم إلى كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة، ولذا يظل كل جسم من الماء أهلاً بثعابين البحار.

لقد قاومت التيارات القوية، وثبتت للأمداد والعواصف، وغالبت الأمواج المتلاطمة على كل شاطئ، ماضية في طريق ليس لها به أدنى علم من قبل، حتى تصل إلى مياهها الخاصة بها، ولم يحدث مرة أن صيد ثعبان إفريقي في مياه آسيوية، أو أوروبي في مياه أمريكية أو العكس.

إن المجال ذو سعة للحديث عن الهداية في عالم الحشرات والطيور والدواب، حتى إن المرء ليقف متحيراً عن أي شيء منها يتحدث؟ وما الذي يخصه منها بالحديث دون غيرها؟

مملكة النحل:

هل نتحدث هنا عن الهداية في مملكة النحل، وكيف تُصمم وتهندس، وتبني وتُنسق، وكيف توزع العمل وتتعاون على الإنتاج والحراسة، ممّا يعلمه الدارسون، وما أفاض فيه الكاتبون؟ وحسبنا إشارة القرآن إلى هذه الهداية: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۚ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ

بُطُونَهَا شَرَابٌ مُخْتَلَفٌ أَلْوَنُهُ، فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٨﴾

[النحل: ٦٨، ٦٩].

مملكة النمل:

أم نتحدث عن الهداية عند النمل: تلك الحشرة الاجتماعية، التي يُضرب المثل بتعاونها وتضامنها، والتي يبدو أنها تُطبّق المبدأ القائل: أعظم خير لأكبر عدد. إنها تَدخِر رزقها في الصيف، وتحفظه في مخازن التموين في مستعمراتها، حتى تنتفع به في أيام الشتاء، حيث يتعذر عليها الكسب والسعي والخروج من البيت. وإذا كان فيما خزنته ما ينبت، عمدت إليه ففلقته فلقتين لئلا ينبت، فإذا كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته بأربع، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد، انتظرت به يوماً ذا شمس، فخرجت به فنشرته على أبواب بيوتها، ثم أعادته إليها. فَمَنْ علّمها هذا، وهداها إليه؟

ومن عجيب أمرها: أنها تدرك بالشَّم من البُعد ما يُدرك غيرها بالبصر أو بالسمع، فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان، وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره، فتحمله، وإن كان أكبر من وزنها، فإن عجزت عن حمله ذهبت إلى جحرها، وجاءت معها بطائفة من أصحابها، فجاءوا كخيطة أسود، يتبع بعضهم بعضاً، حتى يتعاونوا على حمله ونقله. وليس للنمل ملك ولا رئيس كما للنحل، إلا أن لها رائداً لا يكذبها، يطلب الرزق في مظائنه، فإذا وقف عليه أخبر جماعته، فخرجوا مجتمعين متعاونين كما ذكرنا، وكل نملة تجتهد في صالح جماعتها، غير مختلصة لنفسها من الحب شيئاً.



طير الحمام:

أم نتحدث عن الهداية عند طير كالحمام، الذي نرى الذكر والأنثى فيه يقتسمان أمر الفراخ بالعدل، فتقع معظم الحضانة والتربية والكفالة على الأنثى، ومعظم جلب القوت والزَّق (إطعام الفراخ في فمها) على الذكر، وإنهما ليتعاونان في إطعام فرخهما، ويتدرجان به من حَبِّ لَيْن رَخو مخلوط بلعابهما، إلى ما هو أشد منه وأقوى، حتى إذا علما أنه قد أطاق الالتقاط بنفسه، منعاه بعض المنع، ليحتاج إلى اللَّقْط ويعتاده، فإذا أدركا أن حوصلته قد اتَّسعت وقويت، وأن قُوَّته قد تَمَّت، وأنهما إن فطماه فطمًا تامًا قَوِيَّ على الاستقلال بأمره، تركاه يسعى ويكد في طلب رزقه وكفاية نفسه بنفسه، وإذا سألهما الزَّق - كما كان من قبل - منعاه وضرباه، ونُزعت تلك الرحمة العجيبة من قلبيهما، وبدأ يعملان من جديد لإنجاب آخر.

كلام ابن القيم عن هداية الحيوانات:

أم نتحدَّث عن الهداية عند سائر الحيوانات، وقد قال ابن القيم: «إن هداية الحيوانات إلى مصالح معاشها كالبحر، حدَّث عنه ولا حرج»^(١). وفيها يقول: «من هدى الأنثى من السباع إذا وضعت ولدها أن ترفعه في الهواء أيامًا تهرب به من الذر والنمل؛ لأنها تضعه كقطعة من لحم، فهي تخاف عليه الذر والنمل، فلا تزال ترفعه وتضعه، وتحوله من مكان إلى مكان حتى يشتد؟

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم ص ٧٣، نشر دار

المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

ومن عَلَّمَ الأسد إذا مشى وخاف أن يُقتفى أثره ويُطلب، عَفَى على
أثر مشيته بذنبه؟

ومن عَلَّمَ الثعلب إذا اشتدَّ به الجوع أن يستلقي على ظهره، ويحتبس
نَفْسَه إلى داخل بدنه حتى ينتفخ، فتظن الطير أنه ميت، فتقع عليه، فيثب
على من انقضى عمره منها؟

ومن عَلَّمه إذا أصابه صدع أو جرح أن يأتي إلى صبغ معروف، فيأخذ
منه، ويضعه على جرحه كالمرهم؟

ومن عَلَّمَ الأنثى من الفيل إذا دنا وقت ولادتها أن تأتي إلى
الماء فتلد فيه؛ لأنها دون الحيوانات لا تلد إلا قائمة؛ لأن أوصالها
على خلاف أوصال الحيوان، فتخاف أن تسقطه على الأرض
فينصدع أو ينشق، فتأتي ماءً وسطاً وتضعه فيه، يكون كالفراش اللَّيِّن
والوطاء الناعم؟

ومن عَلَّمَ العصفور إذا سقط فرخها أن تستغيث، فلا يبقى عصفور
بجوارها حتى يجيء فيطيرون حول الفرخ، ويُحرِّكونه بأفعالهم،
ويُحدثون له قوة وهمية وحركة حتى يطير معهم؟

ومن عَلَّمَ الحمامة إذا حملت أن تأخذ هي والأب في بناء العش،
وأن يُقيما له حُرُوفًا تشبه الحائط، ثم يُسَخِّناه ويُحدثا فيه طبيعة أخرى،
ثم يُقَلِّبان البيض في الأيام حتى يُفرخ؟

ومن عَلَّمَ المرسلة منها (الحمام الزاجل) إذا سافرت ليلاً أن تستدل
ببطون الأودية ومجاري المياه والجبال ومهابِّ الرياح ومطلع الشمس
ومغربها، فتستدل بذلك وبغيره إذا ضلَّت، وإذا عرفت الطريق مرَّت كالريح؟



ومن علّم العنكبوت أن تنسج تلك الشبكة الرفيعة المُحكمة، وتجعل في أعلاها خيطًا ثم تتعلق به، فإذا تعرقلت البعوضة في الشبكة تدلّت إليها فاصطادتها؟

ومن علّم الطّي ألا يدخل كُناسه إلا مستدبرًا، ليستقبل بعينه ما يخافه على نفسه وخشفه^(١)؟

ومن علّم السنّور إذا رأى فأرة في السقف أن يرفع رأسه كالمُشير إليها بالعودة، ثم يشير إليها بالرجوع، وإنما يريد أن يُدهشها، فتزلق فتسقط؟

ومن علّم اليربوع أن يحفر بيته في سفح الوادي، حيث يرتفع عن مجرى السيل، ليسلم من مدقّ الحافر، ومجرى الماء، ويُعمّقه، ثم يتخذ في زواياه أبوابًا عديدة، ويجعل بينها وبين وجه الأرض حاجزًا رقيقًا، فإذا أحسّ بالشر فتح بعضها بأيسر شيء وخرج منه، ولما كان كثير النسيان لم يحفر بيته إلا عند أكمة أو صخرة علامة له على البيت إذا ضلّ عنه؟^(٢).

قال العلامة ابن القيم بعد أن أطلّ في هداية الحيوان: «وهذا باب واسع جدًّا، ويكفي فيه قوله سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]»^(٣).

ويكفي هنا أن نسأل الماديين: كيف أُتيح للذرات التي تتكون منها النحلة أو النملة أو الحمامة أو غيرها أن تهتدي إلى تلك العمليات المعقّدة دون خالق يُرشدها؟!

(١) الخشف: ولد الغزال، يطلق على الذكر والأنثى، انظر: المصباح المنير للفيومي مادة (خ. ش. ف).

(٢) شفاء العليل لابن القيم ص ٧٥ - ٧٧.

(٣) المصدر السابق ص ٧٧.

غير أن الذي ينبغي ذكره هنا هو بعض ما أمدنا به العلم الحديث، من معرفة اتسع بها مدلول الهداية لأكثر مما التفت إليه، وعُني به علماؤنا المتقدمون من هداية الحيوانات إلى مصالحها ومعيشتها، وما به بقاؤها وتكاثرها، وبهذه السعة في معنى الهداية استتبنا في ضوء العلم سر التعميم المطلق في قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

ب - عجائب الهداية في عالم النبات:

ولن نتحدث هنا عن عجائب الهداية في عالم النبات، وكيف يمتص كل نوع منه ما يناسبه من عناصر الأرض بنسب محدودة ومقادير معلومة، رغم اتحاد التربة واختلاط العناصر فيها، فإذا هذا ملح، وهذا حلو، وهذا حامض، وهذا مُرٌّ، وهذا مُرٌّ، وهذا بَيْنَ بين.

تري الشجرتين أو الشجرات متجاورة بل متلاصقة، التراب واحد، والماء واحد، والهواء واحد، والإضاءة واحدة، والإشراف واحد، ولكن شجرة منها لا تخطئ يوماً فتأخذ ما ليس من مخصصاتها أو فوق ما ينبغي، أو دون ما ينبغي. وهي الحقيقة التي سجلها القرآن المعجز فقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَةٌ وَجُنَّتْ مِنْ أَعْنَبٍ وَزَرَءٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ كُلُّ بَعْضٍ عَلَى بَعْضٍ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

ج - تكوين الخلايا في جسم الإنسان:

إنما الذي نتحدث عنه هنا، ونلفت النظر إليه هو ما اهتدى إليه العلم من تكوين خلايا الحياة في الجسم الحي وعملها وتضامنها، وكيف تهتدي إلى طريقها، وتصيب هدفها، ولا تخطئه ضمن ملايين الاحتمالات.



إنَّ كل فرد منا أمة، بل أُمم منتظمة من ملايين - بل بلايين - من الخلايا، وكل خلية مواطن صالح يؤدي نصيبه الكامل من الخدمة الخاصة للمجموع في أمانة وذكاء ومهارة.

وكل خلية من خلايا الحياة تحمل في تركيبها من الخصائص ما لا تحمله خلية أخرى في عالم المادة جمعاء.

وأول هذه الخصائص: قابليتها للتكرار والتنويع، وتعويض النقص وحفظ النوع، وتجديده على النحو الذي ينفرد به كل نوع من الأنواع.

فكل خلية من الجسم تعمل ما ينبغي، على النحو الذي ينبغي، وفي الوقت الذي ينبغي أن تعمل فيه.

إن كل خلية تؤدي عملها المنوط بها لصالح بنية الجسم، في تعاون منقطع النظير مع سائر الخلايا، التي تُقدَّر بعدد الجنس البشري كله على ظهر الأرض، كأنَّ كل خلية على علم بالخلايا الأخرى وما تطلبه منها، ولا تضل واحدة منها طريقها لمرض أو عجز طرأ عليها إلا تكفل سائرها بإصلاح خطئها وتقويم ضلالها.

وما ينهدم وما ينحل كل يوم من هذه الخلايا، نتيجة الجهد والعمل؛ يذهب ويندفع إلى حيث ينبغي أن تندفع الأنقاض والأجزاء المنحلة، ويتلقَّى الجسم العوض الذي يعيدها إلى الانتظام من جديد، عن طريق الغذاء.

النفطة نقطة البداية:

وإن العجب ليلبغ منا مداه إذا رجعنا بكلِّ إنسان منا إلى نقطة البداية في تاريخه، إلى النفطة.. إلى الخلية الأولى الساذجة، الخلية الملقَّحة التي لا تكاد تُرى بالمجهر، والتي تحتوي الدفقة الواحدة منها ألوف الألوف.

لننظر ماذا يقول العلم في هذه الخلية الواحدة؟ كيف تمضي في إنشاء البناء الجسدي للإنسان؟ وأي هداية منحتها هذه الخلية، التي لا قوام لها ولا عقل، ولا قدرة ولا إرادة؟ «إنها تبدأ في الحال بمجرد استقرارها في الرحم، في عملية بحث عن الغذاء، حيث تزودها الهداية الإلهية بخاصية أكالة، تحوّل بها جدار الرحم حوله إلى بركة من الدم السائل المعدّ للغذاء الطازج، وبمجرد اطمئنانها على غذائها تبدأ في عملية جديدة، عملية انقسام مستمرة، تنشأ عنها الخلايا، وتعرف هذه الخلية الساذجة: ماذا هي فاعلة، وماذا تريد، إنها تعرف الهدف، وتعرف الطريق. إنها مكلفة أن تخصص كل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة لبناء ركن من أركان هذه (العمارة) الهائلة: عمارة الجسم الإنساني.

العمارة الإنسانية:

فهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الهيكل العظمي، وهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الجهاز العضلي، وهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الجهاز العصبي، وهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الجهاز اللمفاوي، إلى آخر هذه الأركان الأساسية في العمارة الإنسانية.

ولكن العمل ليس بمثل هذه البساطة، إن هنالك تخصصًا أدق، فكل عظم من العظام، وكل عضلة من العضلات، وكل عصب من الأعصاب، لا يشبه الآخر؛ لأن العمارة دقيقة الصنع، عجيبة التكوين، متنوعة الوظائف، ومن ثمّ تنتظم كل مجموعة من الخلايا المنطلقة لبناء ركن من العمارة، بأن تتفرق طوائف متخصصة، تقوم كل طائفة منها بنوع معين من العمل في الركن المخصص لها من العمارة الكبيرة.

إنَّ كلَّ خلية صغيرة تنطلق وهي تعرف طريقها. تعرف إلى أين هي ذاهبة، وماذا مطلوب منها، ولا تخطئ واحدة منها طريقها في هذه المتاهة الهائلة، فالخلايا المُكلَّفة بأن تكون العين تعرف أن العين ينبغي أن تكون في الوجه، ولا يجوز أبدًا أن تكون في البطن أو القدم أو الذراع، مع أن كل موضع من هذه المواضع يمكن أن تنمو فيه عين، لو أُخِذَت الخلية الأولى المكلفة بصنع العين، وزُرعت في أي من هذه المواضع، لصنعت عينًا هنالك، ولكنها هي بذاتها حين تنطلق، لا تذهب إلا للمكان المخصص للعين في هذا الجهاز الإنساني المعقّد، فمن يا تُرى قال لها: إن هذا الجهاز يحتاج إلى عين في هذا المكان دون سواه؟ ويا ترى من ذا الذي رعاها ووجَّهها وهداها إلى طريقها في تلك المتاهة، التي لا هادي فيها ولا دليل؟!

وكل تلك الخلايا فرادى ومجموعة، تعمل في نطاق ترسمه لها مجموعة معينة من الوحدات كامنة فيها، وهي وحدات الوراثة (الجينات) الحافظة لسجلّ النوع ولخصائص الأجداد.

فخلية العين - مثلاً - وهي تنقسم وتتكاثر لكي تكوّن العين، تحاول أن تحافظ في أثناء العمل على شكل معين للعين، وخصائص محدودة، تجعلها عين إنسان لا عين حيوان آخر، وإنسان لأجداده شكل معين للعين، وخصائص معيّنة، من حيث طول النظر وقصره، وزرقة العين أو سوادها. وأقل انحراف في تصميم هذه العين من ناحية الشكل أو ناحية الخصائص، يحيد بها عن الخط المرسوم.

فمن ذا الذي أودعها هذه القدرة، وعلمها ذلك التعليم؟ وهي الخليّة الساذجة التي لا عقل لها ولا إدراك، ولا إرادة لها ولا قوّة؟ ومن ذا الذي

عَلَّمَهَا ما يعجز الإنسان كله عن تصميمه، لو وُكِّل إليه تصميم عين أو جزء من عين، بينما خلية واحدة منه أو عدة خلايا ساذجة تقوم بهذا العمل العظيم؟^(١).

هل عند الماديين الجاحدين من جواب لهذا السؤال بل هذه الأسئلة؟
هل عندهم من تفسير لهذه الظواهر؟

إنهم لا يجدون جوابًا، ولا يعرفون تفسيرًا، ما داموا يفرون من الجواب الحتمي الذي لا جواب غيره، والتفسير الضروري الذي لا تفسير سواه: وهو وجود الله.

والآن ما موقف الماديين؟

والآن بعد هذا العرض والإيضاح: ما موقف الماديين المنكرين أمام دلالة الكون الصادقة وآياته الناطقة؟ ما موقفهم أمام البرهان الكوني بشُعبه الأربع؟ أيُجحدون الخلق في هذا العالم؟ أم يجحدون التسوية والإحكام؟ أم يجحدون التقدير والنظام؟ أم يجحدون الهداية والإلهام؟
إنهم إن جحدوا ذلك فقد أنكروا البداهة والحس والمشاهدة،
وأنكروا كل آثار العلم وتجاربه وملاحظاته.

أم تراهم يُقَرُّون بالخلق والتسوية والتقدير والهداية، ثم يقفون عند هذا الحد؟ فأَي منطق إذن يحتكمون إليه، أو أي علم يستندون إليه؟
أخلق ولا خالق، وتسوية ولا مسوّ، وتقدير ولا مُقدّر، وهداية ولا هاد؟!

(١) في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب (٣٨٧٩/٦).

أما العقل والعلم والبصيرة والمنطق، فلا تملك إلا أن تتلو قول الله جل شأنه: ﴿سَبِّحْ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ١ - ٣].

زعم المصادفة:

سيقول الماديون المنكرون لوجود الله: إنَّ وجود الخالق الذي يؤمن به المتديّنون، ليس ضرورة عقلية لتفسير ما في الكون من خلقٍ وتسوية وتقدير وهداية؛ إذ يمكن أن يكون كل هذا العالم بما فيه من الحياة والعقل، وما فيه من الإحكام والتناسق والتوازن الذي تحكمه سنن مطردة، وقوانين في غاية الدقة، إنما وجد بمحض المصادفة والاتفاق والاعتباط.

وضربوا لذلك مثلاً: صندوقاً من الحروف الأبجدية يُعاد تنزيده مئات المرات وألوف المرات وملايين المرات، على امتداد الزمان الذي لا تحصره السنون ولا القرون، فلا مانع أن تُسفر هذه التنزيذات المتكررة في مرة من المرات عن مقالة جيدة أو قصيدة رائعة، ولا عمل في إتقان حروفها على هذه الصورة لغير المصادفة المحض.

ورَدُّنا على هؤلاء:

أولاً: إن القول بالصدفة والاعتباط ينافي البداهة والفطرة، التي تؤمن بالسببية إيماناً أولياً، لا يحتاج إلى تعلُّم أو تلقين.

إن الذي أودع في ذات الإنسان ذلك الشعور القوي العميق بوجود الله، الذي نسمّيه (الفطرة)، أودع كذلك في عقله قانوناً مطّرداً ثابتاً يهدي إليه ﷻ، وهو ما يُعرف بقانون (السببية) أو (العلّية).

ومعنى هذا القانون: أن العقل البشري - بدون تلقين ولا تعليم - يوقن أن لكل شيء في الوجود سبباً، وأن لكل معلول علّة، ولكل فعل فاعلاً، ولكل أثر مؤثراً، وأن شيئاً ما لا يصدر عن غير سبب.

حقيقة نلمسها في أنفسنا، ونشاهدها في أطفالنا، دون أن نعلمهم إيّاها. ولهذا نرى الطفل كثير التساؤل عن سبب كل شيء من الجزئيات التي حوله، ومن الأطفال من يرهق والديه بكثرة الأسئلة عن الأسباب، وأسباب الأسباب حتى يقف عند سبب مقنع، كل ذلك لأن العقل الفطري يؤمن بالسببية في حدوث الأشياء، ولا يؤمن بالوجود المعبّط لها، ولا بأنها تسير بالاحتمالات والصدفة والجزاف.

فإذا أدرك عقل الناشئ الكون كله وحدة واحدة، وجاوز مرحلة الوقوف عند الجزئيات، سأل السؤال الأكبر الذي ما خُلِقَ إلا ليسأله ويجب عليه وهو: من خلق هذا الكون؟

إن قانون (السببية) المركوز في فطرته هو الذي جعله يسأل هذا السؤال، ولا يعتقد أن هذا الكون وُجِدَ وحده، بلا مُوجِد، فَمَنْ المُوجِدِ الخالق؟ إنه بالطبع ليس أنا ولا أنت ولا غيرنا من البشر، لأننا أنفسنا مخلوقون عاجزون محتاجون إلى خالق غير مخلوق، قادر غير عاجز، وذلك هو (الله).

لا يمكن أن يقال: إنّ الموجودات كلها ناقصة، وإنّ الكمال يتحقق في الكون كله؛ لأن هذا كالقول بأن مجموع النقص كمال، ومجموع المتناهيات شيء ليس له انتهاء، ومجموع القصور قدرة لا يعترها القصور. فإذا كانت الموجودات غير واجبة لذاتها فلا بد لها من سبب يوجبها، ولا يتوقف وجوده على وجود سبب سواه^(١).

(١) راجع: الله للعقاد (٢٣٢/١ - ٢٣٦).

وهذه النتيجة هي التي عبّر عنها الأعرابي قديماً، ببساطة وسذاجة، حين سأله عن (الله) كيف عرفه فقال: البعرة تدل على البعير، وأثر السير على المسير، فكيف بسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أفلا يدل ذلك على العليّ الكبير^(١)؟!

ولهذا لفت القرآن الكريم أنظار العرب الذين نزل بلسانهم إلى ما حولهم من مخلوقات، ليهتدوا بها إلى الإيمان بخالقها الواحد، فقال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠].

إنّ الإيمان بالله ضرورة عقلية، لتفسير خلق هذا العالم، وبدون الإيمان يظل هذا السؤال الذي أثاره القرآن حائراً قلقاً بغير جواب: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

وهم - بداهة - لم يُخلقوا من غير شيء، وهم أيضاً لم يخلقوا أنفسهم، ولم يدّع أحد منهم، ولا ممّن قبلهم أو بعدهم أنه خالق السماوات والأرض، فمن الخالق إذن؟

ليس لهذا السؤال إلا جواب واحد، لا يملك الإنسان إذا تركّ ونفسه أن يجيب به، ذلك هو ما أجاب به الأعرابي في باديته، وما أجاب به المشركون أنفسهم: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَإِنِّي يُوَفِّكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]، ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

(١) ذكره الإيجي في المواقف (١٥١/١)، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، نشر دار الجيل، بيروت،

وهو عين ما يُجيب به أقطاب العلم الحديث اليوم، يقول أحدهم: «تثبت العلوم بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أبدياً، ولا تقتصر ما قدمته العلوم على إثبات أن لهذا الكون بداية، فقد أثبتت فوق أنه بدأ دفعة واحدة منذ ملايين السنين. واليوم لا بد لمن يؤمن بنتائج العلوم أن يؤمن بفكرة الخلق أيضاً. وليس من المعقول أن يكون هناك خَلْق بدون خالق، هو الله»^(١).

وثانياً: إنَّ العلم الحديث قد أغلق إلى الأبد باب القول بأنَّ هذا الكون أو شيئاً فيه قد وُجِدَ بالمصادفة، فإنَّ العلم الرياضي - الذي هو مُنظَّم حسابات العلم الحديث - قد بحث موضوع المصادفة على أساس رياضيٍّ، وبَيَّن بوضوح أنَّ احتمال وجود الكون أو شيء فيه بالمصادفة هو (الصفير الرياضي)، الذي يعرفه الرياضيون أصغر من أصغر عدد يمكن تصوُّره أو تحديده.

إنَّ المصادفة وإن كانت تبدو لنا شاردة غير منتظمة، فهي تخضع لقوانين صارمة تقيدها تقييداً وثيقاً.

ويضرب لذلك الأستاذ (أ. ك. موريسون) مثلاً، يقول: «خذ عشرة (بنسات) كلاً منها على حدة وضع عليها أرقاماً متسلسلة من (١) إلى (١٠)، ثم ضعها في جيبك، وهزّها هزّاً شديداً، ثم حاول أن تسحبها من جيبك حسب ترتيبها من (١) إلى (١٠).

إن فرصة سحب البنس رقم (١) هي بنسبته إلى (١٠)، وفرصة سحب رقم (١) ورقم (٢) متتابعين هي بنسبة (١ إلى ١٠٠) وفرصة سحب

(١) من مقال للعالم الأمريكي إدوارد لوتر كسبل، في كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص ٣٣،

٣٤، نشر دار القلم، بيروت.

البنسات التي عليها أرقام (١، ٢، ٣) متتالية، هي بنسبة (١ إلى ١٠٠٠)، وفرصة سحب (١، ٢، ٣، ٤) متتالية هي بنسبة (١ إلى ١٠,٠٠٠)، وهكذا حتى تصبح فرصة سحب البنسات بترتيبها الأول من (١ إلى ١٠) هي بنسبة (١ إلى ١٠ ملايين).

والغرض من هذا المثل البسيط أن نبين لك كيف تتكاثر الأعداد بشكل هائل ضد المصادفة»^(١).

وإذا كانت الأعداد تتكاثر بهذه الصورة ضد المصادفة في أول مرة، فإنها تتكاثر وتتكاثر بما لا يتصور إذا أردنا تكرار التجربة مرات أخرى. يقول العالم المذكور: «لنفرض أن معك كيسًا يحوي مائة قطعة رخام، ٩٩ منها سوداء، وواحدة بيضاء، الآن هز الكيس، وخذ منه واحدة. إن فرصة سحب القطعة البيضاء هي بنسبة (١ إلى ١٠٠)، والآن أعد قطع الرخام إلى الكيس، وابدأ من جديد، إن فرصة سحب القطعة البيضاء لا تزال بنسبة واحد إلى مائة، غير أن فرصة سحب القطعة البيضاء مرتين متواليتين هي بنسبة واحد إلى عشرة آلاف (١٠٠ × ١٠٠).

والآن جرّب مرة ثالثة: إن فرصة سحب تلك القطعة البيضاء ثلاث مرات متتالية هي بنسبة (١٠,٠٠٠ × ١٠٠) أي واحد في المليون. ثم جرّب مرة أخرى أو مرتين تصبح الأرقام فلكية»^(٢).

وهذا المثل يدلنا بوضوح على أن ما يحدث بالمصادفة يصعب جدًا أن يتكرر، ويستحيل أن يستمر وقوعه، فكل ما نراه من ظواهر طبيعية، تتجدد باستمرار، وتتكرر بانتظام، وتمضي بلا خلل ولا اضطراب؛

(١) العلم يدعو للإيمان ص ٥١.

(٢) المصدر السابق ص ١٩٥.

يستحيل أن يقع هكذا بالمصادفة العمياء، وحين تكون الحقائق هكذا ناطقة، وحين تعترف بخواص عقولنا يكون من الخبل والسفه أن نرد الحياة والنظام والتقدير في العالم إلى صدفة موهومة، ونغفل كل منطق وكل برهان.

وبهذا نعلم أن صندوق الحروف، الذي ضربه بعض الماديين مثلاً لعمل الصدفة؛ هو وهم من الأوهام، وهو بمقتضى المنطق الرياضي المذكور يستحيل أن يحدث، ولو فرض حدوثه، فيستحيل أن يتكرر وأن يثبت، فضلاً عما في هذا المثل نفسه من خلل ينقض دعوى قائله، ويستلزم فرضاً غير فروض المصادفات، كما يقول الأستاذ العقاد:

«أ - فقد فاتهم أنهم قدّموا الفرض بوجود الحروف المتناسبة التي ترتبط بعلاقة اللَّفْظ، وينشأ منها الكلام المفهوم.. فمن أين لهم أن أجزاء المادة المتماسكة، ترتبط بينها بعلاقة التشاكل أو التشكيل على منوال العلاقة التي بين الحروف الأبجدية؟ ومن أين للمادة هذا التنوع في الأجزاء؟ ومن أين لهذا التنوع أن تكون فيه قابلية الاتحاد على وجه مفهوم؟!

ب - وفاتهم كذلك: أنهم قدّموا الفرض بوجود القوة التي تتولى التنسيق والتنفيذ، وليس من اللازم عقلاً أن توجد هذه القوة بين الحروف. ج - وفاتهم مع هذا وذاك أنهم فرضوا في هذه القوة الجامعة: أنها تعيد تنسيق الحروف على كل احتمال، كأنها تعرف بداءة كيف تكون جميع الاحتمالات.

د - وفاتهم - عدا ما تقدم - أن الوصول إلى تنضيدة مفهومة منظومة لا يستلزم الوقوف عندها وتماسك الأجزاء عليها»^(١).

(١) الله للعقاد (١/٢١٦).



ثالثاً: دلالة الأخلاق^(١):

ومن دلائل وجود الله: ما اعتمد عليه الفيلسوف الألماني الكبير (عمانويل كانت)، وهو دلالة الوازع الأخلاقي المركوز في النفس الإنسانية^(٢).

وجوهر هذا الدليل بعد تنقيته من الحواشي والزوائد والشوائب: أن الكون بما فيه من خَلْقٍ وتسوية، وما فيه من تقدير وهداية، يدل على وجود (الصانع القادر)، ولكنه لا يلزم من قدرته وصنعه أنه (الإله) الذي يصدر منه الخير والنعم، وتتجه إليه القلوب بالعبادة والحب والحمد العظيم.

وإنما يثبت وجود هذا (الإله) بدلالة وعلامة في النفس الإنسانية، لا يتأتى وجودها فيها بغير وجود إله، وتلك هي دلالة الوازع الأخلاقي، أو دلالة الواجب، أو دلالة الضمير.

فمن أين استوجب الإنسان أن يدين نفسه بالحق كما نعرفه، إن لم يكن في الكون قسطاس للحق، يغرس في نفسه هذا الوجوب؟ ومن أين تقرّر في فطرة الإنسان أن الواجب الكريه لديه أولى به من إطاعة الهوى المحبّب إليه، وإن لم يطّلع أحد على دخيلة سره؟

إن وجود هذا الوازع الأخلاقي في نفس الإنسان دليل على أن هناك غارساً غرسه فيها ليستقيم سير الحياة، وينتظم أمر الجماعة، وذلك هو الله مصدر الخير والرحمة والجمال.

ويشير القرآن إلى هذا الدليل فيقول: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨]. وإلهام التقوى للنفس يعني منحها الوازع الخلقي الذي يقاوم دواعي الشهوة والفجور.

(١) تقدمت دلالة الفطرة، ودلالة الكون.

(٢) انظر: الدين لدراز ص ١٤٨.

ويعترض بعض الناس على هذا الدليل بأن وجود الأخلاق أو الضمير أو الشعور بالواجب، إنما هي (عادة اجتماعية)، رسخت في النفس بمضي الزمن، حتى استحالت إلى رغبة مقبولة أو مطلب محبوب.

وينسى هؤلاء أن (العادة الاجتماعية) ليست بالتفسير الذي يُعلّل نشأة الأخلاق، وإنما هي تكرير للمشاهدة كما رأيناها، فإذا سألهم سائل: لِمَ نشأت العادة الاجتماعية؟ قالوا: للمصلحة الاجتماعية. ولكنهم لا يسألون أنفسهم: لماذا كانت المصلحة الاجتماعية أمرًا مفروغًا منه، مقضيًا بوقوعه^(١)؟

إنّ ترجيح المصلحة الاجتماعية العامة على المصالح والشهوات الفردية، هو أثر من آثار الوازع أو الضمير الذي أنكره.

رابعًا: دلالة الوحي:

ومن أدلة وجود الله سبحانه: ما جاء به رسل الله المتتابعون من عهد نوح إلى محمد عليهم الصلاة والسلام، فكلهم دعوا أقوامهم إلى الله وإلى توحيده وحسن الصلة به، وحذروهم من الشرك به أو الإعراض عنه.

وقام بينهم وبين أقوامهم صراع عنيف مرير، ليس لأن هؤلاء الأقوام ينكرون الله، بل لأنهم ينكرون أن هؤلاء بأعيانهم قد خُصّوا بإرسال الله إياهم، فأيد الله رسله بالآيات البيّنات والمعجزات الباهرات، التي أثبتت صدقهم، وقطعت ألسنة معارضيهم، فأمن منهم من ينشُدون الحق، وكفر المعاندون والمستكبرون ظلماً وعلوّاً.

(١) الله (٢٣١/١، ٢٣٢).



ومن أظهر هذه الآيات: أن هؤلاء الرسل على الرغم من ضعفهم وقلة أعوانهم وقوة خصومهم وكثرتهم؛ قد نصرهم الله، وخلّد في الناس ذكرهم، وأهلك عدوّهم، ومكّن لأتباعهم في الأرض، وجعلهم أئمة، وجعلهم الوارثين.

وبقي من آيات الرسل آية لا ينال منها تعاقب الليل والنهار، ولا تبلى جدّتها، بل تزداد على مرّ الأعوام والأعصار، وتلك هي الكتاب المحفوظ الخالد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (القرآن الكريم).

إنّ هذا الكتاب المعجز ليس آية ودليلاً على نبوة محمد ﷺ فحسب، بل هو آية ودليل على وجود الله ﷻ، وعلى واسع علمه وحكمته، وكمال أسمائه وصفاته. وكلما تقدّم العلم، واتّسعت معارف البشر، اكتشف العالمون في هذا القرآن من الأسرار والكنوز ما يزيل شك الشاكين، ويزيد الذين آمنوا إيماناً، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

إنّ الرسالات السماوية آية من آيات وجود الله تعالى ووحدانيّته وكماله، فإن من رحمة الله أنه لم يكتفِ بما أودعه في الفطر والعقول، وفي الأنفس والآفاق من شواهد تهدي إليه وتدلُّ عليه، بل أرسل رسله بالبينات، ليهدوا الناس إلى صراط العزيز الحميد. وليس مما يقبله العقل السليم أن يكون هؤلاء الرسل الكرام في مختلف الأمم، وشتّى العصور، قد تواطؤوا على أنهم مبعوثون لإله لا وجود له.

ولو فرضَ هذا - وفرض المستحيل جائز كما يُقال - فمن الذي أيّدهم ونصرهم وهم الفقراء مألّا، الضعفاء جاهّاً، القليلون أعواناً؟! ومن الذي

خرق لهم العادات، وأمدهم بآيات معجزات، آخرها وأعظمها وأخلدها هو القرآن العظيم؟

ومن الذي أنزل هذا الكتاب، وأنزل من قبله التوراة والإنجيل؟ ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

خامساً: دلالة التاريخ:

وفوق دلالة الفطرة، ودلالة الكون، ودلالة الأخلاق، ودلالة الوحي، هناك دلالة التاريخ.

فالذي يستقرئ التاريخ منذ عرف الإنسان تاريخاً، يرى أن الجماعات البشرية في جميع الأقاليم حارة وباردة، ومن مختلف الأجناس والألوان، بيضاء وسوداء، وفي شتى المستويات بُدأة ومتحضرين، ومن كل الطبقات أغنياء وفقراء، وفي جميع العصور قديمها ووسيطها وحديثها، هؤلاء الجماعات المتفرقة عرفوا الإيمان بالله، على صورة من الصور، وقد ذكرنا كلمة المؤرخ (بلوتارك): إنه لم توجد أبداً طوال أزمنة التاريخ مدينة بلا معابد، وإن وُجدت مدن بلا قلاع أو حصون، أو قصور أو غيرها.

كما ذكرنا كلمة الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون: لقد وُجدت وتوجد جماعة إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنه لم توجد قط جماعات بدون ديانة^(١).

أجل، لقد اعتقدت كل تلك الجماعات البشرية بوجود إله يستحق العبادة والتعظيم، وكان لهذه العقيدة أثرها في حياتهم وسلوكهم

(١) نقلاً عن الدين لدراز ص ٨٣.

وأخلاقهم وعلاقاتهم، فهل أجمع النوع الإنساني في سائر أجياله على غير حقيقة؟

إن الذي يحترم نوع الإنسان، ويحترم نتائج التاريخ، ويحترم عقله هو، لا بد أن يُسَلِّم بأن هذا الإجماع التاريخي دليل يؤكد تلك الحقيقة الكبرى، وهي وجود الله سبحانه.

وانحراف بعض الناس أو أكثرهم في تصور الألوهية لا ينفي تلك الحقيقة، بل يؤكدّها، فإن هؤلاء من فرط شعورهم بالألوهية استكثروا منها، وخلعوا كثيرًا من صفاتها على المخلوقات التي اعتبروها مظهرًا لتجلّي الإله، أو رمزًا له، أو توهموها من نسله.. أو نحو ذلك من الأوهام! ولهذا كانت مهمة الأنبياء تقويم هذا الانحراف، وتصحيح الإيمان، وتخليصه من شوائب الوثنية وخرافاتهما.

ولا عجب أن يحثنا القرآن على السير في الأرض، والنظر في تاريخ الغابرين، والاعتبار بمصارع المكذّبين، والتأمل في آثارهم بعقول بصيرة، وقلوب مفتوحة: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ [محمد: ١٠]، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [الحج: ٤٦].

الحق أن تجارب التاريخ - كتجارب الواقع أيضًا - كلها تنطق بأصالة الإيمان بوجود الله تعالى، وضرورته للإنسان، فهو ضرورة للفرد، ليطمئن ويسعد ويزكو، وهو ضرورة للمجتمع، ليستقر ويتماسك ويرقى.

يقول الأستاذ العقاد: «إن تجارب التاريخ تقرّر لنا أصالة الدين في جميع حركات التاريخ الكبرى، ولا تسمح لأحد أن يزعم أن العقيدة

الدينية شيء تستطيع الجماعة أن تلغيه، ويستطيع الفرد أن يستغني عنه، في علاقته بتلك الجماعة، أو فيما بينه وبين سريره المطوية عمن حوله، ولو كانوا من أقرب الناس إليه.

ويقرر لنا التاريخ: أنه لم يكن قط لعامل من عوامل الحركات الإنسانية أثر أقوى وأعظم من عامل الدين، وكل ما عداه من العوامل الأخرى في حركات الأمم، فإنما تتفاوت فيه القوة لمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية من المشابهة في التمكن من أصالة الشعور وبواطن السريرة.

هذه القوة لا تضارعها قوة العصبية ولا قوة الوطنية، ولا قوة العُرف، ولا قوة الأخلاق، ولا قوة الشرائع والقوانين؛ إذ كانت هذه القوة إنما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه، أو العلاقة بينه وبين مجتمعه، أو العلاقة بينه وبين نوعه، على تعدد الأوطان والأقوام.

أما الدين، فمرجهه إلى العلاقة بين المرء وبين الوجود بأسره، وميدانه يتسع لكل ما في الوجود من ظاهر وباطن، ومن علانية وسر، ومن ماضٍ أو مصير، إلى غير نهاية، بين آزال لا تُحصى في القَدَم، وآباد لا تُحصى فيما ينكشف عنه عالم الغيوب. وهذا على الأقل هو ميدان العقيدة الدينية في مثلها الأعلى، وغايتها القصوى، وإن لم تستوعبها ضمائر المتدينين في جميع العصور.

ومن أدلة الواقع على أصالة الدين: أنك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين الجماعة المتدينة، والجماعة التي لا دين لها أو لا تعتصم من الدين بركن مكين.



وكذلك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين فرد يؤمن بعقيدة من العقائد الشاملة، وفرد معطل الضمير، مضطرب الشعور، يمضي في الحياة بغير محور يلوذ به، وبغير رجاء يسمو إليه.

فهذا الفارق بين الجماعتين، وبين الفردين، كالفارق بين شجرة راسخة في منبتها، وشجرة مُجْتَنَّة من أصولها.

وقلّ أن ترى إنساناً معطل الضمير، على شيء من القوة والعظمة، إلا أمكنك أن تتخيله أقوى من ذلك وأعظم، إذا حلت العقيدة في وجدانه محل التعطيل والحيرة»^(١).

* * *



(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه (٢٨/٥، ٢٩)، ضمن موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية.

الحُجُب التي تَحُول بين الناس وبين الله

لعل سائلاً يسأل فيقول: إذا كانت الدلائل على وجود الله بهذا الوضوح، وهذه القوة، وهذه الكثرة، فما لنا نرى بعض الناس يجحدون بالله ولا يؤمنون به؟ ويقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

والجواب: إن هناك حُجَبًا كثيفة تحول بين بعض البشر وبين معرفة الله والإيمان به، وهذه الحُجُب مما كسبت أيدي الناس، لا من فطرة الله.

١ - الانحصار في دائرة الحس:

وأول هذه الحجب: هو الانحصار في الماديّات والمحسوسات التي يعيش فيها الأطفال، ولا يعرفون غيرها.

فهؤلاء الناس أشبه بالأطفال في عقولهم وتفكيرهم، إنهم يقولون: إذا كان الله موجودًا كما يقول المؤمنون، فلماذا لا نراه بأعيننا، ولا ندركه بحواسنا، كما نرى ونُدرك سائر الموجودات؟ وهل يسوغ لنا أن نؤمن بما لا نراه؟

والجواب: إنّ حصر الموجودات فيما يُرى ويُحسّ غير صحيح، فكم من موجودات لا تُحسّ ولا تُرى، كما أن حصر وسائل المعرفة في الإدراك الحسي غير صحيح كذلك، فالإنسان يعرف ويدرك عن طريق البداهة والفطرة، وعن طريق العقل والفكر، وعن طريق البصيرة والإلهام، كما يعرف ويدرك عن طريق الحس والرؤية.



إنَّ علماء الفلك الآن يُقدِّرون وجود كواكب بيننا وبينها ملايين السنين الضوئية، وقدَّروا مواقعها والأبعاد بين بعضها وبعض؛ لأنَّ وجودها في المواقع التي حدَّدوها، يفسِّر لهم آثارًا وظواهر معينة، في حركة الكواكب التي رصدوها، ويستدلون بما رأوه على ما لم يروه، ويتبيَّن بالملاحظات العلمية صحَّة الفرض الذي فرضوه.

فهل يُلام هؤلاء العلماء على إيمانهم بما لم يروه ولم يحسُّوه، مع أنهم اهتموا إليه بالمنطق الرياضي، الذي يعتمد على الأرقام لا على الأوهام؟

إنَّ هؤلاء العلماء قد اعتمدوا على منطق بسيط ولكنه صادق، هو الاستدلال بالأثر على المؤثر، فهم قد عرفوا الكواكب البعيدة بآثارها لا بذواتها، وعلى هذا النهج نفسه درس العلماء الطبيعيون (الذرة)، واستخدموا قوانين الكتلة والطاقة، مع أنهم لم يروا الذرة حتى الآن، كل ما انتهوا إليه بوسائلهم الإلكترونية الجبارة أنهم استطاعوا أن يروا ظلها أو خيالها بعد تكبيره وتضخيمه.

فكيف نُسلِّم بهذا المنطق - منطق الاستدلال بالآثار - ونستخدمه في علوم الطبيعة والفلك ثم ننكره في معرفة الخالق الأعلى؟

يقول الدكتور الباحثة (دي نوى): «كثير من الأذكياء وذوي النية الحسنة يتخيلون أنهم لا يستطيعون الإيمان بالله؛ لأنهم لا يستطيعون أن يدركوه، على الإنسان الأمين الذي تنطوي نفسه على الشوق العلمي، لا يلزمه أن يتصور (الله) إلَّا كما يلزم العالم الطبيعي أن يتصور الكهرب، فإن التصور في كلا الحالين ناقص وباطل. وليس

الكهرب قابلاً للتصور في كيانه المادي، وإنه مع هذا لا ثبت في آثاره من قطعة الخشب»^(١).

٢ - الغفلة:

إن ثاني هذه الحُجب هو الغفلة، الغفلة التي تغشى بعض الناس، فتصيب أفكارهم بالشلل وقلوبهم بالعُقم، وتعطل المعرفة والإدراك لديهم، فكل همهم ملء البطون وإشباع الشهوات والتمتع بما يتمتع به الأنعام، وهؤلاء هم حطب جهنم ووقود النار، وهم الذين قال الله عنهم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وإنما كانوا أضل من الأنعام؛ لأنَّ الأنعام لم تُمنح من العقل والمواهب والنعم ما مُنحوا، كما أنَّ الأنعام تؤدي مهمتها التي خلقت لها، ولا تتمرد عليها، من دَرّ ونسل، أو صوف ولحم، أو ركوب وحمل. فإذا غفل الإنسان عن ربه الذي خُلق لمعرفة وعبادته وخلافته في أرضه، فهو أسوأ منها منزلة وأضل سبيلاً.

٣ - التقليد:

والحجاب الثالث هو التقليد: الذي يُفقد الإنسان شخصيته، ويجعله يفكر بعقل غيره، فإذا نشأ في بيئة كافرة ملحدة، أو تتلمذ على أناس ملحدين، سلّم إليهم زمام نفسه، وعاش معهم ذليلاً وإمعة، يؤمن بما

(١) عقائد المفكرين في القرن العشرين لعباس محمود العقاد ص ٨٦، نشر دار المعارف - القاهرة.



آمنوا، ويكفر بما كفروا، فمن الناس من يُقَلِّد سَلَفَه وآباءه، ومنهم من يُقَلِّد كبراءه وزعماءه، ومنهم من يُقَلِّد أساتذته ومعلميه، وكل هذه الألوان من التقليد حُجْب وسدود، تحول بين الناس وبين الإيمان بالحق، ولهذا حمل القرآن عليها وعلى أصحابها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ ابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلِ الَّذِينَ يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧٠، ١٧١]. ويعرض لنا حال الزعماء ومقلديهم يوم القيامة فيقول: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٧٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرَّرْنَا فَتَنَآهُمْ لَأَرْغَبْنَا مِثْلَهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

٤ - المكابرة:

أما رابع هذه الحُجُب - وهو أكثفها وأغلظها - فهو المكابرة والعناد: إِنَّ دَلَالَـةَ الْفِطْرَةِ، ودَلَالَـةَ الْكُـونِ، ودَلَالَـةَ الضَّمِيرِ، ودَلَالَـةَ الْوَحْيِ، ودَلَالَـةَ التَّارِيخِ، كلها وأضعافها وأضعاف أضعافها من الدلائل لن تُقنِعَ أولئك المكابرين الذين يَسُدُّونَ آذَانَهُمْ؛ لئلا يسمِعوا صوت الحق، ويُغشونَ أعينهم لئلا تَـرى النور، ويوصدون قلوبهم كيلا ينفذ إليها شعاع من الهدى. إنهم يجادلون ليشوِّشوا لا ليفهموا، وليغلبوا لا ليقنعوا، إنهم كما وصفهم الله: ﴿وَمَنْ أَلَنَّا مِنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٨، ٩].

إِنَّ الْمَعَانِدَ الْمُتَعَصِّبَ لَا يُقْنِعُهُ أَلْفُ دَلِيلٍ وَدَلِيلٍ، وَلَنْ يَهْتَدِيَ إِلَى الْحَقِّ وَلَوْ بِرُؤْيَا الْعَيْنِ، وَلَمَسِ الْيَدِ، وَإِدْرَاكَ الْحَسِّ.

وقد طلب المشركون الجاحدون برسالة محمد ﷺ أن يُنزل عليهم كتابًا من السماء يشهد له بالرسالة، أو يصعدوا هم إلى السماء ليسمعوا شهادة الملائكة الأُعلى بنبوته، فردَّ القرآن الكريم على تعنتهم وسخف مقترحاتهم، وبيّن دخيلة أنفسهم بقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧].

وقال في موضع آخر: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥].

حتى لمس اليد، ومشاهدة العين، يستطيع المتعصب المكابر أن يماري فيهما، وأن يتهم يده التي لمست، وعينه التي أبصرت، ويدّعي أنه كان مُخدَّرًا، أو مسحورًا، أو ما شاء له عناده وهواه.

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وما أبلغ القرآن وهو يجعل الآيات الماثلة في النفس والآفاق عبرة لأصحاب العقول والقلوب وحدهم لا لغيرهم: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، أو: ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٣]. ذلك لأن المعاند المكابر لا يتفكر ولا يعقل ولا يذكر ولا يسمع، ومن كان هذا حاله فلن يهتدي إذن أبدًا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

إنَّ ألف دليل ودليل لا تكفي لإقناع من جمّد عقله، وأغلق قلبه، وأصرَّ على الجحود والإنكار، وكل شيء في الأرض أو في السماء مُقنّع لمن يريد أن يقتنع، وهادٍ لمن يريد أن يهتدي.



فيا عجبًا كيف يُعصى الإلـه أم كيف يجحدُ الجاحِدُ؟
 ولله في كلِّ تحريكٍ وفي كلِّ تسكينةٍ شاهدُ
 وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنَّه الواحدُ^(١)



(١) من شعر أبي العتاهية، كما في طبقات الشعراء لابن المعتز صـ ٢٠٧، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، نشر دار المعارف، القاهرة، ط ٣.



حقيقة التوحيد

قد تبين لنا مما سبق: أن وجود الله تعالى حقيقة لا ريب فيها، بل هي أظهر الحقائق على الإطلاق، شهدت بذلك الفطر السليمة، ودلت على ذلك العقول الرشيدة، وأكد ذلك الراسخون في العلم بما شهدوا في الآفاق وفي أنفسهم من عجائب الإبداع والتسوية والتقدير والهداية.

وإذا كانت هذه الحقيقة الكبرى قد خفيت على بعض الناس، فذلك على نحو ما قيل: من شدة الظهور الخفاء.

وإذا كان آخرون قد كابروا الفطرة المشتركة بين البشر، وعاندوا منطق العقل والعلم، وجحدوا بالله تعالى، فهم بمثابة الشذوذ الذي يُثبت القاعدة ولا ينفيها.

تركيز الإسلام على التوحيد:

والحق أن الإسلام لا يركز على الإيمان بوجود الله تعالى لاعتباره ذلك ضرورة فطرية، ولكنه يركز غاية التركيز على عقيدة أخرى، ضلّ الناس في شأنها ضلالاً بعيداً. وتلك هي عقيدة التوحيد التي هي لبُّ عقائد الإسلام، وروح الوجود الإسلامي: الإيمان بآله واحد فوق هذا الكون، له الخلق والأمر، وإليه المصير، هو ربُّ كل شيء، ومدبر كل أمر، هو وحده الجدير أن يُعبد ولا يُجحد، وأن يُشكر ولا يُكفر، وأن يُطاع ولا يُعصى، ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۖ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝﴾ [الأنعام: ١٠٢، ١٠٣].

ضلال أكثر الناس عن عقيدة التوحيد:

لقد جاء الإسلام والشرك بالله ضارباً أطنابه في كل أنحاء العالم، ولم يكن يعبد الله وحده، إلا أفراداً قلائل من الحنفاء في جزيرة العرب ممن يتعبدون على ما بقي سالمًا من ملة إبراهيم، أو بقايا من أهل الكتاب سلموا من تأثير التحريفات الوثنية التي أفسدت الأديان الكتابية.

وحسبنا أن نعلم أن أمة كالعرب في جاهليتها غرقت في الوثنية إلى أذقانها، حتى إن الكعبة التي بناها محطّم الأصنام لعبادة الله وحده، بات في جوفها وحولها ثلاثمائة وستون صنمًا، وحتى غدا في كل دار من دور مكة صنم يعبده أهلها.

بل روى الإمام البخاري، عن أبي رجاء العطاردي قال: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الحجر الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا حثوةً من تراب، ثم جئنا بالشاة، فحلبنا عليه، ثم طفنا به^(١)!

وأكثر من ذلك أنهم كانوا يتخذون إلهًا من (العجوة)، وكثيرًا ما كان يصطحبه أحدهم في سفره، فإذا فني زاده وغلبه الجوع لم يجد بُدًّا من أن يأكله! وإلى هذا النوع من الآلهة يشير القرآن بقوله: ﴿وَأِنْ يَسْأَلْهُمْ الذُّكَبُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

وفي بلد كالهند بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس لميلاد المسيح، حتى قُدِّرَ عدد الآلهة حينئذ بـ (٣٣٠) مليونًا^(٢).

(١) رواه البخاري في المغازي (٤٣٧٦).

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي ص ٤٧، ٤٨، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

حتى الأديان السماوية دخلتها الوثنية، فكذّرت صفاءها، ولوّثت نقاءها: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]. فالمسيح عند النصاري إله حق من إله حق!

وهذا لون من الشرك انتشر في كثير من الأمم، أن لله أبناء أو بنات يُعبدون من دون الله، أو مع الله، كما زعم ذلك الهنود قديماً مع كريشينا وبوذا. وكما زعم العرب بالنسبة للملائكة الذين قالوا عنهم: بنات الله! وفي ذلك يقول القرآن:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٨].

من أجل هذا غني الإسلام كل العناية بالدعوة إلى توحيد الله تعالى، علماً وعملاً، ومقاومة الشرك اعتقاداً وسلوكاً: ﴿وَالْهَكَمُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

دلالة الفطرة على وحدانية الله تعالى:

لقد دلت على وحدانية هذا الإله وتفردّه كلُّ الدلائل فطرية وعقلية وسمعية، فالإنسان إذا ترك لفطرته وجبلته - دون تدخل أو تلقين - يجد نفسه متّجهاً إلى قوة عليا فوق الإنسان وفوق الكون، يدعوها رغباً ورهباً، ولا سيما عندما تأخذ بخناقه الشدائد، وتعصف به الكروب، وينفض يده من عون الناس من حوله، هنالك يتجه مخلصاً إلى ربه، طارحاً ما كان يتوجّه إليه - بتأثير الوهم، أو الجهل، أو الهوى، أو البيئة - من آلهة زائفة من البشر أو الحيوان أو النبات أو الجماد!



وهذا ما أشار إليه القرآن فيما ذكرناه من قبل من قصة ركاب السفينة المَشْرِفَةِ على الغرق: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بِمِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

وقد ذكرنا هذا مثلاً باعتباره دليلاً على وجود الله تعالى، وهو نفسه دليل على وحدانيته، فإنَّ الإنسان حين تجرّد من العوامل الطارئة، ورجع إلى خالص فطرته، لم يتَّجه بدعائه ساعة الشدة والأزمة إلى الصنم أو الوثن، بل اتَّجه إلى الله وحده ربه ورب كل شيء، كما قال تعالى في وصف نفسيّة هؤلاء المشركين: ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

دلالة العقل:

دلّ العقل كذلك على أن وراء هذا الكون مكوّناً واحداً، فهذا الكون العريض الفسيح - على تنوع ما فيه من مخلوقات، صغيرة وكبيرة، حية وجامدة، ناطقة وصامتة، عاقلة وغير عاقلة، علوية وسفلية - تحكمه قوانين واحدة، تنطبق على الذرّة، كما تنطبق على المجرّة، حتى إنّ العالم الطبيعي حين ينظر إلى الذرّة يجدها في تكوينها مشابهة للمجموعة الشمسية في تكوينها.

هناك قانون عام كقانون (الزوجية) - أعني الازدواج أو الثنائيّة في المخلوقات كلها - عرفه الناس قديماً في الإنسان والحيوان في صورة الذكورة والأنوثة، ولاحظوه في بعض النباتات كالنخل، ثم اكتشف العلم أنّ النباتات كلها فيها تذكير وتأنث، بل الجمادات فيها هذا الازدواج في صورة الموجب والسالب في الكهرباء ونحوها، بل الذرّة التي هي لبنة البناء الكوني كله تتكوّن من شحنة موجبة وأخرى سالبة إلى جوار النواة.

وكان هذا الاكتشاف العلمي الحديث تصديقاً لما جاء به القرآن منذ أربعة عشر قرناً، حين قرّر هذه الحقيقة بمثل قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]. وهذه الكلية: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ حقيقة لا مجازية ولا أغلبية.

ومن الدلائل على وحدة هذا الكون: ما نشاهده بين أجزائه من تعاون وتناسق وتناغم، بحيث يؤدي كل جزء منها مهمته بانتظام، دون أن يصطدم بالأجزاء الأخرى أو يعوق سيرها، أو يجور عليها، بل بالعكس يمدّها بما تحتاج إليه مما عنده، ويأخذ منها ما يفتقر هو إليه مما عندها، كما رأينا من المبادلة القائمة بين المملكة الحيوانية والمملكة النباتية، فهل عُقِدَتْ اتفاقية بينهما لتحقيق هذه المقايضة الضرورية لحياة كل منهما؟ أم أن هناك مدبراً أعلى نظم العلاقة بين المملكتين على هذا النحو العجيب؟

ومن الذي نظم العلاقة بين الشمس والأرض، وبين الأرض والقمر، وبين القمر والشمس، وبين كواكب المجموعة الشمسية بعضها ببعض، وبين المجموعة الشمسية وملايين المجموعات النجمية الأخرى في مجرتنا الكبرى، وبين مجرتنا وملايين المجرات الأخرى، بحيث تتعاون ولا تتصادم، ويجري كل شيء بحساب وميزان ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥ - ٧]، ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٥ - ٧]، ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٥ - ٧]، ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

إنّ هذه الوحدة المشهودة بعين البصر وعين البصيرة في الخلق كله، لدليل ناصع على وحدة خالقه، كما أنها - بالضرورة - دليل على وجوده.

ولو كان وراء هذا الكون أكثر من خالق لاضطرب نظامه، واختل ميزانه، ورأينا أثر كل خالق في الجزء الذي خلقه وهيمن عليه، وبذلك تختلف النواميس الكونية، وتتناقض سنن الخلق؛ نتيجة لاختلاف إرادات الخالقين، وهذا يؤدي بالتالي إلى فساد الكون كله، لا محالة.

وإلى هذا الدليل الكوني يشير القرآن الكريم حيث يقول عن السماوات والأرض: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وفي سورة أخرى يقول القرآن: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

ثم إن القول بوحدة الرب الأعلى - فضلاً عن دلالة الوحدة الكونية عليه - هو الذي يتفق مع منطق العقل البشري السوي، فالعقل ينشد الوصول إلى الوحدة من وراء الكثرة، ويتطلب أن يسير من الأسباب المتعددة إلى سبب واحد، هو سبب الأسباب أو علة العلل. وهذا ما جعل بعض الفلاسفة يطلقون على خالق الكون (العلة الأولى).

دلالة النقل:

ومع دلالة الفطرة والعقل، جاءت الدلائل السمعية، بما تناقلته الأجيال عن كتب الله تعالى ورسله إلى الأمم في مختلف الأمصار والأعصار، من الدعوة إلى الإيمان بآله واحد لا شريك له، وإفراده تعالى بالعبادة، وإنكارهم على أقوامهم الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً.

وهذا القرآن - الوثيقة الإلهية المحفوظة التي تتمثل فيها هداية السماء للأرض - يقصُّ علينا من نبأ المرسلين الذين بُعثوا جميعًا بعقيدة التوحيد، وهذا ما احتج به القرآن على المشركين الذين عبدوا مع الله آلهة أخرى، بأنهم ليس معهم دليل من العقل ولا من النقل.

لنقرأ معًا هذا المقطع من سورة الأنبياء حيث يتحدث القرآن عن المشركين بصيغة التوبيخ والإنكار: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢١، ٢٢]، ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ إِلَهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٤، ٢٥].

وفي سورة (الأحقاف) يطالبهم القرآن بدليل نقلي على ما يدعون: ﴿اثْبُوتِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِّن عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقَاتٍ﴾ [الأحقاف: ٤].

التوحيد جوهر الإيمان بالله:

وإذا عرفت - يا أخي - أنَّ الإيمان بالله هو جوهر العقائد الإسلامية جميعًا، فواجبك أن تعرف هنا كذلك أن توحيد الله هو جوهر الإيمان بالله تعالى، وإذا تجرَّد عن التوحيد الحق، كان كفرًا وشرًّا، ورجسًا وزورًا، وظلمًا عظيمًا، وضلالًا مبينًا.

ولهذا كان لزامًا عليك - أيها المسلم - أن تعرف حقيقة التوحيد الذي أمر الله به، وأقام عليه دينه، وأنزل به كتابه، وبعث به رسوله، وعلّق خيري الدنيا والآخرة على تحقيقه وتجريده، وجعل الجنة لأهله وأنصاره، والنار لخصومه وأعدائه، فإن كثيرًا من الطوائف نسبوا أنفسهم

إلى التوحيد، وادعوا أن ما هم عليه هو التوحيد الخالص، وما عليه غيرهم هو الباطل.

وكلُّ يدَّعي وصلاً بليلي وليلى لا تقرُّ لهم بذاكا!

فأنصار فلسفة أرسطو ومن تبعه ممن سُئوا (فلاسفة المسلمين)، تجد التوحيد عندهم يتمثل في: إثبات وجودٍ مُجرَّد عن الماهية والصفة، بل هو وجود مطلق لا يعرض لشيء من الماهيات، ولا يقوم به وصف، ولا يتخصَّص بنعت، بل صفاته كلها سلوب وإضافات، حتى انتهى توحيد هؤلاء إلى إنكار ذات الرب الذي دعت إليه أديان السماء، وإنكار خلقه للعالم، وتدبيره له، وعلمه بكل ما يجري فيه، فهم يقولون بقدَم الأفلاك، وأن الله لا يبعث من في القبور، وأن النبوة مكتسبة، وأنها حرفة من الحرف، وأن الله لا يعلم شيئاً من الموجودات المعيّنة ألبتة، وأنه لا يقدر على قلب شيء من أعيان العالم، ولا شقَّ الأفلاك ولا خرْقها، وأنه لا حلال ولا حرام، ولا أمر ولا نهى، ولا جنة ولا نار. فهذا هو توحيد هؤلاء!!

وهل أتاك نبأ دعاة (وحدة الوجود)؟ إنهم يزعمون أنهم وحدهم المُوَحِّدون، ومن عداهم فهم المعدّدون. فهل علمت ما توحيدهم المزعوم؟ توحيدهم: أن الحق المنزّه هو عين الخلق المشبّه، وأنه سبحانه هو عين وجود كل موجود وحقيقته وماهيته، وأنه آية كل شيء، وله فيه آية تدل على أنه عينه، وهذا عند محققيهم من خطأ التعبير، بل هو نفس الآية، ونفس الدليل، ونفس المستدلّ، ونفس المستدلّ عليه، فالتعدد بوجود اعتبارات وهمية لا بالحقيقة والوجود، فهو - عندهم - عين الناكح، وعين المنكوح، وعين الذابح، وعين المذبوح، وعين الأكل، وعين

المأكول. وهذا عندهم هو السر الذي رمزت إليه هوامس الدهور الأوليّة، ورامت إفادته الهداية النبويّة، كما قال محققهم وعارفهم ابن سبعين!

ومن فروع هذا التوحيد وثماره: أن فرعون ونمرود وأمثالهما مؤمنون كاملو الإيمان، عارفون بالله على الحقيقة، وأن عبّاد الأصنام إنما عبدوا عين الله لا غيره. فهم على الحق والصواب، وأن لا فرق في التحليل والتحرّيم بين الأم والأخت وبين الأجنبية، ولا بين الماء والخمر، ولا بين الزواج والزنى، الكل من عين واحدة، بل هو العين الواحدة، وأن الأنبياء ضيّقوا الطريق على الناس، وبعّدوا عليهم المقصود، والأمر وراء ما جاؤوا به ودعّوا إليه!!

وإن ننسّ فلا ننسى هنا (توحيد المعتزلة) الذين سموا أنفسهم أهل التوحيد والعدل، وجعلوا التوحيد أول أصولهم الخمسة.

تُرى ما مضمون هذا التوحيد؟

إنه إنكار قَدَر الله تعالى، وجحد عموم مشيئته للكائنات، وقدرته عليها. ومتأخروهم ضمُّوا إلى ذلك توحيد (الجهمية)، فأصبحت حقيقة التوحيد عندهم: إنكار القَدَر، وإنكار حقائق الأسماء الحُسنى، والصفات العُلا.

وفي مقابل هذا التوحيد الأعرج يجيء توحيد (الجبرية) ومضمونه عندهم: تفرد الرب بالخلق والفعل، وأن العباد غير فاعلين على الحقيقة، ولا مُحدثين لأفعالهم، ولا قادرين عليها، وأن أفعالهم الاختيارية لا تعدو أن تكون مثل حركات الأشجار عند هبوب الرياح، وأن الرب تعالى لم يفعل لحكمة، ولا غاية تُطلب بالفعل، وليس في المخلوقات قُوَى

وطبائع وغرائز وأسباب، بل ما ثَمَّ إلا مشيئة محضة، ترجّح مثلاً على مثل، بغير مرجّح ولا حكمة ولا سبب البتّة^(١).

وهل يجهل ذو بصيرة توحيد المضللّين من عوام المسلمين، وتوحيد مضللّهم ممّن يدّعون المشيخة، ويتزّيون بزّي الدين ورجاله الصالحين؟

إنهم يدعون غير الله، ويرجون ويخافون غير الله، وممّن ادعوا لهم أنهم أولياء أو أقطاب أو أوساط أو أبدال أو غير ذلك من الألقاب.

فهم يطوفون بأضرحتهم، يسألونهم أكثر مما يسألون الله، ويستعينونهم أكثر مما يستعينون الله، يهرعون إليهم في المُلِمّات، ويطلبون منهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، بدعوى أنهم وسطاء بينهم وبين الله، ولولا الواسطة لذهب - كما قيل - الموسوط!

وقبل هذا كله لا يغيب عنك (توحيد النصارى)، فقد زعموا أن ديانتهم ديانة توحيدية، وأنهم لم يخرجوا من دائرة التوحيد، برغم اعتقادهم وقولهم: إن الله ثالث ثلاثة. وهي: الآب والابن والروح القدس. فهم عائلة أو شركة مقدّسة: الإله الآب، والإله الابن، والأقنوم الثالث المسمى (روح القدس).

فإذا قلت لهم: كيف تكونون موحدّين مع قولكم بهؤلاء الثلاثة؟ قالوا: الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة!! ولا مجال للعقل والمنطق في أمر العقيدة، فشعارهم هنا: اعتقد وأنت أعمى!!

(١) انظر: مدارج السالكين لابن قيم الجوزية (٤١٥/٣ - ٤١٧)، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

من أجل ذلك كان من أوجب الواجبات بيان حقيقة التوحيد الذي دعا إليه الإسلام، وبنى عليه تعاليمه كلها، حتى يتبين الحق من الباطل.

التوحيد المأمور به:

إنه توحيد اعتقادي علمي، وتوحيد عملي سلوكي.

وبعبارة أخرى: هما توحيدان لا يغني أحدهما عن الآخر: توحيد في المعرفة والإثبات والاعتقاد. وتوحيد في الطلب والقصد والإرادة.

فلا يُقبل إيمان امرئ عند الله ما لم يَقم بتوحيده سبحانه: علمًا واعتقادًا، بأن يؤمن بأنه تعالى واحد متفرد في ذاته وصفاته وأفعاله، لا شريك ولا شبيه له، ولا ولد ولا والد له.

وتوحيده كذلك: قصدًا وعملاً، بأن يفردَه عَجَلًا بالعبودية الكاملة، والطاعة المطلقة، والذل له، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والخشية منه، والرجاء فيه، إلخ.

والتوحيد بالمعنى الأول هو الذي أفصحت عنه ودلت عليه بوضوح سورة (الإخلاص) بتمامها^(١)، وأول سورة (آل عمران)^(٢)، وأول سورة (طه)^(٣)، وأول سورة (آلهم. السجدة)^(٤)،

(١) ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

(٢) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢].

(٣) ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِنْ يَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: ٥ - ٨].

(٤) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤].

وأول سورة (الحديد)^(١)، وآخر سورة (الحشر)^(٢)، وغيرها.
 والتوحيد بالمعنى الثاني هو ما تضمنته، ودعت إليه، ودلت عليه، سورة: (قل يا أيها الكافرون)، وجملة سورة (الأنعام)، وأول سورة (الأعراف)^(٣) وآخرها^(٤)، وأول سورة (يونس)^(٥) ووسطها^(٦) وآخرها^(٧)، وأول سورة (الزمر)^(٨) وأواخرها^(٩)، وغالب سور القرآن،

(١) ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الحديد: ١ - ٦].

(٢) ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٣، ٢٤].

(٣) ﴿التَّص * كَذَّبُوا أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِنَذِيرٍ بِهِ وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١ - ٣].

(٤) ﴿إِنَّ وَلِيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٦، ١٩٧].

(٥) ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

(٦) ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦].

(٧) ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ * وَإِنْ يَسْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٥ - ١٠٧].

(٨) ﴿أَلَا لِلَّهِ الَّذِينَ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

(٩) ﴿قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٤ - ٦٦].

بل قال العلامة ابن القيم: إِنَّ كل سورة في القرآن متضمنة لنوعَي التوحيد^(١).

وقد جرى كثير من المصنفين قديمًا وحديثًا على تسمية النوع الأول من التوحيد (توحيد الربوبية)، وعلى تسمية النوع الثاني (توحيد الإلهية) أو (الألوهية)، وأضيف إليهما أيضًا: توحيد الحاكمية.

وأحسبك أيها القارئ الكريم في حاجة إلى إلقاء مزيد من الضوء على معنى كلٍّ من هذه المصطلحات، حتى تكون على بيّنة من ربك، وبصيرة من دينك، وليهلك مَنْ هلك عن بيّنة، ويحيا من حيٍّ عن بيّنة. فما معنى توحيد الربوبية؟ وما معنى توحيد الألوهية؟ وما معنى توحيد الحاكمية؟

أولاً: توحيد الربوبية أو الخالقية:

ومعناه اعتقاد أنه تعالى رب السماوات والأرض، وخالق مَنْ فيهما وما فيهما، ومالك الأمر في هذا العالم كله، لا شريك له في ملكه، ولا مُعَقَّب عليه في حكمه، فهو وحده رب كل شيء، ورازق كل حي، ومُدَبِّر كل أمر، وهو وحده الخافض الرافع، المعطي المانع، الضار النافع، المعزُّ المذل، وكل مَنْ سواه وما سواه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا، إلا بإذن الله ومشيئته.

وهذا القسم من التوحيد لم يجحده إلا الماديّون الملحدون، الذين ينكرون وجود الله تعالى، كالدهرية قديمًا، والشيوخية في عصرنا. ومثل الماديين (الثنوية) الذين يعتقدون أن للعالم إلهين: إلهًا للنور، وإلهًا للظلمة. أما معظم المشركين - كالعرب في الجاهلية - فكانوا يعترفون

(١) مدارج السالكين (٤١٧/٣).

ببعض هذا النوع من التوحيد ولا ينكرونه، كما حكى عنهم القرآن: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]. ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]. ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ﴾ ﴿قُلْ مَنْ فِي يَدَيْهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩].

فهذه أجوبة المشركين، تدل على أنهم يُقرُّون بربوبية الله تعالى للكون وتديره لأمره، وكان مقتضى إيمانهم بربوبيته تعالى للكون أن يعبدوه وحده، ولا يشركوا بعبادة ربهم أحداً، ولكنهم أنكروا القسم الآخر من التوحيد هذا، وهو توحيد الإلهية أو الألوهية.

ثانياً: توحيد الإلهية:

ومعنى توحيد الإلهية: إفراد الله تعالى بالعبادة والخضوع والطاعة المطلقة، فلا يُعبد إلا الله وحده، ولا يُشرك به شيء في الأرض أو في السماء.

فتوحيد الربوبية يقتضي الإيمان بأن الله جل وعلا هو الخالق الرازق المعطي المانع الضار النافع مالك الملك، وتوحيد الإلهية يقتضي الإيمان بأن الله تعالى هو وحده المستحق للعبادة، فهو المعبود بحق دون سواه، ولا معبود بحق إلا الله، فمن لم يحقق في قلبه توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية فهو مشرك.

ولا يتحقق التوحيد ما لم ينضم توحيد الإلهية إلى توحيد الربوبية؛ فإن هذا وحده لا يكفي، فالعرب المشركون كانوا يقرّون به، ومع هذا لم يدخلهم في الإسلام؛ لأنهم أشركوا بالله ما لم يُنزل به سلطاناً، واتّخذوا مع الله آلهة أخرى، زعموا أنها تقرّبهم إلى الله زلفى، أو تشفع لهم عند الله.

والنصارى لم ينكروا أنّ الله ربّ السماوات والأرض، ولكنهم أشركوا به المسيح عيسى، واتّخذوه إلهاً من دون الله، واعتبر القرآن هؤلاء وأولئك كفاراً، تحرم عليهم الجنة، ويخلدون في النار.

ومنذ أقدم العصور ضلّ الناس عن هذا التوحيد، فعبدوا من دون الله آلهة شتى: عبد قوم نوح وداً وسواع ويعوق ونسراً، وعبد قوم إبراهيم الأصنام، وعبد قدماء المصريين العجل، وعبد الهندوس البقر، وعبد أهل سبأ الشمس، وعبد الصابئون الكواكب، وعبد المجوس النار، وعبد العرب الأوثان والحجارة، وعبد النصارى المسيح وأمه، وعبدوا الأحرار والرهبان من دون الله. فهؤلاء كلهم مشركون؛ لأنهم لم يُفردوا الله تعالى بالعبادة التي لا تُستحقُّ لأحد غيره.

ولكن ما معنى (العبادة) التي هي من حق الله وحده؟

معنى العبادة:

العبادة كلمة تتضمن معنيين امتزج أحدهما بالآخر، فصارا شيئاً واحداً، وهما نهاية الخضوع مع نهاية الحب، فالخضوع الكامل الممتزج بالحب الكامل هو معنى العبادة. فأما حب بلا خضوع، أو خضوع بلا حب، فلا يحقق معنى العبادة. وكذلك بعض الخضوع مع بعض الحب لا يحقق العبادة، بل لا بد من كل الخضوع مع كل الحب.



صور العبادة وأنواعها:

والعبادة ليست مقصورة على صورة واحدة، كما يُخيّل لكثير من الناس، بل لها أنواع وصور عديدة:

أ - فمنها: الدعاء، أي الاتجاه إلى الله تعالى بطلب نفع أو دفع ضرر، أو رفع بلاء، أو نصر على عدو، أو نحو ذلك. فهذا الاتجاه بالسؤال المنبعث من القلب لله تعالى هو مخُّ العبادة وروحها كما في الحديث: «الدعاء هو العبادة»^(١).

ب - ومنها: إقامة الشعائر الدينية، مثل: الصلاة والصيام والصدقة والحج والنذر والذبح، وما شابه ذلك.

فلا يجوز أن توجه هذه الشعائر بقصد الخضوع والتقرب إلا إلى الإله المعبود مع اعتقاد ربوبيته أو إلهيته. فلا تجوز الصلاة لغير الله، ولا الصيام، والصدقة، والنذر، والذبح، وغيرها من الشعائر.

ج - ومنها: الانقياد والإذعان الديني لما شرع الله من أحكام، أحلَّ بها الحلال، وحرَّم الحرام، وحدَّ الحدود، ونظم شؤون الحياة، فلا يجوز لمن آمن بالله ربًّا أن يأخذ عن البشر النُّظم والأحكام والقيم والقوانين، يخضع لها ويحكمها في حياته بغير سلطان من الله، فهذا ضرب من العبادة.

(١) رواه أحمد (١٨٣٥٢)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الوتر (١٤٨١)، والترمذي في تفسير القرآن (٢٩٦٩)، وقال: صحيح. وابن ماجه في الدعاء (٣٨٢٨)، وصححه الألباني، في صحيح أبي داود (١٣٢٩)، عن النعمان بن بشير.

أهمية توحيد الإلهية:

وهذا القسم من التوحيد هو أعظم أقسامه وأهمها، وهو الذي وَجَّهَ الرسل الكرام أكبر عنايتهم إليه، كما سيأتي، وهو الذي يتبادر إلى الذهن عند إطلاق كلمة (التوحيد).

وهو الذي بعث الله به رسله، وأنزل كتبه، وأرى الناس آياته في الآفاق وفي أنفسهم، ومن أجله حَقَّتْ الحاقَّة، ووقعت الواقعة، ونُشرت الدواوين، ونُصبت الموازين، وقامت سوق الجنة والنار، وانقسم الناس إلى شقي وسعيد؛ فريق في الجنة وفريق في السعير.

ثالثاً: توحيد الحاكمية:

وهناك توحيد ثالث: أعلنه سورة التوحيد، التي سمّاها الرسول سورة الأنعام، قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

ذلك أَنَّ اللَّهَ تعالى هو الْحَكَمُ، وهو الحاكم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]. جاء ذلك على لسان يوسف عليه السلام.

وقد جاء ذلك في القرآن الكريم الذي يقول: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ * اللَّهُ يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * [الحج: ٦٨، ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩]، وقال

سبحانه: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴿[التين: ٧، ٨]،
وقال: ﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢]،
وقال: ﴿ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠].

هذه الآيات كلها تعطينا دلالة مؤكدة: أن الحكم لله وحده، لا ينبغي أن ينازعه أحد فيه، ولا غرو في ذلك؛ فهو وحده خالق الخلق، ومالك الملك، ومانح الحياة، ومعطي الرزق، ومهيئ كل الأسباب للناس، ما علموا منها، وما لم يعلموا؛ فلا عجب أن يكون الحكم كله لله.

ولكن ما معنى أن يكون الحكم لله تبارك وتعالى؟

الحكم هنا له معنيان أصليان: الحُكْمُ الخَلْقِي، والحكم الأَمْرِي، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].
وأحياناً يعبر عنهما بـ (الحكم الكوني) و(الحكم التشريعي)، وكلا الحكمين لله لا لغيره.

الحكم القدري الكوني:

فمن الحكم الأول: أن الأمور كلها لله، وفي يده وحده، يصرفها كيف يشاء، يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويصل ويقطع، ويعز ويذل، ويهدي ويضل، يوسع على من شاء، ويضيّق على من شاء، فما يجري به القدر على الإنسان من خير أو شر، من نعيم أو بؤس؛ من صحة أو مرض، من عز أو ذل، فهو حكم الله القدري التكويني، كما قال سيدنا يعقوب لأبنائه: ﴿وَقَالَ يَبْنَئِ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُلْحَقْتُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]، وقال أكبر أبنائه حين لم يعودوا بأخيهم: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠].

فهذا حكم الله القدري في الخلق، وهو يجري كما قدر الله، وفق سنته الماضية، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

الحكم الأمري التشريعي:

والنوع الثاني من الحكم، هو: الحكم الأمري التشريعي، الذي يُرجع فيه إلى ما أنزل الله على رسله من الآيات البينات، والأحكام الشرعيات، ومن الأوامر والنواهي، ومن التحليلات والتحريمات، ومن المستحبات والمكروهات، فعلى الناس هنا أن يخضعوا لحكم الله تعالى وتشريعته، وأن يقولوا عندما يسمعون حكم الله: سمعنا وأطعنا. ولا يجوز لمؤمن أن يسمح لنفسه أن يقف معارضا لحكم الله تعالى، أو متوقفا فيه، أو متشككا في تبنيه.

اسمع إلى قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَنًا وَتَوْفِيقًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا *﴾ [النساء: ٦٠ - ٦٣].

بيّنت هذه الآيات موقف المنافقين من حكم الله التشريعي ومحاولة التخلص منه، ولكن الله تعهدهم بمحكم كتابه، وبآياته المستفيضة التي لا محيص لهم عنها.

ويقول تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ



مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * * وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤ - ٥٧﴾ [النور: ٥٤ - ٥٧].

وبهذا كان النوع الثالث من التوحيد هو: ألا ننازع الله في حكمه الخَلْقِي القَدْرِي، ولا في حكمه الأَمْرِي التشريعي؛ لأنه لا حاكم في الأمرين غيره.

* * *

لا إله إلا الله عنوان التوحيد

وللتوحيد الذي جاء به الرسل عنوان يعبر عن حقيقته في كلمة موجزة، هذا العنوان هو كلمة (لا إله إلا الله) التي تسمى (كلمة التوحيد)، أو (كلمة الإخلاص)، أو (كلمة التقوى).

وهذه الكلمة العظيمة تتضمن نفي الإلهية عن كل ما سوى الله، وإثباتها لله وحده، فهو وحده الإله الحق، وما عداه ممّا عبد الناس في مختلف العصور، فآلهة زائفة باطلة، صنعتها الجاهالة والأوهام، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

والإله هو: المعبود بحق - أي المحبوب المطاع، الذي يستحق أن يُعبد - وذلك لما اتّصف به من صفات الكمال، التي تقتضي أن يُخصّ بنهاية الحب ونهاية الخضوع، وهما معنى العبادة. فإن الإله - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - هو الذي تأله القلوب بحبها، وتخضع له، وتذل له، وتخافه وترجوه، وتُنيب إليه في شدائدّها، وتدعوه في مهماتها، وتتوكل عليه في مصالحها، وتلجأ إليه، وتطمئنّ بذكره، وتسكن إلى حبه. وليس ذلك إلا الله وحده^(١).

ولهذا كانت (لا إله إلا الله) أصدق الكلام وأفضلّه، وكانت رأس الأمر، وأحسن الحسنات، جاء في الحديث الصحيح، عن النبي ﷺ: «أفضل ما قلته أنا والنبون قبلي: لا إله إلا الله»^(٢).

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٣٨٧/٢)، تحقيق ناصر عبد الكريم العقل، نشر دار عالم الكتب، بيروت، ط ٧، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

(٢) رواه الطبراني في الدعاء (٨٧٤)، وقال الأرنؤوط في تخريج العواصم والقواصم (١٥٠/٩): =

التوحيد هو المهمة الأولى للرسول:

ولأهمية التوحيد ومنزلته في الديانات السماوية جميعاً، كان هو العنصر الأول في دعوات الرسل جميعاً من لدن نوح إلى محمد عليهم الصلاة والسلام.

إنَّ المهمة الأولى للرسول الذين بعثهم الله هداة لعباده تتمثل في أمرين أساسيين، كلاهما لازم للآخر ومكمل له:

الأول: الدعوة إلى عبادة الله وحده.

الثاني: الدعوة إلى اجتناب الطاغوت.

وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ويقول مخاطباً النبي ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ولهذا نجد أول نداء يوجهه كل رسول إلى قومه: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، هود: ٨٤، المؤمنون: ٣٣]. هكذا ذكر القرآن عن نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم.

هكذا نجد نوحاً أول رسل الله إلى المشركين يقول لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴿ [هود: ٢٥، ٢٦].

= رجاله ثقات غير قيس بن الربيع، وحديثه صالح في المتابعات والشواهد. عن علي بن أبي طالب.

والمسيح عيسى بن مريم - الذي اتّخذهُ قومه بعد ذلك ربًّا يُعبد - يقول: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

أما خاتم النبيين محمد ﷺ فقد كانت دعوته إلى التوحيد واجتناب الطاغوت أبرز وأقوى وأعمق وأخلد، كما يبدو ذلك واضحًا في القرآن والسنة، وكما يتجلى في شعائر الإسلام وشرائعه وآدابه وأخلاقه.

التوحيد شعار الإسلام:

وكان من مظاهر عناية الإسلام الكبرى بالتوحيد أن جعله شعارًا له، يميّزه عن كل الديانات، سواء الوثنية منها أو الكتابية المحرّفة، وأصبح أشهر ما يُعرف به الإسلام أنه (دين التوحيد)، وصار عنوان الإسلام يتجسد في كلمتين - أو جملتين - من شهد بهما، فقد دخل باب الإسلام: أولى هاتين الكلمتين: (شهادة أن لا إله إلا الله)، والثانية: أن يشهد (أن محمّدًا رسول الله).

وأصبح إعلان هذا التوحيد شعيرة يومية، بل أكثر من يومية، حيث يُكرّرها الفرد المسلم في صلواته المفروضة فقط تسع مرات في تشهّده، وخمس مرات في إقامته، ولم يكتفِ الإسلام بذلك، بل شرع الأذان في كل يوم خمس مرات؛ ليعلن على الدنيا كلها من فوق منائر بصوت جهير: «أشهد أن لا إله إلا الله».

ومن روائع الإسلام أنه سنّ للأب المسلم أن يستقبل مولوده بالأذان الشرعي، يؤذن به في أذنه اليمنى؛ لتكون كلمة التوحيد أول ما يترك سمعه من أصوات الناس.

فإذا عاش في الدنيا ما قُدِّرَ له، ثم حضرته الوفاة، كان على أوليائه وأقاربه أن يلقنوه كلمة التوحيد: «لا إله إلا الله».

وبهذا يكون أول ما يستقبل به المسلم نور الحياة هو كلمة التوحيد، وآخر ما يودّع به الحياة هو كلمة التوحيد، وما بين مهد الطفولة وفراش الموت مهمته الأولى هي إقامة التوحيد، والدعوة إلى التوحيد.

التوحيد حق الله على العباد:

ومما يؤكد هذا المعنى أن الرسول ﷺ بيّن أن التوحيد هو حق الله على عباده، الذي لا يجوز التفريط فيه، ولا الغفلة عنه.

روى الشيخان البخاري ومسلم، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: «يا معاذ، أتدري ما حقُّ الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «حقُّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحقُّ العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً». قلت: يا رسول الله، أفلا أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا»^(١).

والسرُّ في هذا الحق أن الله تعالى خلق الإنسان من عدم، وأمدّه بنعم لا تُحصى، وسخر الشمس والقمر والليل والنهار لخدمته، وآتاه العقل، وعلمه البيان، فمن حق هذا الخالق الرازق، المنعم المعلم، الرحمن الرحيم، أن يُشكر فلا يكفر، ويُذكر فلا ينسى، ويُطاع فلا يُعصى.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٥٦)، ومسلم في الإيمان (٣٠).

ولهذا كان بيان هذا الحق وتأكيده هو أول وصايا القرآن، كما في الآية التي تسمى آية الحقوق العشرة المبدوءة بقوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [النساء: ٣٦] الآية. وكما قال في الآيات المحكمة المشتملة على الوصايا العشر في سورة (الأنعام): ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ [الأنعام: ١٥١] الآيات. ومثل ذلك وصايا الحكمة في سورة (الإسراء) المبدوءة بقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا ﴿ [الإسراء: ٢٢، ٢٣].

التوحيد رسالة المسلم في الحياة:

وإذا كان المسلم يستقبل حياته بالتوحيد ويودّعها بالتوحيد، فإن وظيفته الأولى بين مهد الطفولة وفراش الموت - كما ذكرنا - هي إقامة التوحيد، والدعوة إلى التوحيد.

يقول الله تعالى في بيان الوظيفة التي خلق لها المكلفين من الإنس والجن: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿ [الذاريات: ٥٦، ٥٧].

بيّنت الآية الكريمة أنه سبحانه خلقهم؛ ليعبدوه وحده لا شريك له، فهذه هي الغاية والحكمة من خلقهم، لم يخلقهم الله تعالى ليأكلوا ويتمتعوا، كما تأكل الأنعام، دون أن يعرفوا الله جلّ شأنه، ويقدروه حقّ قدره، ويخصّوه بالعبادة ضارعين خاشعين.

فمن عاش عمره من غير أن يحقق هدف وجوده ووظيفته حياته، وهي عبادة الله وحده؛ فقد انحط عن مرتبة المكلفين العقلاء، وأصبح كالأنعام أو أضل سبيلاً.



التوحيد رسالة الأمة الإسلامية إلى الأمم:

والتوحيد كما هو رسالة المسلم في الحياة، هو أيضًا رسالة الأمة المسلمة إلى العالم كله، وإلى الأمم جميعًا. ولهذا كان النبي ﷺ يختم دعوته إلى كسرى وقيصر وغيرهما من ملوك الأرض وأمرائها، بهذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَعُقُولُؤْاْ أَشْهَدُؤْاْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم، ومن تبعهم بإحسان يعرفون هذه الرسالة وواجبهم نحوها، وحين سأل رستم قائد الفرس ربعي بن عامر في حرب القادسية: من أنتم؟ وما مهمتكم؟ أجابه بقوله: نحن قوم ابتعثنا الله؛ لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام^(١).

* * *

(١) رواه الطبري في تاريخه (٥٢٠/٢)، نشر دار التراث، بيروت، ط ٢، ١٣٨٧هـ.

بماذا يتحقق التوحيد؟

إنَّ التوحيد الذي جاءت به الرسل، وعُني الإسلام بتثبيته وتأكيدهِ وحمايته، لا يتحقق وتترسخ جذوره وتمتد فروعهِ، إلا إذا توافرت له العناصر الآتية:

العنصر الأول: إخلاص العبودية لله وحده.

العنصر الثاني: الكفر بكل الطواغيت والبراءة ممَّن عبدها أو والها من دون الله.

العنصر الثالث: اتقاء الشُّرك بكل ألوانه ومراتبه، وسدُّ المنافذ إليه.

أولاً: إخلاص العبودية لله:

أما إخلاص العبودية لله تعالى، فمعناه: إعطاء الألوهية حقَّها الكامل من التعظيم والمحبة والخضوع القلبي المطلق، وذلك يثبت بأمور ثلاثة:

١ - ألا ينبغي الإنسان غير الله ربًّا يعظمه كما يعظم الله، قال تعالى: ﴿أَغْيَرُ اللَّهُ أَبْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. فكلُّ ما اتَّخذه الناس من أرباب عبودها أو عظموها من دون الله أو مع الله؛ يجب أن يسقط ويزول، سواء أكانت أرباباً من الحجر أم من البشر، ولهذا كانت دعوة رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء: ﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

٢ - ألا يتخذ غير الله وليًّا يحبه كحب الله، قال تعالى: ﴿قُلْ أَغْيَرُ اللَّهَ أَخْذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا﴾ [البقرة: ١٦٥].

إلى أن قال تعالى في شأنهم: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].
 والمعنى: أنهم يحبون أندادهم وأولياءهم حباً ممتزجاً بالخضوع والخوف والتعظيم الذي لا يجوز أن يكون إلا لله.

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: «ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً، ولم يدخلهم في الإسلام. فكيف بمن أحب الله أكبر من حب الله؟ وكيف بمن أحب الله وحده، ولم يحب الله؟!»^(١).

إن مقتضى التوحيد أن يخلص المرء حبه لله، ولا يتخذ ولياً ولا ندّاً يحبه كحب الله، فالولاية لا تكون إلا لله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٩].

٣ - ألا يبتغي غير الله حكماً، يطيعه كما يطيع الله، كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ [الأنعام: ١١٤].

وذلك أن الذي له حق الحكم في شؤون عباده والتشريع لهم في أمور دينهم ودنياهم إنما هو الله وحده، العليم بخلقه، الرحيم بهم، الخبير بما يصلحهم وما يفسدهم، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المالك: ١٤].

ومن هنا قرّر القرآن الكريم أن الحكم - بمعنى التشريع - ليس إلا لله وحده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

(١) التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٢٥، تحقيق عبد العزيز بن عبد الرحمن السعيد، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض.

كما اعتبر القرآن التحاكم إلى غير الله ورسوله خروجًا عن حقيقة الإيمان، ودخولًا في طاعة الشيطان: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا *﴾ [النساء: ٦٠، ٦١]، ولا بدّ هنا من التفريق بين من يفعل ذلك معتقدًا أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، وأكثر تحقيقًا للعدالة ومصالح العباد، وبين من يفعل ذلك ضعفًا وعجزًا، فأما الأول فهو كافر، وأما الثاني فهو عاصٍ آثم وليس بكافر.

ثانيًا: الكفر بالطواغيت:

كان العنصر الأول في تحقيق التوحيد هو إخلاص العبودية لله، وإعطاء الألوهية حقها من التعظيم والمحبة والطاعة التي لا ينبغي أن تكون إلا لله سبحانه.

أما العنصر الثاني، فهو الكفر بالطواغيت، والبراءة من كل من عبدها أو والاها من دون الله، حتى إن القرآن الكريم قدّم أحيانًا الكفر بالطواغوت على الإيمان بالله، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا *﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وكفر بما يُعبد من دون الله، حُرِّمَ ماله ودمه، وحسابه على الله»^(١).

(١) رواه مسلم في الإيمان (٢٣)، وأحمد (١٥٨٧٥)، عن طارق بن أشيم الأشجعي.

فلم يجعل الإقرار بكلمة التوحيد، عاصماً للدم والمال، حتى يضم إليه الكفر بما يُعبد من دون الله.

ذلك أن الأشياء تتميز بأضدادها، فالإيمان بالحق لا يتميز ويتحقق إلا بالكفر بالباطل، والبراءة من أهله.

ولهذا أعلن إمام الموحّدين إبراهيم عليه السلام براءته من آلهة قومه وأصنامهم وعداوته لهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وقال سبحانه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴾ [الممتحنة: ٤].

وبهذا نعلم أن التوحيد الحق لا يتم إلا إذا انضمَّ إلى الإيمان بالله وعبادته، الكفر بالطاغوت والبراءة من أوليائه، ومن أجل ذلك كان نداء الرسل جميعاً إلى قومهم ما ذكرنا من قبل: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ولكن ما معنى الطاغوت؟

الطاغوت كلمة مشتقة من (الطغيان)، وهو مجاوزة الحد. فالطاغوت لغة: من طغى يطغى طغيًا، ويطغو طغيانًا أي: جاوز القدر، وارتفع، وغلا في الكفر، وكل مجاوزٍ حدّه في العصيان طاغٍ.

وقد اختلفت عبارات السلف في تحديد معناه، فقال عمر رضي الله عنه: الطاغوت: الشيطان^(١). وقال جابر رضي الله عنه: الطواغيت: كهّانُ كانت تنزل

(١) رواه الطبري في تفسيره (٤١٧/٥).

عليهم الشياطين^(١). وقال مالك: الطاغوت: كل ما عُبدَ من دون الله^(٢).

وهذه الأقوال تُذكر أمثلة للطاغوت، ولكنها لا تحصر كل أفرادها.

قال الإمام الطبري: «والصواب من القول عندي في الطاغوت: أنه كل ذي طغيان على الله، فعُبدَ من دونه، إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له، إنساناً كان ذلك المعبود أو شيطاناً، أو وثناً، أو صنماً، أو كائناً ما كان من شيء»^(٣).

وقال الإمام ابن القيم: «الطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله. فهذه طواغيت العالم، إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم أعرض عن عبادة الله تعالى إلى عبادة الطاغوت، وعن طاعة رسول الله ﷺ إلى طاعة الطاغوت ومتابعته»^(٤).

والقرآن يحذر من الطاغوت أن يُعبدَ أو يُعَظَّم من دون الله، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩٧٦/٣)، تحقيق أسعد محمد الطيب، نشر مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، ط ٣، ١٤١٩هـ.

(٢) المصدر السابق (٩٧٦/٣).

(٣) تفسير الطبري (٤١٩/٥).

(٤) إعلام الموقعين (٤٠/١)، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩١م. ولا يخفى وجوب تقييد ذلك بحال الرضا ممن يُعبد من دون الله ﷻ، أما من عُبد من دون الله وهو غير راضٍ بذلك، فليس بطاغوت ألبتة، ولا إثم عليه في غلوٍ من غلا فيه.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال عَجَلٍ: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ [الزمر: ١٧]، وقال سبحانه في شأن من يوالون الطاغوت ويتحاكمون إليه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

ثالثاً: اتقاء الشرك والحذر منه:

وهذا هو العنصر الثالث لتحقيق التوحيد، وهو يقتضي معرفة أنواع الشرك كله أكبره وأصغره، جليه وخفيه، والتحرر من كل شائبة للشرك، والحذر من منافذه ومداخله.

إن الشيء - كما قلنا - لا يتميز إلا بضده، فلهذا لا يُعرف التوحيد خالصاً متميزاً إلا بمعرفة ضده وهو الشرك. فما هي حقيقة الشرك؟



الشرك

الشرك: أن يجعل المرء لله شريكاً فيما هو من خالص حقه سبحانه. كأن يتخذ مع الله إلهاً أو آلهة، يعبدها أو يطيعها أو يستعين بها أو يحبها، أو نحو ذلك مما لا يستحقه إلا الله جلّ شأنه.

وهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يقبل معه عمل صالح، بل لا يصلح معه عمل؛ لأن أول شرط لقبول العمل وصلاحه أن يكون خالصاً لله، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وهذا الذنب الذي لا يقبل المغفرة بحال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

والجنة حرام على المشرك، كما أن النار مأواه ومثواه، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

أنواع الشرك

الشرك نوعان: شرك أكبر، وشرك أصغر.

فالشرك الأكبر هو: الذي لا يغفره الله، ولا يدخل صاحبه الجنة أبداً. والشرك الأصغر من كبائر الذنوب التي يخشى على من اقترفها وأصر عليها أن يموت كافراً، إن لم يتداركه الله برحمته فيتوب قبل موته.

الشرك الأكبر جلي وخفي:

والشرك الأكبر أيضاً نوعان: ظاهر جلي، وباطن خفي.

فمن الشرك الأكبر الظاهر: عبادة إله أو آلهة مع الله، سواء أكان هذا الإله كوكبًا كالشمس والقمر، أم كان جمادًا كالأصنام والحجارة، أو كان حيوانًا كالعجل والبقر، أو إنسانًا كالذين عبدوا فرعون وأمثاله من الملوك، الذين ادَّعوا الألوهية أو ادَّعيت لهم، ووجدوا في الناس مَنْ يصدقهم. وكذلك الذين عبدوا (بوذا) أو المسيح عيسى بن مريم. أو كان من المخلوقات المغيَّبة عنا، مثل: الجن والشياطين والملائكة، وقد وُجِدَ لها عُبَاد في أمم شتى.

من الشرك الأكبر الخفي: الدعاء والاستعانة بالموتى:

ومن الشرك الأكبر: نوع خفي، يخفى على كثير من الناس، ومنه دعاء الموتى والمقبرين من أصحاب الأضرحة والمقامات، والاستعانة بهم، وطلب قضاء الحوائج منهم، من شفاء المرضى، وتفريج الكربات، وإغاثة الملهوف، وزواج الفتاة التي يتأخر زواجها، وحمل المرأة التي يتأخر حملها، والنصر على العدو، وغير ذلك، ممَّا لا يقدر عليه إلا الله، واعتقاد أنهم يضررون وينفعون. وهذا أصل شرك العالم، كما قال ابن القيم^(١).

وسبب خفاء هذا الشرك أمران:

١ - أن الناس لا يسمُّون هذا الدعاء والاستعانة والاستغاثة بأصحاب القبور عبادة، ويظنون أن العبادة إنما تنحصر في الركوع والسجود والصلاة والصيام ونحوها.

والحقيقة أن روح العبادة - كما ذكرنا - هو الدعاء، كما جاء في الحديث: «الدعاء هو العبادة»^(٢).

(١) انظر: مدارج السالكين (٣٥٣/١).

(٢) سبق تخريجه ص ١٠٥.

٢ - أنهم يقولون: نحن لا نعتقد أن هؤلاء الأموات الذين ندعوهم ونستغيث بهم آلهة أو أرباب لنا، بل نعتقد أنهم مخلوقون مثلنا، ولكنهم وسائط بيننا وبين الله، وشفعاء لنا عنده.

وهذا من جهلهم بالله، جلّ جلاله، فقد حسبوه مثل الملوك الجبارين والحكام المستبدين، لا يُستطاع الوصول إليهم إلا بوسطاء وشفعاء.

وهو نفس الوهم الذي سقط فيه المشركون قديماً حين قالوا عن آلهتهم وأصنامهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

ولم يعتقدوا يوماً أن آلهتهم وأصنامهم تخلق أو ترزق أو تحيي أو تميت، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩].

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِوْنَ﴾ [يونس: ٣١].

ومع هذا الاعتقاد في الله تعالى أنه خالق السماوات والأرض، وأنه الرزاق المدبّر المحيي المميت، والاعتقاد في الأصنام أنها مجرد وسائط وشفعاء لهم عند الله؛ مع هذا كله رماهم القرآن بالشرك، وسَمّاهم المشركين، وأمر بقتالهم حتى يتوبوا من الشرك، ويقولوا: «لا إله إلا الله». فمن قالها فقد عصم دمه وماله إلا بحق الإسلام.

إن الله تعالى غني عن الوسائط والشفعاء، وهو أقرب إلى عبده من حبل الوريد، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]،

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. وبابه تعالى مفتوح لكل من أراد الدخول، ليس عليه حاجب ولا بَوَّاب.

شرك القبور وشرك القصور:

هناك مَنْ يُرَكِّز على عبادة الأموات، على الذين يدعون الأموات وأصحاب القبور ويستغيثون بهم، ويطلبون منهم النجدة والاستشفاء، وهذا حقٌّ، فهؤلاء الأموات لا يملكون شيئاً، ولا نعرف مصيرهم؛ لأنَّ أحدًا لا يدري مصير أحدٍ إلا من بَشَّرَ النبي ﷺ أنه من أهل الجنة.

ولكن مع هذا هناك ألوان أخرى من الشرك، كما يوجد شرك القبور يوجد شرك القصور، إذا وُجد مَنْ يعبد القبور، فهناك مَنْ يعبد القصور، إذا وُجد مَنْ يُشْرِك مع الله الأموات، فهناك مَنْ يشرك مع الله الأحياء، ذاك شرك العامة، وهذا شرك الخاصة، شرك الذين يريدون أن يكونوا أنفسهم، أن يقفزوا بسرعة ليكونوا من أصحاب الملايين، فلا مانع أن يبيعوا ضمائرهم، ويبيعوا أنفسهم، ويعيشوا في هوان النفس، من أجل التزلف للآخرين، من أجل الانحناء للآخرين، هؤلاء شرٌّ من عبَاد القبور.

شرك الأموات مرفوض، وشرك الأحياء مرفوض أيضاً، شرك العوام الاتجاه إلى الأموات، وشرك الخواصّ للأسف الاتجاه إلى الأحياء، ينحنون لهم، ويرجونهم من دون الله، ويحننون ظهورهم لهم ويتعبدون لهم، ويظنون أن الأرزاق والآجال بأيديهم!! والأرزاق والآجال بيد الله، لا يستطيع أحد أن ينقص من رزقك لقمة أو فلساً، لا يستطيع أحد أن يؤخر أجلك يوماً أو ساعة أو دقيقة أو ثانية أو لحظة من الزمن، الله هو الذي يملك أجلك، ويملك رزقك، ويملك حياتك وموتك؛ فكيف تذل نفسك لغير الله، وتطأطي ظهرك أو عنقك لغير الله ﷻ؟!

من الشرك الأكبر: اتخاذ غير الله مشرعاً:

ومن الشرك الأكبر الذي يدق ويخفى أيضاً على كثير من الناس: اتخاذ غير الله مشرعاً أو ابتغاء غير الله حكماً. وبعبارة أخرى: إعطاء بعض الناس لفرد أو جماعة حق التشريع المطلق لهم أو لغيرهم من البشر، فيُحلُّون لهم، ويُحرِّمون عليهم ما شاءوا، ويشرعون لهم من الأنظمة والقوانين، أو يضعون لهم من المناهج والأفكار، ما لم يأذن به الله تعالى، وما يضاد شرع الله سبحانه، فيتبعهم الآخرون ويطيعونهم فيما شرعوا ووضعوا، كأنه شرع إلهي، أو حكم سماوي، يُطاع ولا يُعصى.

إنَّ الذي له الحق في التشريع لخلقه هو الله وحده، فهو الذي خلقهم ورزقهم وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، فمن حقه وحده أن يكلِّفهم ويأمرهم وينهاهم، ويُحلُّ لهم ويُحرِّم عليهم؛ لأنه رب الناس، ملك الناس، إله الناس. وليس لأحد غيره من الربوبية والمُلْك والألوهية ما له، حتى يكون له سلطة الحكم والتشريع.

إنَّ العالم هو مملكة الله تعالى، والناس في هذه المملكة عبيده ورعاياه، وهو سبحانه سيد هذه المملكة وحاكمها، فله وحده أن يحكم ويشرّع، ويُحلِّل ويُحرِّم، وعلى الرعية أن يسمعوا ويطيعوا.

فمن ادَّعى من رعية هذه المملكة أنَّ لأحد فيها حقَّ الأمر والنهي، والتحليل والتحريم، والحكم والتشريع، دون إذن من سيِّد المملكة أو حاكمها؛ فقد جعل من بعض عبيد الملك شريكاً له في المُلْك، منازعاً له في سلطة السيادة، وفي اختصاصه بالحكم والسلطان.

ومن أجل ذلك حكم القرآن الكريم على أهل الكتاب بالشُّرك، وسمَّاهم مشركين؛ لأنهم أعطوا أحبارهم ورهبانهم حق التشريع لهم،

فأطاعوهم فيما أحلّوا لهم وما حرّموا عليهم، وقرن القرآن ذلك بعبادتهم للمسيح ابن مريم، سواء بسواء، قال تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُورُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وهذه الآية قد فسّرها النبي ﷺ لعدي بن حاتم الطائي، وكان نصرانيًا في جاهليته، وذلك أنه لما جاء مسلمًا دخل على رسول الله ﷺ، فقرأ عليه هذه الآية. قال عدي: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال ﷺ: «بلى، إنهم حرّموا عليهم الحلال، وحلّوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إيّاهم»^(١).

فقد دلّت هذه الآية وما فسّرها من حديث رسول الله ﷺ، على أن من أطاع غير الله في معصية، أو اتّبعه فيما لم يأذن به الله، فقد اتخذه ربًّا ومعبودًا، وجعله لله شريكًا، وذلك ينافي التوحيد الذي هو دين الله، والذي دلت عليه كلمة الإخلاص: «لا إله إلا الله». فإن الإله هو المعبود، وقد سمّى الله طاعتهم لأحبارهم ورهبانهم عبادة لهم، وسمّاهم أربابًا، أي: شركاء لله تعالى في العبادة. وهذا هو الشرك الأكبر، فكل من أطاع مخلوقًا واتبعه على غير ما شرعه الله ورسوله، وسلم له بحق الحاكمية، فقد اتخذه ربًّا ومعبودًا، وإن لم يُسمّه بذلك، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِنِ اطَّعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]. ويشبه هذه الآية في المعنى قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

(١) رواه الترمذي في التفسير (٣٠٩٥)، وقال: حديث غريب. ونقل الحافظ في تخريج الكشاف (٦٦/٢) تحسين الترمذي له، والطبري في تفسيره (٢١٠/١٤)، والطبراني (٩٢/١٧)، والبيهقي في آداب القاضي (١١٦/١٠)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٢٩٣).

ولا بدّ أن نوّكّد هنا ما أكّده شيخ الإسلام ابن تيمية حين علّق على آية: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]. فقال: «فمَن أطاع أحداً في دين لم يأذن الله به من تحليل أو تحريم، أو استحباب أو إيجاب، فقد لحقه من هذا الذمّ نصيبٌ، كما يلحق الأمر الناهي، ثم قد يكون كل منهما معفوًّا عنه، فيتخلف الذم لفوات شرطه، أو وجود مانعه، وإن كان المقتضي له قائماً، ويلحق الذم مَن تبين له الحق فتركه، أو قصّر في طلبه، فلم يتبين له، أو أعرض عن طلبه لهوى أو كسل ونحو ذلك»^(١) انتهى.

وإذا كان هذا حكم القرآن والسنة فيمن اتّخذ غير الله مشرعاً، واتّبعه فيما لم يأذن به الله، فكيف بمن جعل نفسه لله ندّاً، فأعطاه حقّ الحكم والتّشريع، والتحليل والتحريم، الذي هو من خصائص الألوهية؟! هذه الحاكمية التشريعية التي يجب أن تكون لله وحده، وليست لأحد من خلقه، هي الحاكمية (العليا) و(المطلقة) التي لا يحدها ولا يقيدها شيء، هي من دلائل وحدانية الإلهية.

وهذه الحاكمية - بهذا المعنى - لا تنفي أن يكون للبشر قدر من التشريع أذن به الله لهم. إنما هي تمنع أن يكون لهم استقلال بالتشريع غير مأذون به من الله، وذلك مثل التشريع الدّيني المحض، كالتشريع في أمر العبادات بإنشاء عبادات وشعائر من عند أنفسهم، أو بالزيادة فيما شرع لهم باتّباع الهوى، أو بالنقص منه كمّا أو كيفاً، أو بالتحويل والتبديل فيه زماناً أو مكاناً أو صورة، ومثل ذلك التشريع في أمر الحلال والحرام، كأن يحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحلّ الله.

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤/١٩٥)، تحقيق عبد الرحمن بن محمد قاسم، نشر مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

وكذلك التشريع فيما يصادم النصوص الصحيحة الصريحة، كالقوانين التي تقرر المنكرات، أو تشيع الفواحش ما ظهر منها وما بطن، أو تعطل الفرائض المحتمة، أو تلغي العقوبات اللازمة، أو تتعدى حدود الله المعلومة.

أما فيما عدا ذلك فمن حق المسلمين أن يشرعوا لأنفسهم. وذلك في دائرة ما لا نص فيه أصلاً وهو كثير، وهو المسكوت عنه، وهو يشمل منطقة فسيحة من حياة الناس. ومثل ذلك ما نص فيه على المبادئ والقواعد العامة دون الأحكام الجزئية والتفصيلية.

ومن ثمّ يستطيع المسلمون أن يشرعوا لأنفسهم بإذن من دينهم في مناطق واسعة من حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، غير مقيدين إلا بمقاصد الشريعة الكلية، وقواعدها العامة. وكلها تراعي جلب المصالح، ودفع المفاسد، ورعاية حاجات الناس أفراداً وجماعات.

وكثير من القوانين التفصيلية المعاصرة لا تتنافى مع الشريعة في مقاصدها الكلية، ولا أحكامها الجزئية، لأنها قامت على جلب المنفعة، ودفع المضرة، ورعاية الأعراف السائدة^(١).

ألوان من الشرك الأصغر:

ودون الشرك الأكبر ألوانٌ وأنواع أخرى من الشرك، تسمّى (الشرك الأصغر)، وهو من كبائر الذنوب، بل أعظم عند الله من سائر الكبائر. منها:

(١) فتاوى معاصرة (٨٥٦/٤ - ٨٦٢)، نشر دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ٢، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م، فتوى: هل قيام الدولة الإسلامية على عقيدة الحاكمية يعني: أنها دولة دينية.

الحلف بغير الله:

ومن الشرك الأصغر: الحلف بغير الله تعالى، كأن يقسم بالنبى أو بالكعبة الشريفة، أو بولي من الأولياء، أو كبير من الكبراء، أو يقسم بالوطن، أو بالآباء والأجداد، أو بغير ذلك من المخلوقات، فكل ذلك من الشرك، ففي الحديث: «مَنْ حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»^(١).

وقد فسر الماوردي الحديث بقوله: «فيه تأويلان: أحدهما: فقد أشرك بين الله وبين غيره في التعظيم، وإن لم يصِر من المشركين الكافرين، والثاني: فقد أشرك بالله، فصار كافرًا به إن اعتقد لزوم يمينه بغير الله كاعتقاد لزومها بالله»^(٢).

وذلك لأن في القسم تعظيمًا للمقسم به، والذي ينبغي أن يُخص بالتعظيم والتقديس هو الله وحده؛ لهذا جاء النهي عن الحلف بغيره، قال ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم»^(٣)، وقال: «من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليذر»^(٤).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقًا»^(٥). وذلك مثل الحلف باللات والعزى وأمثالها مما كانت تعبده العرب وتعظمه في الجاهلية.

(١) رواه أحمد (٦٠٧٢)، وقال مخرجه: رجاله رجال مسلم غير سعد بن عبيدة فمن رجال الشيخين. وأبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وقال: حسن. كلاهما في الأيمان والندور، وصححه ابن الملقن في البدر المنير (٤٥٩/٩)، والألباني في غاية المرام (٢٥٩)، عن ابن عمر. (٢) الحاوي الكبير للماوردي (٢٦٢/١٥)، تحقيق الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦٤٦)، ومسلم (١٦٤٦)، كلاهما في الأيمان، عن ابن عمر.

(٤) جزء من الحديث السابق.

(٥) رواه عبد الرزاق (١٥٩٢٩)، وابن أبي شيبة (١٢٤١٤)، كلاهما في الأيمان والندور، والطبراني (١٨٣/٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٨٩٩): رجاله رجال الصحيح.

ومن المعلوم في الدين أن الحلف بالله كاذبًا كبيرة من الكبائر، لكن الشرك - وإن كان شركًا أصغر - أكبر من كل الكبائر، في نظر فقهاء الصحابة رضي الله عنهم ^(١).

لبس الحلقة والخيط:

التوحيد لا ينافي اتخاذ الأسباب التي وضعها الله في الكون، كاستعمال الطعام للشبع، والماء للري، والدواء للعلاج، والسلاح للدفاع، ونحو ذلك من الأسباب التي جعلها الله مؤدية إلى مسباتها.

فإذا مرض الإنسان، وعرض نفسه على طبيب، وقرّر له استعمال دواء، أو إجراء جراحة، أو غير ذلك، فقام به ونفّذه، فليس ذلك خروجًا عن التوحيد.

إنما ينافي التوحيد اللجوء إلى أسباب خفية لم يشرعها الله، لرفع البلاء بعد وقوعه، أو للوقاية منه قبل وقوعه، فيما زعموا.

ومن ذلك لبس حلقة من المعدن، أو وضع خيط يُربط بالعضد، فقد روى الإمام أحمد، عن عمران بن حصين، أن النبي ﷺ أبصر على عضد رجل حلقة - أراه قال: من صُفّر - فقال: «ويحك، ما هذه؟». قال: من

(١) الحالف بغير الله لا وفاء عليه ولا كفارة؛ لأنّ هذا شرك، والشرك لا حرمة له، وإنما عليه أن يستغفر الله تعالى وأن يقول ما قاله الرسول ﷺ: «مَنْ حَلَفَ وَقَالَ فِي حَلْفِهِ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى. فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» - رواه البخاري في التفسير (٤٨٦٠) - وقد بيّن هذا الحديث أن كفارة الشرك تجديد التوحيد لا الإطعام ولا الصيام، وللحنابلة كلام في انعقاد الحلف بالنبي ﷺ، وهو من مفردات المذهب. انظر: الإنصاف (١٤/١١)، وشرح مختصر الخرقى (٩٦/٧).

الواهنة. قال: «أما إنها لا تزيدك إلا وهناً، انبذها عنك، فإنك لو مت وهي عليك، ما أفلحت أبداً»^(١).

وإنما غلظ ﷺ في الإنكار على الرجل؛ تحذيراً من الشرك بكل صورته، وتعليماً للصحابة أن يسدوا هذا الباب جملة وتفصيلاً.

ولهذا حين دخل حذيفة بن اليمان على مريض يعود، فوجد في عضده سيراً أو خيطاً يدفع به الحمى، لم يسعه إلا أن قطعه، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]^(٢).

تعليق التَّمَائِم:

ومن هذا الباب: تعليق التَّمَائِم، وهي جمع تَمِيمَة، سَمَّيت تَمِيمَة لاعتقادهم أنهم يتم أمرهم ويحفظون بها، وهي خرزة أو خرزات كان العرب يعلقونها، وخصوصاً على الأولاد، زاعمين أنها تدفع عنهم الجن، أو تقيهم العين ونحوها. فأبطلها الإسلام، وعلمهم أن لا دافع ولا مانع إلا الله تعالى.

وإن اعتقد في التَمِيمَة النفع والضرر من دون الله ﷻ، فهذا شرك أكبر، وإن اعتقد أنها سبب للسلامة من العين أو الجن، فهذا شرك أصغر، لأنه جعل ما ليس سبباً سبباً!

(١) رواه أحمد (٢٠٠٠)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. وابن ماجه في الطب (٣٥٣١)، وابن حبان في الرقى والتَّمَائِم (٦٠٨٥)، والحاكم في الطب (٢١٦/٤)، وصححه، ووافقه الذهبي، وضعفه الألباني في غاية المرام (٢٩٦)، وصححه في الصحيحة (٢١٩٥). ويشهد لهذا الحديث ويقويه حديث عمران بن حصين قال: دخلت على النبي ﷺ، وفي عضدي حلقة صُفْر، فقال: «ما هذه؟». فقلت: من الواهنة. فقال: «انبذها». رواه الحاكم (٢١٦/٤)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في الطب (٢٣٩٢٩).

روى أحمد، عن عقبة بن عامر مرفوعاً: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً، فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً، فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ»^(١). وفي رواية: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ»^(٢).

ومعنى «تعلق تميمة» أي: علّقها متعلّقاً بها قلبه، في طلب خير، أو دفع شر.

وإنما كانت شركاً؛ لأن فيها طلب دفع الضرر من غير الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

ومن هذه التمايم ما يُسمى (الجامعة) أو (الحرز) أو (الحجاب) أو ما شابه ذلك من الأسماء، فكلها من كبائر المنكرات، وإزالتها واجبة على كل مستطيع.

جاء عن سعيد بن جبير: أنه مَنْ قطع تميمة من إنسان كان كعِذْل رَقَبَةٍ^(٣). أي: كمن أعتق رقبة.

التميمة من القرآن، ومن أسماء الله تعالى:

فإذا كانت التميمة من آيات القرآن، أو تشتمل على أسماء الله تعالى وصفاته، فهل تدخل في النهي عن التمايم أم تُستثنى منه، ويجوز تعليقها؟

(١) رواه أحمد (١٧٤٠٤)، وقال مخرجه: حسن. والحاكم في الطب (٢١٦/٤)، وصححه، ووافقه الذهبي، وجود إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٥٢٤١)، وضعفه الألباني في الضعيفة (١٢٦٦)، عن عقبة بن عامر.

(٢) رواه أحمد (١٧٤٢٢)، وقال مخرجه: إسناده قوي. وصححه الألباني في الصحيحة (٤٩٢)، عن عقبة بن عامر.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في الطب (٢٣٩٣٩).

اختلف السلف في ذلك، فبعضهم رَخَّصَ فيها، وبعضهم منع. وهذا الاختلاف يخفّف من أمرها. والذي نختاره هو المنع من التمائم كلها، وإن كانت من القرآن؛ لعدة أدلة:

أولاً: عموم النهي عن التمائم؛ فإنّ الأحاديث لم تستثن منها شيئاً.

ثانياً: سد الذريعة؛ فإن الترخيص في تعليق التمائم إذا كانت من القرآن، يفتح الباب لتعليق غيرها، وباب الشر إذا فُتِح لا يُسَد.

ثالثاً: أن هذا يُعَرِّض القرآن للامتهان، حيث يحمله من علّقه في الأماكن النجسة، وفي وقت قضاء الحاجة، وفي حالة الجنابة والحيض، ونحوها.

رابعاً: أن في ذلك استخفافاً بالقرآن، ومناقضة لما جاء له، فإن الله أنزله ليهدي الناس للتي هي أقوم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، لا ليَتَّخِذ تمائم وأحرازاً للنساء والأطفال.

الرُّقى:

ومما ينافي التوحيد: الرقى، وهي كلمات وتمتمات كان يتعاطاها أهل الجاهلية، معتقدين أنها تدفع عنهم الآفات، مستعينين بالجن، أو مرددين بعض الأسماء الأعجمية أو الألفاظ غير المفهومة. فجاء الإسلام فأبطل ذلك، كما في الحديث: «إِنَّ الرُّقى وَالتَّمائم وَالتَّوَلَّةَ شِرْكٌ»^(١).

(١) رواه أحمد (٣٦١٥)، وقال مخرجه: صحيح لغيره. وأبو داود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠)، كلاهما في الطب، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٨٤٥)، عن ابن مسعود. والمراد بالرُّقى في هذا الحديث: الرقى التي لا يفهم معناها، والرقي المشتملة على الشرك بالله. قال الخطابي: وأما الرقى، فالمنهي عنه هو ما كان منها بغير لسان العرب، فلا يدرى ما هو، ولعله قد يدخله سحر أو كفر، وأما إذا كان مفهوم المعنى وكان فيه ذكر =

وقد جاء في الأثر، أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، رأى يوماً في عنق زوجته خيطاً، فسألها: ما هذا؟ فقالت: خيط رُقِي لي فيه من الحُمَى. فجذبه فقطعه، فرمى به، ثم قال: لقد أصبح آل عبد الله أغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الرُقَى والتمايم والتَّوَلَة شرك». فقالت: لقد كانت عيني تقذف، وكنت أختلف إلى فلان اليهودي، فإذا رقى سكنت. فقال عبد الله: إنما ذلك عمل الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رُقِي كفَّ عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أذهب البأس رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً»^(١).

فالرقى المحرمة ما كان فيها استعانة بغير الله تعالى، أو كانت بغير اللسان العربي، فإنه ربما كان كُفْراً، أو قولاً يدخله الشرك.

وما عدا ذلك فلا بأس بالرقية به، ففي صحيح مسلم، عن عوف بن مالك قال: كُنَّا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله، كيف ترى في ذلك؟ فقال: «اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً»^(٢).

قال الحافظ ابن حجر: «أجمع العلماء على جواز الرُقَى عند اجتماع ثلاثة شروط:

١ - أن يكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته.

٢ - وباللسان العربي أو بما يُعرَف معناه من غيره.

= الله سبحانه فإنه مستحب. انظر: معالم السنن (٢٢٦/٤)، نشر المطبعة العلمية، حلب، ط ١، ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.

(١) الحديث السابق.

(٢) رواه مسلم في السلام (٢٢٠٠)، وأبو داود في الطب (٣٨٨٦).

٣ - وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بذات الله تعالى»^(١).

والتَّوَلَّى المذكورة في الحديث هي: ضرب من أعمال السحرة؛ لتحبيب الرجل إلى امرأته، أو المرأة إلى زوجها.

السحر:

ومن الشرك الذي حذر منه الإسلام: السحر، وهو ضرب من التخيل والإيهام، ومنه ما هو عزائم ورقي وعقد ونفث.

وإنما كان شركاً؛ لأن فيه استعانة بغير الله تعالى من الجن والشياطين، أو الكواكب ونحوها، ولهذا جاء في الحديث: «مَنْ عقد عُقْدَةً ثُمَّ نفث فيها، فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك»^(٢).

وهو من كبائر الذنوب في الإسلام، وفي الأديان السماوية كلها، جاء في القرآن على لسان موسى ﷺ قوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩]، ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]. وقد عدّه النبي ﷺ في السبع الموبقات بعد الشرك^(٣).

وعلمنا القرآن أن نستعيز بالله من شر السحر وأهله: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]. أي: السواحر، فإنهن إذا أردن عمل

(١) فتح الباري لابن حجر (١٩٥/١٠)، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

(٢) رواه النسائي في تحريم الدم (٤٠٧٩)، وفي الكبرى في المحاربة (٣٥٢٨)، والطبراني في الأوسط (١٤٦٩)، وقال الذهبي في الميزان في ترجمة عباد بن ميسرة (٣٩٤٤): هذا الحديث لا يصح للين عباد وانقطاعه. وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية بعد أن نقل كلام الذهبي (٨٢/٣): ويتوجه أنه حديث حسن. عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦)، ومسلم في الإيمان (٨٩)، عن أبي هريرة.



السحر، عقدن الخيوط، ونفثن على كل عقدة، حتى ينعقد ما يُرَدُن. ومعنى النفث: النفخ مع شيء من الريق.

وقد ذهب كثير من أئمة السلف إلى أنَّ الساحر كافر، وأنَّ السحر كفر، وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد. وجاء عن عدد من الصحابة أنَّ عقوبة الساحر ضربه بالسيف.

فعن بَجالة بن عبدة قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر^(١).

وصحَّ قتل الساحر عن حفصة أم المؤمنين^(٢)، وعن جندب من الصحابة رضي الله عنه^(٣).

وفرق بعضهم بين مَنْ يستعين في سحره بالكفر فيكفر، وإلا فهو فاسق. وكما أنَّ السحر حرام فإنَّ المصدِّق لأهله، الساعي إليهم لعمل السحر، شريك لهم في الإثم، قال عليه السلام: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، ومصدِّق بالسحر، وقاطع الرحم»^(٤).

التنجيم من السحر:

ومن أنواع السحر: ما يُعرف باسم التنجيم، والمراد به هنا: ما يزعم أهله أنهم يعرفون ما يخبئه المستقبل من أحداث عامَّة وخاصَّة عن طريق

(١) رواه أحمد (١٦٥٧)، وقال مخرجه: إسناده على شرط البخاري. وأبو داود في الخراج (٣٠٤٣)، والترمذي في السير (١٥٨٧)، وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه عبد الرزاق في اللقطة (١٨٧٤٧)، وابن أبي شيبة في الديات (٢٨٤٩١)، عن ابن عمر.

(٣) رواه الدارقطني في الحدود (٣٢٠٥)، والبيهقي في القسامة (١٣٦/٨).

(٤) رواه أحمد (١٩٥٦٩)، وقال مخرجه: حسن لغيره. وابن حبان في الكهانة والسحر (٦١٣٧)، والحاكم في الأشربة (١٤٦/٤)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني لغيره في صحيح الترغيب (٢٥٣٩)، عن أبي موسى.

النجوم والنظر فيها. وهذا ضرب من السحر والدجل، جاء في الحديث: «مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ، فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السَّحَرِ»^(١).

وليس هذا الحديث فيمن يتعلم من علم النجوم أبعادها ومنازلها وأحجامها ومداراتها.. ونحو ذلك بما يُعرف بالملاحظة وآلات الرصد ونحوها. وهو ما يُعرف اليوم باسم (علم الفلك)، فهذا علم له أصوله وقواعده ووسائله. وقد كان للمسلمين منذ أوائل عهد الدولة العباسية علماء يبرزون في علم الفلك، لهم مخترعات وكتب وأدوات، انتفع بها العالم من بعدهم.

ولكن هذا الحديث فيمن يتعلم من هذا العلم ما يؤدّي إلى الكفر، كادّعاء معرفة الغيب، فهذا من السحر والشرك؛ إذ لا يعلم الغيب إلا الله. التّوَلَّه سحر وشرك:

ومن السحر: ما شاع من قديم بين السحرة، وهو كتابة بحروف وكلمات، وتعليق بعض الأشياء.. ونحو ذلك، بدعوى تحبيب المرأة إلى الرجل، أو تحبيب الرجل إلى المرأة.

وقد سبق في الحديث: «إِنَّ الرِّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتَّوَلَّهَ شَرْكَ»^(٢).

الكهانة والعرافة:

ومثل المنجم: الكاهن والعَرَّاف.

(١) رواه أحمد (٢٨٤٠)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. وأبو داود في الطب (٣٩٠٥)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٢٦)، وصحح إسناده النووي في رياض الصالحين (١٦٧١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٣٠٥)، عن ابن عباس.

(٢) سبق تخريجه ص ١٣٤.

والكاهن هو الذي يُخبر عن المغيّبات في المستقبل، أو هو الذي يُخبر عمّا في الضمير.

والعرّاف اسم للكاهن والمنجم والرّمّال - وهو الذي يبحث عن المجهولات بخطوط تُخَطُّ على الرّمْل أو بالنظر فيها - ومن شابه هؤلاء من كل من يدّعي معرفة المغيّبات، سواء ما يُكنّهُ المستقبل أو ما يُكنّهُ الضمير، وسواء أكان ذلك عن طريق الاتصال بالجن، أم النظر، أو الخط في الرمل، أو قراءة الفنجان، أو غير ذلك.

روى مسلم في (صحيحه)، أَنَّ النبي ﷺ قال: «مَنْ أَتَى عَرَافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ يَقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً»^(١).

وروى أحمد وأبو داود، عنه ﷺ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ»^(٢).

وذلك لأنّ مما أنزل على محمد ﷺ: أَنَّ الْغَيْبَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ إِلَّا مَنْ أَرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴿[الجن: ٢٦، ٢٧]. وكلُّ الخلق حتى النبي ﷺ لم يكن ليَعْلَم من الغيب إلا ما أعلمه الله عن طريق الوحي، ولهذا خاطبه بقوله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

(١) رواه مسلم في السلام (٢٢٣٠)، عن بعض أزواج النبي.

(٢) رواه أحمد (٩٥٣٦)، وقال مخرجه: حسن. وأبو داود في الطب (٣٩٠٤)، بلفظ: «فقد برئ

مما أنزل». والترمذي (١٣٥)، وابن ماجه (٦٣٩)، كلاهما في الطهارة، وصححه الألباني في

غاية المرام (٢٨٥)، عن أبي هريرة.

كما أَنَّ الجن الذين يستعين بهم السَّحرة والكهنة ليس لهم قدرة على معرفة الغيب، وقد ذكر القرآن عن جنٍّ سليمان أنهم لم يعلموا موت سليمان: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤]. ولهذا كان تصديق الكهنة والعرافين - في زعمهم معرفة الغيب - كفرًا بما أنزل الله من آيات بينات.

وإذا كان إتيان هؤلاء وتصديقهم بهذه المنزلة من الشناعة في الدين، فما بالك بهؤلاء الكهنة والعرافين أنفسهم؟ إنهم برآء من الدين، كما أَنَّ الدين بريء منهم، جاء في الحديث: «ليس منّا من تطيّر أو تُطيّر له، أو تكهن أو تُكهن له، أو سحر أو سُحر له»^(١).

النذر لغير الله:

ومن الشرك: النذر لغير الله تعالى، كالنذر للقبور وأصحابها. ذلك أن النذر عبادة وقربة، والعبادة لا يجوز أن تُوجَّه إلا إلى الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠]. والمراد بالظالمين في الآية: المشركون؛ فإنَّ الشرك ظلم عظيم، ومن قصد بالعبادة غير الله تعالى فقد أشرك.

قال الشيخ قاسم ابن قطلوبغا (ت: ٨٧٩هـ) في (شرح الدرر): «النذر الذي ينذر له أكثر العوام - على ما هو مُشَاهَد - كأن يكون للإنسان غائب

(١) رواه البزار (٣٥٧٨)، والطبراني (١٦٢/١٨)، وجود المنذري في الترغيب والترهيب إسناد البزار

(٤٦٠٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٤٨٠): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا

إسحاق بن الربيع وهو ثقة. عن عمران بن حصين.

والتكهن هو: التخُّرُّص والتماس الحقائق بأمور لا أساس لها.



أو مريض أو له حاجة، فيأتي إلى مقبرة بعض الصالحين، ويقول: يا سيدي فلان، إن رد الله غائبي، أو عوفي مريض، أو قضيت حاجتي، فلك من الذهب كذا، أو من الطعام كذا، أو من الشمع والزيت كذا: فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه:

ومنها: أنه نذر لمخلوق، والنذر للمخلوق لا يجوز؛ لأنه عبادة، والعبادة لا تكون لمخلوق.

ومنها: أن المنذور له ميت، والميت لا يملك ولا يملك.

ومنها: أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله، واعتقاده ذلك كفر.

ثم قال: «إذا عَلِمْتَ هذا، فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها، ويُنقل إلى ضرائح الأولياء تقرباً إليها؛ فحرامٌ بإجماع المسلمين»^(١).

حكم الوفاء بالنذر لغير الله:

وإذا كان هذا النذر حراماً، فلا يلزم الوفاء به، بل لا يجوز، لثلاثة أدلة:

الأول: أنه جاء على غير أمر النبي ﷺ، وقد قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(٢).

(١) البحر الرائق شرح كنز الدقائق لابن نجيم (٣٢٠/٢، ٣٢١) بتصرف، نشر دار الكتاب الإسلامي، ط ٢.

(٢) رواه مسلم في الحدود (١٧١٨)، عن عائشة.

الثاني: أنه نذر لغير الله فهو شرك، والشرك لا حُرمة له، فهو مثل الحلف بالمخلوقات، لا يجب الوفاء به، ولا كفارة فيه، وليس فيه إلا الاستغفار، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية^(١).

الثالث: أنه نذر معصية، وقد بيّنت السنة أن كل نذر اشتمل على معصية أو شرك لا يلزم الوفاء به، بل لا يجوز الوفاء به، ففي (صحيح البخاري) عن عائشة مرفوعاً: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»^(٢).

وعن ثابت بن الضحاك، أن رجلاً نذر أن ينحر إبلاً ببوانة - هي بضم الباء، هضبة من وراء ينبع - فسأله النبي ﷺ، فقال: «هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يُعبد؟». قالوا: لا. قال: «فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟». قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: «أوف بنذرك؛ فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم»^(٣).

الذبح لغير الله:

ومن الشرك: تقديم القرابين وذبح الذبائح لغير الله تعالى، معتقداً جواز ذلك.

فقد جرت عادة المشركين في كل أمة أن يتقربوا بذبائحهم إلى آلهتهم وأصنامهم، فأبطل الإسلام ذلك وحرّمه ﴿وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣].

(١) مجموع الفتاوى (٥٠٤/١١).

(٢) رواه البخاري في الإيمان والنذور (٦٦٩٦).

(٣) رواه أبو داود في الإيمان والنذور (٣٣١٣)، والطبراني (٧٥/٢)، وصححه ابن الملقن في البدر المنير (٥١٨/٩)، ووافقه ابن حجر في بلوغ المرام (١٣٩٢). وفي هذا الحديث سدُّ الذريعة وترك مشابهة المشركين، والمنع مما هو وسيلة إلى ذلك.

أي: ما ذَكَرَ عليه اسم غير الله من صنم أو نحوه، ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣]، أي ما نُصِبَ من حجر أو شجر أو صنم؛ لِيُعْبَدَ أو يُعْظَمَ أو يُتَبَرَكَ به. وأمر أن يكون الذبح لله وحده، ولهذا أمر الله رسوله أن يجعل صلاته ونحره لله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، وأن يعلن في المشركين أن هديه مخالف لهم في صلاته ونُسكِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

والنُّسْكُ هو الذبح بقصد التقرب.

وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات: «لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثاً - أي: حمى مجرمًا يستحق العقاب بأن تستر عليه أو نصره بنفوذه وسلطانة - لعن الله من غيّر منار الأرض»^(١). أي: معالمها وحدودها، وذلك لِيُدْخَلَ في ملكه ما ليس من حقه.

ومن حرص الإسلام على التوحيد ومجانبة الشرك: أنه أمر ألا يُذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله، كما في حديث ثابت بن الضحّاك السابق في الرجل الذي نذر أن ينحر إبلاً ببوانة^(٢).

وقد شهدت في صباي بعض أهل قريتي يذهبون بحيواناتهم إلى مولد السيد البدوي بطنطا، ويذبحونها ويأكلونها هناك، وقد أنكرت عليهم هذا الأمر، فقالوا: نحن لا نذبح إلا لله. قلت لهم: فأولى بكم أن

(١) رواه مسلم في الأضاحي (١٩٧٨).

(٢) سبق تخريجه ص ١٤٢.

تجعلوه للأضحى، وتذبحوه يوم الأضحى، فتُحْيُوا بذلك سنة، وتوسّعوا على الفقراء في يوم العيد.

الطَّيْرَةُ شَرَكٌ:

ومن الشُّرك: الطَّيْرَةُ^(١)، ومعناها: التشاؤم ببعض الأصوات المسموعة، أو الأشياء المرئية، أو نحو ذلك. فإذا رَدَّ شيء من ذلك عن حاجته التي عزم عليها، كسفر أو زواج أو تجارة أو نحو ذلك، فقد دخل في الشُّرك؛ لأنه لم يُخلص توكله على الله، ولأنه التفت إلى سواه، وجعل للتطير في قلبه نصيبًا.

وقال النووي في (شرحه على صحيح مسلم): «والتطير: التشاؤم، وأصله: الشيء المكروه من قول أو فعل أو مرئي، وكانوا يتطيرون بالسوانح - ما مرَّ من الطير والوحش بين يديك من اليسار لليمين - والبوارح - ما مرَّ بين يديك من اليمين لليसार - فينفِّرون الظباء والطيور، فإن أخذت ذات اليمين تبرَّكوا به ومضوا في سفرهم، وإن أخذت ذات الشمال رجعوا عن سفرهم وحاجتهم وتشاءموا به، فكانت تصدهم في كثير من الأوقات عن مصالحهم، فنفى الشرع ذلك وأبطله ونهى عنه»^(٢).

(١) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر مادة (ط. ي. ر): هي التشاؤم بالشيء، وهو مصدر تطيّر، يقال: تطيّر طيْرَة، وتخيّر خيْرَة، ولم يجئ من المصادر هكذا غيرهما. وأصله فيما يقال: التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما، وكان ذلك يصدُّهم عن مقاصدهم، فنفاه الشرع، وأبطله، ونهى عنه، وأخبرهم أنه ليس له تأثير في جلب نفع أو دفع ضرر اهـ.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢١٨/١٤، ٢١٩)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٢هـ.

روى الإمام أحمد، أن النبي ﷺ قال: «من ردّته الطيرة عن حاجته فقد أشرك». فقالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: «أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»^(١).

وأما ما يجده الإنسان في نفسه من انقباض أو توجّس للشر من بعض الأشياء، فلا يؤثر ولا يضر، إذا مضى في طريقه متوكّلاً على الله، ولم يردّه التطيّر عن قصده وغايته.

روى أبو داود والترمذي، عن ابن مسعود مرفوعاً: «الطيرة شرك، الطيرة شرك». وما منا إلا، ولكن يذهب الله بالتوكل^(٢).

ومعنى: «وما منا إلا». أي: ما منّا أحد إلا وقر في قلبه شيء من ذلك، بمقتضى الضعف البشري، ولكن مزيّة المؤمن أن الله يُذهب من قلبه تلك الخواطر من أثر توكله على الله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

و ضد الطيرة: الفأل. وهو توقُّع الإنسان الخير، بناء على كلام سمعه أو شيء أبصره، أو نحو ذلك. وكان النبي ﷺ يحبُّ الفأل الحسن، ففي الحديث: «يُعجبني الفأل». قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة»^(٣).

والفرق بين الفأل والطيرة: أن الفأل إنما هو من طريق حسن الظنّ بالله تعالى، والطيرة إنما هي من طريق الاتكال على شيء سواه^(٤).

(١) رواه أحمد (٧٠٤٥)، وقال مخرجه: حديث حسن. والطبراني (٢٢/١٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨٤١٢): فيه ابن لهيعة، وحديثه حسن وفيه ضعف، وبقيّة رجاله ثقات.

(٢) رواه أحمد (٣٦٨٧)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. وأبو داود في الطب (٣٩١٠)، والترمذي في السير (١٦١٤)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الطب (٣٥٣٨).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٧٦)، ومسلم في السلام (٢٢٢٤)، عن أنس.

(٤) غريب الحديث للخطابي (١٨٣/١)، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرابوي، نشر دار الفكر، دمشق، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

مثال التفاؤل: أن يكون رجل مريض، فسمع آخر يقول: يا سالم. فيتفاءل بالسلامة والصحة، فهذا أمر حسن؛ لأنه داعٍ إلى سعة الأمل، وحسن الظن بالله تعالى، بخلاف الطيرة؛ فإن فيها سوء الظن بالله تعالى، وتوقع البلاء من غير سبب يُفضي إليه.

هذه أهم الأمور التي يحمي الإسلام بها حمى التوحيد، والذي يجب المحافظة عليه مما يشوبه من مفسدات، فهو أغلى ما يملكه المسلم.

وكثير من هذه الأمور التي يرتكبها جهلة المسلمين وبعض عوامهم تعد من البدع والمحرمات. لا يُحَكَّم على مرتكبها بالكفر أو الخروج من الملة، ولا بدّ من الاحتياط في قضايا التكفير في هذه المسائل. ومما يؤيد احتياطنا هذا:

١ - أن هؤلاء الذين يرتكبون هذه الأمور التي يناقض بعضها التوحيد، لا يزالون يلهجون بشهادة أن (لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله)، وهي الكلمة العاصمة للדם والمال في الدنيا، والمنجية من الخلود في النار في الآخرة.

٢ - أن من هؤلاء من يحافظون على الفرائض، من الصلاة والصيام والزكاة وحج البيت، ويتجنبون المحرمات، ومنهم من يحرص على النوافل، ويتعد عن الشبهات والمكروهات. وتكفير هؤلاء أمر شديد.

٣ - أن الأولى من تكفير هؤلاء وإخراجهم من الملة: أن نبذل معهم جهدًا صادقًا، لتصحيح مفاهيمهم، وتغيير معتقداتهم. فالحق أنهم جهال يجب أن يُعَلِّمُوا، لا مشركون يجب أن يقاتلوا، ولا مرتدون يجب أن يُقْتَلُوا.



الإسلام يسد المنافذ إلى الشرك

لقد جاء الإسلام بالتوحيد الخالص، وحارب الشرك أكبره وأصغره، وحذّر منه أشد التحذير، واتخذ لذلك وسائل شتى، أبرزها سدّ كل المنافذ التي تهبّ منها ريح الشرك.

من هذه المنافذ ما يأتي:

الغلو في تعظيم النبي ﷺ:

نهى النبي ﷺ عن الغلو في تعظيمه ومدحه، فقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»^(١). و«الإطراء: المدح بالباطل، تقول: أطريت فلاناً مدحته فأفرطت في مدحه. قوله: «كما أطرت النصارى ابن مريم». أي: في دعواهم فيه الإلهية، وغير ذلك»^(٢).

والقرآن الكريم أثنى عليه ﷺ بالعبودية لله في أشرف المقامات؛ تأكيداً لهذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١]، وقوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وقوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

وكان صلوات الله عليه، إذا رأى أو سمع ما يؤدّي إلى الغلو في شخصه، زجر من قال ذلك أو فعله، ونبّهه إلى الحقّ والسداد.

(١) رواه البخاري في الأنبياء (٣٤٤٥)، عن عمر.

(٢) فتح الباري لابن حجر (٤٩٠/٦).

روى أبو داود بسندٍ جيد، عن عبد الله بن الشَّخِير رضي عنه قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: أنت سيدنا. قال: «السيد: الله تبارك وتعالى»^(١).

وهذا في السيادة المطلقة، فهي لله ﷻ، وقد استعمل القرآن كلمة (سيد)، فقال عن يحيى عليه السلام: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]. وفي وصف عزيز مصر: ﴿وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥].

وعن أبي سعيد: أن أهل قريظة نزلوا على حكم سعد، فأرسل النبي ﷺ إليه فجاء، فقال: «قوموا إلى سيدكم أو قال: خيركم...»^(٢)، وورد عن عمر رضي عنه أنه قال: أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا^(٣).

وقال النبي ﷺ في سبطه وريحانته سيدنا الحسن: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»^(٤).

و(السيد) من الأسماء المشتركة التي تطلق عليه ﷺ كما تطلق على غيره من خلقه.

وعن أنس أن أناسًا قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا. فقال: «يا أيُّها الناس، قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم

(١) رواه أبو داود في الآداب (٤٨٠٦)، والنسائي في الكبرى في اليوم والليلة (١٠٠٥)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٤٩٠٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٦٢)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٦٨).

(٣) رواه البخاري في أصحاب النبي (٣٧٥٤).

(٤) رواه البخاري في الصلح (٢٧٠٤)، عن أبي بكرة.

الشیطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، وما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله وَجَلَّ»^(١).

ولما قال له رجل: ما شاء الله وشئت. قال: «أجعلتني لله ندا؟ قل: ما شاء الله وحده»^(٢).

الغلو في الصالحين:

ومما نهى عنه الإسلام وحذر منه: الغلو في شأن الصالحين.

فقد غلا قوم في شأن المسيح حتى جعلوه ابناً لله، أو ثالث ثلاثة، وقال بعضهم: إن الله هو المسيح ابن مريم.

وغلا قوم في أحبارهم ورهبانهم، فاتخذوهم أرباباً من دون الله، من هنا حذر الله من غلو أهل الكتاب، وشنع عليهم في ذلك، فقال: ﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خيراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١]، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا

(١) رواه أحمد (١٣٥٢٩)، وقال مخرجه: حديث صحيح. والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٠٧٨)، عن أنس.

(٢) رواه أحمد (١٨٣٩)، وقال مخرجه: صحيح لغيره. وابن ماجه في الكفارات (٢١١٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٨٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٩)، عن ابن عباس.

يَقُولُونَ لِمَسَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ
وَيَسْتَغْفِرُونَهُ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ
قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ
كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا
مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿المائدة: ٧٢ - ٧٧﴾.

وأول شرك وقع في الأرض - هو شرك قوم نوح - كان سببه الغلو
في الصالحين. جاء في (صحيح البخاري)، عن ابن عباس في
الحديث عن آلهتهم (وَدَّ وَسْوَاعَ وَيَعُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرَ) قال: هذه
أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى
قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً،
وسموها بأسمائهم. ففعلوا ولم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخَ
العلم، عُبدت^(١).

وقال بعض السلف: لما ماتوا علقوا على قبورهم، ثم صوّروا
تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم.

ومن هنا نعلم أنَّ غلو بعض المسلمين فيمن يعتقدون صلاحهم
وولايتهم لله - وبخاصة أصحاب الأضرحة والمزارات - يؤدي إلى
أنواع من الشرك، كالنذر لهم، والذبح لهم، والاستعانة بهم، والإقسام
بهم على الله ونحو ذلك، وقد يفضي بهم الغلو إلى الشرك الأكبر،

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٩٢٠).

وهو: اعتقاد أن لهم سلطة وتأثيرًا في الوجود، وراء الأسباب والسنن الكونيّة، فيُدْعَوْنَ مَنْ دُونَ اللَّهِ أَوْ مَعَ اللَّهِ، وهذا هو الإثم العظيم والضلال البعيد.

تعظيم القبور:

ومما حذر منه الإسلام أشد التحذير: تعظيم القبور، وبخاصة قبور الأنبياء والصالحين، ولذلك نهى عن جملة أشياء تفضي إلى تعظيم القبور، منها:

١ - اتخاذها مساجد:

روى مسلم في (صحيحه)، أن النبي ﷺ قال قبل أن يموت بخمس: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك»^(١).

وعن عائشة وابن عباس قالا: لما نُزِلَ برسول الله ﷺ - أي وهو في حالة الاحتضار - طَفِقَ يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتمّ بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد». يُحَذَّرُ ما صنعوا^(٢).

٢ - الصلاة إليها:

ففي الحديث: «لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها»^(٣). أي: لا تجعلوا القبور في اتجاه القبلة.

(١) رواه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٣٢)، عن جندب.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٣٥)، ومسلم في المساجد (٥٣١).

(٣) رواه مسلم في الجنائز (٩٧٢)، وأحمد (١٧٢١٦)، عن أبي مرثد.

٣ - إضاعتها وإيقاد السرج عليها:

في الحديث: «لعن الله زوّارات القبور»^(١)، والمتّخذين عليها المساجد والشُّرُج»^(٢).

٤ - البناء عليها وتخصيصها:

روى مسلم، عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ عن تخصيص القبر، وأن يُقعد عليه، وأن يُبنى عليه بناء»^(٣).

(١) الأحاديث الدالة على الإذن في زيارة النساء للقبور أصح وأكثر من الأحاديث الدالة على المنع، والجمع والتوفيق بينها ممكن، وذلك بحمل (اللعن) المذكور في الحديث على المكثرات من الزيارة، لما تقتضيه الصيغة «زوّارات» من المبالغة، قال القرطبي: ولعل السبب ما يفضي إليه ذلك من تضييع حق الزوج، والتبرج، وما ينشأ من الصياح (العويل) ونحو ذلك. انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦٣٣/٢)، تحقيق محيي الدين ديب مستو وآخرين، نشر دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، دمشق، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

قال الشوكاني: وإذا أمن جميع ذلك فلا مانع من الإذن لهن، لأن تذكر الموت يحتاج إليه الرجال والنساء. وهذا الكلام هو الذي ينبغي اعتماده في الجمع بين الأحاديث المتعارضة في الظاهر. نيل الأوطار (١٣٤/٤، ١٣٥)، تحقيق عصام الدين الصبابي، نشر دار الحديث، مصر، ط ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

وهذا ما أرجّحه وأطمئن إليه. وانظر: فتاوى معاصرة (٤٠٩/٤ - ٤١١)، فتوى زيارة النساء للقبور وبدعها.

(٢) رواه أحمد (٢٩٨٤)، وقال مخرّجوه: حسن لغيره، دون ذكر السرج. وأبو داود في الجنائز (٣٢٣٦)، والترمذي في الصلاة (٣٢٠)، وحسنه، والنسائي (٢٠٤٣)، وابن حبان (٣١٨٠)، كلاهما في الجنائز، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر في تخريج المسند (٢٦٠٣)، عن ابن عباس.

(٣) رواه مسلم في الجنائز (٩٧٠)، وأحمد (١٤٦٤٧).

٥ - الكتابة عليها:

لحديث جابر: أنه ﷺ نهى أن تُجصَّص القبور، وأن يُكتب عليها^(١).
إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

٦ - تعليتها ورفعها:

لحديث علي: أن النبي ﷺ بعثه وأمره ألا يدع قبرًا مشرفًا إلا سواه^(٢).
كما جاء في (سنن أبي داود) نهيه ﷺ أن يُزاد عليها غير ترابها
من الأحجار والآجر ونحوها^(٣). ولهذا كان السلف يكرهون الآجر
على قبورهم^(٤).

٧ - اتخاذها عيدًا:

روى أبو داود، عن أبي هريرة مرفوعًا: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا
تجعلوا قبري عيدًا، وصلُّوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»^(٥).

(١) رواه الترمذي في الجنائز (١٠٥٢)، وقال: حسن صحيح. والنسائي (٢٠٢٧)، والحاكم (٣٧٠/١)، كلاهما في الجنائز، وصححه، لكنه قال: الكتابة لفظة صحيحة غريبة، وليس العمل عليها، فإن أئمة المسلمين من الشرق إلى الغرب مكتوب على قبورهم، وهو عمل أخذ به الخلف عن السلف. وتعقبه الذهبي بقوله: ما قلت طائلاً، ولا نعلم صحابيًا فعل ذلك، وإنما هو شيء أحدثه بعض التابعين فمن بعدهم، ولم يبلغهم النهي.

(٢) رواه مسلم في الجنائز (٩٦٩)، وأحمد (٧٤١). أي: ما رفع بجدار أو نحوه، وأما رفعه قليلاً حتى يتميز ويعرف أنه قبر فلا يجلس عليه فهذا مباح اتفاقاً.

(٣) رواه أبو داود في الجنائز (٣٢٢٥، ٣٢٢٦)، والنسائي (٢٠٢٧)، كلاهما في الجنائز، وصححه النووي في خلاصة الأحكام (١٠٢٦/٢)، عن جابر بن عبد الله.

(٤) إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان لابن القيم (١٩٦/١)، تحقيق محمد حامد الفقي، نشر مكتبة المعارف، الرياض.

(٥) رواه أحمد (٨٨٠٤)، وقال مخرجه: إسناده حسن. وأبو داود في المناسك (٢٠٤٢)، وصححه =

وروى أبو يعلى بسنده، عن علي بن الحسين، أنه رأى رجلاً يجيء إلى فُرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها ويدعو، فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته عن أبي، عن جدي، عن رسول الله ﷺ قال: «لا تتخذوا قبوري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم»^(١). ومعنى اتخاذ القبر عيداً: قصده للاجتماع فيه والقعود عنده ونحو ذلك.

وقبر رسول الله ﷺ هو أفضل قبر على وجه الأرض، فإذا نهى عن اتخاذ عيداً فقبر غيره أولى بالنهي، كائناً من كان. ويكفي أن يُصلي ويُسلم على الرسول ﷺ، فتصله صلاته وسلامه حيثما كان.

الحكمة في هذا التحذير:

والحكمة في نهى الإسلام عن تعظيم القبور، أنه ذريعة إلى الشرك الأصغر والأكبر، كما رأينا في قوم نوح، وكما هو مشاهد إلى اليوم. فالغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً معبودة، ولهذا قال ﷺ: «اللهم لا تجعل قبوري وثناً يُعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٢).

= إسناده النووي في رياض الصالحين (١٤٠١)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٧٨٠)، عن أبي هريرة.

(١) رواه أبو يعلى (٤٦٩)، والضياء في المختارة (٤٢٨)، وقال: في إسناده لين. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٨٤٧): فيه حفص بن إبراهيم الجعفري، ذكره ابن أبي حاتم، ولم يذكر فيه جرحاً، وبقية رجاله ثقات. وحسنه ابن حجر في نتائج الأفكار (٢١/٤)، وقال الألباني في تخريج فضائل الشام ص ٥٢: صحيح بطرقه وشواهده.

(٢) رواه مالك (٥٩٣)، مرسلاً عن عطاء بن يسار، (تحقيق الأعظمي)، ورواه أحمد (٧٣٥٨)، وقال مخرجه: إسناده قوي. عن أبي هريرة.

وممّا يأسف له كل مسلم غيور على دينه: أن ما حذّر منه الرسول ﷺ قد وقع فيه كثير من أهل الإسلام. فقد اتّخذوا قبور بعض الصالحين أعياداً، وشيّدوها وزخرفوها، وبنوا عليها المساجد والقباب، وأوقدوا عليها السّرج والقناديل، ووقفوا لذلك الوقوف، ونذروا لها النذور، وطافوا بها كالكعبة، واستلموها كالحجر الأسود، وأوسعوا جدرانها لثماً وتقبيلاً، ومنهم من يسجد لها، ويُعفّر الخدود على ترابها، ويقف خاشعاً مستكيناً، يستغيث بأصحابها، يسأله - مشافهة - قضاء الديون، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وشفاء المرضى، والنصر على الأعداء، وبعضهم يقدم طلباته مكتوبة في رقاع إلى صاحب القبر، وهذا من الشرك الصريح، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

التبرك بالأشجار والأحجار ونحوها:

ومن الشرك الذي حاربه النبي ﷺ: التبرك بالأشجار والأحجار والقبور ونحوها، على اعتقاد أن لها سرّاً أو بركة خاصة، ينالها من تمسح بها، أو طاف حولها، أو زارها، أو جلس إليها. وهذا مما يُفضي بمن فعله إذا تمادى فيه إلى الشرك الأكبر؛ فإن أصنام العرب الكبرى كانت إما صخرة كاللّات، أو شجرة كالعزى، أو حجراً كمناة، ولهذا حذّر النبي ﷺ منه وزجر عنه.

وقد روى الترمذي، عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين - ونحن حديثو عهد بكفر - وللمشركين سِدْرَة - شجرة نبق - يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط. فمررنا بسِدْرَة فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، إنها السنن، قلتم - والذي

نفسى بيده - كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿[الأعراف: ١٣٨]، لتركبن سنن من كان قبلكم﴾^(١).

فالظاهر: أنهم كانوا يريدون مجرد التبرك بهذه الشجرة وتعليق أسلحتهم عليها، فزجرهم النبي ﷺ هذا الزجر الشديد؛ سدًا للذريعة إلى الشرك.

ومما يؤسف له أن كثيرًا من المسلمين قد انحرفوا عن هدي رسول الله ﷺ، واتبعوا سنن من كان قبلهم، فاتخذوا لهم (أنصابًا) يتبركون بها، ويتمسحون بها، ويدعون عندها، ويتوسلون بها، ويتعلقون بها تعلقًا يشبه تعلق المشركين بالأصنام. وكم في بلاد المسلمين من «ذوات أنواط» مما زجر عنه نبيهم ﷺ.

والواجب على المسلمين وعلى حكامهم وعلمائهم خاصة: إزالة هذا المنكر، وهدم هذه الأنصاب ومحوها، من شجرة أو عمود، أو قبر أو خشبة، أو عين أو حجر أو غيرها؛ اقتداءً بما فعله النبي ﷺ حين بعث عليًا، وأمره بهدم القبور المشرفة أو تسويتها بالأرض، كما في (صحيح مسلم)، عن أبي الهيثاج الأسدي قال: قال لي عليٌّ رضي الله عنه: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ألا أدع تمثالًا إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته^(٢)؟

وذكر الإمام أبو بكر الطرطوشي المالكي، أنه لما بلغ عمر رضي الله عنه أن الناس يأتون الشجرة التي بايع الصحابة تحتها رسول الله ﷺ، فيصلون عندها، أرسل، فقطعها؛ خوفًا على المسلمين من الفتنة^(٣).

(١) رواه أحمد (٢١٨٩٧)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والترمذي في الفتن (٢١٨٠)، وقال: حسن صحيح.

(٢) سبق تخريجه ص ١٥٣.

(٣) الحوادث والبدع للطرطوشي ص ١٦٠، نشر دار ابن الجوزي، ط ٣، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

فإذا كان هذا فعل عمر بالشجرة التي ذكرها الله في القرآن، وبايع الصحابة تحتها رسول الله ﷺ، فماذا يكون حكمه فيما عداها من هذه الأنصاب والأوثان التي عظمت الفتنة بها، واشتدت البلية بها؟!

قال الإمام الطرطوشي: «انظروا - رحمكم الله - أينما وجدتم سِدْرَةَ أو شجرة يقصدها الناس ويُعظمونها، ويرجون البرء والشفاء من قِبَلِها، وينوطون بها المسامير والخِرَق، فهي (ذات أنواط) فاقطعوها»^(١).

وعن المعرور بن سويد قال: صليتُ مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في طريق مكة صلاة الصبح، فقرأ فيها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَبِ الْأَيْلِ﴾، ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٌ﴾ ثم رأى الناس يذهبون مذاهب، فقال: أين يذهب هؤلاء؟ فقل: يا أمير المؤمنين، مسجد صلى فيه النبي ﷺ فهم يصلون فيه. فقال: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا، كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعًا، فمن أدركته الصلاة منكم في هذه المساجد فليصل، ومن لا، فليمض ولا يتعمدها^(٢).

وهذا من فقه عمر رضي الله عنه، وحرصه على عقيدة العامة، وخشيته عليهم من الغلو والانحراف. وخاصة أنه وجد في أولئك الأقوام تمسكًا وتعلقًا بالمواضع التي صلى فيها رسول الله ﷺ، يفوق الحرص على أولويات الإسلام وفرائضه.

(١) الحوادث والبدع ص ٣٨، ٣٩.

(٢) رواه عبد الرزاق (٢٧٣٤)، وابن أبي شيبة (٧٦٣٢)، كلاهما في الصلاة، وقال الألباني في تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق ص ٥٠: صحيح على شرط الشيخين.

الألفاظ الموهمة للشرك:

ومِمَّا حَذَّرَ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ: الألفاظ التي فيها إيهام بالشرك، والمُشْعِرَة بالمساواة مع الله، وفيها إساءة للأدب مع الله، وذلك حماية منه لحمى التوحيد.

أ - من ذلك قول القائل: ما شاء الله وشاء فلان، أو باسم الله واسم الأمير، أو باسم الله واسم الشعب. وقد مرَّ بنا إنكار النبي ﷺ لمن قال له ذلك. روى حذيفة، عنه ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان. ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»^(١).

ب - ومن ذلك قولهم: لولا الله وفلان، أو اعتمدتُ على الله وعليك. وما شابه هذه الألفاظ. قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]: الأنداد هو الشرك. أخفى من ديب النمل، على صفة سوداء، وفي ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلانة، وحياتي. وتقول: لولا كلبه هذا لأتانا اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت. وقول الرجل: لولا الله وفلان. هذا كله به شرك^(٢).

(١) رواه أحمد (٢٣٢٦٥)، وقال مخرجه: حديث صحيح. وأبو داود في الأدب (٤٩٨٠)، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٧٥٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٧)، عن حذيفة بن اليمان.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢٢٩). ولي فتوى مفصلة في كتابي فتاوى معاصرة (١٨٠/٢ - ١٨٤)، بينت فيها أن استخدام حرف (ثم) في العطف على اسم الله، بدل (الواو) ليس بواجب ولا لازم دائماً، وأن استعمال (الواو) ليس منكراً ولا ممنوعاً في كل حال. إنما يمنع في حالات توهم التسوية بين الله وخلقه، وهو ما ينفر منه حس المسلم الموحد، والذي ينبغي هنا هو الاحتياط، سداً للذريعة، وحماية لجناح التوحيد، وبعداً عن مظنة الغلو والتقديس، فإنما هلك من كان قبلنا بالغلو في الدين.

ج - ومن ذلك التَّسْمِي بِأَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، أو بما لا ينبغي إلا لله.

روى أبو داود، عن أبي شريح، أنه كان يُكنى أبا الحَكَم، فقال له النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَم، وَإِلَيْهِ الْحُكْم». ثم كُنِيَ بولده شريح، أكبر أولاده^(١).

وفي الصحيح، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ - أي: أَوْضَعَ اسْمٍ وَأَذَلَّهُ - عِنْدَ اللَّهِ، رَجُلٌ تَسَمَّى: مَلِكُ الْأَمْلاَكِ. لَا مَالِكَ إِلَّا لِلَّهِ»^(٢). قال سفيان بن عُيينة مثل: شاهنشاه عند العجم؛ لأن معناها ملك الملوك. وفي رواية: «أَغِيْظُ رَجُلٌ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ»^(٣).

(د) ومن ذلك أَنْ يُسَمَّى الْإِنْسَانُ بِاسْمٍ مَعْبَدٍ لغير الله، كعبد الكعبة، أو عبد النبي، أو عبد علي، أو عبد الحسين، أو عبد المسيح، ونحو ذلك، فقد نقل ابن حزم الإجماع على تحريم التسمية بذلك، باستثناء عبد المطلب^(٤).

وإن كان الأولي بالمسلم ألا يسمي ابنه أو ابن أحد من المسلمين باسم عبد المطلب، لأن (المطلب) ليس اسماً من أسماء الله الحسنى، والأصل حظر الأسماء المعبدة لغير الله، والنبي الكريم حين نطق بها إنما نطق بها من جهة الإخبار، لا من جهة الإنشاء.

(١) رواه أبو داود في الأدب (٤٩٥٥)، والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٨١١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٤٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٢٠٥)، ومسلم في الآداب (٢١٤٣).

(٣) رواه مسلم في الآداب (٢١٤٣) (٢١).

(٤) لحديث النبي ﷺ قال يوم حنين: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب». متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦)، كلاهما في الجهاد والسير.

هـ - ومن ذلك: سبُّ الدهر عند نزول الشدائد والنكبات بالناس؛ فإنَّ سبَّ الدهر حينئذ كان نوعاً من شكوى الله تعالى، أو السخط عليه؛ فإنه هو الذي يُدبِّر الأمر، ويُقَلِّب الليل والنهار، وهو الفاعل لكل ما في الكون من أحداث.

ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «قال الله تعالى: يُؤذيني ابن آدم، يسبُّ الدهر وأنا الدهر، أَقْلَبُ الليل والنهار»^(١).

* * *



(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٨٢٦)، ومسلم في الألفاظ من الأدب (٢٢٤٦)، عن أبي هريرة.

قال الخطابي: معناه: أنا صاحب الدهر، ومدبر الأمور التي ينسبونها إلى الدهر، فمن سب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور، عاد سبه إلى ربه الذي هو فاعلها، وإنما الدهر زمان جعل ظرفاً لمواقع الأمور. أعلام الحديث (١٩٠٤/٣)، تحقيق د. محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، نشر مركز البحوث العلمية وإحياء التراث، جامعة أم القرى، ط ١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

آثار التوحيد في الحياة

إنَّ التوحيد الخالص من شوائب الشرك إذا تحقق في حياة فرد أو قامت عليه حياة أمة آتى أينع الثمرات، وحقَّق أنفع الآثار في الحياة، فمن ثمرات التوحيد وآثاره:

أ - تحرير الإنسان:

فالشرك بكل صوره ومظاهره، ليس إلا امتهانًا للإنسان، وإذلالًا له، حيث يُلزمه بالخضوع للمخلوقات، والعبودية لأشياء أو أناس لا يخلقون شيئًا وهم يُخلقون، ولا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا، ولا يملكون موتًا ولا حياة ولا نُشورًا.

أما التوحيد فهو في الواقع تحرير للإنسان من كل عبودية، إلا لربه الذي خلقه فسوّاه.. تحرير لعقله من الخرافات والأوهام، وتحرير لضميره من الخضوع والذل والاستسلام، وتحرير لحياته من تسلط الفراعنة والأرباب والمتألّهين على عباد الله.

ولهذا قاوم زعماء الشرك وطغاة الجاهلية دعوات الأنبياء عامة، ودعوة الرسول خاصة؛ لأنهم كانوا يعلمون أن معنى (لا إله إلا الله): إعلان عام لتحرير البشر، وإسقاط لكل الجبابة من عروش تألّهم الكاذب، وإعلاء لجباه المؤمنين، فلا تطأئ إلا ساجدة لله رب العالمين.

ب - تكوين الشخصية المتزنة:

والتوحيد يعين على تكوين الشخصية المتزنة، التي تميّزت في الحياة وجهتها، وتوحّدت غايتها، وتحدّد طريقها، فليس لها إلا إله

واحد، تتجه إليه في الخلوة والجلوة، وتدعوه في السراء والضراء، وتعمل على ما يرضيه في الصغيرة والكبيرة.

بخلاف المشرك الذي تقسّمت قلبه الآلهة، وتوزعت حياته المعبودات، فحيناً يتجه إلى الله، وأحياناً إلى الأصنام، وحيناً إلى هذا الصنم، وحيناً إلى ذاك.

ومن هنا قال يوسف عليه السلام: ﴿يَصْحَبِي السَّجْنُ ۖ أَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩]. مثل المؤمن بعبدٍ له سيد واحد، عرف ما يرضيه وما يُسخطه، فوقف عند ما يرضيه، واستراح إليه. ومثل المشرك بعبدٍ له أكثر من سيد، هذا يوجّهه إلى الشرق، وذاك إلى الغرب، وهذا يأخذه إلى اليمين، وآخر إلى اليسار، فهم شركاء متشاكسون، وهو بينهم مشئت موزع، لا ثبات له ولا قرار.

ج - التوحيد مصدر لأمن النفس:

والتوحيد يملأ نفس صاحبه أمناً وطمأنينة، فلا تستبد به المخاوف التي تتسلط على أهل الشرك، فقد سدّ منافذ الخوف التي يفتحها الناس على أنفسهم: الخوف على الرزق، والخوف على الأجل، والخوف على النفس، والخوف على الشباب، والخوف على الصحة، والخوف على المال، والخوف على الأهل والأولاد، والخوف من الإنس، والخوف من الجن، والخوف من الموت، والخوف مما بعد الموت.

أما المؤمن الموحد، فلا يخاف شيئاً ولا أحداً إلا الله، ولهذا تراه آمناً إذا خاف الناس، مطمئناً إذا قلق الناس، هادئاً إذا اضطرب الناس، وفي هذا يذكر القرآن حوار إبراهيم مع قومه المشركين حين خوّفوه بأصنامهم والهة الزائفة، فرد عليهم متعجباً ومعجباً بقوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١]. ثم بيّن ﷺ من يستحق الأمن من الفريقين فقال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. وهذا الأمن ينبع من داخل النفس لا من حراسة الشرطة. وهذا أمن الدنيا، وأما أمن الآخرة فهو أعظم وأبقى؛ لأنهم أخلصوا لله، ولم يخلطوا توحيدهم بشرك.

روى البخاري، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قلنا: يا رسول الله، أين لا يظلم نفسه؟ قال: «ليس كما تقولون، أولم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ﴿يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(١) [لقمان: ١٣].

فمعنى: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾: أنهم أخلصوا دينهم لله، فلم يشوبوا توحيدهم بشرك.

د - التوحيد مصدر لقوة النفس:

والتوحيد يمنح صاحبه قوة نفسية هائلة؛ لما تمتلئ به نفسه من الرجاء في الله، والثقة به، والتوكل عليه، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه، والاستغناء عن خلقه، فهو راسخ كالجبل، لا تزعزحه الحوادث، ولا تزعزعه الكوارث.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٠)، ومسلم في الإيمان (١٢٤).

كلما أَلَمَّتْ به نازلة، أو حَلَّتْ بساحته شِدَّة، رفض اللجوء إلى الخلق، واتَّجِه بقلبه إلى الخالق، إياه يسأل، ومنه يستمد، وعليه يعتمد، لا يرجو غيره في كشف الضر، وجلب الخير، ولا يمد يده إلى أحد إلا إلى الله ضارِعًا داعيًا منيبًا إليه.

شعاره قول النبي ﷺ لابن عباس: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»^(١). وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

ألا ترى إلى هود عليه السلام حين خَوَّفَه قومه بكيد الأصنام له قال: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦]، منطق قوي، يُعَبِّرُ عن نفس واثقة، وعزيمة صلبة، وإيمان لا يهين ولا يستكين، وروح لا تعرف الضعف ولا الخوف؛ لأنها تستمد قوتها من التوكل على الله ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩]. عزيز لا يذلل من التجأ إليه، حكيم لا يعجز من وثق بتدبيره.

هـ - التوحيد أساس الإخاء والمساواة البشرية:

وإذا كان التوحيد يُعد أساسًا لحرية الإنسان وإشعاره بعزته وكرامته، فهو أساس أيضًا لإثبات الأخوة الإنسانية والمساواة البشرية؛ لأن الأخوة والمساواة لا تتحققان في حياة الناس إذا كان بعضهم أربابًا لبعض. فأما إذا كانوا كلهم عباد الله، فهذا هو أصل المساواة والإخاء بين الناس،

(١) رواه أحمد (٢٦٦٩)، وقال مخرجه: إسناده قوي. والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦)، وقال:

حسن صحيح. وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٣٠٢).

ولهذا كانت دعوة رسول الله ﷺ إلى ملوك الأرض ورؤساء الدول تُختم بهذه الآية الكريمة: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وكان من الأحاديث النبوية التي ذكرت من أدعية النبي ﷺ، عقب الصلوات هذا الدعاء الرائع العظيم: «اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك لك. اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أن محمدًا عبدك ورسولك. اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة»^(١). وفي الحديث الصحيح: «وكونوا عباد الله إخوانًا»^(٢).

وهذه الشهادات الثلاث المذكورة من النبي ﷺ يرتبط بعضها ببعض، فإعلان الأخوة الإنسانية العامة - أن العباد كلهم إخوة - مبني على الشهادتين الأوليين: تفرد الله تعالى بالألوهية، فلا شريك له ولا أرباب معه، ولا يستحق الخضوع والعبادة غيره، وعبودية محمد ﷺ لله، وتبليغه عنه، ينفي عنه كل شبهة أو رائحة للألوهية، فليس إلهًا، ولا ابن إله، ولا ثلث إله، كما زعم النصارى للمسيح.

وإذا تقررت هاتان الحقيقتان: ألوهية الله وحده، وعبودية الناس جميعًا له، وعلى رأسهم محمد رسول الله ﷺ؛ ترتب على ذلك تقرير الحقيقة الثالثة وهي: أن عباد الله إخوة متساوون، فلا تمييز عنصري، ولا تفرقة بين الألوان، ولا تفاضل بالأنساب: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاتُكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

(١) رواه أحمد (١٩٢٩٣)، وقال: إسناده ضعيف. وأبو داود في الصلاة (١٥٠٨)، والطبراني (٢١٠/٥)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٣٢٥)، عن زيد بن أرقم.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣)، عن أبي هريرة.

مفاسد الشرك وأضراره

لشرك مفاسد وأضرار كثيرة في حياة الفرد والمجتمع والأمة، أهمها:

١ - الشرك مهانة للإنسانية:

إنه إهانة لكرامة الإنسان، وانحطاط بقدره ومنزلته، فقد استخلفه الله في الأرض وكرّمه، وعلمه الأسماء كلها، وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، وجعل له السيادة على كل ما في هذا الكون، ولكنه جهل قدر نفسه، وجعل بعض عناصر هذا الكون إلهاً معبوداً يخضع له ويذل ويسجد، وهو سيد الخليفة المكرم، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وأيّ إهانة للإنسان أكبر من أن يرى - إلى يومنا هذا - مئات الملايين من البشر يعبدون البقرة التي سخرها الله للإنسان؛ لتخدمه وهي صحيحة، ويأكلها وهي ذبيحة، فإذا هي معبود مقدس؟! ولهذا صوّر القرآن الكريم كيف ينحط الشرك بأهله فقال: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

لماذا يخضع الإنسان خضوع العابد، الخانع للبقرة الأنثى، ويحملها ويقدمها، ويتبرك بروثها، في حين لا يعطي أي لون من الخضوع للذكر من البقر، وهو أقوى بكثير من الأنثى، ولولا ماؤه الذي تسعى إليه لتأخذه منه ما كان لها عجل صغير. يقولون: لأن الثور ليس له لبن كلبن البقرة! فنقول لهم: انظروا إلى الجاموسة، وهي موجودة في بلاد كثيرة كالهند

ومصر والسودان وغيرها، ولبنها أغزر وأحلى من لبن البقرة، فلماذا تُعبد هذه، وتُساق هذه وتُضرب بالسوط، وتعمل في كل الأمور الثقيلة؟! غير مرخصة للطباعة

٢ - الشرك وكر للخرافات:

الشرك وكر للخرافات والأباطيل؛ لأن الذي يعتقد بوجود مؤثر غير الله في الكون، من الكواكب أو الجن أو الأشباح أو الأرواح.. أو غير ذلك، يصبح عقله مستعداً لقبول كل خرافة وتصديق كل دجال، وبهذا تروج في المجتمع المشرك بضاعة الكهنة والعرافين والسحرة والمنجمين، وأشباه هؤلاء ممن يدعون معرفة الغيب، والاتصال بالقوى الخفية في الوجود.

كما يشيع في مثل هذا المجتمع إهمال الأسباب والسنن الكونية، والالتكال على التمايم والرقي الشركية والسحر والتولة ونحوها.

٣ - الشرك ظلم عظيم:

الشرك ظلم عظيم؛ ظلم للحقيقة، وظلم للنفس، وظلم للغير. ظلم للحقيقة؛ لأن أعظم الحقائق أن لا إله إلا الله، ولا رب غيره، ولا حكم سواه، ولكن المشرك اتخذ غير الله إلهاً، وجعل غير الله رباً، وابتغى غير الله حكماً.

وظلم للنفس؛ لأن المشرك جعل نفسه عبداً لمخلوق مثله أو دونه، وقد خلقه الله حُرّاً.

وظلم للغير؛ لأن من أشرك بالله غيره، فقد ظلمه، حيث أعطاه من الحق ما ليس له.

٤ - الشرك مصدر للمخاوف:

والشرك مصدر للمخاوف والأوهام، كما أن التوحيد مصدر للأمن والطمأنينة؛ فإن الذي يتقبل عقله الخرافات ويصدق الأباطيل والثُّرَّهات، يصبح خائفًا من جهات شتى: من الآلهة وسدنة الآلهة، ومن الأوهام التي ينشرها هؤلاء السدنة والكهنة وأتباعهم، ويروجونها بين الناس، لهذا ينتشر في جو الشرك التطير والتشاؤم، والرعب من غير سبب ظاهر، كما قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [آل عمران: ١٥١].

٥ - الشرك معطل لإيجابية الإنسان:

والشرك معوق للعمل النافع، مُعْطِّل لإيجابية الإنسان واعتماده على نفسه - بعد الله - ذلك لأنه يعلم أصحابه الاتكال على الشفعاء والوسطاء، فهم يرتكبون الموبقات، ويقتربون الآثام، معتمدين على أن آلهتهم ستشفع لهم عند الله.

وهذا ما كان يعتقد مشركو العرب في آلهتهم وأصنامهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

ومثل هؤلاء النصارى الذين يعملون ما شاء لهم الهوى من المنكرات، معتقدين أن ربهم - المسيح - قد كفر عنهم الخطايا حين صُلب - بزعمهم - وفدى البشر.

وكل هذه أوهام وضلالات، لا يغني نبي عن قومه، إنما ينفع المرء إيمانه وعمله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]. وما قتلوا المسيح ولا صلبوه ولكن شبّه لهم.



٦ - آثار الشرك في الآخرة:

تلك هي آثار الشرك في الدنيا، أما في الآخرة فيكفي أنه الذنب الذي لا يقبل المغفرة بحال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، وفي آية أخرى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وليس للمشرك مصير إلا النار، أما الجنة فحرام عليه أن يدخلها، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال ﷺ: «من لقي الله يشرك به شيئاً دخل النار»^(١).

(١) رواه مسلم في الإيمان (٩٣)، وأحمد (١٥٠١٦)، عن جابر.

كمالات الله العليا (صفاته العلا وأسمائه الحسنى)

ولا بد مع الإيمان بوجود الله، وبوحدانيته، من الإيمان بأنه تعالى متّصف بكلّ كمال، منزّه عن كل نقص.

كيف نعرف كمالات الله؟

وأول ما يجب أن يعرفه الإنسان: أن يعرف ربّه، الذي خلقه فسوّاه فعدّله، الذي أخرجّه من ظلمة العدم إلى نور الوجود، الذي جعله إنساناً بشراً سوياً، ولم يكن شيئاً مذكوراً.

ويعرف الإنسان ربه حين يعرف نفسه، فمن عرف نفسه معرفة حقيقية عرف ربه؛ لأنه يعلم من نفسه أنه لم يكن شيئاً ثم كان، فلا بد من موجد أوجده، ولا بدّ من خالق خلقه.

يعرف نفسه عاجزاً، فلا بد أن هناك قادراً وهبه القدرة.

يعرف نفسه فقيراً محتاجاً فلا بد أن هناك غنياً يملك كل شيء، وهب له من ملكات السمع والبصر والفؤاد، ومن قدرات مادية وروحية وعقلية. إنّ الإنسان يعرف بعقله وفطرته أنّ له ربّاً، وأن هذا الرب لا بد أن يكون أعظم منه، ولا بدّ أن يكون أقدر منه، ولا بدّ أن يكون قادراً على أن يهبه ما يحتاج إليه.

ضلال الناس في معرفة صفات الله:

ولكن الناس ضلّوا في مختلف العصور عن معرفة الله، كل الناس عرفوا نوعاً من التدبّر، وأن هناك ذاتاً علياً تدبّر هذا الكون وتسيطر عليه،

ولكنهم للأسف ضلّت بهم السبل. وكثيراً ما تصوروا الله تعالى على غير حقيقته، حتى كبار الفلاسفة ضلُّوا في معرفة الله تبارك وتعالى، هذه العقول الكبيرة العبقريّة ضلت عن معرفة الألوهية، فوجدنا رجلاً مثل (أرسطو طاليس) الفيلسوف اليوناني الكبير يقول: إن الله لا يعرف شيئاً في هذا الكون. ولا يسميه: (الله)، يقول: (المحرّك الأول) أو (العلة الأولى)، هذا المحرك الأول لا يعرف إلا ذاته، ولا يعقل إلا نفسه، أما هذا الكون فلا يعرف فيه شيئاً، ولا يدبر فيه أمراً؛ لأنه لا يليق بكماله أن يعرف عالم النقص وما يجري فيه.

بل جاء فيلسوف آخر، وهو أفلوطين، كان في الإسكندرية، وقال: إن الله لا يعرف حتى نفسه. فإذا كان إله أرسطو لا يعرف الكون، فإله أفلوطين لا يعرف شيئاً عن نفسه ولا ذاته.

فإن كان هذا هو ما وصل إليه الفلاسفة؛ فإنّ الناس في حاجة إلى معرفة الله ﷻ من وحيه الذي أنزله، من قرآنه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومما أوحى به إلى رسوله ﷺ، الذي قال فيه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

ما معنى (نعرف الله)؟

هل معناه: نعرف ذات الله؟ نعرف كُنْهَهُ؟ نعرف حقيقة الذات؟ هيهات!!

إن الإنسان إلى الآن لا يعرف حقيقة نفسه، لا يعرف كيف يعمل عقله، لا يعرف حقيقة الحياة، لا يعرف كنه حياته، وحياة الأشياء من حوله.

علماء الأحياء والبيولوجيا يقولون: نعرف الحياة بآثارها، أما حقيقة الحياة ما هي، لا نعرف، نعرف أن من آثار الحياة: النمو والتنفس والإفراز، إلخ.

الإنسان الذي استطاع أن يغزو الفضاء ويصل إلى القمر، إلى الآن لم يستطع أن يعرف حقائق الأشياء، فكيف يصل الإنسان إلى أن يعرف حقيقة الله ﷻ؟! هذا طمع في غير مطمع.

وجاء في الآثار: تفكروا في خلق الله، ولا تتفكروا في الله؛ فإنكم لن تقدروا قدره^(١).

إن التفكير في الله أكبر من طاقة البشر، وإدراك كُنه الله فوق طاقة العقل البشري، فالمحدود لا يحيط بغير المحدود، والفاني لا يحيط بالباقي، والحادث لا يحيط بالقديم، والمخلوق لا يحيط بالخالق، والعاجز لا يحيط بالقادر، هذا محال، ولهذا كان النبي ﷺ يناجي ربه فيقول: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(٢).

ونحن وإن لم نستطع معرفة الله معرفة تامّة، ولا نستطيع أن نعرف ذاته إلا أننا نستطيع أن نعرف بعض كمالات الله سبحانه التي أخبرنا بها في كتابه وعلى لسان نبيه، فحسبنا أن نعلم أن الله واحد لا شريك له،

(١) رواه أبو الشيخ في العظمة (٢)، وابن بطة في الإبانة (١٠٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٦٦/٦)، عن ابن عباس. والطبراني في الأوسط (٦٣١٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (١١٩)، وقال عقبه: هذا إسناد فيه نظر، عن ابن عمر. وحسّنه الألباني في سلسلته (الصحيحة) بمجموع الطرق برقم (١٧٨٨)، وفي (صحيح الجامع الصغير) (٢٩٧٥، ٢٩٧٦)، ومعنى الحديث صحيح بالإجماع.

(٢) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٦)، وأحمد (٢٥٦٥٥)، عن عائشة.

لا شريك له في ذاته، ولا شريك له في صفاته، ولا شريك له في أفعاله، نعرفه سبحانه بأسمائه وصفاته، كما علّمنا في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ.

من هذا الطريق وحده نستطيع أن نعرف كمالات الله، وليس من طريق الفلسفات، أو من طريق الجدل الكلامي، بل من طريق القرآن الذي يصنع العقل، ويحرّك القلب، ويملأ الإنسان يقيناً بأن الله ﷻ هو المتّصف بكل كمال، المنزّه عن كل نقص.

أولاً: دلالة الكون على الله تعالى وصفاته العلا

من قرأ كتاب الله المنظور، المتمثل في هذا الكون الذي نعيش في جزء صغير منه، هذا الكون الواسع بأرضه وسماواته، بأحيائه وجماداته، بإنسانه وحيوانه، بعقلائه وغير عقلائه، بما يبصر فيه - وهو الأقل - وما لا يبصر فيه - وهو الأكثر - من قرأ هذا الكتاب أو هذا الكون: تبين لعين بصيرته أن وراء هذا الكون (مكوّنًا) عظيمًا، خلق هذا العالم، على أحسن نظام، وأتم إحكام، وأروع تدبير، وأكمل تقدير.

هذا المكوّن أو الخالق أو المدبر الأعظم، تشهد بكماله وعظمته كل أجزاء هذا الكون من ذراته الصغرى إلى مجراته الكبرى، وأكثر الناس معرفة بهذا الخالق أو (الرب الأعلى) من كان أكثر معرفة بدقائق هذا الكون وأسراره، وقد حكوا أن أحد علماء الطبيعة كان يشاهد تجربة في مختبره، فإذا هو يصرخ كما صرخ أرشميدس قديمًا: لقد وجدته، لقد رأيته! فقال له من حوله: ماذا رأيته؟ قال: لقد رأيته الله!

أجل، لقد رأى الله ﷻ: في آثاره، في دقة صنعه، في بديع خلقه، فأنطقه ذلك الصنع بالتسبيح والثناء على الله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى *﴾ [الأعلى: ١ - ٣].

وبهذا يتضح لنا أن (العلم) المعاصر في خدمة (الإيمان) بما يكشف من حقائق، وما يقدم من براهين، تجعل دعوة (المصادفة) - التي يزعمها الماديون - مستحيلة، وتبين أن وراء هذه الكائنات خالقاً قصد إلى خلقها، ووضع كل شيء في موضعه؛ ليحقق هدفاً، ويؤدي وظيفة، ولو تقدم هذا الشيء أو تأخر، أو صغر أو كبر، أو زاد أو نقص، أو أسرع أو أبطأ، عما هو عليه، لاختل نظام الكون، واضطرب ميزان الحياة، فكل شيء في هذا العالم بمقدار، وكل شيء فيه محسوب.

وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم، مبيناً أن مسيرة المستقبل ستكون في موكب الحق، وركب الإيمان، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَاعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣].

وآيات الله تعالى في (الآفاق) تعني: آياته في (الكون الكبير) من حولنا. وآياته في (الأنفس) تعني: آياته في (الكون الصغير) وهو الإنسان نفسه. فهو عالم وحده، بما فيه من جسم وعقل وروح، وما في كيانه الداخلي من طاقات مخزونة هائلة، وإمكانات غير محدودة، يحتاج إلى من يبرزها ويستثيرها. وقد قال عليٌّ عليه السلام:

دواؤك فيك وما تشعر ودواؤك منك، وما تبصر!
وتزعم أنك جرمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبر!

ويقول الله سبحانه: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

[الذاريات: ٢١، ٢٠].

إِنَّ آيَاتَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْكَوْنِ - كتابه المنظور - ناطقة بوجوده وَعَجَلٌ ، ناطقة بوحدانيته، ناطقة بكمال صفاته، فهذا الكون البديع المتقن الْمُحْكَم يدل على أن ربه وخالقه ذو قدرة قاهرة، ومشیئة نافذة، وعلم واسع، وحكمة بالغة. فمن لم يبلغه الوحي، وفتح نوافذ عقله، واستجاب لنداء فطرته، وأبعد عنه الأوهام والأهواء والتقاليد، عرف - بإجمال - أن رب هذا الكون رب عظيم كبير، عليّ قدير، عليم حكيم، موصوف بكل كمال، وهذا ما جعل بعض علمائنا قديمًا يسمون هذا الكون (المصحف الصامت)، فهو يدل على الله، كما أن القرآن (المصحف الناطق) يدل على الله.

عُني القرآن عناية بالغة بلفت الأنظار، وإيقاظ القلوب والمشاعر، وتنبيه الأبصار والبصائر، إلى آيات الله في خلقه.

وكان القرآن المكي أكثر عناية بهذا الجانب؛ لأنه هو الذي يُعنى بتأسيس العقائد، وترسيخ الأصول، وبناء الأسس والقواعد. فلا يريد القرآن لبنى الإيمان بالله تعالى على التسليم المطلق، بل على اليقين المستبصر بالبرهان، الذي يعرف الصانع من صنعته، والخالق من إبداعه في خلقه.

وليس معنى هذا أن القرآن المدني خال من هذا الجانب، كلا، فهناك آيات مدنية كثيرة تتحدث عن الله تَعَالَى وآياته.

اقرأ قوله تعالى: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ * الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ *﴾ [الملك: ١ - ٣].

﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ

وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ *
 أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ * وَالْأَرْضَ
 وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ
 وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ
 كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ * فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *
 رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا
 بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ
 آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
 * كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿ [الرحمن: ١ - ٢٧].

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ *
 وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى
 لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ *
 وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾
 [ق: ٦ - ١١].

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ
 مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمَ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ
 اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنْفُسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
 بَصِيرٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ
 وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ
 الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ
 تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ
 شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٢٦ - ٣١].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السِّنِينَ وَالْوَنُكْمَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ * وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَلْبُونَ ﴾ [الروم: ٢٠ - ٢٦].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَدٌ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَبَدٌ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ * وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ [الحج: ٦٢ - ٦٦].

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ * هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ

وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَّمَتِ بِالنِّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿النحل: ٣ - ١٨﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿إبراهيم: ٣٢ - ٣٤﴾.﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوْسًا وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿الرعد: ٢ - ٤﴾.﴾

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ *﴾

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [هود: ٤ - ٦].

﴿ إِنَّا رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ * إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ * إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣ - ٦].

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۚ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ۚ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ * وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١ - ٣].

ثانيًا: دلالة القرآن على الله تعالى وصفاته العلا

وإذا كان كتاب الله المنظور، وهو الكون الكبير - بما فيه الإنسان - قد دلَّ على الله تبارك وتعالى، وعلى صفاته وأسمائه بإجمال، فإن كتاب الله المسطور - وهو القرآن الكريم - قد دلَّ على الله العليِّ الكبير، بوضوح وتفصيل.

والله سبحانه قد تعرّف إلى خلقه بـ (آياته التكوينية) في الآفاق وفي الأنفس، كما تعرف إليهم بـ (آياته التنزيلية) في كتبه المقدسة التي أنزلها على رسله، وأعظمها وخاتمها هو القرآن الكريم الذي تميّز بالإعجاز والخلود، فهو سيد كتب الله، كما أن المنزل عليه سيد رسل الله.

والحق أنه لا يُعرف كتاب يهدي الناس إلى الله تعالى، ويجمعهم عليه، ويأخذ بأيديهم إليه، ويحشدهم وقوفاً بين يديه، ويصلهم بأسمائه الحسنی، وصفاته العلاء، ويجلّي فهم كمالات الألوهية، حتى تستبصر بها العقول، وتطمئن بها القلوب.. لا يوجد كتاب قام بهذه المهمة مثل القرآن العظيم، فهو من أوله إلى آخره دال على الله تعالى، حافل بتمجيده وتعظيمه وتنزيهه والثناء عليه جل شأنه، من بداية (فاتحة الكتاب) إلى ختام (سورة الناس). وممّا يجب التنويه به هنا: أن القرآن نفسه قد اتخذ أساليب شتى في تعريف الناس بالله، ودلالتهم عليه، وهدايتهم إليه.

بيان آيات الله في خلقه:

ومن هذه الأساليب القرآنية: الدالة على الله تعالى وأسمائه وصفاته بآياته في خلقه، في السماوات والأرض، في الإنسان والحيوان والنبات، في ظواهر الطبيعة، في اختلاف الليل والنهار، فيما سخر الله للإنسان في البر والبحر، فيما أسبع على الإنسان من نعم ظاهرة وباطنة..

اقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ﴾

[آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

انتهى بهم التأمل والتفكر في خلق هذا الكون الكبير بأرضه وسماواته إلى معرفة خالقه، وأن من صفاته الحكمة، التي يراها المتأمل مبثوثة في أجزاء هذا العالم، واضحة للعيان، بحيث ينطلق لسان المتفكر بعد جولة الفكر هذا الخلق المحكم، قائلاً: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾.

لم يخلق الله تعالى شيئاً باطلاً، ولا عبثاً ولا اعتباطاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٌ ۖ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

أسلوب الاستفهام التقريري أو السؤال والجواب:

ومن أساليب القرآن في الحديث عن كمالات الله تعالى وعن أسمائه الحسنی وصفاته العلا: أسلوب الاستفهام التقريري، والسؤال والجواب، وهو أسلوب بلاغي له تأثيره الخاص في العقل وفي النفس، وفي تثبيت المضمون بطريقة مشوقة مثيرة.

اقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنْزٌ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الأنعام: ١٢].

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَخِذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَبَيْتَكُمْ لَتَشْهَدُوا أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ بَلْ إِلَٰهُهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿ [الأنعام: ٤٠، ٤١].

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَنَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَٰهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٦].

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَىٰ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

واقراً في سورة يونس:

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا لَآ أَن يَهْدِي فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس: ٣١ - ٣٥].

واقراً في سورة المؤمنون:

﴿ قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَكَاتِ السَّابِغِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿ قُلْ مَن يَدِينُهُ مَلَكَوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿ بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٩٢].

واقراً قوله تعالى في سورة النمل:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَّا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ بِلَهُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُم خُلَفَاءَ ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَلِيمًا ۝ نَذَكَّرُونَ ۝ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ بِقَلْ هَاكُوا بِرَهْنِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٤].

اقراً في سورة القصص:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَا تَسْمَعُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝﴾ [القصص: ٧١ - ٧٣].

وفي سورة فاطر:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ دَعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ ۝﴾ [فاطر: ٤٠].

وفي سورة الأحقاف:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ [الأحقاف: ٤].

واقراً في سورة الطور:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ * أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٣٥ - ٤٣].

واقراً قوله تعالى في سورة الواقعة:

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ * أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ * أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمَغْرُمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٨ - ٧٤].

واقراً في سورة الملك:

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمَلُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ * وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ * أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ * أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿[الملك: ١٦ - ٢١].

وفي سورة النازعات:

﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيَهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمَ عَلَيْكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٣].

ويدخل في هذا الأسلوب نحو قوله تعالى في سورة العنكبوت:

﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنِّي يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

وفي سورة لقمان:

﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

وفي سورة الزخرف:

﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٠﴾ [الزخرف: ٩ - ١٢].

وفي سورة الزمر:

﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيَّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨].

أسلوب التقرير والإخبار المباشر:

ومن أساليب القرآن في إبراز كمالات الله تعالى، وصفاته المقدسة، وأسمائه الحسنى: أسلوب التقرير والإخبار المباشر.

اقرأ قوله تعالى في سورة الفاتحة:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٢ - ٤].

واقراً قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وفي سورة آل عمران:

﴿الْم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ

اللَّهُ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ * إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿آل عمران: ١ - ٦﴾.

وفي نفس السورة جاء هذا التقرير في صورة المناجاة والخطاب لله تبارك وتعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

واقراً في سورة النساء:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

واقراً في سورة المائدة:

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ٤٠].

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنَا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقال تعالى على لسان المسيح عيسى يخاطب ربه يوم القيامة: ﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨].

واقراً في سورة الأنعام:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ * وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١ - ٣].

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ * وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ * ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ إِلَّا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٩ - ٦٢].

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ٧٣].

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ۖ يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَى ۚ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَاتَىٰ تَوْفَكُونَ ۖ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۖ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِنَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۖ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۚ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۖ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مِّنْخَرِجٍ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ۚ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۖ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ ۖ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۚ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۖ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُم ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۖ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۚ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۖ

[الأنعام: ٩٥ - ١٠٣].

واقراً في سورة يونس:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۖ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُو الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۖ﴾ [يونس: ٣، ٤].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۖ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٥، ٥٦].

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧].

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨].

واقراً في سورة الرعد:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ * لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِمَّنْ أَمَرَ اللَّهُ ابْنَ اللَّهِ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ * وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ٨ - ١١].

واقراً في سورة النحل:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

واقراً في سورة طه:

﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: ٤ - ٨].

واقراً في سورة الحج:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ * اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الحج: ٧٤ - ٧٦].

واقراً في سورة النور:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

واقراً في سورة الفرقان:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ * وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُنْجِيَ بِهِ بَلَدَةَ مِثًّا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسِي كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٧ - ٤٩].

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٣، ٥٤].

﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾

[الفرقان: ٦١].

وفي سورة الشعراء على لسان إبراهيم:

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٧٧ - ٨٢].

وفي سورة القصص:

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٦٨ - ٧٠].

وفي سورة الروم:

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٤٠].

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٥٤].

وفي سورة السجدة:

﴿ ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٦ - ٩].

واقراً في سورة سبأ:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ

الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿سبأ: ١، ٢﴾.

اقرأ في سورة فاطر:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مِّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ١ - ٣].

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [فاطر: ٣٨].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

واقرا في سورة يس:

﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٨ - ٨٣].

واقرأ في أول سورة الصافات:

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴾ [الصافات: ١ - ٥].

وفي آخر السورة:

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨١، ١٨٢].

واقرأ في سورة الزمر:

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ نَقَشِعُرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢].

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٤٦].

﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٢، ٦٣].

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ * سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

واقرأ في سورة غافر:

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [غافر: ٢، ٣].

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ * فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ * يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٣ - ١٦].

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُم فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٤، ٦٥].

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلٍ وَلِنَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [غافر: ٦٧، ٦٨].

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُم فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمُ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾ [غافر: ٧٩ - ٨١].

واقرأ في سورة الشورى:

﴿ حَمْدٌ * عَسَقَ * كَذَٰلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ

فَوْقَهُنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٠﴾ [الشورى: ١ - ٥].

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۚ وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ ۚ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۚ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۚ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۗ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۚ﴾ [الشورى: ٩ - ١٢].

واقراً في سورة الزخرف:

﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ۚ أَمْ أَتَرْمُونَ أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ۚ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۚ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ۚ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۚ﴾ [الزخرف: ٧٨ - ٨٢].

وفي سورة الدخان:

﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۗ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۚ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۚ﴾ [الدخان: ٦ - ٨].

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينًا ۚ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۚ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وفي سورة الجاثية:

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۚ﴾

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾
[الجاثية: ١٢، ١٣].

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢].

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٦].

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٦، ٣٧].

وفي سورة محمد:

﴿هَآأَنُتُمْ هَآؤِلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

وفي سورة الفتح:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤].

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٧].

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفتح: ١٤].

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤].

وفي سورة الحجرات:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨].

وفي سورة ق:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٨، ٢٩].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

وفي سورة الذاريات:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ * وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٤٧ - ٥٠].

وفي سورة النجم:

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَى * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ * وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ * وَثَمُودًا مَّا أَبْقَى * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى * وَالْمُؤَنَفَكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا عَشَى * فَإِيَّاهِ الْآءُ رَبِّكَ نَتَمَارَى﴾ [النجم: ٤٢ - ٥٥].

وفي سورة القمر:

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ * وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْنَدٍ ﴾ [القمر: ٤٩ - ٥٥].

وفي سورة الرحمن:

﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ * وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ * وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ * فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ * رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ * مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ * وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تُكَذِّبَانِ * كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ١ - ٢٧].

وفي سورة الحديد:

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ * وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ * يُحْيِي وَيُمِيتُ * وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ * وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا * وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ * وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ * وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ * وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الحديد: ١ - ٦].

وفي سورة المجادلة:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

وفي سورة الحشر:

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤].

وفي سورة الممتحنة:

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧].

وفي سورة الصف:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُنِينَ مَرْصُوصٍ﴾ [الصف: ٤].

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٨، ٩].

وفي سورة الجمعة:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * هُوَ الَّذِي

بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿[الجمعة: ١ - ٣].

وفي سورة التغابن:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿[التغابن: ١ - ٤].

وفي سورة الطلاق:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿[الطلاق: ١٢].

وفي سورة الملك:

﴿تَبَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿[الملك: ١، ٢].

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿[الملك: ١٣، ١٤].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿[الملك: ١٥].

وفي سورة نوح:

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ

الشَّمْسُ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿ [نوح: ١٥ - ٢٠].

وفي سورة الجن:

﴿ عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٨].

وفي سورة المزمل:

﴿ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل: ٨، ٩].

وفي سورة المدثر:

﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقَوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ [المدثر: ٥٦].

وفي سورة الإنسان:

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ * وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمَلَهُمْ بَدِيلًا * إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ * إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ * وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإنسان: ٢٨ - ٣١].

وفي سورة المرسلات:

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسَى شِمَخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾ [المرسلات: ٢٥ - ٢٧].

وفي سورة النبأ:

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاهُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ

سُبَّانًا * وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا *
وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا *
وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿ [النبا: ٦ - ١٦].

وفي سورة عبس:

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا
فِيهَا حَبًّا * وَعَبْنَا وَقْضًا * وَزَيْتُونًا تَنْخَلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَكْهَةً وَأَبَّا * مَنَّاعًا لَكُمْ
وَلَا نَعْمَكُمْ ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

وفي سورة البروج:

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُدِيئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ * ذُو الْعَرْشِ
الْمَجِيدُ * فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: ١٢ - ١٦].

وفي سورة الأعلى:

﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ
الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى * سَنَقِرُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا
يَخْفَى ﴾ [الأعلى: ١ - ٧].

وفي سورة الليل:

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴾ [الليل: ١٢، ١٣].

وفي سورة العاديات:

﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ
لَّخَبِيرٌ ﴾ [العاديات: ٩ - ١١].

وفي سورة الفيل:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.

وفي سورة قريش:

﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ * إِلَّا لَهُمُ رِحْلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

وفي سورة الإخلاص:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

وفي سورة الفلق:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

وفي سورة الناس:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

أدعية الرسل والمؤمنين:

وهناك أساليب أخرى حفل القرآن بها في تمجيد الله تعالى والثناء عليه، والتعبير عن أسمائه الحسنی، وصفاته العلا، ينجلي ذلك أحياناً في الأدعية التي تنطق بها السنة الرسل أو المؤمنين.

كما في قوله تعالى على لسان نوح: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

وقوله تعالى على لسان هود: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

وقوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعَلِّقُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨]، ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ * ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٠، ٤١].

وعلى لسان يوسف الصديق: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وكما في قول شعيب: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

وكما في قول موسى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وقوله: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ * ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ٨٥، ٨٦].

وقوله في مقام آخر: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

وكما في قول سليمان: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

وقوله تعالى عن أيوب: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٨٣].

وقوله تعالى على لسان عيسى: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤].

وقوله تعالى على لسان محمد: ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

وفي مقام آخر: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

ومما علمه الله في القرآن: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ * وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقوله على لسان الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٨، ٩].

محاورة الرسل لأقوامهم:

ويتجلى هذا الأسلوب كذلك في محاورة الرسل لأقوامهم، وبيان حقيقة الألوهية لهم، والثناء على الله بما هو أهله، كما في حوار إبراهيم لنمرود: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وكذلك تدرّجه مع قومه في الحوار حتى انتهى إلى قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وكذلك محاوره موسى لفرعون، كما في سورة الشعراء: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنتُم مَّقِينِينَ ﴿ [الشعراء: ٢٣، ٢٤].

وكذلك حوار مؤمن آل فرعون لقومه، إلى أن قال: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

مناقشة القرآن لأصناف المشركين:

ويتجلى هذا الأسلوب أيضًا في مناقشة القرآن الكريم لأصناف المشركين والكافرين من ملاحدة ووثنيين وكتابين ومجرمين، وتفنيد دعاويهم، ورد أباطيلهم بالحقائق الناصعة، التي تبين جلال الله تعالى وكماله الذي لا ينتهي.

كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

وقوله تعالى في الردّ على النصاري: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿ [مريم: ٣٥، ٣٦].

الأمر والنهي والتوجيه الإلهي:

كما يتجلى هذا الأسلوب في الأمر والنهي والتوجيه الإلهي والأحكام الإلهية كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُصِمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ و﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ و﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ١ - ٣].

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقوله بعد آيات المواريث: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١]، وفي الآية التابعة: ﴿وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

دلالة هذا الحشد من النصوص القرآنية:

هذا الحشد الضخم من آيات الكتاب العزيز في تمجيد الله جلَّ جلاله والثناء عليه - وهو على كثرته - ليس كل ما في القرآن الكريم:



ماذا يفهم منه قارئه؟ وماذا يشعر منه؟ وماذا يأخذ منه لعقله ولقلبه ولحياته كلها؟

إن من يقرأ هذه الآيات الكريمة وأمثالها في كتاب الله، ويفتح لها عقله وبصيرته: يمتلئ إيمانًا لا يتزعزع، ويقينًا لا يرتاب، بكمال هذا الخالق الأعظم، والرب الأكرم، والبارئ الأعلم، والمدبر الأحكم، والبرّ الأرحم، الذي وسع كل شيء علمه، ووسعت كل حي رحمته، وأحاط بكل شيء خبرًا، وأحصى كل شيء عددًا، وهو على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، أمره بين الكاف والنون، فعّال لما يريد، لا رادّ لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا يخرج شيء في هذا الكون - علويه وسفليه - عن سلطانه، له الجلال وله الإكرام، له الملك وله الحمد، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، ويبسط الرزق لمن يشاء، ويقدره على من يشاء، ولكن كل ذلك بحكمة بالغة، وتقدير عزيز عليم. لا يخلق شيئًا باطلاً، ولا يفعل شيئًا عبثًا، ولا اعتباطًا، فهو حكيم فيما خلق، علم ذلك من عمله، وجهله من جهله.

هو أبرُّ بعباده من أنفسهم، وأرحم بهم من الوالدة بولدها، لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، لا يكلفهم ما ليس في وسعهم، ولا يعاقبهم على ما لم يقترفوه، ولا يخاف أحد عنده ظلمًا ولا هضمًا، بل لا يظلم أحدًا مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها، ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا، الحسنه عنده بعشر أمثالها أو يزيد، والسيئة عنده بواحدة أو يعفو، رحمته سبقت غضبه، وعفوه سبق عقوبته، وبابه مفتوح لكل من تاب، يحب التوابين، ويحب المتطهرين.

من قرأ آيات القرآن في شأن الألوهية وكمالاتها وأسمائها وصفاتها، وكان سليم الفطرة، ليس له مصدر آخر غير القرآن، لم يتشوش عليه عقله، ولم يلبس عليه أمره، ولم يغتره غموض، ولا شك، ولا لبس، ولا حيرة، فكل شيء أمامه في وضوح الشمس وفي ضحى النهار.

وهذا ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ، حين تلقوا منه القرآن غصًا طريًا، حديث العهد بمنزله وحبلى، لم يجدوا في صدورهم شيئًا يجول فيها، أو شبهة تتراءى لعقولهم، فيسألون عنها، أو غموضًا في معنى، فيتوجهون إلى رسول الله ﷺ يستفتون فيه، لم يصح عنهم شيء من ذلك، وهو ما يستشعره الإنسان المؤمن إذا قرأ هذا الجانب من كتاب الله، من غير خلفية سابقة، ولا تشويشات مبنية.

اختلاط المسلمين بأهل الملل والنحل:

وإنما حدث ذلك بعد هذا العهد النبوي والصحابي الزاهر المشرق، حين اختلط المسلمون بغيرهم من أهل الملل والنحل المختلفة، وعندهم من الأباطيل ركام هائل، وقد دخل بعضهم في الإسلام، وهو يحمل بعض هذا الركام، لم يستطع التحرر منه، وبعضهم تعمّد الدسّ لهذه الأباطيل لإشغال المسلمين بالجدل عن العمل، وبالتنافر عن الإخاء.

وكم كنت أود أن يستمر الفهم الفطري للصحابة رضي الله عنهم في الأجيال التي بعدهم، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه، فسنة الله لا بد أن تبلغ مداها، ومن هذه السنن: تأثير الناس بعضهم في بعض، رضي بذلك من رضي، وسخط من سخط، ولن تجد لسنة الله تبديلًا، ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

المجادلة في البديهيّات والتشكيك في المسلّمات:

لقد دخلت على المسلمين فتن كقطع الليل المظلم، جعلتهم يتجادلون في البديهيّات، ويشكّكون في المسلّمات، وذلك حين تركوا المحكمات، واتبعوا المتشابهات، وضربوا كتاب الله بعضه ببعض، ولم يردوا بعضه إلى بعض. والله تعالى يقول: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

الجدل حول صفات الله:

لقد أثاروا جدلاً حول صفات الله تعالى: أهى عين ذات الله تعالى؟ أم غير ذات الله تعالى؟ أم هي لا عين ولا غير؟!

اتفقوا على أن الله تعالى: عليم، مريد، قدير، سميع، بصير، متكلم، ولكن هل لهذا العليم صفة تسمى العلم؟ وهل لهذا المريد صفة تسمى الإرادة؟

وهل لهذا القدير صفة تسمى (القدرة)؟ وهل لهذا المتكلم صفة تسمى (الكلام)؟ وهل لهذا الحيّ صفة تسمى (الحياة)؟

هذا ما نفاه المعتزلة، بناء على أن هذه الصفات الإلهية غير الذات الإلهية، ووجود صفات غير الذات معناها أن توجد مع الله تعالى موجودات قديمة أزلية غيره، وهذا مدخل إلى الشرك، أو باب من أبوابه.

وإذا كان النصارى قد كفروا لأنهم أثبتوا مع الله اثنين: «الابن والروح القدس» فماذا يكون حال من أثبت مع الله سبعة أو ثمانية من القدماء؟

وهذا ما جعل المعتزلة يقولون: إن الله عليم بذاته، قدير بذاته، حيّ بذاته، لا بصفة أخرى زائدة على الذات. ونفيهم لهذه الصفات - في زعمهم - إنما هو لحرصهم على نقاء التوحيد، وتجنب الشرك بأي صورة من الصور، ولهذا قالوا عن أنفسهم: إنهم أهل العدل والتوحيد!

وهو ما جعل أهل السنة يقولون لهم: لقد عطلم الله تعالى من صفاته الثبوتية الإيجابية، وأطلقوا عليهم وصف (المعطلة). ولكن ليس معنى هذا أنهم ينكرون أن الله عليم أو قدير أو سميع أو بصير إلخ. فإنهم لو أنكروا ذلك لكفروا كفراً بواحاً، ولكنهم أنكروا أن تكون هناك صفة زائدة على الذات الإلهية.

وهو ما جعل علماء الكلام المعبر عنهم بأهل السنة يقولون: الصفات بالنسبة إلى الذات ليست عيناً ولا غيراً؛ ليخرجوا عن إلزامات المعتزلة.

معركة جدلية عقيدة:

والحقيقة أنها معركة جدلية عقيدة لم يكن لها لزوم، لولا تأثيرات الفلسفات التي دخلت حياة المسلمين. وهي معركة غريبة عن صيغة اللغة العربية التي تتميز بالوضوح والبيان، غريبة عن فطرة الإسلام السهلة السمحة، ﴿فَظَرَّتْ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لِيَخْلُقَ اللَّهُ ذَلِكَ الَّذِي الْقِيَمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

والذي يتراءى لي بعد التأمل في هذه المعركة الحامية الوطيس، التي دارت حول الصفات الإلهية، بين المعتزلة وأهل السنة من الأشاعرة والماتريدية وأهل الحديث: أن هذه المعركة لا معنى لها ولا مبرر لها،

وأنها دخيلة على العقل الإسلامي، وعلى الساحة الإسلامية، وأنها تكاد تكون معركة على التعبير، لا معركة على التفكير.

فالجميع يؤمنون بأنَّ الله بكل شيء عليم، وأنَّ الله على كل شيء قدير، وأنه سميع بصير، وأنه حي قيوم، وأنه متكلم، إلى آخر هذه الصفات أو الأسماء التي أثبتها القرآن الكريم لله وَعَلَى، لا يجحد ذلك سني ولا معتزلي.

فما سر هذا الخلاف الذي تحول إلى معركة ضارية؟

يبدو أن الخلاف بينهم يتعلق بفلسفة التعبير عن هذه المعاني المتفق عليها، وهي: هل هناك (صفة زائدة على الذات) تسمى (العلم) أو (القدرة) أو (السمع) أو (البصر) أو (الحياة)؟ وهو أشبه بما يسميه علماءنا في الفقهيات وغيرها (خلافًا لفظيًا) وليس (خلافًا حقيقيًا). وإن كان موقف المعتزلة هنا يغلب عليه الجمود والتعصب للرأي، إذ ما معنى أن يكون هناك عليم بلا علم، أو مريد بلا إرادة، أو قادر بلا قدرة، أو حي بلا حياة؛ إذ العليم هو ذو العلم، والمريد ذو الإرادة، والقدير هو ذو القدرة.. إلخ.

ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

فالله تعالى وصف في القرآن بأنه (القوي)، ووصف هنا بأنه (ذو القوة) فالقوي صفة من صفاته وَعَلَى، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]. فكما وصف الله تعالى بأنه (الرحمن الرحيم) وصف هنا بأنه (ذو الرحمة) فالرحمة إذن صفة من صفات ربنا تبارك وتعالى.

وأيضًا يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]. فكما وصف الله تعالى بأنه: (غفور) وصف هنا بأنه (ذو مغفرة) فالمغفرة إذن صفة من صفاته.

وإذا جاز وصف الله تبارك وتعالى بأنه (ذو القوة) و(ذو الرحمة) و(ذو الجلال والإكرام) و(ذو مغفرة) فلماذا لا يجوز وصفه بأنه (ذو العلم) أو (ذو القدرة) أو (ذو الحياة) أو (ذو السمع والبصر) إلى آخر الصفات المعروفة؟

ولا أدري سرًّا لهذا الجمود المعتزلي على عدم إثبات الصفة، مع إتيان الموصوف بالصفة، وهم الذين يوصفون أنهم أحرار الفكر في الإسلام؟

فتنة خلق القرآن:

وقد ترتب على مسألة الصفات هذه، مسألة أخرى شغلت الفكر الإسلامي، والسياسة الإسلامية، والحياة الإسلامية، مدة غير قليلة من الزمن، ولا يزال هناك من يبررها إلى اليوم، ألا وهي (فتنة خلق القرآن): هل القرآن مخلوق أو غير مخلوق؟

كان لهذا الخلاف - الذي هو أشبه بالخلاف اللفظي، أو المعركة اللفظية - آثاره الكبيرة والممتدة في تراثنا الفكري، وما زال يعمل وتدور رحاه، حتى انتهى بالأمة إلى هذه الفتنة الشهيرة: (فتنة خلق القرآن) التي أودى فيها كثير من علماء الأمة الكبار، وأئمتها العظام، وعلى رأسهم الإمام الربباني أحمد بن حنبل رحمته الله.

وهي فتنة ليس لها معنى ولا مبرر ولا ضرورة، لولا الولع بالجدل العقيم، واللَّدَد في الخصومة. وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «ما ضلَّ

قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»^(١)، وقال: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»^(٢).

أثار ذلك المعتزلة، وأقنعوا به الخليفة المأمون وخليفته من بعده من خلفاء بني العباس، وامتحنوا به الناس، واستخدموا السوط والسجن والسيوف في حمل الناس على ما يعتقدون من خلق القرآن.

والعجيب أن الجميع متفقون على أن القرآن كلام الله تعالى، وأنه من عند الله، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا، وأن الله تعالى أنزله بالحق على قلب رسوله الكريم: ﴿وَلَنَزِّلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

ويعجبني في هذا ما عبر به رجل صالح على الفطرة الإسلامية السوية، أمام أحد خلفاء العباسيين، الذين تبنا فكرة خلق القرآن، وحاولوا حمل الناس عليها بقوة السلطة، وسلطة القوة.

فعن المهدي بالله محمد ابن الواثق قال: كان أبي إذا أراد أن يقتل رجلًا أحضرنا ذلك المجلس. فأتي بشيخ مخضوب مقيد، فقال أبي: ائذنا لابن أبي دؤاد وأصحابه. فأدخل الشيخ، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال له: لا سلم الله عليك. قال: بئس ما أدبك مؤدبك. فقال له ابن أبي دؤاد: يا شيخ ما تقول في القرآن؟ فقال: لم تنصفي، ولي السؤال. قال: سل. قال: ما تقول في القرآن؟ قال: مخلوق. قال: هذا شيء علمه

(١) رواه أحمد (٢٢١٦٤)، وقال مخرجه: حسن بطرقه وشواهده. والترمذي في التفسير (٣٢٥٣)،

وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في المقدمة (٤٨)، والحاكم في التفسير (٤٤٧/٢)، وصححه إسناده، ووافقه الذهبي، عن أبي أمامة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٥٧)، ومسلم في العلم (٢٦٦٨)، عن عائشة.

النبي ﷺ، وأبو بكر، وعمر، والخلفاء الراشدون، أم شيء لم يعلموه؟ فقال (يعني ابن أبي دؤاد): شيء لم يعلموه. فقال: سبحان الله، شيء لم يعلمه رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر، ولا الخلفاء الراشدون علمته أنت؟!!

فخجل ابن أبي دؤاد فقال: أَقْلَنِي. قال: أقلتك. ما تقول في القرآن؟ قال: مخلوق. قال: هذا شيء علمه رسول الله ﷺ، والخلفاء؟ قال: علموه، ولم يدعوا الناس إليه. قال: أفلا وسعك ما وسعهم؟!!

فقام أبي الواثق ودخل خلوته، واستلقى على ظهره وهو يقول: هذا شيء لم يعلمه النبي ﷺ، ولا أبو بكر، ولا عمر، ولا عثمان، ولا علي، ولم يدعوا إليه، أفلا وسعك ما وسعهم. ثم دعا عمارًا الحاجب، وأمره أن يرفع عنه القيود، ويعطيه أربعمئة دينار، وسقط من عينيه ابن أبي دؤاد، ولم يمتحن بعدها أحدًا. وإن كان في إسنادها ضعف^(١).

التزام تعبيرات القرآن في شؤون العقيدة:

والمنهج الذي يجب اتباعه في التعبير عن شؤون العقيدة هو التزام العبارات القرآنية، فهي أوضح وأبلغ وأدق وأضبط، من الألفاظ التي اصطلح عليها بعض المتكلمين من الفرق الإسلامية المختلفة.

ومن هنا لا أفضل استخدام ما ذكره متكلمو الأشاعرة في صفات الله تعالى من: القَدَم، والبقاء، وقيامه تعالى بنفسه، ومخالفته للحوادث. وهي الصفات التي عَبَّرُوا عنها بالصفات السلبية.

(١) تاريخ الإسلام (٧٥٨/٥)، وقال الذهبي: في رواها غير مجهول. تحقيق بشار عواد، نشر دار الغرب الإسلامي، ط ١، ٢٠٠٣م.

وأولى من التعبير عنه تعالى بوصف (القديم) أن نعبر عنه سبحانه باسم (الأول) الذي وصفه به القرآن.

على أن مدلول وصف (القديم) ليس كمدلول وصف (الأول) فقد توصف أشياء كثيرة بالقدم، كما قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

بخلاف وصف (الأول) فهو كما بيّنه النبي ﷺ في حديث له يناجي فيه ربه، فقال: «أنت الأول فليس قبلك شيء»^(١).

ومثل ذلك وصف (الباقي) فالأولى هو وصف القرآن لله تبارك وتعالى، وهو (الآخر) كما قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣]، وجاء في الحديث الصحيح: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء»^(٢).

وأولى من التعبير عنه ﷻ من أنه (قائم بنفسه) التعبير بوصف (الغني) الذي لا يفتقر إلى أحد سواه. كما قال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وكذلك بدل التعبير بأنه تعالى (مخالف للحوادث) نعبر بما عبّر به القرآن في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

(١) رواه مسلم في الذكر (٢٧١٣)، وأحمد (٥٩٦٠)، عن أبي هريرة.

(٢) هو الحديث السابق.

منهج القرآن في ذكر أسماء الله تعالى وصفاته:

سُنَّة القرآن في ذكر أسماء الله تعالى وصفاته: هي النفي المجمل والإثبات المفصل، على غير ما كان عليه الفلاسفة والمعتزلة وكثير من المتكلمين، أنهم يُفصّلون في النفي ويُجملون في الإثبات، فعندهم صفات الله مجموعة من السلوب: ليس بعَرَض وليس بجوهر، وليس داخل العالم، وليس خارجاً عن العالم، ليس متصلاً به، وليس منفصلاً عنه، كله ليس، ليس.

فالصفات الإيجابية قليلة عندهم، والسلبية كثيرة جداً.

ومنهج القرآن عكس هذا، فالصفات السلبية مجملة كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٣، ٤]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وكما في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

وأما الصفات الإيجابية فهي كثيرة: فهو سبحانه مَالِكُ الْمُلْكِ، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]. كلها صفات إيجابية. وهو ذو الجلال والإكرام كما قال: ﴿بِزَكَاةٍ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]. وكما في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفتح: ٢-٤]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١-٣]. فالتفصيل في الإثبات والإجمال في النفي، أو الإجمال في الصفات السلبية، والتفصيل في الصفات الإيجابية، هو منهج القرآن.

وكل ما ذكره الله تعالى في القرآن الكريم مفصلاً يجب الإيمان به على التفصيل المذكور في القرآن من غير تجاوز لما ذكر فيه.

ولا شك أن التوسع في النفي حصل عند المتكلمين للرد على المجسّمة الذين يقولون: هو جسم، ويبحثون: هل له جوف أو لا جوف له، ويقولون: استقر على العرش ولو شاء لاستقر على ظهر بعوضة!! ونحو ذلك.

خلاصة رأينا في مسألة الأسماء والصفات:

مع أنني أؤمن بمذهب السلف، وأراه أسلم وأعلم وأحكم، لا أحب أن أفتت الجبهة الإسلامية الداخلية حول خلافات جزئية، وهي تحارب أعداءً كثراً مدجّجين بكل سلاح، من يهود ماكربين، وصليبيين حاquدين، وشيوعيين ملحدين، ومستعمرين طامعين، ومرتدين مارقين.

فالواجب أن نقف - نحن المسلمين كافة - صفّاً واحداً، في مواجهة هؤلاء، الذين يختلفون في أمور كثيرة، ويتفقون علينا نحن أمة الإسلام.

وليس من الدين، ولا من السياسة، ولا من العقل، أن ننقل المعركة من ميدانها الحقيقي في مواجهة هؤلاء الأقوياء الشرسين ليواجه بعضنا بعضاً.

إن كل المعارك الجانبية، والخلافات الجزئية، والصراعات الداخلية، يجب أن تنتهي اليوم إن كنا نعقل أمر ديننا، وندرك مصلحة ديانا، وأن نكون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

ومهما يكن بيننا من نقاط خلاف، فعندنا أكثر منها نقاط التقاء واتفاق. ويمكننا كما قال العلامة المجدد السيد رشيد رضا في قاعدته الذهبية: أن نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه.

وهذا لا يمنع من البحث النزيه، والتحقيق العلمي الأصيل في مواطن الخلاف، ومجال ذلك في الكتب المتعمقة، والمجلات المتخصصة وأمثالها، مع التزام النهج العلمي الموضوعي، ورعاية أدب الحوار، أو أدب البحث والمناظرة، كما يعبر علماؤنا القدامى.

كل من السلف والخلف أراد تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين، وإنما وقع الخلاف في بعض القضايا التي لا تمس أصل التنزيه، فهم لم يختلفوا في أن الله تعالى يجب أن يتصف بكل كمال يليق بذاته، وأن يُنَزَّه عن كل نقص لا يليق بجلاله وجماله وكماله، وأن يُنَزَّه عن مشابهة خلقه، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وإنما اختلفوا في تفسيرات لا تمس أصل التعظيم والتقديس والتنزيه لله جلَّ جلاله، الذي له الملك وله الحمد، وهو ذو الجلال والإكرام.

والحق أن ما جاء عن السلف في الصفات التي يقتضي ظاهرها مشابهة الله تعالى بخلقه، نجد أنه ليس موقفًا واحدًا مطَّردًا، بل الروايات الواصلة إلينا عنهم، إذا درسناها وقرأناها كلها بوضوح وتدبر، توضح لنا أن أكثرهم يفوض ولا يخوض في الأمر، وأن منهم من أثبت بلا كيف، وأن منهم من أوَّل، وإن كان المروي من ذلك قليلًا.

على أنهم جميعًا يقطعون بنفي مشابهة الله تعالى لخلقه، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

هذا وقد كنت من قبل أتجنب الخوض في هذه القضية، تماشيًا مع المنهج الذي التزمته من العناية بالكليات، والاهتمام بالأصول، والتركيز على قضايا الاتفاق، وتجنب ما يثير النزاع، ووقفنا موقف الإمام البنا

الذي عبر عنه في الأصل العاشر من الأصول العشرين بقوله: «ومعرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام، وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يليق بذلك من المتشابه، نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء، ويسعنا ما وسع رسول الله ﷺ، وأصحابه: ﴿وَالرَّسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]»^(١).

ولكنني وجدت أن هذه القضية ما زالت في عصرنا محل نزاع كبير كما كانت في الماضي، وأن من غير المقبول أن أعرض عنها صفحاً، وأتغاضى عن قضية شغلت العلماء والدعاة، وطلاب العلم والدعوة فضلاً عن العامة، فكان لا بد لها من بيان ما أراه حقاً، ساعياً في ذلك إلى جمع كلمة المختلفين، متى كان الخلاف في دائرة الاعتبار، ورأيت من التبسيط المخل أن نسكت، ونغلق أفواهنا عن الكلام في الموضوع، ونحسب أن القضية قد حسمت بذلك، وإن كنت أرى - كما رأى الإمام البنا - أن الخلاف بين السلف والخلف في هذه القضية ليس بالحدة والعمق والسعة التي يتصورها أو يصورها الكثيرون ممن يتناول هذه القضية بالبحث.

الواقع أن من يقرأ ما ورد عن السلف من عبارات مأثورة، حول هذه الآيات، يتبين من أكثرها أنها تترك الخوض في معانيها، ولا تتكلف تفسيرها من عندها بعبارة من العبارات.

(١) رسالة التعاليم ص ٣٥٥، ضمن مجموعة رسائل الإمام حسن البنا، نشر المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر، بيروت، ط ٣، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، وسيأتي مزيد بيان لموقف الإمام البنا رحمه الله.

وهذا كان واضحًا وشبه متفق عليه، قبل ظهور شيخ الإسلام ابن تيمية ومدرسته، وحملهم على التفويض ومن يقول به، وتمسكهم بالإثبات.

وابن تيمية إمام نعرف له بالإمامة - ولا ريب - في سائر علوم الإسلام، وفي إحياء الأمة وتصويب مسيرتها، ونأخذ عنه، ونقتبس منه، وأراه فيضًا من الله تعالى على الأمة الإسلامية في ذلك الزمن وإلى اليوم. وأعتبر نفسي تلميذًا له ولتلميذه ابن القيم، ومخالفتي له هنا قد تعلمتها منه، ومن منهجه القويم، ولا تعجبوا أن تجدوا تيميًا يعارض ابن تيمية في قضية كبيرة؛ لأنني أراه في هذا الموضوع متشددًا غاية التشدد، وهو على كل حال بشر غير معصوم.

وقد أكد هذا التفويض كل علماء الخلف، الذين نقلوا مذهب السلف، وشرحوه وقرروه؛ من محدثين ومفسرين ومتكلمين ومؤرخين.

وقد اخترنا في هذه الأمور منهجًا وسطًا، قد لا يعجب بعض إخواننا السلفيين - وهم إخواننا وأصدقائنا ممن نحبههم ونقدرهم - الذين تعصبوا لرأي واحد، لا يتنازلون عنه، ولا يتساهلون فيه.

وقد أطلعنا النقل في هذه القضية في كتابنا (فصول في العقيدة بين السلف والخلف) لنجليها للباحث والقارئ المنصف، الذي يريد أن يعرف الحقيقة دون عصبية لرأي قديم، أو عبودية لفكر جديد.

وأنا مع منهج السلف في معظم قضايا الصفات، فلا ألجأ إلى التأويل في الصفات التي هي في البشر انفعالات، بل أثبتها على معنى غير الانفعال، يليق به تعالى، لا كما هو عند البشر.

كذلك نثبت له - تبارك وتعالى - رحمةً ومحبةً ورضًا وغضبًا وفرحًا، إلى غير ذلك من الصفات التي صحّت بها النصوص، ولكنها ليست كصفات البشر.

وأنا كذلك مع منهج السلف في إثبات صفة العلو والفوقية لله تعالى، والاستواء على عرشه، كما يليق به، لا كما يتوهمه المشبهون والمجسمون، الذين يتصورونه جسمًا كبيرًا فوق السماوات، وأنه يجلس على العرش فيبقى بعض العرش، وإنه يئط من تحته، إلخ، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

بل نؤمن بهذا العلو كما فهمه المحققون من علماء السلف، لا كما تخيّل المتخيّلون من الخلف، الذين يدّعون أنهم على نهج السلف، وهو ما نقلت فيه عن العلامة الواسطي الشافعي المتصوف المعتدل، الذي كان يسمّيه ابن تيمية (جنيد زمانه).

الشيء الذي أخالف فيه دعاة المذهب السلفي، هو ما يفيد ظاهره إثبات التجسيم والتركيب لذات الله جل ثناؤه، وكان يقبل التأويل بغير تكلف ولا اعتساف؛ مثل إثبات اليد والأصابع والقدم والجنب والمشي والهرولة، والنزول من السماوات إلى الأرض ونحو ذلك. فهذا أرجح تأويله - كما جاء عن البيهقي والخطابي والقاضي عياض وابن عبد السلام وابن دقيق العيد - ما دام جاريًا على لسان العرب، وما تقتضيه مخاطباتهم في ذلك من المجاز والاستعارة والكناية وغيرها من أساليب البلاغة العربية.

ولا ينبغي أن يعيب أحدٌ هذا التأويل السائغ، فهو اللائق بكلام الله تعالى، البالغ الذروة العليا في البلاغة. على أنني لا ألزم أحدًا بهذا التأويل، فهو جائزٌ لا واجب، وإن كنت أرجحه.

ولكنني مع المنهج السلفي فيما كان تأويله بعيداً ومتكلفاً، مثل تأويل ﴿أَسْتَوَى﴾ [طه: ٥]. بأن معناها استولى. ونسأل الله أن يهدينا إلى سبيله القويم.

ومن أراد التفصيل حول هذه القضايا فليراجع كتابنا: (فصول في العقيدة بين السلف والخلف)، ففيه مناقشة واسعة لهذه القضايا^(١).

* * *



(١) نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

أَسْمَاءُ اللَّهِ الْحُسْنَى

اللَّهُ ﷻ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، والصفات العليا، التي هي مقتضيات كمال ربوبيّته، وعظمة إلهيّته، وقد تفرّد بها الخالق، فلا يشاركه فيها أحد؛ لأنه هو الرب والإله، فلا ربّ غيره، ولا إله سواه. والأسماء الحسنی هي الكاملة، فله سبحانه أحسن الأسماء، وأجلّها، لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها.

وسنذكر فيما يلي بعضاً من أسماء الله وصفاته على نحو ما أثبتتها القرآن الكريم، والسنة النبوية المُطَهَّرة، وقبل الكلام عن بعض أسماء الله وصفاته، أذكر بعض المسائل المتعلقة بأسماء الله تعالى.

دعاء الله بأسمائه الحسنی والتحذير من الإلحاد فيها:

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. فالله سبحانه اختص بالأسماء الحسنی، وعلى المؤمنين أن يدعوه بها. قال تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠] الإلحاد: الميل وترك القصد.

أوجه الإلحاد في أسماء الله تعالى:

والإلحاد في أسمائه يكون بثلاثة أوجه:

أحدها: بالتغيير فيها، كما فعله المشركون، وذلك أنهم عدلوا بها عما هي عليه، فسَمُّوا بها أوثانهم، فاشتقوا (اللات) من (الله)، و(العزى) من (العزیز)، و(مناة) من (المنان). قاله ابن عباس وقتادة^(١).

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢٨٢/١٣)، تحقيق محمود وأحمد شاكر، نشر دار التربية والتراث، مكة المكرمة.

الثاني: بالزيادة فيها.

الثالث: بالنقصان منها.

ونبه القرطبي إلى معنى في الزيادة في الأسماء الحسنى أو النقصان منها، فقال: «معنى الزيادة في الأسماء: التشبيه. والنقصان: التعطيل. فإنَّ المشبَّهة وصفوه بما لم يأذن فيه، والمعطَّلة سلبوه ما اتَّصف به؛ ولذلك قال أهل الحق: إنَّ ديننا طريق بين طريقين، لا بتشبيه ولا بتعطيل.

وسئل الشيخ أبو الحسن البوشنجي عن التوحيد، فقال: إثبات ذات غير مشبَّهة بالذوات، ولا معطَّلة من الصفات»^(١).

* * *

(١) تفسير القرطبي (٣٢٨/٧)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر دار الكتب المصرية،

ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

صفات الله تعالى

الأول

من صفات الله تعالى أنه (الأوّل) فلا ابتداء لوجوده، ولم يُسبق بعدم. وتعني صفة الأوليّة - أو ما يعبر عنه المتكلمون بالقدّم - أولية الله على كل ما سواه، فمهما تصور الإنسان موجودًا قديمًا فالله أقدم منه، ولا يعني هذا الأوليّة النسبية، بل هي أولية مطلقة، فهو الأول بإطلاق، فلم يسبقه عدمُ البتّة.

وقد آثرنا وصفه سبحانه بعنوان (الأول) على خلاف ما سار عليه علماء الكلام باختيار عنوان (القديم) اقتداء بما وصف الله نفسه في كتابه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣]. وبما وصفه به رسوله ﷺ، وإن كنا لا ننكر على من وصف الله تعالى بالقدّم.

والدليل على إثبات هذا الوصف لله قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

ووجه الدلالة في الآية الثانية: أن كل شيء غير الله مخلوق لله، فلا يجوز أن يكون غيره خالقًا له؛ لأنه لو كان مخلوقًا لكان محتاجًا إلى غيره، كيف وهو صاحب الغنى المطلق، وفقر كل شيء إليه محقق؟

وأهل السنة يعتقدون أن الله تعالى كان ولم يكن شيء غيره، لا قبله ولا معه، وهذا يعني أنه في الأزل كان ولا مكان.

وقال ابن عبد البر: وقد صح في المعقول، وثبت بالواضح من الدليل أنه كان في الأزل لا في مكان^(١).

ونقل ابن حزم الأندلسي اتفاق العلماء على هذا فقال: «اتفقوا أن الله وَجَلَّ خالق كل شيء غيره، وأنه تعالى لم يزل وحده، ولا شيء غيره معه، ثم خلق الأشياء كلها كما شاء»^(٢).

قال العلامة أحمد بن إبراهيم الواسطي المتوفى سنة ٧١١هـ وكان قد صحب ابن تيمية وأخذ عنه: «الحمد لله الذي كان ولا مكان». ثم قال: «الله وَجَلَّ، كان ولا مكان ولا عرش ولا ماء»^(٣).

وفي صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق عن عمران بن حصين مرفوعاً: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض»^(٤).

خواطر تمرُّ بالنفس:

وقد تمرُّ بالنفس خواطر حول أسرار هذه الأولوية التي تتقاصر عنها عقولنا، وتتضاءل أمامها أفهامنا، ولا يؤثر ذلك في صحة الإيمان^(٥).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «أوجدتموه؟». قالوا:

(١) التمهيد لابن عبد البر (١٣٦/٧، ١٣٥)، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، نشر وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ.

(٢) مراتب الإجماع لابن حزم ص ١٦٧، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) النصيحة في صفات الرب جل وعلا للواسطي ص ١٨، تحقيق زهير الشاويش، نشر المكتب الإسلامي، ط ٢، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

(٤) رواه البخاري في بدء الخلق (٣١٩١).

(٥) عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالي ص ٣٠ بتصرف، نشر دار نهضة مصر، ط ١.

نعم. قال: «ذلك صريح الإيمان»^(١). أي: كراهتم لتلك الوسوسة دليل على كمال إيمانكم.

ولا يصح أن يقال: إن الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ لأن السؤال خطأ؛ لأن الخالق لا يكون مخلوقاً؛ لأنه لو كان مخلوقاً لاحتاج إلى خالق، وهكذا إلى ما لا نهاية، وكما قلنا فعقولنا القاصرة لا تدرك حقيقة نفسها، فكيف بحقيقة الذات الإلهية، وقد نهينا أن نبحث عنها أو فيها.

ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا: خلق الله الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل: آمنت بالله»^(٢).

مثال يوضح المقام:

كتب الشيخ حسن البنا جواباً عن هذا السؤال الوارد في حديث رسول الله ﷺ، الذي سبق بيانه، وضّحه بمثال، فقال:

«إذا وضعت كتاباً على مكتبك، ثم خرجت من الحجرة، وعُدت إليها بعد قليل، فرأيت الكتاب الذي تركته على المكتب موضوعاً في الدرج، فإنك تعتقد تماماً أن أحداً لا بد أن يكون قد وضعه في الدرج؛ لأنك تعلم من صفات هذا الكتاب أنه لا ينتقل بنفسه، احفظ هذه النقطة وانتقل معي إلى نقطة أخرى.

- لو كان معك في حجرة مكتبك شخص جالس على الكرسي، ثم خرجت وعدت إلى الحجرة، فرأيت جالساً على البساط مثلاً، فإنك

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٣٢).

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٣٤).

لا تسأل عن سبب انتقاله، ولا تعتقد أن أحدًا نقله من موضعه؛ لأنك تعلم من صفات هذا الشخص أنه ينتقل بنفسه، ولا يحتاج إلى من ينقله. احفظ هذه النقطة ثم احفظ ما أقول لك.

- لما كانت هذه المخلوقات مُحدثة، ونحن نعلم من طبائعها وصفاتها أنها لا توجد بذاتها، بل لا بدّ من مُوجد؛ عرفنا أنّ موجدها هو الله تبارك وتعالى.

ولما كان كمال الإلهية يقتضي عدم احتياج الإله إلى غيره، بل إنّ من صفاته قيامه بنفسه، عرفنا أن الله تبارك وتعالى موجود بذاته، وغير محتاج إلى من يُوجدّه»^(١). إذن فالسؤال غير وارد.

* * *

(١) رسالة العقائد ص ٤٠٥، ضمن مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا.

الآخر

من صفاته تعالى أنه (الآخر)، أو ما يعبر عن المتكلمون بالقدم.
ومعناه: أن الله تعالى باقٍ أبداً، فلا يلحقه العدم، حيث ثبت له القدم،
فهو سبحانه لا آخر لوجوده، وهو باقٍ إلى ما لا نهاية، وهو أزلي وأبدي،
لا يسبقه عدم ولا يلحقه فناء.

قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وقال: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

وقد تعددت وتنوعت عبارات المتقدمين في تفسير هذه الأسماء:
الأول، الآخر، الظاهر، الباطن. ولا داعي لهذه التفسيرات بعد أن ورد
تفسيرها عن المعصوم صلوات الله وسلامه عليه، فقد روى مسلم في
صحيحه، عن أبي هريرة رضي عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول إذا أوى إلى
فراشه: «اللهم رب السماوات السبع، ورب الأرض، ورب كل شيء، فالحق
الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر كل ذي
شر أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس
بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك
شيء، اقض عني الدين وأغنني من الفقر»^(١).

* * *

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٣)، وأحمد (٨٩٦٠).

ليس كمثله شيء

ومن صفاته تعالى: أنه متفرد في أوصافه، فلا يشبه أحدًا ولا شيئًا من خلقه، ولا يشبهه أحد ولا شيء، ويعبر عنها المتكلمون بالمخالفة للحوادث. قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فلا يمكن أن يماثله شيء في الأرض، أو في السماء، مما يرى، ومما لا يرى، ومن أين للمخلوق أن يشابه الخالق؟

والشُبْهَةُ^(١) هنا منعدمة، وكلهم عبيد له، كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ عِندَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

وإذا انتفى الشَّيْبَةُ، انتفى المَثِيلُ من باب أولى، ودليل نفيهما قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]. أي: ليس له من يكافئه في ذاته أو صفاته أو أفعاله.

قال الحافظ البيهقي رَحِمَهُ اللهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾: «لَمَّا أَرَادَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَنْفِيَ التَّشْبِيهَ عَلَى أَكْدٍ مَا يَكُونُ مِنَ النِّفْيِ، جَمَعَ فِي قِرَاءَتِنَا بَيْنَ حُرُوفِ التَّشْبِيهِ وَاسْمِ التَّشْبِيهِ، حَتَّى يَكُونَ النِّفْيُ مُؤَكَّدًا عَلَى الْمُبَالَغَةِ»^(٢).

(١) الشبهة: المثل، تقول: إني لفي شبهة منه. أي شبه. انظر: تاج العروس (ش. ب. ه).

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (٣٤/٢)، نشر مكتبة السوادى، جدة، ط ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

وقوله: «جمع في قراءتنا بين حروف التشبيه واسم التشبيه حتى يكون النفي مؤكَّدًا على المبالغة». توضيحه: أن الذي يتبادر إلى الأذهان أن يكون سياق الآية: (ليس كهو شيء) بحذف (مثل)، والتقدير: ليس شيءٌ شبيهاً به. أو (ليس مثله شيء) بحذف (الكاف)، =

زيغ الأديان المحرّفة في صفات الله:

فُتِنَت اليهود، فشَبَّهوا الله تبارك وتعالى بخلقه، وصوَّروه بصور المخلوقين، فهو يمشي معهم، ويتكلم بكلامهم، ويتحلى بأوصافهم البشرية، ويدخل معهم في صراع، فيصرعه بعضهم، ولا يفلت منه حتى يعطيه بعض المزاياء لذريته.

وفتن النصارى، فشَبَّهوا المخلوق بالخالق، فاتَّخذوا المسيح ابن مريم إلهاً، وجعله بعضهم ثلث إله، على أساس نظرية التثليث التي أخذوها من الهنود، وهي عندهم نظرية قديمة، وقد كَفَّرَ القرآن من قالوا ذلك، فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ [المائدة: ٧٢، ٧٣].

عجز الإنسان عن إدراك صفات الله:

من أراد معرفة ربه وخالقه فعليه أن يعرفه بما عرف به سبحانه نفسه في كتابه العظيم، وعلى لسان رسوله الكريم، من الأسماء الحسنى، والصفات العليا، وبما بثه في هذا الكون الفسيح من الآيات الدالة على عظمته وربوبيته سبحانه، ولا يمكن لمخلوق مهما كان أن يدرك حقيقة

= والتقدير: ليس شيء مثلاً له، والأول: يُفِيدُ نَفْيَ الشَّبهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ. والثاني: يُفِيدُ نَفْيَ التَّمَاثُلِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ. ولَمَّا أَرَادَ اللَّهُ وَجَّكَ نَفْيَ التَّشْبِيهِ وَالتَّمَثِيلِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ ﷻ، جمع في الآية المبدوءة بالنفي (ليس)، بين حرف التشبيه، وهو (الكاف)، واسم التشبيه، وهو (مثل)، والغاية من ذلك أن يكون النفي مُؤَكِّدًا على المبالغة.

ذات الخالق سبحانه، لقوله سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]،
وقوله: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. ولقول النبي ﷺ: «تفكروا في
آلاء الله، ولا تفكروا في الله»^(١).

ومما يشهد لهذا أن فرعون لما سأل موسى ﷺ قائلاً: ﴿وَمَا رَبُّ
الْعَالَمِينَ﴾ قال له موسى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾
[الشعراء: ٢٣، ٢٤]. ففرعون سأل عن ذات الله تعالى، وموسى أجابه بصفاته.

وإذا كان الإنسان عاجزاً عن إدراك حقيقة الوجود المادي الذي يعيش
فيه فكيف يعرف ما وراءه من غيوب؟ إذا كان لا يعرف حقيقة الحياة
البشرية، فكيف يعرف غيرها من الحقائق؟

ومن أين للإنسان العاجز أن يعرف حقيقة العظيم القاهر؟

إنَّ الله تعالى ليس كمثله شيء، وعقولنا القاصرة، وأذهاننا المحدودة،
لا تتناول إلى معرفة حقيقة الإلهية، ولا شك أن الذات الإلهية مخالفة
لغيرها من المحدثات، والعقل يقضي بأن مرتبة المخلوق بينها وبين
مرتبة الخالق أمد بعيد.

يقول الشيخ محمد عبده ما ملخصه: «إنَّ الفكر في ذات الخالق عبث
ومهلكة، عبث لأنه سعي إلى ما لا يدرك، ومهلكة لأنه يؤدي إلى الخطأ في
الاعتقاد؛ لأنه تحديد لما لا يجوز تحديده، وحصر لما لا يصح حصره»^(٢).

وما أحسن ما ينسب إلى الإمام علي رضي الله عنه في الله تعالى: إنه لا تدركه
الشواهد، ولا تحويه المشاهد، ولا تراه النواظر، ولا تحجبه السواتر،

(١) سبق تخريجه ص ١٧٢.

(٢) التوحيد للإمام محمد عبده ص ٤٩، نشر نهضة مصر، القاهرة، ط ١٤، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م.



لا بذِي عِظَم تناهت به الغايات فعظّمته تجسّيدًا، ولا بذِي كِبَر امتدّت به النهايات فكبّرته تجسيمًا، بل كِبُر شأنًا، وعظُم سلطَانًا^(١)!

لقد ردّ الإسلام الأمر إلى نصابه، وأتى بالقول الفصل في حقيقة الله وصفاته، ودخّض كل الشبهات والأباطيل التي رانت على القلوب والعقول حول العقائد في الله تعالى، فالإسلام يرى أن للكون خالقًا متّصفًا بجميع صفات الكمال، منزّهًا عن كل ما فيه نقص، ممّا يدعو إلى أن نُجِلّه عن التشبيه والتجسيد، وعن كل صفات المخلوقين، سبحانه: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ [طه: ١١٠]، ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزّخرف: ٨٢]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فالله سبحانه ليس كمثله شيء، أو كما يقول علماء العقائد: لا يماثل الحوادث؛ لأنه سبحانه لو مائل شيئًا من الحوادث، لكان حادثًا مثلها، والحدوث مستحيل على الله وعجل.

* * *



(١) انظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (٤٤/١٣)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي.

العلم

العلم صفةٌ أزليّةٌ قائمةٌ بذاته تعالى، مُتعلّقةٌ بجميع الواجبات والجائزات والمُسْتَحِيلات، على وجه الإحاطة، فيعلم ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

فيعلم الله سبحانه نفسه وصفاته، ويعلم خلقه الذي أوجده من العدم، ويعلم المُسْتَحِيلَ المعدوم - كالشريك له - أنه معدوم.

الدليل العقلي على صفة العلم:

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية وعلماء الكلام أدلة عقلية على إثبات العلم لله تعالى منها: إيجاده تعالى الأشياء: لاستحالة إيجاده الأشياء مع الجهل.

قال ابن تيمية: «هذا الدليل مشهور عند نظار المسلمين، أولهم وآخرهم، والقرآن الكريم قد دلّ عليه كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. والمتفلسفة سلكوه، وبيانه من وجوه:

أحدها: أن إيجاده للأشياء هو بإرادته. والإرادة تستلزم تصور المراد، وتصور المراد هو العلم. فكان الإيجاد مستلزماً للإرادة، والإرادة مستلزمة للعلم، فالإيجاد مستلزم للعلم.

الثاني: أن المخلوقات فيها من الأحكام والإتقان، ما يستلزم علم الفاعل لها؛ لأنّ الفعل المُحكّم المتقن يمتنع صدوره عن غير عالم.

وبهذين الطريقتين يتقرر ما ذكره. ولهم طرق منها: أن من المخلوقات ما هو عالم، والعلم صفة كمال، ويمتنع ألا يكون الخالق عالمًا^(١).

ويقول الإمام الشيخ محمد عبده في (رسالة التوحيد): «من أدلة ثبوت العلم للواجب ما نشاهده في نظام الممكنات من الإحكام والإتقان، ووضع كل شيء في موضعه، وقَرَن كل ممكن بما يحتاج إليه في وجوده وبقائه، وذلك ظاهر لَجَلِّي النظر بما يشاهده في الأعيان كبيرها وصغيرها، علويها وسفليها.

فهذه الروابط بين الكواكب، والنسب الثابتة بينها، وتقدير حركاتها، على قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذي قُدِّر لها. وإلزام كل كوكب بمقدار لو خرج عنه لاختلَّ نظام عالمه أو العالم بأسره، وغير ذلك ممَّا فُصِّل في علم الهيئة الفلكية، كل ذلك يشهد بعلم صانعه، وحكمة مدبره»^(٢).

ويقول: «هذا الصنيع الذي تتفاضل العقول في فهم أسرارها، والوقوف على بديع حكمها، ألا يدل على أنَّ مصدره هو العالم بكل شيء، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى؟»^(٣).

هل يمكن لمجرّد الاتفاق المُسمّى بالمصادفة أن يكون ينبوعاً لهذا النظام، وواضحاً لتلك القواعد التي يقوم عليها وجود الأكوان عظيمها وحقيرها؟

(١) شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية ص ٦٠، تحقيق محمد بن رياض الأحمد، نشر المكتبة

العصرية، بيروت، ط ١، ١٤٢٥هـ.

(٢) التوحيد ص ٣٦.

(٣) المصدر السابق ص ٣٧ - ٣٨.

كلا بل مبدع ذلك كله من ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ - أي: لا يغيب ويخفى -
﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا
فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

أما الدليل النقلي على ثبوت هذه الصفة لله تعالى فهو كثير، منه قوله
تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣]، ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ
إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦]، ﴿إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧]،
﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ
وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله...»^(١).

علم الله ليس كعلم البشر:

علم الله تعالى ليس كعلم خلقه من البشر، في أوصافه وخصائصه
ومقوماته، فعلم الله من ذاته، لا يحتاج إلى معلّم، ولا إلى أداة، ولا إلى
وقت، فهو يعلم ما يشاء، متى يشاء، كيف يشاء.

وعلم الله ثابت لا يتغير، فما علمه الله عن شيء، فهو يعلمه على
حقيقته وصفته، كمّا وكيفاً، ولوناً وعدّاً، ولو كان سيتغير لعلم الله أنه
سيتغير، وكيف يتغير، وكم يتغير، ومتى يتغير، وإلى أي مدى يتغير.

وعلم الله لا يعتريه نقص أو اختلاط بمرور الأزمان والأعصار
وملايين السنين، وما جاء في القرآن وغيره أن الله يبتلي الناس
بالمحن والبلايا ليختبرهم، فلا يعني ذلك: أنه يجهل حالهم، ولكن
يعاملهم كمعاملة المختبر، وهو أعلم بهم منهم. كما قال تعالى:

(١) رواه البخاري في التوحيد (٧٣٧٩).



﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوًا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]،
 ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ
 عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فهو سبحانه صاحب العلم المحيط المستوعب لكل شيء، في عالم
 الخلق والتكوين، أو في عالم الأمر والتشريع، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ
 الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

* * *



الإرادة

الله تعالى مصدر كل شيء، وخالق ما عرفنا وما لم نعرف من الموجودات، فمن البدهة أن نثبت له صفة الإرادة؛ لأن من شروط من يصدر عنه شيء أن يكون مُريدًا له.

والإرادة صفة أزلية قائمة بذاته تعالى، شأنها تخصيص كل ممكن ببعض ما يجوز عليه، أما قول علماء الكلام: (قديمة) فللرد على الكرامية القائلين بحدوثها، أما تخصيصها بكل ممكن ببعض ما يجوز عليه، فذلك كالإنسان مثلاً، فهو صالح لأن يكون سعيداً أو شقيّاً، فتخصّصه إرادة الله أزلاً بالسعادة، لأن الله تعالى علم أنه سيأخذ في طريقها، ويعمل لها، وكذلك هو صالح لأن يكون غنياً أو فقيراً، فتخصّصه إرادة الله بالغنى، لعلم الله أنه سيعمل لدنياه بيقظة وحزم، وتسهل معه مطالب الحياة كأنها تطاوعه، وكذلك هو صالح لأن يكون قوي الجسم أو ضعيفه، فتخصّصه إرادة الله بالقوة، لعلم الله أن أبويه سيحافظان على صحته في الصغر، وتواتيه الأسباب فيحافظ على نفسه في الكبر، وهكذا.

فهو سبحانه الفَعَّال لما يريد، كما وصف نفسه في سورة البروج: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]. كل ما في الكون بإرادته، وما يصدر عن الخلائق من خير أو شر، من طاعة أو معصية، فهو بمقتضى مشيئته، لا يقع شيء في كونه إلا بمشيئته التامة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]. فمشيئتنا الإنسانية هي جزء من مشيئة الله العامة في الكون، فلسنا نعمل رغم مشيئة الله تعالى، أو ضد مشيئة الله تعالى، ولكن بعض ما يشاء، سبحانه يرضيه ويحبه، وبعضه يقع بإرادته ومشيئته، ولكن لا يرضاه ولا يحبه، كما قال تعالى:

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾
[الزمر: ٧].

قال الإمام السهروردي (ت: ٦٣٢هـ) في رسالته (أعلام الهدى وعقيدة أرباب التقى) في إثبات صفة الإرادة للخالق سبحانه: «مريدٌ على الإطلاق، لا إرادة لأحد من الخلق من الجن والإنس والملائكة والشياطين؛ إلا وهو منشئها ومريد مرادها، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا يجري في ملكه من كفر وإيمان، وطاعة وعصيان، وعطاء وحرمان، وعمد وخطأ ونسيان؛ إلا بمشيئته، عدلٌ في جميع أقضيته ومراداته، غير موصوف بالظلم في بريته ومصنوعاته، لا رادٍّ لأمره، ولا مانع لقضائه: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، وصف نفسه بالإرادة؛ فوصفناه بما وصف به نفسه، فقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]»^(١).

الإرادة غير الأمر والعلم:

وإرادة الله غير أمره وغير علمه، أما مغايرتها الأمر اللفظي فظاهر، أما الأمر النفسي فلأنها تفارقه، فقد يريد الله الشيء مع نهيهِ عنه ككفر أبي جهل، وقد لا يريده ويأمر به كإيمان الكافر فيتغايّر.

(١) أعلام الهدى وعقيدة أرباب التقى للسهروردي ص ٦٢، ٦٣، تحقيق عبد اللطيف عمر المحيّد، نشر كتاب ناشرون، بيروت، ط ١، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.

وتغاير الإرادة العلم؛ لأن الإرادة للتخصيص بما يكون حسب العلم، فالعلم يسبقها في المنزلة.

نوعا الإرادة:

ذهب أهل العلم إلى أن الإرادة على نوعين:

أ - إرادة كونية:

ويراد منها المشيئة، وهي تتعلق بكل ما يشاء الله فعله وإحداثه، فهو سبحانه إذا أراد شيئا وشاءه كان، عقب إرادته له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

ب - إرادة شرعية:

وهي تتعلق بما يأمر الله به عباده مما يحبّه ويرضاه، وهي المذكورة في مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا * [النساء: ٢٦ - ٢٨].

ولا تلازم بين الإرادتين، بل قد تتعلق كلُّ منهما بما لا تتعلق به الأخرى.

فالإرادة الكونية أعم من جهة تعلقها بما لا يحبه الله ويرضاه من الكفر والمعاصي، وأخص من جهة أنها لا تتعلق بمثل إيمان الكافر، وطاعة الفاسق.

والإرادة الشرعيّة أعم من جهة تعلقها بكل مأمور به، واقعًا كان أو غير واقع، وأخص من جهة أن الواقع بالإرادة الكونية قد يكون غير مأمور به.

والخلاصة: أنّ الإرادتين قد تجتمعان في مثل إيمان المؤمن، وطاعة المطيع، وتنفرد الكونيّة في مثل كفر الكافر، ومعصية العاصي، وتنفرد الشرعية في مثل إيمان الكافر، وطاعة العاصي.

مظاهر الإرادة:

إنّ من يمعن النظر إلى هذا الكون بعقل سليم، وفكر مستقيم، يرى أثر إرادة الله واضحًا في دقيق صنعه، وعجيب تدبيره، ويدرك أنّ هذه المخلوقات صادرة عن صانع حكيم، أتقنها سبحانه بإرادته، ودبرها بمشيئته، وقدرها بحكمته، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

فالأيات تدل على أنّ الله أوجد كل شيء بحسب ما اقتضته إرادته المبنية على العلم بالأشياء قبل وقوعها، وعلى الحكم البالغة، وهيّاه لما أراد من الخصائص والأفعال التي تليق به.

﴿فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾: قدر حجمه وشكله، وقدر وظيفته وعمله، وقدر زمانه ومكانه، وقدر تناسبه مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير.

يقول (أ. كريسي موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك في كتابه (الإنسان لا يقوم وحده): «إنّ الحشرات ليست لها رتتان كما للإنسان، ولكنها تتنفس عن طريق أنابيب، وحين تنمو الحشرات وتكبر،

لا يقدر لتلك الأنابيب أن تجاريها في نسبة تزايد حجمها، ومن ثم لم توجد قط حشرة أطول من بعض بوصات، ولم يَطُل جناح حشرة إلا قليلاً، وبفضل جهاز تكوين الحشرات وطريقة تنفسها لم يكن في الإمكان وجود حشرة ضخمة، وهذا الحد من نمو الحشرات قد كبح جماحها كلها، ومنعها من السيطرة على العالم، ولولا وجود هذا الضابط الطبيعي لما أمكن وجود الإنسان على ظهر الأرض، وتَصَوَّرَ إنساناً فطرياً يلاقي دُبُوراً في حجم الأسد، أو عنكبوتاً في مثل هذا الحجم»، كل ذلك يدل على إرادة مُدبِّرة، ومشِيئة حكيمة^(١). ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

* * *

(١) في ظلال القرآن (٢٥٤٩/٥، ٢٥٥٠).

القدرة

هي صفة أزليّة قائمة بذاته، يتأتّى بها إيجاد كلّ ممكن وإعدامه وفق إرادته، وآثار قدرة الله ماثورة في الأنفس والآفاق، وفي السماوات والأرض. والقرآن الكريم يدعو الناس إلى النظر والتأمل، ويحثهم على التفكير والتدبر فيما حولهم؛ ليصلوا بذلك إلى ربهم، فيؤمنوا فتخبت له قلوبهم، ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

والإنسان الذي منحه الله تعالى عقلاً مفكراً يتساءل: من خلق السماوات والأرض؟ من أنزل من السماء ماءً فأنبث به حدائق ذات بهجة؟ من جعل الأرض قراراً، وجعل خلالها أنهاراً، وجعل لها رواسي، وجعل بين البحرين حاجزاً؟ مَنْ يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء؟ من يجعلنا نحن البشر خلفاء الأرض؟ من يهدينا في ظلمات البر والبحر؟ من يرسل الرياح بشراً بين يديه رحمته؟ من يبدأ الخلق ثم يعيده؟ من يرزق الخلق من السماء والأرض؟

إنه لا يجد جواباً سوى أن يقول: إنه الله ربّ العالمين، القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير، إنه على كل شيء قدير.

وليتأمل الإنسان نفسه: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

إنّ هذا المخلوق الإنساني - كما قال صاحب الظلال^(١) - هو العجبة الكبرى في هذه الأرض، ولكنه يغفل عن قيمته، وعن أسرارها الكامنة فيه، حين يغفل عن الإيمان، وحين يُحرّم نعمة اليقين.

(١) في ظلال القرآن (٦/٣٣٧٩، ٣٣٨٠).

إنه عجيبة في تكوينه الجسماني، في أسرار هذا الجسد، عجيبة في تكوينه الروحي، في أسرار هذه النفس، عجيبة في ظاهره وباطنه، وهو يمثل عناصر هذا الكون.

وتزعم أنك جِزْمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبر
وحيثما وقف الإنسان يتأمل عجائب نفسه، التقى بأسرار تدهش
وتحير، تكوين أعضائه وتوزيعها، ووظائفها، وطريقة أدائها لهذه
الوظائف، عملية الهضم والامتصاص، عملية التنفس والاحتراق، دورة
الدم في القلب وفي العروق، الجهاز العصبي وتركيبه وإدارته للجسم،
الغدد وإفرازها وعلاقتها بنمو الجسد ونشاطه وانتظامه، وأسرار روحه
وطاقتها المعلومة والمجهولة، وإدراكه للمدركات وطريقة إدراكها،
وحفظها وتذكرها: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وينظر إلى هذا الكون ليرى أن هذه الصنعة البديعة، وفيها سماء
رفعها، وأرض بسطها، وجبال أرساها، وكواكب نظمها، وبحار أجراها،
وعيون فجّرها، لا تكون إلا من قادر، سبحانه!

على أنه لو لم يكن قادراً لكان عاجزاً، وعجزه محال، كيف وهو
خالق كل شيء؟

أما الأدلة النقلية على كمال قدرة الله، فهي كثيرة في كتاب الله تعالى؛
كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

وقدرة الله تعالى مطلقة، تتعلق بكل ما هو ممكن. وما هو ممكن
يعني: أنه ليس بمستحيل عقلاً وجوده، فكل ما يخطر ببالك، وما
لا يخطر ببالك من الممكنات العقلية، فهو في متناول القدرة.

وانظر إلى قدرة الله تعالى على الخلق، فالرجل وزوجته يلتقيان في فراش الزوجية، يبتغيان المتعة، ويلتمسان الولد، ذكرًا كان أو أنثى، المرأة تنتج في الشهر القمري العربي بويضة واحدة، والرجل ينزل في كل مرة من مرات الجماع دفقات فيها مئات الملايين، كل واحد منها قابل لأن يُخصب البويضة التي تنزل من المرأة، ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٥ - ٧].

وكل أنواع الخلق من الإنبات والإخراج تدل على قدرة الله تبارك وتعالى، كما قال: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿[الحج: ٥، ٦].

قال تعالى في أوائل سورة النحل، وكانوا يعدونها (سورة النعم): ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿وَالْأَنعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿[النحل: ٣ - ٦]. وبعد أن ذكر سبحانه خلق النبات والشجر والزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، وعرج على السماوات والأرض والبحار وسائر الأنواع مما خلق الله تعالى، قال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ * وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿[النحل: ١٧، ١٨].

الله وَجَلَّ هو الذي خلق الأشياء، مما نعلمه، ومما لا نعلمه، مما نأكله وما لا نأكله، مما نلبسه، ومما لا نلبسه، مما نستعمله وما لا نستعمله، من المأكولات والمشروبات، والملبوسات والمشروبات، والمسموعات والمقروءات، وما هو فوق ذلك، مما سماه الناس وما لم يسموه.

وأرسل الله تعالى رسله إلى خلقه، وأنزل عليهم الكتب، ولكن كثيراً من الناس قد عصوا الله تعالى، وتمردوا على رسله الذين أرسلهم الله إليهم، فطغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فإذا ربهم يصب عليهم سوط عذاب، وينزل نقمته على هذه النعم التي أنعم بها على عباده فلم يشكروها، فأنزل عليهم سخطه، ونقمته؛ فأنزل الطوفان على قوم نوح، وأهلك عاداً بريحٍ صرصرٍ عاتية، وشمود أخذتهم الصيحة، وقوم فرعون وجنوده أهلكهم بإغراقهم في البحر، ونجا موسى ومن معه أجمعون، ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى * وَالْمُونِفَكَّةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى * فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكَ نَتْمَارِئُ * هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى * أَزِفَتِ الْأَزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمَن هَذَا الْحَدِيثِ تَعْبُجُونَ * وَتُضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ * فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم: ٥٢ - ٦٢].

وفي سورة النمل ذكر الله تعالى أنواعاً وألواناً من قدرته التي لا يحدها حد، ولا يعدها عد، وما اتصلت به من نعم كبرى، مادية ومعنوية، مذكراً بأن صاحبها هو الله، ولا إله مع الله. قال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ؕ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٤].

الحياة

من الصفات الواجبة لله تعالى: الحياة، وهي صفة ذاتية ثبوتية قديمة أزلية، تقتضي صحة العلم والقدرة، لاستحالة قيامها بغير الحي.

يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢].

ومن أجل هذا اهتم الرسول الكريم، واهتم الصحابة معه، واهتم التابعون والمسلمون بعدهم بصفة الحياة، ولما سأل النبي ﷺ الصحابي الجليل أبي بن كعب: أي آية في كتاب الله أعظم؟ وحين أجاب بأنها آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قال له: «لِيَهْنِكَ العلم أبا المنذر»^(١).

ويقول سبحانه: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١].

ويقول: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الرؤم: ١٩].

وقال تعالى لرسوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

قال العلماء رحمهم الله تعالى: حياة الباري عجل مما اتفق عليه العقلاء.

فكيف يكون مصدر الحياة ومعطيها لكل حي، ولا يكون هو في نفسه حيًا على أكمل ما تكون الحياة؟

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٨١٠)، عن أبي بن كعب.

إنه حيٌّ أزلاً وأبداً، ولا يناله ما ينال الأحياء الآخرين من نوم أو غفلة، أو تعب أو ملل أو كلال.

وينبغي أن نؤمن عقلاً بصفة عامة: أن الله تعالى بحكم أنه واجب الوجود، هو أعلى الموجودات مرتبة وكمالاً، وهذا يستتبع حتماً من ناحية العقل أيضاً أن يكون له من صفات الكمال الوجودية ما يلائم هذه المرتبة العليا من الوجود، ومن هذه الصفات التي يجب أن تثبت لله تعالى باعتباره واجب الوجود على أكمل نحو يمكن العقل أن يتصوره: صفة الحياة على أكمل ما يمكن أن تكون الحياة.

فهو سبحانه قادر على إعطاء الحياة كل ما تحتاج إليه، مما يقوِّمها ويُنضجها، ويوصلها إلى أنواع الكمال في كل ما يصبو الناس إليه: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

وهو قادر على إمداد الحياة بأنواع جديدة، وألوان متنوعة، وابتكارات لا تخطر بأفكار الناس، بحيث يراها الناس فيُعجبون ويدهشون، ويقولون: سبحان من خلق وصوّر.

وهو قادر على إعادة ما يموت منها ومن يموت فيها، بما عنده تعالى من صفات، يقدر بها على إعادة الأحياء بكل يسر: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

خصائص تميّز حياة الخالق عن غيره:

١ - أن الحياة التي يتّصف بها الله الواحد، هي الحياة الذاتية، التي لم تأت من مصدر آخر، أما حياة الخلائق فمكتسبة موهوبة لها من الخالق.



٢ - وحياته سبحانه أزليّة أبدية، لا تبدأ من مبدأ، ولا تنتهي إلى نهاية، أما حياة الخلائق فهي مرتبطة بالزمان، محدودة البدء والنهاية.

٣ - وحياته تعالى حياة كاملة لا يعترئها ما يلحق بحياة المخلوقات من نوم أو فتور.

* * *



السمع والبصر

صفتان واجبتان لله تعالى، وقد عرّف العلماء السمع بأنه: صفة أزليّة قائمة بذاته تعالى، تتعلق بالمسموعات أو بالموجودات، فتدركها إدراكًا تامًّا.

لا على طريق التخيل والتوهم، ولا على طريق تأثير حاسة ووصول هواء. وعرّفوا البصر بأنه: صفة أزليّة تتعلق بالمُبَصَّرات أو بالموجودات، فتدركها إدراكًا تامًّا لا على طريق التخيل والتوهم، ولا على طريق تأثير حاسة ووصول شعاع.

ويريد علماء الكلام بذلك التعريف بيان الفرق بين سمع الله وبصره، وسمعنا وبصرنا، وإذا كان سمعنا لا يتعلق إلا بالقريب، فسمع الله يتعلق بالقريب وبالبعيد، ولا يقال: إن هناك بعيدًا عن الله تعالى.

وإذا كان سمعنا طريقه الحاسة وأداته الهواء، فسمع الله يخالف سمعنا في ذلك، وإذا كان بصرنا يدرك الأشياء عن طريق الحاسة، وبمعونة الأشعة، فبصر الله تعالى ليس كذلك: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

أثبت القرآن لربنا ﷻ، صفة السمع وصفة البصر، وهما زائدتان عن صفة العلم، التي أثبتها وأكدها القرآن لله جل شأنه.

الله السميع:

إنَّ الله يسمع كل ما تنطق به الكائنات في السماء أو في الأرض، ممَّن يعقل، وما لا يعقل، من عالم الجمادات والأفلاك، وعالم البحار والجبال والأرض، وعالم النباتات والزرع، وعالم الحشرات

والزواحف، وعالم الأسماك والبحريات، وعالم البهائم والوحوش والطيور، وعالم الجن وعالم الملائكة، وما لا نعرفه من العوالم، الله يسمع هؤلاء جميعًا، ويسمع ما يقوله الإنسان في خلوته وفي جلوته، بالليل أو بالنهار، بالسر أو بالجهر، ما جهرت به على الملأ، وما أسرته في نفسك يسمعه الله تعالى. كما قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ * الله لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿ [طه: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

الله البصير:

والله تعالى يبصر كل شيء، ما كبر وما صغر، ما جلّ وما دقّ، ما ظهر وما بطن، ما نطقت به الألسن، وما خفي في القلوب، وما عمل بالليل، وما عمل بالنهار، ما عمل في السر، وما عمل في العلن؛ لأن بصره تعالى غير بصرنا، لا ينظر بجارحة ولا بحاسة، ولا تحجبه حواجب، ولا تحجزه عن شيء حواجز، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَفَنُيْلَقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِيَّ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤].

ويقول تعالى مبينًا مدى بصره بكل ما في الكون ومدى علمه به، علمًا دقيقًا قطعياً، لا تخفى عليه فيه خافية: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ

عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا
فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿يونس: ٦١﴾.

كيف يسمع الله تعالى وكيف يرى؟

إنه لا يسمع بواسطة كما نسمع نحن بواسطة الأذن، كما أنه يرى كل شيء في الكون: عاليه ونازله، ظاهره وباطنه، قريبه وبعيده، صغيره وكبيره، بادية وخفية، دقيقة وجليلة، مكشوفه ومغطاه، كلها عنده سواء: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

يسمع دبيب النمل، وأصوات الطيور في أعشاشها، ودعاء قائم الليل في السحر، وحركات الكواكب الكبيرة، وأنين الحشرات الصغيرة، وصليل السيوف، ورمي السهام، وفرقة القنابل، ودوي المدافع، وأزيز الطائرات، ويسمع معها دقائق قرقرات الأمعاء في البطون، وتهامس الأخيار في ظلام الليل، ونفثات الأشرار حين يتآمرون على المؤمنين، كل هذه الأصوات تستوي عنده: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

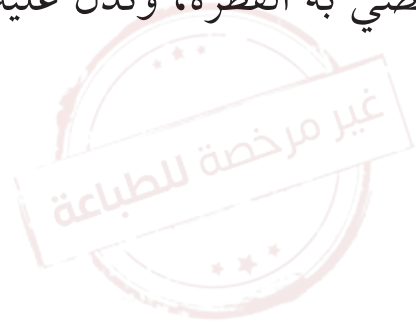
الدليل العقلي لإثبات الصفتين:

لقد ورد الدليل العقلي مؤيِّداً للدليل السمعي، في إثبات هاتين الصفتين لله تعالى وملخصه: أن عدم السمع والبصر نقص، والنقص على الله محال.

أما أن عدمهما نقص؛ فلقول نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَنَابِتَ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢].

وقال تبيكتا لعباد الأصنام: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * [الشعراء: ٧٢، ٧٣].

فهذا توبيخ لقوم يعبدون الأصنام التي خلت عن هذه الكمالات، وتجرّدت عن هذه الخصائص، وتسفيه لأحلامهم، فدلّ ذلك على أن المودّع في الفطر: أنّ من شأن الإله أن يكون سميعاً يُجيب مَنْ دُعا، بصيراً يرى مَنْ يعبد، ولا يسمح عاقل لنفسه أن يعبد إلهاً أصمّ، أو يخضع لإله أعمى، فوجوب هاتين الصفتين لله تعالى نقلي وعقلي، تقضي به الفطرة، وتدل عليه الكائنات.



الكلام

صفة أزليّة قائمة بذاته تعالى منافية للسكوت (عدم الكلام مع القدرة عليه) والآفة (عدم الكلام للعجز كالخرس) هو بها أمرٌ ناهٍ، مخبر منشئ.. وغير ذلك.

يدل عليها بالعبارة والكتابة، فإن عبّر عنها بالعربية فالقرآن، أو بالعبرية فالتوراة، أو بالسريانية فالإنجيل.

وهذا بالنسبة لكلمات الله التشريعية المنزلة في الكتب السماوية أو الكلمات الأمرية، ولكن كلمات الله تعالى أوسع من ذلك فهناك الكلمات التكوينية، التي يعبر عنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. فكلمة (كُنْ) من الكلمات الإلهية التي ينفذ الله بها ما شاء في خلقه من سماوات وأرضين، وعلى العقلاء وغير العقلاء، مما يتعلق بنظام الكون والحياة والأحياء والأفلاك والأشياء.

وهي التي عبر عنها النبي ﷺ بقوله: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»^(١)، وقوله في رقية الأطفال: «أعوذ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة»^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]. أي: صدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام. والكوفيون قرأوا الآية: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ موحدة، والآخرين بالجمع، والآية

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٨)، عن خولة بنت حكيم السلمية.

(٢) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٧١)، عن ابن عباس.

تقول: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ أي: لا يستطيع أحد أن يغير كلمات الله. فهو الذي بيده ملكوت كل شيء.

وقال تعالى يعبر عن سعة كلماته في الوجود: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

وقال تعالى في تمثيل أوسع: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِذْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره: «أي: ولو أن جميع أشجار الأرض جُعِلَتْ أَقْلَامًا، وجعل البحر مدادًا، ومُدَّهُ سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمتة وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام، ونفذ ماء البحر، ولو جاء أمثالها مددًا. وإنما ذكرت (السبعة) على وجه المبالغة، ولم يرد الحصر. وقال الحسن البصري: لو جعل شجر الأرض أقلامًا، وجعل البحر مدادًا، وقال الله: (إِنْ مِنْ أَمْرٍ كَذَا، وَمِنْ أَمْرٍ كَذَا) لنفذ ما في البحور، وتكسرت الأقلام... وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها»^(١).

والكلام كمال وجودي، لو لم يكن الخالق متصفًا به لكان ناقصًا - سبحانه - بفقده في الأزل له، ولكان غيره من الموجودات كالإنسان أكمل منه، تعالى الله عن ذلك. ولذلك قرّع القرآن بني إسرائيل الذين اتخذوا العجل وعبدوه، فقال فيهم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨].

(١) تفسير ابن كثير (٣٤٨/٦ - ٣٤٩)، تحقيق سامي بن محمد سلامة، نشر دار طيبة للنشر، ط ٢،

والدليل: إجماع الأمة عقلاً ونقلاً، وتواتر النقل عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على أنه تعالى متكلم، وآخر ذلك القرآن الذي حدثنا عن تكليم الله لموسى، وللملائكة، ولبعض خلقه، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَنِيَ﴾ ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: ١٥ - ١٩]، وقال: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمُوسَى﴾ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ﴿وَأَنَا أَخَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: ٩ - ١٣]، إلى آخر الآيات من سورة طه.

الكلام من صفات الذات:

ذهب علماء السلف إلى أنَّ الكلام صفة أزلية قائمة بذاته تعالى، كما تقدّم، فالكلام من صفات الذات، لأنَّ الله تعالى يوصف به لا بضدّه، وهذا يقتضي أن يكون قائماً بذاته تعالى، ولبیان ذلك ينبغي أن نحدّد الفرق بين صفات الذات وصفات الفعل.

صفة الذات: ما يوصف الله به لا بضده، كالعلم والقدرة والإرادة، حيث لا يوصف الله تعالى بالجهل ولا بالعجز ولا بالاضطرار، حاشاه سبحانه، ويجب وصف الله تعالى بها أزلاً وأبداً، وهذا يقتضي أن تكون قديمة باقية قائمة بذاته تعالى.

وصفات الفعل: هي ما يوصف الله تعالى به وبضده، كالإحياء والإماتة، والرفع والخفض، والقبض والبسط، والإعزاز والإذلال، وهذه الأفعال لم تكن في الأزل، فهي إذن حادثّة. وعليه: فلا يمكن أن تكون

قائمة بذات الله. وتسميتها صفات فعلية باعتبار أن هذه الأفعال جميعًا مرجعها إلى صفة القدرة أو التكوين من صفات الذات.

والله تعالى متكلم أزلاً وأبداً، أي: هو مخبر وأمرٌ وناهٍ على الدوام، ولكن تعلق الكلام بالمخلوق حادث، كصفة القدرة، هي صفة قديمة قائمة بذات الله، ولكنها تتعلق بالمخلوق عند خلقه تعلقاً تنجيزياً حادثاً.

والكلام من صفات الله ﷻ الثابتة، وكل صفاته قديمة أزلية باقية بقدم الله تعالى وأزليته وبقائه، لا يعترها التغير ولا التبديل ولا التعاقب ولا الانقسام ولا التحول من حال إلى حال، والذي يعتره ذلك هو آثار تلك الصفات.

فكل من القدرة والإرادة مثلاً هي صفة من صفاته سبحانه الأزلية، ولا يعترها التغير والتحول ونحو ذلك، والمخلوقات هي من آثار قدرة الله وإرادته، وهي التي يعترها ذلك.

وكذلك صفة الكلام هي من صفاته سبحانه، ولا يعترها التغير والتحول والتعاقب، ولا سوى ذلك من أعراض الحدوث، والكلام الصادر عن صفة الكلام هو من آثار تلك الصفة، وهو الذي يعتره ذلك.

فإذا أراد الله تعالى في الأزل إسماع عبد من عباده بعد أن يخلقه شيئاً من كلامه في وقتٍ ما أسمعته إياه في الوقت الذي شاءه كيف شاء.

وقد نقول من باب التقريب للذهن: إنه يوصله إليه إيصالاً خفياً، فيحصل للعبد إدراك ما أراد الله إسماعه إيّاه، ويعيه العبد بالنظم والتأليف والتعاقب والحروف والصوت في نفسه، لكن ذلك أثر الإسماع من الله تعالى، وليس تكييفاً للصفة الربّانية القائمة بذاته سبحانه.

ألا ترى أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله: كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلّمني، فأعي ما يقول»^(١).

فكلام الملك للنبي صلى الله عليه وسلم هو غير كلام الإنسان للإنسان، فكيف بكلام الله سبحانه؟! لا شك في أن كلام الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم أو لأي أحد من خلقه لا يشبه كلام جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم، وليس المراد التشبيه، بل من باب تقريب المعنى.

الفرق بين صفة الكلام وكلام الله المنزل وقراءة القارئ:

هل هناك فرق بين كلام الله الذي هو صفة قائمة به، وبين كلام الله المنزل، وقراءة القارئ لكلام الله؟

الله سبحانه متكلم بالكلام الذي هو صفة من صفاته في الأزل، ولا نخوض في تكييف الصفات، وقد قال الإمام أحمد رحمته الله: القرآن من علم الله^(٢). وفي هذه الكلمة من هذا الإمام الكبير كفاية لمن تأمل.

ثم إن الله تعالى أنزل القرآن على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ومن المعلوم أن الله تعالى لم ينزل عليه الصفة الربّانية، ولا شيئاً منها؛ لأن الصفة الربّانية لا تتبع، وصفات الله تعالى قائمة به، لذا فالمنزل - نزول إعلام وإفهام لا نزول حركة وانتقال - هو كلام الله تعالى القديم الأزلي القائم بذاته، والمنزل نزول حركة وانتقال، والذي أمرنا بتلاوته

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٣٣).

(٢) السنة لعبد الله بن أحمد (١٠٢/١)، نشر دار ابن القيم، الدمام، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

هو صورة عن الكلام القديم الأزلي، وهذا لا شك في أنه مشتمل على سور وألفاظ وحروف، كما لا يخفى.

ومن ظن أن كلام الله الذي هو صفة لله قد نزل على محمد ﷺ؛ فإنه لا يتضح له الفرق الدقيق بين الكلام الذي هو صفة من الصفات وبين الكلام المنزّل.

كلام الإمام السهروردي في صفة الكلام:

يقول الإمام السهروردي رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم أن كلام الله تعالى عظيم، إذ عظمة الكلام على قدر عظمة المتكلم، فكلام الله سبحانه عظم بعظمته، وجلّ بجلاله، وكبر بكبريائه، وقرب ودنا بوعده ووعيده، وحدوده وأحكامه وإنبائه، وبعد ونأى بكنهه وغايته، وعظم شأنه وقهر سلطانه، وسطوع نوره وضيائه؛ فهو عالي الرتبة، عظيم المنزلة، ناهيك بعظم شأنه قول الله تعالى، ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

فمثاله من عالم الشهادة: الشمس التي ينتفع الخلق بشعاعها ووهجها، ولا قدرة لأحد من الخلق أن يقرب من جزمها إن لم يجد إلى ذلك سبيلاً؛ فمن قائل بأن لا حرف ولا صوت لما عظم عليه أن يحضر، ومن قائل: إنه حرف وصوت لما عزّ عليه أن يغيب، ولكل وجهة هو موليها.

فالقائل الأول نفر لَمَّا رأى من مزج الحدث بالحروف والأصوات، فقال: لا حرف ولا صوت، صيانةً للقديم عن مزج الحدث.

والقائل الثاني: رأى أشعة العظمة القديمة تحرق أجرام الأصوات واللغات، فقال: هو حرف وصوت.

رقّ الزجاج ورقّت الخمر فتشابهها، فتشاكل الأمر
فكأنها خمر ولا قدح وكأنها قدح ولا خمر^(١)

فالسبيل الأمثل والطريق الأعدل أيها الإخوان من الطائفتين: أن اتركنا المنازعة، فما حمل كل واحدٍ من الطائفتين أن يخوض فيما خاض فيه، ويتعرض لما تعرض له، إلا ما بُلي به من تعلّق الشبه ببواطن أهل الزمان؛ فأحوجه الوقت أن يشرع فيما لم يشرع فيه أصحاب رسول الله ﷺ من الأهواء المختلفة، وإلا فلا يخفى على العاقل أن العبد إذا قال: القرآن كلام الله، واعتقد أنه يجب اتباع أمره ونهيه، والالتزام بأحكامه وحلاله وحرامه، واستماع وعده ووعيده، والقيام بحقوقه وحدوده، ولا يتعرض بعد ذلك لقدم وحدثٍ وتلاوةٍ وملتوٍّ وحرفٍ وصوتٍ، لا يضره ذلك شيئاً، ولا يفوته مما وجب عليه شيء؛ مما يتصور من المسألة أنه إن لم يقل كذا يلزمه كذا؛ فلعله يعيش مائة سنةٍ ولا يخطر بباله شيء مما تصوّره؛ فدعه يمضي لسبيله؛ فهذا الطريق القديم، والمنهج المستقيم، وإلا فمتى تعرّضت للقدم، تعرّض الخصم للحدث، وأنت تكفره، وهو يكفرك، وما أرى التكفير إلا قولاً من غير فعلٍ بمقتضاه؛ فالذي تكفره أراك تخالطه وتمازحه وتوادّه وتزوّجه، وكفاك عاراً أن فعلك يكذب قولك؛ فلا أراك تزيد خصمك بقولك إلا إغراءً وعصبيةً وغيظاً، فاعمل في تلاوة كتاب الله ﷻ آناء ليلك وأطراف نهارك، وتدبّره في صلواتك

(١) البيتان للصاحب بن عباد، كما في يتيمة الدهر للثعالبي (٣/٣٠٤)، تحقيق د. مفيد محمد

قميحة، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.



وغير صلواتك؛ فإنه كتاب الله إليك، وحجّة عليك. فالمنازعة في ذلك كمن يأتيهم كتاب من سلطانٍ يأمرهم فيه وينهاهم، وهم يتشاجرون في أن الكتاب كيف خطّه؟ وكيف عبارته؟ وأي شيء فيه من صفة الفصاحة والبلاغة؟ ويذهلون عن صرف الهم إلى الانتداب لما ندبوا إليه، والله بفضله يلهم الصواب»^(١).

وكلام السهروردي جلّى المسألة بقلب واع، ذاق نكهة القضية، ورسم الطريق فيها إلى الموقف الراشد، وقرر أنه يسعنا ما وسع السلف قبل أن يخوض الناس فيما أتى به المعتزلة من إنكار صفات المعاني بالجملة، وما ترتب عليه من جدل، ما كان أغنى المسلمين عنه!

(١) أعلام الهدى وعقيدة أرباب التقى ص ٦٩ - ٧٢.

الرحمة

من قرأ كتاب الله تعالى، وسنة رسوله، وجد صفة (الرحمة)، بل الرحمة الواسعة، صفة واضحة لله ﷻ لورودها في آيات كثيرة من الكتاب العزيز، وأحاديث وافرة من السنة المطهرة، ففي القرآن الكريم آيات متعددة، كقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في الفاتحة ومائة واثنى عشرة أخرى، وقوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

والله تعالى شمل عباده برحمته، وغمرهم بإحسانه، وعمهم بفضله، وأحاطهم ببرّه: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وأثار رحمته جلّ شأنه تثرى على الخلق، ليلهم ونهارهم، في أنفسهم وفيما يحيط بهم: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الرؤم: ٥٠]، ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء: ٦٦].

رحمة الله ورحمة الإنسان:

والرحمة في الإنسان، هي: الرقة في القلب، التي تبعث للرفق بالضعيف والمغلوب، والتجاوب مع مواقف الحق ونصرة المستضعفين.

ولكن الرحمة بالنسبة إلى الله تعالى: هي من صفاته الثبوتية، التي توجب تعامل الله مع عباده بالحلم والمغفرة واللين والسماحة، فلا يعاجلهم بالعقوبة، بل يعفو ويصفح، ويغفر ويُمهل، ويتوب على من تاب، ويقبل القليل من الطاعة، ويعفو عن الكثير من المعصية، ومن استتر بذنبه ولم يجاهر به كان أقرب إلى عفو الله.

والرحمة هي التي بها يرزق الله الناس والدواب والطيور والأسماك والحشرات: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ * وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ [الشورى: ٢٥، ٢٦]، ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ورحمته سبحانه وسَّعت في الدنيا المؤمن والكافر، والبرِّ والفاجر، ولكنها يوم القيامة تكون خاصة بالمتقين كما قال تعالى: ﴿فَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

أرحم الراحمين:

وصف القرآن الله تعالى بأنه أرحم الراحمين، وأنه خير الراحمين، كما قال تعالى على لسان يعقوب عليه السلام حين قال لأبنائه: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

وقال يوسف عليه السلام لإخوته حين قالوا له: ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ [يوسف: ٩١، ٩٢].

وقال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

وقال القرآن على لسان أيوب: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وقال تعالى على لسان المؤمنين: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

وقال الله تعالى في ختام السورة لرسوله محمد، ولكل من يصلح للخطاب بعده: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

من آثار رحمة الله تعالى:

يقول العلامة ابن القيم في كتابه (الصواعق المرسلة): «إن ظهور آثار هذه الصفة في الوجود كظهور أثر صفة الربوبية والملك والقدرة، فإن ما لله على خلقه من الإحسان والإنعام، شاهد برحمة تامة وسعت كل شيء، كما أن الموجودات كلها شاهدة له بالربوبية التامة الكاملة، وما في العالم من آثار التدبير الإلهي شاهد بمملكه سبحانه..

فبرحمته عرّفنا من أسمائه وصفاته وأفعاله ما عرّفنا به أنه ربنا ومولانا. وبرحمته أطلع الشمس والقمر، وجعل الليل والنهار، وبسط الأرض وجعلها مهادًا وفراشًا وقرارًا وكفاتًا للأحياء والأموات.

ومن رحمته: أنشأ السحاب، وأمطر المطر، وأطلع الفواكه والأقوات والمرعى.

ومن رحمته: سخر لنا الخيل والإبل والأنعام، وذلّلها منقادًا للركوب والحمل والأكل والدّر.



وبرحمته وضع الرحمة بين عباده ليتراحموا بها، وكذلك بين سائر أنواع الحيوان، فهذا التراحم بينهم بعض آثار الرحمة، التي هي صفته ونعمته، واشتق لنفسه منها اسم: الرحمن الرحيم، وأوصل إلى خلقه معاني خطاب برحمته، ونصرهم ومكّن لهم أسباب مصالحهم برحمته.

ومن رحمته: أن خلق مائة رحمة. كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض، فأنزل منها إلى الأرض رحمة واحدة، نشرها بين الخليقة ليتراحموا بها، فيها تعطف الوالدة على ولدها والطير والوحش والبهائم، وبهذه الرحمة قوام العالم ونظامه»^(١).

* * *



(١) انظر: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة لابن الموصلي ص ٣٦٨، ٣٦٩،

تحقيق سيد إبراهيم، نشر دار الحديث، القاهرة، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

الحكمة

كلُّ ما دل على عموم إرادته ومشئته تعالى، فهو دالٌّ على عموم حكمته؛ إذ إن إثبات إرادة ومشئة بلا حكمة ليس كملاً.

وقد جاءت آيات القرآن الكريم بإثبات اسم: الحكيم لله تعالى. وذلك في مواضع متعددة كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٨]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

والحكيم من أسمائه تعالى مأخوذ من الحكمة، ومعناه: الذي لا يقول ولا يفعل إلا الصواب، فلا يقع منه عبث ولا باطل، بل كل ما يخلقه أو يأمر به فهو تابع لحكمته. وقيل: هو من فعيل بمعنى مفعّل. ومعناه: المُحكّم للأشياء من الأحكام، وهو الإتيان فلا يقع في ملكه تفاوت ولا فطور، ولا يقع في تدبيره خلل واضطراب.

والله سبحانه خلق هذا الكون بإرادته، وأنشأه بحكمته، وجلّ سبحانه أن يخلقه لعباً ولهواً، أو يبدعه جُزافاً وهوى، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ [الأنبياء: ١٦]، وقال: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

ووجود الإنسان في هذا العالم ليس عبثاً، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾

[المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وإذا علم العبد أن الحكيم ﷺ هو المدبّر للأمور المتقن لها، والموجد لها على غاية الإحكام والإتقان والكمال، والواضع للأشياء في مواضعها، والعالم بخواصها ومنافعها، الخبير بحقائقها ومآلاتها، وأن كل ما يجري في هذا الكون هو لحكمة بالغة، أرادها الله تبارك وتعالى؛ علم هذه الحكمة من علمها وجهلها من جهلها؛ كان لهذه المعرفة الأثر البالغ في حياته وتصرفاته ونظرته للكون والحياة، وعاش مطمئن القلب قرير العين، مفوضاً الأمر كله إلى الله تعالى، متقناً لعمله محسناً لعبادته، ومتيقناً أن كل ما يجري في الكون والحياة هو من تقدير الحكيم العليم، اللطيف الخبير، الذي لا رادّ لقضائه، ولا معقب لحكمه.

رأي السلف وغيرهم في تعليل أفعال الله تعالى:

يتلخص رأي السلف وغيرهم في تعليل أفعال الله في قول ابن القيم: «إنا وإن عللنا أفعال الربّ بالحكم، فإننا لا نوجب عليه رعاية المصالح، بل نقول: إنّ له في كل ما خلقه حكمة تعجز العقول عن الإحاطة بها، وحكمته أعلى وأعظم أن توزن بعقولنا»^(١).

وهذا يخالف ما سلكه أهل القدر والاعتزال، حيث أوجبوا عليه سبحانه رعاية المصالح التي اقترحتها عقولهم، وهو مسلك باطل، يقابله في البطلان مسلك خصومهم من الجبريّة الذين ينكرون أن يفعل لغاية، أو يكون لفعله علةً البتّة.

والحق ما رآه السلف، فإنّ الله فطر عباده - حتى الحيوان - على استحسان وضع الشيء في موضعه، والإتيان به في وقته، وحصوله على الوجه المطلوب منه، وعلى استقباح ضد ذلك وخلافه، وأن الأول دالٌّ

(١) مختصر الصواعق المرسلّة ص ٢٥٥.

على كمال فاعله وعلمه وقدرته، وضده دال على نقصه، وهذه فطرة لا يمكنهم الخروج عن موجبها.

فهو سبحانه يضع الأشياء في مواضعها، التي لا يليق بها سواها، ويخصها من الصفات والأشكال والهيئات والمقادير، بما هو أنسب لها من غيره، ويبرزها في أوقاتها المناسبة.

ومن له نظر صحيح، وأعطى التأمل حقّه، شهد بذلك فيما رآه وعلمه، واستدلّ بما شاهده على ما خفي عنه، وقد ندب سبحانه عباده إلى ذلك فقال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

مشاهد حكمة الله تعالى في الكون:

يقول العلامة ابن القيم في ذلك: «مَن نظر في هذا العالم وتأمله حقّ التأمل، وجده كالبيت المبنيّ المُعدّ فيه جميع عتاده، فالسمااء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالسطح، والنجوم منضودة كالمصابيح، والمنافع مخزونة كالذخائر، كل شيء منها لأمر يصلح له. والإنسان المخوّل فيه، وضروب النبات مهيآت لمآربه، وصنوف الحيوان مصرّفة في مصالحه، فمنها ما هو للدّر والنّسل والغذاء فقط، ومنها ما هو للركوب والحمولة فقط، ومنها ما هو للجمال والزينة، ومنها ما يجمع ذلك كله كالإبل، وجعل أجوافها خزائن لما هو غذاء وشراب ودواء وشفاء. ففيها عبرة للناظرين، وآيات للمتوسمين.

وفي الطير واختلاف أنواعها وأشكالها وألوانها، ومقاديرها ومنافعها وأصواتها، صافّات وقابضات، وغاديات ورائحات، ومقيمات وظاعنات، أعظم عبرة وأعظم دلالة على حكمة الخلاق العليم.

وكل ما أخذه الناس وأدركوه بالأفكار الطويلة، والتجارب المتعددة، من أصناف الآلات والمصانع وغيرها، إذا فُكّر فيها المتفكّر، وجدها مشتقة من الخلقة، ومُستنبطة من الصنع الإلهي.

مثال ذلك القَبَّانُ: مستنبط من خلقة البعير، فإنهم لما رأوه ينهض بحمله، وينوء به، ويمد عنقه، ويوازن حمله برأسه، استنبطوا القبان من ذلك، وجعلوا طول حديدته في مقابلة طول العنق، ورُمَّان القبان في مقابلة رأس البعير، فتمَّ لهم ما استنبطوه.

وكذلك استنبطوا بناء الأقبية من ظهره؛ فإنهم وجدوه يحمل ما لا يحمل غيره، فتأملوا ظهره، فإذا هو كالقبو، فعلموا أن القبو يحمل ما لا يحمل السطح، وكذلك ما استنبطه الحدَّاقُ لكل من كَلَّ بصره، أن يديم النظر إلى إَجَانَةِ خضراء مملوءة ماء (أي إناء تغسل فيه الثياب) استنباطاً من حكمة الخلاق العليم في لون السماء، فإنَّ لونها أشدُّ الألوان موافقة للبصر، فجعل أديمها بهذا اللون ليمسك الأبصار، ولا ينكأ فيها بطول مباشرته لها.

وإذا فكرت في طلوع الشمس وغروبها لإقامة دولتي الليل والنهار، ولولا طلوعها لبطل أمر هذا العالم، فكم في طلوعها من الحكم والمصالح.

وكيف يكون حال الحيوان (الأحياء) لو أُمسكت عنه، وجُعل الليل عليه سرمداً، والدنيا مظلمة عليه، فبأيّ نور كانوا يتصرفون؟ وكيف كانت تنضج ثمارهم وتكمل أقواتهم، وتعتدل صورهم وأبدانهم؟ فالحكم في طلوعها أعظم من أن تخفى أو تُخصى، ولكن تأمل الحكمة في غروبها، فلولا غروبها لم يكن للحيوان هدوء، ولا قرار مع شدة حاجتهم إلى الهدوء والراحة.

وأيضًا لو دامت على الأرض، لاشتدَّ حرها بدوام طلوعها، فاحترق كل ما عليها من حيوان ونبات، فاقتضت حكمة الخلاق العليم، والعزيز الحكيم، أن جعلها تطلع عليهم في وقت دون وقت، بمنزلة سراج يرفع لأهل الدار مليًا، ليقضوا مآربهم، ثم يغيب عنهم مثل ذلك، ليقروا ويهدؤوا. وصار ضياء النهار وحرارته، وظلام الليل وبرده - على تضادّهما وما فيهما - متظاهرين متعاونين على ما فيه صلاح العالم وقوامه»^(١).

ومن ينظر في العالم الكبير اليوم بما آلت إليه علوم الفلك الحديثة، رأى فيما وصفه ابن القيم في قطعة صغيرة جدًا من العالم، في الأرض التي هي جزء صغير جدًا من المجموعة الشمسية، والمجموعة الشمسية التي نحن نعيش في بعض كواكبها، ونستفيد من كواكبها الصغيرة الأخرى، وينظر في كلّ مملكة من الممالك الحيوانية والنباتية، والوحشية والمائية والإنسية، والدواب والطيور، وما رأيناه وما لم نره، يجد أننا جزء من عالم هو أكبر منا بلا ريب، لا نعلم منه إلا القليل، يدبر الله أمره جميعًا بحكمته.

﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

العدل:

العدل: صفة لله ثابتة بالكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. فالله لا يظلم

(١) الصواعق المرسلّة في الرد على الجهمية والمعتلة لابن القيم (١٥٦٧/٤ - ١٥٧٠)، تحقيق علي بن محمد الدخيل الله، نشر دار العاصمة، الرياض، ط ١، ١٤٠٨هـ.

الناس شيئاً بزيادةٍ في سيئاتهم، أو نقصٍ من حسناتهم، ولكنّ الناس أنفسهم يَظلمون، بالكفر والمعصية ومخالفة أمر الله ونهيه.

وقال ﷺ: «فَمَنْ يَعْدِلْ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»^(١).

ومعنى هذه الصفة: أن الله تعالى لا يَظلم الناس شيئاً بزيادةٍ في سيئاتهم، أو نقصٍ من حسناتهم. وأحكامه كلها حق وعدل، لا ظلم فيها.

أثر الإيمان بأسماء الله وصفاته

يجب أن تكون هذه الأسماء والصفات حاضرة في قلوبنا، حيّة في أنفسنا، فإذا علمنا من كتاب الله وسنة رسوله أن الله تعالى هو السميع، استحضر المرء أن كل لفظة تخرج منه يسمعها الله، مهما أخفاها وأخفتها، تقول عائشة رضي الله عنها في قصة المجادلة: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه، وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]^(٢).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في فرض الخمس (٣١٥٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٢)، عن ابن مسعود.

(٢) علقه البخاري بصيغة الجزم في التوحيد (١١٧/٩)، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، ووصله أحمد (٢٤١٩٥)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والنسائي في الطلاق (٣٤٦٠)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٨)، عن عائشة.

وقال تعالى للمشركين الذين كانوا يقولون في مجالسهم الخاصة: **أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ لَنَا لَا يَسْمَعُ إِلَهُ مُحَمَّدٍ: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾** أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿[الملك: ١٣، ١٤].

فحين تعلم أن الله سميع، ليس المهم أن تردد هذه الكلمة بلسانك، من غير أثر لها في وجدانك، بل عليك أن توقن بهذا في أعماقك، وأن تُحسَّ به، فيظهر ذلك في عملك، فلا تتكلم إلا بما فيه رضا الله كما قال تعالى: **﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾** [النساء: ١١٤].

إذا عرفت من صفات الله تعالى أنه **﴿بَصِيرٌ﴾**، فتستشعر أنه يراك في خلوتك وجلوتك، لذا قال النبي ﷺ في حديث جبريل: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١).

الله تعالى ﷻ بصير بكل هذه الموجودات، يبصر النملة السوداء في الليلة الظلماء، ويسمع دبيبها على الصخرة الصماء، هذا هو البصر الإلهي، سميع بصير. ولهذا، إذا أردت أن تغيب عن الناس لتسمع شيئاً حيث لا يراك أحد، فاعلم أن هناك عيناً تراك، وترقبك، وترصدك، وأن هناك سميعاً يرصدك وأنت تخفي في نفسك ما الله به عليم، **﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾** [الفجر: ١٤].

لما راود أحد الناس جارية عن نفسها، فامتنعت، فقال لها: ما يمنعك ولا يرانا إلا الكواكب؟ فقالت له: ويحك، وأين مَكُوبِهَا؟!

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، كلاهما في الإيمان.

الإيمان بأن الله تعالى يراك ويراقبك، هذا هو معنى الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته.

لما بعث الله موسى وهارون قال لهما: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٣ - ٤٦]. ليس هناك شيء في هذا الكون غائب عن سمعي وبصري، هذا المعنى ملأ قلب موسى وأخيه هارون.

ولهذا رأينا موسى ﷺ حينما خرج بقومه مهاجرًا من مصر، تاركًا فرعون وجنوده، وأدركهم فرعون بجنوده الآلاف المؤلفة، بالعدد والأسلحة، أدرك موسى ومعه الحفنة أو الحفنات من قومه، فماذا كان الأمر؟ ﴿قَالَ أَصْحَبُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]. البحر أمامنا والعدو من خلفنا، ونحن شرذمة قليلة أمام هذه الجيوش الجرارة. ماذا قال موسى؟ لقد كان في ذهنه وقلبه وسويداء فؤاده تلك الكلمة الإلهية: ﴿إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]. فقال لأصحابه: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]. فلم يذهب هذا اليقين سُدًى، ولم تذهب هذه الكلمة أدراج الرياح.

النبي ﷺ حينما خرج مهاجرًا هو وصاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وذهبا إلى الغار، أويا إلى الغار، وجاء المشركون حتى وقفوا على باب الغار، وقال منهم من قال: لم يعد محمد هذا المكان، إما هبط إلى الأرض من هنا أو صعد إلى السماء من هنا. وقال أبو بكر، وهو خائف على رسول الله ﷺ: يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا!! قال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما، لا تحزن إن الله معنا»^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أصحاب النبي (٣٦٥٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨١)، عن أبي بكر الصديق.

هذا هو معنى الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته، فليس معنى العقائد أن نحفظها من كتاب، أو نردها، دون أن تكون لهذه العقائد آثار في أنفسنا، وفي حياتنا.

حينما نعلم أن الله (عليم حكيم)، فمعنى هذا: أننا نطمئن إلى علم هذا الإله وحكمته، أنه خلق كل شيء بمقدار، ولم يخلق شيئاً عبثاً، ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً سُبْحَنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وكذلك لم يشرع شيئاً عبثاً، فكل ما شرع من الأحكام، وما أحله من الحلال، وما حرّم من الحرام؛ فهو بحكمة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها.

وبهذا نعرف الله تعالى حق معرفته، نعرفه بأسمائه وصفاته، وكل ما تتجلى به أسماء وأوصاف الجلال والجمال، والملك والحمد، كما علّمنا في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ، ويكون لهذا الإيمان أثر في حياة المسلم وسلوكه، وفي حياة الأمة كلها وسلوكها، فهي أمة الحياة، وأمة الحي القيوم، وأمة القرآن الكريم، وأمة محمد رسول رب العالمين.



الركن الثاني: الإيمان بالملائكة

كلمة حول عالم الغيب وعالم الشهادة:

هذا العالم الكبير، الذي نعيش منه في جزء صغير، منه ما يُرى ويُعرف، ومنه ما لا يُرى ولا يعرف، أو كما سمّاها العلماء: عالم الشهادة، وعالم الغيب.

وعالم الشهادة: ما يشهده الحسّ، فهو مشهودٌ لنا ومنظور، ويقال له: العالم المنظور. والعالم الآخر: عالم الغيب، غير المنظور، وهو ما غاب عن حسّنا وشهادتنا.

وقد يكون الغائب عنا موجودًا الآن، مثل العرش والكرسي واللوح والملائكة والجن، وغير ذلك من الغيوب في السماوات والأرض.

وقد يكون غائبًا عنا؛ لأنّه لم يحدث بعد؛ كالحياة البرزخية في القبر بالنسبة للأحياء من البشر، وكذلك أحداث يوم القيامة، فكلُّ هذا من الغيب.

ونحن لا نعلم الغيب؛ لأنّ حواسّنا محدودة، وقوانا الإدراكية كلها محدودة، بل إنّنا لا نعلم كثيرًا من عالمنا المادي. والعلم الحديث يقول: إنّنا لا نعلم من أجزاء الكون المادي الذي نعيش فيه إلا ثلاثة في المائة (٣٪) فقط، وسبعة وتسعون في المائة (٩٧٪) في هذا الكون تغيب عنا،

ويسمونها: «الأعماق السوداء»، ولذا فلا نطمع أن نعلم الأشياء الغائبة عنا من العالم والكون غير المنظور وغير المُحسّ وغير المشهود، إنما الذي يعلم ذلك هو ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾، وهو الله تعالى.

والملائكة مخلوقات نورانية من جملة عالم الغيب، بثّها الله في هذا الكون، وجعل لها وظائف، بعضها متّصل بنا، يحافظ علينا، ويكتب أعمالنا، لنا أو علينا، ولكنّا لا نحسّ بهم، وليس لدينا أية أداة نستطيع أن نكتشفهم بها، فهل هذا يفرض علينا أن ننكر وجود هؤلاء الملائكة؟!

الواقع يقول لنا: لا يجوز لنا أن ننكر ما لا نستطيع إدراكه؛ إذا ثبت عن طريق نؤمن بقطعيته وحقيته، مثل الملائكة، فقد أخبرنا بها القرآن، الذي ثبت نزوله من عند الله على رسوله محمد ﷺ، وأخبرنا الرسول بوجود هذه الملائكة ونزولها عليه، وتمثّلها أحياناً بصورة أشخاص، وسؤالهم له، وإجابته عليهم^(١)، ونحن نؤمن بهذا ونوقن بوقوعه، وأنه حقٌّ لا ريب فيه.

ونحن الآن نؤمن بوجود أشياء كثيرة، انكشفت لنا، فأيقنا بها، وأصبحت من الحقائق التي نشهدها ونطّلع عليها بحواسنا الخمس، وما هو أكثر منها، من ذلك: ما نشهده من «البكتيريا» في الأطعمة والأشربة والأشياء المختلفة، فأصبحنا نرى عن طريق المكبرات المقرّبة والمكبّرة «الميكروسكوبات» آلاف الكائنات الحية وملايينها.

(١) كما في حديث جبريل المتفق عليه، أن رسول الله ﷺ كان يوماً بارزاً للناس، إذ أتاه رجل يمشي، فقال: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته... هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم». رواه البخاري في التفسير (٤٧٧٧)، ومسلم في الإيمان (٩)، عن أبي هريرة.

وأصبحنا نرى في قطرة الدم التي تنزف منا من هذه المخلوقات الدقيقة ومن المواد الأخرى ما لا تراه أعيننا الواسعة المحدقة، وإن بلغت من قوة البصر «٦/٦».

واستطعنا أن نرى الحيوان المنوي في ماء الرجل الذي يقذفه عند جماع زوجته، وفي الدفقة الواحدة منه مئات الملايين من الحيوانات المنوية، يصل إلى بويضة المرأة في رحمها حيوان منوي واحد من هذه المئات من الملايين.

وما يفرز الإنسان من البول والبراز وغيرهما، فيه من هذه الكائنات الصغيرة الدقيقة ما لا نراه بأعيننا، بل نراه بوساطة الآلات المكبرة التي تظهرها أمامنا في غاية الوضوح.

لم نعرف أجهزة إلى اليوم تكشف وجود الملائكة والجن، الذين يروننا ولا نراهم. ولكن هذا لا يعني عدم وجودهم، بل يعني أنهم من عالم الغيب غير المرئي لنا، وعلينا التصديق بها لنكون من أهل الهداية والتقوى، الذين وصفهم الله بأنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

ولم يعد الإيمان بالملائكة - وبكل ما هو غيبي - شيئاً يثير التساؤل أو يبعث على الإنكار، فإنَّ العلم الحديث يكشف كل يوم جديداً، يبرهن على أن هناك عالماً غيبياً لا يُدرَك كنهه، ومنه الملائكة، وليس جهلنا بهم وعدم رؤيتنا لهم دليلاً على عدم وجودهم، فإنَّ العلم الحديث - كما قلنا - كشف عن كثير من الكائنات الحية لم تكن معروفة من قبل. فهل جهلنا بها من قبل يعني أنها لم تكن موجودة؟!

ترتيب أركان الإيمان في القرآن:

مَنْ قرأ القرآن الكريم، وجد أركان الإيمان المعدودة فيه خمسة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر. كما قال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. فهذه الآية ذكرت الإيمان بالأركان الأربعة، وأشارت إلى الركن الخامس وهو الإيمان بالآخرة، بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

وقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقال الله في سورة البقرة وهو يذكر بر العقيدة: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. فجعل الإيمان باليوم الآخر بعد الإيمان بالله تعالى، لأهميته وضرورته، بل قد يكتفي القرآن أحياناً بهما، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، وفي غيره من الآيات.

وقد يضيف القرآن إلى هذين الركنين الإيمانيين ركناً عملياً أساسياً، فيصبح طوق النجاة في ثلاثة: الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، والعمل الصالح: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، وقال عز وجل: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

[المائدة: ٦٩].



السُّرُّ في ترتيب الإيمان بالملائكة قبل الكتب والرُّسُل:

وفي جميع الآيات الواردة في القرآن الكريم وأحاديث السنة المطهرة، التي توجب الإيمان بالملائكة؛ نجد أن الإيمان بهم مقدّم في الذكر على الإيمان بالكتب السماوية والرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وليس معنى هذا التقديم أنه نوع من التفضيل، فليس هناك من الملائكة على الإطلاق - بما فيهم جبريل عليه السلام - من هو أفضل من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو من الرُّسل.

ولكن التقديم في هذه النصوص للملائكة والكتب على الرسل؛ لأنه لا يقع إيمان بالكتب السماوية إلا بعد الإيمان بالملائكة؛ لأن الكتب يوحى بها عن طريقهم؛ فكان من البدهي الإيمان بهم قبل الإيمان بما يأتون به من عند الله تعالى.

وكذلك الرسل عليهم السلام، جاء ذكرهم بعد الإيمان بالملائكة والكتب؛ لأنه لا يؤمن أحد من البشر برسول إلا وهو يعلم أن الله بعث هذا الرسول، وأوحى إليه عن طريق جبريل، فالإيمان بالرسول يستلزم الإيمان بالملائكة؛ الذين هم الوساطة بين الرسل وبين الله تعالى؛ ولهذا كان تقديمهم وتقديم الإيمان بهم على الكتب والرسول.

تعريف الملائكة:

ذُكرت كلمة (الملائكة) في القرآن الكريم في ثمانية وستين موضعاً، وكلمة: (مَلَك) مفرد - بمعنى جنس الملائكة - في ثلاثة عشر موضعاً.

و(الملائكة) لغة: جمع مَلَك - بفتح اللام - فقليل: مخفف من مالك. وقيل: مشتق من الألوكة وهي الرسالة، وهذا قول سيويو والجمهور، وأصله لأك. وقيل: أصله المَلَك بفتح ثم سكون وهو الأخذ بقوة.

وفي الاصطلاح الشرعي: قال جمهور أهل الكلام من المسلمين: الملائكة أجسام لطيفة، أعطيت قدرة على التشكل بأشكال مختلفة، ومسكنها السماوات^(١).

والملائكة عالمٌ نورانيٌّ غير منظور، لا يعلم حقيقته وكيفيته إلا الله وحده، والإيمان بهم جزء من الإيمان بالغيب.

وجوب الإيمان بالملائكة:

والإيمان بالملائكة من أركان الإيمان التي لا يقوم الإيمان إلا بها، قال الله تعالى: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وقال الرسول ﷺ في حديث جبريل المشهور: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسوله»^(٢).

فيجب الإيمان بهم؛ يجب الإيمان إجمالاً فيمن علم منهم إجمالاً، والله أعلم بعددهم، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، وفي حديث الإسراء والمعراج يصف جبريل الأمين لرسولنا ﷺ البيت المعمور بقوله: «يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه آخر ما عليهم»^(٣).

وقول الرسول ﷺ لأصحابه يوماً: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أظت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم

(١) فتح الباري (٣٠٦/٦).

(٢) سبق تخريجه ص ٢٣.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٧)، ومسلم في الإيمان (١٦٤)، عن مالك بن صعصعة.

قليلًا ولبكيتم كثيرًا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصُّعَدَاتِ تجأرون إلى الله»^(١).

فهذان الحديثان وغيرهما يدلان على كثرة عدد الملائكة كثرة لا يُحصيها إلا الله سبحانه.

ويجب الإيمان تفصيلًا بمن ذكر منهم تفصيلًا، ويجب الإيمان بما ورد في حقهم في نصوص الشرع الإسلامي، من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ومن أنكر وجودهم فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ، وكذب صريح القرآن: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ *﴾ [البقرة: ٩٧، ٩٨]، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا *﴾ [النساء: ١٣٦].

يقول أبو عبد الله الحليمي: «والإيمان بالملائكة ينتظم معاني:

أحدها: التصديق بوجودهم.

والآخر: إنزالهم منازلهم وإثبات أنهم عباد الله وخلقه كالإنس والجن، مأمورون مكلفون لا يقدرُونَ إلا على ما يُقدَّر لهم الله تعالى، والموت جائز عليهم، ولكن الله جعل لهم أمدًا بعيدًا، فلا يتوفاهم حتى يبلغوه، ولا يوصفون بشيء يؤدي وصفهم به إلى إشراكهم بالله تعالى، ولا يدعون آلهة كما قد دعتهم الأوائل.

(١) رواه أحمد (٢١٥١٦)، وقال مخرجه: حسن لغيره. والترمذي في الزهد (٢٣١٢)، وحسنه، وابن ماجه (٤١٩٠) كلهما في الزهد، والحاكم في الفتن (٥١٠/٢)، وصححه إسناده، ووافقه الذهبي، عن أبي ذر.

والثالث: الاعتزاز بأن منهم رسلاً لله تعالى يرسلهم إلى من يشاء من البشر. وقد يجوز أن يرسل بعضهم إلى بعض، ويتبع ذلك الاعتراف بأن منهم حملة العرش، ومنهم الصافون حوله، ومنهم خزنة الجنة، ومنهم خزنة النار، ومنهم كتبة الأعمال، ومنهم الذين يسوقون السحاب، وقد ورد القرآن بذلك كله أو بأكثره^(١).

خلق الملائكة:

وقد خلق الله الملائكة من نور، كما أخبرنا رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ الملائكة من نور، وخُلِقَ الجانُّ من نار، وخُلِقَ آدم مما وُصِفَ لكم»^(٢).

وكان خلقهم مُتَقَدِّمًا على خلق البشر، كما قصة خلق آدم ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. يقول الأستاذ محمد قطب رحمه الله: «فالنور كما يراه الإنسان في عالمه المحسوس أشعة تنطلق مستقيمة في الفضاء، لا مُريدة ولا عاقلة، ولا تعمل شيئاً غير أن تضيء الجسم الذي تسقط عليه بغير إرادة منها ولا قصد! أما أن تكون من هذا النور كائنات تتحرك وتتكلم، وتتشكل بأشكال شتى، وتقوم بأعمال معينة تُكَلِّفُها، فأمر وراء إدراك الحس، وإن كان الإنسان يحاول أن يدركه فيما وراء الحس.

وحقيقة أن خلق الله آدم من قبضة من طين الأرض: معجزة هائلة يقف الحس أمامها عاجزاً متحيراً؛ لأن النقلة بعيدة بين قبضة الطين،

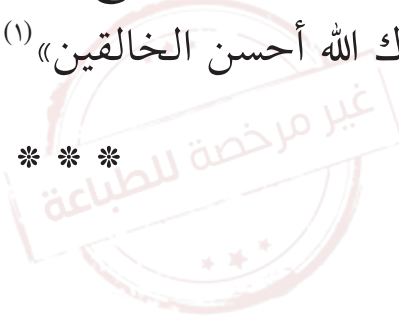
(١) المنهاج في شعب الإيمان للحليمي (٣٠٢/١)، تحقيق حلمي محمد فودة، نشر دار الفكر، ط ١، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٦)، وأحمد (٢٥١٩٤)، عن عائشة.



وبين هذا البشر ذي الحواس والإدراك والقصد والإرادة والقدرة على تعمير الأرض، واستخدام طاقات الكون المسخرة له من عند الله.

ولكن هذه النقلة على ضخامتها أيسر في حسّ الإنسان من خلق الكائنات من النور. فالطين على أي حال مادة مجسّمة، وجسم الإنسان مادة ماثلة للعيان. أما النور، فإنه ليس مادة، فكيف يكون مادة للخلق، إلا أن تكون قدرة الخالق المبدع متجاوزة كلّ حدّ يستطيع العقل أن يصل إليه. فتبارك الله أحسن الخالقين»^(١).



(١) ركائز الإيمان للأستاذ محمد قطب ص ١٧٩، نشر دار إشبيلية للنشر، الرياض، ط ١، ١٤١٧هـ -



صفات الملائكة في القرآن والسنة

عِظَمُ خَلْقِ الْمَلَائِكَةِ:

وقد وُصِفَتِ الْمَلَائِكَةُ بِعِظَمِ الْخَلْقِ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ، فَهِيَ قُوَّةٌ قَادِرَةٌ عَلَى تَنْفِيزِ مَا تَوَكَّلَ بِهِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مِّثْنَى وَثَلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

وقال تعالى في وصف جبريل عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠]. وفي الحديث: «رأيتُه منهبطًا من السماء، سادًا عِظَمَ خَلْقِهِ ما بين السماء إلى الأرض»^(١).

ووصف خزنة النار بأنهم: ﴿غَلَاطُ شِدَادٍ﴾ [التحريم: ٦]، وعن عائشة رضي الله عنها، قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحُد. قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلمتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد. فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟». فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا»^(٢).

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٧٧)، وأحمد (٢٥٩٩٣)، عن عائشة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣١)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٥).

الملائكة لا تأكل ولا تشرب ولا تتوالد ولا توصف بذكورة ولا بأنوثة:

والملائكة - على عظم خلقهم - لا يأكلون ولا يشربون، ولا ينكحون ولا يتناسلون، ولا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة.

قال الله تعالى في شأن الملائكة الذين نزلوا ضيوفاً في صورة بشر على سيدنا إبراهيم عليه السلام، وذبح عجلاً وقدمه إليهم ليأكلوا: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]، فإبراهيم عليه السلام ظنهم بشرًا، فأوجس منهم خيفة لما لم يأكلوا، فأخبروه أنهم ملائكة مرسلون إلى قوم لوط.

وقد كان مشركو العرب يقولون: إن الملائكة بنات الله، فأنكر عليهم القرآن ذلك في غير آية، منها قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠]، ﴿فَأَسْتَفْتِهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩، ١٥٠].

ومن العجيب أن العربي في الجاهلية كان يأنف من أن يولد له أنثى، ويقول: ما هي بنعم الولد، نصرها بكاء وبئرها سرقة! ومع ذلك نسبوا لله البنات سبحانه، وقد صور لنا القرآن ذلك في قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٧ - ٥٩]، وقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ * أَوْ مِنْ يَنْشَأُ فِي الْحُلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٧ - ١٩].

ووصف الملائكة بالذكورة قولاً على الله بغير علم، وادعاء ليس عليه دليل عقلي ولا نقلي في أمر من أمور الغيب، والذكر يحتاج إلى أنثى، والأنثى تتوق إلى ذكر، أما الملائكة فهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ لَا يَسْئُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿[الأنبياء: ٢٦، ٢٧]. وهم خلق يختلفون في طبيعتهم عن خلق الإنس والجن.

حُسن الملائكة وجمالهم:

ومن صفات الملائكة الحُسن والجمال، وهو أمر مستقر بين كل من يؤمن بوجودهم من البشر، حتى إنهم يشبهون الإنسان الذي بلغ مبلغاً من الجمال بالملائكة، كما قال تعالى على لسان النسوة عن يوسف عليه السلام: ﴿حَسَّ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

وهو ليس جمالاً عادياً، بل هم على درجة عالية منه، قال تعالى في حق جبريل عليه السلام: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ ﴿[النجم: ٥، ٦]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ذو مِرَّة: ذو منظر حسن. وقال قتادة: ذو خلق طويل حسن^(١).

قدرتهم على التشكُّل:

ومن صفات الملائكة الخلقية: قدرتهم على التشكُّل، ففي القرآن في قصة إبراهيم ولوط مع الملائكة، تمثلت الملائكة لإبراهيم ولوط عليهما الصلاة والسلام في صورة رجال، بعد أن أمرهم الله بإهلاك قوم لوط، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ﴾ ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٢٨]. ثم

(١) رواه الطبري في تفسيره (٤٩٩/٢٢).

جاءوا بعد ذلك لوطًا عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ
وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ
كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقُومُ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا
تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ
وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُزِيدُ﴾ [هود: ٧٧ - ٧٩].

ويحكي القرآن لنا أيضًا مجيء جبريل عليه السلام إلى مريم ابنة عمران في
صورة بشر سوي، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا *
قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٧، ١٨].

وكان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي رضي الله عنه،^(١)
وفي حديث عمر المتفق عليه عن الإيمان والإسلام والإحسان أتى في
صورة أعرابي شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر^(٢).

وفي السنة الصحيحة قصة الثلاثة الذين ابتلاهم الله من بني إسرائيل،
الأبرص والأقرع والأعمى، وأن المَلَك تشكّل لهم بصورة بشر^(٣).

والقرآن قد أشار إلى هذه الحقيقة - حقيقة تشكّل الملائكة في صورة
البشر - وذلك في قوله تعالى ردًا على المشركين الذين أنكروا أن يبعث

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: أن جبريل عليه السلام أتى نبي الله ﷺ، وعنده أم سلمة، فجعل
يتحدث، ثم قام فقال نبي الله ﷺ لأم سلمة: «من هذا؟». أو كما قال. قالت: هذا دحية.
قال: فقالت أم سلمة: ايم الله ما حسبته إلا إياه، حتى سمعت خطبة نبي الله ﷺ يخبر خبر
جبريل. رواه البخاري في المناقب (٣٦٣٤)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٥١)، عن
أسامة بن زيد.

(٢) سبق تخريجه ص ٢٣.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦٤)، ومسلم في الزهد (٢٩٦٤)، عن
أبي هريرة.

الله إليهم بشرًا رسولًا: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبُسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

الملائكة أولو أجنحة:

ومن أوصاف الملائكة التي أخبرنا القرآن بها أنهم أولو أجنحة، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولِيَ أَجْنِحَةٍ مِّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ [فاطر: ١].

يقول الأستاذ محمد قطب رحمه الله في كتابه: «ركائز الإيمان»: «فإذا علمنا أن هذه المخلوقات ذوات أجنحة، فإن حسنًا ليؤخذ - خاصة بعد أن نعرف مهامها وأعمالها - لأن المخلوقات ذوات الأجنحة المعلوم لنا في عالمنا المحسوس من طيور وحشرات طائرة مختلفة تمامًا عن هذه الكائنات التي تقوم بأعمال هائلة في السماوات والأرض.

والطيران في الجو حلم قديم من أحلام الإنسان، حاوله منذ أقدم العصور، ولكنه عجز عنه إلا باستخدام وسائل صناعية كالطائرة والصاروخ. فمعرفة الإنسان بأن هذه الكائنات الهائلة تطير مباشرة بأجنحتها؛ يهز وجدانه بلا ريب، ويجعله يحس من خلال عجزه بالقدرة المعجزة التي خلق الله بها هذه الكائنات.

فإذا زاد علمه أكثر من ذلك، فعرف أن الملائكة ليسوا على مرتبة واحدة من حيث عدد أجنحتهم، فمنهم ذوو أجنحة مثنى وثلاث ورباع، فإنه يزيد تعظيمًا لله الخالق الذي يزيد في الخلق ما يشاء وهو على كل شيء قدير»^(١).

(١) ركائز الإيمان للأستاذ محمد قطب ص ١٧٨.

قال ابن الجوزي في «زاد المسير» في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَجْنَحَةٌ﴾: «أي: أصحاب أجنحة، ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ [فاطر: ١]. فبعضهم له جناحان، وبعضهم له ثلاثة، وبعضهم له أربعة»^(١).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطَّرِيقِ، يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ، تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ. قَالَ: فَيُحْفِقُونَهُمْ بِأَجْنَحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»^(٢).

وفي الحديث: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَضَعُ أَجْنَحَتَهَا لَطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَطْلُبُ»^(٣).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لما قتل أبي، جعلتُ أكشف الثوب عن وجهه أبكي، وينهونني عنه، والنبي ﷺ لا ينهاني، فجعلتُ عمتي فاطمة تبكي، فقال النبي ﷺ: «تبكين أو لا تبكين، ما زالت الملائكة تُظِلُّه بِأَجْنَحَتِهَا حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ»^(٤).

عبادة الملائكة:

الملائكة مجبولون على طاعة الله تعالى وعدم المعصية، ليس لهم اختيار في ذلك، كما قال تعالى في شأن خزنة جهنم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

(١) زاد المسير (٥٠٥/٣)، تحقيق عبد الرزاق المهدي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٤٠٨)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٨٩)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (١٨٠٩٨)، وقال مخرجه: إسناده حسن. والترمذي في الدعوات (٣٥٣٥)، وقال: حسن صحيح. وأبو داود الطيالسي (١٢٦١)، عن صفوان بن عسال.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٢٤٤)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٧١).

وقد وصف الله تعالى الملائكة بقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وحكى الله تعالى قول الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصفات: ١٦٤ - ١٦٦].

وقد بلغوا في تحقيقهم للعبودية مرتبة الكمال، وقد ورد كثير من الأحاديث التي تبين عبوديتهم لله سبحانه على أتم وجه وأكمل حال، ففي حديث أبي ذر رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أظت السماء، وحُقَّ لها أن تتط! ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله»^(١). والأطيط: الصوت الذي يصدر من الرحال والإبل بسبب ثقل أحمالها. والمعنى: أن كثرة ما في السماء من الملائكة أثقلها حتى صدر منها ذلك الصوت.

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟!» فقلنا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يتممون الصفوف الأول، ويتراصون في الصف»^(٢). فحث النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة على الاصطفاف في الصلاة، كما تصف الملائكة عند ربها، وذلك لحسن نظامهم عند وقوفهم بين يدي ربهم.

(١) سبق تخريجه ص ٢٨٣.

(٢) رواه مسلم في الصلاة (٤٣٠)، وأحمد (٢٠٩٦٤).

فهم يعبدون الله، ويخافونه، ويقدسونه، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهم معصومون من الذنوب والمعاصي لا يقربونها، قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

أخلاق الملائكة:

وقد وصفهم الله سبحانه فقال: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۖ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٥، ١٦]. بأنهم كرامٌ بررة، أي: كرام على ربهم، كما أنهم كرام عن المعاصي والمدنسات، يترفعون عنها.

و(بررة): جمع بارّ. يقال: برّ وبارّ، إذا كان أهلاً للصدق. ومنه: برّ فلان في يمينه أي: صدق. وفلان يبرّ خالقه ويتبرره، أي: يطيعه. فمعنى (بررة): مطيعون لله تعالى، صادقون لله في أعمالهم.

وفي سورة الواقعة قال الله تعالى عن القرآن: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۖ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۖ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٧٩]. وهؤلاء الملائكة المطهرون هنا هم الكرام البررة في سورة عبس.

ومن صفات الملائكة: الحياء، فقد روت عائشة رضي الله عنها: أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما دخلا على النبي صلى الله عليه وسلم وهو كاشف فخذه، فلم يسترها، فلما دخل عثمان جلس النبي صلى الله عليه وسلم وسوى ثيابه، فسأله عائشة رضي الله عنها عن ذلك، فقال: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة»^(١).

قال الإمام النووي: «الحياء صفة جميلة من صفات الملائكة»^(٢).

(١) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٠١)، وأحمد (٢٤٣٣٠)، عن عائشة.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦٩/١٥).

ومنها أنهم منظمون، قال تعالى عن موقفهم يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَقُومُ
الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾
[النبا: ٣٨]، وقال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

وقد أمرنا النبي أن نقتدي بنظام الملائكة في صفوف الصلاة،
فنصف كما يصفون، فقد روى مسلم: عن جابر بن سمرة رضي عنه، أن
النبي ﷺ قال: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟» فقلنا:
يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يتمون الصفوف
الأول، ويتراصون في الصف»^(١).

أعمال الملائكة:

والملائكة مشغولون بعبادة الله لا يفترون عنها، ومنهم من كلفه الله
بوظائف وأعمال لا يقوم بها غيرهم، وهم يتفاوتون في أعمالهم،
وتختلف وظائفهم وأدوارهم.

يقول ابن الجوزي: «أما أعمال الملائكة، فجمهورهم مشغول بالتعبد،
ومن الملائكة موكل بعمل، فمنهم حملة العرش قد وكلوا بحمله، وجبريل
صاحب الوحي والغلظة، فهو ينزل بالوحي ويتولى إهلاك المكذبين،
وميكائيل صاحب الرزق والرحمة، وإسرافيل صاحب اللوح والصور،
وعزرائيل^(٢) قابض الأرواح وله أعوان، وهؤلاء الأربعة هم المقسمات
أمراً. ومنهم كتاب على بني آدم، وهم المعقبات ومنهم، ومنهم»^(٣).

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٣٠)، وأحمد (٢٠٩٦٤).

(٢) لم تأت تسمية ملك الموت بعزرائيل في آية من كتاب الله أو سنة صحيحة عن رسول الله.

(٣) التبصرة لابن الجوزي (١٦٦/٢، ١٦٧) بتصرف، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١،

١ - جبريل عليه السلام :

فمنهم من ينزل بالوحي، وهو جبريل عليه السلام، اصطفاه الله من الملائكة ليقوم بأعظم مهمة، وأخطر رسالة، وهي النزول بالرسالات السماوية على رسل الله تعالى. قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥]. وقد وصفه الله بالقوة والأمانة على تأدية مهمته. قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١].

وكان ينزل على النبي ﷺ تارةً يسمع مثل صلصلة الجرس، وطورًا في صورة رجل، كما قال النبي ﷺ: «أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني، وقد وعيتُ عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا، فيكلمني فأعي ما يقول»^(١).

ولم يره النبي ﷺ في صورته التي خلق عليها إلا مرتين ذكرهما القرآن الكريم، وبقية الأوقات يأتيه في صورة رجل، أو ينفث في رُوعه، أو يسمعه مثل صلصلة الجرس، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ [التكوير: ٢٣]. أي رآه في صورته الأصلية، وهيئة التي خلقه الله عليها، بالأفق المبين، أي بمطلع الشمس من قبل المشرق؛ لأن هذا الأفق إذا كان منه مطلع الشمس، فهو مبين، من جهته نرى الأشياء.

وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء، وهي مذكورة في سورة النجم في قوله تعالى: ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ [النجم: ٥ - ١٠].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٣٣)، عن عائشة.

والرؤية الثانية كانت عند سدرة المنتهى في ليلة المعراج، وهذا ما أخبر الله عنه بقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۖ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ [النجم: ١٣ - ١٥].

وفي صحيح مسلم، من حديث عائشة رضي الله عنها، أنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن تفسير الآيتين المتقدمتين^(١)، فقال: «إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرّتين، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظماً خلقه ما بين السماء إلى الأرض»^(٢).

وفي الحديث المتفق عليه عن ابن مسعود، أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل له ستمائة جناح^(٣).

٢ - ميكائيل عليه السلام :

وهو الموكل بالقطر والنبات^(٤)، وقد ورد ذكره في القرآن. قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]. وهو ذو مكانة عالية، ومنزلة رفيعة عند ربه، ولذا خصّه الله هنا بالذكر مع جبريل، وعطفهما على الملائكة، مع أنهما من جنسهم لشرفهما، من قبيل عطف الخاص على العام.

(١) يعني ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣].

(٢) سبق تخريجه ص ٢٨٦.

(٣) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣٢)، ومسلم في الإيمان (١٧٤).

(٤) كما في حديث ابن عباس، أقبلت يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا أبا القاسم إنا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهن، عرفنا أنك نبي... وفيه: إنما بقيت واحدة، وهي التي نُبأيك إن أخبرتنا بها، فإنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: «جبريل عليه السلام». قالوا: جبريل! ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب، عدونا! لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان. فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٧] إلى آخر الآية. رواه أحمد (٢٤٨٣)، وقال مخرجه: حسن.

وكذا ورد ذكره في السنة، ففي دعاء النبي ﷺ في صلاة الليل أنه كان يقول: «اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل»^(١) ولذا قال بعض العلماء: إن هؤلاء الثلاثة المذكورين هم أفضل الملائكة.

٣ - إسرافيل عليه السلام :

وهو الموكل بالصُّور، وهو ثالث الملائكة المفضّلين المتقدّم ذكرهم. والصُّور: قرن عظيم ينفخ فيه.

روى الإمام أحمد بسنده، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصُّور؟ فقال: «قرن يَنْفُخ فيه»^(٢).

وأخرج الإمام أحمد والترمذي، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «كيف أنعم؟ وقد التقم صاحب القرنِ القرنَ، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينظر متى يؤمر؟» قال المسلمون: يا رسول الله، فما نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»^(٣).

٤ - ملك الجبال:

ومنهم: ملك الجبال، الموكل بالجبال وقد ورد ذكره في حديث خروج النبي ﷺ إلى أهل الطائف في العهد المكي، ودعوته إيّاهم، وإعراضهم عن الاستجابة له، وما لقي منهم، من سخريتهم منه،

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧٠)، وأحمد (٢٥٢٢٥).
 (٢) رواه أحمد (٦٥٠٧)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. وأبو داود في السنة (٤٧٤٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٣٠)، وحسنه، والحاكم في التفسير (٤٣٦/٢)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.
 (٣) رواه أحمد (١١٠٣٩)، وقال مخرجه: صحيح. والترمذي في التفسير (٣٢٤٣)، وحسنه، وعبد بن حميد (٨٨٦)، وابن حبان في الرقائق (٨٢٣).

وتسليطهم سفهائهم عليه، وفيه يقول النبي ﷺ: «فإذا أنا بسحابة قد أظلّنتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملكَ الجبال، لتأمره بما شئتَ فيهم. فناداني ملك الجبال، فسلم عليّ، ثم قال: يا محمد. فقال: ذلك فيما شئتَ، إن شئتَ أن أطبق عليهم الأخشبين». فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»^(١). والأخشبان: هما جبلا مكة: أبو قُبَيْس والذي يقابله.

٥ - الملائكة المسجّلون للأقوال والأعمال والحسنات والسيئات:

ومنهم من يلازمون الناس، ولا يفارقونهم في أيّة لحظة من لحظات حياتهم، ويسجلون أعمالهم وأقوالهم خيرها وشرها، حسناتها وقبيحها، في سجل الحسنات والسيئات.

قال تعالى: ﴿إِذْ يَنْلَقَى الْمَلَائِكَةُ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

وعندهم لكل واحدٍ من البشر سجل خاص يكتبون فيه كل شيء، من خير أو شر، ويعرضونه عليه يوم يقوم بين يدي الله، ويشهدون له أو عليه بكل ما فيه، وصدق الله العظيم: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كُنِينًا * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

إحصاء الله تعالى أعمال العباد:

قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [النبا: ٢٩]. أي: قد علمنا كل شيء من أعمال العباد كلها، وكتبناها عليهم كتابة تدقيق وإحصاء،

(١) سبق تخريجه ص ٢٨٦.

لا يفوتها شيء وإن صغر وقل، وسيجزئهم على ذلك إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

وللتسجيل الإلهي قلم يُسجّل بوساطة هؤلاء الحفظة الكاتبين كل شيء في صحائف لا تبلى: ﴿إِذْ يَنْلَقَى الْمُلَقَّيْنَ عَنْ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

فهذه كتابة صدرت عن الملائكة المؤكّلين بالعباد، بأمر الله تعالى إليّهم بالكتابة والتسجيل لكل شيء، وقال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزُخْرَف: ٨٠].

وليست هذه الكتابة خاصّة بالقول فقط، وإنما شاملة للفعل أيضًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كُنُوزًا * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

واختلف العلماء: هل يكتب الملك كل شيء من الكلام، أم أنه لا يكتب إلا ما فيه ثواب وعقاب؟ وقد ذكر ابن كثير أنّ ظاهر الآية العموم. والله أعلم^(١).

٦ - الملائكة الرُقباء يسجّلون أعمال المؤمنين والكافرين:

المؤمنون والكافرون والناس جميعًا عليهم هؤلاء الرقباء؛ لأن الله يسجّل على الجميع كل شيء، الأقوال والأفعال والنيات، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَيَّلُنَا مَا لَ هَذَا أَلْكَتَبَ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

(١) تفسير ابن كثير (٣٩٨/٧).

وإذا قيل: إن الملك يكتب الحسنات والسيئات، والكافر لا حسنة له، فلماذا يكتب؟

والجواب: أن من الكفار من له بعض الحسنات، يخفف الله بها عنه من العذاب، فلماذا تضيع عليه، ولا توضع في حسابه؟

٧ - الملائكة الحفظة الذين يحرسون العباد:

ومنهم: الحَفَظَةُ: الذين يحفظون العباد ويحرسونهم، وقيل: الذين يحفظون أعمالهم ويسجلونها، فيكون هؤلاء والسابقون صنفاً واحداً.

قال تعالى: ﴿إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]، وقال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]،

وقال: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِمَّنْ أَمَرِ اللَّهُ﴾ [الرعد: ١١]. أي: ملائكة تتعاقب وتتوارد وتتناوب عليه، وكلها الله به.

وعقب الشيء أي: أتى عقبه بلا مهلة ولا فاصل، وأصل العقب مؤخر الرجل، فعقبه أي: جاء في عقبه كأنه يكاد يلمس عقبه ويطؤه، وفي علم النحو يقولون: الفاء للتعقيب والترتيب بلا مهلة، فهؤلاء الحَفَظَةُ يتعاقبون بحيث لا توجد فترة بلا حراس ولا حَفَظَة.

وقد ذكر ابن كثير في التفسير: أنهم أربعة بالليل وأربعة بالنهار، فائنان عن اليمين والشمال يكتبان الحسنات والسيئات، وائنان من ورائه وأمامه يحرسانه^(١).

(١) تفسير ابن كثير (٤/٤٣٧).

و(مِنْ) في قوله: ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾، يقولون عنها في علم النحو: لا ابتداء الغاية. أي: مُعَقَّبَات من أمر الله، ومن قدر الله، والله هو الذي قَدَّر هذا، فليست خارجة عن أمر الله ولا عن قدره، إنما هي حسب النظام الذي أودعه الله تعالى في هذا الكون.

فالملائكة الحفظة يحرسون العباد، بإذن الله وقدره، ممَّا لم يقدر الله إصابتة العبد به، فإذا قَدَّر الله أن يصاب العبد بشيء فلا تستطيع الملائكة دفعه.

وفي الحديث أن هؤلاء الحفظة يتناوبون على الإنسان عند صلاتي الفجر والعصر، قال ﷺ: «يَتَعَاقِبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةُ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَرْجِعُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟» فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون»^(١).

٨ - تأييد الرسل وتثبيت المؤمنين:

ومنهم مَنْ يرسلهم ربهم لتأييد رسله، وتثبيت المؤمنين في معاركهم ضد قوى الشر والبغي، كما أيَّد الله رسوله والمؤمنين في بدر بالملائكة. قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٩، ١٠]، وقال سبحانه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٥)، ومسلم في المساجد (٦٣٢)، عن أبي هريرة.

وفي صحيح البخاري: أن جبريل قال للنبي ﷺ: «ما تعدون أهل بدر فيكم؟» قال: «من أفضل المسلمين» أو كلمة نحوها، قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة^(١).

ومنهم من يحمل المواساة والبشرى للمؤمنين عند وفاتهم، وفي مواقف الآخرة، وفي الجنة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، وقال سبحانه: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وُتَسَلِّمُ الملائكة عليهم عند دخولهم الجنة، يقولون لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

٩ - حضور مجالس الذكر والطاعة:

ومنهم السيّاحون الذين يتبعون مجالس العلم والذكر وتلاوة القرآن، كما جاء في الحديث: «ما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»^(٢).

وروى الشيخان، من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق، يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله، تنادوا: هلمّوا إلى حاجتكم» قال: «فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا» قال: «فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي؟ قالوا:

(١) رواه البخاري في المغازي (٣٩٩٢)، عن رفاع بن رافع الزرقني.

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٩)، وأحمد (٧٤٢٧)، عن أبي هريرة.

يقولون، يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك» قال: «فيقول: هل رأوني؟» قال: «فيقولون: لا والله ما رأوك؟» قال: «فيقول: وكيف لو رأوني؟» قال: «يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيداً وتحميداً، وأكثر لك تسبيحاً» قال: «يقول: فما يسألوني؟» قال: «يسألونك الجنة» قال: «يقول: وهل رأوها؟» قال: «يقولون: لا والله يا رب ما رأوها» قال: «يقول: فكيف لو أنهم رأوها؟» قال: «يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة، قال: فمم يتعوذون؟» قال: «يقولون: من النار» قال: «يقول: وهل رأوها؟» قال: «يقولون: لا والله يا رب ما رأوها» قال: «يقول: فكيف لو رأوها؟» قال: «يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد لها مخافة» قال: «فيقول: فأشهدكم أنني قد غفرت لهم» قال: «يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم»^(١).

وهؤلاء غير الملائكة المرتبين للحفظ والكتابة، ويشهد لذلك رواية أحمد والترمذي: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض فضلاً عن كُتّاب الناس»^(٢).

وقد ثبت أيضاً أن هؤلاء السّياحين يُبلّغون النبي ﷺ من أمته السلام، لما روى أحمد والنسائي بإسناد صحيح، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض، يبلّغوني من أمتي السلام»^(٣).

(١) سبق تخريجه ص ٢٩١.

(٢) رواه أحمد (٧٤٢٤)، والترمذي في الدعوات (٣٦٠٠)، وقال: حسن صحيح.

(٣) رواه أحمد (٣٦٦٦)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والنسائي في السهو (١٢٨٢)، وابن حبان في الرقائق (٩١٤)، والحاكم في التفسير (٤٢١/٢)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

١٠ - ملك الموت:

وملك الموت وظيفته قبض الأرواح من الأجساد: ﴿قُلْ يَتُوقَّكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١].

ولملك الموت أعوان، وهم رسل الله المذكورون في قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٧].

قال الإمام الطبري: «فإن قال قائل: أوليس الذي يقبض الأرواح ملك الموت؟ فكيف قيل: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ والرسول جملة وهو واحد؟ أوليس قد قال: ﴿يَتَوَفَّيْكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾؟»

قيل: جائز أن يكون الله تعالى ذكره أعان ملك الموت بأعوان من غيره، فيتولون ذلك بأمر ملك الموت، فيكون التوفي مضافاً - وإن كان ذلك من فعل أعوان ملك الموت - إلى ملك الموت، إذ كان فعلهم ما فعلوا من ذلك بأمره، كما يضاف قتل من قتل أعوان السلطان، وجلد من جلدوه بأمر السلطان إلى السلطان، وإن لم يكن السلطان باشر ذلك بنفسه، ولا وليه بيده. وكان ابن عباس يقول: لملك الموت أعوان من الملائكة^(١).

والعبد إن كان صالحاً كان لهؤلاء الملائكة معه شأن طيب، وإن كان مسيئاً عاملوه بما يستحق، قال وَجَّيْلٌ: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَلِيسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ * * وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ * جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

(١) تفسير الطبري (١١/٤٠٩، ٤١٠).

لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ^٤ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ نُوَفِّهِمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ [النحل: ٢٨ - ٣٢].

وقال تعالى في شأن من قال: ربي الله، ثم استقام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزِّلَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

أما الظالمون الذين افتروا على الله الكذب وقالوا على الله غير الحق واستكبروا عن آياته، فقال الله في شأنهم: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٣]، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال: ٥٠].

١١ - حملة العرش:

ومن الملائكة حملة العرش الذين يحملون العرش، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧]، هذا في الدنيا. وفي الآخرة: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]. أي: يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة، أفراد أو أصناف أو صفوف من الأملاك لا يعلم عددهم إلا الله، كما رُوي ذلك عن الضحاك^(١).

(١) تفسير ابن كثير (٢١٢/٨).

١٢ - خزنة الجنة:

ومنهم خزنة الجنة، جمع خازن، بمعنى الحافظ، والموكل بالشيء.

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ٢٣].

١٣ - خزنة النار:

ومنهم خزنة النار - عياذاً بالله منها - قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩].

وهم الزبانية، مشتق من الزُّبْن وهو الدفع بشدة، سموا بذلك لدفعهم أهل النار إليها^(١)، قال تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۖ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٧، ١٨]. وهم الملائكة المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَكٌ مُخَلَّصٌ غِلَظٌ شَدَادٌ...﴾ [التحريم: ٦].

ورؤساؤهم تسعة عشر، قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۖ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۖ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المدثر: ٣٠، ٣١].

ورئيسهم الأكبر اسمه مالك، جاء ذكره في القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿وَنَادُوا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقد جاء في السُّنَّة ذكر مالك، وأنه خازن النار، ورؤية النبي ﷺ له، ففي صحيح البخاري، من حديث سَمُرَةَ بن جُنْدُب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ

(١) انظر: لسان العرب مادة (ز. ب. ن).

قال: «رأيت الليلة رجلين أتياني.. قالاً: الذي يوقد النار مالك خازن النار.. وأنا جبريل، وهذا ميكائيل»^(١).

أثر الإيمان بالملائكة في حياة المسلم:

للإيمان بالملائكة الكرام ﷺ آثار عظيمة على سلوك الإنسان، وعلاقته بربه، وعلاقته بخلقه والكون من حوله.. من تلك الآثار:

١ - الإيمان بعظمة الله تعالى وقدرته، الذي خلق الملائكة من نور، أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع، يزيد في الخلق ما يشاء.

٢ - شعور المؤمن بالأنس وعدم الوحدة والوحشة، فيمتلئ قلبه أنساً بهذا الكون الرحيب من حوله؛ إذ يعلم أنه معمور بتلك الأرواح النورانية الشفيفة.

يقول الأستاذ محمد قطب رحمه الله: «إذا كانت المخلوقات الحية في الأرض من نبات وحيوان - والحيوان على الأخص بما فيه من الإنسان من أوجه شبه وأوجه اختلاف - تؤنس الإنسان، وتبهج قلبه، وتنفي عنه الشعور بالوحشة في سكناه لهذه الأرض، فيروح يتأملها ويتملأها، ويفرح كلما لقي واحداً منها على مقربة منه.

إذا كان هذا يحدث بالنسبة لعالم الأرض المحدود المحسوس، فإنه حريٌّ أن يحدث بالنسبة للكون الكبير، ما يقع منه في دائرة الحس وما يقع وراء الحس من آفاق.

فإذا كانت المخلوقات الطينية تؤنس وحشته في الأرض، فإن تلك المخلوقات النورانية تؤنس وحشته في الكون الواسع، الذي هو جزء

(١) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣٦) مختصراً، وقد رواه مطوّلاً في الجنائز (١٣٨٦).

منه، فيصبح أَرْوَاحَ نَفْسًا، وأكثر طلاقه مما لو حبس نفسه في دائرة المادة والحس»^(١).

٣ - بذل العبد جهده في طاعة ربه سبحانه، اقتداء بالملائكة الكرام، الذين يتنافسون في التقرب إليه مع عصمتهم من الذنوب، وقربهم من ربهم جل وعلا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

٤ - الشعور بمقدار تكريم الله تعالى للإنسان، بأن جعل من ملائكته الكرام المقرّبين حفظة وحرسًا - وهم الذين فطرهم الله تعالى على طاعته - في خدمة الإنسان، وفي حفظه وحراسته، فأَيُّ تكريم للإنسان أعظم من هذا؟!!

٥ - إقرار الإنسان بضعفه، وتذكر فضل الله عليه الذي وكّل له ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه؛ جبرًا لضعفه، وشدًا من أزره.

٦ - دفع الغرور عن النفس، والافتخار بالعمل، فالملائكة على دأبهم في طاعته سبحانه متذلّلون له خاضعون لأوامره سبحانه، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وهم مع ذلك يسألونه الصفح والمغفرة عن التقصير في العمل، كما في الحديث: أن الملائكة تقول لربها يوم القيامة: «سبحانك ما عبدناك حق عبادتك»^(٢). فالمسلم مهما بلغ في عبادته، فلن يبلغ مقدار عبادة الملائكة، فهو أولى بالبعد عن العُجب والتهيه والاغترار بالعمل.

(١) ركائز الإيمان للأستاذ محمد قطب ص ١٧٩، ١٨٠.

(٢) رواه الحاكم في الأوهال (٥٨٦/٤)، وصحّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، عن سلمان الفارسي.



٧ - الاجتهاد في البعد عمّا حرمه الله، خوفاً وحياء من الله سبحانه، ثم حياء من الملائكة الذين لا يفارقون بني آدم، ويكتبون ويسجلون أعمالهم، ولا سيما أن الله وصفهم بأنهم كرام، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كُنِينًا ۖ يَعْمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الأنفطار: ١٠ - ١٢].

لقد جعل الله تعالى الحفظة من ملائكته الكرام على الإنسان؛ لإشعاره أنه ليس سائباً يفعل ما يشاء، ويترك ما يشاء، وأن أعماله لا تنتهي بمجرد عملها، ولكنها محفوظة مسجلة له أو عليه، فليحذر أن يرى في صحيفته غداً ما يسوؤه.

حينما يكون الإنسان في مكان يعلم أن فيه أجهزة تنصت، فإنه يحترس من الكلمة يقولها، وإذا علم بوجود «كاميرا» تصوّر حركاته، فلا شك أنه يتحرّى ألا يفعل ما يشين، فهؤلاء الحفظة وكلّهم الله بأن يسجلوا على الإنسان حركاته وسكناته، وأقواله وأفعاله، ولهذا نرى سيدنا عمر بن الخطاب حينما بعث سعد بن أبي وقاص قائده على جند المسلمين في معركة القادسية، وأوصاه بتقوى الله وعجل، قال له فيما قال: واعلموا أن عليكم حفظة في سيركم، يكتبون كل ما لكم أو عليكم، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله^(١).

٨ - الاقتداء بهم في حسن عبادتهم ونظامهم وإتقان أعمالهم.

(١) ذكره ابن عبد ربه عن عمر بن الخطاب في العقد الفريد (١١٧/١)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٤هـ. ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣٠٢/٥)، عن عمر بن عبد العزيز، وذكره ابن عبد الحكم في سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٧٦، ٧٧، تحقيق أحمد عبيد، نشر عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، بوصفها رسالة منه إلى أحد قوّاده منصور بن غالب، وجهها إليه حين بعثه لقتال أهل الحرب. وتكاد تكون بالألفاظ نفسها ما عدا اختلافاً يسيراً. ولا يضيرنا أن تكون من أحد العمرين، المهم هو مضمون الوصية.

٩ - الحذر من إيذاء الملائكة الكرام بما يسبب نفورهم من بيوتنا ومجالسنا، لتعم بيوتنا ومجالسنا الرحمة والبركة.

وكذلك اجتناب موجبات لعنهم لنا، واللعنة هي الطرد والإبعاد من رحمة الله تبارك وتعالى، وشر عقوبة أن يُطرد الإنسان من رحمة الله التي وَسَّعَتْ كل شيء، فلا تَسَّعه هذه الرحمة، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦، ٨٧].

ومن أسباب لعن الملائكة: كتمان وحي الله وحكمه، وما أنزل على أنبيائه من البينات، اتباعاً لهوى الأنفس، ويدخل في ذلك كتمان العلم الشرعي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٥٩ - ١٦١].

١٠ - أن نحرص على صلاة الملائكة علينا، وفي صلاة الملائكة على العبد: الاستغفار له، والثناء عليه، والتنويه بالعمل الذي أكسبه صلاتهم.

وبصلاة الملائكة على العبد يُنقل من ظلمات الجهل والضلال والكفر إلى نور العلم والهدى والإيمان واليقين. قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

١١ - وكما يحرص المؤمن على كثير من الأقوال والأعمال التي ينال بها صلاة الملائكة، كذلك يحرص على التحلي بالأعمال التي يباهي الله تعالى بعاملها ملائكته في الملأ الأعلى.

ومن الأمور التي يباهي الله بفاعليها ملائكته: الاجتماع على طاعة الله وذكره، ففي حديث معاوية بن أبي سفيان، عند مسلم وغيره، أن النبي ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: «ما أجلسكم؟» قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومن به علينا. قال: «الله ما أجلسكم إلا ذاك؟» قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: «أما إنني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله ﷻ يباهي بكم الملائكة»^(١).

ومن ذلك المجاهد المحتسب المقدام الذي لا يفر، وإن انهزم أصحابه، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجب ربنا ﷻ من رجل غزا في سبيل الله، فانهزم أصحابه، فعلم ما عليه، ورجع حتى أهرق دمه، فيقول الله تبارك وتعالى لملائكته: انظروا إلى عبدي، رجع رغبة فيما عندي، وشفقة مما عندي حتى أهرق دمه»^(٢).

ومن ذلك أيضاً: الوقوف بعرفة، فعن أمنا عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو، ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟»^(٣).

- (١) رواه مسلم في العلم (٢٧٠١)، وأحمد (١٦٨٣٥)، والترمذي في الدعوات (٣٣٧٩).
 (٢) رواه أحمد (٣٩٤٩)، وقال مخرجه: إسناده حسن. وأبو داود (٢٥٣٦)، والحاكم (١١٢/٢)، كلاهما في الجهاد، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وصحح الدارقطني في العلل وقفه (٨٦٩).
 (٣) رواه مسلم في الحج (١٣٤٨).

الجن

الإيمان بالملائكة من أركان الإيمان، ولكن الإيمان بالجن ليس من الأركان، لا في القرآن، ولا في السنة، ولكننا مطالبون بالإيمان به باعتباره مذكورًا ومكرّرًا في القرآن الكريم، وكل ما هو في القرآن يجب الإيمان به كما ورد، فهو جزء من مقررات الكتاب العزيز.

عالم الغيب وعالم الشهادة:

ونكرر هنا ما ذكرناه في حديثنا عن الإيمان بالملائكة، فنقول: نحن نؤمن بأن هذا العالم فيه جانب مستور غير منظور، وجانب مكشوف منظور، هناك عالم الغيب، وعالم الشهادة. فعالم الشهادة الذي نراه نحن، قليل جدًا بالنسبة لعالم الغيب الذي لا نراه.

ويجب أن نعلم ونوقن بأن عجزنا عن قدرة الشيء، ليس دليلًا على عدمه. فكم من الكائنات التي لم نكن نعلم عنها شيئًا حتى تطورت أدواتنا، فأصبحنا نراها ونعلم خصائصها! فعدم وجود أداة ندرك بها الملائكة، أو ندرك بها الجن، لا يعني أنهم معدومون، أو غير موجودين.

أصناف الناس من الإيمان بالغيب ومنه وجود الجن:

والناس في مسألة الإيمان بوجود الجن مختلفون، فهناك الماديون، الذين يُنكرون كل ما هو وراء المادة، فلا يؤمنون إلا بالمادة - وهي ما يتحيّز وإن صغر - ولا يؤمنون إلا بما يدخل تحت دائرة الحس، وما لا يمكن إدخاله المختبر والمعمل لا يؤمنون به.

تقول لأحدهم: (الله). يقول لك: رأيته بعينك؟ أسمعته بأذنك؟ أشممته بأنفك؟ ألمسته بيديك؟ أذقته بلسانك؟ فكيف تؤمن به؟! وهؤلاء الماديون يمثلون الطفولة الإنسانية، فالطفل حين يولد لا يعرف إلا أمه، فإذا زاد إدراكه قليلاً عرف أباه، فإذا زاد قليلاً عرف إخوته، ثم أقاربه الذين يزورونه، ويرتقي شيئاً فشيئاً، ليعرف من حوله، ثم ما حوله شيئاً فشيئاً، ولكن هذا الطفل لا يعرف المعنويات، لا يعرف إلا الماديات، وكلما ازداد تمييزه بدأ يدرك من الأشياء ما غاب عنه، حتى يبلغ حد التمييز أو الرشيد، فيعلم أن هناك أشياء تُدرك بالعقل، ولذلك فالماديون يمثلون الطفولة الإنسانية.

ولا شك أن الماديين من بني الإنسان ينكرون وجود الجن، كما ينكرون وجود الملائكة، فكل ما لا يدخل تحت دائرة الحس، لا يجوز - عندهم - للعقل الإنساني أن يعتبره موجوداً. وهكذا اتفق الفلاسفة الماديون (الذين لا يؤمنون إلا بالمادة) قديماً وحديثاً.

وقد كتب الإمام الفخر الرازي صفحات كثيرة في تفسيره عمّن يؤمن بالجنّ ومن لا يؤمن به من الفلاسفة، الذين ينتمون إلى الإسلام، وإن كانوا لا يأخذون فكرهم الأساسي إلا من فلاسفة الإغريق، وخصوصاً فيلسوفهم الأكبر ومعلمهم الأوّل أرسطو.

قال الرازي: «اختلف الناس قديماً وحديثاً في ثبوت الجنّ ونفيه، فالنقل الظاهر عن أكثر الفلاسفة إنكاره، وذلك لأنّ أبا عليّ بن سينا قال في رسالته في «حدود الأشياء»: الجنّ حيوانٌ هوائيّ مُتَشَكِّلٌ بأشكال مختلفة. ثم قال: وهذا شرح للاسم. فقوله: وهذا شرح للاسم، يدل على أن هذا الحدّ شرحٌ للمُراد من هذا اللفظ، وليس لهذه الحقيقة وجود في الخارج.

وأما جمهور أرباب الملل، والمصدقين للأنبياء، فقد اعترفوا بوجود الجن، واعترف به جَمْع عظيم من قدماء الفلاسفة^(١).

ولا يزال في أصحاب التفكير الماديّ من المسلمين مَنْ يجحد أو يشكّك في وجود الجن، ومنهم مَنْ يدّعي الإيمان به لذكره في القرآن، ولكنه يُؤوِّله تأويلاً يخرج عن لغة العرب، ولا يقبله دين ولا عقل.

وفي مقابل هؤلاء الماديّين طرفٌ على النقيض منهم، وهم هواة المبالغات وأتباع الخرافات، ممن يؤمنون بالجن، لكنهم يصفون عليهم من الصفات ما يجعلهم كأنهم قادرون على كل شيء، كأنهم آلهة، فهم يتصرفون في الناس، وفي الكون، ويركبون الإنسان، ويدخلون فيه، ويتكلمون بلسانه.

وبين هذين الطرفين وسط، وهم الذين يؤمنون بما جاء به الوحي عن عالم الغيب، ومنه أمر الجن، فهم يؤمنون بالغيب، أي: بكلّ ما غاب عن الحسّ، من الله جلّ جلاله، ومن الملائكة، ومن الشياطين، والجنّ عامة، لكن إيمانهم هذا مستند إلى الوحي ونصوصه القرآنية والنبوية، فيؤمنون بما جاء في القرآن العظيم، وما صحّ عن الرسول الكريم ﷺ.

تعريف الجن:

أصل الجن: ستر الشيء، تقول: جنّه الليل، وجنّ عليه فجّنه: ستره. يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٦]. أي: ستر عليه وأظلم. والجنّان: القلب لكونه مستوراً. والجنين: الولد ما دام في بطن أمه. فمادة «جنن» تفيد معنى الاستتار والاختفاء.

(١) تفسير الرازي (٦٦١/٣٠).

فالجَنُّ إنما سُمُّوا جَنًّا؛ لاستتارهم عن أعين الإنس، كما تسمى الجنة جنة لالتفاف الأشجار فيها حول بعضها، وكما يسمى الجنين في بطن أمه جنينًا لاستتاره، وكما يسمى المَجَنُّ (الثُّرس) مَجَنًّا لاستتار المقاتل به في الحرب.

والجن: مخلوقات غير مرئية، مخلوقة من نار، قابلة للتشكل بأشكال مختلفة حسنة وقبيحة، وتظهر منهم أفعال عجيبة.

والجن من الخلق العُقلاء، الذين خلقهم الله في هذا الكون، وهم من الْمُغَيَّبِينَ عَنَّا أيضًا مثل الملائكة، خلقهم الله من نار، كما خلق الناس من التراب والطين، الذي منه تتكون الحجارة والصلصال، قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥].

فالجَنُّ ليسوا من بني آدم - أو من نُسَمِّيهِم: البشر - بل هم مثلنا من الأحياء والمخلوقات العاقلة المُكَلَّفة، ولذلك أمرهم الله تعالى بأن يعبدوه، كما نعبده نحن الإنس، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، إلا أنهم يقدرُون أن يَرُونَا، ونحن لا نقدر - بِحُكْمِ خَلْقِنَا - أن نراهم، إلا من آتاه الله قدرةً خاصَّةً على ذلك، مثل بعض الأنبياء والرسل، كسليمان عليه السلام، الذي سَخَّرَ اللهُ له الجن، ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمْثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ﴾ [سبأ: ١٣].

خلق الجن:

وهم مخلوقون من نار قبل أن يخلق الإنسان من طين وحمًا مسنون، حيث نص على ذلك القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦، ٢٧]،

وقال عزّ من قائل: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الرحمن: ١٥]. وهذه الحقيقة ذكرها القرآن - أيضاً - على لسان إبليس نفسه حين قال لربه ﷻ: ﴿خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. وقد ذكرنا قبل حديث النبي ﷺ: «خُلِقَتِ الملائكة من نور، وخلق الجانُّ من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصف لكم»^(١).

تكليف الجن:

الجنُّ خلق مكلف مثل الإنس، طُلب منه ما طُلب من الإنس، من عبادة الله، وتوحيد في الاعتقاد، وصلاح في السلوك، وشرف في الأخلاق. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقد أرسل الله إليهم الرسل كما أرسلها للإنس، فرسل الله مرسلون للإنس والجن جميعاً، يقول الله تعالى: ﴿يَمْعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]. فهم يُسألون كما يُسأل البشر، ويُحاسبون على أعمالهم كما يحاسبون.

والرسول ﷺ مبعوثٌ إليهم، وقد تحدّاهم الله سبحانه مع الإنس بإعجاز القرآن، فقال تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨].

والخطاب في سورة «الرحمن» موجّه إليهما معاً، يقول تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ * فَإِيَّاءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَمْعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّ

(١) سبق تخريجه ص ٢٨٤.

أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣١﴾
[الرحمن: ٣١ - ٣٣].

وهم مخاطبون برسالات السماء، منذ خوطب البشر بها، وفيهم من يحمل عبء البلاغ ومهمة الإنذار والتبشير، ويسائل نفسه ويسائل غيره عن الاستجابة والاستقامة، ويعلم الصواب والخطأ، وعقبي هذا وذاك!

وإذا كان الملائكة قد فُطروا على الطاعة وعدم المعصية، فإن الجن كالبشر منهم المطيع والعاصي، والصالح والطالح، والمؤمن والكافر، وقد نطق القرآن بذلك فقال: ﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾ [الجن: ١١].

فالجنُّ أمة فيها المؤمن والكافر، والتقيُّ والفاجر - شأن المكلَّفين عموماً - فمن أصلح نفسه وأرضى ربه كان له ثوابه، ومن طغى وفسد كان عليه عقابه، كما قال الله تعالى على لسان الجن الذين أوحى إلى النبي شأنهم: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤، ١٥].

وظاهر من وصف الجنة والنار، أنهما مصير للصالحين والطالحين من الجن والإنس، فإن الله يقول في وصف الحور العين: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦، ٧٤].

الجنُّ في القرآن:

وقد ذكر الله تعالى الجنَّ في عدد من الآيات، في عدد من الألفاظ: (الجان) في خمسة مواضع، و(الجن) في اثنين وعشرين موضعاً، و(الجنة) في خمسة مواضع، وهناك سورة باسمهم هي سورة الجن، وقد

فسرتها بتفصيل في كتابي (تفسير جزء تبارك)، وأذكر هنا بعض معانيها المتصلة بعالم الجن بإيجاز:

﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]: أي أخبرهم وقل لهم أن الله أوحى إليّ أنه استمع نفر من هذا النوع من الخليقة - أي: من نوع الجنّ المُعَيَّن عينا - إليّ، وأنا أتلو القرآن، فقالوا من فرط ما أعجبوا بالقرآن الكريم وتأثروا به: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾: أي قولاً يُقرأ ويُسمع، فيعجب به سامعه، لما يحتوي عليه من جوامع الكلم، وروائع الحكم، ونوادر العلم، وكنوز المعرفة، وبدائع الحكمة، وأحكام الشريعة العادلة، ومكارم الأخلاق الفاضلة، وسوانح الهداية الربانيّة، وعوالي القيم الإنسانيّة.

إيمان الجن بالقرآن:

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ٢]، وقال الجن: إِنَّ من صفة هذا القرآن العَجَب الذي سمعوه: أنه يهدي إلى الرُّشد، يعني إلى استنارة العقل، الذي ينقل الإنسان من الخطأ إلى الصواب، ومن العوج إلى السِّداد، ومن السَّفه إلى الرِّشاد.

﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ فأعلنوا أنهم لما سمعوا القرآن آمنوا به.

ويفهم من إيمانهم بالقرآن: أنهم آمنوا بالله الذي أنزله، وآمنوا بوحْدانيّته، وأنه لا إله غيره، ولذلك قالوا:

﴿وَلَنُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ أعلن هؤلاء القوم الذين أنار الله بصائرهم، وفتح عقولهم ببيّنات القرآن، أنهم بمجرد أن سمعوا القرآن تدبّروه، فهداهم إلى الإيمان برّبهم، فآمنوا صادقين، إيماناً لا يميل به عن التوحيد لونٌ

من الشُّرك؛ لأنهم آمنوا بالله ربًّا، فلن يشركوا بالله في الربوبية، وآمنوا بالله إلهاً واحداً، فلا يستحق أحدٌ غيره العبادة في الأرض أو في السماء.

تنزيهه سبحانه عن الصاحبة والولد:

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣]: ومِمَّا تعلَّمه هذا النفر من مؤمني الجنِّ مما سمعوه من القرآن العجيب وآمنوا به: أنه تعالى جدُّ الله سبحانه، أي: علا مقامه وعظمته وسلطانه. ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾: فلا يجوز له أو عليه سبحانه، أن يتَّخذ صاحبة، أو يتَّخذ ولداً؛ لأن كل ما عداه إنما هو ملك له، وعبدٌ له سبحانه.

وهم يردُّون على الذين زعموا من العرب أنَّ الملائكة بناتُ الله، وعلى الذين جعلوا لله ابناً، كما قال بعض الهنود من قديم، وكما قال بعض اليهود: عُزَيْرُ ابنُ الله. وكما قالت النصارى: المسيحُ ابنُ الله.

إلى آخر ما اعترف به هؤلاء من مؤمني الجن في السورة التي سميت باسمهم: سورة الجن.

* * *

الشياطين

والشياطين هم المتمردون من كفره الجن، وهم الذين يمثلون الشر وينشرونه في الأرض.

فإذا كانت الملائكة هي التي تمثل جانب الخير والفلاح والصلاح، وتتجه إلى عبادة الله، وهداية الإنسان إلى الحق، ودعاء الله له بالمغفرة، فإن الشياطين يُمثلون جانب الشر والفساد، ويزينون للناس المعاصي والشهوات، ويوسوسون لهم، ويوقعونهم في الشرور والآثام، ويقطعون ما بين الناس، مما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض.

فما من خلل أو فساد في العالم إلا وهم من ورائه، وما من عداوة أو خصومة بين الناس إلا وهم صانعوها، فهم يعملون على إيقاد نار العداوة، ويعصفون بأمن الإنسان وسلامته، ويدمرون حياته، فهم أعداء الله وأعداء الإنسان.

وللشياطين أولياء وأتباع من الإنس يُغرونهم ويخدعونهم ويستحوذون عليهم استحواذاً كاملاً، حتى يكونوا من جنودهم وحزبهم، وهؤلاء قال الله تعالى فيهم: ﴿أَسْتَحْذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

فإذا بلغ الأمر بأوليائهم من الإنس ذلك الحد، وعرف الشيطان أنه وصل إلى بغيته، تخلّى عن فريسته ونبذها، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَنِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾

[الحشر: ١٦].

المعركة بين الشيطان والإنسان:

لقد سلط الله الشيطان على الإنسان ليوسوس له في صدره، ويزين له المعصية، ويغريه بالقعود عن الخير، واتباع الهوى، ويضله عن سبيل الله. وبدأت هذه المعركة بين الشيطان والإنسان، منذ أن خلق الله آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسكنه جنته، وأمر ملائكته أن تسجد تكريمًا له، فسجدوا كلهم أجمعون، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

استكبر إبليس على أمر الله، وأبى أن يسجد كما أمر الله، تمرّدًا على ربه، وغرورًا بنفسه، وحسدًا لآدم على ما آتاه الله من فضله ونعمه، ووقف موقف التحدي من خالقه، فقال له: ﴿قَالَ يَبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَتَسْتَكْبِرُ أََمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [ص: ٧٥ - ٨٣].

ومن ذلك اليوم، وقد توعد إبليس وأقسم بعزة الله أن يقف لبني آدم بالمرصاد، ويغويهم أجمعين. وكما فصل ذلك في مقام آخر، كما حكى الله عنه في قوله: ﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ * ثُمَّ لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

أقسم اللعين أن يأتيهم من كل الجهات ليغويهم، ليُرغّبهم في الدنيا، ويُرْهّدهم أو يشكّكهم في الآخرة، ويشبطهم عن الحسنات، ويغريهم بالسيئات، حتى يضل أكثرهم عن سبيل الله.

ويعينه على الإنسان: هوى نفسه التي بين جنبيه، فهي مع الشيطان عليه. كما يعينه من بني آدم جند آخرون، ممن اتبعوا الشيطان ومشوا في ركبه، فتشيطنوا مثله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

ومن شياطين الإنس هؤلاء من يرتقي في الشر والغِي، حتى يفوق بعض شياطين الجن، كما قال بعضهم:

وكنت امرأً من جند إبليس، فارتقي بي الحال حتى صار إبليس من جندي^(١)!

وقال بعض السلف: إن شيطان الإنس أشد علي من شياطين الجن، إن شيطان الجن إذا ذكرت الله تعالى خنس وهرب، وهذا يأتي حتى يأخذ برقبت^(٢).

يعمل إبليس وجنده ليلَ نهار في إغواء بني الإنسان، لا يأخذون راحة ولا إجازة، حتى سئل الحسن البصري يوماً: يا أبا سعيد، هل ينام الشيطان؟ فقال: لو نام لاسترحنا^(٣)!

تحذير القرآن من الشيطان وعداوته لنا:

لقد حذّرنا القرآن من الشيطان وعداوته وكيده لنا، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

(١) البيت لنصر بن أحمد الخبزري، كما في ديوانه قصيدة (٤٨)، ص ١٢٣، ضمن مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الأول، المجلد الأربعون، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

(٢) قول مالك بن دينار، انظر: تفسير البغوي (١٥٣/٢١)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، وتفسير القرطبي (٦٨/٧).

(٣) إحياء علوم الدين (٣١/٣)، نشر دار المعرفة، بيروت.

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩]، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وذكر لنا القرآن بعض هذه الخطوات التي يتبعها الشيطان، مثل ما يتبعه في التثييط عن الصدقات والإنفاق في سبيل الله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

خطوات الشيطان في التزيين والإغواء:

وذكر لنا القرآن أيضاً بعض الخطوات التفصيلية التي يتبعها الشيطان في الإغواء والإغراء والتزيين في الأرض، مثل ما ذكر تعالى في سورة النساء، حين قال: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَلَا ضِلَّيْنَهُمْ وَلَا مَنِّينَهُمْ وَلَا مُرْتَبِنَهُمْ فَلْيَبْتَئِنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مِرْهَنَهُمْ فَلْيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانُ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٧ - ١٢٠].

وفي سورة الإسراء ذكر القرآن ما قاله إبليس اللعين لربه: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأُحْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ فَأِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا * وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٢ - ٦٤].

فهذه طرائق الشيطان: الإضلال عن الحق، والتمنية (إعطاء الأمانى) بالباطل، والأمر بتبتيك وتقطيع آذان الأنعام، وهو يشير إلى تحريم ما أحل الله، على ما كان يفعله العرب في الجاهلية، في تحريم بعض الأنعام بتقطيع آذانها.. وغير ذلك.

ومن طرقه كذلك: تغيير خلق الله، وأعظم ذلك: تغيير فطرة الله التي فطر الله الناس عليها. ثم التغييرات الجزئية، كما جاء في الحديث: «لعن الله الواصلة والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة»^(١). وفي رواية: «لعن الله الواشمت والمستوشمت، والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله»^(٢).

وفي مقام آخر قال الشيطان في مخاطبته لرب العزة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْنِي لَأُزَيِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

فعمله هنا ضد بني آدم، قد حصره في طريقين رئيسين: التزيين والإغواء.

اعتقادات غريبة في الجن:

وللبشر من قديم اعتقادات غريبة ومبالغات في أمر الجن، ذكر الله شيئاً منها في كتابه فقال: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، ومما يعتقد بعض الناس: مس الجنى للإنسي،

(١) متفق عليه: رواه البخاري في اللباس (٥٩٣٧)، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٢٤)، عن ابن عمر.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٨٨٦)، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٢٥)، عن ابن مسعود.



وتَلَبَّسُهُ به، والدخول في جسده، وقد نشرت فتوى مفصلة حول هذا الموضوع، انتهت فيها إلى أن ركوب الجن للإنسان وتحكمه فيه، لا يوجد عليه دليل من القرآن الكريم، ولا دليل صحيح من السنة النبوية، فلتراجع^(١).

* * *



(١) فتاوى معاصرة (٤/٢٤٣ - ٢٥٠).



الركن الثالث: الإيمان بالكتب السماوية

الإيمان بالكتب التي أنزلها الله على رسله جزء من حقيقة الإيمان، وركن من أركان الإيمان الخمسة التي جاء بها القرآن، وذكرها في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

١- تعريف الكتب السماوية:

والكتب السَّماويَّة: هي الكتب التي أنزلها الله على رسله، ليبلِّغوها للناس، فيها الدعوة إلى توحيد الله وعبادته، والإيمان باليوم الآخر، والحثُّ على العمل الصالح.

وقد ذَكَرَ القرآن الكريم منها:

١ - صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى: التي أنزلت على إبراهيم وموسى عليهما السلام. قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [التَّجْم: ٣٦، ٣٧]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿[الأعلى: ١٨، ١٩].

وصحف إبراهيم فُقدت، ولولا أن القرآن حَدَّثنا عنها، ما عرفنا عنها شيئاً، وقد وردت أحاديث في توقيت نزولها، وفي ذكر بعض مما تضمنته من توجيهات، وإن كانت لضعفها لا يعول عليها.

٢ - التوراة: التي أنزلت على موسى ﷺ. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الإسراء: ٢].

٣ - الزبور: الذي أنزل على داود ﷺ. قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

٤ - الإنجيل: الذي أنزل على عيسى ﷺ. قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦].

٥ - القرآن: الذي أنزل على محمد ﷺ، وهو أعظم هذه الكتب على الإطلاق، وآخر كتاب أنزل، على آخر نبي أرسل. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣].

وهذه هي أشهر الكتب التي نعلم أن الله قد أنزلها على رسله، مع إيماننا بأن الله قد أنزل كتباً كثيرة لا نعلم أسماءها، هي حق وصدق؛ لأنها من عند الله.

ونعلم أن الله تعالى أنزل هذه الكتب على رسل أرسلوا إلى قومهم في فترة محددة، فلم يكتب لهذه الكتب الخلود، ولا تولّى حفظها بنفسه، وإنما استحفظها أهلها، فحفظتها أجيال، وضيّعها أجيال بعدهم، فحُرِّفت هذه الكتب وبدلت تحريفاً معنوياً، وتحريفاً لفظياً، ولكننا نؤمن بها كما أنزلت.

والقرآن أعظم هذه الكتب على الإطلاق، وهو الكتاب العزيز الذي نزل على قلب محمد ﷺ، وقد تولى الله تعالى حفظه بنفسه، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. بهذا التأكيد المكرر للحفظ. وقال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢].

ونؤمن كذلك بأن هناك رباطاً وثيقاً يربط هذه الكتب جميعها، هو أن منزلها واحد، هو الله ﷻ. وهدفها واحد، وهو: الدعوة إلى توحيد الله ﷻ وعبادته، والإيمان باليوم الآخر، والعمل الصالح، وتوحيد الناس على عبادة الله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]. وأن هذه هي الحقيقة الأساسية الكبرى التي أجمعت عليها الكتب السماوية كلها، وأكدها الكتاب الأعظم، وهو القرآن، وأنها الهدف الأصيل الذي من أجله أنزلت الكتب، وبُعث الرسل.

٢ - وجوب الإيمان بالكتب:

يجب على كل مسلم ومسلمة الإيمان بأن الكتب السماوية هي كلام الحق تبارك وتعالى، ووحية المنزل على هؤلاء الرسل المذكورين، كما يجب الإيمان إجمالاً بأن الله أنزل كتباً أخرى على رسل آخرين، لا نعرف أسمائها وهي حق وصدق؛ لأنها من عند الله، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦].

والله سبحانه أمر نبيه ﷺ أن يعلن للناس إيمانه بالكتب السماوية كلها: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الشورى: ١٥].

و(كتاب) اسم جنس يُعم جميع تلك الكتب دون تفريق بينها. قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى هذه الآية: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ [الشورى: ١٥]. فقال: لأسوي بينكم في الدين، وأؤمن بكل كتاب وكل رسول^(١).

ولا يُقبل إيمان من آمن ببعض هذه الكتب وكفر بجزء منها، كما يقول تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]؛ لأن التفريق بين الكتب السماوية هو تفريق بين الرسالات، وبين المرسلين. والله سبحانه وتعالى أمرنا أن نعلن إيماننا بما أنزل إلينا وما أنزل على من قبلنا: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ نَوَلُوا فإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦، ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤]. وهذا الإيمان الحق هو سبيل الهدى، الموصِّل إلى رضوان الله وغفرانه: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٧].

(١) ذكره الثعلبي في تفسيره (٣٠٧/٨)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ -

٢٠٠٢م، والقرطبي في تفسيره (١٣/١٦).

وقد ذمَّ الله اليهود في جملة أمور كثيرة منها: إيمانهم ببعض ما أنزل الله من الكتاب، والكفر بما أنزل على غيرهم من الأنبياء، وبذلك كفروا بالقرآن الكريم، ولم يقبلوه، قال الله تعالى مؤنَّباً لهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ، وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

وقول بعض فرق اليهود والنصارى: نؤمن بأن القرآن كتابٌ مُنزل، ولكنه خاصٌّ بالعرب^(١)! كفرٌ بواح؛ لأن الإيمان بأن القرآن كتابٌ سماوي أنزل من عند الله، يوجب الإيمان بصدق كلِّ ما جاء فيه، ومنها: الآيات الكثيرة التي تقرّر عالمية الرسالة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فلا يكون المرء مؤمناً حقاً إلا إذا آمن بأن الله أنزل على رسله كتباً؛ كالصحف التي أنزلت على إبراهيم، والتوراة التي أنزلت على موسى، والزبور الذي أنزل على داود، والإنجيل الذي أنزل على عيسى، والقرآن الذي أنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. يؤمن بأن الله تبارك وتعالى أنزلها على رسله، وإن أصاب بعضها ما أصابه على مر العصور، فيما عدا القرآن العظيم.

٣ - أثر الإيمان بالكتب:

لماذا أنزل الله الكتب السماوية؟ وما أثر الإيمان بها؟

(١) ترى فرقة العيسوية من اليهود أن محمداً وعيسى عليهما السلام، نبيان صادقان، وأنهما أرسلتا إلى قومهما، ولم يرسلتا بتبديل شريعة موسى. تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل للباقلاني ص ٢١٨، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، نشر مؤسسة الكتب الثقافية، لبنان، ط ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

أ - كمالُ حكمة الله سبحانه:

الإيمان بالكتبِ تصديقٌ بوحى الله سبحانه، وإيمانٌ بكمالِ حكمته، وأنه لا يترك عباده سُدىً دون أن يُبينَ لهم طريق هدايتهم، وما لهم وما عليهم من الحقوق والواجبات، وما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم، قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

فَمَنْ أَنْكَرَ كُتُبَ اللَّهِ وَكَذَّبَ بِهَا، فَمَا عَرَفَ اللَّهَ الْعَلِيمَ الْحَكِيمَ، وَلَا عَرَفَ قَدَرَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

ب - تأييد الرسل وإظهار صدقهم:

أنزل الله الكتب السماوية لبيان صدق الرسل والأنبياء في دعواهم المتعلقة بالبعثة والاصطفاء، فأنزل الله على موسى ﷺ تلك الألواح التي تدلُّ على صدق رسالته: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وذكر الله سبحانه أن الرسل كُذِّبوا على الرغم من التأييد الإلهي لهم بالكتب المنزلّة التي تدلُّ على صدق اصطفائهم، قال الله تعالى لنبيه: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

ج - الدلالة على وحدة الرسالات:

الإيمان بكتب الله كالإيمان برسوله، فيه دلالة على وحدة الرسالات الإلهية، والوحدة الجامعة بين المؤمنين.

فهذه الكتب جميعها، مُنزَلُها واحد هو الله ﷻ، وهدفُها واحد هو الدعوة إلى توحيد الله ﷻ وعبادته، والإيمان باليوم الآخر، والعمل الصالح، ومكارم الأخلاق.

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، أي: جماعة واحدة على دين واحد، فاختلَفوا في عقائدهم وشرائعهم، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

د - الحكم بين الناس حين الاختلاف:

أنزل الله الكتب السماوية لتكون حَكَمًا بين الناس، وليُبينَ لهم الذي اختلفوا فيه، قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، فكلُّ ما اشتملت عليه الكتب السماوية هو الفصل عند التنازع والاختلاف؛ لأنها أخبار صادقة، وأوامر عادلة، فهي حق، تفصل بين المختلفين في مسائل الأصول والفروع.

هـ - الحكم بين الناس بالعدل:

أنزل الله الكتب السماوية حتى يقوم ميزان الحق بين الناس، فيأخذ كلُّ ذي حقٍّ حَقَّه، ولا يظلم أحدٌ أحداً، ولو تُركت الأمور للناس لفسدت الأرض، وضاعت معالم الهدى والحق، بسبب الأهواء الفاسدة التي تمنع من إقامة سلطان الحق، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وأقرب عبارة لتحديد معنى هذا الميزان، والله أعلم بمراده: أنه القيم الأخلاقية الأصيلة، توارثتها الأجيال عن النبوات الهادية، وأنه المقاييس الإنسانية السليمة التي تهتدي بالكتاب الإلهي لمعرفة الحق، قياساً للأمر بنظيره، ورداً للفرع إلى أصله.

وهكذا تُبَيِّن الآية أن إرسال الرسل، وإنزال الكتب، إنما كان لتحقيق هدف أساسي، هو: أن يقوم (الناس) بالقسط، وهو العدل، الذي به يُعطى كل ذي حق حقه.

و - الهداية والرحمة:

أنزل الله تعالى الكتب السماوية، لهداية الناس وإرشادهم في كل ما ينفعهم في أمور معاشهم ومعادهم، ودينهم ودنياهم، ويعلمهم الحق والخير والجمال.

من أهم آثار الإيمان بالكتب: أن الإنسان - هذا المخلوق الضعيف - يرجع من خلالها إلى ما يُبدد حيرته، ويعرف بها طريق هدايته وفلاحه، ويقرأ فيها ما يُنجيه من عذابه وهلاكه.

وعقول البشر متفاوتة في إدراك الحسن والقبح، وهي قاصرة عن العلم بكل الحقائق، ومن رحمة الله سبحانه وبالعظمى أنه لم يترك الناس خياراً، بل رسم لهم معالم الهداية، وسبيل النجاة والفوز في الدارين.

وقد منَّ الله علينا بالنعمة العظمى بإرسال الرسول الخاتم، وإنزال الكتاب المهيمن على ما سبق من الكتب، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].



٤ - تحريف الكتب التي سبقت القرآن:

الكتب السماوية التي نزلت قبل القرآن، أنزلت لأقوام مخصوصين، ولفترة زمنية محدودة، ولم تنزل بشريعة عامة خالدة، فلذلك لم يتكفل الله وعنه، بحفظها كما تكفل بحفظ القرآن، فصاعت أصولها، وغيّرت أحكامها.

تحريف التوراة:

وأول هذه الكتب تحريفًا: التوراة، الكتاب الذي أنزله الله على موسى نورًا وهدى لبني إسرائيل.

والتوراة قد فُقدت منذ زمنٍ قديم، وضاعت بسبب النكبات التي مرّت ببني إسرائيل من قتل وتشريد، وتسليط الله عليهم من يسومهم ويذيقهم سوء العذاب، جزاء بغيهم وإفسادهم في الأرض.

والتوراة الموجودة اليوم مُحَرَّفة، وليست هي التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام، ولكنها مجموعة من الأسفار^(١) كتبها اليهود بأيديهم، ثم قالوا: هي من عند الله؛ ليشترخوا بها ثمنًا قليلًا، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

الدليل على تحريف التوراة:

لا يحتاج الإنسان إلى جهدٍ كبير لإثبات تحريف التوراة الموجودة وتزويرها، ويكفي لأيّ عاقل أن يطلع عليها ليحكم بكذبها وتزويرها.

(١) الأسفار: جمع سفر، وهو الكتاب الذي يُسفر عن الحقائق.

والأدلة التي تُثبت تحريف التوراة كثيرة منها ما تضمّنته من: عقائد فاسدة، وحكايات كاذبة، وتناقضات واضحة، وإفسادٍ للأخلاق، وتزويرٍ للأحكام.

ونكتفي بشرح الدليل الأول وهو: تحريف العقيدة.

تحريف العقيدة في التوراة:

إِنَّ الْكُتُبَ التي أنزلت على المرسلين كلها تدعو إلى توحيد الله والإيمان باليوم الآخر، والحثّ على العمل الصالح، فنجد التّحريف في التوراة في أصل الإيمان الذي جاء به المرسلون.

أما الله سبحانه: فقد نسبّت إليه التوراة من صفاتِ النقص ما يتنزّه عنه سبحانه، فجعلته خاصًا ببني إسرائيل، وهو سبحانه ربُّ العالمين. وصوّرته كالإنسان يتعب ويستريح، فتقول: إنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع (يوم السبت). وقد ردّ الله سبحانه على كذبهم وضلالهم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، أي: إعياء وتعب.

كما وصفته بالبخل والفقر، فردّ الله عليهم افتراءهم ولعنهم، فقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٦٤]. مغلوله: أي: محبوسة مقبوضة عن الرزق والعطاء، فنسبوا الله تعالى إلى البخل، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، غلّت أيديهم، أي أمسكت أيديهم عن كل خير، وطرّدوا من رحمة الله.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾

[آل عمران: ١٨١].



وإننا لنعجب ونحن نقرأ في العهد القديم، نصوصاً تصادم العقيدة الصافية، وتنال من مقام الألوهية الراسخ في القلوب، فالتوراة تصور معركة بين الله ويعقوب، ينتصر فيها يعقوب، ويأبى أن يخرج من نصره هذا إلا بأكبر المكاسب، وفق أخلاق اليهود، وفيها أن الله قال له: «أطلقني، لأنه قد طلع الفجر. فقال: لا أطلقك إن لم تباركني. فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب. فقال: لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب؛ بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت. وباركه هناك»^(١).

وكيف نسبوا لله تعالى الندم والأسف، وكأنه غير عالم بما يكون من أعمال خلقه. تقول التوراة: «ورأى الرب أن شرَّ الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في قلبه»^(٢).

وأما اليوم الآخر: فلا وجود له في هذه التوراة المحرّفة، فقد خَلَّت من مُجَرَّد ذكره فضلاً عن إثباته وإقامة الأدلة على إمكانه والدعوة للإيمان به، وخَلَّت من ذكر الجنة والنار، وكلُّ ذلك من أصول الإيمان التي جاءت بها الكتب السماوية.

وقد جعلت الجنة التي يُثَبِّبُ الله بها على الطاعات هي: الحياة على أرض فلسطين، كما جُعِلَتِ النار التي يعاقب الله بها على السيئات هي: الطرد من أرض فلسطين.

ومن تحريف العقيدة: نسبة كبائر الإثم والفواحش إلى الرُّسُل الأخيار، فقد نسبت إلى نوح وإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب وداود

(١) سفر التكوين (٢٦/٣٢ - ٢٩).

(٢) سفر التكوين (٦، ٥/٦).

وسليمان ما لا يليق أن ينسب لإنسان عادي، فضلاً عن أنبياء جعلهم الله قدوة صالحة للناس، ووصفهم بقوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَةٌ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ففي التوراة ما يستحيي منه صاحب الفطرة السليمة، ويخجل من ترديده كل ذي قلب مستقيم، عندما تتحدث ابنتا لوط، كما سجل لنا العهد القديم هذا الحوار الصادم بين ابنتي لوط: «فقالت الكبرى للصغرى: إن أبانا قد شاخ، وليس في الأرض رجل يدخل علينا على عادة الأرض كلها. تعالي نسقي أبانا خمراً ونضاجعه ونقيم من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة، وجاءت الكبرى فضاجعت أباهما ولم يعلم بنيامها ولا قيامها... فحبلت ابنتا لوط من أبيهما»^(١).

وكيف نسبوا صناعة العجل الذي عبده بنو إسرائيل إلى نبي الله هارون عليه السلام، كذباً وزوراً، فقد ذكرت التوراة: «ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون. وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا. لأن هذا موسى الرجل الذي أضعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيتكم وأتوني بها. فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم، وأتوا بها إلى هارون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوّره بالإنميس، وصنعه عجلاً مسبوگاً... فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمامه. ونادى هارون وقال: غداً عيد للرب»^(٢).

(١) سفر التكوين الإصحاح (٣١/١٩ - ٣٦).

(٢) سفر الخروج الإصحاح (١/٣٢ - ٥).

وهذا كله يدلُّ على أنَّ اليهودَ حرَّفوا الكتابَ الذي آتاهم الله إياه، وزوَّروا الحقائقَ الإيمانية فيه، فحذفوا وأضاعوا، وغيرُوا وبدَّلوا.

وفي التوراة الحالية: تعاليم غريبة، مثل: محاكمة الحيوان الأعجم وعقوبته. ومثل: التفرقة بين الناس بسبب عروقهم وأجناسهم، وتفضيل بعضهم على بعض، بل استعباد بعضهم لبعض، مثل (شعب كنعان)، الذي يجب أن يعيش أبداً معبداً لبني إسرائيل!

وقد أثبت علماء المسلمون من قديم تحريف التوراة، منذ عهد كتاب (الفصل في الملل والنحل)، إلى عهد الشيخ رحمة الله الهندي صاحب (إظهار الحق)، وأكَّد ذلك البحث العلمي في عصرنا^(١).

بعض الدراسات حول تحريف التوراة:

ومن الدراسات الجديرة بالتنويه: ما قام به د. بدران محمد بدران عن (التوراة)، فقد عكف على دراسة أسفار (العهد القديم) دراسة علمية موضوعية، «وانتهى من دراسته إلى نتائج غاية في الخطورة، ومن أهمها:

أولاً: أصول العهد القديم ثلاثة: النسخة السامرية، والنسخة العبرية، والنسخة اليونانية، وبين هذه الأصول من الاختلافات والتناقض والتضارب ما فيها، فضلاً عما فيها من زيادة ونقصان، مما يجعلنا نفقد الثقة بهذه الأصول جميعاً.

ثانياً: طبعات العهد القديم عديدة، لا تكاد طبعة منها تتفق والطبعات الأخرى، وهي تتغير من بلد إلى بلد، ومن طائفة إلى طائفة، ومن جيل

(١) وقد تناولنا الموضوع بشيء من التفصيل في كتابنا: كيف نتعامل مع القرآن، تحت عنوان: خصائص القرآن، كتاب محفوظ.

إلى جيل، والمشفون على هذه الطبقات يتعاونونها بالتعديل والتبديل، والحذف والإضافة، مما يجعلها موضع الشك والارتياب.

ثالثًا: أسفار العهد القديم مليئة بالروايات المتناقضة، التي لا سبيل إلى التوفيق بينها بأي حال، مما يجعل بعض الأسفار الأخرى تنطق بالكذب والبهتان، بل إن السفر الواحد تتناقض بعض إصحاحاته مع بعضها الآخر.

رابعًا: والعهد القديم غاص بالأساطير الوهمية، والقصص الجنسية الداعرة، والأخلاق السيئة التي تنأى به عن مظاهر الطهر والتقديس.

خامسًا: وهو إلى هذا يناقض الحقائق العلمية الثابتة بالتجربة الواقعية، والنظر العقلي الرشيد، ولو كان وحيًا سماويًا ما ظهرت فيه هذه الأخطاء.

سادسًا: انتهى من دراساته إلى الأصول التي استمد منها كُتاب العهد القديم معلوماتهم، إضافة للتوراة الأصلية، ومن أهمها:

١ - نشيد أخناتون.

٢ - حِكم أمينوبي.

٣ - قانون حمورابي.

والواقع أن الدارس للعهد القديم يجد فيه تيارات عديدة شنيعة، منها: تشويه صورة الذات الإلهية، وتلوّث الأنبياء، ومجافاة العقل السليم، ومناقضة العلم الصحيح، والتناقضات العديدة بين أسفار العهد القديم، بل بين إصحاحات السفر الواحد. هذا إلى جانب التعصب

الأعمى لشعب بني إسرائيل، مما يجعلنا لا نمنحه أي ثقة، ولا نضفي عليه أي تصديق»^(١).

وهذا يتفق مع ما انتهى إليه الغربيون من بحوث جادة حول الموضوع، فقد أثبتت الدراسات الحديثة للغربيين أنفسهم بالأدلة العلمية تحريف التوراة، وأن فيها نصوصاً لا يمكن أن تكون مما أنزله الله على موسى، فقد كتب اسبينوزا الفيلسوف اليهودي المتحرّر نقداً قوياً للعهد القديم، أثبت فيه عدم صحة نسبته لمن نسب إليهم من الأنبياء، وبخاصة التوراة، حيث أثبت بالدليل القاطع أنها كتبت بعد موسى بمئات السنين، وذلك في كتابه القيم (رسالة في اللاهوت والسياسة)^(٢).

وقد طالب بعض العلماء والمفكرين في الغرب بوجوب إبعاد (الكتاب المقدس) - ولا سيما العهد القديم - عن مدارس الأولاد والبنات، لما تضمنه من أمور تنافي الحياء والآداب العامة.

تحريف الزبور:

وهو الكتاب الذي أنزل على داود، وقد فُقد هذا الكتاب كما فُقدت التوراة، والكتب السابقة على القرآن الكريم.

والكتاب الموجود الآن والذي ينسب إلى داود يُسمّى: (المزامير)، وهو: عبارة عن أدعية وتضرّعات، كلّها بكاءً على مجدّ إسرائيل، ومُلك داود، وهيكل سليمان، وجبل صهيون. وقد كتبه اليهود بأيديهم لإثارة شعبهم وربطهم بأرض الميعاد في فلسطين.

(١) مقدمة د. علي عبد العظيم لكتاب: التوراة العقل العلم التاريخ للدكتور بدران محمد بدران ص ٧، ٨، نشر دار الأنصار، القاهرة، ط ١، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) التوراة العقل العلم التاريخ ص ٦.

وبعض الأدعية ليس فيها أدبٌ مع الله، بل فيها تطاولٌ على جلال الخالق، وحقْدٌ على جميع الخلق من غير بني إسرائيل، ولهذا ضُمَّت إلى أسفار التوراة المُحرَّفة، وجُعِلت جزءًا منها.

تحريف الإنجيل:

الإنجيل: هو الكتابُ الذي أنزله الله على عيسى بن مريم عليه السلام. ونحن المسلمين لا نعرف شيئاً عن الإنجيل الأصلي الذي أنزله الله على المسيح عيسى.

وقد فُقد هذا الإنجيل واندثر عبر موجات الاضطهادات التي تعرّض لها النصارى بعد المسيح، وكانت سبباً في اختفاء النسخة الحقيقية، إضافة إلى ما حدث للمسيحية عبر تاريخها، ممن اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً من علماء السوء، وكذلك ما دخل على عقيدة النصارى من التثليث، وما دخل من تأثير الوثنية الرومانية على الديانة المسيحية، بعد دخول الملك قسطنطين إمبراطور الروم في النصرانية، فكسبت الدولة، وخسرت ديناً. حتى قال بعض علمائنا: إن روما لم تنتصر، ولكن النصرانية ترومت!

إنجيل أم أناجيل؟

الإنجيل الذي أنزله الله سبحانه على عيسى بن مريم كتابٌ واحدٌ، والإنجيل الموجود اليوم ليس إنجيلاً واحداً، بل هو أناجيل كثيرة، وقد اتفق النصارى على أربعةٍ منها، وهي: (إنجيل متى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا). وقد اختيرت هذه الأناجيل الأربعة من سبعين إنجيلاً، وهي مختلفة متناقضة فيما بين بعضها وبعض، بل كل إنجيل منها متناقض في نفسه.

وهذه الأناجيل الأربعة كلها مجموعة في كتاب يُسمَّى (العهد الجديد). وهي لا تخرج عن كونها سيرة للمسيح، مشتملة على بعض مواعظه وأقواله.

وقد اختلف في تاريخ تأليف هذه الأناجيل، وفي اللغة التي كتبت بها أساساً، والتي تُرجمت إليها، وشكك الدارسون المحققون في صحة نسبتها إلى مؤلفيها، ونقل الشيخ رشيد رضا في (مجلة المنار) عن دائرة المعارف الفرنسية: أن الأناجيل الأربعة المعتمدة لدى النصارى لم تظهر إلا بعد ثلاثة قرون من تاريخ المسيح^(١).

وقرر الأب عبد الواحد داود، المطران المسيحي الآشوري، الذي اعتنق الإسلام، في كتابه (الإنجيل والصليب): أن الأناجيل المعتمدة الآن لم تكن معترفاً بها قبل القرن الرابع الميلادي^(٢).

الأدلة على تحريف الأناجيل:

الأناجيل الموجودة اليوم عبارة عن قصصٍ وروايات في سيرة المسيح تتضمن بعض المواعظ والكلمات للمسيح، تنسب إلى مؤلفيها، والأدلة على تحريفها كثيرة، ونكتفي بما تضمّنته الأناجيل من عقائد

(١) تفسير المنار (٢٣٨/٦)، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

(٢) انظر: النصرانية والإسلام للمستشار محمد إسماعيل محمد الطهطاوي ص ١٤ - ٢٦، نشر دار الأنصار، القاهرة، والكتب المقدسة بين الصحة والتحريف د. يحيى محمد ربيع ص ١١٥ - ١٨٥، فصل: سند الأناجيل، نشر دار الوفاء، مصر، ومحاضرات في النصرانية للعلامة الشيخ محمد أبو زهرة ص ٩٠، ٩١، نشر دار الفكر العربي، والأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام د. علي عبد الواحد وافي ص ٦٤ - ٦٨، نشر دار نهضة مصر، القاهرة، ط ١، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

باطلة لا يقرها دين سليم، ولا يقبلها عقل سليم، وهي تناقض القرآن الكريم أيما تناقض.

أ - نسبة الولد إلى الله سبحانه:

فقد اتفقت الأناجيل الأربعة على أن عيسى عليه السلام هو ابن الله، والله تعالى يقول: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٣، ٤].

ب - نسبة الصلب إلى عيسى عليه السلام:

فقد قال النصارى بصلب عيسى تكفيراً عن خطيئة آدم وفداءً للبشر، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

ج - تحميل خطيئة آدم في أكليه من الشجرة لبنيه:

فقد نسب الإنجيل خطيئة آدم إلى ذريته، وأن عيسى صلب ليكون الفادي والمخلص للبشرية من تلك الخطيئة، وذلك مخالف لمبدأ المسؤولية والجزاء، قال تعالى: ﴿وَلَا نُزِرْ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: ١٥]. ثم إن آدم قد استغفر ربه من ذلك: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ ثم أجابه ربه: ﴿فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢].

د - اعتماده في أحكامه وشرائعه على التوراة (العهد القديم):

قال المسيح: ما جئت لأنقض بل لأكمل^(١).

والتوراة محرّفة، فيكون (العهد الجديد) قائماً على باطل.

(١) إنجيل متى (١٧/٥).



وبعيداً عن دلالات التحريف الواضحة في العهد الجديد (الإنجيل) واختلاف نسخته، وتعارضها فيما بينها تعارضاً كبيراً في ذكر الحدث الواحد، نرى تناقضاً واضحاً بين هذه النصوص وبين الفطرة السليمة. حيث يحرم الإنجيل الغنى، ويجعل الموسر أبعد ما يكون عن رحمة الله تعالى. يقول الإنجيل: «فقال يسوع لتلاميذه: الحق أقول لكم: إنه يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السماوات. وأقول لكم أيضاً: إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله»^(١).

ونجد قسمة ظالمة في هذه الدنيا بين الله تعالى وبعض خلقه، فملكوت الدنيا يوزع بين الله وبين ملوك الدنيا!! لذا نقرأ في الإنجيل: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»^(٢).

كما نجد استسلاماً صارخاً أمام الظلم والظالمين، وعدم محاولة ردّ الاعتداء أو الهروب منه في قول المسيح: «مَنْ لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً»^(٣). وهو ما يخالف الفطرة السليمة. ولذا فإن المسيح نفسه لما تعرض للطم لم يدر خده الآخر، وإنما اعترض على ذلك، كما جاء في العهد الجديد نفسه: «لطم يسوع واحدٌ من الخدام كان واقفاً قائلاً: أهكذا تجاوب رئيس الكهنة. أجابه يسوع: إن كنت قد تكلمت ردياً فاشهد على الردي. وإن حسناً فلماذا تضربني؟»^(٤).

* * *

(١) إنجيل متى (٢٣/١٩، ٢٤).

(٢) إنجيل متى (٢١/٢٢)، ومرقس (١٧/١٢)، ولوقا (٢٥/٢٠).

(٣) إنجيل متى (٣٩/٥).

(٤) إنجيل يوحنا (٢٢/١٨، ٢٣).

القرآن الكريم

القرآن الكريم هو كلام الله تعالى المعجز، المُنزَّل على نبيِّنا محمد ﷺ، المنقول عنه بالتواتر، المكتوب في المصاحف، المتعبد بتلاوته. وهو كتاب الله الخالد الذي ختم به الكتب، كما ختم بمحمد ﷺ، الأنبياء والرُّسل.

المعجزة الخالدة

القرآن هو المعجزة التي خَصَّ الله بها نبيَّه محمدًا ﷺ ولم يؤت نبيٌّ مثلاً. قال ﷺ: «ما من الأنبياء نبيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ ما مثله آمنَ عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتِيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة»^(١).

وهذا القرآن الآية الكبرى، والمعجزة العظمى، هو كلام الله الذي أوحاه إلى نبيه، دلت على ذلك دلائل كثيرة:

أدلة يجدها دارس القرآن:

١ - فقدان الطابع الشخصي والبشري:

كل نصٍّ أدبيٍّ من شعر أو نثر يحمل الطابع الشخصي لصاحبه وقائله، حتى إن الدارسين المتذوقين ليحكمون أحياناً بأن هذه القصيدة لفلان الشاعر، وهذه المقالة لفلان الأديب، دون أن يكون عليها اسمه، وإنما فيها روحه وطابعه.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨١)، ومسلم في الإيمان (١٥٢)، عن أبي هريرة.

فإذا درسنا القرآن على هذا النحو: هل نحس فيه الطابع الشخصي لمحمد؟! هل نجد لأنفسنا فسحة في أن نحكم بأن محمدًا هو صانع هذا الكتاب وقائله؟!

لقد رُويت عن محمد ﷺ آلاف من الأحاديث قالها في مناسبات شتى، طوال أعوام بعثته، منها خطب ألقاها، ومنها رسائل كتبها، ومنها توجيهات ومواعظ وأحكام، كلها في قمة البلاغة البشرية، ولكنها نمط آخر غير القرآن، في نظمه، ونسجه، وروحه. وقد يستدل محمد عليه الصلاة والسلام، بآية من القرآن في حديث، فلا يشك مَنْ يقرأها أو يسمعها أنها من جنس آخر أعلى وأعظم من كلام محمد نفسه، وأن لها من النور الخاص ما يعظم بكثير نور غيرها.

إن أدنى دراسة للقرآن وأدنى تأمل في آياته وسوره يملأ القلب يقينًا بأن هذا الكتاب ليس من صنع محمد، ولا من تأليفه، ولا له فيه دخل ولا اختيار. كل ما فيه أنه ملقّن مبلغ مأمور، فلا أثر للطابع الشخصي بل لا أثر للطابع البشري في هذا الكتاب.

٢ - شهادة العقل الحر:

إننا إذا احتكنا إلى أيّ عقل منصف حرّ، فلن يقول غير ما قاله إمام مسلم متأمل في كتاب الله، هو شمس الدين ابن القيم قال: «تأمل خطاب القرآن، تجد ملِكًا له المُلْك كله، وله الحمد كله، أزمّة الأمور كلها بيده، ومصدرها منه، ومردّها إليه، مستويًا على العرش، لا تخفى عليه خافية من أقطار مملكته، عالمًا بما في نفوس عبّيده، مطّلعًا على أسرارهم وعلاانيتهم، منفردًا بتدبير المملكة، يسمع ويرى، ويعطي ويمنع، ويثيب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويخلق

ويرزق، ويميت ويحيي، ويقدر ويقضي، ويدبر الأمور نازلةً من عنده دقيقتها وجليلها، وصاعدةً إليه، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه.

فتأمل كيف تجده يُثني على نفسه، ويمجّد نفسه، ويحمد نفسه، وينصح عباده، ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم، ويرغبهم فيه، ويحذرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبّب إليهم بنعمه وآلائه، يذكرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نقمه، ويذكرهم بما أعدّ لهم من الكرامة إن أطاعوه، وما أعدّ لهم من العقوبة إن عصوه، ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء، ويثني على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم، ويذم أعداءه بسيئ أعمالهم وقبيح صفاتهم، ويضرب الأمثال، وينوع الأدلة والبراهين، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة، ويصدّق الصادق، ويكذب الكاذب، ويقول الحق، ويهدي السبيل، ويدعو إلى دار السلام، ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها، ويحذر من دار البوار، ويذكر عذابها وقبحها وآلامها، ويذكر عباده فقرهم إليه، وشدة حاجتهم إليه من كل وجه، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، ويذكرهم غناه عنهم، وعن جميع الموجودات، وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه، وكلّ ما سواه فقير إليه، وأنه لن ينال أحدُ ذرةٍ من الخير فما فوقها إلا بفضلِهِ ورحمته، ولا ذرة من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته، ويُشهد من خطابه عتابه لأحبابه أطف عتاب، وأنه مع ذلك مُّقيم عثراتهم، وغافر زلّاتهم، ومقيم أَعذارهم، ومصلح فسادهم، والدافع عنهم، والحامي عنهم، والناصر لهم، والكفيل بمصالحهم، والمنجّي لهم من كلّ كرب، والمُوفّي لهم بوعدِهِ، وأنه وليّهم الذي

لا ولي لهم سواه، فهو مولا لهم الحق، ونصيرهم على عدوهم، فنعم المولى ونعم النصير.

وإذا شهدت القلوب من القرآن ملكًا عظيمًا جوادًا رحيماً جميلاً، هذا شأنه، فكيف لا تحبه وتنافس في القرب منه، وتنفق أنفاسها في التودد إليه، ويكون أحبَّ إليها من كلِّ ما سواه، ورضاه أثر عندها من رضا كلِّ من سواه؟ وكيف لا تلهج بذكره، ويصير حُبُّه والشوق إليه والأنس به هو غذاؤها وقوتها ودواؤها، بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت لم تنتفع بحياتها؟^(١).

هل يعقل أن محمداً تقمَّص في هذا الكتاب كله رداء الألوهية، واستوى على عرش الربوبية، فنادى الناس من علي، محدراً سطوته ونقمته، ومرغباً في مثوبته وحسن جزائه؟

هل يعقل أنه هو الذي يخاطب نفسه بـ﴿قُلْ﴾، تلك الكلمة القصيرة الأمرة الموقظة، الموحية بكبرياء الأمر، وخضوع المأمور؟ وقد وردت كلمة ﴿قُلْ﴾ في القرآن (٣٣٢) اثنتين وثلاثين وثلاثمائة مرة، وفق إحصاء (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) لمحمد فؤاد عبد الباقي^(٢).

هل نستطيع أن نصدّق أن هذا القرآن فيض من فُرات محمد، وذاته لم تشغل في هذا الكتاب الكبير إلا حيّزاً محدوداً، مع أن أكثر هذا الحيّز المحدود أمر له أو نهى، أو تعليم وتبيين، أو تعزية وتثبيت، أو إيقاظ وتحذير، أو عتاب ولوم؟

(١) الفوائد لابن القيم ص ٢٨، ٢٩، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) انظر: المعجم المفهرس مادة (ق. و. ل).

آيات العتاب:

وإن آيات العتاب وحدها لتحمل أبلغ الدلالة على أنها من سلطان أعلى من محمد، إنه سلطان من أرسله ويملك أمره ونهيه وتوجيهه. اقرأ في ذلك قوله له: ﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]، ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَشِخَ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧]، ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

وقوله سبحانه في قصة ابن أم مكتوم الأعمى، الذي شغل عنه بدعوة كبار القوم، وقد كان يأمل في استجابتهم لدعوة الإسلام: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنْ أَسْتَعْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلَّا * إِنَّهَا لَذِكْرَةٌ﴾ [عبس: ١-١١]، هل يتصور أن محمداً يلوم نفسه ويعاتبها إلى هذا الحد بمثل هذه اللهجة؟!

هل يمكننا أن نقبل أن محمداً هو الذي اصطنع هذا القرآن وافتراه، وقد كان يقرؤه بنفسه أو يسمعه من غيره، فإذا مرَّ بقوارعه وأوامره وزواجره، أو بوعده ووعيده ارتجف قلبه، وفاضت عيناه من خشية ربه؟ هل يمكن أن يبكي الكذاب تذكراً وخشية إذا قرأ كلاماً له يعلم من نفسه أنه مخلقه ومدعيه؟

٣ - شهادة القلب والفطرة:

أما القلب الحي والفطرة السليمة، فيحسُّ إحساسًا غامرًا: أن في هذا القرآن قبسًا من نور الله، ونعمة من رُوح الله، يحسُّ بأنه ليس قول بشر، إحساسًا مباشرًا لا شك فيه، إذا لم يضع على قلبه غشاوة الهوى، ولم يحبس نفسه في قمقم التعصُّب، ولم يجعل بينه وبين هذا القرآن حجابًا مستورًا.

ولقد كان المشركون أنفسهم، حين ينطلقون مع فطرتهم؛ يحسون بهذه الروح الإلهية تنبثق من كل سورة وكل آية من القرآن، وكان القرآن يهزُّ قلوبهم هزَّ الريح العاصفة للأشجار الغضة تريد أن تقتلعها، ويلمس وجدانهم بقوة كأنه لمسة الكهرباء. فمن سار منهم وراء قلبه وفطرته إلى النهاية، وصلا به إلى الإسلام. ومن حال بينه وبين الإسلام التعصُّب أو الحسد أو الكبر أو حبُّ الدنيا أو التقليد الأعمى، أو غير ذلك؛ عاش وهو يصارع قلبه، ويقاوم فطرته في شأن القرآن.

وقد أسلم جماعةٌ عند سماع آياتٍ منه، كما وقع لجبير بن مطعم، أنه سمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور. قال: فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ﴿ [الطور: ٣٥ - ٣٧]، كاد قلبي أن يطير. قال: وذلك أول ما قرأ الإسلام في قلبي.

وكان القوم يعرفون ويوقنون بقوة تأثير القرآن في النفوس، فكانوا يخافون على أنفسهم من سماع القرآن، حريصين على أن يحولوا بين عامة الناس وبين سماع هذا الكتاب المبين، وذلك بالتشويق المفتعل والتهريج المصنوع: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

التَّحْدِيَّ بِالْقُرْآنِ:

ومع كثرة آيات النبي ﷺ ومعجزاته الحسية، فإنه لم يتحدَّ إلا بالقرآن، فهو الآية التي تحدَّى بها العرب أن يأتوا بمثله.

مراحل التَّحْدِيَّ بِالْقُرْآنِ:

١ - لقد تحدَّى الله سبحانه الإنس والجنَّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]، ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

٢ - ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ سبحانه تحدَّى قريشًا عندما ادَّعَوْا أَنَّ القرآن ليس من عند الله، فطلب منهم الإتيان بعشر سُورٍ مفترياتٍ، إن كان مُفْتَرِي كما يزعمون، بقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مَفْتَرِيَّتٍ وَادَّعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

٣ - وَكَرَّرَ سبحانه تحدِّي مَنْ كَانَ فِي رَيْبٍ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ بِالْإِتيانِ بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ، وَأَكَّدَ عدم استطاعتهم على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادَّعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

فَسَجَّلَ الله سبحانه عليهم العجز المؤبَّد، فقال: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤]، وهذه معجزة أخرى، وهو أنه سبحانه أخبر خبرًا جازمًا قاطعًا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يُعَارِضُ بِمِثْلِهِ، أَبَدَ الْأَبْدِينَ، وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا أَخْبَرَ سبحانه، فإنه لم يُعَارِضْ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا.

ولا يزال التحدي قائماً، ولا يزال الخلق عاجزين إلى أن تقوم الساعة.

ولا يزال هذا الكتاب العظيم إلى اليوم يجدد تحديه للعالم، ويتجلى إعجازه كما لم يتجل من قبل.

فمنهم من يتحدى ببيانه الأدبي الفائق الروعة، مثل: شيخنا الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه (النبأ العظيم)، وسيد قطب في كتابه (التصوير الفني في القرآن)، والدكتورة بنت الشاطئ في كتابها (التفسير البياني للقرآن).

ومنهم من يتحدى بإعجازه، التشريعي والإصلاحي، مثل: الفقيه العلامة الشيخ محمد أبو زهرة في مثل بحثه (شريعة القرآن دليل على أنه من عند الله)، والعلامة المجدد محمد رشيد رضا في كتابه (الوحي المحمدي).

ومنهم من يتحدى بإعجازه العلمي، وعدم التعارض بين الحقائق العلمية الحديثة وبين نصوص القرآن الكريم.

فالقرآن الكريم هو المعجزة الباقية الخالدة، حتى قال ابن رجب الحنبلي: «لو أن هذا الكتاب وجد مكتوباً في مصحف في فلاة من الأرض، ولم يعلم من وضعه لشهدت العقول السليمة أنه منزل من عند الله، وأن البشر لا قدرة لهم على تأليف ذلك، فكيف إذا جاء أصدق الخلق ﷺ وأبرهم، وأتقاهم، وقال: إنه كلام الله. وتحدي الخلق كلهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا؟ فكيف يبقى مع هذا شك فيه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنْ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

فلو لم يكن لمحمد ﷺ من المعجزات الدالة على صدقه غير هذا الكتاب لكفاه، فكيف وله من المعجزات السماوية والأرضية ما لا يحصى؟^(١).

خصائص القرآن الكريم:

يمتاز القرآن الكريم عن الكتب السماوية السابقة بعدة خصائص، أذكر أهمها:

١ - القرآن حَفِظَهُ اللهُ من التغير:

من خصائص القرآن العظيم: أَنَّ الله سبحانه حفظه من التغير والتبديل؛ لأنه الكتاب الأخير الذي تَضَمَّنْ هداية البشرية وسعادتها، فليست هناك حاجة لكتاب آخر بعد القرآن، ولا لنبي بعد محمد، فلسنا بحاجة إلى كتاب بعده، ولا إلى نبي بعد نبيه محمد ﷺ.

فنحن المسلمون - وحدنا - الذين نملك الوثيقة السماوية الفذة، التي تحمل كلمات الله الأخيرة لهداية البشرية، محفوظة من كل تبديل أو تحريف لفظي أو معنوي، وذلك أن الله تعالى تكفل بحفظ هذا الكتاب، ولم يكله إلى أحد من خلقه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وانظر في هذه الجملة الأخيرة: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فهي جملة بليغة، لأنها جملة اسمية، مؤكدة بـ (إن) في ﴿إِنَّا﴾، واللام في قوله: ﴿لَحَافِظُونَ﴾، كلها زيادة في التوكيد. فهو كتاب إلهي مائة في المائة: ﴿كَتَبَ أَحْكَمَ عَيْنُهُ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

(١) لطائف المعارف لابن رجب ص ٨٤، نشر دار ابن حزم، ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

ولم يوجد في الدنيا كتاب ديني أو دنيوي حُفِظَ من التحريف والتبديل، كما حُفِظَ هذا القرآن، وإن أحداً لا يستطيع أن يزيد فيه حرفاً أو يخرم منه حرفاً.

آياته تُتلى وتُسمع وتُحفظ وتُشرح، كما أنزلها الله على محمد ﷺ، بواسطة الروح الأمين.

ولقد اشتمل على مائة وأربع عشرة سورة (١١٤) ابتدأت كلها بالبسملة (بسم الله الرحمن الرحيم)، إلا سورة واحدة منها: سورة التوبة، فجاءت خالية منها، فلم يجترئ أحد أن يزيد هذه البسملة في مطلع السورة لا خطأ ولا لفظاً؛ لأنه لا مجال للرأي في القرآن.

لقد بلغ من اهتمام المسلمين بالقرآن أن عدوا آياته، بل كلماته، بل حروفه، فكيف يستطيع امرؤ أن يزيد أو ينقص في كتاب أحصيت كلماته وحروفه؟!

ولم يعرف في الدنيا كتاب يحفظه الألف، وعشرات الألف، ومئات الألف، عن ظهر قلب، بل يحفظه الملايين، إلا القرآن الذي يسره الله للذكر والحفظ؛ فلا عجب أن نجد من الرجال والنساء من جمعه في قلبه ووعاه، كما حفظه كثير من صبيان المسلمين، لا يضيِّعون منه حرفاً، وكذلك كثير من الأعاجم، لا يُسْقِطون منه كلمة واحدة، وأحدهم لو سأله بالعربية عن اسمه، لم يجبك! فهو يحفظ كتاب ربه تعبدًا وتقربًا إليه سبحانه، وإن لم يفهم ما يقرأ ويحفظ؛ لأنه بغير لغته.

ولم تُحفظ معاني القرآن وكلماته وألفاظه فحسب، بل طريقة أدائه، ومخارج حروفه، وما ينبغي لها من مد وغنٍّ وإظهار وإدغام، وإخفاء وإقلاب، وهو ما قام به علم خاص سُمي علم (تجويد القرآن).

حتى رسم المصحف بقي يُرسم ويُطبع إلى اليوم، كما رسم في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، رغم تطور قواعد الرسم والإملاء، ولم تجرؤ حكومة مسلمة ولا مجمع علمي إلى اليوم، على أن يغير من طريقة رسمه، وأن يُطبّق عليه من القواعد ما يطبّق على سائر ما يكتب ويطبع من كتب ورسائل وصحف وغيرها.

٢ - القرآن آخر الكتب المنزلة وناسخ لها:

من خصائص القرآن الكريم أنه آخر الكتب المنزلة، وأن الأحكام التي جاءت فيه ناسخة لما ورد في غيره من الكتب السماوية، إذ إن الكتب السماوية قبل دخول التحريف عليها، تلتقي مع القرآن الكريم في العقائد، فلا يختلف كتاب عن كتاب فيها؛ لأنها من القضايا الثابتة التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان.

وتلتقي أيضاً بأصول العبادات والأخلاق، فما من كتاب إلا ودعا إلى العبادة، وفعل الخير، واجتناب الشر، والتزام الفضائل، واجتناب الرذائل.

وما جاء في الكتب السابقة من تشريع وأحكام إنما كان لفترة موقوتة من فترات التاريخ، ولقوم مخصوصين، وقد استنفدت أغراضها، وانتهت الحاجة إليها، أما القرآن الكريم، فهو خاتم الكتب السماوية، ولذا جاء بأحكام وتشريعات صالحة لكل زمان ومكان، ولكل الناس على السواء، ولكل الأحوال دون استثناء.

فالقرآن هو الوثيقة السماوية الوحيدة التي نأمن أن نأخذ منها معارفنا، دون أن نخشى تسلل الباطل والوهم والتحريف إليها.



٣ - القرآن هو الحقُّ والصدق:

بما أنَّ الله سبحانه تعهَّد بحفظ القرآن الكريم، ونسخَ به الكتب السماوية السابقة، فكلُّ ما جاء فيه من عقائد وعباداتٍ وأخلاق وشرائع وأحكام هو الحق والصدق والعدل.

قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥].

فهو حقٌّ وصدقٌ في الإخبار عن رسل الله وأنبيائه المصطفين الأخيار. وهو حقٌّ وصدقٌ في الإخبار عن السَّاعة والغيب كلِّه، ما وقع وما سيقع.

وهو عدلٌ في أحكامه، سامٍ في أخلاقه يدعو إلى خصال الخير، وينهى عن خصال الشر.

٤ - القرآن مهيمُنٌ على الكتب قبله:

القرآن الكريم هو الحاكم على الكتب السابقة، يُرجع إليه في معرفة الحق والباطل من أخبارها وأحكامها، فهو المؤتمن والشاهد على ما قبله من الكتب.

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

فإذا اختلفت الأخبار عن الله وصفاته وأنبيائه ورسله، أو اختلفت الأحكام والأخلاق، فبالقرآن العظيم يُعرف الصدق من الكذب، والحق من الباطل، وما يصلح للناس، وما لا يصلح لهم.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

٥ - القرآن معجز:

من خصائص القرآن أنه مُعْجَزٌ في بيانه، تحدّى البلغاء والفصحاء من العرب قديمًا فعجزوا، تحداهم أن يأتوا بمثله فغلبوا، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، فخرسوا وانقطعوا، ولا يزال يتحداهم أن يأتوا بسورةٍ من مثله، ولن يأتوا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا ومُعينًا، قال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

الفرق بين القرآن الكريم والكتب الماضية:

بعد ذِكر تلك الخصائص التي اختص بها القرآن عن الكتب السماوية، نذكر الفروق بين القرآن وغيره من الكتب الماضية، التي يمكن أن نجملها في:

الفرق الأول: أن الكتب الماضية قد ضاعت أصولها، ودرست معالمها، ولم يبقَ بأيدي الناس إلا تراجم متناقضة بلغات مختلفة.

أما القرآن الكريم فقد بقي محفوظًا بنفس الكلمات والحروف التي نزل بها أول مرة، لم تمتد إليه يد التحريف والتغيير والتبديل، لا لفظًا ولا معنى. ولم يكن ذلك بحروفه وكلماته، فحسب، بل يظل محفوظًا بحركاته وسكناته ومدّه وغنّه وإدغامه، إلى غير ذلك من أحكام تلاوته.

الثاني: أَنَّ الكتب الماضية قد اختلطت بكلام مَنْ كتبوها، وتاريخهم القومي، وسير الأكابر منهم واجتهاداتهم الخاصة، بحيث أصبح من المتعذر معرفة كلام الله من غيره:

أما القرآن فقد ظلَّ خالصًا نقيًّا غير مشوب بكلام أحد، ولم يختلط النصُّ الإلهي المقدَّس بأيِّ لون من الأساليب البشريَّة، فبقي محفوظًا على مدى الأجيال، وما كتبه المسلمون من مسائل العقيدة والفقه والحديث والسيرة والسلوك وغير ذلك، فهو في كتبه الخاصة التي لم تختلط بالقرآن.

الثالث: كُلُّ الكتب الماضية التي نراها في أيدي الناس اليوم ليس لها سند تاريخي يُعتمد عليه، ولا يعرف على وجه التحقيق متى كُتبت وكيف كُتبت ومَنْ الذي كتبها بل هناك كثير من الكتب الدينية لا يُعرف على مَنْ نزلت، ومتى نزلت بل بعضها لا يعرف: هل نزلت أصلًا من السماء أم ليس لها أصل؟

أما القرآن الكريم، فقد تضافرت الأدلة التاريخية الثابتة، وتظاهرت الشواهد القاطعة على نزوله على نبينا محمد ﷺ، بل إن كل سورة وكل آية معروف متى نزلت، وأين نزلت. وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يحفظون عن ظهر قلب كل ما ينزل على رسول الله ﷺ من الوحي. وكانوا يسارعون بكتابته، وكان هناك كُتَّاب مخصوصون لكتابة الوحي، عرفوا في التاريخ باسم (كُتَّاب الوحي).

الرابع: اللغات التي كُتبت بها الكتب الماضية قد انطمست معالمها، واندرست آثارها، ولا يُعرف لها أصل الآن يُرجع إليه، ولا يوجد متكلمون بها في أقصى بقاع الأرض.

أما القرآن الكريم فقد نزل بلسان عربيّ مبين، تلك اللغة العربية الحيّة التي ينطق بها مئات الملايين من البشر ويفهمونها.

الخامس: ما جاء في الكتب الماضية من تشريع وأحكام، إنما كان لفترة موقوتة من فترات التاريخ، ولقوم بأعيانهم، ولأحوال خاصة بهم دون سواهم، وقد استنفدت أغراضها، وانتهت بانتهاج الحاجة إليها.

أما القرآن الكريم: فقد جاء بأحكام وتشريعات صالحة لكلّ زمان ومكان، ولكلّ الناس على السواء، ولكلّ الأحوال دون استثناء.

وأين ما تضمنته التوراة والإنجيل مما تضمنه القرآن من عقائد وعبادات، ومعارف ومفاهيم، وقيم وأخلاق، وتشريعات ومعاملات، وأنباء عن عالم الغيب وعالم الشهادة، ولفت الأنظار إلى آيات الله تعالى في الآفاق وفي الأنفس؟

لا يستطيع عاقل أن يقارن بين الكتابين السابقين في وضعهما الحالي (التوراة والإنجيل) وبين القرآن؛ الكتاب الخالد المبين؛ في التوجهات، وفي الموضوعات، وفي الصياغة والأسلوب، في الشكل والمضمون والتأثير، ولا يعترف بتفرد القرآن في كل ذلك، إلا أن ينطبق عليه ما قاله البوصيري قديمًا في برده:

لا تَعْجَبَنَّ لِحَسودٍ راحَ يُنكِرها تجاهلاً، وهو عينُ الحاذقِ الفهم!
قَدْ تَنَكَّرَ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وينكِرُ الفمُّ طَعْمَ الماءِ مِنْ سَقَمِ!

السادس: بالاطلاع على الكتب الماضية نجد فيها أشياء غير معقولة ولا مقبولة، ينبو عنها الطبع السليم، وينكرها العقل القويم، والخلق الكريم، والدين المستقيم، وتُفسد العقائد الصحيحة بما تُدخل عليها من

التحريف، وما تقوم عليه من تصورات وثنية فاسدة لا تقلُّ عن تصورات الإغريق لآلهتهم.

وقد سبقت الإشارة إلى بعض ذلك، وأضيف أيضاً أنه جاء في الإصحاح الثالث من سفر التكوين: قال: «الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً بالخير والشر»^(١).

«ورأى الرب أن شرَّ الإنسان قد كثر في الأرض، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه»^(٢)!!

أرأيت كيف يوصف الإله الواحد الأحد الذي لا شريك له، ولا ند له، ولا شبه له؟ يقول: الإنسان صار كواحد منا! أي أنه سبحانه مع مجموعة من الآلهة! وكيف يوصف الإله الذي ليس كمثله شيء بأنه يحزن ويتأسف ويندم، أو أنه يرفع الإنسان إلى مقام الربوبية!!

ومن عجب أن كتبهم هي التي تنطوي على الدليل القاطع على تحريفها. وقد أخبرنا القرآن عن هذا التحريف فقال: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ٤١].

أما القرآن الكريم: فقد تنزَّه عن ذلك كله، ولم يأتِ إلا بما يُصلح العقائد والأعمال والقيم الفاسدة، ويلائم العقل الرشيد، ويطهر القلب، ويزكّي النفس، ويوافق الفطرة السليمة، ويؤسس الفرد الصالح، والأسرة الصالحة، والمجتمع الصالح، مجتمع الفضائل العالية، والمثل الكريمة،

(١) سفر التكوين (٢٢/٣).

(٢) سفر التكوين (٦/٥، ٦).

والمعاملات الفاضلة، ويظهره من الفحشاء والمنكر والبغي، ويقيم الأمة المثلى، التي تجمع المسلمين في كل مكان تحت راية واحدة، ولههدف واحد، هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الحق والخير.

السابع: أن تعدد الأناجيل في أيدي الناس دليل قاطع على تحريفها والعبث بها؛ إذ لم ينزل من السماء إلا إنجيل واحد، فما الذي أوجد هذه الأناجيل المتعددة؛ مثل إنجيل متى، ويوحنا، ولوقا، ومرقس، وإنجيل برنابا، وقد اختيرت الأناجيل الأربعة الأول من سبعين إنجيلاً، ومع ذلك فبينها اختلاف كبير، وتضارب عظيم في أخبارها، ويخالفها إنجيل برنابا - الذي نشره العلامة رشيد رضا ومجلة المنار - مخالفة كبيرة، وكثيراً ما تطبع هذه الأناجيل طبعات مزيدة منقحة، كأنها من تأليف البشر، وفقاً لما تفعله المجامع المقدسة كلما عَنَّ لها أن تبحث حتى في تطوير العقائد التي من شأنها الثبات والاستقرار، أما القرآن الكريم فقد مضى عليه أربعة عشر قرناً من الزمان، لم يتغير منه حرف، ولم تبدل منه كلمة، ولم ترفع آية لتوضع محلها عبارة أخرى، ولكنه سَلِمَ من ذلك العبث كله؛ ذلك بأن الله وَجَّلَ ضَمِنَ حفظه على مرِّ القرون والأجيال، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وليست كذلك الكتب الماضية، فلم يضمن الله وَجَّلَ حفظها وبقائها، فإنها نزلت لشعب محدود، ولزمن معين، لم تنزل لتكون رحمة للعالمين، ولا هداية وتشريعاً للعالمين، فلم تنزل لتكون كتاب الخلود، كتاب الزمن كله، والعالم كله، والإنسان كله، والحياة كلها؛ بعكس القرآن الذي يُغْنِي عن كل كتاب، ولا يغني عنه كتاب.

وهذه الخصائص والمزايا بين القرآن وغيره من الكتب، هو ما عبر عنه البوصيري رَحِمَهُ اللهُ فِي لَامِيَتِهِ فَقَالَ:

الله أكبر، إِنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ وَكِتَابَهُ أَقْوَى وَأَقْوَمُ قِيلاً
لا تُذَكِّرُ الْكُتُبَ السَّوَالِفَ عِنْدَهُ طَلَعَ الصَّبَاحُ، فَأُطْفِئُ الْقِنْدِيلَا

واجبنا نحو القرآن الكريم:

إذا عرفنا بعض الخصائص العظيمة والمزايا الفريدة لهذا القرآن الكريم، فما واجبنا نحو القرآن؟

١ - أن نؤمن أن القرآن كلام الله خالصاً، من ألفه إلى يائه، ليس لجبريل منه إلا النقل، ولا لمحمد منه إلا التلقي والحفظ، ثم التبليغ والبيان، لم يحرف أو يصحف ولم يَضَعْ منه حرف واحد^(١).

٢ - أن نُحِبَّ القرآن ونعظمه ونحترمه؛ لأنَّه كلامُ الخالق وَجَلَّ، فهو أحسنُ الحديث، وأصدقُ الكلام وأفضلُه.

٣ - أن نداوم على تلاوته وقراءته وتعاهد ما حفظناه منه، ثم الاستزادة من هذا الحفظ.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَبُورَ * لِيُؤْفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

(١) وقد اعترف المستشرقون المتخصصون في دراسة القرآن وتاريخه، أمثال (نولدكه) بأن المصحف الذي كتب في عهد عثمان وبأمره، ووزعه إلى المسلمين في البلاد المختلفة: مصحف كامل تمام الكمال، ولا يستطيع متكلف أن يدعي أن فيه خللاً بوجه من الوجوه. انظر: تاريخ القرآن لتيودور نولدكه ص ٣٢١، ٣٢٢، ترجمة جورج تامر، نشر مؤسسة كونراد - أدناور، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤م.

وقد مدح القرآن طائفة من أهل الكتاب بأنهم: ﴿يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

فإذا كانوا ممدوحين مأجورين بتلاوة آيات الكتب التي أنزلها الله قبل القرآن، فما بالكم بتلاوة أعظم كتب الله، وهو القرآن؟! هذا إذا لم يكن المراد بآيات الله القرآن ذاته، وهو دليل على أنهم آمنوا به.

وقال عن جماعة أخرى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ۖ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١].

٤ - أن نتدبر آياته، وأن نتفكر في مواعظه وقصصه وأمثاله. وقد بين لنا منزل القرآن سبحانه أنه لم ينزله إلا لتدبر آياته، وتفهيم معانيه. يقول ﷻ يخاطب رسوله: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

ويقول في معرض الحضر والتحريض: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

٥ - أن نحسن التعامل مع القرآن اتباعاً له، وعملاً به، وحكماً بشريعته، ودعوة إلى هدايته. فهو منهاج لحياة الفرد والأسرة، والمجتمع والأمة، ودستور لسياسة الحكم، ودستور للدعوة إلى الله تعالى.

فعلى صاحب القرآن: أن يكون مرآة يرى الناس فيها عقائد القرآن وقيمه وآدابه وأخلاقه، وأن يتلو القرآن فتصدقه آياته، ولا يتلو القرآن فتلعنه آياته.

وأهم ما يجب أن نتحلى به هو: أخلاق المؤمنين، التي جلاها القرآن، ولا سيما في أوائل سور الأنفال، والمؤمنين، وأواسط الرعد



والذاريات، وأواخر الفرقان والحجرات وغيرها، والتي تمثّلت في الخلق النبوي، حتى كان خُلُقُه ﷺ القرآن، كما وصفته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما سُئِلت عن خُلُقِ النبي ﷺ فقالت: كان خُلُقُه القرآن^(١). فسيرة الرسول ﷺ وهديّه هما التطبيق العملي لأحكام القرآن وشرائعه، فيجب علينا الاقتداء برسول الله ﷺ؛ لأنه القدوة الحسنة لكل واحد منّا.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

* * *



(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦)، وأحمد (٢٤٦٠١).



الركن الرابع: الإيمان بالرسول عليهم الصلاة والسلام

(١)

تعريف الرسل وصفاتهم

تعريف الرسول والنبى:

الرسول في اللغة: مشتق من الإرسال، وهو التوجيه. فالرسول الذي يتابع أخبار الذي بعثه، أخذًا من قولهم: جاءت الإبل رَسَلًا. أي: متتابعة، وسُمِّي الرسول رسولاً لأنه ذو رسالة. والرسول: اسم من أرسلت، وكذلك الرسالة. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]^(١).

والنبي: فعيل من النبأ مهموزًا، وأصله النبيء ترك الهمز تخفيفًا، وهو بمعنى مُفْعِلٍ ومُفْعَلٍ فهو مُنْبِئٌ ومُنْبَأٌ، مُنْبِئٌ أي: مخبر عن الله، ومُنْبَأٌ أي: مُخْبِرٌ من الله، قال تعالى: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحریم: ٣]، وقال: ﴿نَبِئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]، فالنبي هو الذي يُخَبِّرُ من الله، وهو الذي يُخَبِّرُ الناس أي:

(١) انظر: لسان العرب مادة (ر. س. ل)، وشرح سنن ابن ماجه لمغلطاي ص ١١٠٧، ١١٠٨، تحقيق

كامل عويضة، نشر مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

يبلغهم أمر الله ونهيه ووحيه، وقد يكون لفظ (النبي) من النبؤ غير مهموز، وهو الرفعة والمكانة^(١).

تعريف الرسول اصطلاحاً:

والرسول في الاصطلاح: هو رجلٌ اصطفاه الله من البشر، واختصّه بالوحي، وأمره بتبليغه.

وهذا التعريف يشمل الأنبياء أيضاً، لأن لفظي النبي والرسول إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.

وقد تضمن هذا التعريف خمسة أمور، يحسنُ بنا أن نتكلم عنها بإيجاز:

١ - الرُّسُولُ بَشَرٌ:

أرسل الله سبحانه رسله صلوات الله وسلامه عليهم إلى الناس بشراً من جنسهم.

والأنبياء ليسوا في نظر القرآن آلهة، ولا أنصاف آلهة، ولا أبناء آلهة، إنهم بشر مثلنا، من الله عليهم بنعمة الوحي؛ ليلغوا رسالة الله للناس: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كُنَّا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١].

(١) انظر في اشتقاق كلمة (النبي): التفسير البسيط للواحيدي (٢/٦٠٠، ٦٠٦) تفسير الآية (٦١) من

سورة البقرة، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط ١، ١٤٣٠هـ، وانظر: لسان

العرب مادة (ن. ب. أ) و(ن. ب. و).

وهم تجري عليهم الأعراضُ البشريَّةُ التي لا تنقُصُ من مراتبهم العليَّة، فهم يأكلون ويشربون، وينامون ويمرضون.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

والحكمة في بشريَّتهم: ليكون الناس أقدر على الفهم عنهم، والأنس بهم، والافتداء بسلوكهم.

ولو كانوا من غير جنسهم - كالملائكة - لشعروا بفاصلٍ بين الرسل وبينهم، ولم يتمكّنوا من اتّباعهم والافتداء بهم.

وقد استبعد المشركون أن يكون الرسل بشرًا، وقالوا منذ عهد نوح: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وقالوا في عهد سيدنا محمد ﷺ: ﴿أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

ولهذا ردّ القرآن على المُجادلين الذين طلبوا أن يكون الرسول ملكًا من الملائكة بقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

وأخبر سبحانه أنه لو كان على ظهر الأرض ملائكة لأرسل إليهم ملكًا منهم، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥].

ولقد أكّد القرآن بشريَّة محمد ﷺ في غير موضع، وأمره الله أن يبلغ ذلك للناس في أكثر من سورة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠]، ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]، فهو بشر مثل سائر الناس، لا يمتاز إلا بالوحي والرسالة.

٢ - الرَّسُولُ رَجُلٌ:

لم تجرِ سُنَّةُ اللَّهِ في خلقه أن يرسل إلى الناس امرأة؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧]. والاستثناء بعد النفي يدل على الحصر كما قال أهل اللغة.

وهو قول جمهور أهل العلم - وهو ما أرجحه - خلافاً للقرطبي وابن حزم وأبي الحسن الأشعري، فقد قالوا بنبوة بعض النساء كأم موسى ومريم بنت عمران وغيرهما، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، وقوله في مريم: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَمْرُؤُا اقْنِي لِلرَّبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣].

أما قوله تعالى عن أم موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]. فلا يدل على نبوة أم موسى، فليس كل من أوحى الله إليه شيئاً يكون نبياً، فالوحي في اللغة: هو الإعلام السريع الخفي. ويطلق الوحي على الإلهام الفطري للإنسان، وهو المقصود في الآية هنا.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامِنًا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]. والحواريون ليسوا أنبياء باتفاق، وإنما ألهمهم الله بما أَرَادَهُ مِنْهُمْ كَمَا أَلْهَمَ أُمَّ مُوسَى.

ويطلق الوحي أيضًا على الإلهام الغريزي للحيوان كالوحي إلى النحل، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨].

ومريم عليها السلام امرأة صالحة من خير نساء العالمين، وقد نزل جبريل عليه السلام على السيدة مريم يبشّرها ويثبتها، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَمًا زَكِيًّا * [مريم: ١٧ - ١٩].

ولا يلزم من ذلك أيضًا نبوتها، لأنه ليس كل من كلمه جبريل أو خاطبته الملائكة يعدّ نبياً، فقد كلمت الملائكة غير الأنبياء، ففي الحديث الذي رواه مسلم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مدرجته ملكاً، فلما أتى عليه، قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تربُّها؟ قال: لا، غير أنني أحببته في الله ﷻ. قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحَبَّك كما أحَبَّته فيه ^(١).

وكذلك إرسال الله المَلَك إلى كلٍّ من الأعمى والأبرص والأقرع في الحديث المشهور ^(٢).

والحق أن اختصاص الرجال بالنبوة كان أمراً معروفاً عند العرب، حتى قال قيس بن عاصم في سجاح المتنبئة:

أضحت نبيّتنا أنثى نُطيف بها وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا
فلعنة الله والأقوام كلهمو على سجاح ومن بالإفك أغرانا ^(٣)

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٧)، وأحمد (٩٢٩١)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦٤)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٤)، عن أبي هريرة.

(٣) الأغاني للأصبهاني (٣١٢/١٤)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ.

وقد وصف الله ﷻ مريم بالصدّيقية، ولم يصفها بالنبوة، فقال سبحانه: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]، ولو كانت نبية لجاء وصفها بذلك بعد وصف ابنها ﷺ بأنه رسول؛ فمرتبة النبوة أعظم وأرفع من مرتبة الصدّيقية.

هل يُنبأ الأنبياء قبل سنّ الأربعين؟

وبعد أن قررنا أنه يلزم أن يكون النبي رجلاً، بقي هنا أن نجيب عن سؤال: هل للنبوة سن معين، لا يُنبأ الإنسان قبله؟

يقول العلماء: الأنبياء لا يُنبّون إلا في سنّ الأربعين. ولكن هذا في الغالب، ليس دائماً، لأن قوم إبراهيم قالوا: ﴿سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠]. ومعنى (الفتى): صغير السن. وقال الله في شأن سيّدنا يحيى بن زكريا: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [المريم: ١٢]. والحكم هو النبوة. وسيّدنا عيسى ما زاد عمره عن ثلاث وثلاثين سنة.

٣ - الرسالة اصطفاء:

الرسالة منحة إلهية يختص بها من يشاء من عباده، فضلاً منه ونعمة. وليست الرسالة درجة علمية يمكن الحصول عليها بالاجتهاد أو التعبّد أو التعلّم.. وإنما هي اصطفاء واختيار للرسل من بين سائر الناس.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].



٤ - الرسولُ يُوحَى إليه:

إِنَّ أَخْصَّ مَا يُمَيِّزُ الرَّسُولَ عَنْ سَائِرِ الْبَشَرِ: أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَالرَّسُولُ لَا يَصْدُرُ فِيهِمَا يُبَلِّغُهُ إِلَى النَّاسِ عَنْ نَفْسِهِ وَرَأْيِهِ، وَإِنَّمَا يَتَلَقَّى ذَلِكَ بِوَحْيٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخَاطَبًا رَسُولَهُ ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

معنى الوحي:

الوحي لغة: الإعلام في سرعةٍ وخفاء. واصطلاحًا: إعلامٌ من الله لنبِيِّه بطريقة غير معتادة لدى البشر، تفيدُ الرسولَ العلمَ اليقينيَّ القاطعَ بما أعلمه الله به.

طُرُقُ الْوَحْيِ:

إِنَّ الْبَشَرَ يُحْصِلُونَ عِلْمَهُمْ بِطَرِيقِ الْحَوَاسِّ أَوِ الْعَقْلِ، أَمَا عِلْمُ الْأَنْبِيَاءِ فَهُوَ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، وَطُرُقُ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ تَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ، ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١].

النوع الأول: أَنْ يُلْقِيَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ الْمَعْنَى فِي قَلْبِ النَّبِيِّ مُبَاشَرَةً. وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١].

وَيَكُونُ ذَلِكَ فِي الْيَقِظَةِ وَالْمَنَامِ، وَلَهُ صُورٌ عِدَّة:

أ - إلقاءُ الله معنًى يُفِيضُهُ عَلَى قَلْبِ رَسُولِهِ فِي حَالَةِ الْيَقِظَةِ، يَسْتَقِنُ مَعَهُ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، بَحِثٌ لَا يَجِدُ فِيهِ شَكًّا، وَلَا يَسْتَطِيعُ لَهُ دَفْعًا، وَيُسَمَّى هَذَا النَّوعُ مِنَ الْوَحْيِ: (التَّنْفُثُ فِي الرُّوْعِ)، وَالرُّوْعُ: الْقَلْبُ.

وفي الحديث: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي: أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»^(١).

وَرُوحُ الْقُدُسِ: جبريل عليه السلام. ونفث في رُوعي: أي ألقى الوحي في قلبي.

(ب) ومنها ما يكون رؤيا صادقة في النوم: ومن ذلك رؤيا إبراهيم عليه السلام، وأمر الله إياه بذبح ولده. قال تعالى: ﴿كَأَلَيْسَ إِنَّيَأَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وفي صحيح البخاري، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ: الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ^(٢).

النوع الثاني: ما يكون مكالمة بين الله تعالى وبين رُسُلِهِ، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

النوع الثالث: ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١]. وذلك أشهر أنواع الوحي، ويُسمّيه العلماء: الوحي الجليّ. ووحى القرآن كلّهُ من هذا النوع.

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٤٧٣)، والحاكم في البيوع (٤/٢) شاهداً لحديث جابر، والبيهقي في الشعب (٩٩٨٩)، وقال الحافظ في المطالب العالية (٩٢٧): فيه انقطاع. وكذا قال البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٢٧٢٢)، عن ابن مسعود.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٩٥٣)، ومسلم في الإيمان (١٦٠).

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * مَلِيسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

٥ - الرسولُ مأمورٌ بالتبليغ:

الرسول ﷺ يُبلِّغ كل ما أوحاه الله تعالى إليه، ولو كان عتاباً لشخصه، شاقاً ثقیلاً على نفسه، ويستحيل عليه أن يكتم شيئاً ممَّا أمره الله بتبليغه. قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى عن رُسُلِهِ: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

الفرق بين النبي والرسول:

اختلف العلماء في التفريق بين معنى النبي والرسول، على أقوال: فرأى بعضهم أنهما سواء، فالنبيُّ والرسول لفظان لمعنى واحد، ورأى البعض: أنهما مفترقان من وجه، ويجتمعان من وجه، كما قال القاضي عياض: «والصحيح والذي عليه الجماء الغفير أن كلَّ رسول نبِّي، وليس كلُّ نبِّي رسولاً»^(١).

(١) الشفا في التعريف بحقوق المصطفى للقاضي عياض (٢٥١/١)، نشر دار الفكر، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م. وانظر: تفسير القرطبي (٨٠/١٢).

والجماء الغفير: جماعة الناس. انظر: مختار الصحاح مادة (ج. م. م). وقال أيضاً: وقولهم: جاؤوا جماءً غفيراً والجماء الغفير، أي جاؤوا بجماعتهم الشريفة والوضيع ولم يتخلف أحد وكانت فيهم كثرة. مادة (غ. ف. ر).

وقد اشتهر بين عوام المسلمين قول من قال: إِنَّ الرُّسُولَ هُوَ مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرَعٍ وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ، وَالنَّبِيُّ مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ وَلَمْ يُؤْمَرْ بِالْبَلَاغِ. والراجح أنه لا اختلاف في وجوب التبليغ بين الأنبياء والرُّسل، وذلك للأدلة التالية:

١ - قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢].

فهذا نصٌّ على أَنَّ الله أَرْسَلَ الرُّسُلَ كَمَا أَرْسَلَ الْأَنْبِيَاءَ، فَقَدْ عَطَفَ النَّبِيَّ عَلَى الرُّسُولِ، وَالْإِرْسَالُ يَقْتَضِي التَّبْلِيغَ.

٢ - أَنَّ كِتْمَانَ الْعِلْمِ الْمُوَحَى بِهِ مِنَ اللَّهِ هُوَ كِتْمَانٌ لِلْعِلْمِ الْمَحْرَمِ شَرْعًا وَعَقْلًا.

٣ - قول النبي ﷺ في الحديث الذي أخرجه الشيخان، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»^(١). فهذا الحديث الصحيح يدلُّ على أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَأْمُورُونَ بِالتَّبْلِيغِ، وَإِلَّا، فَلَمْ يُطَالَبُوا بِاسْتِصْحَابِ أَتْبَاعِهِمْ؟

والراجح في الفرق بين النبي والرسول، أَنَّ الرُّسُولَ: مَنْ بُعِثَ بِشَرَعٍ جَدِيدٍ، وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ، وَالنَّبِيُّ مَنْ أُمِرَ بِالتَّبْلِيغِ، وَلَكِنْ بِشَرَعٍ مِنْ سَبْقِهِ مِنَ الرُّسُلِ، كَحَالِ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كُفِّلُوا بِتَبْلِيغِ شَرِيعَةِ مُوسَى ﷺ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٥٢)، ومسلم في الإيمان (٢٢٠)، عن ابن عباس.

والمراد بالشرع هنا، هو: التشريع الذي يحوي شيئاً جديداً، لم يكن في التشريع السابق، كما في حال عيسى عليه السلام، فقد قال الله في شأنه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [آل عمران: ٥٠].

أهم صفات الرُّسل عليهم السلام:

الرُّسل هم سفراء الله تعالى إلى الخلق لهدايتهم إلى الحق، ودعوتهم إلى الخير.

وهداية البشر مهمة عظيمة، لا يصلح لها إلا من توفرت فيهم صفات رفيعة من الكمالات الإنسانية.

وقد سبق أن ذكرتُ في تعريف الرسول أنه: رَجُلٌ اصطفاه الله من البشر، واختصّه بالوحي، وأمره بتبليغه.

وشرحتُ هذا التعريف، وبيّنتُ ما يشتمل عليه من أوصاف أساسية للرُّسل، ويضاف إلى هذه الأوصاف صفات أخرى تتعلق بأخلاقهم، وهي:

١ - الصّدق:

فالرُّسل صادقون في أقوالهم وأعمالهم، قال تعالى على لسان الكافرين حين يُبعثون من قبورهم يوم القيامة: ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢].

والرسالة لا يصلح لها كذاب، والرُّسل مُبلَّغون عن الله تعالى، وداعون إلى الحق والهدى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

فيستحيل على النبيّ الكذب، ذلك أنه ينقل وحي الله تعالى إلى الناس، فلو صدر منه الكذب لتسرّب شكّ الناس إلى الوحي الذي ينقله إليهم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

وقد كان رسولنا محمد ﷺ معروفاً بين قومه بالصدق والأمانة، قبل الرسالة، في شبابه وكهولته، شهد بذلك أنصاره وأعداؤه على السواء، فلم يستطع أحدٌ منهم أن يخدشه في شيء من ذلك أبداً، بل إنهم أقرّوا له بالصدق في موقف من أشدّ مواقف خصومتهم له، ففي حوار هرقل مع أبي سفيان بن حرب، كان ممّا سأله هرقل من الأسئلة الدقيقة المهمّة عن النبيّ ﷺ: كنتم تتهمونه على الكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال له: لا. فقال له هرقل في تعقيبه على إجابته: وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا. فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله^(١).

وفي بدء الجهر بالدعوة حينما وقف ﷺ على جبل الصفا يناديهم ليدعوهم إلى الإسلام، وقال لهم: «أرأيتم لو أخبرتكم أنّ خيلاً بالوادي تُريد أن تُغيّر عليكم أكنتم مُصدّقين؟» قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك إلا صدقاً^(٢).

ولذلك نجد القرآن في سورة مريم يصف كُلاً من إبراهيم وإسماعيل وإدريس بالصدق وبالصدقيّة، ليدلّ على أصالة تلك الصفة فيهم، قال:

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣)، عن ابن عباس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧٧٠)، ومسلم في الإيمان (٢٠٨)، عن ابن عباس.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]، وقال في شأن إسماعيل: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤]، ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦].

٢ - الفطنة:

وهي أن يكون الرسول ذكيًا، عميق الفهم، حاضر البديهة، قوي الحجة، سديد الرأي، ليس غبيًا ولا بليدًا؛ لأنَّ الرسول يُرَبِّي أُمَّتَهُ، ويُجَادِلُ خُصُومَهُ، وَيُقِيمُ البراهين على صحة ما جاء به، فلو لم يكن الرسول فطنًا لما قام بأعباء الرسالة، وتربية الأمة، ولألزمه خصومه الحجة.

وإذا نظرنا في قصص الرُّسل ومناظراتهم لأممهم، وجدنا الكثير الذي لا يُحصى من مظاهر فطنتهم، وكمال عقليهم صلوات الله وسلامه عليهم.

ومن قرأ القرآن وتدبره، وجده يعرض لمواقف الرسل في التبشير والإنذار؛ من حُسن الجدل، والقدرة على إدارة الحوار، كما قال قوم نوح له: ﴿قَالُوا يَنْوُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأِنَّا بِمَا تَعْدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

٣ - التبليغ:

لا بد لهذا الرسول الصادق الفطن أن يُبلِّغ ما أُوحي إليه من الأحكام والشرائع، وهذا مقتضى الرسالة، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

إن البلاغ عن الله تعالى هي الوظيفة التي أعد الله ﷻ الرسل لها، واصطفاهم سبحانه ليقوموا بها، ولذلك فإن الله تعالى يخاطب الأمم يوم القيامة: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

وقد ذمَّ الله تعالى أهل الكتاب الذين يكتمون شيئاً من التوراة والإنجيل، فكيف يُتصور أن يكتُم الأنبياء والمرسلون ما أمرهم الله تعالى ببلاغه إلى الناس، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

ولا يتصور أن يكتُم نبي من أنبياء الله أو رسول من رسله شيئاً أنزله الله إليه، وأمره بتبليغه، ونحن نقرأ في القرآن الكريم كيف عاتب الله تعالى نبيه ﷺ في شأن ابن أم مكتوم فقال سبحانه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [عبس: ١].

وكيف تحدث عن رسوله ﷺ في شأن أم المؤمنين زينب: ﴿وَنُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَنَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ نَخْشَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

بل كيف توعدَّ رسوله ﷺ لو حاد عن الطريق أو خالف السبيل: ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ لَا أَن تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

٤ - العِصْمَةُ:

وهي حفظ الله تعالى رُسُلَه من المعاصي والذنوب؛ ليكونوا أسوةً حسنةً للناس.

ولهذا نؤمن نحن المسلمين بعقيدة (عصمة الأنبياء) من الخطايا والردائل التي تنافي تكليفهم هداية البشر، وتنفر الناس منهم، وتجعلهم عرضة للانتقاد: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤]. ولا سيما الكبائر، التي تنسبها إليهم أسفار التوراة، فهذا يسكر، وهذا يزني، وهذا يطمع في امرأة جاره، ويحتال عليه حتى يُقتل في المعركة، ويحظى بزوجه من بعده!!

ومعنى العصمة: أنهم لا يتركون واجباً، ولا يفعلون مُحَرَّمًا، ولا يقتربون ما يتنافى مع الخلق الكريم، ولا مع واجبهم في أداء الرسالة على أكمل وجه، فأفعالهم وأقوالهم وأحوالهم دائرة بين الواجب والمندوب، وهم قبل النبوة معصومون عن كل ما ينفر عنهم، فهم معصومون عن الكبائر وعن المنفرات.

ورسل الله صلوات الله وسلامه عليهم معصومون في تبليغ الوحي عن الكذب والنسيان والغفلة، ومعصومون عن الزيادة فيه أو إخفاء بعضه، قال تعالى عن خاتم أنبيائه ورسله ﷺ: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤]، وقال: ﴿ سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ ﴾ [الأعلى: ٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْءَانُهُ ۖ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ۖ ﴾ [القيامة: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ۖ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۖ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۖ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]، وقال: ﴿ يَتَأْتِيَهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۖ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ۗ وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقد رأينا القرآن يعاتب الرسول ﷺ، وهو المبلّغ عن الله ما أوحى إليه من ربه، ولم يمنعه ذلك أن يتلو على الناس هذه الآيات، مثل قوله تعالى في الإذن للمنافقين: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

وقوله تعالى في قصة أسرى بدر: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وقوله سبحانه في قصة زينب وزوجها زيد بن حارثة: ﴿وَنُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَنَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ نَخْشَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وقوله جل شأنه: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْنِغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحریم: ١]. ونحو ذلك من الآيات. وقد قال أنس رضي الله عنه: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتّم هذه^(١). يعني قوله تعالى في شأن قصة طلاق زينب بنت جحش: ﴿وَنُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَنَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ نَخْشَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وهم معصومون أيضاً من الوقوع في كبائر الذنوب، وعن الصغائر التي تدل على خساسة الطبع، صيانة لعلو مكانتهم.

وقد نفى الله تعالى عن أنبيائه الغلول، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغْلَ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١].

ورسل الله وأنبياءه معصومون أن يدعوا الناس إلى أن يعبدوهم من دون الله، بل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى:

(١) رواه البخاري في التوحيد (٧٤٢٠)، عن أنس، وروى مثله مسلم في الإيمان (١٧٧)، عن عائشة.

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

ويعرض لنا القرآن هذا الحوار الذي سيكون يوم القيامة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

وأما صغائر الذنوب التي لا تدلُّ على خسارة قدر، وضِعة منزلة، فمذهب السلف جواز وقوعها من الأنبياء، إلا أن الله لا يُقرُّهم عليها، بل سرعان ما ينزل الوحي مُصحِّحًا وهاديًا، وقد ذكر الله لنا بعضًا ممَّا وقع من أنبيائه، مما عاتبهم عليه وأرشدهم فيه، من ذلك:

قوله تعالى عن آدم: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ﴿ثُمَّ أَجْبَنَهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢]. وهذا دليل على وقوع المعصية من آدم، وعدم إقراره عليها، مع توبته إلى الله منها.

وقوله تعالى عن موسى: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٥، ١٦]. فموسى اعترف بذنبه، وطلب المغفرة من الله بعد قتله القبطي، وقد غفر الله له ذنبه.

وقال تعالى عن داود عليه السلام: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٤، ٢٥]. وكانت معصية داود إذا

تدبرنا في تفسير الآيات في سورة (ص)، هي التسرع في الحكم قبل أن يسمع من الخصم الثاني.

ويونس عليه السلام ذهب عن قومه وتركهم مغاضباً لهم، من غير وحي من الله تعالى، فالتقمه الحوت وهو مليم، قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

وهذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يعاتبه ربه سبحانه في أمور كثيرة ذكرت في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَنَّى مَرْضَاتٍ أَرْوَجُكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحریم: ١].

وقد يذهب بعض الناس إلى تأويل مثل هذه النصوص التي تُثبت لبعض الرسل بعض الأخطاء والزلات من الكتاب والسنة الدالة على هذا ويحرّفونها.

والدافع لهم إلى هذا شبهتان:

الأولى: أننا مأمورون باتباع الرسل والافتداء هم، ويلزم من هذا أن يكون كل ما صدر عنهم محلاً للاتباع، وأن كل فعل أو اعتقاد منهم طاعة.

لكن نقول إن ما صدر عنهم صلوات الله عليهم وسلامه من صغائر الذنوب غير خاف، معروف، بينه الله تعالى ونبه عليه رسله، ثم وفقهم للمسارعة إلى التوبة من غير تأخير، فالأنبياء لا يُقرّون على ذنب، ولا يؤخّرون توبة، فالله عصمهم من ذلك.

الثانية: أن الذنوب نقص تنافي الكمال، وهذا صحيح إذا أصر عليها، لكن حال الأنبياء المسارعة إلى التوبة، كما في قصة آدم وزوجه حين أكلا من الشجرة، ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿[الأعراف: ٢٢، ٢٣].

وقال في شأن نوح: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ﴾ قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥ - ٤٧].

والعبد في كثير من الأحيان يكون بعد توبته خيرا منه قبل وقوعه في المعصية، قال تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ثُمَّ اجْنَبَهُ رَبُّهُ فَأَنَّ عَلَيْهِ وَهْدَى ﴿[طه: ١٢١، ١٢٢].

وقال تعالى لنبه في شأن يونس: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ لَوْلَا أَنْ تَدْرَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿فَاجْنَبَهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: ٤٨ - ٥٠].

وقال في شأن داود: ﴿وَوَظَنَ دَاوُدُ أَنَّهَا فَتْنَةٌ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٤، ٢٥].

وقد نُقل عن بعض السلف: كان داود عليه السلام بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة. وقال آخر: لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنوب أكرم الخلق عليه.

وذكرت السنة نماذج أخرى، من هذه الصغائر التي ألم بها بعض الأنبياء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة، فلدغته نملة، فأمر بجهازه فأخرج من تحتها، ثم أمر ببيتها فأحرق بالنار، فأوحى الله إليه: فهلاً نملة واحدة»^(١).

وهذه العصمة التي ذكرناها في الأمور الدينية وفي التبليغ عن الله، وأما في الأمور الدنيوية التي سبيلها التجربة والممارسة، فيجوز عليهم الخطأ فيها مع تمام عقلهم، وسداد رأيهم، وقوة بصيرتهم، وكذا في الأمور الاجتهادية، التي ليس فيها نص، لكن الله يتدارك أنبياءه بنزول الوحي مصححاً.

فالرسول حين يجتهد يعمل عقله كما يعمل البشر، ويفكر كما يفكر البشر، وما دام في هذه الحالة البشرية، فلا غرو أن يقع منه الخطأ، كما يقع من سائر البشر، وإلا لم يكن هناك فرق بين الاجتهاد البشري والوحي الإلهي.

إلا أن الذي يميّز الرسل عن غيرهم: أنهم لا يُقرُّون على الخطأ، بل يصحح الله لهم، ويبين حكمه.

وإذا نظرنا إلى القرآن نجده ينسب إلى الأنبياء أشياء قالوها أو فعلوها أو حكموا بها، اجتهداً منهم، فمنهم من أصاب، ومنهم من أخطأ، ولم يُلِّم الله تعالى المخطئ على خطئه؛ لأنه وقع منه بعد تحرُّ واجتهاد منه.

وأبرز مثل لذلك قوله تعالى عن الرسولين الكريمين داود وسليمان اللذين أثنى عليهما القرآن ثناءً عاطراً، في أكثر من سورة، قال تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ۖ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا ۖ﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٣١٩)، ومسلم في السلام (٢٢٤١).

وموسى عليه السلام حين صحب الخضر وشارطه ألا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكراً، وقبل هذا الشرط، ومع هذا خالف الشرط وسأله سؤال المنكر لما رأى، حين خرق السفينة قال: ﴿أَخْرَقَهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١]، وقال حين قتل الغلام: ﴿أَقْلَتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤] إلى آخر القصة، إنما قال ما قال اجتهداً منه، وبحكم ظاهر هذه الأمور الذي يقتضي الإنكار. لولا أن الخضر فسّر له بعد ذلك لماذا فعل ما فعل، ثم قال: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ ذَلِكْ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]

ومن الأدلة البينة على ذلك: عدد من الوقائع ذكرها القرآن الكريم، عاتب فيها الله تبارك وتعالى نبيه ومصطفاه محمداً صلى الله عليه وسلم.

من هذه الوقائع: موقفه صلى الله عليه وسلم من ابن أم مكتوم، المسلم الأعمى، الذي شغل عنه الرسول الكريم، بلقاء كبار قريش، عسى الله أن يشرح صدورهم للإسلام، فعني بهم، وشغل وتلهّى عن هذا الرجل الأعمى، حيث وكله إلى إيمانه، اجتهداً منه، ولكن الله تعالى غار له، وأنزل فيه قرآناً يتلى، ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَزَكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنْ أَسْتَغْنَى * فَانْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَانْتَ عَنْهُ تُلَهَّى﴾ [عبس: ١ - ١٠].

ومن ذلك: قبوله أعداء المنافقين المنسحبين من عبء الجهاد في غزوة تبوك (غزوة العسرة)، دون أن يتبين حقيقة موقفهم. قال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

قد ثبت اجتهاده في قضايا كثيرة، ذكرها العلماء، بعضها ثبت بصريح القرآن الكريم. وبعضها ثبت بالحديث الصحيح عنه ﷺ، بعضها في أمور الدنيا المحضة، وبعضها في أمور الدين والتشريع.

فأما ما اجتهد فيه وأخطأ في أمور الدنيا، فأشهر مثال له: قضية تأبير النخل في المدينة، حين رآهم يلقحون النخل كما هي عادة أهلها، فسألهم عن ذلك، فأجابوه بما عرفوه من عاداتهم، فقال: «ما أظنه يصلح». ولم يكن ذلك بوحى من الله، بل اجتهداً منه بحكم خبرته البشرية، وقد نشأ بوادي غير ذي زرع، فلا معرفة له بهذه الأمور، ولكن الأنصار ظنوه وحيًا، فتركوا التأبير، فلم يثمر النخل في ذلك الموسم ثمرها المعتاد، ورآها النبي ﷺ، فأنكرها، فسألهم عما أصابها، فأخبروه بأنهم أنفذوا مشورته حين قال لهم ما قال، فقال ﷺ: «إنما ظننتُ ظنًا، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن ما حدثكم عن الله، فلن أكذب على الله. أنتم أعلم بأمر دنياكم»^(١).

ومن تلك الوقائع والمواقف: موقفه ﷺ من أسرى بدر، وقد استشار فيهم أصحابه فاختلفوا عليه، وأخذ برأي أبي بكر ومن وافقه، ونزلت الآيات في سورة الأنفال تعاتبهم على ذلك: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُخْرَجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

ومن ذلك ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها، عن جُدّامة بنت وهب الأسدية أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقد هممت أن أنهي عن نكاح

(١) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٣)، عن عائشة وأنس.

الغيلة، حتى ذكرت أن الروم وفارس يصنعون ذلك فلا يضر أولادهم»^(١).
والغيلة هي وطء الموضع.

قال العلماء: وسبب همه ﷺ بالنهي عنها خوف الضرر على الولد الرضيع. وكانوا يقولون: إن الأطباء ترى هذا اللبن داء، إذا شربه الولد ضوياً واعتلّ. فلذا كانت العرب تكرهه وتتقيه بقدر الطاقة.

والنووي يعلق على هذا الحديث بقوله: وفي الحديث جواز اجتهاده ﷺ، وبه قال جمهور أهل الأصول^(٢).

ومن ذلك قوله في حجة الوداع: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي»^(٣).

وقد ألف الشيخ عبد الجليل عيسى كتابه: (اجتهاد نبي الإسلام محمد بن عبد الله ﷺ) جمع فيه من الوقائع التي اجتهد النبي ﷺ ثم تراجع عن اجتهاده أو نزل الوحي مصححاً.

٥ - مكارم الأخلاق:

الرُّسُلُ يَتَّصِفُونَ بِأَرْفَعِ الْكَمَالَاتِ الْإِنْسَانِيَةِ، وَيَتَحَلَّلُونَ بِأَسْمَى الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ: كَالْكَرَمِ، وَالْعَدْلِ، وَالشَّجَاعَةِ، وَالصَّبْرِ، وَالْعِفَّةِ، وَالْأَمَانَةِ، وَالْحِلْمِ، وَالْحَيَاءِ، وَسَائِرِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَلِذَا فَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّنَا الْكَرِيمِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

(١) رواه مسلم في النكاح (١٤٤٢)، وأبو داود (٣٨٨٢)، والترمذي (٢٠٧٧)، كلاهما في الطب.

(٢) شرح النووي على مسلم (١٦/١٠)، (١٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٧٨٥)، ومسلم (١٢١٦)، كلاهما في الحج، عن جابر بن

عبد الله.

فالرسالة لا يصلح لها بخيلٌ، ولا جبانٌ، ولا عاصٍ، ولا خائنٌ، ولا حقودٌ، ولا حسودٌ، وإنما يصلح لها مَنْ اتَّصف بكرم النفس وطهارتها، وتحلَّى بالأخلاق الفاضلة.

وإنَّما خصَّ الله رُسُلَهُ بهذه الصِّفات ليصحَّ الاقتداءُ بهم، ولو لم يكونوا مُتميِّزين بهذه الفضائل، معصومين من النقائص، لما كانوا أهلاً لاختصاص الله إياهم بوحيه، ولضعفت ثقة الناس بهم، ولضاعت الحكمة من إرسالهم.

وقد ذكر القرآن طرفاً من هذه الأخلاق الكريمة، فقال عن نوح: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

وعن إبراهيم: ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧].

وعن إسماعيل: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤].

وعن يوسف: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وعن موسى على لسان ابنة الشيخ الكبير: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وعن داود: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

وعن سليمان: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

وعن يحيى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤].

وعن المسيح: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢].

وعن إسماعيل وإدريس وذی الكفل قال: ﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾

[الأنبياء: ٨٥].

وعن أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

وقال على لسان كل من نوح وهود وصالح ولوط وشعيب: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٧، ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨].

ثم قال عن خاتم رسله محمد: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

٦ - الكمال في الخلقة الظاهرة، والسلامة من الأمراض المنفردة:

وكما يجب الإيمان بصدق الرسل وأمانتهم، وتبليغهم وفطانتهم وعصمتهم، فكذا يجب الإيمان بكمال خلقتهم، فهم يتميزون بسلامة أبدانهم مما تنفر منه الطباع السليمة، فلا يمرضون مرضاً منفراً، أو مُقْعِداً عن تبليغ رسالاتهم، كالجُدري والجُذام والبرص والصَّرَع.. ونحو ذلك، أما الأمراض التي لا تُنفّر الناس منهم كالصُّدَاع والحُمَّى؛ فإنها قد تصيبهم؛ لأنها لا تمنعهم من أداء رسالتهم، وقد كان النبي ﷺ يمرض، وتصدع رأسه، ومن ذلك ما رواه ابن مسعود: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك وبعكاً شديداً، فمسستُه بيدي، وقلت: يا رسول الله، إنك توعك وبعكاً شديداً. فقال رسول الله ﷺ: «أجل، كما يوعك رجلان منكم»^(١).

وما يُحكى عن سيدنا أيوب عليه السلام من أنه اشتدَّ به المرض، وصار الدود يخرج من بدنه، كذبٌ وافتراء، وتشويهاتٍ إسرائيليةٍ يتنزّه منصبُ النبوة عنها.

الفرق بين الرسل وبين المصلحين والزعماء:

هناك فارق أساسي بين الرسل وبين المصلحين والزعماء، يتجلّى ذلك في أمرين رئيسين:

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المرضى (٥٦٦٠)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٧١).

الأمر الأول: المصدر الذي يتلقى منه الرسل دعوتهم هو الوحي الإلهي، والرسالة السماوية التي أكرمهم الله بها، واصطفاهم من بين خلقه لتبليغها، فليست دعواتهم ناشئة من تأثرهم بأوضاع معينة، أو نابعة من ذكاء خاص، أو تجربة واسعة، أو غير واسعة، مما تنشأ عنه دعوات الزعماء والمصلحين، وليست رسالتهم رد فعل لما يجيش في مجتمعهم من فوضى أو ظلم أو فساد، ولكنها قدرٌ إلهي، ورحمة من الله، يريد أن يغيّر بها أوضاعاً خاطئة، وأنظمة فاسدة، ويقوم بها ما اعوجّ من أمور الحياة، ويفتح بها آذاناً صمّاً، وأعيناً عمياً، وقلوباً غُلْفًا.

وبعبارة أخرى: ليست الرسالة أمراً يكتسبه الرسول نتيجة لتربية معينة، أو رياضة روحية خاصة، أو لقراءات ودراسات عميقة، ولكنها منحة إلهية، وهبة ربانية، يهبها الله لمن يشاء من عباده: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ * يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿[آل عمران: ٧٣، ٧٤].

الأمر الثاني: المنهج الذي يطبقه الرسول منهج ربّاني ثابت، لا يخضع لمؤثرات بشرية أو بيئية أو عوامل سياسية، أو اجتماعية أو اقتصادية أو غيرها.

يقول الله تعالى لنبيه: ﴿وكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ * صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿[الشورى: ٥٢، ٥٣].

فالرسول مأمورٌ من الله بتنفيذ منهج معيّن، ودعوة الناس إليه، هذا المنهج الثابت منهج الله لا غيره، وهو الصراط المستقيم، صراط الله

الذي له ما في السماوات وما في الأرض، ومن هنا لا يملك الرسول أن يغير أو يبدل في رسالته شيئاً، أو يخفي منها شيئاً، أو يتنازل عن شيء من دعوته، أو يحوّر فيها مهما كانت الأوضاع، ومهما كانت العروض والمغريات. قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥].

وقد وصف الله نبيه بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

فالرسول لا يخضع لعوامل نفسية، أو مؤثرات بيئية أو خارجية، أو حوادث وقتية، فيكيف رسالته حسب هذه العوامل والمؤثرات والحوادث، أو يساوم عليها شأن بعض المصلحين والزعماء الذين يتصرّفون بوحى من أنفسهم، ومن المؤثرات والعوامل المختلفة من حولهم، كلا إنما الرسول محكوم بوحى السماء الذي يرسم له الطريق، ويضع له المنهج، الذي لا يحيد عنه قيد شعرة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ۖ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۖ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۖ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

وطريق الرسل هو الطريق الربّاني الذي أراده الله، وهو طريق التوحيد وإصلاح العقيدة؛ لأنه يعلم أنه هو الطريق الوحيد الأمثل الذي تتحقق به مصالح العباد، ويضمنون بالسّير عليه سعادتهم في المعاش والمعاد.

وقد ساوم المشركون رسول الله ﷺ، وعرضوا عليه أقصى ما يطمع إليه زعيم من صنوف الجاه والسيادة والشرف والثراء، ليتخلى عن عقيدة التوحيد، فرفض ذلك رفضاً قاطعاً، وقال قولته الخالدة التي ما زال

التاريخ يرددها: «والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر؛ ما تركته، حتى يُظهره الله أو أهلك دونه»^(١).

أما الذي يدفع الزعماء والمصلحين للقيام بدعوتهم، فهو طبيعة بيئتهم، وتآلمهم من وضع سيئ انحدرت إليه أممهم، فهم يخرجون على الناس بدعوات ناشئة من أوضاع مجتمعهم، وهم يطوِّرون في دعواتهم، ويغيِّرون فيها على حسب مقتضيات الأحوال واختلاف المناسبات، ويستعملون حيلتهم ودهاءهم في تطويع الجماهير لهم، وتملُّقهم ليتَّبِعُوهم ويسيروا وراءهم.

وفي سبيل ذلك قد يتنازلون عن كثير من أصول دعوتهم، أو يضيفون إليها ما يتجاوب مع تطورات العصر، حتى لتجد المصلح أو الزعيم بعد فترة من الوقت، قد أصبح غريباً أو مقطوعاً عن أصول دعوته الأولى.

* * *

(١) رواه الطبري في تاريخه (٣٢٦/٢)، وضعفه الألباني في الضعيفة (٩٠٩)، عن يعقوب بن عتبة بن الأخنس، مع شهرته عند الناس.

(٢)

وجوب الإيمان بالرسول عليهم الصلاة والسلام

الرسول: هم صفوة الخلق، وهداة البشر إلى الحق، والواسطة بين الله وعباده في تبليغ رسالاته ودينه.

والإيمان بالنبوة والرسالة يتضمّن في حناياه معاني عديدة:

١ - فمعناه الإيمان بحكمة الله البالغة، ورحمته الواسعة، فحكمة الحكيم، ورحمة الرحيم، هما اللتان اقتضتا ألا يترك الناس سدى، وألا يُعذبوا قبل البلاغ والتبشير والإنذار، وألا يُترَكُوا وأهواءهم دون حكم يرجعون إليه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

٢ - ومعناه الإيمان بوحدة الدين عند الله، وأن دين الله في جميع الأماكن والأزمان واحد لا يتغيّر، وإن تغيّرت المناهج والشرائع باختلاف الأعمار: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

ويُصوّر رسول الإسلام موقفه من الأنبياء قبله: أنه ليس إلا اللبنة الأخيرة، في هذا الصرح الكبير، فيقول: «مثلي ومثل الأنبياء قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه،

فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وُضعت هذه اللبنة. فأنا تلك اللبنة، وأنا خاتم النبيين»^(١).

٣ - ومعناه الإيمان بمُثل عليا إنسانية واقعية، وقدوات بشرية ممتازة، استطاعت أن تجعل من مكارم الأخلاق، وصوالح الأعمال، وفضائل النفوس؛ حقائق واقعة، وشخصاً مرئية للناس، لا مجرد أفكار في بعض الرؤوس، أو أمانٍ في بعض النفوس، أو نظريات في الكتب والقراطيس. وجمهور الناس ليسوا فلاسفة يؤمنون بالمجردات، وإنما يؤمنون ويتأثرون وينفعون بما يشاهدون وما يُحسُّون، ولهذا جعل الله الرسل إلى الناس بشرًا مثلهم، لا ملائكة من غير جنسهم؛ لأن الإنسان لا يأنس إلا لمثله، ولا يقتدي إلا بمثله، ولا تقوم عليه الحجّة إلا به.

الإيمان بالرسول ركن أساسي في العقيدة:

والإيمان بالرسول جميعاً دون تفريق بينهم، وبأنهم رسل من عند الله، جاؤوا بالبيّنات والهدى، وبعثهم الله مبشرين ومنذرين؛ ركنٌ أساسيٌّ من أركان الإيمان، وجزء من العقيدة الإسلامية.

فلا يصحُّ إيمان مؤمن، ولا يدخل في دين الله، ولا يُقبل في جماعة المؤمنين، ما لم يؤمن بكل كتاب أنزل، وبكل نبيٍّ أرسل.

وهذا أمر في غاية الوضوح في كتاب الله وسنة رسوله، لا يرتاب فيه مسلم، ولا يتردد فيه عقل، ولا يتلجلج به لسان.

يقول تعالى مبيناً حقيقة البر وأركان الإيمان، ردّاً على اليهود الذين أثاروا ضجة حول تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة:

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٣٥)، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٦)، عن أبي هريرة.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال سبحانه: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. فذكر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله صراحة، وأشار إلى الإيمان باليوم الآخر بقوله: ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وفي السُّنَّة في حديث جبريل المشهور، عندما سأله عن الإيمان قال: «الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر»^(١).

فالإيمان بالرسول لا ريب فيه ولا خلاف عليه.

ولهذا ورد أن الناس يوم القيامة يُسألون سؤالين رئيسيين:

أولهما: ماذا كنتم تعبدون؟

والثاني: بماذا أجبتم المرسلين؟

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

ولقد ردَّ القرآن على المُكذِّبين، الذين استبعدوا أن يرسل الله إليهم رسولاً يبشرهم وينذرهم ويهديهم إلى صراط مستقيم.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿أَوْعِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣].

وقال عليه السلام على لسان هود عليه السلام: ﴿أَوْعِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٩].

وقال تعالى في شأن خاتم رسله محمد: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس: ٢].

فالإيمان برسول الله جميعًا: عقيدة إسلامية أساسية، ومن كذب رسولاً واحداً من رسل الله حقاً، فكأنما كذب المرسلين جميعاً.

وهذا ما يقرره القرآن حينما قال في سورة الشعراء: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوحًا الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]. وهم لم يكذبوا إلا نوحاً، ﴿كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، وهم لم يكذبوا إلا هوداً، ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١]، وهم لم يكذبوا إلا صالحاً، وكذلك قال عن قوم لوط وقوم شعيب، وإنما نسب إليهم تكذيب المرسلين؛ لأنهم كذبوا واحداً منهم، فكأنهم جحدوا مبدأ الرسالة نفسه.

فمن زعم أنه آمن بالله تعالى، ولكنه كذب رسله أو واحداً منهم، ممن ثبتت رسالته، فهو كاذبٌ في دعوى الإيمان، إذ الإيمان الحق: ما جاء على لسان الرسول الصادق المؤيد بالآيات، ومن قال: أو من بواحد أو بمجموعة، ولا أو من غيره أو بغيرهم ممن هو مثلهم أو أعلى منهم؛ فهو كاذب في دعوى إيمانه، بل القرآن يقول عن مثله: إنه الكافر حقاً.

اقرأ معي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

وهاتان الآيتان نزلتا في شأن اليهود والنصارى، فاليهود آمنوا بموسى، وكفروا بعيسى ومحمد، والنصارى آمنوا بموسى وعيسى، وكفروا بمحمد. والمسلمون وحدهم هم الذين آمنوا بالجميع، وبكل نبي أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٢].

وإنما كُلَّفَ المؤمنون بالإيمان بالرُّسل جميعاً من غير تفريق بينهم؛ لأنَّ الدين الذي أرسل الله به جميع الرسل واحدٌ في أصوله، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، وإن اختلف كل دين عن الآخر في صور العبادات والتشريعات باختلاف الأقاليم واختلاف المكان والزمان.

لكل أمة رسول:

ومن رحمة الله بعباده أنه لم يترك أمة من الأمم، ولا جيلاً من الأجيال، إلا وأرسل إليهم رسولا يدعوهم إلى الله، ويبشِّرهم وينذرهم، ويهديهم إلى ما فيه صلاحهم في دينهم ودنياهم، حتَّى تقوم الحُجَّة على العباد، وتنقطع أعدارهم.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦].

وجميع الأنبياء والرسل بلغوا بلاغًا واضحًا ظاهرًا كل ما أُرسلوا به، قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

عَدَدُ الرُّسُلِ:

أرسل الله ﷻ رسلاً إلى جميع الأمم، لا يعلم عددهم إلا الله سبحانه، وقد قصَّ القرآن الكريم علينا بعضاً منهم، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

والآيات القرآنيّة تُشير إلى أن الأنبياء والرسل أعدادهم وفيرة، ومن دلائل ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون: ٤٤]. أي: متتابعين، ودلّت الآية على أن الرسل ﷺ تتابعوا واحداً تلو الآخر، مما يدلُّ على كثرتهم.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً﴾ [النحل: ٣٦].

قال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٦]. و﴿وَكَمْ﴾ هنا خبرية، معناها الكثير، والمعنى: ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم السابقة!

وقد ورد ذكر خمسة وعشرين من الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم، وهم:

آدم أبو البشر، ونوح شيخ المرسلين، وإدريس، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل بن إبراهيم، وإسحاق بن إبراهيم، ويعقوب بن إسحاق، ويوسف بن يعقوب، وشعيب، وموسى، وهارون، وداود، وسليمان بن داود، وأيوب، ويونس، واليسع، وذو الكفل،

وإلياس، وزكريا، ويحيى بن زكريّا، وعيسى، ومحمد.. صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومن هؤلاء الخمسة والعشرين أربعة من العرب، وهم: هود، وصالح، وشعيب، ومحمد صلى الله عليهم أجمعين.

وقد وردت في بعض الأحاديث الضعيفة أعداد المرسلين، وهي أحاديث لا تقوم بها حجة، ولا ينبغي لأهل العلم والإيمان أن يشغلوا الناس، ويضيعوا أوقاتهم بها.

وقد نصّت السنة المُطَهَّرة على نبوة يوشع بن نون، ففي صحيح مسلم، وعند البخاري طَرَفٌ منه: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «غزا نبيٌّ من الأنبياء، فقال للشمس: أنت مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها عليّ شيئاً»^(١). والذي دلّ على أنّ هذا النبي هو يوشع بن نون فتى موسى قوله ﷺ: «إنّ الشمس لم تُحبس إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس»^(٢).

وقد اختلف في ثلاثة ممّن ورد ذكرهم في القرآن الكريم: هل هم أنبياء أم لا؟ وهم: ذو القرنين، وتبّع، والخضر.

فذهب طائفة من أهل العلم إلى أنّ ذا القرنين نبيٌّ من الأنبياء، وكذلك تبّع، والأولى أن يُتَوَقَّفَ في إثبات النبوة لهما، لما صحّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أدري تبّع أنبيّاً كان أم لا؟ وما أدري ذا القرنين

(١) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٤٧)، وأحمد (٨٢٣٨).

(٢) رواه أحمد (٨٣١٥)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط البخاري. والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٠٦٩)، عن أبي هريرة.

أَنْبِيَاءَ كَانَ أَمْ لَا؟»^(١). وأما الخضر، فالراجح أنه نبيٌّ، لقوله تعالى في آخر قصته: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الكهف: ٨٢]. أي: أنه قد أوحى إليه فيه.

التفاضل بين الأنبياء والرسل:

وقد أخبر القرآن الكريم أَنَّ اللَّهَ فَضَّلَ بَعْضَ الرُّسُلِ عَلَى بَعْضٍ، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

والتفضيل راجع إلى اختيار الله تعالى، بمزايا وهبها للرسول، أو لأُمَّته، أو لرسالته.

وأفضلُ الرُّسُلِ على الإطلاق هم أولو العزم، وأفضلُ أولي العزم هو رسولنا محمد ﷺ، إذ إنه جمع كل ما تفرّق في الرسل السابقين ورسالاتهم من مزايا ومحاسن وكمالات، فهو أفضل المرسلين وسيدهم، ورسالته أكمل الرسالات وأعمّها وأشملها، وأُمَّته خير أُمَّة أُخْرِجَت للناس، ودينه هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده إلى أن تقوم الساعة.

وأفضل أولي العزم بعد رسولنا محمد ﷺ، هو أبونا إبراهيم عليه السلام. واختلف في ترتيب الثلاثة الباقيين بعدهما.

أولو العزم من الرُّسُل:

العزم: القوّة في الدّين، والإمامة في الصّبر والتقوى. قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

(١) رواه الحاكم في الإيمان (٣٦/١)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وقال: لا أعلم له علة. عن أبي هريرة.

والراجح أن أولي العزم من الرسل خمسة هم: نبيُّنا محمد ﷺ، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليه السلام.

وقد خَصَّهْمُ اللهُ بالذكر في كتابه في بعض المواضع، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وفي الآيتين دليل على أن هؤلاء الخمسة هم أولو العزم؛ لأن الله تعالى ذكر الأنبياء، ثم عطف عليهم هذه المجموعة، وعطف الخاص على العام يفيد أن للخاص زيادةً في الفضل.

وخاطب الله تعالى نبيه محمداً بقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

أما سبب تسميتهم بذلك، فلما تميزوا به من الهمة العظيمة في الدعوة إلى الله، والصبر على ما نالهم من الأذى الشديد في سبيل الله، والثبات في مواجهة الباطل، والقوة في الحق.

قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]: ذوو الحزم والصبر. وقال الضحاك: ذوو الجِدِّ والصبر^(١).

وقد أثنى الله تعالى على أولي العزم من الرسل بما فيهم من جميل الخلال وعظيم الصفات، كما قال تعالى عن نبيه نوح عليه السلام:

(١) تفسير البغوي (٢٠٧/٤).

﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، وقال عن نبيه إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]، وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. والخلة هي كمال المحبة.

وقال عن نبيه موسى ﷺ: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقال عن نبيه عيسى ﷺ: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

وخاطب خاتم رسله محمداً ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

* * *



(٣)

حكمة إرسال الرسل عامة

لا غنى للإنسان عن هداية الرسل:

خلق الله الإنسان وميّزه على سائر مخلوقاته بالعقل والفهم والإدراك، ومنحه كثيرًا من المواهب والقدرات التي يتفوق بها على سائر الحيوان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقد استطاع الإنسان بما وهب من عقل وفهم أن يعرف كثيرًا من أمور الحياة، وأن يذلل كثيرًا من عقباتها، وأن يدرك أن من الأعمال ما هو نافع، ومنها ما هو ضارٌّ، أو منها ما هو حسنٌ، ومنها ما هو قبيح.

ولكن الناس مع اتفاقهم في معرفة الحسن والقبيح، يختلفون في أعمال بذاتها بحكم اختلافهم في النشأة والتربية والمزاج، وغير ذلك من العوامل التي يقعون تحت تأثيرها، فيرى بعضهم الأمر حسنًا، ويراه غيرهم قبيحًا، وكلا الفريقين يرى أنه يطلب عملًا نافعًا، وشيئًا حسنًا. على أن الحسن والقبيح أمران نسبيّان يختلفان من شخص إلى شخص، ومن بيئة إلى بيئة، بل من جيل إلى جيل، ومن عصرٍ إلى عصر، فكان من الضروري أن تكون هناك مقاييس ثابتة، وموازين مضبوطة، لتقويم الأشياء وتعريفها، ووضع مدلولات لها، ترجع إليها العقول إذا اختلفت، وتعود إليها الأفهام إذا ضلّت.

ولكن: من الذي يضع للناس هذه المقاييس الثابتة والموازن المضبوطة؟ ومن الذي يرسم للبشر قواعد الحياة الصحيحة؟



مَنْ الذي يدل الناس على طريق السعادة في الدنيا والآخرة؟
وأخيرًا: ما الذي يحمل الناس على احترام تلك القواعد والمقاييس
والموازين؟

ما الذي يجعلهم يُذعنون لها إذعائًا منبعثًا من أعماق نفوسهم يدفعهم
لتقديسها والخضوع لها، وإيثارها على سواها؟ أهو العقل؟

إنَّ العقل البشري مهما ارتقى في مدارج العلم والمعرفة، لا يستطيع
أن يُقدِّم للناس مناهج تضمن لهم السعادة الدائمة، وترسم لهم الحياة
الصحيحة المستقيمة، وتخرجهم من دروب الحيرة والقلق والاضطراب.

والعقل وحده لا يستطيع أن يستقلَّ بمعرفة ما ينفع وما يضر في كل
الحالات، ولا أن يُدرك الحَسَنَ والقبيحَ في كلِّ الأعمال، وكذلك
لا يستطيع أن يستقلَّ بمعرفة الله معرفة صحيحة كاملة، ولا معرفة الحياة
الآخرة وما فيها، فهو في أشدَّ الحاجة إلى الرُّسل الذين علَّمونه من
جهل، ويصِّرونه من عمى، ويهدونه من ضلالة.

وهناك سبب آخر يجعل حاجة الإنسان إلى الرسل أمرًا ضروريًا،
لا غناء عنه، وهو كيف يعبد الإنسان ربَّه؟ وكيف يعرف الطريق إلى
مرضاته؟ وكيف يُؤدِّي شعائر دينه؟ مَنْ الذي يرشده إلى الصلاة
وكيفيتها، وعدد ركعاتها، واختلاف هذا العدد في صلاة دون أخرى؟

مَنْ الذي يبيِّن له مقادير الزكاة في ماله ومصارفها؟

مَنْ الذي يُعلِّمه كيف يؤدِّي مناسك الحج والعمرة؟

مَنْ الذي يُعلِّمه صور هذه العبادات وغيرها، لكي يعبد الله عبادة
صحيحة، ويسلك الطريق إلى مرضاة ربه على بصيرة من أمره؟



إن العقل لا يمكنه أن يستقل بمعرفة شيء من ذلك.

فلهذه الأسباب كلّها، كان من رحمة الله تعالى بعباده، وهو الذي خلقهم ليعبدوه؛ ألا يتركهم يتيهون في بידاء مهلكة من الجهل والظلام، ويتخبّطون في أودية من الخرافات والأوهام، ولكنه اختار لهم من بين خلقه طائفة منهم، ميّزها بسلامة الفطرة، ونقاء السريرة، وصفاء النفس، وزكاء الروح، يحدثون ويبلغون عن الله ﷻ، فيهدون الناس إلى الإيمان الصحيح، ويضعون لهم قواعد العدل والإحسان، وأصول السلوك والأخلاق، ويرسمون لهم أسس الحياة الصحيحة التي تضمن لهم سعادة الدارين، ويُشرفون على عالم الغيب بإذن من الله ﷻ، يعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه، ثم يخبرونهم بما شاء الله، ويؤيّدهم الله ﷻ بالخوارق والمعجزات التي تثبت صدقهم.

ومن حكمة إرسال الرسل ﷺ:

١ - بيان حكمة الله وعدله:

وقد بيّن القرآن أن عدم إرسال الرسل يُنافي كمال الله تعالى، والقول به قول من لا يعرف الله حق معرفته، ولا يقدره حق قدره، قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

٢ - قطع المعاذير في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه: ١٣٤]، ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا ﴾ [القصص: ٥٩].

٣ - إزاحة الغفلة والإعداد للهداية:

قال تعالى: ﴿ لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس: ٦]، ﴿ لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [السجدة: ٣]. وهذا بالنسبة للعرب الأميين.

وأما بالنسبة لأهل الكتاب، فلأنهم طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، ونسيه أكثرهم، وحُرِّفت كتبهم: ﴿ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ... ﴾ [القصص: ٤٥]، ﴿ وَيُنْذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ [الكهف: ٤].

وبالنسبة للجميع: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [البقرة: ١١٩]، ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، ﴿ أَن أُنْذِرَ النَّاسَ وَبَشِّرَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: ٢].

٤ - رفع الاختلاف ورد الناس إلى أصول يتفقون عليها:

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

٥ - إقامة القسط بين الناس:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥]. فهدف الرسل والرسالات السماوية كلها

إقامة العدل بين الناس، وليس المراد إقامة التعادل والتوازن بين الناس بعضهم وبعض فقط، بل بين القيم بعضها وبعض، والفضائل بعضها وبعض، والحقوق بعضها وبعض، فلا ينبغي أن يطغى حق على واجب، ولا أن يطغى رجل على امرأة، ولا أن يطغى حاكم على محكوم، ولا أن يطغى الفرد على المجتمع، أو المجتمع على الفرد، أو تطغى المعاني الروحية على المعاني المادية، أو المادية على الروحية. إنه التوازن، إنه العدل الذي جاء به الرسل جميعاً: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٨، ٩]، لا طغيان، ولا إفساد، ولا تطفيف، لا إفراط، ولا تفريط.

٦ - الْأُسُوءَةُ الْحَسَنَةُ:

إنَّ مهمَّةَ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم هي الدعوة إلى الله، وإلى الحق والخير، وتحويل هذه الدعوة إلى عمل وسلوك وتطبيق ليقبلي الناس بهم.

قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنُهُمْ أُقْتَدَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسُوءَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

هذه أهم المهمات التي يقوم بها الرُّسُلُ ﷺ في هداية الناس إلى الحق والخير، وتحذيرهم من الباطل والشر، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الكهف: ٥٦].

(٤)

حكمة إرسال محمدٍ خاصة

١ - بالنسبة للعرب:

أ - إزاحة غفلتهم بتلاوة آيات الله عليهم، وتعليمهم الكتاب الحكيم وتزكيتهم: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿تَنْزِيلَ الْغَزِيرِ الرَّحِيمِ﴾ * لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿[يس: ٣ - ٦].

ب - قطع معاذيرهم بأنهم إنما ضلُّوا لفقدان الكتاب المنزل من الله عليهم، والنبِيِّ المرسل من الله إليهم، ولو أنزل عليهم كتاب، وبُعث إليهم رسول، كما بُعث إلى الأمم من قبلهم؛ لكانوا أهدى منهم سبيلاً، وأكثر قبولاً، وأعظم إخلاصاً، قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ * أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥ - ١٥٧]، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢].

﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾ * لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾

[الصفات: ١٦٧ - ١٦٩].

٢ - وبالنسبة لأهل الكتاب:

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ

كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ
 قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ
 اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴿ [المائدة: ١٥، ١٦].

ويقول تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ
 الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ [المائدة: ١٩].

وذلك أنَّ أهل الكتاب غيَّروا وبدَّلوا، وحرَّفوا الكلم عن مواضعه،
 تحريف لفظ وعبارة، وتحريف معنى وتأويل، وكانوا في فترة من الرسل،
 طال عليهم الأمد بالأنبياء، فقَسَتْ قلوبهم، وضلَّ سبيلهم.
 وكان قد مضى على المسيح نحو ستة قرون، وعلى غيره من أنبياء
 اليهود أكثر من ذلك.

أصول الرسالاتِ واحدة:

لقد تتابعت رسالاتُ الله إلى الأمم في مختلف الأمصار وشَتَّى
 الأعصار، ومع تباعد المكان، وطول الزمان، فإنَّ أصول هذه الرسالات
 واحدة، يُصَدِّق بعضها بعضًا، ويشهد بعضها لبعض، مما يدل على وحدة
 مصدرها، وصدق أصحابها.

وكلُّها تقوم على الدعوة إلى:

١ - الإيمان بالله وحده، وما يجبُ له سبحانه من الاتِّصافِ بكلِّ
 كمالٍ، والتَّنَزُّه عن كلِّ نقص.

٢ - الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعثٍ وحسابٍ، وثوابٍ وعقابٍ،
 وجَنَّةٍ ونارٍ.

٣ - العمل الصّالح والأخلاق الفاضلة.

وكلُّها تُحذَّرُ من:

١ - الشُّركِ بالله.

٢ - الشَّكِّ في الآخرة.

٣ - سوء العمل وفساد الأخلاق.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

وأعظم الأصول الثلاثة هو: الإيمان بالله تعالى؛ إذ هو الأساس الذي يترتب عليه سائر الأركان، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

والإيمان باليوم الآخر هو الأصل الثاني، وبه يكمل الإيمان بالله تعالى. والإيمان بالله واليوم الآخر يستلزم الإيمان بالرسول، وبقية الأركان؛ لأننا لم نعرفها إلا عن طريق الرسول ﷺ.

والأصل الثالث للرسالات هو: العمل الصّالح، وهو أثر لازم للإيمان بالله واليوم الآخر، وثمره طبعية له، فإيمان بلا عمل، كشجر بلا ثمر، وسحاب بلا مطر، ولهذا نرى آيات القرآن إذا ذكرت الإيمان ذكرت العمل الصّالح معه.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢].

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧].
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧].
 ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣].

فهذه الأمور الثلاثة هي أصول الرسالات السماوية وإن اختلفت المناهج باختلاف الأقوام واختلاف المكان والزمان.

قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. وشرعة أي: شريعة (وهي المبادئ والأسس الاعتقادية التي يستقون منها مفاهيمهم وعقائدهم). ومنهaja، أي: طريقًا واضحًا، (وهي الأحكام التفصيلية المستندة إلى المبادئ والأسس الاعتقادية).

والرسالات السابقة كانت موقوتة بزمان معين، ومحدودة بمكان معين، حتى تأذن الله للبشرية بالرسالة الشاملة العامة الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان، فأرسل بها محمدًا ﷺ، فكانت رسالته خاتمة الرسالات وأكملها.

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]^(١).

(١) إكمال الدين نعمة عظيمة أنعم الله بها على المسلمين، يدل على ذلك ما رواه البخاري في الإيمان (٤٥)، ومسلم في التفسير (٣٠١٧)، عن عمر بن الخطاب، أن رجلاً من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرأونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: أي آية؟ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]. قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزل فيه، نزلت على النبي ﷺ، وهو قائم بعرفة يوم الجمعة.

وما نراه اليوم من البؤنِ الشاسع في المعتقدات بين أتباع دياناتِ رَبَّانِيَّةٍ صحيحة الأصل، فذلك بسبب التحريف والتبديل الذي دخل إلى هذه الديانات، ولو أنَّ هذه الديانات السابقة بقيت على أصولها من غير تحريف، لالتقى مُتَّبِعُوهَا مع المسلمين التقاءً تامًّا، وَلَكَانَ أَتْبَاعُ الديانات السماوية كلهم أَتْبَاعَ دين الإسلام الذي خَتَمَ اللهُ به الرسالات، وأنزله على محمد ﷺ.

فالإسلام هو دينُ اللهِ وَحْدَهُ في الأرض، ولا دينَ للهِ سواه، ومعتنق غيره من الأديانِ كافِرٌ. قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].



(٥)

آيات الرسل

آيات النبوة هي الأدلة والبراهين على صدق الرسل فيما يدعون الناس إليه، ولأن الرسالة أمر خطير يترتب عليها صلاح البشر في معاشهم ومعادهم، كان من حق الناس أن يُطالبوا مَنْ يدّعي الرسالة بما يُثبت صدقه ويؤيد دعوته.

والبراهين على ذلك كثيرة: فحياة الرسول نفسه، وسلوكه المستقيم، وسيرته الحسنة بين قومه؛ آية على صدقه، وكونه لا يدّعي لنفسه شيئاً، ولا يسأل الناس أجراً، بل يدعو إلى الله الذي لا شريك له، دليل على صدقه.

وما يسمّيها القرآن في سوره آيات هي ما اصطلح علماء التوحيد على تسميته (المعجزات)، وهي التي نتناولها بشيء من التفصيل فيما يأتي.

تعريف المعجزة:

هي أمرٌ خارق للعادة، يُظهره الله على يد مُدّعي النبوة، على جهة التّحدي، تصديقاً له في دعواه.

شرح التعريف:

١ - معنى قولنا: (أمرٌ خارق للعادة) أن يكون خارجاً عن نطاق الأسباب المقدورة للبشر، وفوق مستوى طاقتهم، بحيث يعجزون مجتمعين أو متفرقين عن معارضتها والإتيان بمثلها.

وأنبّه هنا إلى أن الأمر الخارق للعادة غير الخارق للعقل (المستحيل عقلاً)، فليس في معجزات الرسل ما هو خارق للعقل، كما أنه ليس في أحكام الدين الحق الذي يُبلّغه الرسل ولا في أخباره ما هو خارق للعقل. وخرج بقولنا: (أمرٌ خارق للعادة) السحر والشعوذة ونحوهما، فذلك أمرٌ ممكن لكثير من البشر بالتعلّم.

٢ - وخرج بقولنا: (يُظهره الله على يد مدّعي النبوة)، ما يظهره الله على أيدي الصّالحين من أتباع الأنبياء تكريماً لهم، فهذا ما يُسمّيه العلماء (الكرامة).

فالكرامة: أمرٌ خارق للعادة، يجريه الله على أيدي الصّالحين من المؤمنين، تكريماً لهم ولا يكون فيها تحدّ لأحد.

٣ - ومعنى قولنا: (على جهة التّحدي)، أي: تتعذّر معارضتها، ولا يقدر أحدٌ عليها، ولا على ما يُقاربها.

ولذلك: فإنّ كلّ معجزة يكون لسان حالها مقروناً بالتحدي، وإن لم يُصرّح النبي بهذا التحدي، كما هو الحال في نبع الماء من بين أصابع الرسول ﷺ، وتكثير الطعام، وغير ذلك من المعجزات.

٤ - ومعنى قولنا: (تصديقاً له في دعواه)، أي: أنها تأتي موافقة لمطلوبه، لتكون دليلاً على صدقه، فكأنّ الله تعالى يقول: صدّق عبدي فيما يُبلّغ عني. ويخرج بذلك ما كان خارقاً للعادة ولكنه يأتي ضد مطلوب النبوة، فإنه في هذه الحالة تكذيبٌ له في دعواه، وذلك كما إذا قال: معجزتي أن ينطق هذا الحجر، فينطق بأنه كذاب. أو إذا تفل في بئر ليزداد ماؤها، فغار في باطن الأرض، أو مسح على رأس غلام ليشفى فصار أقرع.

وجه دلالة المعجزة على صدق الرسول:

وإنما كانت المعجزة دليلاً على صدق الرسول؛ لأنه لا يستطيع أن يأتي بها من عند نفسه، وإنما هي من عند الخالق العظيم الذي أرسله، فإن إظهار الله لهذا الخارق على يده عند تحدّيه لقومه يُعدُّ تأييداً من الله له، وإثباتاً لرسالته، وتأكيداً لصدقه.

وجوب الإيمان بالمعجزات:

- ١ - يجب على المؤمن الإيمان بمعجزات الأنبياء عموماً؛ لأن القرآن الكريم أخبرنا بوقوع كثير من المعجزات على يد الأنبياء ﷺ.
- ٢ - وعلمنا أن نؤمن بأن الأنبياء لا يأتون بالمعجزات من عند أنفسهم، ولكن الله تعالى يكرمهم ويُجريها على أيديهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣٨].
- ٣ - من أنكر وقوع المعجزات أو الآيات للأنبياء التي أثبتها القرآن فهو كافر؛ لأنه أنكر ما ثبت بنص القرآن الكريم، وهو كتاب لا ينطق إلا بالحق: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤].

أنواع المعجزات:

المعجزة نوعان: منها ما هو حسي، ومنها ما هو عقلي.

وقد كانت معجزات الرسل السابقين كلها من النوع الأول، مثل: ناقة صالح، وعدم إحراق النار لإبراهيم، وعصا موسى، وانفلاق البحر، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى على يد عيسى.

ولنبينا ﷺ من هذا النوع ما لا يقع تحت حصر، كفوران الماء من بين أصابعه ﷺ، وحنين الجذع إليه، وانشقاق القمر، وغير ذلك.

أما النوع الثاني فهو القرآن الكريم، تلك المعجزة العقلية الكبرى، والآية العلمية الأدبية الخالدة التي أيد الله بها رسوله ﷺ، وهو أمي، وتحدي العرب، وهم أرباب الفصاحة، وأئمة البلاغة، وفرسان الكلام، أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله مفتريات كما يزعمون، أو بأقصر سورة من مثله، فعجزوا وانقطعوا، وصدق قول الله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]. فثبت أن القرآن من عند الله، وأن محمدًا رسول الله.

والسر في كون معجزات الرسل السابقين حسيّة: أن النوع البشري لم يكن قد بلغ النضج، بل كان في طور طفولته أو مراهقته، لم يبلغ سنّ الرشد بعد، ولم يصل العقل الإنساني إلى المستوى المناسب من الفكر والنظر والارتقاء، فما كان الدليل يبلغ من الناس مبلغ الإقناع، إلا بآية حسيّة، تجذبهم إلى الحق جذبًا، وتسوقهم إلى الإيمان سوقًا، آية تبهر أنفسهم، وتملك قلوبهم، وتصدم عقولهم، فلا تملك إلا الإذعان والتسليم.

ولهذا كانت هذه الآيات وقتيّة، تنقضي بانقضاء من أدركوها وشاهدوها وعاصروها، وآمنوا بها، فقد رأوها بأعينهم، فليس لها صفة التأثير والدوام.

فلما ترقّى النوع البشري، وبلغ مبلغ الرشد، وأصبح العقل قادرًا على الفكر والتأمل والنظر، أصبحت هذه الآيات وحدها ضعيفة التأثير، وتطلّع العقل إلى الدليل النظريّ العلمي، والحجّة العقلية التي تخاطب العقل، وتنفذ إلى القلب، وتخاطب الكيان الإنساني كله من الداخل



فتغيره وتنقله كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

فأرسل الله خاتم رسله بالرسالة العالمية العامة الخاتمة، وأيده بالمعجزة العلمية والحجة العقلية؛ القرآن الكريم، الذي يناسب رقي الإنسان وتطوره، بل يسمو به إلى أعلى مراتب الكمال الإنساني.

(٦)

دلائل نبوة محمد ﷺ وفضائله

توافرت الأدلة على نبوة محمد ﷺ، فقد أيده الله بكثير من البينات والمعجزات التي تثبت نبوته بأدلة يقينية قاطعة، وقد تحدثنا فيما سبق عن بعض المعجزات الحسية التي أظهرها الله لرسوله ﷺ، في أثناء حديثنا عن المعجزات، وكان القرآن معجزته الكبرى وآيته العظمى، وقد تحدثنا فيما سبق عنه، وسنتحدث عنه فيما بعد بمزيد من التفصيل.

١ - البشارات بالكتب السماوية السابقة به ﷺ قبل تحريفها: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَلِإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

٢ - كمال شخصية الرسول ﷺ في أقواله وأعماله وأخلاقه، فقد حباه الله أخلاق القرآن، فكان ﷺ صادقاً زاهداً، حليماً صفوفاً، عابداً لله، متوكلاً عليه، مجاهداً في سبيله، صابراً، ثابتاً في أحلك الظروف، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

إن عمر محمد ﷺ كله كان ثلاثاً وستين سنة، وعمره بعد البعثة ثلاث وعشرون سنة، ثلاثة عشر عاماً قبل الهجرة، وعشرة بعد الهجرة. ولكن هذه الأعوام المحدودة غيرت مسيرة العالم ومصيره، وحولت مجرى البشرية من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا

إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. حتى اعتبره أحد الأمريكان (الشخصية الأولى في تاريخ البشرية).

ولقد كان جلال الدين الرومي الصوفي الكبير يرى أنَّ النَّبي - أي نبي - غير محتاج إلى دلائل خارجية، أو براهين كلامية، أو معجزات حسية، لتدلَّ على صدق نبوته، وصحة رسالته من عند الله. ويقول:

«إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي النَّبِيِّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ نَبِيٌّ مَّرْسَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. إِنَّهُ يَكُونُ فِي سِيرَتِهِ وَخَلْقِهِ وَشَمَائِلِهِ وَمَخَايِلِهِ مَعْجَزَةٌ كَامِلَةٌ، وَبِرْهَانًا صَادِقًا عَلَى نُبُوَّتِهِ، وَلِذَلِكَ لَمَّا وَقَعَ بِصَرِّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ عَالَمُ الْيَهُودِ عَلَى وَجْهِ الرِّسُولِ هَتَفَ قَائِلًا: وَاللَّهِ لَيْسَ هَذَا بَوَاحٍ كَذَابٍ^(١).

إِنَّ كُلَّ مَنْ رُزِقَ الْعَقْلَ السَّلِيمَ، وَالطَّبْعَ الْمُسْتَقِيمَ، شَعَرَ بِالْإِعْجَازِ فِي صَوْتِ النَّبِيِّ وَوَجْهِهِ، وَلَمْ يَحْتَاجْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى دَلِيلٍ وَبِرْهَانٍ».

ويقول: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيْسَ بِحَاجَةٍ إِلَى دَلِيلٍ خَارِجِيٍّ عَلَى صَدَقِ النَّبِيِّ إِذَا كَانَ صَحِيحَ الْمَزَاجِ، مُسْتَقِيمَ الطَّبْعِ، إِنَّ دَلِيلَهُ فِي نَفْسِ الْمُسْتَمِعِ، وَعَلَى ذَلِكَ يَقُومُ نِظَامُ الْحَيَاةِ... إِنَّ الْمَعْجَزَاتِ لَا تُوجِبُ الْإِيمَانَ، لِأَنَّهَا لَقَهْرُ الْعَدُوِّ، وَإِسْكَاتُ الْخَصْمِ، وَإِعْجَازُ الْعَيْنِ! إِنَّ الَّذِي يُؤَلِّدُ الْإِيمَانَ فِي الْقَلْبِ، وَيُخْضِعُ الْإِنْسَانَ لِلْمَحَبَّةِ وَالطَّاعَةِ هُوَ الْمَجَانِسَةُ وَالْمُنَاسِبَةُ الرُّوحِيَّةُ، إِنَّ الْمَعْجَزَةَ تَقْهَرُ، وَالْمَقْهُورُ لَا يَنْشُرُ صَدْرَهُ، وَلَا يَنْفَتِحُ قَلْبُهُ»^(٢).

(١) رواه أحمد (٢٣٧٨٤)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. والترمذي في صفة القيامة (٢٤٨٥)، وصححه، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٣٤)، والحاكم في الهجرة (١٣/٣)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي. عن عبد الله بن سلام.

(٢) رجال الفكر والدعوة في الإسلام للشيخ أبي الحسن الندوي ص ٣٤٦، ٣٤٧، نشر دار القلم، الكويت، ط ٤، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٣ - أصحابه الَّذِينَ تَخَرَّجُوا عَلَى يَدَيْهِ: وكيف كانوا قبله، وكيف صاروا بعد بعثته فيهم، تدلُّ أقوى دلالة على نبوة الرسول ﷺ.

إنَّ محمدًا يُعَدُّ أكثر الأنبياء أتباعًا في حياته، وإن أصحاب محمد الذين آمنوا به لَيُعَدُّون خير أصحاب نبي بعثه الله. ولم نرَ لنبيٍّ من الأنبياء ولا لرسول من أولي العزم من الرسل أصحابًا مثل أصحاب محمد ﷺ.

رأينا أصحاب موسى ﷺ، الذين قال لهم موسى: ﴿يَقَوْمُ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ * قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ إِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * [المائدة: ٢١ - ٢٦].

أصحاب موسى لا يريدون أي تضحية، حتى وصل الحال بنبي الله موسى أن قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ *، يقول موسى عن قومه: إنهم القوم الفاسقون، فافرق بيني وبينهم. * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ *.

هؤلاء أصحاب موسى، فأين هم من أصحاب محمد ﷺ في يوم بدر، وهم قلة في العدد والعدة، حين قال المقداد بن الأسود: يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى:

﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه^(١). وقال سعد بن معاذ رضي الله عنه للنبي ﷺ: امض يا نبي الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما بقي منا رجل واحد^(٢).

والمسيح عيسى ﷺ، كان له اثنا عشر حوارياً، كل نصيبه اثنا عشر حوارياً، ومع هذا عندما وقع في المحنة، عندما قُدم ليُقتل ويصلب - كما زعموا - خذله بعضهم، وخانه أحدهم.

وَازِنْ بَيْنَ أَصْحَابِ مُوسَى وَأَصْحَابِ عِيسَى وَأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ!!
الجيل الذي رباه محمد ﷺ جيل لم تكتحل عين الدنيا برؤية مثله، جيل جَمَعَ العباقرة والبطولات، في كل فن.

مَنْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْ الْفَلَاسِفَةِ أَوْ الْمَصْلُحِينَ تَرَكَ مِثْلَ هَذَا؟ إِنْ سَقَرَاظَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَصْلِحَ امْرَأَةً تَمَرَّدَتْ عَلَيْهِ، وَالْمَسِيحُ رَبِّي عَدَدًا مِنَ الْحَوَارِيِّينَ بَعْضُهُمْ خَانَهُ فِي حَيَاتِهِ، وَلَكِنْ مُحَمَّدًا ﷺ رَبِّي جِيلَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ حَمَلُوا هَذَا الدِّينَ.. هَذَا الْجِيلَ الْعَظِيمَ الَّذِي رَبَّاهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، كَيْفَ اسْتَطَاعَ أَنْ يُرَبِّيَهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ صَادِقًا مُخْلِصًا؟

لقد ترك محمد هؤلاء الأصحاب، الذين رباهم على عينه؛ ليتحملوا الأمانة من بعده، أمانة الدعوة إلى الله، أمانة نشر الإسلام، أمانة حماية الإسلام. وقد حملوا الراية في مكة، وحملوها في المدينة، حملوها في

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/١٧٣).

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٣/٣١)، وصححه الألباني في تخريج فقه السيرة ص ٢٢٣.

حياة رسول الله، وحملوها بعد وفاة رسول الله ﷺ، خصوصاً السابقين الأولين، المهاجرين، الذين أثنى عليهم القرآن، في آيات شتى، حيث قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال الإمام القرافي في كتاب (الفروق): قال بعض الأصوليين: لو لم يكن لرسول الله ﷺ معجزة إلا أصحابه لكفوه لإثبات نبوته^(١).

٤ - شهادة الله وتأيده: في غير آية من القرآن ذكر النبي ﷺ أن شهادة الله له دليل كافٍ على سلامة دعوته وصحة رسالته، وصدقه فيما يبلغه عن ربه.

وخُتِمت سورة الرعد بمقولة من مقولات الذين كفروا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣]. وقد تكرر من قبل ذكر أقوالهم في هذه السورة مرتين: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الرعد: ٧]، ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الرعد: ٢٧]، ثم جاء هذا القول أيضاً في آخر آية من السورة: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أي يقولون: لست رسولاً من عند الله، إنما أنت مدّع!! وكان الرد القرآني: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد: ٤٣]. فشهادة الله تكفي عن كل شهادة.

وقد تكرر هذا في القرآن، ففي سورة الأحقاف: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِن افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا نُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨].

(١) الفروق للقرافي (١٧٠/٤)، نشر عالم الكتب.

وفي سورة العنكبوت بعد أن رَدَّ الله تعالى على المتعنتين من الكافرين الذين كانوا يطلبون من محمد آيات حسيَّة، ومعجزات كونيَّة، قال: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

وفي سورة الإسراء: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٦].

وفي سورة النساء: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

فليس هناك شهادة أعلى ولا أنصع ولا أقوى ولا أدل من شهادة الله وَجَّهًا على ما يشهد عليه.

توفيق الله لنبيه وتأييده لدعوته:

ومن ناحية أخرى، فإن الله وَجَّهًا خَلَّى بين الرسول ﷺ وبين الدعوة، فإذا كان كاذبًا فكيف تركه الله وَجَّهًا يُضِلُّ الناس ويُفسد في الأرض؟! وكيف فتح له القلوب لِتَهْتَدِيَ به وتَحَمَّسَ له، وتنضمَّ إلى قافلته؟! الله وَجَّهًا لا يترك الضال حتى يقصمه.

يقول الله وَجَّهًا: ﴿وَلَوْ نَقُولْ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]. وهذا لو تقول بعض الأقاويل، فكيف لو افتعل الرسالة كلها من أصلها؟! وكيف لو قال: إنه رسول الله وليس برسول؟!!

يقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤]. وهو سبحانه

لا يهدي ظالمًا، فكيف بأظلم الناس الذي يفترى على الله الكذب؟! وهل يترك الله هذا الأظلم ويُخلّي بينه وبين الناس يُضللّهم؟!

وإذن فمُجرّد التّخلية بين محمد وبين الناس، تعدّ شهادة من الله ﷻ له، فأما أن يؤيّد بالمعجزات والآيات البينّات، وأعظمها القرآن، فهذه شهادة بعد شهادة، وهي شهادة عمليّة: من ناحية المعجزات وفتح القلوب والعقول له، وهي شهادة قوليّة: من ناحية أن القرآن كلام الله ﷻ.

ومثل ذلك تأييده ونصره على أعدائه، رُغم كثرتهم وقوّتهم، وقلة أنصاره وضعفهم الماديّ، ففتح الله له فتحًا مُبينًا، ونصره نصرًا عزيزًا.

ولذلك قال بعض الغربيين: ماذا تريد ممّن يدّعي لك أنّه بناء أكثر من أن يبني لك بناء من السّعة بحيث يسع الملايين، ومن المتانة بحيث يعيش مئات السنين. ويقصد بهذا الإسلام.

ويقول: إنّ الباطل لا يمكن أن يستمر، فمثل الباطل كمثّل ورق البنكنوت الزائف، قد يمرّ من يد إلى يدٍ أو أكثر، ولكنه لا يلبث أن يُضبط ويُعرف أنّه زائف، وأما الحق فهو الذي يستمر، ويقول: إنّ دين محمد يتّبعه مئات الملايين من الناس، وأهله أشدّ الخلق تحمّسًا له من أيّ أصحاب دين في الأرض، فإذن هذا الدين لا يقوم على أكاذيب، ولكنه يقوم على حقائق.

وهذا المعنى قاله (توماس كارليل) صاحب كتاب (الأبطال) الذي قال في محمد: إنّهُ «بطل في صورة رسول».

والنبوة هداية، فكيف لكاذب أن يهدي الناس، وأن يُبصّر الحائرين، ويُعلّم الجاهلين، ويأخذ بأيدي الناس إلى الله، ويحشرهم في ساحته؟!

فهذا كله يعتبر من شهادة الله وَعَلَّكَ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد: ٤٣]^(١).

محاورة بين ابن القيم وأحد كبار أخبار اليهود:

وقد ذكر ابن القيم في عدد من كتبه مناظرة جرت له في مصر مع أكبر من يشير إليه اليهود بالعلم والرياسة، قال: «قلتُ له في أثناء الكلام: أنتم بتكذيبكم محمداً ﷺ قد شتمتم الله أعظم شتيمة. فعجب من ذلك، وقال: مثلك يقول هذا الكلام؟!

فقلتُ له: اسمع الآن تقريره: إذا قلتُم: إنَّ محمداً مَلِكٌ ظالم، قهر الناس بسيفه، وليس برسول من عند الله، وقد أقام ثلاثاً وعشرين سنة، يدَّعي أنه رسول الله، أرسله إلى الخلق كافة، ويقول: أمرني الله بكذا، ونهاني عن كذا، وأوحى إليّ كذا. ولم يكن من ذلك شيء.

ويقول: إنه أباح لي سبِّي ذراريّ مَنْ كَذَّبَنِي وخالفني.. ولم يكن من ذلك شيء. وهو يدأب في تغيير دين الأنبياء، ومعاداة أممهم، ونسخ شرائعهم، فلا يخلو: إما أن تقولوا: أنَّ الله سبحانه كان يَطلع على ذلك ويشاهده ويعلمه. أو تقولوا: إنَّه خَفِيَ عنه ولم يعلم به.

فإن قلتُم: لم يعلم به؛ نسبتموه إلى أقبح الجهل، وكان من عِلْم ذلك أعلم منه.

وإن قلتُم: بل كان ذلك كله بعلمه ومشاهدته وإطلاعه عليه، فلا يخلو: إما أن يكون قادراً على تغييره، والأخذ على يديه ومنعه من ذلك، أو لا، فإن لم يكن قادراً، فقد نسبتموه إلى أقبح العجز المنافي للربوبية.

(١) انظر كتابنا: تفسير سورة الرعد ص ٢٩٥ - ٢٩٧، إعداد محمود عوض، نشر مكتبة وهبة،

القاهرة، ط ٢، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

وإن كان قادرًا، وهو مع ذلك يُعزّه وينصرّه ويُؤيِّده، ويُعليه ويُعلي كلمته، ويُجيب دعاءه، ويُمكنه من أعدائه، ويُظهر على يديه من أنواع المعجزات والكرامات ما يزيد على الألف، ولا يقصده أحدٌ بسوءٍ إلا أظفره به، ولا يدعوه بدعوةٍ إلا استجابها له، فهذا من أعظم الظلم والسفّه الذي لا يليقُ نسبته إلى آحاد العقلاء، فضلًا عن ربّ الأرض والسماء، فكيف وهو يشهد له بإقراره على دعوته، وتأييده بكلامه، وهذه عندكم شهادة زور وكذب؟!!

فلما سمع ذلك، قال: مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَفْعَلَ اللَّهُ هَذَا بِكَاذِبٍ مُفْتَرٍ! بل هو نبيٌّ صادق، مَنْ اتَّبَعَهُ أَفْلَحَ وَسَعِدَ.

قلتُ: فما لك لا تدخل في دينه؟

قال: إِنَّمَا بُعِثَ لِلْأُمِّيِّينَ الَّذِينَ لَا كِتَابَ لَهُمْ، وَأَمَّا نَحْنُ فَعِنْدَنَا كِتَابٌ نَتَّبِعُهُ.

قلتُ له: غُلِبْتَ كُلَّ الْغَلْبِ، فَإِنَّهُ قَدْ عَلِمَ الْخَاصُّ وَالْعَامُ: أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ، وَأَنَّ مَنْ لَمْ يَتَّبِعْهُ فَهُوَ كَافِرٌ مِنْ أَهْلِ الْجَحِيمِ، وَقَاتِلِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى - وَهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ - وَإِذَا صَحَّتْ رِسَالَتُهُ، لَزِمَ تَصَدِيقُهُ فِي كُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ. فَأَمْسِكْ وَلَمْ يَجِرْ جَوَابًا^(١).

علام يدلُّ هذا؟ وماذا نُسمِّيهِ؟

يدلُّ هذا على أَنَّ مُحَمَّدًا الَّذِي أَيْدَهُ اللَّهُ بِنَصْرِهِ، وَأَمَدَّهُ بِرُوحٍ مِنْ لَدُنْهِ، رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ صَدَّقَهُ اللَّهُ بِهَذَا النِّصْرِ كَمَا صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ مِنْ قَبْلِهِ،

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (٣٨٤/٢ - ٣٨٥)، نشر دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، والتبيان في أقسام القرآن، ص ١٨٠ وما بعدها، تحقيق محمد حامد الفقي، نشر دار المعرفة، بيروت.

وَنُسَمِّي هَذَا كَمَا سَمَّاهُ الْقُرْآنُ: شَهَادَةً مِنَ اللَّهِ لِمُحَمَّدٍ بِأَنَّهُ صَادِقٌ فِيمَا يَقُولُ وَمَا يُبَلِّغُ عَنْهُ، لَيْسَ بِكَاذِبٍ وَلَا ضَالٍّ وَلَا غَاوٍ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۖ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۚ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١-٤].

ولو كان محمد كاذبًا في نبوته، مفتريًا على ربه، مُتَحِلًّا ما ليس له، ما خَلَّى اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ يُضِلُّهُمْ وَيُغْوِيهِمْ، وَيَكْذِبُ عَلَيْهِمْ، وَيُكَلِّفُهُمْ ما لم يَكْلَفْهُ اللَّهُ بِهِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُؤَيِّدَهُ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَيُفْتَحَ لَهُ الْقُلُوبَ، وَيُخْضِعَ لَهُ الرِّقَابَ، وَيُمْكِّنَ لَهُ فِي الْأَرْضِ، وَيُصَدِّقَهُ فِي تَحْدِيثِهِ، وَيُحَقِّقَ لَهُ نُبُوءَاتِهِ، وَيُذِلَّ لَهُ الْعُقَبَاتِ، وَيُهَيِّئَ لِدَعْوَتِهِ أَسْبَابَ الْفَلَاحِ.

فليس من حكمة الله تعالى أن يترك الكذابين المفترين عليه، دون أن يَهْلِكَهُمْ أو يَفْضَحَهُمْ، وَيُبَيِّنَ حَقِيقَةَ أَمْرِهِمْ عَلَى مَلَأٍ مِنَ النَّاسِ، فَإِنَّ سُنَّةَ اللَّهِ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ، وَلَيْسَ مِنْ سُنَّتِهِ أَبَدًا أَنْ يُبْطِلَ الْحَقَّ وَيُظْهِرَ الْبَاطِلَ.

ولهذا ذكر القرآن على لسان موسى حين جاء سَحَرَةُ فِرْعَوْنَ يَتَحَدَّوْنَهُ وَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَسَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]. وجاء في القرآن: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا نَفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨].

ويقول الله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧]، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١].

وجاء في سورة الشورى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤].

ولنقرب ذلك إلى الأذهان بمثلٍ نضربه: هَبْ أَنْ رجلاً ذهب إلى إقليم من أقاليم مملكة، وادّعى لأهلها أنه مندوبُ الملك إليهم، وأنه مُفَوَّض من قبله، ونُصِّبَ أبداً عليهم، وقد أخذ فعلاً يباشر سلطانه، يأمر وينهي، ويَجْبِي الأموال، ويُقيم العقوبات، ويُخضع الرقاب، والملك قد عرف دعواه، وعلم بقصته ومع هذا سكت عليه، وخلّى بينه وبين الرعيّة، وكان قادراً بما عنده من عدّة وعدد أن يبعث إليه مَنْ يُزيله عن سلطانه، ويُبين للناس كذبه وتضليله - إن كان كاذباً مضللاً - ولكنه لم يفعل، بل هيأ له كل أسباب النجاح والانتصار، وأزال من طريقه كل الموانع، ومكّنه من أعناق معارضيّه، وبعث له بالمدد بعد المدد، أفليس هذا دليلاً أوضح دليل، وبرهاناً أنصع برهان على صدق هذا الرجل فيما ادّعى به على الملك؟

هذا الدليل كافٍ كلّ الكفاية في إثبات النبوة المحمدية لكلّ من كان يؤمن بالله العليّ الكبير، ويؤمن بهيمته على الكون، وحسن تدبيره له، وسموّ حكمته، وكمال عدله وبرّه بخلقه.

ومن لم يكن مؤمناً بآله للكون، فيكفي أن يكون مؤمناً بما في الكون من سنن عادلة وما للحياة والطبيعة من صدق.

٥ - شهادة المنصفين من أهل الكتاب: وهذا ما وضّحه الفيلسوف البريطاني (كارليل) في كتابه (الأبطال) حين عقد المحاضرة الثانية من كتابه للبطل في صورة رسول، فاختر بطله محمداً ﷺ.

قال الفيلسوف البريطاني (توماس كارليل): «لقد أصبح من أكبر العار على كلِّ فرد مُتَمَدِّين في هذا العصر أن يصغي إلى ما يظنُّ من أنَّ دين الإسلام كذبٌ، وأنَّ مُحَمَّدًا خَدَّاعٌ مزوَّر، وأنَّ لنا أن نحاربَ ما يُشاع من هذه الأقوال السَّخيفة المَخْجِلة، فإنَّ الرِّسالة التي أبداها ذلك الرَّسُولُ ما زالت السَّراج المنير مدة اثني عشر قرنًا، لنحو مائتي مليون أمثالنا^(١)، خلقهم الله الذي خلقنا!! أكان أحدكم يظنُّ أنَّ هذه الرِّسالة التي عاش بها وماتت عليها هذه الملايين الفاتكة الحصر أكلوبة وخدعة؟! أما أنا، فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبدًا، فلو أنَّ الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرَّواج، ويصادفان منهم ذلك التَّصديق والقبول، فما النَّاسُ إلَّا بُلهٌ ومجانين، وما الحياة إلَّا سخف وعبث وأضلولة، كان الأولى بها ألا تُخلَقَ»^(٢).

وقال الكاتب الفيلسوف الروسي (تولستوي): «وممَّا لا ريب فيه أنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا من عِظام المصلحين، الذين خدموا المجتمع الإنسانيَّ خدمة جليلة، ويكفيه فخراً أنَّه هدى أُمَّة برمَّتْها إلى نور الحقِّ، وجعلها تجنح للسكينة والسلام، وتؤثّر عيشة الزهد، ومنعها من سفك الدماء، وتقديم الضحايا البشريَّة، وفتح لها طريق الرُّقيِّ والمدنيَّة، وهو عملٌ عظيم لا يقوم به إلَّا شخص أوتيَّ قوة، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإكرام».

وعلَّل (مونتيه) طعنَ بعض الغربيين على الرسول بقوله: كثيرًا ما حُكِمَتْ عليه الأحكام القاسية، وما ذلك إلَّا لأنَّه ندَّر بين المصلحين من عُرِفَتْ حياتهم بالتفصيل مثله، وإنَّ ما قام به من إصلاح الأخلاق

(١) هم الآن أكثر من ألف مليون وثمانمائة مليون من الناس.

(٢) الأبطال لتوماس كارليل ص ٥٢، ترجمة محمد السباعي، نشر المكتبة التجارية الكبرى،

القاهرة، ط ٣، ١٣٤٩هـ - ١٩٣٠م.

وتطهير المجتمع، يمكن أن يُعَدَّ به من أعظم المحسنين للإنسانية. وقال: لا مجال للشك في إخلاص الرسول وحماسه.

وقال جان جاك روسو: «من الناس من يتعلَّم قليلاً من العربية، ثم يقرأ القرآن ويضحك منه، ولو أنه سَمِعَ محمداً يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرفيعة، وذاك الصوت المقنع المطرب المؤثر في شغاف القلوب، ورآه يؤكد أحكامه بقوة البيان؛ لخرَّ ساجداً على الأرض، وناداه: أيها النبي رسول الله، خذ بأيدينا إلى مواقف الشرف والفخر، أو جوامع التهلكة والأخطار، فنحن من أجلك نودُّ الموت أو الانتصار».

قال الشيخ العلامة رحمة الله الهندي في كتابه القيم (إظهار الحق): (إنه ﷺ ادَّعى بين قوم لا كتاب لهم ولا حكمة فيهم: أني بُعثت من عند الله بالكتاب المنير، والحكمة الباهرة لأنور العالم بالإيمان والعمل الصالح، وانتصب، مع ضعفه وفقره، وقلة أعوانه وأنصاره، مُخالفًا لجميع أهل الأرض: آحادهم وأوساطهم، وسلاطينهم وجبابرتهم، فضلل آراءهم، وسفَّه أحلامهم، وأبطل مللهم، وهَدَم دولهم، وظهر دينه على الأديان في مدَّة قليلة، شرقاً وغرباً، وزاد على مرِّ الأعصار والأزمان، ولم يقدر الأعداء، مع كثرة عددهم وعددهم، وشدة شوكتهم وشكيمتهم، وفَرَط تعصُّبهم وحميتهم، وبذلهم غاية جهدهم، في إطفاء نور دينه، وطمس آثار مذهبه، فهل يكون ذلك إلا بعون إلهيٍّ وتأييدٍ سماويٍّ؟! ^(١) اهـ.

فكم من مُدَّعين دجَّالين هلكوا وباد ذكركم، وتشتَّت أتباعهم، وذهبت دعوتهم، كأن لم تكن شيئاً مذكوراً.

(١) إظهار الحق لرحمة الله الهندي (١٠٧٤/٤ - ١٠٧٥)، تحقيق د. محمد أحمد محمد ملكاوي، نشر الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء، السعودية، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

وقد أدرك بعض المشركين هذه الحقيقة بما بقي في فطرتهم من نور الله، ففي إحدى معارك المشركين مع الرسول جاء إيماء بن رخصة الغفاري إلى قريش يعرض عليهم المساعدة العسكرية بالسلاح والرجال لحرب محمد وأصحابه، فقال أحد المشركين العقلاء كلمة عاقلة، قال: أن وصلتك رحم، قد قضيت الذي عليك، فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم، ولئن كنا إنما نقاتل الله، كما يزعم محمد، فما لأحد بالله من طاقة^(١).

وقد بان للقوم أنهم لم يكونوا يحاربون محمدًا وأتباعه القليلين، وإنما كانوا يحاربون الله جلّ جلاله، فحقّت عليهم الغلبة والهزيمة، وهذا ما جعل فرسان قريش ودهاتها يهاجرون باختيارهم إلى محمد، معلنين إسلامهم، وانضمامهم بقلوبهم وسيوفهم للدين الجديد، فهذا خالد بن الوليد، وهذا عمرو بن العاص.

٦ - إكرام الله له بآيات حسية ليست على سبيل التحدي: وقد أكرم الله تعالى خاتم رسله بآيات كونية جمّة، وخوارق حسية عديدة، ولكن لم يقصد بها التحدي، أعني إقامة الحجة بها على صدق نبوته ورسالته، بل كانت تكريمًا من الله له، أو رحمة منه تعالى به، وتأييدًا له، وعناية به وبمن آمن معه في الشدائد، فلم تحدث هذه الخوارق استجابة لطلب الكافرين، بل رحمة وكرامة من الله لرسوله والمؤمنين، وذلك مثل (الإسراء) الذي ثبت بصريح القرآن، والمعراج الذي أشار إليه القرآن، وجاءت به الأحاديث الصحيحة، ونزول الملائكة تثبيتًا ونصرة للذين

(١) مغازي الواقدي (٦٠/١)، تحقيق مارسدن جونس، نشر دار الأعلمي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٩هـ -

١٩٨٩م، والطبري في تاريخه (٤٤١/٢).

آمنوا في غزوة بدر، وإنزال الأمطار لإسقائهم فيها وتطهيرهم، وتثبيت أقدامهم، على حين لم يصب المشركين من ذلك شيء وهم بالقرب منهم، وحماية الله لرسوله وصاحبه في الغار يوم الهجرة، رغم وصول المشركين إليه، حتى لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآهما. وغير ذلك مما هو ثابت بنص القرآن الكريم.

ومثل ذلك إشباع العدد الكثير من الطعام القليل في غزوة الأحزاب، وفي غزوة تبوك. وفي غيرهما.

ونحن لا نثبت من هذا النوع من الخوارق، إلا ما نطق به القرآن، أو جاءت به السنة الصحيحة الثابتة، ومن ذلك:

أ - ما رواه جماعة من الصحابة^(١) من حنين الجذع الذي كان يخطب عليه ﷺ أول الأمر، فلما صُنع له المنبر، وقام عليه للخطبة، سُمِعَ للجذع صوت كحنين الناقة إلى ولدها، فأتاه النبي ﷺ، فوضع يده عليه فسكت^(٢). قال العلامة تاج الدين السبكي: حنين الجذع متواتر^(٣)؛ لأنه ورد عن جماعة من الصحابة، إلى نحو العشرين، من طرق صحيحة كثيرة تفيد القطع بوقوعه. وكذلك قال القاضي عياض في (الشفاء): إنه متواتر^(٤).

(١) منها: ما رواه البخاري في المناقب (٣٥٨٣)، عن ابن عمر. وحديث جابر بن عبد الله رواه البخاري في المناقب (٣٥٨٥).

(٢) حنين الجذع: رواه مسنداً أصحاب الكتب الستة الصحيحة، وابن حبان وابن خزيمة، وما وصل إلى مثلهم بطرق متعددة صحيحة يكون متواتراً حقيقة، لإجماع من بعدهم على صحتها، منها ما رواه البخاري في المناقب (٣٥٨٣)، عن ابن عمر، وما رواه في المناقب (٣٥٨٥)، عن جابر.

(٣) نقله القسطلاني في إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٤٦/٦)، نشر المطبعة الكبرى الأميرية، القاهرة، ط ٧، ١٣٢٣هـ.

(٤) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى (٥٨١/١).

ب - ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما من أصحاب السنن والمسانيد، عن جماعة من الصحابة، من إفاضة الماء بغير الطرق المعتادة، وذلك في غزواته وأسفاره ﷺ؛ مثل غزوة الحديبية، وغزوة تبوك وغيرهما.

روى الشيخان، عن أنس: أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا بالزُّوراء، فدعا بقدح فيه ماء، فوضع كفه فيه، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، وأطراف أصابعه، فتوضأ أصحابه به جميعاً^(١).

وروى البخاري، عن البراء بن عازب: أنهم كانوا مع النبي ﷺ يوم الحديبية أربع عشرة مائة - أي: ١٤٠٠ إنسان - وأنهم نزحوا بئر الحديبية، فلم يتركوا فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأتاها، فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء، فتوضأ، ثم تمضمض ودعا، ثم صبه فيها. قال: فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا - سقتنا وروتنا - ما شئنا نحن وركابنا^(٢).

والأحاديث في إجراء الماء له ﷺ كثيرة مستفيضة، ومروية بأصح الطرق.

ج - ما حفلت به كتب السنة من استجابة الله تعالى لدعاء النبي ﷺ في مواضع يصعب حصرها، مثل دعائه بإنزال المطر^(٣)، ودعائه يوم بدر

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الوضوء (١٦٩)، ومسلم في الفضائل (٢٢٧٩).

(٢) رواه البخاري في المغازي (٤١٥١).

(٣) منها الحديث المتفق عليه: أصابت الناس سنة على عهد رسول الله ﷺ، فبينا رسول الله ﷺ، يخطب على المنبر يوم الجمعة قام أعرابي، فقال: يا رسول الله، هلك المال... الحديث، رواه البخاري (١٠٣٣)، ومسلم (٨٩٧)، كلاهما في الاستسقاء، عن أنس.

بالنصر^(١)، ودعائه لابن عباس بالفقه في الدين^(٢)، ودعائه لأنس بكثرة الولد وطول العمر^(٣)، ودعائه على بعض من آذاه^(٤).. إلخ.

د - ما صحَّ من الإنباء بمغيباتٍ قد حدثت كما أخبر بها ﷺ، بعضها في حياته، وبعضها بعد وفاته، مثل فتح بلاد اليمن وبُصرى وفارس^(٥)، وقوله لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»^(٦)، وقوله عن الحسن: «إن ابني هذا

(١) إشارة إلى حديث: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ، إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ، القبلة، ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض». رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٦٣)، عن عمر بن الخطاب.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الوضوء (١٤٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٧٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٧٩)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٨٠)، عن أم سليم.

(٤) منها حديث: كان لهب بن أبي لهب يسب النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «اللهم سلط عليه كلبك». فخرج في قافلة يريد الشام فنزل منزلاً... الحديث، رواه الحاكم في التفسير (٥٣٩/٢)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وحسنه ابن حجر في فتح الباري (٣٩/٤)، عن أبي عقرب البكري الكناني.

(٥) إشارة إلى ما رواه أحمد (١٨٦٩٤)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف لضعف ميمون أبي عبد الله. والنسائي في الكبرى في السير (٨٨٥٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠١٣٨): رواه أحمد، وفيه ميمون أبو عبد الله، وثقه ابن حبان وضعفه جماعة وبقيّة رجاله ثقات. وحسن إسناده الحافظ في الفتح (٣٩٧/٧)، عن البراء بن عازب رضي الله عنه، أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق قال: وعرض لنا صخرة. فأخذ المعول فقال: «باسم الله». ف ضرب ضربة، فكسر ثلث الحجر وقال: «الله أكبر، أُعْطِيتُ مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحُمْر من مكاني هذا». ثم قال: «باسم الله». و ضرب أخرى، فكسر ثلث الحجر فقال: «الله أكبر، أُعْطِيتُ مفاتيح فارس، والله إني لأبصر المدائن، وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا». ثم قال: «باسم الله». و ضرب ضربة أخرى فقلع بقيّة الحجر فقال: «الله أكبر، أُعْطِيتُ مفاتيح اليمن».

(٦) رواه البخاري في الصلاة (٤٤٧)، عن أبي سعيد الخدري، رواه مسلم في الفتن (٢٩١٥)، عن أبي قتادة، (٢٩١٦)، وعن أم سلمة.

سيد، وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين»^(١). ومثل إخباره بفتح القسطنطينية وغيرها^(٢).

أفضل الأنبياء والمرسلين

اصطفى الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ وفضله على العالمين، وأكرمه بخصائص لم يُعطاها غيره من الأنبياء والمرسلين، ممَّا يدلُّ على عظيم قدره ورفعة منزلته عند ربه سبحانه.

وأذكرُ لك الآن بعض ما أكرم الله تعالى به سيّد الأولين والآخرين في الدنيا:

أ - رَفَعُ ذِكْرِهِ وَعُلُوُّ قَدْرِهِ عَلَى جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ:

قال تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، أي: إذا ذَكَرَ الله تعالى ذَكَرَ معه رسوله ﷺ.

ولقد قرَنَ الله تعالى ذَكَرَ حبيبه ﷺ بذكره سبحانه في مواضع كثيرة من القرآن:

١ - في الإيمان. قال تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحديد: ٧].

٢ - وفي الطاعة. قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

٣ - وفي المحبة. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا

(١) رواه البخاري في المناقب (٢٧٠٤)، عن أبي بكرة.

(٢) راجع كتابنا: فتاوى معاصرة (١٥٦/٣ - ١٦٥)، فتوى: المعجزات النبوية بين الغلاة والمقصرين.

وَمَسْكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ
فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴿[التوبة: ٢٤].

٤ - وفي الأدب. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١].

٥ - وفي الإرضاء. قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ
كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢].

٦ - وفي النصرة. قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهِجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ
دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

٧ - وفي الهجرة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
ثُمَّ يَدْرِكَهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

٨ - وفي القضاء والحكم. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى
اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ
لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

٩ - وفي تحريم المعصية. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ
ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

١٠ - وفي تحريم المشاقة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
فَكَانَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣].

١١ - وفي التحذير من المحادة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
كَبُتُوا كَمَا كَبَتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥].

١٢ - وفي التحذير من الإيذاء. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

١٣ - وفي التهديد بالمحاربة. قال تعالى لمن يأبى أن يترك الربا: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

١٤ - وفي الشهادة تقرر شهادة أن لا إله إلا الله، بشهادة أن محمدًا رسول الله، في الأذان والإقامة، وتشهد الصلاة.. وغير ذلك.

ب - أَخَذَ الْعَهْدَ لَهُ ﷺ عَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ:

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

ومعنى ميثاق النبیین: ما وثقوا به على أنفسهم من الإيمان برسول الله ﷺ، والإقرار بفضله، والبشارة بمبعثه ﷺ.

ولذلك أخذ عليهم ميثاق الإيمان به ﷺ وتصديقه ونصرته إن أدركوا زمانه.

وقد قال ﷺ: «لو كان موسى حيًّا ما وسعته إلا اتباعي»^(١).

(١) رواه أحمد (١٥١٥٦)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. والدارمي في المقدمة (٤٤٩)، وأبو يعلى (٢١٣٥)، قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٣٣٤/١٣): رجاله موثقون إلا أن في مجالده ضعفًا. عن جابر بن عبد الله. لكن ساق الشيخ محمد عوامة في تعليقه على مصنف ابن أبي شيبة (٢٦٩٤٩) عدة شواهد له، وقال: وبمجموع هذه المراسيل مع حديث الباب يقوى الحديث ويثبت.

وهذا تَكْرِيمٌ كبيرٌ لِنَبِيِّهِ ﷺ لأخذ الميثاقِ على الأنبياءِ ﷺ أن يؤمنوا به وينصروه إن ظهرَ في زمنهم.

ج - إمامته ﷺ الأنبياءِ بيت المقدس:

ومِمَّا يدلُّ على تقديمه وفضله، وعُلُوِّ مقامه، وعِظَم شأنه: صلاته بالأنبياء ليلة أُسْرِيَ به؛ إذ لا يؤمُّ القومَ إِلَّا الأفضل والأعلم والأكمل.

د - وهو إمام المرسلين في الآخرة أيضًا:

قال ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كُنْتُ إِمَامَ النَّبِيِّينَ وَخَطِيبَهُمْ، وَصَاحِبَ شَفَاعَتِهِمْ غَيْرَ فَخْرٍ»^(١).

فهو ﷺ خيرة الخلق أجمعين، وأكرم الأولين والآخرين على ربِّ العالمين كما قال ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرٍ»^(٢).

هـ - تفضيل أمته على الأمم:

فَضَّلَ اللهُ الأُمَّةَ المَحْمُودِيَّةَ على غيرها من الأمم، إكرامًا لنبيها ﷺ؛ لأن شرف التابع إنما هو لشرف المتبوع ﷺ.

قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

(١) رواه أحمد (٢١٢٤٥)، وقال مخرجه: صحيح لغيره. والترمذي في المناقب (٣٦١٣)، وقال: حسن صحيح غريب. وابن ماجه في الزهد (٤٣١٤)، عن أبي بن كعب.

(٢) رواه أحمد (١٠٩٨٧)، وقال مخرجه: صحيح لغيره. والترمذي في التفسير (٣١٤٨)، وفي المناقب (٣٦١٥)، وحسنه، وفي الأول قصة، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٨)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٧٧)، عن أبي سعيد الخدري.

وفي السُّنَّة النبويَّة أحاديث جَمَّة تتحدث عن الأمة وفضائلها، وما أكرم الله تعالى نبيه في أمته في الدنيا والآخرة، أذكر بعضها:

قال ﷺ: «إنكم تتمون سبعين أُمَّةً، أنتم خيرها وأكرمها على الله»^(١).

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت ما لم يُعْطَ أحد من الأنبياء». وذكر: «وجُعِلت أمتي خير الأمم»^(٢).

فهي الأمة الوحيدة التي تؤمن بالله سبحانه الإيمان الصحيح، والتي ورثت رسالات الأنبياء، وتؤمن بهم جميعًا صلوات الله وسلامه عليهم.

ما أكرم الله به نبيه في الآخرة:

ومما أكرمه الله تعالى به في الآخرة:

١ - الشَّهَادَةُ:

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

فَأَمَّتُهُ ﷺ تشهدُ للأنبياء السابقين على أُمَّهِمْ، بأنهم أبلغوا رسالات ربهم، وهو ﷺ يشهدُ لهذه الأُمَّة كذلك، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

(١) رواه أحمد (٢٠٠١٥)، وقال مخرجه: إسناده حسن. والترمذي في التفسير (٣٠٠١)، وحسنه، وابن ماجه في الزهد في معرفة الصحابة (٨٤/٤)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، عن معاوية القشيري.

(٢) رواه أحمد (٧٦٣)، وقال مخرجه: إسناده حسن. وابن أبي شيبه في الفضائل (٣٢٣٠٤).

٢ - المَقَامُ المحمود:

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وهذا هو مقام الشفاعة العظمى العامة لجميع أهل الموقف، فإنه يُشَفَّعُ فيهم ﷺ، وينقذهم من طول الموقف وكرباته، بعد أن طلبوا من الرُّسُلِ الشفاعة فلم يستطيعوا أن يجيبوهم، حتَّى انتهوا إلى إمام المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، فقال: «أنا لها»^(١)؛ فيشفعُ ويشفع.

٣ - لَوَاءُ الحمد:

إذا كان يوم القيامة كان الناس بما فيهم الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين تحت لوائه ﷺ، قال ﷺ: «أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ يوم القيامة ولا فخر، وبِيدي لواءُ الحمدِ ولا فخر، وما من نبيٍّ يومئذٍ آدمٌ فمن سواه إِلَّا تحتَ لوائي»^(٢).

٤ - الوسيلة:

الوسيلة في اللغة: هي التي يُتَوَصَّلُ بها إلى تحصيل المقصود. وأما الوسيلة التي خَصَّ الله تعالى بها سيدنا محمداً ﷺ فهي منزلة في أعلى الجنة ليس فوقها منزلة.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٥١٠)، ومسلم في الإيمان (١٩٣)، عن أنس.

(٢) رواه أحمد (٢٥٤٦)، وقال مخرجه: حسن لغيره. والترمذي في المناقب (٣٦١٦)، وقال:

غريب. عن ابن عباس.

وقد أمر النبي ﷺ أمته أن يسألوا الله تعالى له الوسيلة لينالوا الأجر العظيم، والفضل الكبير، فقال: «إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليّ؛ فإنه من صلى عليّ صلاة، صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلُّوا الله ﷻ لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله تعالى، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة، حلّت عليه الشفاعة»^(١).

٥ - الكوثر:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١].

قال ﷺ: «بينما أنا أسير في الجنة، إذا أنا بنهرٍ حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك. فإذا طينه - أو طيبه - منك أذفر»^(٢). أي: شديد الرائحة، جيد إلى الغاية.

فذلك النهر العظيم في الجنة يسمى كوثرًا، ويصبُّ نهر الكوثر في حوض الموقوف، وهو الذي ترد عليه أمة محمد ﷺ.

٦ - إكرام الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ بأوليات المعالي في الآخرة:

لقد اختص الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ بأوليات المعالي والكمالات في الآخرة، فهو ﷺ أول من تنشق عنه الأرض، وهو أول من يؤذن له بالكلام، فيثني على الله تعالى، وهو أول من يؤذن له بالسجود، وهو أول

(١) رواه مسلم (٣٨٤)، وأبو داود (٥٢٣)، كلاهما في الصلاة، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٨١)، عن أنس.

شافع وأوّل مشفع، وهو أول من يُقضى بين أمته قبل الخلائق، وهو أوّل مَنْ يأخذُ بحلقة باب الجنة، وهو أوّل من يُفتحُ له باب الجنة، وهو أوّل مَنْ يدخل الجنة^(١).



(١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع».
رواه مسلم في الفضائل (٢٢٧٨).



(٧)

لماذا لم يؤمنوا؟

ربما يقف المرء أمام هذه الظاهرة في عرب الجاهليّة؛ فقد جاءهم الرسول على فترة من الرسل، فلم يكن القوم منذ فترة بعيدة قد جاءهم بشيّر ونذير من قبل الله تبارك وتعالى، قبل أن يقوم فيهم محمد بن عبد الله، ويعلن فيهم أنه رسول الله، وأنه جاء ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم للتي هي أقوم، ويسير بهم في طريق الرسل والأنبياء الذين أرسلوا من قبل إلى أقوامهم، مثل موسى الذي أرسله الله إلى فرعون وإلى بني إسرائيل، ومثل المسيح عيسى بن مريم الذي أرسله الله إلى بني إسرائيل، بعد أن قسّت قلوبهم، وعميت عقولهم، وغرقوا في أشكال وتهاويل ما أنزل الله بها من سلطان.

القرآن الذي أنزله الله على محمد، يعجب من عدم إيمانهم بهذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويقول عن هؤلاء الكافرين من الجاهلين: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿ [الانشقاق: ٢٠، ٢١].

ويقول في سورة أخرى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٩]. هم لم يفهموا دعوة القرآن، مع أن دعوة القرآن إليهم في غاية الوضوح، بل هي الشمس في رابعة النهار، والقرآن يناقشهم وي طرح عليهم الأسئلة، وهي لا تتطلب إلا رجوعاً إلى الفطرة السليمة، وإلى العقل السليم. كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا

إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ
السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ
مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿المؤمنون: ٨٤ - ٨٩﴾.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ
الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا
نُنْقِطُ﴾ [يونس: ٣١].

لقد بيّن القرآن العظيم أن هناك موانع من داخل كل إنسان تحول بينه
وبين الاقتناع بهدى القرآن، والدخول في الإيمان الذي دعا إليه.

موانع الإيمان بالله وبرسوله:

١ - الترف والمتعة:

أول هذه الموانع وأرساها هو الترف الذي يصيب بعض الناس، فلا
يفكر إلا في شهوته، ولا يلوذ إلا ببلذته، ولا يجري إلا وراء ما يتمتع به
من عيش يأكله، أو لباس يلبسه، أو زينة يتزين بها، قال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا
هَؤُلَاءِ وَاَبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ [الأنبياء: ٤٤]، وقال: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ
هَؤُلَاءِ وَاَبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ [الزخرف: ٢٩]، ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ
وَاَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ [الفرقان: ١٨].

وأكثر الملاحدة ألدوا؛ لأنهم انحرفوا وفسقوا وفجروا،
فأرادوا أن يُبرّروا فجورهم وانحرافهم، واتّباعهم للشهوات،
وجريهم وراء الفسوق والملذات، فقالوا: لا إله، ولا نبوة، ولا
آخرة، ولا جنة ولا نار. إنه تبرير وتسويغ لما وقعوا فيه، فليس

إلحادهم إلحاد عقل وفكر، إنما هو إلحاد بطن وفرج. فجروا ثم كفروا، وكفرهم تبريرٌ لفجورهم.

إن دعوات الأنبياء جاءت لإصلاح الناس، وهداية الناس، وجاءت بالخير في الدنيا والآخرة للناس، فكل الرسل والأنبياء جاؤوا بالخير لأممهم وأقوامهم، ولكن المترفين وقفوا ضد الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤]. والمترفون هم: المُسْرِفون والمبذِّرون، الذين ينفقون المال يمينًا وشمالًا في التَّعَمُّ، كلبس الحرير، والتحلي بالذهب، والجري وراء الشهوات الجنسيَّة، وشرب الخمر، والإنفاق في غير طائل!!

هؤلاء هم الذين يدمِّرون الأُمم، ويهلكون المجتمعات بترفهم وسرفهم، هم يُسرفون من ناحية، ويبخلون من ناحية أخرى، ينفقون الأُلوف المؤلفة على ما حَرَّمَ الله، ويبخلون بالدراهم القليلة على ما أوجب الله وَجَلَّ.

٢ - الكبر والشقاق:

من الموانع النفسيَّة والأخلاقيَّة عن الإيمان بمحمد وبرسالته عند العرب: الكِبَر والتَّعَزُّز والشقاق، وما يدور في هذه الدائرة. فقد كانت العرب العرباء من أبناء جزيرة العرب، من أبناء اليمن ومن تفرَّع منهم، وهاجر إلى بلاد أخرى، والعرب المستعربة من أبناء عدنان، وهم ينتسبون إلى سيدنا إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، ومنهم تفرَّعت عشائر وقبائل كثيرة، منها قبيلة قريش وخطفان وغيرها.

كانت هذه القبائل تقوم على العصبية الشديدة الفخورة بنفسها، المدافعة عن فصائلها وأفرادها، المفاخرة بما لها من مكارم ومآثر.

إِنَّا إِذَا اشْتَدَّ الزَّمَانُ وَنَابَ خَطْبٌ وَادْلَهَمُ
أَلْفَيْتَ حَوْلَ بِيوتِنَا عُدَدَ الشَّجَاعَةِ وَالْكَرَمِ
لِلْقَا الْعِدَا بِيضُ الشُّيُوفِ وَلِلنَّدَى حُمْرُ النَّعَمِ^(١)

وكل قبيلة تباهي بما قدمت للندي وللعدا، ولكن حينما تأتي قبيلة وتقول: ظهر منا نبي يتكلم باسم السماء، ويتحدث عن الله، ويقول: يأتي الملك من الله يبلغني كلماته، ويبلغني آياته! فمن الذي يبلغ مبلغ هذا الرسول الكريم، وهذا النبي العظيم؟

فلذلك رفضوا هذه الدعوة حتى لا يُغلبوا في مفاخرة أو مسامرة، كما قال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ٢].

وهذا الكبر هو الذي أعمى كثيراً من الناس عن رؤية الحقيقة التي يحملها إليهم رسل الله، كما رأينا فرعون يرفض رسالة موسى استكباراً عن الانقياد من فرعون لموسى الذي ينبغي أن يكون هو وقومه عبداً لفرعون وملئه، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وكان الملوك والأغنياء ورجال الأموال والثروات الكبيرة، يستخفون بالأنبياء الذين لا يملكون من الدنيا إلا ما يحتاجون إليه، ولذلك كان بعضهم يقول، كما قال فرعون عن موسى: ﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَكُ مَقْتَرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣].

(١) من شعر أبي فراس الحمداني، كما في ديوانه ص ٢٨٥، شرح خليل الدويهي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

وبين القرآن أن تقسيم الأرزاق له نظام آخر يجريه الله في خلقه حسب سنه التي لا تتخلف: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

ومن الناس الذين اقتربوا من رسول الله، وعرفوا صدقه، ودافعوا عنه: أبو طالب، واستجاب له المجتمع المكي الجاهلي؛ لأنه بقي على دينهم، ودين آبائه وآبائهم، ولم يتخل عنهم، برغم ما سمعوه من شعر في صدق ابن أخيه محمد، حيث يقول:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا^(١)

ولكنه مع هذا لم يخلع عنه ربقة الكفر، ولم يقلها كلمة واحدة، يشفي بها صدر ابن أخيه، بل ابنه الذي ضمه إلى ولده، ورباه معهم، وقال له الرسول عند وفاته: «قلها يا عم، كلمة أشفع لك بها عند الله يوم القيامة»^(٢)، فمات ولم يقلها، ونزل قول الله فيه: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

ما الذي منع أبا طالب أن يقولها؟ إنه الكبر، الذي أمسك لسانه أن ينطق بها، وهي أقرب ما يكون إليه، يريد أن يثبت لقومه أنه بقي على دينهم رغم المحاولات الصادقة والمتكررة من ابن أخيه، ولكنه أصر على موقفه، ليظل كما هو في منزلته وكرامته عندهم.

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (١٩٨/٧)، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، نشر دار الكتب العلمية، بيروت ط ١، ١٤١٥هـ.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٣٦٠)، ومسلم في الإيمان (٢٤)، عن المسيب بن حزن.

٣ - البغي والحسد والعصبية:

البغي والحسد من أسباب الإعراض عن الحق، بل من أسباب جحوده ومعاداته قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال في شأن اليهود: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ * يَسْكَمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٨٩، ٩٠].

وفي ذلك يقول أبو جهل بن هشام: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الرُّكْب، وكنا كُفْرَسِي رِهَان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه^(١)!

بل إن ارتداد من الإسلام كان بسبب هذا الحسد والبغي والعصبية الجاهلية، حتى قال قائلهم لمسيلمة الكذاب: أشهد أنك الكاذب، وأنّ محمّداً صادق، ولكن كذاب ربيعة أحبُّ إلينا من صادق مضر.

٤ - حب الملك والرياسة:

وأبرز مثال لذلك شخصية هرقل، إمبراطور الروم في عهد النبوة.

(١) سيرة ابن إسحاق ص ١٩٠، تحقيق سهيل زكار، نشر دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٣٩٨هـ -

لقد سلك هذا الرجل في أول أمره مسلك العاقل الحكيم، الذي يريد أن يعرف الحق، ويطلب لنفسه النجاة والفلاح.

لقد كان يعلم من أسفار العهد القديم والجديد أن نبيًا تُنتظر بعثته، ولكن ما يديره أن هذا هو النبي المنتظر، وفي الدنيا من الطامحين والدجالين كثير.

كان لا بدّ أن يعرف ويسأل عن هذا الرجل صاحب الدعوة الجديدة، وكان موفقًا في اختياره من يسأله عن شأن محمد.

لقد سأل عنه رجلًا عربيًا مكّيًا من قريش قبيلة محمد، ومن بني عبد مناف أيضًا الفرع الذي ينتسب إليه محمد. وكان يعرف كل شيء عن محمد منذ طفولته ونشأته حتى اليوم، وكان فوق ذلك خصمًا لدودًا لمحمد، بل كان هو في ذلك الحين زعيم الوثنيين في مكة، وقائدهم لحرب محمد، وبينه وبين محمد حروب ودماء، فلا غرو أن تكون لأجوبته قيمتها في معرفة هذا النبي الجديد، وإلقاء الضوء على شخصيته ودعوته.

وكانت أسئلة هرقل في غاية الدقة والإحاطة:

سأل عن ظروف البيئة: هل تساعد على ادّعاء النبوة؟

سأل عن شخصيّة محمد وأخلاقه قبل البعثة، فإن الأخلاق الأصيلة يبعد أن تتغيّر.

سأل عن دعوة محمد وماذا يأمر به، فالدعوة تدلّ على الداعي.

سأل عن أتباع محمد: من أيّ صنف هم؟ وما موقفهم من دينهم؟ وهل يزيدون أم ينقصون؟

سأل عن كل هذا، وتلقّى الأجوبة الشافية التي تعتبر شهادة من أعظم الشهادات لمحمد، والتي لم تدع منفذاً أيّ منفذ لمن يحاول أن يتّهم محمداً بسوء.

روى البخاري، عن عبد الله بن عباس: أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجّاراً بالشّام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادّاً فيها أبا سفيان وكفّار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه، فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً. فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذّبتني فكذّبوه. فوالله لولا الحياء من أن يأتروا عليّ كذباً، لكذبتُ عنه.

ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟

قلتُ: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟

قلتُ: لا.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟

قلتُ: لا.

قال: فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟

فقلتُ: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟



قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتدُّ أحد منهم سُخْطاً لدينه بعد أن يدخل فيه؟

قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟

قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم
تُمكنِّي كلمةً أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة.

قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟

قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه.

قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به
شيئاً، واتركوا ما يقول آبائكم، ويأمرنا بالصلاة والزكاة والصدق
والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب،
فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها. وسألتك: هل قال أحد منكم هذا
القول؟ فذكرت أن لا. فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت:
رجل يأتي بقولٍ قيل قبله. وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت
أن لا. قلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت: رجل يطلب ملك أبيه.
وسألتك، هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا.

فقد أعرف أنه لم يكن ليزر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفائهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا. وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا. وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً، فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنتُ عنده لغسلتُ عن قدمه. ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل، فقرأه، فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين^(١). ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦءَ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات، وأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر. فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام.

(١) جمع أريسي ومعناه الأجير والزارع.

وكان ابن الناظور صاحب إيلياء وهرقل سُقُفًا على نصارى الشام، يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء، أصبح يومًا خبيث النفس، فقال بعض بطارquete: قد استنكرنا هيئتك. قال ابن الناظور: وكان هرقل حزاء ينظر في النجوم، فقال لهم حين سألوه: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر، فمن يختن من هذه الأمة؟ قالوا: ليس يختن إلا اليهود، فلا يُهمنك شأنهم، واكتب إلى مدائن ملكك، فيقتلوا من فيهم من اليهود. فبينما هم على أمرهم، أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله ﷺ، فلما استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا أمختن هو أم لا، فنظروا إليه، فحدّثوه أنه مختن، وسأله عن العرب، فقال: هم يختنون. فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر. ثم كتب هرقل إلى صاحب له بروميّة، وكان نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص، فلم يرُ حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ، وأنه نبي، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلّقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم، فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان، قال: ردّوهم عليّ. وقال: إني قلتُ مقاتلي أنفًا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيتُ، فسجدوا له ورضوا عنه. فكان ذلك آخرَ شأنِ هرقل^(١).

فآثر هرقل ملكه على الإيمان، واستمرّ على الضلال، بل حارب المسلمين في غزوة مؤتة سنة ثمان بعد هذه القصة بنحو الستين.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في المغازي (١٧٧٣)، عن ابن عباس.

٥ - التقليد واتباع الآباء والكبراء:

وآيات القرآن مستفيضة بذكر هذا المانع من موانع الإيمان، وهو تقليد الآباء والكبراء بغير حجة بيّنة، فربما لم تكن فيما قلدوهم فيه حجة قط، وربما كانت فيه حجة واهية لا تقف أمام حجج من يعارض قولهم. ومصدر ذلك: التعظيم أو التقديس للكبراء والزعماء والقدماء، أضفاه عليهم المقلد التابع، فرضي لنفسه أن يكون ذيلًا وقد خلقه الله رأسًا، وأن يكون عبدًا في فكره، وقد خلقه الله حرًا، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقال على لسان أهل النار: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب: ٦٧].

* * *



الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر

(١)

بين يدي القيامة

مدة الحياة الدنيا مهما اتسعت أزمانها، وطالت قرونها؛ لا بد أن تنتهي. وقد حدّد الله سبحانه أمدًا لانتهاؤها، يعلم متى يكون بالدقة والضبط الكامل.

وهذا أمر منطقي، فهو ربُّ هذا الكون وخالقه، ومدبّر أمره، ومسيّر كلّ شيء فيه، ويعلم دقائقه وتفصيله، فهو الذي يعلم كيف ينتهي هذا الكون الكبير، وتتفكّك مرگباته، وتحلّل أجزاءه، ويتغيّر كلّ ما فيه، تتبدل الأرض غير الأرض والسموات.

وحينئذ ينفخ الملك إسرائيل في الصور المعدّ لذلك (نفخة الصعق)، التي تُصعق بها كل الخلائق الباقية، ثم تأتي بعد حينٍ (نفخة البعث)، فيُحيي الله جل شأنه الناس من ممّاتهم، وإن مضت عليهم قرون وقرون، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

فهذا يوم البعث، ويوم النشر، ويوم الحشر، ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

هذا يوم الساعة، ويوم القيامة، ويوم الفصل، ويوم الدين، ويوم الحساب، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

لا يعلم موعد يوم القيامة إلا الله:

هذا اليوم لا يعلم مواعده أحد إلا الله تباركت أسماؤه، لم يُطْلِع عليه ملكًا مقرَّبًا ولا نبيًّا مرسلًا، قال تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥].

وقد ذكر القرآن سؤال كثيرين عن الساعة، فأحالهم الله تعالى إلى علمه وحده، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وفي سورة النازعات: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٤].

أي: منتهى علمها عنده وحده، لا يوجد عند غيره، إذ لم يؤتِ تعالى أحدًا من خلقه، كقوله في آخر لقمان: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لُقْمَان: ٣٤]، وهي من مفاتيح الغيب الخمسة التي لا يعلمها إلا الله^(١).

(١) المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].



وفي بعض الأحيان يعلن القرآن عن قربها: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]. والقرب هنا أمر نسبي؛ بالنسبة لعمر الأرض، أو لعمر الكون، ويقدرونه بما شاء الله من الملايين من السنين.

ولما سأل جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور عن الساعة؟ قال صلى الله عليه وسلم: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»^(١).

فكما أخفى الله ساعة كل حي عن نفسه، فلا يعلم متى ينقضي أجله، ويطوى كتابه، ليعدّ العدة للغد، ويستعد للقاء ربه بعمل الصالحات، واتقاء السيئات في كل حين؛ أخفى سبحانه ساعة الناس جميعاً عنهم، فلا تأتيهم إلا بغتة، حتى يتهيؤوا لاستقبالها بما ينبغي لها من تقوى الخالق والإحسان إلى الخلق.

* * *

(٢)

الدار الآخرة

مراحل حياة الإنسان:

لنا نحن البشر داران: إحداهما عاجلة، والأخرى آجلة.

الدار العاجلة هي التي يحياها ويعيشها كلُّ منّا، وهي تبدأ بميلادنا من بطون أمّهاتنا فراخاً بلا ريش، وقد كُنّا قبلها نعيش في تلك البطون والأحشاء أجنّة، نتطور من نطفة إلى علقّة، أو من حيوان منويّ صغير وبويضة أنثويّة، إلى بويضة ملقّحة به في الرحم، ثم إلى مضغة مخلّقة وغير مخلّقة، إلى هيكل عظمي صغير، كساه الله لحماً، ثم أنشأه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ثم وُلد هذا الجنين طفلاً، ليس له سنٌّ تقطع، ولا يد تبطش، ولا قدم تسعى، ثم بدأ يتعلّم ويتدرب على الأكل والمشى والكلام والحركة، وانتقل من الطفولة إلى الصبا الواعد، ثم إلى الشباب، ثم الكهولة، ثم الشيخوخة التي تنتهي بمن وصل إليها إلى الموت والانتقال إلى الحياة الأخرى.

وقد قصّ الله تعالى على الإنسان قصة حياته كيف بدأت، ثم انتهت، وكيف ستبدأ في حياة أخرى أبدية، يجازي الله فيها الإنسان بما عمل، خيراً كان أو شراً.

اقرأ معي قول الله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْماً فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ

خَلَقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ * [المؤمنون: ١٢ - ١٦]، وقال تعالى في سورة أخرى:
﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ *
ثُمَّ أَمَانَهُ * فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس: ١٧ - ٢٣].

المهم أن كلَّ إنسان له داره العاجلة الخاصة به، التي تبدأ بولادته،
وتنتهي بوفاته، حيث يُغسَل ويُكْفَن ويُصَلَّى عليه، ويُدفن في قبره.

وهذه الدنيا التي نعيش فيها كلنا، نحن بني الإنسان، من شرقيين
وغربيين، ومن عرب وعجم، ومن بيض وصُفْر وملوَّنين، ومن مسلمين
ونصارى ويهود، ومن مؤمنين وملحدين ومرتابين، من أصناف البشر
المنتشرة في العالم الكبير، الذي بدأ في المليار الثامن من سنوات،
نسَمِّيها: الدار الدنيا، أو الدار العاجلة؛ لأن كل واحد منا يعيش فيها مدة
عمره المقدَّر، الذي قد يقصُر، وقد يطول، وهو مهما يطل، فهو محدود
بالأجل، وفيه يتزوج الإنسان وينجب أبناء وبنات، وقد يمتد عمره،
فيتزوج أبناؤه وبناته، ويكون له أحفاد وحفيدات، وقد يرى أولاد أحفاده
وحفيداته، إلى أن ينتهي أجله، وهو محدود، وإن طال الطول النسبي.

وكل إنسان إذا مات فقد قامت قيامته، وتبقى الحياة العامة باقية،
حتى يقدر الله ما قضاه من انتهاء أجلها، فإذا جاء أجلها أمر الملك الكبير
من ملائكة الله الموكِّلين من عنده بما أمروا به - واسمه إسرافيل - بالنفخ
في الصُّور: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ
شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا
وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ *
وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: ٦٨ - ٧٠].

هذه الحياة هي العاجلة:

هذه الحياة التي نعيشها أفرادًا، ونعيشها شعوبًا وأممًا، يسميها القرآن: (العاجلة)، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۖ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١]. وحبُّ العاجلة من طبيعة الإنسان، الذي يألف كل شيء عاجل، قال تعالى في سورة أخرى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨]، فهذه الدنيا هي الدار العاجلة، وأما الآخرة فيعرض الإنسان عنها؛ لأن صفة الإنسان: أنه خلق من عجل، كما قال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، فهاتان الآيتان أكدت لنا هذه الطبيعة الإنسانية العجول.

هذه الحياة هي الدنيا (السفلى):

ويقول تعالى في سورة أخرى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

والمعروف أن كلمة (دنيا) كلمة مشتقة من (دنا يدنو، فهو دان)، واسم التفضيل منه للمذكر أدنى، وللمؤنث دنيا، بمعنى (القرب)، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ [الأنفال: ٤٢]، وأدنى تكون بمعنى (أقل) وعكسه أكثر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، وأحيانًا تكون (أدنى) بمعنى أحط وأسفل، وعكسها هو أعلى وخير، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، والحياة الدنيا هنا هي الحياة (السفلى)، في مقابلة (العليا)، وعلو الحياة الآخرة؛ إنما

هو لبقائها وخلودها، أما الحياة الدنيا، فهي مهما تطل أزمته محدودة، وأيام معدودة، وأعمار موقوتة، فمصيرها الزوال والانتهاء، قُرب أم بُعد، كما قال الشاعر:

هَبِ الدُّنْيَا تَسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوًا أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى انْتِقَالٍ
وَمَا دُنْيَاكَ إِلَّا مِثْلُ ظِلٍّ أَظْلَكَ ثُمَّ آذَنُ بِالزَّوَالِ

مشكلة الدنيا هي الفناء والزوال، مهما طال عمر المرء فيها، والمرء مهما عُمِر في دنياه، فلن يزيد عن المائة إلا قليلاً، وهذا القليل ليس عيشه فيه بلين ولا هيئ، فإنَّ الإنسان يبدأ حياته بمرحلة الضعف (ضعف الطفولة)، ثم تعقبه مرحلة القوة (مرحلة الشباب)، ثم تنتهي بمرحلة الضعف الأخير، وهي (مرحلة الشيخوخة)، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤]، ومن سنة الله أن جعل الوسط في كل شيء أقوى من الطرفين.

الكَبَدُ شَأْنُ هَذِهِ الْحَيَاةِ:

ثم إنَّ من شأن هذه الحياة: أنها حياة مكابدة، من ابتدائها، كما قال سيدنا علي رضي الله عنه في الدنيا حين سئل عنها: ماذا أصف لك من دار أولها بكاء، وأوسطها عناء، وآخرها فناء؟! يشير إلى أن أول ما يصدر من الطفل حين يخرج من بطن أمه الصراخ والبكاء.

وهو ما عبر عنه الشاعر ابن الرومي حين قال:

لَمَّا تُؤْذَنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا يَكُونُ بَكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةً يُوَلَّدُ
وإِلَّا فَمَا يَبْكِيهِ مِنْهَا وَإِنِّهَا لِأَرْحَبُ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَأَرْغَدُ^(١)

(١) البيتان لأبي العتاهية، كما في ديوانه ص ٣٣٨، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٦م.

ولهذا قال تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ١-٤]، أي: يُكابِد المشقَّات والآلام منذ ولادته، مع ما يجد من تيسير الله له كثيرًا في الأمور، رفقا بضعفه، ولطفًا به، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

ومعروف أن طفولة الإنسان هي أطول أنواع الطفولة، فالفرخ يخرج من البيضة يستطيع الحركة والمشي، والنقر والأكل والصياح، حتى قال الناس: (الكتكوت الفصيح، من البيضة يصيح).

والعجل ينزل من رحم أمه البقرة أو الجاموسة قادرًا على الحركة والمشي بلا معلّم ولا معلّمة.

أما الإنسان؛ فهو الطفل الذي ينزل من بطن أمّه، ليس له سنّ تقطع، ولا يد تبطش، ولا قدّم تسعى، ولا عقل يعي، ولا لسان يتكلم، ويحتاج إلى أن يبقى في حضن أمّه، ورعاية والده، شهورًا طويلاً، بل سنوات ممتدة، ترعاه فيها أمّه أولاً، ثم أبوه ثانيًا، ثم إخوته وأسرته وبيئته ثالثًا، ليتعلّم في هذه البيئة الإنسانية المحيطة ما يحتاج إليه في عمره المديد؛ من قعود وقيام، ومشى وحركة، وأكل وكلام، وتعلّم أشياء يكتسب كثيرًا منها عن طريق اللّعب، الذي فطر الله حبّه في كل طفل.

وبعد هذه الفترة الطويلة من الطفولة، وما تحتاج إليه من عوامل مساعدة على التعلّم والترقي، والاستفادة من كل ما حول الإنسان، من معينات وأسباب، وأدوات مادية وبشرية، وعقلية وسمعية وبصرية، تبدأ مرحلة (التعلّم) المنظم عن طريق المدرسة والمعلّم، وما في المدرسة من أولاد وإدارة، ومراقبة وزملاء، وترفيه وتعليم، وبهذا تميّزت حياة الإنسان على حياة الحيوان.



دنيا التغير:

ومن خواص هذه الدنيا التي نحيا فيها أعمارنا التي قُدر لنا أن نحياها: أنها تتغير بسرعة، فلا يبقى فيها شيء على حاله، الصغير يكبر، والشاب يشيخ، والصحيح يمرض، والمريض يصح، والجميع يموت، وكل شيء فيها يتقلب، المستقيم يعوج، والأبيض يسود، والأسود يتغير، والشارق يغرب، والغارب يُشرق، والمختفي يظهر، والظاهر يختفي، وهكذا شأن هذه الدنيا. لا شيء فيها يستمر على حال واحدة، إلا مَنْ خَلَقَهَا وسواها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها.

البحار تغطي على اليابسة، وتأكّل من ثراها، والجُزُر تتأكّل في البحر، والصحراء تغطي على الأرض الخضراء، حتى أصبحت بعض البلاد مهذّدة بالتصحّر.

كل ما في الدنيا يتغير؛ الناس والأحياء والحياة، سواء أكانت حياة نباتية، أم حياة حيوانية، برية أو سائية، أم حياة إنسانية، البذرة تصبح شجرة، والشجرة تصير ورقاً أخضر، والأخضر يعتريه الذبول، والذبول وراءه الموت.

الشمس تطلع، فيظهر النهار، ثم تبلغ الشمس مرتبة الزوال، ويأتي بعد ذلك المساء بعد الصباح، والغروب بعد الشروق، والليل بعد النهار، والظلام بعد الضوء، ثم يبرز الفجر، وتشرق الشمس مرة أخرى، وتتوالى الأحداث هكذا، وهكذا نرى ظواهر الأشياء بأعيننا، وإن كانت خوافيها غير ذلك.

والناس يتغيرون كما تتغير الأشياء من حولهم، يبدأ الإنسان أول ما يبدأ نطفة من منيٍّ يُمنى، ينضم الحيوان المنوي للذكر إلى بويضة

الأنثى، فتكون العلقة، التي تتحول إلى مضغة، ثم إلى عظام تُكسى لحماً، ثم ينشئه الله خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

يبدأ الإنسان ضعيفاً، ثم يقوى وينسى أصله، وماذا كان، وماذا سيكون، فيبدو الإنسان وكأنما هو الذي أنشأ نفسه، فيستكبر في الأرض بغير الحق، وينسى ربه الذي خلقه فصوّره، ورزقه وقدره: ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ * كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ * [عبس: ١٧ - ٢٣].

وكثيراً ما يذكر القرآن هذه المراحل التي مرّ بها الإنسان وهو عاجز غير قادر، ذليل غير عزيز، ضعيف غير قوي، فقير غير غني، شائه غير سوي، شائخ غير فتى، مستسلم غير عصي، مطيع غير أبيّ.

وهذه هي الحياة الدنيا التي هوّن القرآن من شأنها، واعتبر الآخرة هي الحياة الحقيقية، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، والحيوان هنا مصدر لفعل حيي يحيا، فهي الحياة الحقيقية لمن يعرفون الأمور بحقائقها، لا بمظاهرها.

قصر العمر في الحياة الدنيا:

الحياة في الدنيا قصيرة العمر، وإن ظنّها الإنسان طويلة، حتى إنّ مما رَوَاهُ عن نوح عليه السلام، الذي قد طال عمره بما لم يطله عمر بشر: أربعون عاماً - في العادة - قبل أن يبعثه الله تعالى، ثم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم كان الطوفان، ثم سنوات لا ندري كم كانت بعد الطوفان؛ مما رَوَاهُ عنه أن ملك الموت سأله حين جاء ليقبض روحه: يا أطول الأنبياء عمراً،

كيف وجدت الدنيا؟ قال: وجدتُها كدار لها بابان، دخلتُ من أحدهما، وخرجتُ من الآخر^(١)!

الدنيا متاع الغرور:

كل ما يعيشه المرء يصغر في نظره عندما تحين ساعة مغادرته الدنيا، ولهذا وصف الله الدنيا بقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، وفي الحديث: «عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به»^(٢).

ويقول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال النبي ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافراً منها شربة ماء»^(٣). ومن هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها، ولا يتجبر المتجبرون، ويستكبر المستكبرون على أوليائه والمؤمنين به إلا فيها، ولا يُنال ما عنده من خير وسعادة إلا بفراقها.

(١) رواه ابن عساكر في تاريخه (٢٧٥/٦٢)، من قول سفيان بن عيينة.

(٢) رواه الحاكم في الرقائق (٣٢٤/٤)، وصححه، ووافقه الذهبي، والطبراني في الأوسط (٤٢٧٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٦٤٤): رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٣)، عن سهل بن سعد.

(٣) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠)، وقال: صحيح غريب. وابن ماجه في الزهد (٤١١٠)، والحاكم في الرقاق (٣٠٦/٤)، وصححه، وقال الذهبي: زكريا بن منظور ضعّفه. وصحّحه الألباني في الصحيحة (٩٤٣)، عن سهل بن سعد.

وقد سمى الله متاعها متاع الغرور؛ لأن ظاهره يخدع، ولكنه في الحقيقة لا قيمة له؛ لأنه بالبلاء محفوف، وبالغدر موصوف، وبالزوال محتوم.

الدنيا متاع قليل:

كما سماه الله تعالى متاعاً قليلاً: ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۖ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ۚ﴾ [النساء: ٧٧، ٧٨]، وقال تعالى: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۚ﴾ [التوبة: ٣٨].

فهذه هي الدنيا دار مفرّ، وليست بدار مقرّ، كما قال الشاعر:

حكم المنية في البرية جارٍ ما هذه الدنيا بدار قرار
بينما يرى الإنسان فيها مخبراً حتى يرى خبراً من الأخبار^(١)

متاع الدنيا متاع الغرور، وهو متاع قليل، متاع زائل، متاع حقير، بجوار نعيم الآخرة.

وكل عاقل منحه الله عقلاً يفكر به، ويتأمل في مبدئه ومصيره، لا بد أن يقرّر أن يسير في طريق الحق والخير، طريق الله تعالى، وطريق رسله، وطريق المؤمنين من أصحاب الجنة، وما أعظم الفرق بينه وبين طريق أصحاب النار، الذين هم فيها خالدون! ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ۚ وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ ۚ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمُ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ ۚ﴾ [الزخرف: ٧٨]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ۚ ذَلِكَ ظَنُّ

(١) من شعر أبي الحسن التهامي في رثاء ابنه، كما في دمية العصر لأبي الحسن الباخريزي

(١٤٠/١)، نشر دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ.

الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿ [ص: ٢٧]، فَإِنَّ هَذَا مِنْ عَدْلِ اللَّهِ، فَهُوَ لَا يُسَوِّي بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَلَا بَيْنَ الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَلَا بَيْنَ الْمُحْسِنِ وَالْمُسِيءِ: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿ [ص: ٢٨]، ويقول تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿ [الجاثية: ٢١، ٢٢].

تلك هي الدنيا:

تلك هي الدنيا التي نعيش فيها، والتي يتهافت الناس عليها تهافت الذُّباب، ويتقاتلون عليها تقاتل الذئب؛ ولذلك صدق من وصفها، بخسة شركائها، وقلة غنائها، وكثرة عنائها، وسرعة فنائها، وتفاقم أدوائها، وتوالي أرزائها، كما قال بعض الحكماء: الدنيا غدارة غرارة، إن بقيت أنت لها، لم تبق هي لك.

وقال آخر: واجد الدنيا سكران، وفاقدها حيران.

وقال آخر: أف من أشغال الدنيا إذا أقبلت، ومن حسراتها إذا أدبرت.

وقال آخر: إن الدنيا ليست تعطيك لتسرك، ولكن لتغمك وتغرك.

وقال آخر: الدنيا أشبه شيء بظل الغمام، وحلم المنام.

وقال الحسن: حلالها حساب، وحرامها عقاب.

وكما قال الشاعر:

ومن يحمد الدنيا لعيش يسرُّه فسوف - لعمرى - عن قريب يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة وإن أقبلت كانت كثيرًا همومها^(١)
ومُتّعها مع ما فيه من كدر، سريعًا سيموت الإنسان ويفارقها، كما قيل:
وما المرء إلا كالشّهاب وضوئه يحور رمادًا بعد إذ هو ساطع
وما البرُّ إلا مُضمراتٌ من التُّقى وما المالُ إلا مُعمّراتٌ ودائع
وما المال والأهلون إلا وديعةٌ ولا بدَّ يومًا أن تُردَّ الودائع^(٢)

دارنا الحقيقية:

دارنا الحقيقية هي التي نستقرُّ فيها، ونطمئن بها وإليها، لا مرض فيها ولا موت، ولا تقلُّب ولا تغير، إلا من حسنٍ إلى أحسن، ومن أحسن إلى الأحسن دائماً، «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». اقرؤوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]^(٣).

وهذه طبعًا دار السعداء، من المقرّبين ومن أهل اليمين، وأما الأشقياء، فهم في دار أخرى استحقّوها بكفرهم وبأعمالهم، لا يجزيهم الله إلا بما قدمت أيديهم، جزاءً بما كانوا يعملون، وهذه الدار هي النار التي قال الله فيها: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

(١) المحاسن والأضداد للجاحظ ص ١٦٤، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

(٢) من شعر لبّيد بن أبي ربيعة، كما في ديوانه ص ٥٦، تحقيق حمدو طماس، نشر دار المعرفة، ط ١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧٧٩)، ومسلم في الجنة (٢٨٢٤)، عن أبي هريرة.



(٣)

القبر أول منازل الآخرة

القبر أول منزل من منازل الآخرة، وفي الحديث أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كانت تُذكر أمامه الجنة والنار فلا يبكي، فإذا ذكر القبر بكى، ثم لا يكون لبكائه حدٌ، فسئل في ذلك فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «القبر أول منزل من منازل الآخرة، وآخر منزل من منازل الدنيا، فمن نجا منه، فما بعده أيسر منه، ومن لم ينجُ منه، فما بعده أفظع وأشد منه»^(١).

وكان عثمان يتمثل بقول الشاعر:

فإن تنج منها تنج من ذي عزيمة وإلا فإنني لا إخالك ناجيًا^(٢)

سؤال القبر وعذابه:

والسبب فيما قال عثمان رضي الله عنه أن أحكام الآخرة وأحوالها تجري على الميت لأول ما يوضع في القبر، فيجري سؤاله ويُحدّد له مكانه في الجنة أو النار.

والقبر إما أن يكون روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حُفَر النار، فإن العبد إذا أُدْخِل في قبره ضمّه القبر ضمة تتداخل معها أضلاعه، وهذه

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٠٨)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الزهد (٤٢٦٧)، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٤٥٤)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. والحاكم في الجنائز (٣٧١/١)، وصححه، وقال الذهبي: ابن بحير - أحد الرواة - ليس بالعمدة ومنهم من يقويه، وهانئ روى عن جماعة، ولا ذكر له في الكتب الستة. اهـ. والعجب أن الذهبي وافق الحاكم على تصحيح حديث من طريق ابن بحير قبل هذا الحديث مباشرة. وابن بحير وثقه ابن معين وغيره، واضطرب فيه قول ابن حبان، الحديث.

(٢) عزاه المنذري في الترغيب والترهيب (٥٣٨٧) بعد الحديث السابق لرزين، وقال: لم أره في شيء من نسخ الترمذي.

الضمة لا ينجو منها أحد، سواء أكان مؤمناً تقياً أم كافراً شقيّاً، ففي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إن للقبر ضغطة، ولو كان أحدٌ ناجياً منها نجا منها سعد بن معاذ»^(١).

وجاء في الحديث: «إن العبد إذا وُضِعَ في قبره، وتولّى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؛ محمد ﷺ؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله. فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله تعالى به مقعداً من الجنة، فيراهما جميعاً.

أما المنافق والكافر، فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس. فيقال: لا دريت ولا تليت. ويضرب بمطارق من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين»^(٢).

أدلة القرآن على عذاب القبر:

وقد أشار القرآن الكريم إلى عذاب القبر في قوله تعالى عن آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، والعرض على النار هنا نوع من العذاب، وهو حاصل قبل يوم القيامة بلا شك، بدليل قوله تعالى في الآية نفسها: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾. فدلّ

(١) رواه أحمد (٢٤٢٨٣)، وقال مخرجه: حديث صحيح. والطحاوي في مشكل الآثار (٢٧٣)،

وابن حبان في الجنائز (٣١١٢)، عن عائشة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٣٧٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٧٠)،

عن أنس.

ذلك على ثبوت عذاب القبر، وهذا المعنى يؤيده ما رواه البخاري ومسلم، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة»^(١).

وفي قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]. فقول ملائكة العذاب: ﴿الْيَوْمَ﴾، يدل على الزمن الحاضر، وهو بلا شك قبل يوم القيامة. فدل ذلك على أن الكفار يعذبون قبل البعث والحساب.

قال شيخنا محمد الغزالي في تفسير سورة الأنعام: (وغمرات الموت: شدائده وسكراته، وهي عندما تفجأ الظالم تثير فيه من الدهش والألم ما يدخره ويخزيه.

والموت أول مراحل العذاب لهؤلاء الطاغين، وكلمة: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ تشير إلى ذلك، فإنَّ بسط اليد معناه الإيذاء، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ...﴾ [المائدة: ١١]، وقال على لسان ابن آدم: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَىٰ يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي...﴾ [المائدة: ٢٨].

وعندما تنزع الملائكة روح ظالم، تقفه مباشرة أمام بواذر الغضب الإلهي، وتضعه وجهًا لوجه أمام عذاب البرزخ...

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٣٧٩)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٦٦)، عن

وقول الملائكة للظالمين: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾. أمر تهكم وتوبيخ، وكأنه سخرية من تعلقهم السابق بالحياة، وظنهم أنهم مخلدون على ظهر الأرض.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ هذه العبارة نص في عذاب القبر للفسقة والطغاة، وهي بقية خطاب للملائكة لهم عند انتزاع أرواحهم.

والهُون: المذلة والإهانة، والمقصود باليوم: بدء تنفيذ العقوبة كما نقول: اليوم نشبت الحرب؛ أي: بدأ اشتعالها، والمعنى: أن العذاب يقع مع انتزاع الأرواح.

ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى في مشركي قريش الذين قتلوا يوم بدر: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وما وقع لقتلى بدر من الطغاة ليس بدعاً من العقاب، ولكنه شأن الله في أمثالهم من الجبابرة الصّادّين عن سبيل الله: ﴿كَذَابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾ [آل عمران: ١١].

وهؤلاء الفراعنة ذكرت عقوبتهم في سورة أخرى على أنها مُعَجَّلَةٌ مع البرزخ، وليست مُؤَجَّلَةٌ إلى يوم النشور، قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وهذا التعجيل هو دأب الحق مع المستكبرين والظلمة من أول الرسالات السماوية وعلى امتداد العصور، ومن ثم يقول الله في قوم نوح: ﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

والتعبير بالفاء المفيدة للترتيب والتعقيب يدلُّ على أنَّ عذاب الحريق جاء بعد عذاب الغرق مباشرة^(١).

ومن دلائل القرآن أيضًا قوله تعالى: ﴿فَذَرَّهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿[الطور: ٤٥ - ٤٧].

وقد روى الطبري عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ *، يقول: عذاب القبر قبل عذاب يوم القيامة^(٢).

عالم البرزخ:

وهذه المدة في القبر بين الموت والبعث، التي أخبرنا عنها ربُّنا سبحانه في كتابه، وفصلها لنا رسوله ﷺ في سنته، وذكر لنا من أحوالها وأخبارها، تسمَّى عالم البرزخ.

وقد ورد البرزخ في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ * [المؤمنون: ١٠٠].

والبرزخ لغة: ما بين كل شيئين، أو هو الحاجز بين الشيئين، وقد جاء في التنزيل قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿[الرحمن: ١٩، ٢٠]. ومعناه: الحاجز الخفي، ومثله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ * [الفرقان: ٥٣]. فالبرزخ هو الإمهال إلى يوم القيامة، وعالم البرزخ له متعلق

(١) تفسير سورة الأنعام لشيخنا الغزالي، مجلة لواء الإسلام العدد (٤)، السنة (٢٥)، ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م.

(٢) رواه الطبري في التفسير (٤٨٧/٢٢).

بالدنيا والآخرة، فهو يبتدئ من نهاية الدنيا: وبنزع رُوح المحتضر، وينتهي ببداية الآخرة، يبعث الأموات للحساب يوم القيامة.

هل عذاب القبر للبدن أم للروح أم لهما معاً؟

لا أحب الدخول في تفاصيل هذه القضية؛ لأن الواجب في أمور الغيبات ألا ندخل في تفاصيلها، ولا نحاول أن نعرف كُنْهها؛ لأننا أعجز من أن نعرف ذلك، وليس عندنا من الوسائل ما نملك به هذه المعرفة لحقائق الأشياء وكنْهها، ونحن نؤمن بكل الغيوب، وندع كُنْهها إلى الله تبارك وتعالى العليم الخبير، الذي أرشدنا إلى المنهج الأمثل في التعامل مع مثل هذه الغيبات فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

هل التعذيب للبدن والروح معاً أم للروح فقط؟ الله أعلم، والظاهر أنه للروح والبدن.

قد يقول قائل: كيف ونحن لو فتحنا القبر نجد البدن كما هو؟ أقول: الله أعلم كيف يحصل الألم للبدن، على كل حال الإنسان في قبره إما يعذب وإما ينعم، والقبر إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حُفَر النار، وبعض الناس ينعمون، مثل الشهداء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ * وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠]. وبعضهم يعذبون.

وأقول: حقيقة الإنسان الروح، والجسم مجرد غلاف، ولذلك جسم الإنسان يتغير، ينمو ويمرض، وتتجدد خلاياه وتتغير، تموت خلايا وتنشأ



غيرها، قد يُقطع عضو منه أو يُستبدل به عضو آخر، وتظل حقيقة الإنسان هي هي، فالعبرة بالنفس الإنسانية، بالروح، بالعقل، بهذا الشيء الذي هو جوهر الإنسان، فهو الذي في الحقيقة يقع عليه الثواب والعقاب، وهناك صلة ما بالجسم لا نعرف كنهها، ولكن الروح هي الأساس.

* * *



(٤)

الإيمان بالآخرة وأصناف الناس حول هذا الإيمان ما بين جاحد لها، ومشكك فيها، وجاهل بحقيقتها، وموقن بها

الناس أصناف وأنواع شتى، هكذا عرفناهم، وهكذا عاشرناهم، وهكذا اختبرناهم، سواء اتفقنا معهم، أو مع بعضهم، أو اختلفنا معهم، أو مع غيرهم.

هناك أهل الإيمان والقيَم، وهناك أهل الشك والجدل، بل هناك الذين يشكُّون، ويشكُّون في أنهم شاكُّون، وهناك الذين يؤمنون حيناً، ويشكُّون حيناً، وهناك، وهناك.

هناك من عرفناهم بالخبرة والمعايشة، وهناك من عرفناهم عن طريق القراءة، قد كانوا قبلنا، وكانت لهم حياة كحياتنا، ثم ماتوا، ولكن سيرتهم لم تمُت، فقد نُقلت إلى من بعدهم، الناس يتوارثون الماديات، ويتوارثون المعنويات، ومنها السير والأحداث وما يكون مادة التاريخ.

فهل لنا أن نعرف قصة الناس وأصنافهم مع الآخرة؟

١- الجاحدون المنكرون:

هناك أولاً الجاحدون بوجود الآخرة، المنكرون لها، ولكل أمر لا تثبته الحواس، وتدركه الأجهزة، وتُجرى عليه التجارب، ويخضع لما يخضع له كل شيء محسوس، فأما ما لم تره العين، ولم تسمعه الأذن، ولم تشمه الأنف، ولم يتذوقه اللسان، ولم تلمسه البشرة، ولم يُحس به بأية حاسة قد يكتشفها الإنسان، فهذا غير موجود؛ ولذلك لا يؤمن هؤلاء إلا بالحاضر الذي تتعامل معه، ويؤثر فيك، وتؤثر فيه.

وأما ما مات فقد فات، وما مات لا يحيا ولا يعود، وأما المستقبل، فلا نعرفه، إلا إذا جاء إلينا، ورأيناه بأعيننا، ولمسناه بأيدينا، وأدركناه بحواسنا، كما قال الشاعر:

ما مضى فات، والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها^(١)

فهذا هو شأن الملاحدة الجاحدين لكل ما فوق الحس، ولا يؤمنون بربوبية أو ألوهية، وبالتالي لا يؤمنون بنبوة ولا رسالة، فمن كفر بالمرسل، لا يمكن أن يؤمن برسول، إذ سيقول: من أرسله؟ وهؤلاء لا يؤمنون بأن وراء الدنيا حياة أخرى، إذ لماذا توجد هذه الحياة الأخرى؟ ومن يوجدها؟ إذا كانت الحياة الأولى التي يعيشها الناس لا خالق لها، ولا رب وراءها، فكيف بمن جحد هذه: أن لها رباً، مع أن كل ما فيها ينطق بوجوده وقدرته، كيف يؤمن بحياة أخرى لم يرها؟

فهؤلاء هم الذين حدثنا القرآن عنهم حين قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]، وفي مقام آخر ذكر عنهم أنهم قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ وإذا نُتِلَى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٤، ٢٥].

وانتهى هؤلاء إلى أن قصة الحياة تتلخص في كلمتين: أرحام تدفع، وأرض تبلع، ولا شيء وراء ذلك، كما قال الشاعر:

لِدُوا للموت، وابنوا للخراب فكلُّكم يصير إلى التراب^(٢)!

(١) من شعر إبراهيم بن عثمان الغزي، كما في الدر الفريد للمستعصمي (٥٠٦/٤)، تحقيق د. كامل سلمان الجبوري، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

(٢) البيت لأبي العتاهية، كما في ديوانه ص ٤٦.

وقد جادلنا هؤلاء القوم في كتابنا (القضايا المبدئية والمصيرية الكبرى للإنسان)، وأقمنا عليهم الحجج القاطعة، والبيّنات الساطعة.

٢ - الشاكّون والمرتابون:

وهناك دون هؤلاء من يؤمنون بضرورة الآخرة، ولكنهم يشكّون في وجودها، كمثّل ما كان عليه كثير من مشركي العرب، ومشركي الأمم من حولهم، فبعضهم ليس عنده مانع من وجود حياة أخرى، ولكنه يجد ذلك صعباً، فمن ذا الذي يقدر على أن يعيد الإنسان إلى ما كان عليه بمادته وصورته، وهيكله العظمي، وأجهزته الهضمية والتنفسية والدموية والبولية والتناسلية وغيرها، وما فيها من أدوات وشعيرات، وخصائص ومكوّنات في غاية الدقة، كيف تعود هذه إلى ما كانت عليه؟ ومن يحيي العظام وهي رميم؟

استبعاد المشركين للبعث:

وقد استبعد المشركون إعادة الحياة إلى الأجساد مرة أخرى، وأنكروا أن تبعث من جديد بعد أن تحلّلت وبلّيت العظام، وتحولّت إلى تراب، وكانوا يقولون كما أخبر عنهم القرآن: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: ١٦، ١٧].

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

وقالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣].

بل أقسموا على ذلك كما حكى عنهم الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨].

وقد بلغ الاستبعاد والإنكار بأحدهم أن ذهب إلى رسول الله ﷺ وبيده عظم قد بلي وتفتت، وقال: يا محمد، أترى أن الله يحيي هذا بعد ما رم؟ فقال له النبي ﷺ: «نعم ويبعثك ويدخلك النار»^(١). ونزل قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

ردّ القرآن على هؤلاء المشكّكين والمرتابين من العرب وأمثالهم بعدّة أمور يقبلها العقل الذي يحتكم إلى المنطق، ولا يتردد في إثباتها.

أولاً: الإعادة أهون من البدء:

هكذا ردّ القرآن على الشاكّين والمشكّكين في القدرة على الإعادة، وهي أن الله تبارك وتعالى الذي خلقهم أول مرة من لا شيء، من العدم المحض: قادر على أن يعيدهم. فهذا أمر معروف بالفطرة والتجربة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

وقد أمر الله رسوله أن يرد على ذلك الذي استبعد إحياء العظام وهي رميم بقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

وآيات القرآن التي تقيم الحجّة على العباد بخلقهم الأول كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَنُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَنُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٦، ٦٧].

(١) رواه الإسماعيلي في معجم شيوخه (٣٥٩)، والحاكم في التفسير (٤٢٩/٢)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، عن ابن عباس.

ثانيًا: خلق ما هو أكبر من الإنسان:

وبَيَّن القرآن أيضًا في رده على الشاكِّين والمشكِّكين في القدرة على إعادة الإنسان، الذين قالوا: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣].

ناقش القرآن هؤلاء وقال لهم: ﴿لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

فالذي لا يعيا بخلق السماوات والأرض لا يعجز عن خلق الإنسان أو إعادته. يقول شيخنا الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: (إذ كيف يستنكر على من يقيم قصرًا منيف الشرفات سامق العُمد أن يبني كوخًا تافهًا بعد هدمه)^(١).

يقول الله تعالى للذين ينكرون البعث يوم القيامة، ويستبعدون قيام الأجساد يوم المعاد: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

ويقول سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ] [يس: ٨١، ٨٢].

إنَّ الإنسان بكل ما فيه، من حياة وقوى، وأعضاء وأجهزة، وخلايا بمئات الملايين وآلاف الملايين، إنَّ هو إلا مخلوق بسيط جدًّا في الكرة الأرضية، التي هي جزء بسيط جدًّا من المجموعة الشمسية، التي هي جزء يسير من المجموعات الهائلة التي تكوّن مجرتنا التي نعيش فيها (درب التبانة)، والتي يقدر العلماء عدد نجومها بين مائة مليار إلى ثلاثمائة مليار نجم، وهذه مجرة واحدة من ملايين المجرات في الكون.

(١) عقيدة المسلم للغزالي ص ٢٢٩.

إِنَّ هَذَا الْكَوْنُ الْهَائِلَ الَّذِي لَا نَعْرِفُ عَنْهُ إِلَّا الْقَلِيلَ، وَلَا نَرَى مِنْهُ إِلَّا ثَلَاثَةً فِي الْمِائَةِ فَقَطْ، وَسَبْعَةٌ وَتِسْعُونَ فِي الْمِائَةِ مِنْ تَكْوِينِهِ الْمَادِي لَا نَرَاهُ، وَكُلَّ النُّجُومِ الَّتِي نَرَاهَا، وَالَّتِي لَا نَرَاهَا، وَالَّتِي يَزِينُ اللَّهُ بِهَا السَّمَاءَ، إِنَّمَا هِيَ لِلْسَّمَاءِ الدُّنْيَا فَقَطْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملِك: ٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصَّافَات: ٦].

فكل هذه النجوم أو الكواكب التي نراها من بعيد بقعة ضوئية صغيرة، ولعلها أكبر من أرضنا كلها بعشرات المرات أو مئاتها؛ كلها جزء من السماء الدنيا، ترى ماذا يكون قدر السماوات الأخرى وحجمها واتساعها؟ وماذا فيها؟

ثالثاً: القدرة الإلهية لا حُجْرَ عليها:

رَدَّ الْقُرْآنُ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِأَنْ هُنَاكَ رَبٌّ لِهَذَا الْكَوْنِ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ هَذَا الرَّبَّ الْخَالِقَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ، لَا يَعْرِفُونَ أَنَّ هَذَا الرَّبَّ قَدِيرٌ عَلِيمٌ مُرِيدٌ، وَأَنَّ قُدْرَتَهُ لَا نَظِيرَ لَهَا، وَأَنَّهُ يَخْلُقُ الشَّيْءَ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ، كَمَا خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً، وَأَنَّ أَمْرَهُ بَيْنَ الْكَافِ وَالنُّونِ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * [يَس: ٨٢، ٨٣].

وَمَا هُوَ كُلُّ يَوْمٍ، وَكُلِّ سَاعَةٍ، وَكُلِّ لَحْظَةٍ، يَخْلُقُ أَنْسَاءً وَحَيَوَانَاتٍ وَوَحُوشاً، وَطُيُوراً وَحَشَرَاتٍ، وَزَوَاحِفَ وَأَسْمَاكاً وَحَيْثَاناً، وَكَائِنَاتٍ صَغِيرَةً لَا تُرَى بِالْعَيْنِ الْمَجْرَدَةِ، وَكَائِنَاتٍ نَبَاتِيَّةٍ، فَصَائِلُهَا بِالْمَلَايِينِ، غَيْرَ مَا يَخْلُقُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ حَوْلِنَا، وَمِنْ فَوْقِنَا، وَمِنْ تَحْتِنَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذَّارِيَات: ٤٧].

فهذا الكون الذي يوسّعه الله كما يشاء بإرادته وقدرته، وعلمه وحكمته، يدل على أن القدرة الإلهية فوق كل تصوّر لنا يمكن أن نتصوره، فتصوّرنا على كل حال محدود بحدود قدرتنا وإمكاناتنا، أما ما يتعلق بالرب الأعلى، فهو فوق ذلك كله، ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَهُوَ الْكَبِيرُ﴾ [البقرة: ٢١٠، ٢١١].

٣ - الذين يجهلون العدالة الإلهية:

وهناك فئة لا تمتنع من الإيمان بالبعث، وبأن هناك حياة أخرى، ولكنهم يصوّرون الحياة كما يحلو لهم، فمن هؤلاء من يظن أن مالك يوم الدين، ومَلِك يوم الدين، يوم الحساب، يوم الفصل بين الخلائق: إنما هو ملك مثل ملوك الدنيا، يتصرّف كما يتصرف الملوك الظلمة والمستبدون، ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ﴾ [الفجر: ١١، ١٢].

وبهذا تصور هؤلاء الأغبياء من أهل المال والثراء، الذين يملكون القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيول المسوّمة والأنعام والحرث: أنهم في الآخرة سيكونون كما كانوا في الدنيا، يأكلون ويشربون، ويلبسون وينكحون، ولا يجدون على أنفسهم لأحد حقاً، المال مالهم، والناس خدّمهم، ولا حق لأحد عندهم، ليس لفقير حق، ولا لأجير حق، ولا ليتيم حق، ولا لأرملة حق، ولا لابن سبيل حق، ولا لأي إنسان ضعيف أو مهضوم حق.

آخرة هؤلاء ليست كما يتوهمونها:

ويصبح هذا الثري الصحيح المتكبر، كما قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦].



ويذكر القرآن لنا نموذجًا من هذا الإنسان الذي يتصور الحياة كما يشتهي لنفسه الحيوانية السبعية الشيطانية، يقول تعالى: ﴿لَا يَسْمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٤٩، ٥٠].

ومثل هؤلاء المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة من رجال أهل الكتاب، من اليهود أهل التوراة، ومن النصارى أهل الإنجيل؛ فهؤلاء لا يتصورون الآخرة دارًا لإقامة العدل الإلهي الكامل، الذي افتقده الناس في الحياة الدنيا، وهم لا يتصورون أن العدل في هذه الدار الجديدة قد بُني على أرسخ الأسس، وأعظم المبادئ، فيُعطي كل ذي حقَّ حقه، ويُردُّ إلى كل مَنْ له عند الآخر شيءٌ شيءٌ من الذي ظلمه وأخذه منه، وتُرد الأمانات إلى أهلها، ولا يضيع لأحد فلسٌ أو حق، مما قلَّ أو كثر.

كل الناس سواسية أمام الله، لا فضل لأحد على أحد بجنس أو نسب أو مال، أو جاه أو ملك أو أي شيء مما كان يتباهى الناس به في الدنيا، فقد تركوا هذا وراءهم ظهريًا، وعادوا إلى الله كما خلقهم، ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

هم يعتقدون أنَّ على الإنسان أن يدخل دينهم النصراني أو اليهودي، ثم يعمل ما يعمل، فيسرق أو يزني أو يقتل، أو يفسد في الأرض، أو يطغى على الناس، ويدمر عليهم حياتهم، ويخسهم أشياءهم، ويأكل

حقوقهم، ويذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، يأكل الأموال بالباطل، ويهتك الأعراض، ويستبيح الحُرّمات، ويستحل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، وكل هذه المنكرات الفظيعة والمستبشعة مغفورة له، ومغفوّ عنها، بشفاعه أنبيائهم، أو الأحرار والقسيسين والقديسين منهم، وإن أخلّ ذلك بميزان العدل، ومقاييس الحق، وكأن الدين قد أعطى للجبارين والظالمين والفاسقين فرصة لا يستحقونها، فقد ظلموا الناس بغير حق: أكلوا أموالهم، وهتكوا أعراضهم، واستحلّوا حرّماتهم، وفتكوا بحقوقهم وحرّياتهم، واعتدوا على كل ما يعتزون به!

فحقيقة عقيدتهم أن المظلومين المعتدى عليهم لن يجدوا العدل والإنصاف في يوم العدل والإنصاف.

وما يعتقده هؤلاء هو مما علّمه لهم معلّموهم، وليس من عند الله، ولا قاله رسل الله الصادقون.

اعتماد المشركين وكثير من أهل الكتاب على نفع الشفاعة لهم عند الله:

كان كثير من العرب، ومعهم كثير من أهل الكتاب، ومن غيرهم، يعتمدون على الشفاعة؛ بمعنى: أن هناك من يعصون الله تعالى، ويعتدون على عباده، ويسيوّن إلى الصالحين، ويعتدون على المستضعفين، ثم هناك شفاعة عند الله تُنجيهم من عذابه.

زعم المشركون أنّ آلهتهم المزعومة من الأصنام وأمثالها تشفع لهم عند الله، فيعفو عنهم، ويمحو كل جرائمهم، ويقبلهم مع المرضيّين من عباده الصّالحين. وقال مثل ذلك من قال من رجال الأديان الكتابيّة، عن شفاعة رجال الدين من الكهنة والقسيسين والأحرار والرهبان.

حكى القرآن عن المشركين أنهم قالوا عن أصنامهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]. وهذه الزلْفى هي الشفاعة لهم فيما حكم عليهم به يوم الدين، فيما ارتكبوه من موبقات ومظالم وشنائع.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

الشفاعة عند الله لها شروط:

وزعم المشركون أن آلهتهم تشفع لهم في أي أزمة تعرض لهم، وأن الله تعالى يستجيب لشفاعتهم، ولا يملك أن يردهم أو يرفض شفاعتهم، وهذا كله نفاه القرآن غاية النفي، وأهدره كل الإهدار؛ لأن هذه الأصنام لا قيمة لها عند الله، فهي أحجار، لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، ولا تغني عن صاحبها شيئاً، وهي لا يمكن أن يكون لها تدخل في أمر ضد العدل الإلهي، لو كان يمكنها أن تتدخل، لذلك قال الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وهم أهل التوحيد، أما المشركون فقد قال الله تعالى: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤].

وقال تعالى عن ملائكته: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فالشفاعة المعتمدة في هذا اليوم العصيب، الذي يُرى الناس فيه سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد، هذه الشفاعة لها عدة قواعد أساسية نجملها فيما يلي:

من شروط الشفاعة أن تكون بعد إذن الله:

الأولى: أن هذه الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله فيها، كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].

الشفاعة لمن يرتضيه الله، لا للأصنام ولا لمن والاها:

الثانية: أن لا شفاعة للآلهة المزيفة، ولا لرجال الدين الزائفين، في هذا اليوم العظيم، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا * [مريم: ٨١، ٨٢]، ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نصرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ * [يس: ٧٤، ٧٥].

المشركون لا تقبل شفاعتهم:

الثالثة: من القواعد: أن قوانين العدل الإلهي في هذا اليوم لا تُخرق، فالشرك لا يغفره الله أبداً، لأي أحد، ولا يقبل فيه شفاعة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]. وكما في الآية الأخرى من السورة نفسها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

ومن هنا لا يقبل الله لأحد أن يشفع لمشرك، كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]. والظالمون هنا هم أهل الشرك، فإن الشرك ظلم عظيم.

وقال تعالى عن أهل الشرك: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

وسنفضّل الحديث في أمر الشفاعة فيما بعد.

٤ - الذين يؤمنون بتناسخ الأرواح:

ومن الذين لم يصح إيمانهم بالدار الآخرة، أولئك الذين يتصورون الآخرة في هذا الحكم الغريب، الذي تصوره هؤلاء الناس من أهل الشرق الأقصى ومن قَبْلَ فكرتهم، فيما عُرِف بين الناس باسم (تناسخ الأرواح).

فما هي حقيقة تناسخ الأرواح، وهل التناسخ حياة حقيقية؟ وهل يحقق العدالة الإلهية؟

علينا أن ننظر في هذا الأمر نظرة الإنسان العاقل، الذي يستخدم العقل وحده، وإن لم يكن لديه دين يؤمن به، فماذا يقول أصحاب نظرية التناسخ؟

يقول أصحاب هذه النظرية: إنَّ الإنسان يتتابع عليه الموت والحياة، مرّة بعد مرّة في هذه الدنيا نفسها، لينال جزاء أعماله، فإن كانت أعماله في حياته الأولى سيئة، يأتي في حياته التالية بعد موته في صورة حيوان من الحيوانات، كلبًا أو حمارًا، أو بغلاً أو قردًا، أو ذئبًا أو نمراً، أو ثعبانًا أو تمساحًا.. أو غير ذلك من أنواع الحيوانات والوحوش والطيور والزواحف والحيوانات المائية، أو يكون في صورة شجرة من

الأشجار الرديئة والخبيثة، أو كرجل من أخط الناس وأدناهم منزلة في الخلق والسلوك.

وإن كانت أعماله في حياته الأولى حسنة وصالحة، ارتفعت منزلته في حياته القادمة، وعلت درجته، فيصبح إنساناً في مقام أرفع، وسلوك أصلح، أو شجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء.

ونحن في الحقيقة نعجب ونستغرب من هذه العقيدة التي لا ندري من أين جاء بها أصحابها، ومن الذين بلغهم بهذا، وهل هناك حمار قال لهم: إنه كان رئيس وزراء من قبل، وأنه يتعذب بحماريته؟! أو أن خنزيراً قال لهم: إنه كان كاهناً زائفاً يفترى على الله تعالى وعلى رسله، ويبيع لهم ديناً مشوّهاً لا حقيقة له؟! ومن قال لهم: إن الشجرة الخبيثة كانت امرأة عاهرة، تخون زوجها، ولا تصون نفسها وتحفظ فرجها؟ وهل هناك بشر علم أنه ارتقى من بشر آخر بحسن سلوكه، وسماً مقامه، فأصبح هذا الإنسان السوي؟!!

على أيّ أساس قامت هذه النظرية، التي تتحدث عن شيء يجري في هذه الدنيا لا يُحسّ به إنسان ولا قرد ولا كلب ولا حمار؟!!

وندع للإمام أبي الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية في الهند، وما تفرّع منها، يرد على هؤلاء، ويناقشهم بمنطقه العقلي الفطري النقي، فيقول: «الإنسان هو إنسانٌ في حياته الحاضرة؛ لأنه عمل الصالحات عندما كان حيواناً في حياته الأولى، وأن الحيوان هو حيوانٌ في حياته الحاضرة؛ لأنه عمل السيئات عندما كان إنساناً في حياته الأولى.

وبكلمة أخرى: إن كون الإنسان إنساناً، والحيوان حيواناً، والشجر شجراً، إنما هو نتيجة لأعماله الصالحة أو السيئة الماضية في حياته الأولى، وهكذا يتتابع عليه الموت والحياة في هذه الدنيا.

والسؤال الذي ينشأ بهذا الصدد، هو: أي شيء كان في هذه الدنيا في بدء الأمر؟

فإن قلت: (الإنسان)، فلا بد أن يكون حيواناً أو شجراً قبل ذلك، وإلا فعلى أي عمل صالح أنعم عليه بقلب الإنسان هذا؟

وإن قلت: (الحيوان أو الشجر)، فلا بد أن يكون إنساناً قبل ذلك، وإلا فما هي الأعمال السيئة التي اقترفها وأوتي قلب الحيوان أو الشجر جزاء عليها؟!

فالحق أن القائلين بهذه العقيدة لا يمكنهم أن يقرروا بدء الخلق في هذا العالم من جيل معين معلوم، فإن كل جيل من أجياله، لا بد أن يكون سبقه جيل آخر، حتى يكون الجيل الآخر نتيجة لأعمال الجيل السابق. وهذا مما يخالف العقل ولا يوافقه^(١).

وأنا في الواقع أتأمل هذا المذهب الغريب، الذي آمن به مجموعة كبيرة من البشر، ولا أدري على أي أساس يبنون هذا المذهب: أهو على أساس العقل والعلم؟! في الحقيقة لا أجد أي أساس عقلي أو علمي يسوّغ الاعتقاد بهذا الذي يقولونه.

من يقول: إن الحمار الذي تتمطى ظهره، وتضع عليه البردعة، كان مديراً لإدارة الأمن، أو وكيلاً لوزارة التموين، أو وزيراً للزراعة؟

(١) مبادئ الإسلام للمودودي ص ١٠٤، ١٠٥، نشر مؤسسة الرسالة.

ومن يقول: إِنَّ هذا الكلب العقور أو النمر المفترس كان وزيرًا للداخلية أو وزيرًا للحربية، أو وزيرًا للبترول؟!!

ومن الذي قال: إن الثعبان أو العقرب أو غيرهما من الحشرات والزواحف الضارة، كان رجلَ سوء أو امرأة سوء، وإنه جُوزي على ذلك بأن جُعل على هذه الحال؟! وهل هو يدري أنه منقلبٌ عن شخصٍ إنسان كان قبل ذلك أساء وأفسد في اعتقاده وسلوكه وعلاقاته، فجُوزي بأن جعل حمارًا أو فيلاً، أو قردًا أو كلبًا، أو ذئبًا أو نمراً، أو فهذا أو ضبعًا، أو غير ذلك مما يؤذي الناس ويسبب الكآبة لهم، أو يقضي على حياتهم؟

لا أظنُّ أيَّ حيوان من هذه الحيوانات يدري شيئاً من ذلك، فلا يعرف الحمار إلا أنه حمار، ولا القرد إلا أنه قرد، ولا الثعبان إلا أنه ثعبان.

وعلى العكس من ذلك: الإنسان الذي انقلب عن حمار أو كلب، أو قرد أو ذئب أو ثعبان، أو حدأة أو غراب، أو عن وحش مفترس، هل يدري: أنه كان فيما مضى من الزمان هذا المخلوق الذي لا يبلغ درجة الإنسان، وأنه عُوقب فأُعطي له صورة هذا الحيوان أو الوحش أو الطير أو الزاحف من الزواحف؟

لا نجد أيَّ إنسان في العالم في عصرنا هذا الذي جمع ما يقارب الثمانية مليارات من البشر، يُحسُّ في نفسه أو في عقله الظاهر أو الباطن بشيء من هذا.

ونحن نعلم أن هذه الكائنات المتنوعة خلقت هكذا من أول الأمر، ونحن المؤمنين بالله رب العالمين؛ نوّمن بأن الله خلقها أجناسًا وأنواعًا

وفصائل قد تعدُّ بالملايين، خصوصًا في النباتات، وهي هكذا ثابتة منذ بدأ الناس يتعرّفون عليها في حياتهم.

ونحن نعلم - من نتائج تطور العلم البشري بالكائنات الحيّة - أن هناك قانونًا يسمّى قانون الوراثة، تنتقل على أساسه الموروثات - عن طريق الجينات - من الأصول إلى الفروع، وقد جرّبها العلماء المتخصّصون، ووجدوها صادقة، وإذا شدّت عن المعتاد يومًا فإنها تشدُّ تبعًا لقانونٍ آخر يفسّره علم الوراثة.

وهذا العلم الثابت، وكل الأدلة القطعية المؤيِّدة بالتجارب العلمية والتحليل الوافية في العالم كله: تؤكد لنا أن هذه المخلوقات التي نشاهدها، ونعلم عنها ما نعلم، ونأكل منها ما نأكل، ونستخدم منها ما نستخدم، ونحترس من بعضها ما نحترس، هي هكذا كانت، وتكون اليوم، وستكون في الغد، وبعد الغد، كما هي، مع خضوعها كما يخضع كل المخلوقات لقوانين التغيير.

ولا معنى لأن يقيّد البشر أنفسهم بهذه الاعتقادات الشاذة، التي لم يقم عليها دليل من عقل رشيد، أو فطرة سوية، أو من كتاب مُنزل، أو من خبر رسول مُرسل، أو حتى من خيال معتدل، أو من أي مصدر ممكن أن يقبله الناس.

٥ - الموقنون بالآخرة وهم أهل العدل والفضل من الرسل وأتباعهم:

والصنف الخامس هم الذين آمنوا بأن الدنيا دار ممرّ، وأن الآخرة هي دار المقرّ، وأن الدنيا دار الزراعة، والآخرة هي دار الحصاد، وأن الدنيا هي دار الإعداد، وأن الآخرة هي دار الجزاء، والجزاء الذي ينال فيه الإنسان ما يستحقه على عمله خيرًا كان أو شرًّا، ثوابًا أو عقابًا، جنة أو نارًا.

وإيمان هؤلاء بذلك ليس إيماناً مزعزعاً أو رخوّاً أو واهياً، بل هو إيمان بلغ درجة اليقين الثابت الذي لا يتزلزل، ولذلك وصفهم القرآن بقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿ [البقرة: ٣، ٤].

يقوم إيمان هؤلاء - أو قل: يقينهم - بالآخرة على عدّة مبادئ أو قواعد راسخة كالجبال، لا تتزلزل، ولا تتزعزع.

إنهم يؤمنون أنّ الموت ليس نهاية المطاف، وأن وراء هذه الحياة الفانية حياة أخرى باقية، تُوفّى فيها كل نفس ما كسبت، وتُجزى بما عملت، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ [الزلزلة: ٧، ٨].

ويردّون على كل من كفر بالبعث بعد الموت، ويقولون لهم: أهذا ملخص قصة الحياة والإنسان؟ أرحام تدفع، وأرض تبلع، ولا شيء بعد هذا؟ أو كما عبّر القرآن عن قوم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ * [المؤمنون: ٣٧].

إن الشعور بأن هناك حياة أخرى بعد الموت أنه لم يخلق لمجرد هذه الحياة، ولتلك المدة القصيرة مكنون في وجدان كل إنسان من قديم الزمن.

يقول الشيخ محمد عبده: «اتّفقت كلمة البشر موحدّين ووثنيين، ملّيين وفلاسفة - إلا قليلاً لا يقام لهم وزن - على أن لنفس الإنسان بقاءً تحيا به بعد مفارقة البدن، وأنها لا تموت موت فناء - أي زوال مطلق - وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البُطُون والخفاء، وإن اختلفت منازعهم في تصوير ذلك البقاء، وفيما تكون فيه، وتباينت مشاربهم في

طرق الاستدلال عليه، فمن قائل بالتناسخ في أجساد البشر أو الحيوان على الدوام، ومن ذاهب إلى أن التناسخ ينتهي عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال، ومنهم من قال: إنها متى فارقت الجسد عادت إلى تجرّدها عن المادة، حافظة لما فيه لذتها، أو ما به شقوتها، ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثرية^(١) ألطف من هذه الأجسام المرئية.

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة، المُنْبَث في جميع الأنفس: عالمها وجاهلها، وحشيها ومستأنسها، باديها وحاضرها، قديمها وحديثها، لا يمكن أن يعد ضلّة عقلية، أو نزعة وهميّة، وإنما هو من الإلهامات التي اختصّ بها هذا النوع، فكما ألهم الإنسان أن عقله وفكره هما عماد بقاءه في هذه الحياة الدنيا - وإن شذّ أناس منه أنكروا ذلك أو شكّوا فيه - كذلك قد ألهمت العقول، وأشعرت النفوس، أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للإنسان في الوجود، بل الإنسان يُنزعُ هذا الجسد، كما يُنزعُ الثوب عن البدن، ثم يكون حيًّا باقياً في طور آخر، وإن لم يدرك كنهه.

ذلك إلهام يكاد يزاحم البديهة في الجلاء، يُشعرُ كل نفس أنها خلقت مستعدّة لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة، شيقة إلى لذائذ غير محدودة، ولا واقفة عند غاية، مهيةً لدرجات من الكمال لا تحدها أطراف المراتب والغايات»^(٢).

(١) الأجسام الأثرية منسوبة إلى الأثير، وهو: وسط افتراضيّ يعمُّ الكون، ويتخلل جميع أجزائه، وُضِعَ لتعليل انتقال الضوء أو الصّوت أو الحرارة في الفراغ، فيقال: (نقلت وقائع المؤتمر عبر موجات الأثير) أو على جناح الأثير، أي بواسطة المذياع، أو الرّاديو والموجات الكهربائية. معجم اللغة العربية المعاصرة مادة (أ. ث. ر).

(٢) رسالة التوحيد للإمام محمد عبده ص ٨٥، ٨٦.

وكما ذكرنا: كيف يُسَوِّغُ العقل أن تَنْفَضَّ سوقُ هذه الحياة، وقد نهب فيها من نهب، وسرق فيها من سرق، وقتل فيها من قتل، وبغى فيها من بغى، وَتَجَبَّرَ من تَجَبَّرَ، ولم يأخذ أحد من هؤلاء عقابه، بل تَسَتَّرَ واختفى، فأُفْلِتَ ونجا، أو تمكَّن من إخضاع الناس له بسيف القهر والجبروت؟

وفي الجانب الآخر: كم أحسن قوم، وَضَحَّوْا وجاهدوا، ولم ينالوا جزاء ما قَدَّمُوا، إما لأنهم كانوا جنودًا مجهولين، أو لأن الحسد والحقد جعل الناس يتنكَّرون لهم، بدل أن يعرفوا فضلهم، أو لأن الموت عاجلهم قبل أن يَنْعَمُوا بثمرة ما عملوا من خير، وكم من قوم دَعَوْا إلى الحق، واستمسكوا به، ودافعوا عنه، فوقف الظالمون في طريقهم، وأوذوا وعذَّبوا واضطهدوا وشَرَّدوا، وسقطوا صرعى في سبيله، وأعداؤهم الطغاة في أمن وعافية، بل في ترف ونعيم.

ألا يُسَوِّغُ العقل الذي يؤمن بعدالة الإله الواحد - بل يطلب - أن تُوجَدَ دار أخرى، يُجزى فيها المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته؟

هذا ما تنطق به الحكمة السارية في كل ذرَّة في السماوات والأرض: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ *﴾ [الدخان: ٣٨ - ٤٢]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا * ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ *﴾ [ص: ٢٧، ٢٨]، ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ



سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا
 كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢﴾ [الجاثية: ٢١، ٢٢]، ﴿٣﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
 الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ ﴿٤﴾ [النجم: ٣١].



(٥)

كيف أثبت القرآن البعث بعد الموت؟

لقد اهتم القرآن اهتمامًا عظيمًا بالحديث عن اليوم الآخر، وفصل القول فيما يحدث في ذلك اليوم، وفي الحياة الآخرة من مشاهد ومواقف، وبين مصائر الناس بعد حسابهم، وأصناف النعيم التي تنتظر الفائزين الناجين، وما يتعرض له الأشقياء من ألوان العذاب وأنواعه.

يقول شيخنا الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «لقد أطال القرآن الكريم الحديث في إثبات الموت والبعث والجزاء، وأطال التذكير بهذه الحقائق، التي عميت عنها كثير من الأنظار، فقد عرض القرآن أمام الأعين حيثما التفتت صورًا شتى لُنُذْرِ الفناء الأخير، ومشاهد الحساب الدقيق، وكانت صرخات الآي الهادرة بحقائق البعث والجزاء بعيدة المدى، نافذة الدوي، تستفز العواطف الهاجعة، فتبعثها فزعة، وتستجمع الأفكار المشتتة لترغمها على الاقتناع بأن اليوم الآخر حق، وأن الأدلة على قدومه الأكيدة لا ترد»^(١).

يقول تعالى في سورة يونس، مُبَيِّنًا ما أعدّه الله لعباده المؤمنين في دارهم الآخرة من النعيم والسعادة، بجوار ما أعدّه لغيرهم من البؤس والشقاء: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤].

(١) نظرات في القرآن الكريم للشيخ محمد الغزالي ص ٩٥، ط ٢، نشر دار الكتب الحديثية، مصر،

وقد تقدم موقف الناس من الآخرة، وذكرنا موقف الجاحدين والمرتابين والمتشككين، ورددنا عليهم بإيجاز، ورأيت أن أسوق هنا كلامًا مفصلاً، وحججاً كثيرة، ذكرها الإمام الفخر الرازي في (تفسيره) عند تفسيره لهذه الآية من سورة يونس.

الدلائل القرآنية على إمكان البعث:

وقد ذكر رَحِمَهُ اللهُ من الدلائل القرآنية على إمكان البعث:

١ - خشوع الأرض في الخريف ثم حياتها بالربيع:

١ - نحن نرى الأرض خاشعة وقت الخريف، ونرى اليبس مستولياً عليها بسبب شدة الحر في الصيف، ثم إنه تعالى ينزل المطر عليها وقت الشتاء والربيع، فتصير بعد ذلك متحلية بالأزهار العجيبة، والأنوار الغريبة، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

٢ - قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿[الحج: ٥، ٦].

٣ - قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١]، والمراد كونه منبهاً على أمر المعاد.

٤ - قوله: ﴿ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿[عبس: ٢١ - ٢٤]. ولم تحصل المشابهة بين الربيع وبين النشور إلا من الوجه الذي ذكرناه.

٢ - إعادة أجزاء الإنسان في الحياة مشهودة باستمرار، وهي تدل على إعادة الكل بعد البلى:

ما يجده كل واحد منا من نفسه من الزيادة والنمو بسبب السَّمَن، ومن النقصان والذبول بسبب الهُزال، ثم إنه قد يعود إلى حالته الأولى بالسَّمَن.

وإذا ثبت هذا فنقول: ما جاز تَكُونُ بعضه لم يمتنع أيضًا تَكُونُ كله، ولمَّا ثبت ذلك ظهر أن الإعادة غير ممتنعة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١]، يعني: أنه سبحانه لما كان قادرًا على إنشاء ذواتكم أولًا، ثم على إنشاء أجزائكم حال حياتكم ثانيًا شيئًا فشيئًا، من غير أن تكونوا عالمين بوقت حدوثه، وبوقت نقصانه، فوجب القطع أيضًا بأنه لا يمتنع عليه سبحانه إعادتكم بعد البلى في القبور لحشر يوم القيامة.

٣ - الإعادة أهون من الخلق الأول، وكله على الله هيِّن:

١ - إن الله سُبْحَانَهُ لما كان قادرًا على أن يخلقنا ابتداء من غير مثال سبق، فلأن يكون قادرًا على إيجادنا مرة أخرى مع سبق الإيجاد الأول كان أولى، وهذا الكلام قرَّره تعالى في آيات كثيرة، منها في هذه الآية، وهو قوله: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾^(١).

٢ - قوله تعالى في سورة يس: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿[يس: ٧٨ - ٧٩].

(١) والمعنى نفسه في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ﴾

[الروم: ٢٧].

- ٣ - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢].
- ٤ - قوله تعالى: ﴿أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].
- ٥ - قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَىٰ أَن يُخْصِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿ [القيامة: ٣٦ - ٤٠].

٦ - قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤْوَىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿ [الحج: ٥ - ٧]. فاستدل تعالى في هاتين الآيتين على صحة الحشر بأمور:

الأول: أنه استدلل بالخلق الأول على إمكان الخلق الثاني، وهو قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ﴾، كأنه تعالى يقول: لما حصل الخلق الأول بانتقال هذه الأجسام من أحوال إلى أحوال أخرى، فلم لا يجوز أن يحصل الخلق الثاني بعد تغيرات كثيرة، واختلافات متعاقبة؟

والثاني: أنه تعالى شبهها بإحياء الأرض الميتة.

والثالث: أنه تعالى هو الحق، وإنما يكون كذلك لو كان كامل القدرة تام العلم والحكمة، فهذه هي الوجوه المستنبطة من هذه الآية على إمكان صحة الحشر والنشر.

٧ - والآية السابعة في هذا الباب قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا
 * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ
 مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥٠، ٥١].

٤ - الاستدلال بخلق ما هو أعظم من خلق البشر:

إن الله سبحانه تعالى لما قدر على تخلق ما هو أعظم من أبدان
 الناس، فكيف يقال: إنه لا يقدر على إعادتها؟ فإن مَنْ كان الفعل
 الأصعب عليه سهلاً، فلأن يكون الفعل السهل الحقيق عليه سهلاً كان
 أولى. وهذا المعنى مذكور في آيات كثيرة: منها: قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ
 الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١]. وثانيها:
 قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ
 بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٣]. وثالثها: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ
 بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

٥ - الاستدلال باليقظة بعد النوم على جواز الحشر:

الاستدلال بحصول اليقظة بعد النوم على جواز الحشر والنشر، فإن
 النوم أخو الموت، واليقظة شبيهة بالحياة بعد الموت، قال تعالى:
 ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ
 لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾
 [الأنعام: ٦٠]، ثم ذكر عقيبَه أمر الموت والبعث، فقال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ
 عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا
 يُفْرِطُونَ﴾ * ثُمَّ رَدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ * [الأنعام: ٦١، ٦٢]، وقال في آية أخرى:
 ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي

قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ [الزمر: ٤٢]. والمراد منه الاستدلال بحصول هذه الأحوال على صحة البعث والحشر والنشر.

٦ - الاستدلال بالموت على إثبات البعث:

إن الإحياء بعد الموت لا يُستنكر، إلا من حيث إنه يحصل الضد بعد حصول الضد، إلا أن ذلك غير مستنكر في قدرة الله تعالى؛ لأنه لما جاز حصول الموت عقيب الحياة، فكيف يستبعد حصول الحياة مرة أخرى بعد الموت؟ فإن حكم الضدين واحد، قال تعالى مقررًا لهذا المعنى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠]. وأيضًا نجد النار مع حرها ويبسها تتولد من الشجر الأخضر مع برده ورطوبته، فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُؤْقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]. فكذا هاهنا، فهذا جملة الكلام في بيان أن القول بالمعاد وحصول الحشر والنشر غير مستبعد في العقول.

إقامة الدلالة على أن المعاد حق واجب:

ثم ذكر الفخر الرازي رَحِمَهُ اللهُ من الدلائل على أن المعاد حق واجب:

الحجة الأولى: أنه تعالى خلق الخلق، وأعطاهم عقولًا بها يميّزون بين الحسن والقبيح، وأعطاهم قُدْرًا بها يقدرُونَ على الخير والشر، ومن المعلوم أن الترغيب في الطاعات لا يمكن إلا بربط الثواب بفعلها. والعقل وإن كان يدعوهُ إلى فعل الخير، وترك الشر، إلا أن الهوى والنفس يدعوانه إلى الانهماك في الشهوات الجسمانية، واللذات الجسدانية، وإذا حصل هذا التعارض، فلا بد من مرجح قوي، ومعاوِذ

كامل، وما ذاك إلا ترتيب الوعد والوعيد، والثواب والعقاب، على الفعل والترك.

والعبد ما دامت حياته في الدنيا؛ فهو كالأجير المشتغل بالعمل، والأجير حال اشتغاله بالعمل لا يجوز دفع الأجرة بكمالها إليه؛ لأنه إذا أخذها فإنه لا يجتهد في العمل، وأما إذا كان محل أخذ الأجرة هو الدار الآخرة كان الاجتهاد في العمل أشد وأكمل.

الحجة الثانية: أن صريح العقل يوجب في حكمة الحكيم أن يفرق بين المحسن وبين المسيء، وألا يجعل من كفر به، أو جحده بمنزلة من أطاعه، ونحن نرى الكفار والفساق في الدنيا في أعظم الراحة، ونرى العلماء والزهاد بالضد منه؛ ولهذا المعنى قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ * وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

ثبت أنه لا بد بعد هذه الدار من دار أخرى.

الحجة الثالثة: أن الناس جُبلوا على طلب اللذات وتحصيل الراحة لأنفسهم، فلو لم يكن لهم زاجر من خوف المعاد، لكثر الهرج والمرج، ولعظمت الفتن، فوجب القطع بحصول دار الثواب والعقاب، لتنظم أحوال العالم، حتى يقدر المكلف على الاشتغال بأداء العبودية.

الحجة الرابعة: أن السلطان القاهر إذا كان له جمع من العبيد، وكان بعضهم أقوىاء وبعضهم ضعفاء، وجب على ذلك السلطان إن كان رحيماً ناظراً مشفقاً عليهم؛ أن ينتصف للمظلوم الضعيف من



الظالم القادر القوي، وهذا الانتصاف لم يحصل في هذه الدار؛ لأن المظلوم قد يبقى في غاية الذلة والمهانة، والظالم يبقى في غاية العزة والقدرة، فلا بد من دار أخرى يظهر فيها هذا العدل وهذا الإنصاف.

الحجة الخامسة: أنه تعالى خلق هذا العالم، لمقصود ومصلحة وخير، فذلك الخير والمصلحة، إما أن يحصل في هذه الدنيا أو في دار أخرى. وحصول الخير والمصلحة في الدنيا باطل، فلذات هذا العالم ممزوجة بالآلام والمحن، واللذة فيها كالقطرة في البحر، فعلمنا أن الدار التي يصل فيها الخلق إلى تلك الراحة المقصودة، دار أخرى سوى دار الدنيا.

الحجة السادسة: لو لم يحصل للإنسان معاد، به تكمل حالته، وتظهر سعادته، لوجب أن يكون كمال العقل سبباً لمزيد الهموم والغموم والأحزان.

ولولا حصول السعادة الأخروية لكان الإنسان أخس الحيوانات، حتى الخنافس والديدان، ولما كان ذلك باطلاً قطعاً، علمنا أنه لا بد من الدار الآخرة، وأن الإنسان خلق للآخرة لا للدنيا، وأنه بعقله يكتسب موجبات السعادات الأخروية، فلهذا السبب كان العقل شريفاً.

الحجة السابعة: طريقة الاحتياط، فإننا إذا آمنا بالمعاد، وتأهبنا له، فإن كان هذا المذهب حقاً، فقد نجونا وهلك المنكر، وإن كان باطلاً، لم يضرنا هذا الاعتقاد. غاية ما في الباب أن يقال: إنه تفوتنا هذه اللذات الجسمانية.

ولهذا قال الشاعر:

قال المنجّم والطبيب كلاهما لا تُحشَرُ الأمواتُ قلتُ: إليكما
إنَّ صحَّ قولكما، فلستُ بخاسرٍ أو صحَّ قولي، فإلخَسارُ عليكما^(١)

الحجة الثامنة: لا شك أن بدن الحيوان إنما تولّد من النطفة، ثم إن مادة تلك النطفة إنما تولّدت من الأغذية المأكولة، وتلك الأغذية إنما تولدت من الأجزاء العنصرية، وتلك الأجزاء كانت متفرقة في مشارق الأرض ومغاربها، واتفق لها أن اجتمعت، فتولد منها حيوان أو نبات، فأكله إنسان، فتولد منه دم، فتوزع ذلك الدم على أعضائه، فثبت أن الأجزاء التي منها تولّد بدن الإنسان كانت متفرقة في البحار والجبال وأوج الهواء.

وإذا ثبت هذا فنقول: وجب القطع أيضًا بأنه لا يمتنع أن يجتمع مرة أخرى على مثال الاجتماع الأول.

قلت (القرضاوي): هذا تفسير العلماء، حسب معارف عصورهم، وما كانوا يستطيعون غير هذا، ولا يُكلّفون إلا به. وقد أشرنا نحن بسرعة إلى خلق الإنسان من البويضة الملقحة بالحيوان المنوي من الرجل.. إلخ. وهذه المعلومات أصبحت معروفة لكل إنسان متعلم.

الحجة التاسعة: ثبت أن لهذا العالم إلهاً قادراً عالمًا غنيًا. ثم لمّا تأملنا فقلنا: هل يجوز في حقّ هذا الحكيم الغني عن الكل أن يهمل عبّيده، ويتركهم سُدىً، ويجوِّز لهم أن يكذبوا عليه، ويبيح لهم أن يشتموه،

(١) البيتان للعلاء بن المعري، كما في اللزوميات (٣٠٠/٢)، تحقيق أمين الخانجي، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة.



ويجحدوا ربوبيته، ويأكلوا نعمته، ويعبدوا الجبت والطاغوت، ويجعلوا له أندادًا، وينكروا أمره ونهيه، ووعدوه ووعيده؟ فها هنا حكمت بديهة العقل بأن هذه المعاني لا تليق إلا بالسفيه الجاهل، البعيد من الحكمة، القريب من العبث، فحكمنا لأجل هذه المقدمة أن له أمرًا ونهيًا.

ثم تأملنا فقلنا: هل يجوز أن يكون له أمر ونهي مع أنه لا يكون له وعد ووعيد؟ فحكم صريح العقل بأن ذلك غير جائز؛ لأنه إن لم يقرن الأمر بالوعد بالثواب، ولم يقرن النهي بالوعد بالعقاب، لم يتأكد الأمر والنهي، ولم يحصل المقصود، فثبت أنه لا بد من وعد ووعيد.

ثم تأملنا فقلنا: هل يجوز أن يكون له وعد ووعيد، ثم إنه لا يفي بوعدته لأهل الثواب، ولا بوعيده لأهل العقاب؟ فقلنا: إن ذلك لا يجوز؛ لأنه لو جاز ذلك لما حصل الوثوق بوعدته ولا بوعيده، وهذا يوجب ألا يبقى فائدة في الوعد والوعد، فعلمنا أنه لا بد من تحقيق الثواب والعقاب، ومعلوم أن ذلك لا يتم إلا بالحشر والبعث، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب^(١).

* * *

(١) انظر: تفسير الرازي (١٩٤/١٧ - ٢٠٢) بتصرف.

(٦)

أحداث كونية كبيرة

الإيمان باليوم الآخر أو بالدار الآخرة، أو بالحياة الباقية، لا بد لمن يوقن به أن يوقن بأن معه عدة أمور لا بد من حدوثها.

أولها: تهْدُم هذا الكون وتبْدله:

إِنَّ هَذَا الْكَوْنَ الَّذِي نَعِيشُ فِي جُزْءٍ صَغِيرٍ جَدًّا مِنْهُ، لَنْ يَبْقَى كَمَا هُوَ، وَإِنَّهُ لَا بَدَّ لَهُ أَنْ يَتَغَيَّرَ، كَمَا نَرَى ذَلِكَ فِي كُلِّ الْكَائِنَاتِ الْمَخْلُوقَةِ؛ وَلِهَذَا وَعَدَنَا اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ آخِرَ كِتَابِهِ الْمَنْزِلَةَ عَلَى رِسْلِهِ: بِأَنَّ هَذَا الْعَالَمَ كُلَّهُ، عَلَيْهِ وَسُفْلِيهِ - أَوْ بِلُغَةِ الْقُرْآنِ: سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضُهُ - لَا بَدَّ أَنْ يَتَبَدَّلَ، بَلْ يَهْلِكُ وَيَذْهَبُ وَيَتَحَوَّلُ، كَمَا رَأَيْنَا الْقُرْآنَ يَعْبُرُ عَنْ ذَلِكَ فِي سُورَةِ التَّكْوِينِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ *﴾ [التكوير: ١ - ٥].

وفي سورة الانفطار: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ *﴾ [الانفطار: ١ - ٥].

وفي سورة الانشقاق: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ *﴾ [الانشقاق: ١ - ٥].

وقال تعالى في سورة طه عن الجبال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا *﴾ [طه: ١٠٦، ١٠٧].

وقال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ *﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وفي سورة الكهف:

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٤٧، ٤٨].

ثانيها: إماتة كل من بقي في الأرض (نفخة الصعق):

وممّا يؤمن به المؤمنون باليوم الآخر: أن الله تعالى سَيُمِيتُ كل مَنْ بقي في الأرض، عندما يأتي الموعد الذي حدّده الله تعالى، لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤].

فكل من كان من الأحياء، ستصيبه نفخة الصور، التي ينفخها إسرافيل، الملك المُعَدّ لذلك، في صورهِ أو بوقهِ، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، وحينئذ تنضم هذه الأنفس التي ماتت لمجرد النفخ في الصور إلى جنب الموتى منذ عهد آدم إلى اليوم، وتأتي هذه الصيحة على حين غفلة من الناس وانشغال بالدنيا، كما قال تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ فلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿يس: ٤٩، ٥٠﴾.

ثالثها: إحياء الله الموتى وبعثهم من قبورهم جميعاً (نفخة البعث):

بعد أن تموت كل الخلائق في الدنيا، يبعثهم الله مرة أخرى بمجرد نفخ إسرافيل المرة الثانية لبعث هذه الخلائق كلها، ممن مات في الأوائل وفي الأواسط وفي الأواخر، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وهي صيحة توقظ الأموات مما هم فيه، ثم يُحْشَرُونَ بعدها إلى أرض المحشر، وهذه النفخة هي المقصودة بقوله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ * ﴿قَالُوا يَنبَغِي لَنَا مَنْ يُبْعَثَنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ * [يس: ٥١، ٥٢]، وقال: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ * [ق: ٤٢].

ويقول الله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ * ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ * [القمر: ٧، ٨].

رابعها: الحشر وشِدَّتُهُ:

وفي هذا اليوم يُحْشَرُ المكلَّفون جميعاً، من الإنس والجن، كباراً وصغاراً، ذكوراً وإناثاً، المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والطائع والعاصي، يُحْشَرُ الخلق يوم القيامة، ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ * [ق: ٤٤].

يُحْشَرُ الجن والإنس جميعاً مؤمنهم وكافرهم: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعاً يَمَعَشَرُ الْجَنِّ قَدْ أُسْتُكْرِثُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا أُسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوٍ لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ * [الأنعام: ١٢٨].

يُوقَفُونَ بين يدي الواحد القهار، العزيز الجبار، ملك يوم الدين، ومالك يوم الدين، ليفصل بين الجميع، ويعطي كل ذي حق حقه، فيأخذ كل مظلوم حقه من ظالمه، كما قال تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ * [الزمر: ٧٠]، وكما قال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ * [غافر: ١٧].

الكل سيُحْشَرُ، من مات حتف أنفه، ومن قُتِلَ في سبيل الله، أو في سبيل الشيطان، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمُ

لَمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٨﴾ وَلَئِن مُّتُمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٧، ١٥٨].

مَنْ عَبْدُ اللَّهِ، وَمَنْ اسْتَنَكَفَ عَنْ عِبَادَتِهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَنْ يَسْتَنَكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنَكِفُ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرُ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

المستقدمون من بني الإنسان والمستأخرون: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر: ٢٤، ٢٥]، والمستقدمون: الأمم المتقدمة قبل محمد ﷺ، والمستأخرون: الأمم المتأخرة بعد محمد ﷺ إلى يوم القيامة، أو المستقدمون: الذين تقدموا إلى الآخرة بالموت وَمَنْ هُمْ أَحْيَاءُ، وَالْمُسْتَأْخِرُونَ: مَنْ لَمْ يَأْتُوا إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بَعْدَ، وَسَيَأْتُونَ إِلَيْهَا بِمَقْتَضَى تَقْدِيرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ السَّابِقِ إِلَى آخِرِ حَيَاةِ النَّاسِ فِي الْأَرْضِ، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾، أَي: يُمِيتُ الْكُلَّ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، فَيَحْشُرُهُمُ اللَّهُ فِي الْمَحْشَرِ، مَكَانَ التَّجْمُعِ، هَذَا التَّجْمُعُ الْعَظِيمُ، الْأُمَمُ مِنْذُ خُلِقَ آدَمُ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، كَمَنْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ كَمَنْ مِنَ الْبَلَايِينَ؟ كَمَنْ مِنَ التَّرِيلِيُونَاتِ مِنَ الْبَشَرِ؟ اللَّهُ أَعْلَمُ.

حشر الكفار على وجوههم عُمياً وُزْرقاً:

كُلُّ هَؤُلَاءِ سَيُحْشَرُونَ فِي سَاحَةِ الْعَرْضِ، يُعْرَضُونَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُحْشَرُ عَلَى وَجْهِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وَجُوهِهِمْ عُمياً وَبُكْماً وَضُمّاً﴾ [الإسراء: ٩٧]، أَي: نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَمْشُونَ عَلَى وَجُوهِهِمْ، إِهَانَةً لَهُمْ وَتَعْذِيباً، لَا يُبْصِرُونَ، وَلَا يَنْطِقُونَ، وَلَا يَسْمَعُونَ. وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ الْمَتَّفِقِ عَلَيْهِ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وَجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان: ٣٤].

أُحْشِرُ الْكَافِرَ عَلَى وَجْهِهِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَيْسَ الَّذِي أُمِّشَاهُ عَلَى رَجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»^(١).

وكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * [طه: ١٢٦ - ١٢٤].

يَحْشُرُ اللَّهُ الْمَجْرِمِينَ زُرْقًا عَلَى وَجْهِهِمْ عُمِيًّا وَبِكَمَا وَضُمًّا: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ * [طه: ١٠٢].

حشر الكفار مع الشياطين:

يَحْشُرُ اللَّهُ الْمَجْرِمِينَ مَعَ شَيَاطِينِهِمْ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ * ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًّا * [مريم: ٦٨، ٦٩].

وهوّل هذا الحشر وطوله يجعل الإنسان يرى ما قبله من الحياة كأنه لحظات قليلة، تعارف فيها مع بعض أصدقائه في الدنيا: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ * [يونس: ٤٥].

تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «تُحْشَرُونَ حُفَاءَ عُرَاةٍ غُرْلًا»^(٢). فقلت: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: «الأمر أشد من أن يُهمهم ذاك»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٦٠)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٨٠٦).

(٢) غير مختونين.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري الرقاق (٦٥٢٧)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٩).

يُحْشَرُ كُلُّ إِنْسَانٍ وَحْدَهُ:

يُحْشَرُ الْإِنْسَانُ فَرْدًا، لَا مَالَ مَعَهُ، وَلَا نَاصِرَ، وَلَا خَادِمَ، وَلَا شَيْءَ مِمَّا يَتَفَاخَرُ بِهِ أَهْلُ الدُّنْيَا وَيَتَكَاثِرُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ أَتَيْهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿[مريم: ٩٣ - ٩٥]، وكما قال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

الكل سيقف في أرض المحشر، الصغير الكبير، والذكر والأنثى، بل الوليد والشيخ الهرم الفاني، ﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ * وَعَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿[الكهف: ٤٧، ٤٨].

وفي أرض المحشر تتقطع الأسباب، وتنفك الصلات، ويتبرأ كل متبوع بالباطل من تابعه، وكل معبود غير الله من عابده، ويعادي كل خليل خليله إلا المتقون، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿[الأحقاف: ٥، ٦].

وقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَلَلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾ * فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ * هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿[يونس: ٢٨ - ٣٠].

وقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٧ - ١٩].

لا تُغني عنهم أموالهم ولا أولادهم، ولا آلهتهم المدعاة، ولا يستطيع بعضهم نصر بعض، بل يلوم بعضهم بعضًا، ويتبرأ بعضهم من بعض، قال تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا نَنْصَرُونَ * بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ * وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنْهُمْ نَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰئِقُونَ * فَأَعْوَبْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ [الصافات: ٢٢ - ٣٢].

شَتَان بَيْنَ حَشْرِ الْمُتَّقِينَ وَسَوْقِ الْمَجْرِمِينَ:

أما أهل التقوى فيُحْشَرُونَ إلى الرحمن وفدًا، وأما المجرمون فإنهم يساقون إلى جهنم سَوْقًا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا﴾ * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦].

دنو الشمس من رؤوس الخلائق:

ومن مظاهر يوم الحشر: أن الشمس تدنو من الرؤوس، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه، عن المقداد بن الأسود: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «تُدْنِي الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمَقْدَارِ مِيلٍ، فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبِيهِ،

ومنهم مَنْ يكون إلى رُكبتيه، ومنهم مَنْ يكون إلى حقويه، ومنهم مَنْ يُلْجِئُهُ العَرَقُ إلْجَاءً»، وأشار رسولُ الله ﷺ بيده إلى فيه^(١).

وفي رواية الترمذي قال: «فَتَضَهَّرُهُمُ الشَّمْسُ، فيكونون في العَرَقِ كقدر أعمالهم»^(٢).

هل تُحْشَرُ البهائم والوحوش وغير المكلفين؟

ذهب كثير من العلماء إلا أن البهائم والوحوش والطيور وغيرها من الحيوانات مما يدبُّ في الأرض أو يعيش في الماء أو يطير في الهواء سَتُحْشَرُ يوم القيامة، واستندوا إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله تعالى في سورة التكوين: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوين: ٥]، وإلى ما رواه مسلم في صحيحه، وأحمد في مسنده، والترمذي في سننه، عن أبي هريرة: «لَتُؤَدَّنَ الحقوقُ إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقتَصَّرَ للشاة الجماء من الشاة القرناء تنطحها»^(٣). وفي رواية: «حتى يُقَادَ للشاة الجَلحاء»^(٤).

وقد نقل الألوسي في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ عن حجة الإسلام الغزالي وجماعة أنهم مالوا إلى أنه لا يُحْشَرُ غير الثقلين، لعدم كونه مكلفاً ولا أهلاً للكرامة بوجه، وليس في هذا الباب نصٌّ من كتاب أو سنة مُعَوَّل عليه يدل على حشر غيرهما من الوحوش،

(١) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٦٤).

(٢) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٢١).

(٣) رواه أحمد (٧٢٠٤).

(٤) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٨٥)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٠).

وخبر مسلم والترمذي^(١) وإن كان صحيحاً لكنه لم يخرج مخرج التفسير للآية، ويجوز أن يكون كناية عن العدل التام.

قال الألوسي: «وإلى هذا القول أميل، ولا أجزم بخطأ القائلين بالأول؛ لأنّ لهم ما يصلح مستنداً في الجملة، والله تعالى أعلم»^(٢).

وأنا أميل إلى ما مال إليه حجة الإسلام الغزالي والعلامة الألوسي، من أن الحشر خاصّ بجنس المكلفين من الجنّ والإنس، الذين خلقهم الله لعبادته، وجعل لهم الحرية والاختيار، والحق أن الحشر في الآيتين غير الحشر للحساب يوم القيامة، فقد فسره ابن عباس والضحاك والربيع ابن خثيم بالموت.

وقد وجّه الألوسي في تفسيره لآية الأنعام قول ابن عباس: إن حشر الدواب هو الموت^(٣)، فقال: «ومراده عليه السلام على ما قيل إن قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾: مجموعه مستعار على سبيل التمثيل للموت»^(٤)، وقد جاء عن أبيّ أنه قال في تفسير: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾: اختلطت^(٥)، ورجح الإمام الطبري أن معنى (حُشِرَتْ) هنا جُمِعَتْ فأُمِيتَتْ؛ لأنّ المعروف في كلام العرب من معنى الحشر: الجمع، ومنه قول الله في سليمان: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُٗٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٨، ١٩]. يعني: مجموعة. وقوله في فرعون: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣]^(٦).

(١) يعني حديث: «يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء»، وقد سبق تخريجه ص ٥١٥.

(٢) روح المعاني (٢٥٥/١٥).

(٣) رواه الطبري في التفسير (٣٤٦/١١).

(٤) روح المعاني للألوسي (١٣٨/٤).

(٥) رواه الطبري في التفسير (٢٤١/٢٤).

(٦) تفسير الطبري (٢٤٢/٢٤).

وأنقل هنا ما قاله الإمام محمد عبده في (تفسير جزء عم) حيث قال: «وحشر الوحوش إمّا جمعها لاستيلاء الرعب عليها، وخروجها من أجحارها وأوكارها، ونسيانها ما كانت تخافه وتفر منه، فتُحشَر هائمة، لا يخشى بعضها بعضًا، ولا يخشى جميعها سطوة الإنسان. وقيل: حشر الوحوش: موتها وهلاكها، يقال: إذا أجحفت السنة بالقحط والجذب وأضرّت بالناس: حشرتهم السنة، أي: أهلكتهم، وهلاكها من هول ذلك الحادث الأعظم.

وقال القرطبي: إنّ تعطيل العشار تمثيل لشدة الكرب، وإلا فلا عشار ولا تعطيل، كأنه قال بعد ذكر ما سبق من تكوير الشمس وانكدار النجوم، وتسيير الجبال: وكان من هول هذه الحوادث ما يصرف حاضرها عن أكرم الأشياء عليه، حتى لو كان عنده عشار عطّلها وأهمّلها، وقد قيل في حشر الوحوش: إنه جمعها يوم القيامة للحساب، وهو ضعيف بعيد؛ لأن الكلام الآن في حوادث التخريب قبل البعث بالفعل وأول الكلام في البعث قوله: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]»^(١).

خامسها: عقد محكمة العدل الإلهية الكبرى:

يعقد الملك الأعلى، الذي بيده ملكوت كل شيء، وليس لأحد غيره في هذا اليوم أدنى شيء، وهو يقول: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾؟ فلا يرد عليه أحد، ويرد الله تعالى على نفسه بقوله: ﴿لِلَّهِ الْوَحْدُ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. وهذا يؤكد قوله تعالى في سورة الفاتحة في وصف رب العالمين: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، على إحدى القراءتين.

(١) تفسير جزء عم للإمام محمد عبده ص ٣٠، ويراجع أيضًا تفسير القرطبي (٢٢٨/١٩، ٢٢٩).

يعقد المحكمة الإلهية العليا والكبرى، للفصل بين الخلائق كلهم، منذ آدم إلى آخر الدنيا، والقضاء لهم أو عليهم، وهذا يقتضي عدة إجراءات:

تطابير الصحف وقراءة كل امرئ كتابه:

١ - من أوائل هذه الإجراءات وأظهرها في ذلك اليوم العظيم: تطابير الصحف بأعمال الناس التي كُتبت لهم أو عليهم في الدنيا، بما كسبوا أو اكتسبوا من أعمالهم الحسنة أو السيئة، أو التي ليست هذه ولا تلك، ويلحق كل إنسان كتابه، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَشُورًا ۚ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَيْلَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْذُرُ النَّاسُ أَسْنَانًا لِّيرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۖ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٦ - ٨].

فهذا الكتاب الذي كتبه الملائكة الموكّلون بالإنسان: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كُنُيُنَ ۖ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢]، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۖ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

فهذه الكتب موثقة مبينة محفوظة، لا تأكلها الحشرات، ولا يمحو الزمن مدادها الذي كُتبت به، فيها كل ما عمله الإنسان، وما تكلم به، من خير يثاب عليه، أو شر يُعاقب عليه، أو أمر لا له ولا عليه، وهذا الكتاب يقرؤه كل إنسان، سواء أكان أميًا أم قارئًا، والذي أراه أن القراءة هنا

ليست كقراءة كتاب مسطور بحروف وكلمات، تحتاج إلى معرفة نظرية باللغة المكتوبة، ولكنه أشبه ما يكون بما نسميه الآن بالشريط المسجل لكل حركات الإنسان وسكناته، وأقواله وأعماله، حتى ما يُضمّره ويعزم عليه في نفسه، وقد رأينا نحن نموذجًا لذلك في أشرطة الفيديو التي تُسجل للإنسان في موقف معين كل أعماله وتحركاته، وأقواله وتصرفاته، وضحكه وبكائه، وصمته وجهره، وجدّه وهزله.

وقال أهل الاختصاص من أصحاب العلوم التجريبية: إنَّ أصوات الإنسان وتحركاته كلها موجودة، ويمكن تسجيلها، بل التعرف عليها بالأدوات، ومن هنا نفهم قول الله تعالى في القرآن: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ [الزلزلة: ٧، ٨].

كان المفسرون قديما يقولون: الناس لا يرون العمل؛ لأن العمل قد انتهى، لأنه عَرَض، والعَرَض لا يبقى زمانين. ولذلك قالوا: لا يبقى الصوت والعمل زمانين، ولكن العلم قال لنا الآن: إن كلامك القديم، وعملك القديم، يمكن أن تراه، وأن يُرصد ويُسجل لك أو عليك. وصدق الله حين قال: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. فهم لم يجدوا الجزاء، بل وجدوا العمل نفسه، وهو الذي يُحاسبون ويُجزون على أساسه.

وزن الأعمال بالميزان الإلهي:

٢ - ومن الإجراءات المهمة لإقامة العدل المحكم المُحَسَّس في يوم القيامة: وزن الأعمال خَيْرَةً كانت أو شَرِّيرَةً، فكل ما للإنسان من أعمال صالحة محسوبة في الحسنات، توضع في كَفَّة الحسنات، وكل ما للإنسان من أعمال سيئة محسوبة أو مصنَّفة في كَفَّة السيئات، توضع

في كفة السيئات، لا يُترك للإنسان أو عليه صغيرة ولا كبيرة، كما يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]، ويقول تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨، ٩]، وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال رسول الله ﷺ: «يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وُزن فيه السماوات والأرض لوسعهم، فتقول الملائكة: يا رب، لمن يزن هذا؟ فيقول الله: لمن شئت من خلقي. فيقولون: سبحانه ما عبدناك حق عبادتك!»^(١).

كيف يكون الميزان؟

إنَّ لكل شيء ميزانًا يناسبه، وأداة يقاس بها، وقد عرف الناس من قديم بأن من الأشياء ما يُكال، ومنه ما يوزن بالميزان، ومن الأشياء ما يقاس بالشبر أو بالذراع أو بالباع أو بالمتري.. وغيرها من مقاييس الأطوال.

والناس يختلفون في معرفة الأشياء، فمن الأشياء ما يكون المطلوب فيها: معرفة طولها أو عرضها، أو ارتفاعها أو عمقها أو حجمها، ومنها ما يكون المعرفة فيها معرفة ذوقها، فهي حلوة أم مُرة؟ أهى عذبة أم مالحة؟ ومنها ما نطلب معرفة ريحها، طيب أم خبيث، أو معرفة ملمسها

(١) رواه الحاكم في الأوهال (٥٨٦/٤)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، عن سلمان الفارسي.

ناعم أم خشن، أو معرفة حرارتها منخفضة أم مرتفعة، أو معرفة صوتها مزعج أم عذب، أو معرفة لونها أبيض أم أسود، ومعرفة قوامها سمين أم هزيل؟ أو معرفة وزنها وكيلها ثقيل أم خفيف؟

وكلمة (وزن الأعمال) كلمة يراد بها معرفة قيمة العمل عند الله وَعَلَى، ونحن في حياتنا الدنيا نجعل لوزن الأثقال موازين مناسبة لها، فبعض الأشياء القليلة التي يشتريها الإنسان من البقال تحتاج إلى الميزان ذي الكفتين: كفة في اليمين فيها صنع الوزن من الكيلوات أو الجرامات أو نحوها، وكفة فيها البضاعة، لكن وزن الحبوب الكثيرة، كما في ماكينات الطحين ونحوها تحتاج إلى ميزان آخر غير ذي الكفتين، وكذلك وزن (أجولة) القطن الكبيرة والثقيلة، التي تحتاج إلى الميزان القباني، وهناك ميزان الماء لقياس استواء الأجسام، وميزان الحرارة لقياس درجة الحرارة، وميزان الضغط.. وموازين أخرى كثيرة حسب اختلاف الموزون.

فالله سُبْحَانَهُ سيجعل للأعمال يوم القيامة ميزاناً يناسبها، توزن فيه، كفة توضع فيها الحسنات، وكفة توضع فيها السيئات، وهو ميزان دقيق يزن مثقال الخردلة ومثقال الذرة، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ، ﴿[الزلزلة: ٧، ٨].﴾

شهادة السمع والأبصار والجلود:

٣ - وفي الحشر يشهد على كل من ناصب الله ورسوله ودينه العداة سمعهم وأبصارهم وجلودهم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ * حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿[فصلت: ١٩ - ٢١].﴾

وقد ورد في بعض الآثار أن العبد يقول يوم القيامة: «يا رب ألم تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإنني لا أجزى على نفسي إلا شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانها: انطقي، قال: فتتطرق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال فيقول: بُعْدًا لَكُنَّ وسحقاً، فعنكن كنت أناضل»^(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢]، وقال: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

حساب الناس ومساءلتهم أمام الله:

٤ - ومن الإجراءات الإلهية اللازمة والمهمة في يوم الفصل: حساب الله ومساءلته للناس، فلا بد لكل امرئ من وقفة بين يدي الله وَجَّهَ يوم القيامة، إلا من أعفاه الله من هذه المساءلة، وأدخله الجنة بغير حساب، ولا حرج على فضل الله تعالى، وهم سبعون ألفاً، وراء كل واحد منهم سبعون ألفاً، وهم الذين لا يتطيّرون، ولا يكتوون، ولا يسترقون، وعلى ربهم يتوكلون.

ومن أسماء يوم القيامة: يوم الحساب، كما قال الله وَجَّهَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]. وهو اليوم الذي تُحاسب فيه كل نفس بما كسبت، وتُجازى فيه بما عملت.

(١) رواه مسلم في الزهد (٢٩٦٩)، والنسائي في الكبرى في التفسير (١١٥٨٩)، عن أنس.

السؤال والحساب للناس جميعًا:

فالحساب والسؤال يكون لجميع الناس يوم القيامة، حتى الرسل يُسألون، ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عِلْمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]. الله تعالى سيسأل الرسل، وسيسأل الأمم التي أرسل إليهم الرسل، ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

حتى سيدنا عيسى يُسأل يوم القيامة، الله تعالى يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عِلْمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٨].

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «لا تزولُ قدما عبدٍ يوم القيامة، حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ما فعل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»^(١)؟

أول ما يُحاسب عليه العبد يوم القيامة:

أول ما يُحاسب عليه العبد يوم القيامة: فرائض الله تعالى، وأولها: الصلاة: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤١٧)، وقال: حسن صحيح. وأبو يعلى (٧٤٣٤)، والبيهقي في المدخل (٤٩٤)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٢٦)، عن أبي برزة الأسلمي.

ما يُحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيء قال الرب ﷻ: انظروا هل لعبدي من تطوُّع فيكَمِّل بها ما انتقص من الفريضة؟ ثم يكون سائر عمله على ذلك»^(١).

وأول ما يُحاسب عليه المرء من حقوق الناس: الدماء، لقول النبي ﷺ: «أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء»^(٢).

الحساب اليسير والعسير:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَنَقَلُبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧ - ١٣].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِي * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِي * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ * فَيَقُولُ يَلَيِّنَنِي لِمَ أُوتِيَ كِتَابِي * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِي * يَلَيِّنَهَا كَأَنَّ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِي * خَذُوهُ فَعُوه * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوه * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾ [الحاقة: ١٨ - ٣٤].

(١) رواه الترمذي (٤١٣)، وقال: حسن غريب. والنسائي (٤٦٥)، وابن ماجه (١٤٢٥)، والحاكم (١٣٨/٤)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، جميعهم في الصلاة، وصحح إسناده النسائي ابن الملقن في تحفة المحتاج (٣١٨)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٥٣٣)، ومسلم في القسامة (١٦٧٨)، عن ابن مسعود.

فمن سهّل الله له الحساب فقد نجا، ومرّ على الصّراط بيّسر وسهولة، ومن نُوقِش في الحساب فهو لون من العذاب، وعن عائشة، زوج النبي ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «من حُوسِبَ عُدْبٌ». فقلتُ أوليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]؟ قالت: فقال: «إنما ذلك العرض، ولكن من نُوقِش الحساب يهلك»^(١).

كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [الرعد: ١٨].

قال الزجاج: سُوءُ الْحِسَابِ: لا يُقبل منهم حسنة، ولا يُتجاوز عن سيئة؛ لأن كُفْرَهُمْ أَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [مُحَمَّد: ١].

وقيل: سُوءُ الْحِسَابِ: أَنْ يُسْتَقْصَى عَلَيْهِ حِسَابُهُ، وَلَا يُتجاوز لَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ سَيِّئَاتِهِ^(٢).

وأما الذين يحاسبون حسابًا يسيرًا، فينجون برحمة الله تعالى.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يُدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنبَ كذا، أتعرف ذنبَ كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكافر والمنافقون، فيقول الأَشهاد: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٠٣)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٧٦).

(٢) تاج العروس مادة (س. و. ع).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٨).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كلُّ سجل مثل مدِّ البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتني الحافظون؟ فيقول: لا يا رب. فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم. فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقول: احضر وزنك. فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات. فقال: إنك لا تظلم». قال: «فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء»^(١).

نسأل الله تعالى أن يُيسِّر لنا حسابنا، بل ندعوه ﷻ أن يدخلنا الجنة بغير حساب، فليس أكرم من الله، ولا أجزل عطاء منه، وليس أفقر منا إلى فضله ورحمته: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

من هم الذين يدخلون الجنة بغير حساب؟

الذين يدخلون الجنة بغير حساب: طائفة من الناس ميّزهم الله تعالى بمزية خاصة بهم، وقد جاءت الآيات وصحت الأحاديث في شأنهم. ومن هؤلاء: الصابرون، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

(١) رواه أحمد (٦٩٩٤)، وقال مخرجه: إسناده قوي. والترمذي في الإيمان (٢٦٣٩)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٠)، وابن حبان في الإيمان (٢٢٥).

ومنهم: المؤمنون الصادقون، المتوكلون على الله حقّ توكله، قال ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَجَعَلَ النَّبِيَّ وَالنَّبِيَّانِ يَمْرُونَ مَعَهُمُ الرُّهْطَ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ أَمْتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ. قِيلَ: انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ. فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلَأُ الْأَفْقَ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ هَاهُنَا، وَهَاهُنَا، فِي آفَاقِ السَّمَاءِ. فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلَأَ الْأَفْقَ، قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ». ثُمَّ دَخَلَ وَلَمْ يَبَيِّنْ لَهُمْ، فَأَفَاضَ الْقَوْمُ، وَقَالُوا: نَحْنُ الَّذِينَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاتَّبَعْنَا رَسُولَهُ، فَنَحْنُ هُمْ، أَوْ أَوْلَادُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنَّا وُلِدْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَبَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ، فَخَرَجَ، فَقَالَ: «هُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتُمُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». فَقَالَ عَكَاشَةُ بْنُ مَحْصَنٍ: أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ». فَقَامَ آخِرَ، فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا؟ قَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ»^(١).

قال ابن العربي: «أما قوله ﷺ: «هم الذين لا يسترقون».. الحديث، ففيه ثلاثة تأويلات:

الأول: هم الذين لا يسترقون بالتمائم، كما كانت العرب والجاهلية تفعل.

التأويل الثاني: هم الذين لا يسترقون عند اليأس، كما فعل الصديق رضي الله عنه.

التأويل الثالث: هم الذين لا يسترقون قبل حلول المرض»^(٢).

(١) سبق تخريجه ص ٣٧٦.

(٢) المسالك في شرح موطأ مالك لابن العربي (٤٥٢/٧)، تحقيق محمد بن الحسين السليمانى وعائشة بنت الحسين السليمانى، نشر دار الغرب الإسلامى، ط ١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

وقال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري): (قوله: «ولا يتطيرون».. المراد: أنهم لا يتشاءمون كما كانوا يفعلون في الجاهلية.

قوله: «وعلى ربهم يتوكلون». يحتمل أن تكون هذه الجملة مفسّرة لما تقدّم من ترك الاسترقاء والاكتواء والطيرة، ويحتمل أن تكون من العام بعد الخاص؛ لأنّ صفة كل واحدة منها صفة خاصة من التوكل، وهو أعم من ذلك»^(١).

ونقل الحافظ في (الفتح) عن القرطبي وغيره من جمهور العلماء أنهم قالوا: «يحصل التوكل بأن يثق بوعده الله، ويوقن بأن قضاءه واقع، ولا يترك اتّباع السُّنة في ابتغاء الرزق، ممّا لا بد له منه، من مطعم ومشرب، وتحزُّز من عدو بإعداد السلاح، وإغلاق الباب.. ونحو ذلك، ومع ذلك فلا يطمئن إلى الأسباب بقلبه، بل يعتقد أنها لا تجلب بذاتها نفعًا، ولا تدفع ضرًا، بل السبب والمسبّب فعلُ الله تعالى، والكل بمشيئته، فإذا وقع من المرء ركونٌ إلى السبب قدح في توكله، وهم مع ذلك فيه على قسمين: واصل وسالك، فالأول صفة الواصل، وهو الذي لا يلتفت إلى الأسباب ولو تعاطاها، وأما السالك فيقع له الالتفات إلى السبب أحيانًا، إلا أنه يدفع ذلك عن نفسه بالطرق العلمية، والأذواق الحالية، إلى أن يرتقي إلى مقام الواصل.

وقال أبو القاسم القشيري: التوكل محله القلب، وأما الحركة الظاهرة فلا تنافيه إذا تحقق العبد أن الكل من قبَل الله، فإن تيسر شيء فبتيسيره، وإن تعسّر فبتقديره.

(١) فتح الباري (١١/٤٠٩).

ومن الأدلة على مشروعية الاكتساب: حديث أبي هريرة رفعه: «أفضل ما أكل الرجل من كسبه، وكان داود يأكل من كسبه»^(١). فقد قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢].

وسلك الكرماني في الصفات المذكورة مسلك التأويل، فقال قوله: «لا يكتون» معناه إلا عند الضرورة، مع اعتقاد أن الشفاء من الله، لا من مجرد الكي. وقوله: «ولا يسترقون»، معناه بالرقى التي ليست في القرآن والحديث الصحيح، كرقى الجاهلية، وما لا يؤمن أن يكون فيه شرك. وقوله: «ولا يتطيرون»، أي لا يتشاءمون بشيء، فكأن المراد أنهم الذين يتركون أعمال الجاهلية في عقائدهم»^(٢).

ونقل ابن القيم عن ابن تيمية أنه قال: «إن النبي ﷺ جعل الوصف الذي يستحق به هؤلاء دخول الجنة بغير حساب هو تحقيق التوحيد وتجريده، فلا يسألون غيرهم أن يرقهم، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون، والطيرة نوع من الشرك، ويتوكلون على الله وحده لا على غيره، وتركهم الاسترقاء والتطير هو من تمام التوكل على الله»^(٣).

قال النووي: «قوله ﷺ: «يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب». فيه عظم ما أكرم الله ﷺ به النبي ﷺ وأمته، زادها الله فضلاً وشرفاً»^(٤).

(١) رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٢)، عن المقدام بن معد يكرب بلفظ: «ما أكل أحد طعاماً قط،

خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام، كان يأكل من عمل يده».

(٢) فتح الباري (٤٠٩/١١، ٤١٠).

(٣) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم ص ١٣٠، نشر مطبعة المدني، القاهرة.

(٤) شرح النووي على مسلم (٨٨/٣).

قال في (الفتح): «وقد وقع في أحاديث أخرى أن مع السبعين ألفاً زيادة عليهم، ففي حديث أبي هريرة عند أحمد، والبيهقي في البعث، من رواية سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «سألت ربي فوعدني أن يدخل الجنة من أمتي..» فذكر الحديث نحو سياق حديث سعيد بن المسيب عن أبي هريرة ثاني أحاديث الباب، وزاد: «فاستزدت ربي، فزادني مع كل ألف سبعين ألفاً»^(١). وسنده جيد.

وفي الباب عن أبي أيوب عند الطبراني^(٢)، وعن حذيفة عند أحمد^(٣)، وعن أنس عند البزار^(٤)، وعن ثوبان عند ابن أبي عاصم^(٥)، فهذه طرق يقوِّي بعضها بعضاً.

وجاء في أحاديث أخرى أكثر من ذلك، فأخرج الترمذي وحسنه، والطبراني، وابن حبان في صحيحه، من حديث أبي أمامة رفعه: «وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً، مع كل ألف سبعين ألفاً، لا حساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حثيات من حثيات ربي»^{(٦)(٧)}.

(١) رواه أحمد (٨٧٠٧)، وضعف مخرجه هذه الزيادة.

(٢) رواه أحمد (٢٣٥٠٥)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. والطبراني (١٢٧/٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٥٠٨): فيه عبد الله بن ناشر من بني سريع ولم أعرفه، وابن لهيعة ضعفه الجمهور.

(٣) رواه أحمد (٢٣٣٣٦)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف.

(٤) رواه أحمد (١٣٠٠٧)، وقال مخرجه: حديث صحيح وهذا إسناد حسن في المتابعات والشواهد. والبزار (٦٦٣٦).

(٥) رواه أحمد (٢٢٤١٨)، وقال: المرفوع منه صحيح لغيره. وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (٤٥٥).

(٦) رواه أحمد (٢٢٣٠٣)، وقال مخرجه: صحيح. والترمذي في صفة القيامة (٢٤٣٧)، وقال: حسن غريب. وابن حبان في المناقب (٧٢٤٦)، والطبراني (١١٠/٨).

(٧) فتح الباري (٤١٠/١١).

وذكر ابن حجر أحاديث أخرى وضعفها، ثم قال: «ويمكن الجمع بأن القدر الزائد على الذي قبله هو مقدار الحثيات، فقد وقع عند أحمد من رواية قتادة، عن النضر بن أنس أو غيره، عن أنس رفعه: «إن الله وعدني أن يدخل الجنة من أمتي أربعمائة ألف». فقال أبو بكر: زدنا يا رسول الله. فقال هكذا، وجمع كفيه، فقال: زدنا. فقال وهكذا. فقال عمر: حسبك، إن الله إن شاء أدخل خلقه الجنة بكف واحدة. فقال النبي ﷺ: «صدق عمر»^(١). وسنده جيد، لكن اختلف على قتادة في سنده اختلافاً كثيراً»^(٢).

ولا شك أن هذه الحثيات من حثيات ربنا تحتل من الأعداد ما يليق برحمة الله تعالى وفضله وكرمه وإحسانه إلى أمة محمد.

نصب الصراط والمرور عليه:

٥ - ومن أحداث يوم القيامة: نصب الصراط، والمرور عليه، والصراط: جسر مضروب على متن جهنم، يمرُّ عليه المؤمنون حسب قوة إيمانهم وحسن أعمالهم، وأما الكافرون والمنافقون فإنهم يزُلُّون إلى جهنم.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكَ يَوْمَ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ *﴾ [الحديد: ١٢، ١٣].

(١) رواه أحمد (١٢٦٩٥)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. والطبراني في الأوسط (٣٤٠٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٦٨٧): رواه أحمد، والطبراني في الأوسط، ورجالهما رجال الصحيح.

(٢) فتح الباري (١١/٤١٠ - ٤١١).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ * وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿[يس: ٦٦، ٦٧].

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند مسلم: «ثم يضرب الجسر على جهنم، وتحل الشفاعة، ويقولون: اللهم سلم سلم». قيل: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: «دَحْضُ مَزَلَّةٍ، فيه خطاطيف وكلايب وحسك (أشواك صلبة) تكون بنجد فيها شويكة يقال لها: السَّعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم»^(١).

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «ويُضْرَب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يُجيزها، ولا يتكلم يومئذ إلا الرُّسل، ودعوى الرُّسل يومئذ: اللهم سلم سلم. وفي جهنم كلايب مثل شوك السعدان، هل رأيتم السعدان؟». قالوا: نعم يا رسول الله. قال: «فإنها مثل شوك السعدان، غير أنه لا يعلم ما قدر عظمها إلا الله، تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم المؤمن يبقى بعمله، أو المُوَبَّق بعمله، أو المُوَثَّق بعمله، ومنهم المخردل أو المُجَازِي»^(٢).

أقسام المارين على الصراط:

يتفاوت المارون على الصراط، كلٌّ حسب عمله، فمنهم من يمرُّ كالبرق، ومنهم من يمرُّ كالريح، ومنهم كالطير، ومنهم من يشتد كشدِّ الرجال.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٤٣٩)، ومسلم في الإيمان (١٨٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٨٠٦)، ومسلم في الإيمان (١٨٢).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «فيمر أولكم كالبرق». قلت: بأبي أنت وأمي، أي شيء كمرّ البرق؟ قال: «ألم تروا إلى البرق كيف يمر، ويرجع في طرفه عين؟»

ثم كمر الريح، ثم كمرّ الطير، وشدّ الرجال، تجري بهم أعمالهم، ونبيكم قائم على الصراط، يقول: ربّ، سلّم سلّم، حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً. قال: «وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج، ومكدوس في النار»^(١).

وهذه الأحاديث وغيرها تبين أن معنى الورود في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۖ﴾ [مريم: ٧١، ٧٢]، هو الجواز على الصراط. وقد ذهب إلى تفسير الورود بالمرور على الصراط ابن عباس وابن مسعود وغيرهما.

والثبات يوم القيامة على الصراط بالثبات في هذه الدار، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنسوب على متن جهنم.

وصف الصراط:

الصراط - كما جاء في الأحاديث السابقة - دخض مزلة، أي: موضع تزلّ فيه الأقدام ولا تستقر، على حافتيه خطاطيف وكراليب وحسك (أي شوك صلب) من حديد، وهو أدق من الشعر، وأحد من السيف، كما

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٩٥).

روى ذلك مسلم، عن أبي سعيد رضي الله عنه موقوفاً قال: بلغني أن الجسر أدق من الشعرة، وأحد من السيف^(١).

قنطرة الحقوق:

إذا خلاص المؤمنون من الصراط حُبسوا على قنطرة - جسر آخر - بين الجنة والنار يتقاصون مظالم كانت بينهم، وهؤلاء لا يرجع أحد منهم إلى النار، لعلم الله أن المقاصّة بينهم لا تستنفد حسناتهم، بل تبقى لهم من الحسنات ما يدخلهم الله به الجنة، قال صلى الله عليه وسلم: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا، أُذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده، لأحدهم أهدى لمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»^(٢). فهذه القنطرة خاصة بتنقية المؤمنين من الذنوب المتعلقة بالعباد، حتى يدخلوا الجنة وليس في قلوبهم غلٌّ ولا حسدٌ لأحدٍ، كما وصف الله أهل الجنة فقال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

* * *

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٨٣).

(٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٣٥)، وأحمد (١١٠٩٥).



(٧)

الشفاعة

الشفاعة لأهل الإيمان:

هناك من أهل الإيمان مَنْ تكاسلوا عن بعض الخيرات، أو اقترفوا بعض السيئات، ولم تستطع حسناتهم أن تغطّي سيئاتهم، ولكنّ الله تعالى يهيئ لهم بعض أهل الإحسان والخير من المؤمنين ومن الملائكة، فيشفعون لعدد من هؤلاء الذين يستحقون العذاب، فيقبل الله شفاعتهم، ويعفو عنهم، ولا يدخلهم النار.

وهناك آخرون من المؤمنين العصاة يدخلون النار مدّة من الزمن، تقصر أو تطول، ثم يأبى الله تعالى إلا أن يشملهم بعطفه وجوده ولطفه، ويدخلهم في رحمته، ويخرجهم من حرّ نار جهنم، ويدخلهم الجنة، وهو الغفور الرحيم الودود، ويكون لأدناهم منزلة من الجنة ما لمالكٍ من ملوك الدنيا عشر مرات أو أكثر، وله فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

معنى الشفاعة:

والشفاعة هي انضمام الإنسان إلى غيره - بحيث يكون معه شفعا بعد أن كان وترا - ليطلب له من آخر أمرا، يحقق له جلب منفعة، أو دفع مضرة، وهي تقتضي أربعة أمور: شافعا، ومشفوعا له، ومشفوعا عنده، ومشفوعا فيه.

وهي نوعان: محمودة ومذمومة:

فالشفاعة المحمودة: أن يشفع الشافع لمن يستحق الشفاعة في تحقيق أمر مشروع له، وإن لم يكن حقا له، كما لو كان على المرء دين محدّد

بموعد، وجاء موعد الاستحقاق، ومن حقّ الدائن أن يردّ إليه الدين، وإلاّ طالب بعقوبة المدين وحسبه، فإذا جاء شافع إلى الدائن، لينظر هذا المدين إلى ميسرة، أو يتنازل عن جزء من دينه، وكان المشفوع له أهلاً لهذا التخفيف، كأن خسر في تجارته، أو أصابه ما ذهب بماله.. إلخ، فهذه شفاعة مقبولة ومحمودة.

أما لو كان رجلاً سيئ السُّلوك، وأخذ المال وبذّره في الحرام، وجاء من يشفع فيه عند الدائن، فهذه الشفاعة مذمومة ومرذولة.

وفي القرآن الكريم: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِينًا﴾ [النساء: ٨٥].

ومن الشفاعة المذمومة: الشفاعة لإسقاط عقوبة عمّن يستحقها، لنسبه، أو جاهه، أو ماله، وهو ما أنكره النبي ﷺ على حَبِّه وابن حَبِّه: أسامة بن زيد، حين أرادت منه قريش أن يشفع عند الرسول للمرأة المخزومية التي سرقت، وقال له: «أتشفع في حدٍّ من حدود الله يا أسامة؟»^(١).

ومن ذلك: شفاعة بعض الكبراء لدى بعض الرؤساء والمسؤولين، لتوظيف بعض أقاربه أو من له به علاقة، وتقديمهم على غيرهم، ممن هو أحقّ منهم وأولى بالمنصب، وهذه خيانة لله ولرسوله وللجماعة.

هذه هي الصورة الشائعة والمستقرّة في أذهان الناس، وهي أن الشفاعة تعني: طلب الإنسان ما ليس بجائز له، بوساطة غيره، ولعلّ هذه

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٥)، ومسلم في الحدود (١٦٨٨)،

عن عائشة.

الصورة هي التي دفعت بعض أهل العلم قديمًا وحديثًا إلى إنكار ما ورد في الشفاعة من أحاديث، وتأويل ما جاء فيها من آيات.

شروط الشفاعة المقبولة:

الشفاعة المقبولة هي التي تتوفر لها عناصر ثلاثة: في الشافع، والمشفوع له، والمشفوع فيه.

فالشافع: لا بد من أن يكون مريضًا عند المشفوع عنده، بما له من منزلة عنده.

والمشفوع له: لا بد أن يكون أهلًا للشفاعة، فليس كل امرئ قابلاً لأن يُشفع له.

والمشفوع فيه: لا بد أن يكون أمرًا قابلاً للشفاعة، فهناك أمور لا يجوز أن تكون موضع شفاعة لأحد.

هذه الشروط التي تعارفها أهل الخير والفضل من الناس في الدنيا، هي نفسها التي تُراعى في شفاعة الآخرة، فليست الشفاعة كلاً مباحاً، يراعاه كل من شاء، متى شاء، وكيف شاء، ولكنها منضبطة مقيدة بشروطها ومجالها وأهلها، وهذا ما يجب أن نؤكد: أن الشفاعة التي أثبتها القرآن الكريم للمذنبين يوم القيامة، وصحت بها أحاديث الرسول ﷺ، لا يمكن أن تكون من نوع الشفاعة المذمومة؛ إذ لا بد أن تكون بعد إذن من الله تعالى، فهو مالك الشفاعة كلها، وصاحب الأمر كله، قال تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ۚ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤].

ولا بدّ أن يكون الشافع من أهل القبول عند الله تعالى، ممن أذن له الرحمن ورضي له قولاً: من الملائكة أو الأنبياء أو الصّالحين، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨]، وقال: ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].

ولا بدّ أن يكون المشفوع له ممن ارتضاه الله في الجملة، وليس من أهل الجحود أو الشرك بالله تعالى، قال تعالى: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذْ أَلْقُوا لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، وقال عزّ وجلّ: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

ولا بدّ أن يكون الأمر المشفوع فيه مما يدخل في دائرة الشفاعة، وهذا معروف بطبيعة الحال؛ إذ لا يتصوّر من الملائكة أو النبيين أو الصّديقين والشهداء والصّالحين: أن يطلبوا من الله سبحانه ما لا يليق أن يُطلب منه، ولذا قال تعالى في الشّافعين المقبولين: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

حقائق لا يجوز الخلاف عليها:

هناك حقائق في هذه القضية لا يجوز الخلاف عليها، قد تكلمنا فيها قبل، ونزيدها هنا تبياناً:

سعادة الإنسان موقوفة على إيمانه وعمله:

أولاًها: أن سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة موقوفة على إيمانه وعمله، لا على الاتكال على غيره، فهو الذي يُسعد نفسه أو يُشقيها،

وليس غيره هو الذي يجلب له السعادة أو الشقاء، وهذا أمر واضح كل الوضوح في كتاب الله.

يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].
ويقول تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].
ويقول سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

العبرة بالمضامين وليست بالعناوين:

الثانية: أن العبرة ليست بالشارات والعناوين، بل بالحقائق والمضامين، وليس المدار على الدعاوى الضخمة، بل على البيّنات الصادقة. فليس كل من ادّعى أنه من أهل الإيمان يكون كذلك، فما أكثر الدعاوى وما أعزّ المعنى! يقول الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

ثم بيّن في الآية التالية حقيقة الإيمان وأهله، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

قد ذكر المفسرون أن جماعة من المسلمين وأهل الكتاب التقوا، فادّعى كل منهم أنه أولى بالله وأحق بالجنة من غيره، فأنزل الله قرآنًا يُتلى، ليكون قولًا فصلًا، وحكمًا عدلًا، وذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

وقد ردّ القرآن دعوى اليهود والنصارى حين زعموا أن الجنة لهم وحدهم، فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢].

الملك والتدبير في هذا اليوم لله وحده:

الثالثة: أن يوم القيامة ليس لأحد فيه ملك ولا تصرف، فالملك كله في هذا اليوم لله، والأمر كله لله، كما علّمنا الله أن نقول في سورة الفاتحة في كل صلاة: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أو: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، على القراءتين.

فالله هو المالك، وهو الملك وحده في هذا اليوم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الإنفطار: ١٩]، وقال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فلا يملك ملك في السماوات ولا في الأرض، ولا يملك نبي مُرْسَل ولا صديق من الأمر شيئًا في هذا اليوم، إلا ما أذن الله تعالى به لمن يشاء.

العدل المطلق شعار هذا اليوم:

الرابعة: أن العدل المطلق هو شعار ذلك اليوم، فلا تُظلم نفس شيئاً، بمعنى أنها لا تهضم جزاء ما عملت من خير، ولا تحمل وزر عمل لم تعمله، ولا تعاقب بأكثر مما يستحقه العمل، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، وقال: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

إسقاط الأوهام الزائفة عن الشفاعة:

الخامسة: أن الأوهام التي شاعت بين المسلمين عن الشفاعة لا أساس لها، وهي أن يقترب الإنسان كبائر الإثم والفواحش، ويبغي في الأرض بغير الحق، ويفترس الضعفاء والمساكين، وينتهك الحرمات، ويخون الله ورسوله والمؤمنين، ثم يتكل على أن الرسول أو الأولياء سيشفعون له، فهذا أشبه بما كان عليه المشركون في الجاهلية، واليهود والنصارى إلى اليوم، حين يرتكبون المآثم والمظالم، ويقولون: سيغفر لنا، أو يشفع لنا الشافعون، كما قال اليهود في عصور تخلفهم عن رسالتهم، وعن اتباع أنبيائهم، ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، فالواقع أن باب الشفاعة ليس مفتوحاً لكل الناس، بل يفتحه الله متى شاء لمن يشاء، فيما يشاء من الذنوب، كما وعد في كتابه وبيّن، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

فلا يدري أحد: أيشفع له شافع أم لا؟ وإذا شفع: أيقبل شفاعة أم لا؟

الشفاعة المنفية والمثبتة في القرآن:

السادسة: أن مَنْ قرأ القرآن وجد أن هناك شفاعتين: شفاعاة منفية، وشفاعة مثبتة، وهذه غير تلك، فالشفاعة المنفية هي (الشفاعة الشركية) التي كان يعتقدوها الوثنيون المشركون: أن آلهتهم ستشفع لهم عند الله، وأن الله سيستجيب لها حتمًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فهم يحسبون أن آلهتهم لها من السلطة والتأثير، ما يجعل الله تعالى يفسخ إرادته، ويغيّر حكمه بالنسبة إليهم، ومثلهم اليهود والنصارى من محرّفة أهل الكتاب، الذين اعتقدوا أن لأنبيائهم وأحبارهم ورهبانهم من التأثير على الإرادة الإلهية، مثل ما اعتقده المشركون في آلهتهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّوْهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨]، وهذه الشفاعاة هي التي جاء فيها النفي في مثل قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨].

وهناك شفاعاة مثبتة، وهي الشفاعاة المشروطة المقيدة بإذن الله تعالى، وهي مقيدة بالنسبة للشافعين وللמשفوع لهم وللמשفوع فيه أيضًا.

السنة مبينة للقرآن:

السابعة: أن السنة مبينة للقرآن، فلا يجوز ردُّ السنة اكتفاء بالقرآن، كما لا يجوز قبول السنة المناقضة للقرآن؛ لأن البيان لا يناقض المبيّن، إنما يوضحه ويبين المراد منه، بتخصيص عامّه، أو تقييد مطلقه، أو تفسير مبهمه، أو تفصيل مجمله؛ ومن هنا يجب أن ننظر إلى ما صحَّ في السنة،

مما بيّن القرآن نظرة القبول والإذعان، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في أكثر من آية، ويقول: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ويقول: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]. ويقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُلٍ فَتُخَذَوْنَهُمْ وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْهَوْا﴾ [الحشر: ٧]، ويحذّرنا من مخالفة أمره ﷺ، فيقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

الشفاعة الثابتة في الآخرة:

والشفاعة التي ثبتت بالنصوص المحكمة في الآخرة نوعان:

الأولى: الشفاعة العظمى (المقام المحمود):

الشفاعة العظمى؛ لإراحة الخلق يوم القيامة من هول الموقف، وهذه الشفاعة جعلها الله لخاتم رسله، وصفوة خلقه: محمد ﷺ، وهذه لا تأباها أصول المعتزلة، ولم أرَ مَنْ أنكرها من علمائهم^(١).

وقد صحّت بها الأحاديث عن عدد من الصحابة، كحديث أبي هريرة وحده^(٢)، وحديث أبي هريرة وحذيفة معاً^(٣)، وأحاديث

(١) هذه الشفاعة العظمى مُجمَع عليها، لم ينكرها أحد ممن يؤمن بالبعث، إذ هي - كما يقول السفاريني - للإراحة من طول الوقوف حين يتمنون الانصراف من موقفهم ذلك، ولو إلى النار. انظر: لوايح الأنوار البهية (٢٠٨/٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٠)، ومسلم في الإيمان (٣٣٤٠)، في حديث طويل، وفيه: «يا محمد ارفع رأسك، واشفع تشفع، وسل تعطه».

(٣) رواه مسلم في الإيمان (١٩٥) بلفظ: «يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة...».

أبي بكر^(١)، وسلمان^(٢)، وأنس^(٣)، وأبي بن كعب^(٤)، وبُرَيْدة الأسلمي^(٥)، وابن مسعود^(٦)، وكعب بن مالك^(٧)، وأبي الدرداء^(٨).. وغيرهم، كما ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره^(٩).

- (١) رواه أحمد (١٥)، وقال مخرجه: إسناده حسن. وصحح إسناده الشيخ أحمد شاکر في تخريج المسند، من الحديث الطويل، وفيه: «ارفع رأسك يا محمد، وقل يسمع، واشفع تشفع».
- (٢) رواه الطبراني (٢٤٧/٦)، وصحح إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٥٥٠٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٦٣٨)، بلفظ: «... فيقال: محمد، فيفتح له، فيجيء حتى يقوم بين يدي الله، فيسجد، فينادي ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع، فذلك المقام المحمود».
- (٣) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٤٧٦)، ومسلم في الإيمان (١٩٣)، وفيه: «يا محمد، ارفع رأسك، قل تسمع، سل تعطه، اشفع تشفع. فأرفع رأسي».
- (٤) رواه أحمد (٢١٢٤٥)، وقال مخرجه: صحيح لغيره. والترمذي في المناقب (٣٦١٣)، وقال: حسن صحيح غريب. وابن ماجه في الزهد (٤٣١٤) بلفظ: «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم غير فخر».
- (٥) رواه أحمد (٢٢٩٤٣)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. بلفظ: «إني لأرجو أن أشفع يوم القيامة عدد ما على الأرض من شجرة ومدرّة».
- (٦) رواه أحمد (٣٧٨٧)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. وفيه: «ما سألته ربي، وما أطمعني فيه، وإني لأقوم المقام المحمود يوم القيامة».
- (٧) رواه أحمد (١٥٧٨٣)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وابن حبان في التاريخ (٦٤٧٩)، بلفظ: «يبعث الناس يوم القيامة، فأكون أنا وأمتي على تل، ويكسوني ربي تبارك وتعالى حلة خضراء، ثم يؤذن لي، فأقول ما شاء الله أن أقول، فذاك المقام المحمود».
- (٨) رواه أحمد (٢١٧٣٧)، وقال مخرجه: حسن لغيره دون قوله: «وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم... إلخ». بلفظ: «أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه، فأنظر إلى بين يدي، فأعرف أمتي من بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك، وعن يميني مثل ذلك، وعن شمالي مثل ذلك». فقال رجل: يا رسول الله، كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال: «هم غُرٌّ محجلون من أثر الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم يسعى بين أيديهم ذريّتهم».
- (٩) تفسير ابن كثير (١٠٥/٥ - ١١٢).

ونعني بهذه الشفاعة العظمى: شفاعته ﷺ التي أكرمها الله تعالى بها، لإراحة الخلق من طول الانتظار يوم الهول العظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين، والفصل بينهم، ليدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وهذا هو (المقام المحمود) الذي أشار إليه القرآن إجمالاً، وذكره الله تعالى في سورة الإسراء ممتناً على رسوله بهذه الخصوصية، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

من ذلك: ما رواه الشيخان، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كُنَّا مع النَّبِيِّ ﷺ في دعوة، فَرَفَعَ إِلَيْهِ الذَّرَاعَ - وكانت تُعْجِبُهُ - فَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً، وَقَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُبْصِرُهُمُ النَّازِرُ، وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَتَدْنُو مِنْهُمْ الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسُ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يَطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَيْنَا مَا أَنْتُمْ فِيهِ، وَإِلَيْنَا مَا بَلَّغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَبُوكُمِ آدَمُ. فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، وَأَسْكَنْكَ الْجَنَّةَ، أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ؟ أَلَا تَرَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ وَمَا بَلَّغْنَا؟ فَقَالَ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ، فَعَصَيْتُ، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي! اذْهَبُوا إِلَىٰ غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَىٰ نُوحٍ.

فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، أَلَا تَرَىٰ إِلَيْنَا مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَىٰ إِلَيْنَا مَا بَلَّغْنَا؟ أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ

مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كان لي دعوة دعوتُ بها على قومي، نفسي، نفسي، نفسي! اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم، فيقولون: أنت نبيُّ الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إنَّ ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنني كنتُ كذبتُ ثلاثَ كذبات - فذكرها - نفسي، نفسي، نفسي! اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى.

فيأتون موسى، فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، فضَّلَكَ الله برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، أما ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إنَّ ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنني قد قتلْتُ نفسًا لم أؤمر بقتلها، نفسي، نفسي، نفسي! اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى، أنت رسولُ الله، وكلمته ألقاها إلى مريم، ورُوح منه، وكَلَّمْتُ الناس في المهد، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إنَّ ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله - ولم يذكر ذنبًا - نفسي، نفسي، نفسي! اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ.

فيأتوني فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق فأتي تحت العرش، فأقع ساجدًا لربي، ثم يفتح الله عليَّ من محامده وحُسن الثناء عليه شيئًا لم يُفتح على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، سلْ تُعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسي،

فأقول: أُمَّتِي يا رب، أُمَّتِي يا رب، أُمَّتِي يا رب. فيقال: يا محمد، ادْخُلْ من أُمَّتِكَ من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء فيما سوى ذلك من الأبواب». ثم قال: «والذي نفسي بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر». أو: «كما بين مكة وبُصْرَى»^(١).

بهذا يتبين لنا أن شفاععة الرسول هنا ليست أكثر من دعاء وثناء، وتضرع إلى الله تبارك وتعالى، مالك الملك، وصاحب الأمر كله، فيكرمه الله تعالى، ويستجيب دعاءه، ويقبل شفاعته في الخلق، فضلاً منه وكرماً. وقد جاء في حديث ابن عمر عند البخاري أن هذه الشفاععة هي المقام المحمود، حيث قال: فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود. وفي رواية: يحمده أهل الجمع كلهم^(٢). وهذا هو المتفق مع المنزلة التي جعلها القرآن للرسول الكريم، حين قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وليس في إثبات هذه الشفاععة ما يخالف النقول، أو يباين العقول، أو يناقض الأصول.

والشفاعة الثانية: الشفاععة للعصاة والمذنبين من أهل التوحيد:

والشفاعة الأخرى الثابتة بنصوص القرآن والحديث، هي الشفاععة للمذنبين، الذين ماتوا على الإيمان، ولكنهم اقترفوا بعض الكبائر في الدنيا، ولم يتوبوا منها، وهذه الشفاععة جعلها الله تعالى للملائكة والأنبياء

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧١٢)، ومسلم في الإيمان (١٩٤).

(٢) رواه البخاري في الزكاة (١٤٧٤، ١٤٧٥).

والصديقين والشهداء والصالحين. وهي التي نازع فيها المعتزلة^(١)، وردوا ما صحَّ فيها من أحاديث، وأولوا ما جاء فيها من آيات بأنها للطائعين والتائبين زيادة في المثوبات، ورفع للدرجات.

والمراد بالمذنبين: هم أهل الكبائر، سواء أكانت هذه الكبائر فعل محظور، كأكل الربا، وشرب الخمر والزنى، أم ترك مأمور؛ مثل ترك الصلاة، ومنع الزكاة، والإفطار بلا عذر في شهر رمضان، أم صغائر الذنوب فيكفرها اجتناب الكبائر بنص القرآن: ﴿إِنْ تَجَتَّبُوا كِبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نَكَفَرْنَا عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنَدْخَلُكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، كما تكفرها الصلاة والصيام وغيرهما من الحسنات، كما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وفي الحديث الصحيح: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان: مكفّرات لما بينهنّ إذا اجْتُنِبَتِ الكبائر»^(٢).

هذه القضية هي التي خالف فيها الخوارج والمعتزلة، فأهل الكبائر - بل من اقترف كبيرة واحدة عند كثير منهم - مغلّد في النار، وإن لم يسمّه المعتزلة كافراً، كما سمّاه الخوارج، إنما هو في منزلة بين الإيمان والكفر، ولا ينفعه إيمانه وتوحيده عندهم، ولا ما سبق له من صالح العمل، كما لا تنفعه شفاعة شافع، ولا يعفو الله تعالى عنه؛ لأنه أوعده

(١) قال السفاريني: الشفاعة التي تنكرها المعتزلة وتجدها، هي فيمن استحق النار من المؤمنين ألا يدخلها، وفيمن دخلها منهم أن يخرج منها، فكذبت بها المبتدعة، ونفتها مع ثبوت أدلتها، وتضافر حججها مما يتعسر إحصاؤه، ويتعذر استقصاؤه. انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/٢١٢).

(٢) رواه مسلم في الطهارة (٢٣٣)، وأحمد (٨٧١٥)، والترمذي في الصلاة (٢١٤)، عن أبي هريرة.

بالعقاب، ولا يجوز من الله أن يخلف وعده بالعقاب، كما لا يخلف وعده بالثواب.

من ينكر الشفاعة؟

بعض الناس تابع الخوارج والمعتزلة في إنكار الشفاعة لأهل الكبائر وعصاة المؤمنين، ويراها غير صحيحة، وبخاصة أن الذين يرتكبون المنكرات، وينتهكون الحرمات، يتكلمون عليها، ويرى هؤلاء أن آيات القرآن الكريم تنكر وقوعها، وأنها منافية للعدالة الإلهية، وهم يعتمدون على أمرين: أحدهما نقلي، والثاني عقلي.

فأما المعتمد النقلي، فأيات من القرآن الكريم، فهم منها أنها تنفي الشفاعة، أو تتناقض معها.

الآيات التي تنفي الشفاعة عندهم:

فأما الآيات التي تنفي الشفاعة عندهم، فمثل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَىٰ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفْعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]، ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ مَآ لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

الآيات التي تناقض فكرة الشفاعة عندهم:

وأما الآيات التي تناقض فكرة الشفاعة عندهم، فهي الآيات التي تنبئ بأن من دخل النار لا يخرج منها أبدًا، كما في قوله تعالى:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر: ١٩]، وأحاديث الشفاعة تصرح بأن أناساً من أهل النار، مكثوا فيها ما شاء الله أن يمكثوا، جزاءً على ذنوبهم، ثم هم يخرجون منها، ويدخلون الجنة، وهذا يناقض ما أكّده هذه الآيات.

المنطق العقلي الذي استند عليه منكرو الشفاعة:

وأما المنطق العقلي الذي استندوا إليه، فهم يرون أن (الشفاعة) إنما هي لون من المحاباة والوساطة، كما يتجلّى ذلك في أعرافنا، وسلوكنا العام، وهذا ينافي (العدل الإلهي) المطلق، الذي لا يعرف المحاباة، ويعطي كل ذي حق حقه، ويجزي كل نفس بما كسبت، لا يظلم أحداً مثقال ذرة من خير أو شر، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ * ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

الرد على من أنكر الشفاعة:

ولأهل السنة حُججهم البيّنة في الردّ على شبهات الخوارج والمعتزلة، ومن وافقهم من جهة العقل، ومن جهة النقل.

فأما من جهة العقل:

فإن المنطق العقلي الذي أسّس منكرو الشفاعة عليه رأيهم: أن الشفاعة تنافي العدل الإلهي، في مجازاة كل إنسان بعمله: منطق ضعيف، لا يقوم على أساس متين، لعدة أسباب:

أولاً: لأن العقل له مكان ومكانة في الإسلام في تأسيس العقيدة، حتى قال علماؤنا: العقل أساس النقل، يعنون أنه هو الذي أثبتنا به وجود الله تعالى، وإمكان الوحي، ووقوعه، واستدللنا به على صدق نبوة محمد ﷺ، وأن القرآن وحي الله إليه، لكن بعد ذلك - كما قال الإمام الغزالي - يعزل العقل نفسه، ليتلقى عن الوحي تفاصيل العقيدة والشريعة، فكل ما جاء به الوحي المعصوم من عقائد يجب على العقل أن يصدق بها، إيماناً بالغيب، وإن لم يكن يعرف كنهها، ما دامت غير مستحيلة عقلاً، والشفاعة من أمور الغيب، وأحوال الآخرة، التي أخبرنا بها القرآن والسنة، وليست من المستحيلات عقلاً، ولا يترتب عليها مستحيل، فعلياً أن نؤمن بها، ولا نردها، لنكون من الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ثانياً: أن العقل المسلم الذي رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، وبالقرآن إماماً: يرى فيما قرأه من كتاب الله الكريم، وما صحَّ من أحاديث رسوله العظيم، في إثبات الشفاعة لأهلها بشرطها: ما يجعله يأخذها باطمئنان، ويوقن بها بلا تردد، ويعلم أن لها حكمة تليق بكمال من منحها لمستحقِّيها، فضلاً من عند الله ورحمة ولطفاً، وإن لم يدرك هذا العقل كل سرها، فعليه أن يقول إذا عجز عن إدراك السر، ما قالته الملائكة الكرام: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

ثالثاً: أن العقل المسلم البصير إذا تأمل في قضية الشفاعة: يجد الحكمة فيها واضحة كل الوضوح، كالشمس لا يغشاها سحاب ولا

ضباب، فإن الله تعالى لا يتعامل مع عباده بالعدل وحده، بل بالعدل والفضل والرحمة معاً، وهذا في الدنيا، وفي الآخرة.

فالعقل يجيز للسيد إسقاط العقوبة عن عبده إن شاء، فضلاً منه وتكزماً، ويجيز للوالد إسقاط العقوبة عن ابنه متى شاء رحمة منه وتلطفاً، والعقل لا يجيز التسوية بين من لم يعترف بالسلطان من أساسه، وبين من أساء من رعيته إساءة ما، والعقل لا يستسيغ أن يضيع السيد ثمرة عمل عبد له، خدمه بإخلاص طوال عُمره بخطيئة واحدة ارتكبها، فإن سوابقه تشفع له، والعقل لا يستبعد أن يكرم السيد أو الأمير بعض أهل الفضل من رعيته، فيقبل شفاعتهم فيمن يشفعون فيه، بإسقاط بعض المطالبات عنهم، أو إرضاء بعض خصومهم، أو تخفيف بعض عقابهم، فيما هو من حق السيد أو الأمير، أو غيرهما.

وأما من جهة النقل:

فهناك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ما أثبت الشفاعة بقيودها وضوابطها، التي سيأتي ذكرها، ولكن المعتزلة ردُّوا الأحاديث الصحيحة الثبوت، الصريحة الدلالة، وأولوا الآيات بأن المراد بالشفاعة: زيادة المثوبات، ورفع الدرجات للمطيعين والتائبين، وهو تكلف مخالف للمبتدِر من النصوص.

والحق أن هؤلاء قد خانهم التوفيق، وأخطؤوا الصواب في استدلالهم النقلي والعقلي، وسأبيِّن ذلك فيما يلي:

١- آيات نفي الشفاعة:

لا يخفى على عالم أن القرآن كتاب يفسِّر بعضه بعضاً، ويُصدِّق

بعضه بعضًا، ولكي نفهمه فهمًا صحيحًا يجب أن نردّ الآيات بعضها إلى بعض، ونجمع ما ورد منها في الموضوع الواحد، حتى تتكامل الصورة أمامنا، فما أجمل في موضع ربما فُصِّل في موضع آخر، وما أُطلق في سياق، قد يكون قيّد في سياق آخر، وما عُمِّم في آية قد يكون خُصِّص في آية أخرى، ومن أجل هذا أنشأ المسلمون (علم أصول الفقه)؛ ليضبطوا به الاستدلال، ويضعوا له القواعد الحاكمة، والضوابط الحاسمة، والمعالم الهادية، فإذا نظرنا في ضوء ذلك في الآيات التي استدلّ بها هؤلاء على نفي الشفاعة بإطلاق، نجد في مقابلها آيات أخرى قيّدتها أو خصّصتها أو فسرتها، فلا بد لنا أن نفهم هذه في ضوء تلك، حتى لا نضرب القرآن بعضه ببعض: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلُكَّرًا أَوْ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، إِنَّ اللَّهَ نفى في بعض الآيات أن يكون في يوم القيامة شفاعة، والمراد بها هنا: الشفاعة التي كان يعتقدونها المشركون من العرب والمحرّفون من أهل الكتاب، التي يعتبرونها واجبة لهم، وحّدوا أم أشركوا، أذن الله أم لم يأذن، فالأصنام عند المشركين شفعاء لا ترد شفاعتهم، وكذلك الأنبياء، والقديسون عند أهل الكتاب، قال تعالى في شأن المشركين: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقال في شأن أهل الكتاب: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، وإنما بنوا هذا على الشفاعات التي كانوا يؤمنون بها، وأن بحسبهم أن يؤمنوا بموسى أو عيسى، ليحملوا بذلك صكًا إلى الجنة، فنفي القرآن ذلك، وأثبت الشفاعة لأهلها بشرطها.

الشفاعة لأهلها بشرطها:

فأما شرط الشفاعة، فهي أن تكون بإذن الله تعالى، فلا يملك أحد أن يشفع لأحد بذاته، أيًا كان مقامه، ملكًا أو نبيًا، فالله وحده صاحب الملك المطلق في ذلك اليوم، ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. وهو الذي يأذن بالشفاعة لمن يشاء، ويمنعها عمن يشاء، فالشفاعة كلها في يديه، وكل شفاعة لا بد أن يأذن بها الله سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣]، ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]، ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]، ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].

من لهم الشفاعة:

ثم إن هذه الشفاعة لا تنال كلَّ مَنْ هَبَّ وَدَبَّ، بل هي لأهل التوحيد وحدهم؛ من مات على عقيدة التوحيد، وأن (لا إله إلا الله)، قال تعالى في شفاعة الملائكة: ﴿لَا يَسْئَلُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * [الأنبياء: ٢٧، ٢٨]، فهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله، وهم الذين ماتوا على توحيد الله تعالى، وعدم الإشراك به، كما ذكر المفسرون، ولا يقال: إن الذين ارتضاهم الله إنما هم الصالحون من عباده من المطيعين والتائبين، وليسوا العصاة والمذنبين؛ لأننا نقول: هؤلاء الصالحون لا يحتاجون إلى شفاعة، إنما الذي يحتاج إلى الشفاعة هو المقصّر، ممن ضيّع بعض الواجبات، أو ارتكب بعض المحرّمات، وهو ممن ارتضاه الله في الجملة بسبب إيمانه، وانضمامه إلى الأمة المصطفاة، فإن أهلها

أقسام ثلاثة، ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإذنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٢، ٣٣].

فهؤلاء الثلاثة ضمن الأمة المصطفاة:

الظالم لنفسه: وهو الذي يقصر في بعض المأمورات، ويقترب بعض المحظورات.

والمقتصد: وهو الذي يكتفي بأداء الواجبات وترك المحرمات.

والسابق بالخيرات: وهو الذي يزيد النوافل على الواجبات، ويترك مع المحرمات الشبهات والمكروهات.

ولا عجب أن يحتاج هذا الظالم لنفسه إلى الشفاعة، وأن يشفع له الملائكة والأنبياء والصالحون؛ لأنه مرتضى في الجملة كما قلنا.

من لا شفاعه لهم:

أما المشركون الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، فلن يجدوا من يشفع لهم، ولو فرض أن شفع لهم شفيع فلن يطاع، ولذلك يقولون عندما يعانون ما يعانون من أمور الآخرة: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ [الأعراف: ٥٣]، ويقول تعالى: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ مِمَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، وقال تعالى على لسانهم في سقر: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمَسْكِينِ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٣ - ٤٨]، ومفهوم هذه الآية الأخيرة: أن

غيرهم - وهم المؤمنون العصاة - تنفعهم شفاعة الشافعين؛ فإن مثل هذا الكلام إنما يُساق، حين تنفع الشفاعة غيرهم، فيقصد تقبيح حال الكفرة، وتخيب رجائهم، بأنهم ليسوا كذلك؛ إذ لو لم تنفع الشفاعة أحدًا، لما كان في تخصيصهم زيادة تخيب وتوبيخ لهم، كما قال العلامة سعد الدين التفتازاني في (شرح المقاصد).

وقال سبحانه على لسان المشركين في النار حين يقولون لأصنامهم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ٩٧ - ١٠١].

وبهذا نعلم أن القرآن نفى الشفاعة في آيات، وأثبتها في آيات أخرى لأهلها بشرطها، والشفاعة المنفية غير الشفاعة المثبتة، كما نفى (الخُلَّة) يوم القيامة في آية: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وأثبتها في آية أخرى في قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، ومعنى هذا: أن الخُلَّة المنفية: هي خُلَّة أهل الدنيا، الذين تقوم خُلَّتْهم ومودَّتْهم على الأهواء والشهوات والمصالح المادية، وليست خُلَّة أهل التقوى الذين تقوم خُلَّتْهم وصحبَتهم على محبة الله وطاعته والولاء لدينه، فالأولون لا خُلَّة بينهم في الآخرة، بل يكفر بعضهم ببعض، ويبرأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلِيَّتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَوْبَلْتُنِي لِمَ أَخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩]، والآخرون - أهل التقوى - يُظِلُّهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وتظل خُلَّتْهم ومحبتهم معهم، حتى يدخلوا بها الجنة، ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].



استدلال نفاة الشفاعة بآيات عدم الخروج من النار والرد عليهم:

والنوع الثاني من الآيات التي استدلو بها هي الآيات التي تنفي الخروج من النار، فهم يرون هذه الآيات منافية لأحاديث الشفاعة في خروج الموحّدين من النار، بعد استيفائهم جزاءهم في نار جهنم، وهذا الاستدلال منقوض من عدة أوجه:

أولاً: ليست الشفاعة كلها فيمن دخل النار مدة ثم أخرج منها، بل تكون الشفاعة فيمن استحقوا أن يدخلوا النار فترة من الزمن، ثم شَفَعَ الله فيهم الشافعين المقبولين، فقبل الله شفاعتهم، ونَجَّوْا من دخول النار، فماذا يقولون في هؤلاء، وهم لا تنطبق عليهم الآيات التي ذكروها؟

ثانياً: أن في القرآن آيات تُجيز الخروج من النار بمشيئة الله تعالى، مثل قوله سبحانه في سورة الأنعام: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وقوله تعالى في سورة هود: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٦، ١٠٧]، وقوله تعالى في سورة النبأ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَنَابًا * لِّيَبْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢١ - ٢٣]. والأحقاب مهما يَظُلُّ أمدُها، فإن لها نهاية، وقد اتَّخذ الإمام ابن القيم من هذه الآيات ومن بعض الأخبار والآثار الواردة: أن النار يمكن أن تَفْنَى، وينتهي عذاب أهلها، كما بيّن ذلك من عشرين وجهًا في كتابه (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)، وكما حقق ذلك في كتابه: (شفاء العليل في مسائل القدر والحكمة والتعليل)، وجمهور العلماء يحملون هذه الآيات

والآثار على أهل التوحيد، الذين يدخلون النار مدة من الزمن، ثم يخرجون منها^(١).

ثالثًا: أننا لو لم نجوز خروج العصاة من أهل الإيمان من النار لسوينا بين التوحيد والشرك، وبين الإيمان والكفر في النتيجة، مع أن القرآن الكريم فرّق بينهما تفریقاً حاسماً، فقال تعالى في آيتين من كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]، فنفي مغفرة الشرك بإطلاق، وجعل ما دونه من الذنوب بمشيئته تعالى، كما أن القرآن جعل حسنات الكفار مهدرة في الآخرة، بحيث لا يستحقون عليها دخول الجنة؛ لأنها فقدت أساس القبول، وهو الإيمان بالله وحده، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]، ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

رابعًا: إن الذين يخرجون من النار ليدخلوا الجنة من الموحدين، لا يخرجون من النار بالشفاعة وحدها، فمنهم من يخرج باستيفاء مدة الاستحقاق، ومنهم من يخرج بشفاعة الشافعين، ومنهم من يخرج بفضل الله تعالى وعفوه ورحمته، فلا وجه لإنكار خروج من استوفى جزاءه، ولا

(١) حادي الأرواح ص ٣٤٥ - ٣٨٨، الباب السابع والستون: في أبدية الجنة وأنها لا تفتنى ولا تبديد، شفاء العليل ص ٢٥٦ - ٢٦٠.

لمن لَطَفَ اللهُ تعالى به، ومنَّ عليه بعفوه، فهو العَفُوُّ الغفور، وقد جاء في الحديث القدسي الصحيح: «لما قضى الله الخلق، كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي»^(١).

معاملة الله عباده بين قانون العدل وقانون الفضل:

ولو عاملنا الله تعالى بعدله وحده في الدنيا، لأهلك من في الأرض جميعاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، فهو يذيقهم بعض الذي عملوا، لا كل الذي عملوا، وهو لا يفعل ذلك انتقاماً، ولكن لعلهم يرجعون، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، فلولا عفوه عن كثير من ظلمنا لأنفسنا لأهلكنا بعدله، ومثل ذلك في أمر الآخرة، بل هو أوضح وأجلى، فالله تعالى يقول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، فنجد التعامل مع السيئة بالعدل، ومع الحسنة بالفضل، بل نجد ما يشير إلى أن بعض الحسنات قد تصل إلى سبعمائة ضعف أو أكثر، كما في النفقة في سبيل الله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]، ويؤكد هذا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقد جاء في بعض الآثار

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٤٢٢)، ومسلم في التوبة (٢٧٥١)، عن أبي هريرة.

الإلهية أن الله تعالى يقول: «الحسنة عندي بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف أو أزيد، والسيئة عندي بواحدة أو أعفو»^(١).

ونجد أن الله تعالى جعل دعاء الصالحين ينفع الإنسان، ولو بعد موته: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، وهذا من فضل الله تعالى على أهل الإيمان، وكأن هذا الدعاء لون من الشفاعة عند الله من أهل الإيمان لإخوانهم الذين سبقوهم، يدعون لهم بالمغفرة، ولهذا نجد الأنبياء يدعون الله بالمغفرة لهم ولآبائهم وللمؤمنين عامة: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وفي جانب الفضل نجد أن الحسنات إذا أُدِّيت على وجهها لا يحبطها إلا الردة - والعياذ بالله تعالى - كما قال وَعَلَى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

أما السيئات فقد فتح الله لإزالتها والتطهر من آثارها أبوابًا كثيرة، أحصاها شيخ الإسلام ابن تيمية فكانت عشرة، وسمّاها ابن القيم (أنهارًا) للاغتسال، منها: التوبة، والاستغفار، وعمل الصالحات: من الوضوء، والصلاة، والصيام، والصدقة، والحج، والعمرة، والدعاء،

(١) رواه البزار (٣٩٨٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٦٤٦)، عن أبي ذر. وعن أبي هريرة: «إذا أحسن أحدكم إسلامه: فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف، وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها». متفق عليه: رواه البخاري (٤٢)، ومسلم (١٢٩)، كلاهما في الإيمان.

وتلاوة القرآن، والجهاد. ومنها: بلايا الدنيا ومصائبها، والعقوبات الشرعية، وسكرات الموت، وفتنة القبر. ومنها: دعاء المؤمنين واستغفارهم له، وصدقته عن بعد وفاته، وصلاتهم الجنازة عليه، وكلها مكفّرات ومطهّرات، فمن لم يُطهّره نهرٌ، طهّره آخر، مغسلة بعد مغسلة، وفرصة بعد أخرى، حتى يلقي الله طاهرًا، إذا حالفه التوفيق.

وإن الله تعالى قد دعا عباده ألا يكتفوا في التعامل بينهم بقانون العدل وحده، وإن كان هذا من حقهم، بل ينبغي أن يرتقوا إلى قانون الفضل، وهو أفضل وأمثل، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، فمعاقبة السيئة بمثلها هو ما يوجب قانون العدل، والعفو عن السيئة هو ما يوجب قانون الفضل، والمؤمنون مندوبون إليه: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

فإذا كان ربنا وعجل قد ندبنا إلى أن نرتقي فتعامل فيما بيننا بالفضل، فكيف لا يفعل هو ذلك، وهو القادر عليه، وهو أهلٌ لكلِّ فضل وكمال؟ إن شفاعة الشافعين في يوم الحساب، بعد أن تُنصب الموازين، وتُنشر الدواوين، وتُكشف الأوراق، وتُقرأ الكتب؛ أشبه بوضع (لجان الرأفة) في امتحانات الشهادات في الدنيا.

إنَّ المقاييس التي وُضعت للنجاح والرسوب مُحكَّمة في الجميع، ويُحاسب كل ممتحن على الدرجة، ونصف الدرجة، ولكن هناك من تستحق ورقته أن تعرض على (لجنة الرأفة)، حيث يكون قريبًا من النجاح وإن لم يستحقه بموجب العدل الصارم، لكننا نرأف به بموجب

الرحمة، فهذا المثل يقرب لنا مبدأ الشفاعة، فهي ليست لعنة المجرمين، وطغاة الظالمين، فهؤلاء لا يقبل نبي ولا صديق أن يشفع لهم، إنما يشفعون للمقارِبين، ممَّن ضَعُف عزمه، وزَلَّت قدمه، ولم تُسَعفه التوبة.

الشفاعة تكريم من الله تعالى لعباده المؤمنين:

رابعًا: أن الشفاعة إنما هي تكريم من الله تعالى شأنه لعباده المؤمنين من الملائكة والأنبياء والصالحين، وأي غرابة في أن يكرم الله بعض عباده، فيمنحهم حقَّ الشفاعة في بعض عباده، والمُلك مُلكه، والخلق خلقه، وقد شغل في الدنيا ملائكته بالدعاء للمؤمنين والاستغفار لهم: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧ - ٩].

أي غرابة في أن يكرم الله عبده ورسوله وخيرة خلقه وخاتم أنبيائه محمدًا، فيعطيه حقَّ الشفاعة العظمى لإراحة الخلق من هول الموقف؟

وأي غرابة في أن يشفع ﷺ لأهل الكبائر من أمته؟

وأي غرابة في أن يشفع بعض الربَّانيِّين من أمته في بعض العصاة الذين ماتوا على التوحيد؟

وأي غرابة في أن يشفع الشهداء من أمته لعدد كذا وكذا من أهلهم وأقاربهم، مكافأة لهم على استشهادهم وبذلهم لأرواحهم في سبيل الله؟

إِنَّ الْعَقْلَ الْمُؤْمِنَ لَا يَسْتَغْرِبُ ذَلِكَ، وَلَا يَسْتَبْعِدُهُ، بَلْ يَجِدُهُ عِنْدَ التَّدَبُّرِ مُقْتَضَى الْكَمَالِ الْإِلَهِيِّ الْأَعْلَى، وَمُقْتَضَى الرَّحْمَةِ الَّتِي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَمُقْتَضَى الْفَضْلِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ بَغَيْرِ حِسَابٍ، وَهَذَا مَا تَكَاثَرَتْ حَوْلَهُ الْأَحَادِيثُ، مِنْهَا:

قوله ﷺ: «يُخْرِجُ قَوْمَ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَيُسَمَّوْنَ الْجَهَنَّمِيِّينَ»^(١).

وقوله: «يُخْرِجُ مِنَ النَّارِ قَوْمَ بِالشَّفَاعَةِ كَأَنَّهُمُ الثَّعَالِيقُ»^(٢). والثَّعَالِيقُ: هِيَ الثَّعَالِيقُ الصَّغَارُ، شَبَّهُوا بِهَا لِأَنَّ الثَّعَالِيقَ يَنْمُو سَرِيعًا.

وقال: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَكْثَرَ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ»^(٣).

و«يُشْفَعُ الشَّهِيدُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ»^(٤).

«أَسْعِدِ النَّاسَ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ خَالصًا مِنْ قَلْبِهِ»^(٥).

«لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ، فَأَرِيدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَخْتَبِيَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٦).

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٦٦)، وأحمد (١٩٨٩٧)، وأبو داود في السنة (٤٧٤٠)، عن عمران بن حصين.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٥٥٨)، ومسلم في الإيمان (١٩١)، عن جابر.

(٣) رواه أحمد (١٥٨٥٧)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. والترمذي في صفة القيامة (٢٤٣٨)، وقال: حسن صحيح غريب. والحاكم في معرفة الصحابة (٤٠٨/٣)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، عن عبد الله بن أبي الجعداء.

(٤) رواه أبو داود في الجهاد (٢٥٢٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (٢٢٧٧)، عن أبي الدرداء.

(٥) رواه البخاري في العلم (٩٩)، وأحمد (٨٨٥٨)، عن أبي هريرة.

(٦) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٤)، ومسلم في الإيمان (١٩٨)، عن أبي هريرة.

«كل نبيٍّ قد سأل سؤالاً - أو قال: لكل نبيٍّ دعوة دعا بها - فاستجيب، فجعلت دعوتي شفاعاً لأمتي يوم القيامة»^(١).

وفي حديث أبي سعيد عند الشيخين: «فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون، فيقول الجبار: بقيت شفاعتي، فيقبض قبضة من النار، فيُخرج أقواماً قد امتحشوا - أي احترقوا - فيُلْقَوْنَ في نهر بأفواه الجنة يقال له: ماء الحياة..» الحديث^(٢).

«لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كلُّ نبي دعوته، وإني خبأت دعوتي شفاعاً لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة - إن شاء الله - من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً»^(٣).

فالقرآن - إذن - لم يَنْفِ مطلق الشفاعه، كما زعم من زعم، بل نفى الشفاعه التي ادّعاها المشركون والمحرّفون، والتي كانت من أسباب فساد كثير من أتباع الديانات، الذين يقتربون الموبقات، متكلمين على أن شفعاؤهم ووسطاءهم سيرفعون عنهم العقوبة لا محالة، كما يفعل الملوك الظلمة، وحكام الجور في الدنيا.

إنَّ المسلم الحق لا يضرب النصوص بعضها ببعض، ولكن يرد المتشابهات إلى المُحكّمات، ويحمل المطلق على المقيّد، ويفسّر العام بالخاص، ويأخذ بها جميعاً، بحيث يضع كلّاً منها في موضعه الصحيح، وهذا هو الذي هُدي إليه العلماء الربانيون من هذه الأمة^(٤).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٥)، ومسلم في الإيمان (٢٠٠)، عن أنس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٤٣٩)، ومسلم في الإيمان (١٨٣)، عن أبي سعيد.

(٣) رواه مسلم في الإيمان (١٩٩)، وأحمد (٩٥٠٤)، والترمذي في الدعوات (٣٦٠٢)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٧)، عن أبي هريرة.

(٤) انظر: رسالتي في الرد على د. مصطفى محمود.



(٨)

الجزء الآخر (الثواب والعقاب)

تفاوت الأجزية في الجنة والنار على الأعمال ثوابًا وعقابًا بين الأديان:

إن فكرة الثواب والعقاب على عمل الإنسان الظاهر والباطن، التي قررها الله تعالى: فكرة عادلة تقوم على جهد الإنسان في إيمانه وعمله وأخلاقه، وكل تصرفاته، حسنة أو سيئة، بعد أن تسجل له أو عليه، ولكن الأديان الكتابية كاليهودية والنصرانية والإسلام تتفاوت فيما بينها، فيما أعدته للأخيار والأشرار، فإذا سألت كلاً منها عن أنواع الأجزية التي تُرغب فيها، والأجزية التي ترهب منها في أسفارها وصحائفها الدينية المقدسة؛ وجدت عند كل دين ما ليس عند الآخر، فالجزء الذي وعد به الإسلام ووصفه وأغرى به أو خوَّف منه في قرآنه وسنة نبيه غير الجزء الذي ورد في الديانة اليهودية وأسفارها، وفي الديانة النصرانية وأناجيلها وملحقاتها.

الجزء في اليهودية والنصرانية:

فالجزء في اليهودية في طابعه واتجاهه جزء مادي دنيوي، ولا يكاد يوجد للروحانيات ولا للآخرة ذكر فيها، ومن قرأ أسفار التوراة لمس هذا بجلاء ووضوح، والجزء في النصرانية في طابعه العام جزءاً روحي، وقلما تجد فيها الأجزية الأخرى: المادية، والنفسية، والاجتماعية.. ونحوها، مما يتعلق بهذه الحياة الدنيا، ومن قرأ الأناجيل المعترف بها عندهم لمس هذا بوضوح كذلك.

يقول شيخنا علامة الأزهر الدكتور محمد عبد الله دراز رَحِمَهُ اللهُ فِي رسالته (كلمات في مبادئ علم الأخلاق): (كان الترغيب والترهيب في

التوراة بوعود وإيعادات كلها عاجلة في هذه الدنيا، وتكاد تستأثر بها النزعة المادية الخالصة: الصحة، والرخاء، وكثرة الأولاد، وهزيمة الأعداء، للمطيعين، وأضدادها لأضدادهم.

هكذا نقرأ في سفر التكوين قول الله لآدم وزوجه: «لا تأكلا من هذه الشجرة، ولا تقرباها، لئلا تموتا»^(١)، وقوله لابن آدم بعد أن قتل أخاه: «الآن ستلعنك الأرض.. فإذا حرثتها فلن تعطيك ثمراتها»^(٢)، وقوله لنوح وبنيه بعد الطوفان: «فلكثروا ولتتناسلوا ولتملؤوا الأرض»^(٣)، وقوله لإبراهيم بعد أن رضي بذبح ولده: «فإذا فعلت ذلك، ولم ترفض التضحية بولدك الوحيد، فوعزتي وجلالي، قول الإله الأبدي، لأباركنك ولأكثرن ذريتك، حتى تكون كنجوم السماء ورمال السواحل، ولتُمكن ذريتك أرض أعدائها»^(٤). وقول إسحاق في دعائه لابنه يعقوب (إسرائيل): «فليمنحك الله قَطْرَ السماء وشحم الأرض، وليرزقك قمحًا وافرًا وكرومًا عظيمة، ولتخضع لك شعوب، ولتسجد أمامك أمم»^(٥). وقول الله تعالى ليعقوب أيضًا: «كن خصبًا كثير الأولاد، وليخرج من صلبك أمة، بل أمم، سأعطيك الأرض التي وعدتها إبراهيم وإسحاق، وسأعطي هذه الأرض لذريتك»^(٦).

ونقرأ في سفر الخروج قول موسى لقومه: «اعبدوا ربكم الإله الأزلي، وهو يبارك خبزكم وماءكم، ويباعد عنكم العلل والأدواء، حتى لا يكون

(١) سفر التكوين (٣/٣).

(٢) المصدر السابق (١١/٤، ١٢).

(٣) المصدر السابق (١/٩).

(٤) المصدر السابق (١٦/٢٢، ١٧).

(٥) المصدر السابق (٢٧/٢٨، ٢٩).

(٦) المصدر السابق (١١/٣٥، ١٢).

في أرضكم امرأة عاقر، ولا تجهض فيها امرأة حامل، وسيطيل أعماركم، ويبعث الرعب بين أيديكم، ويهزم الشعوب التي تصلون إليها»^(١).

ونقرأ في سفر اللاويين قول الله تعالى لبني إسرائيل في عهد موسى: «إذا اتبعتم أمري، وحفظتم وصيتي، سأبعث إليكم الأمطار في أوقاتها، فتخرج الأرض ثمرتها، والأشجار فاكهتها، فلا تلبثون إذا فرغتم من حصاد قمحكم واستخراجه من سنابله أن تَجْنُوا كرومكم، لا تفرغوا من جَنِي الأعناب حتى تُبْذَر البُذُر، ستأكلون من الخبز حتى تشبعوا، وتسكنون دياركم آمنين، حتى لا يزعج أحد نومكم، وسأبعد عن بلدكم كل حيوان مفترس، ولن يدخل في دياركم سيف، ستتعقبون أعداءكم حتى يسقطوا أمام سيوفكم.. أمّا إذا لم تستمعوا لي، ولم تنفذوا وصيتي، فأليكم ما سأفعله بكم: سأسلط عليكم الرعب والسل والحُمى.. عبثًا ستزرعون أرضكم؛ لأن أعداءكم سيأكلون مما تزرعون، وستنهزمون أمامهم..»^(٢)، وهكذا في غير موضع.

ثم جاء الإنجيل على العكس من ذلك، يحوّل أنظار معتنقيه من ملك الأرض إلى ملكوت السماء، ويبشر الخيرين بما أعد الله لهم في الآخرة، من جزاء القرض الحسن بأحسن منه.

هكذا تقرأ في إنجيل متى ومرقس قول عيسى ﷺ لسائل حديث العهد بالإيمان به: «إذا أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع ما تملك وأعطه للفقراء، وسيكون لك كنز في السماء، ثم تعال واتبعني»^(٣).

(١) سفر الخروج (١٥/٢٣ - ١٧).

(٢) سفر اللاويين (٣/٢٦ - ١٧).

(٣) إنجيل مرقس (٢١/١٠)، وإنجيل متى (٢١/١٩).

وفي إنجيل لوقا قول عيسى لتلاميذه: «وأنتم فلا تبحثوا عما تأكلون وما تشربون، ولا تهتموا لذلك؛ لأن هذه الأشياء إنما يبحث عنها غير المؤمنين، وإن ربكم (أباكم) يعرف حاجتكم إليها، فابحثوا بالأحرى عن ملكوت السماء، وكل هذه الحاجات ستُعطى لكم نافلة.. بيعوا ما تملكون واجعلوه صدقات، واتخذوا لكم خزانة لا تنفد، وكنزاً لا يفنى في السماء»^(١)، وكذلك نرى الوصية بعينها تتكرر على لسان تلاميذ المسيح، يؤكدونها في كتبهم ومراسلاتهم.

شمول الجزاء وتنوعه في الإسلام:

أما الجزاء في الإسلام كما يلمسه من يتلو القرآن الكريم، أو يقرأ الأحاديث النبوية الصحيحة، فهو جزاء متنوع شامل: يشمل الأجزية الدنيوية والأخروية، والروحية والمادية، والفردية والاجتماعية، والنفسية والأخلاقية، سواء في جانب المثوبة أو العقوبة.

المثوبات الروحية والأخلاقية والمادية والاجتماعية:

فمن المثوبات الروحية المعجّلة في هذه الدنيا: الحصول على محبة الله تعالى ورضوانه، ومعيته والقرب منه، فإذا علم المؤمن أن هذا العمل يحبه الله تعالى ويرضاه، ويحب من قام به، كان ذلك من أعظم الدوافع لتحصيله.

ومن المثوبات: مثوبات أخلاقية محضة، وذلك بمجرد امتداح العمل، والثناء على فاعله.

(١) إنجيل لوقا (١٢/٢٩ - ٢٤).

وهناك بجوار المثوبات الروحية والمعنوية المعجّلة؛ مثوبات أخرى في هذه الحياة، مادية واجتماعية، مثل: طول العمر، والبركة في الرزق، والإخلاف في المال، وبر الأبناء، ومحبة الناس.. ونحوها.

المثوبات الأخروية أكثر المثوبات وأشهرها:

وأكثر المثوبات وأشهرها: المثوبات التي ادّخرها الله للمؤمنين في الدار الآخرة، من ألوان النعيم المادي والروحي في جنة عرضها السماوات والأرض، لا تستطيع عقولنا تصور حقيقة نعيمها أو تصويره.

في الحديث القدسي: «أعددتُ لعبادي الصالحين في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]»^(١).

وهي ليست جنة واحدة، بل هي جنان ثمان، أعلاها الفردوس.

أتت أم حارثة النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ألا تُحدّثني عن حارثة - وكان قُتل يوم بدر - فإن كان في الجنة صبرْتُ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه بالبكاء؟ فقال ﷺ: «يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى»^(٢).

وهي درجات متفاوتة بحسب الأعمال وقيمتها في ميزان الحق، وما يتوافر لها من الإخلاص والتجرد، كما في الحديث: «إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة (٢٨٢٤)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٩)، عن أنس.

(٣) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠)، عن أبي هريرة.

والأحاديث في ذلك كثيرة:

«من بنى لله مسجدًا، بنى الله له بيتًا في الجنة»^(١).

«من قاتل في سبيل الله فُواقَ ناقة وجبت له الجنة»^(٢).

«أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصلُّوا الأرحام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»^(٣).

«الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»^(٤).

وقال النبي لمن أراد أن يغزو معه: «ألك أم؟ الزمها، فإن الجنة عند رجلها»^(٥).

وقريب من ذلك: الترغيب في العمل بأنه يُبعد صاحبه عن النار، أو يحرمه على النار، مثل: «من اغبرَّت قدماء في سبيل الله حرَّمه الله على النار»^(٦).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٥٠)، ومسلم في المساجد (٥٣٣)، عن عثمان بن عفان.

(٢) رواه أحمد (١٠٧٨٦)، وقال مخرَّجوه: إسناده حسن. والترمذي (١٦٥٠)، وقال: حديث حسن.

والحاكم (٦٨/٢)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، كلاهما في الجهاد، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٣٠١)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (٢٣٧٨٤)، وقال مخرَّجوه: إسناده صحيح. والترمذي في صفة القيامة (٢٤٨٥)،

وصححه، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٣٤)، والحاكم في الهجرة (١٣/٣)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، عن عبد الله بن سلام.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩)، كلاهما في الحج، عن أبي هريرة.

(٥) رواه أحمد (١٥٥٣٨)، وقال مخرَّجوه: إسناده حسن. والنسائي (٣١٠٤)، وابن ماجه (٢٧٨١)،

والحاكم (١٠٤/٢)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي، ثلاثتهم في الجهاد، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٨٥)، عن معاوية بن جاهمة.

(٦) رواه البخاري في الجمعة (٩٠٧)، وأحمد (١٥٩٣٥)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٢)، عن

أبي عبس بن جبر.

«عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعينٌ باتت تحرسُ في سبيل الله»^(١).

«ما من عبدٍ يصوم يوماً في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً»^(٢).

«اتقوا النار، ولو بشقّ تمرّة»^(٣).

ونحو ذلك: الترغيب في العمل بأنه يُنجي صاحبه من حرّ يوم القيامة، أو كُربات يوم القيامة، مثل: «من فرّج عن مسلم كُربة من كربات الدنيا، فرّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة»^(٤).

«من سرّه أن ينجيه الله من كُرب يوم القيامة، فلينفّس عن مُعسر، أو يضع عنه»^(٥).

«سبعة يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه: إمام عادل، وشابٌّ نشأ في عبادة الله، ورجلٌ ذكرَ الله في خلاء ففاضت عيناه، ورجل قلبه معلق في المسجد، ورجلان تحابّا في الله، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال إلى نفسها قال: إني أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه»^(٦).

(١) رواه الترمذي (١٦٣٩)، وقال: حسن غريب. وابن أبي عاصم (١٤٦)، كلاهما في الجهاد، وصحّحه الألباني في مشكاة المصابيح (٣٨٢٩)، عن ابن عباس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٠)، ومسلم في الصيام (١١٥٣)، عن أبي سعيد الخدري.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٥٣٩، ٦٥٤٠)، ومسلم في الزكاة (١٠١٦)، عن عدي بن حاتم.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٠)، عن ابن عمر.

(٥) رواه مسلم في المساقاة (١٥٦٣)، عن أبي قتادة.

(٦) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٣١)، عن أبي هريرة.

العقوبات المادية المعجلة:

وكثيراً ما يكون التهيب من الشرور والآثام، والتفريط في فرائض الله وحقوق الناس، ببيان ما رتب الله عليها من جزاء، وما ناط بها من عقوبات زاجرة.

وهذه العقوبات قد تكون عقوبات مادية معجلة في هذه الدنيا، يجعلها الله نذيراً للناس، لينتبهوا من غفلتهم، ويتوبوا من معاصيهم، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وهذه العقوبات القدريّة مرتبطة بالمعاصي ارتباط المسببات بأسبابها؛ وفقاً لسنن الله تعالى.

ومعظم العقوبات هنا عقوبات جماعية، تصيب المجتمع عامة، ولا تصيب الذين ظلموا منهم خاصة.

العقوبات الروحية والنفسية المعجلة:

وإذا كان في جانب الترغيب مَثُوبات روحية معجلة، ففي جانب التهيب عقوبات روحية معجلة أيضاً، تتمثل أحياناً في قسوة القلب، وظُلُمته شيئاً فشيئاً، حتى يختم عليه بطول التماذي في معصية الله تعالى، والإصرار على الإثم، وأحياناً في الحرمان من البركة أو المعونة والتأييد من الله تعالى.

ومن العقوبات: عقوبات أخلاقية مجرّدة، بمعنى: ذم الفعل، وذم فاعله، ونقله من دائرة الخير إلى دائرة الشر.



العقوبات الأخروية أكثر العقوبات ذكراً:

وأكثر العقوبات ذكراً: العقوبات الأخروية، التي تبدأ بعذاب القبر، ثم بهول الموقف وسوء الحساب، وما آذره الله للعصاة من الخزي والنكال في نار جهنم.

مرَّ رسول الله ﷺ بقبرين: فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير! بلى، إنه كبير. أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله»^(١).

«نفس المؤمن معلقة بدينه، حتى يُقضى عنه»^(٢).

«إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى عليه، لا يُلقى لها بالاً، يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً»^(٣).

«من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً، فليتبوأ مقعده من النار»^(٤).

«صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البُخْت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»^(٥).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٣٦١)، ومسلم في الطهارة (٢٩٢)، عن ابن عباس.
(٢) رواه أحمد (١٠٥٩٩)، وقال مخرجه: حديث صحيح. والترمذي الجنائز (١٠٧٩)، وحسنه، وابن ماجه في الصدقات (٢٤١٣)، والحاكم في البيوع (٢٦/٢)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٧٨)، ومسلم في الزهد (٢٩٨٨)، عن أبي هريرة.
(٤) رواه أحمد (١٦٨٣٠)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. وأبو داود (٥٢٢٩)، والترمذي (٢٧٥٥)، وقال: حديث حسن. كلاهما في الأدب، وصحح إسناده أبو داود المنذري في الترغيب والترهيب (٤١٠٨)، عن معاوية بن أبي سفيان.

(٥) رواه مسلم في اللباس والزينة (٢١٢٨)، وأحمد (٧٠٨٣)، عن أبي هريرة.

وكما يكون الوعيد والترهيب بالنار، يكون بالحرمان من الجنة، مثل: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»^(١).

«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ»^(٢). أي: نَمَام.

«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ»^(٣).

«مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةُ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحُهَا لِيُوجَدَ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»^(٤).

سر تفاوت الجزاء على الأعمال ثوابًا وعقابًا:

والمتمأمل في القرآن العزيز، وفي الأحاديث عامة، وخاصة أحاديث الترغيب والترهيب؛ يخرج منها بحقيقة مهمة، وهي أن الأعمال تتفاوت تفاوتًا جدًّا كبيرًا في قيمتها الدينية والأخلاقية، وفي الجزاء عليها عند الله ثوابًا أو عقابًا، وإن بدت واحدة في صورتها، نظرًا لاختلاف البواعث والنيّات التي دفعت إليها، والغايات التي هدفت إليها، وموقف المكلف الذي قام بفعلها، وأحواله الشخصية وظروفه البيئية، وملابساته الزمنية.

وقف مع المعارضين لفكرة الثواب والعقاب:

وهناك فئتان تعارضان فكرة الثواب والعقاب، بناءً على معارضتهما لفكرة العمل رغبة ورهبة: رغبة في ثواب الله، ورهبة من عقابه وعِذَابِهِ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأحكام (٧١٥١)، ومسلم في الإيمان (١٤٢)، عن معقل بن يسار.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٥٦)، ومسلم في الإيمان (١٠٥)، عن همام بن الحارث.

(٣) رواه مسلم في الإيمان (٩١)، وأحمد (٣٧٨٩)، وأبو داود في اللباس (٤٠٩١)، عن ابن مسعود.

(٤) رواه البخاري في الجزية (٣١٦٦)، وأحمد (٦٧٤٥)، وابن ماجه في الديات (٢٦٨٦)، عن

عبد الله بن عمرو.



فئة الفلاسفة:

الفئة الأولى تتمثل في بعض فلاسفة الأخلاق المثاليين، الذين ينادون بأداء الواجب لذاته، بغض النظر عن نتائجه، نافعة كانت أم ضارة، ودون التفات إلى رَغْب أو رَهَب. وهم يدينون الأخلاق الدينية بأنها تربط أداء الواجب بالمنفعة، وإن كانت منفعة أُخروية.

فئة الصوفية:

والفئة الأخرى تتمثل في بعض الصوفية، الذين بالغوا في الإنكار على من فعل الخير وترك الشر وأطاع الله، رجاءً في رحمته، وخوفاً من عذابه، ورغباً في جنته، ورهباً من ناره، وقالوا: لا تكن كعبد السوء إن خاف عمل، ولا كأجير السوء إن لم يُعط أجرًا لم يعمل!

الرد على الفلاسفة:

أما فئة الفلاسفة (الواجبيين)، فالحقيقة أنهم غفلوا عن طبيعة البشر، وتطلّعهم إلى ما ينفعهم عاجلاً أو آجلاً، وهو جزء من تركيب فطرتهم التي فطرهم الله عليها، ولئن كان بعض الناس يستطيع التجرد عن الغايات المنوطة بالعمل، فإن جمهور الناس لا يحركهم إلا الرغب والرهب، وما دام الأمر كذلك فليكن الرغب فيما عند الله، والرهب مما عنده، ولتكن المنفعة المرجوة لمن يؤدي الواجب، ويفعل الخير، فوق المنافع المادية والذاتية والآنية، لتكن منفعة أكبر من المادة الفانية، وأوسع من اللذات المحدودة، وأبعد من الدنيا العاجلة، وبهذا يتحرّر الإنسان من عبوديته لبريق المادة، أو لهوى النفس، أو لمتاع الدنيا، ويغدو تعلّقه كله بالله وما عنده، وهو خير وأبقى: ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦].

إن الذي خَشِيَه المثاليون من الفلاسفة هو العمل رغبة في منافع الدنيا المادية التي تفرق الناس ولا تجمعهم، وتضعفهم ولا تقويهم؛ لأن منفعة هذا ضرر على آخرين.

أما العمل رغبة في مثوبة الله ورهبة من عقوبته، فهو يسع الناس جميعاً، وهو من أقوى الدوافع لفعل الخيرات، واجتناب الشرور، عند جماهير الناس.

على أن هنا نقطة جديرة بالالتفات والتأمل، نبّه عليها شيخنا الدكتور دراز رَحِمَهُ اللهُ حين قال: «إن الناس كثيراً ما يلتبس عليهم الأمر بين أجزية العمل وثمراته من جهة، وبين أهداف العامل وغاياته، من جهة أخرى، وهكذا يخلطون بين الغاية الفعلية، بمعنى طرف الطريق وآخره، والغاية القصدية، بمعنى نية العامل وهدفه، ظانين أن وضع إحداهما هو وضع للأخرى، حتى كأن الإسلام يلوح للمؤمنين أن يقصدوا بأعمالهم تلك النتائج كلها، أو بعضها على التخيير، كلا، إن الأمر ليس كما زعموا، فأنواع الأجزية التي قررها القرآن للفضيلة والرذيلة لا تحصى كثرة، ولكن الهدف الذي وضعه نصب عين العامل هدف واحد لا تعدّد فيه ولا تردد: هو وجه الله محضاً خالصاً. وهذا كما ترى تعبير روعي عن معنى أداء الواجب لذاته. وهو معنى نجده في القرآن في أكثر من ألف موضع، كلها تحت على الفضيلة لما لها من قيمة ذاتية، بغض النظر عن كل آثارها. على أن تلك الأجزية الكريمة التي وعد الله بها المتقين، إنما وعد بها من كانت غايته من عمله هو وجه الله وحده، فهو الذي (أتى الله بقلب سليم)، وهو الذي (جاء بقلب منيب)، وهو الذي كان عمله (في سبيل الله)، وقد سئل النبي ﷺ عن الجهاد بدافع الحميّة، أو لطلب الغنيمة، أو

بقصد حسن الذكر، فأومأ إلى أن شيئاً من ذلك ليس في سبيل الله، قائلاً: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»^(١) «^(٢)».

الرد على مبالغات الصوفية:

وبعد هذا البيان في الرد على الفلاسفة، يكون من السهل الرد على الصوفية الذين بالغوا في إنكار الطاعة والعبادة رغباً ورهباً؛ لأن منطلقهم في الأصل منطلق ديني، وليسوا كالفلاسفة.

وقد رددنا عليهم في كتابنا (العبادة في الإسلام) وكان مما قلناه هناك: «لقد شنع الصوفية على مَنْ عبدَ الله بهذا القصد، وقالوا: لا ينبغي للعابد أن يعبد الله ويقوم بأمره ونهيه خوفاً من عقابه، أو طمعاً في ثوابه، فإن مثل هذا العابد واقف مع غرضه وحظ نفسه. ومحبة الله تأبى ذلك وتنافيه، فإن المحب لا حظ له مع محبوبه، فوقفه مع حظّه علة في محبته، كما أن طمعه في الثواب تطلع إلى أنه يستحق بعمله على الله تعالى أجره؛ وفي هذا آفتان: تطلّعه إلى الأجرة، وإحسان ظنه بعمله، ولا يخلصه من ذلك إلا تجريد العبادة والقيام بالأمر والنهي من كل علة، بل يقوم به تعظيماً للأمر الناهي، وأنه أهل أن يُعبد وتعظم حرّماته؛ فهو يستحق العبادة والتعظيم والإجلال لذاته، كما في الأثر الإلهي: «لو لم أخلق جنة ولا ناراً، أما كنتُ أهلاً أن أُعبد؟»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢٣)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، عن أبي موسى الأشعري.

(٢) كلمات في مبادئ علم الأخلاق للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٣٨، نشر المطبعة العالمية،

القاهرة، ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م.

(٣) ذكر ابن القيم في مدارج السالكين أنه أثر إسرائيلي (٧٤/٢).

ومنه قول القائل:

هب البعث لم تأتنا رسله وجاحمة النار لم تضرم
أليس من الواجب المستحق ثناء العباد على المنعم^(١)؟
فالنفوس الزكية العلية تعبده؛ لأنه أهل أن يُعبد ويُجلَّ ويُحَبَّ ويعظم،
فهو لذاته مستحق للعبادة. قالوا: ولا يكون العبد مع ربه كأجير السوء،
إن أُعطي أجره عمل، وإن لم يُعط لم يعمل، فهذا عبد الأجرة،
لا عبد المحبة والإرادة.

ولهذا يروون عن رابعة العدوية الأبيات المشهورة:

كلهم يعبدون من خوف نار ويودون النجاة حظًا جزيلًا
أو بأن يدخلوا الجنان فيحفظوا بنعيم ويشربوا سلسبيلًا
ليس لي في الجنان والنار حظ أنا لا أبتغي بحبي بديلًا^(٢)

ومن علماء المسلمين من رد هذا الكلام، واعتبره من شطحات القوم
ورعوناتهم، ولم ير أي حرج أو نقص في عبادة الله خوفًا وطمعًا، ورغبًا
ورهبًا. واحتج هؤلاء العلماء بأحوال الأنبياء والرسل والصديقين والصالحين،
ودعائهم، والثناء عليهم في كتاب الله تعالى بخوفهم من النار ورجائهم للجنة،
كما قال تعالى في خواص عباده الذين عبدتهم المشركون، ودعؤهم من دون
الله أو مع الله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ
وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

(١) ذكر البيهقي ابن الجوزي في المدهش ص ٤٩٤، تحقيق مروان القباني، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) عزها ابن الجوزي إلى شاب في مجلس ذي نون المصري في صفة الصفوة (٢/٤٥٠)، نشر دار الحديث، القاهرة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

وذكر سبحانه عباده الذين شرفهم بالإضافة إلى اسمه (الرحمن) فسماهم (عباد الرحمن)، وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم، فجعل منها: استعادتهم به من النار، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿ [الفرقان: ٦٥، ٦٦].

وأخبر عنهم أنهم توسلوا إليه بإيمانهم أن ينجيهم من النار، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦]، فجعلوا أعظم وسائلهم إليه وسيلة الإيمان: أن ينجيهم من النار.

وأخبر تعالى عن سادات العارفين أولي الأبواب: أنهم كانوا يسألونه جنته، ويتعوذون به من ناره، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿ رَبَّنَا وَءَاثِمْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ .. ﴿ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩٥] ^(١).

وفي الصحيح في حديث الملائكة السيارة: أن الله تعالى يسألهم عن عباده، «وهو أعلم بهم، فيقولون: أتيناك من عند عبادك يهللونك ويكبرونك، ويحمدونك ويمجدونك. فيقول ٨: وهل رأوني؟ فيقولون: لا، يا رب، ما رأوك. فيقول وعجلك: كيف لو رأوني؟! فيقولون:

(١) انظر كتابنا: العبادة في الإسلام ص ٩٣، ٩٤، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢٩، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

لو رأوك لكانوا لك أشد تمجيذاً. قالوا: يا رب، ويسألونك جنتك. فيقول: هل رأوها؟ فيقولون: لا، وعزتك ما رأوها. فيقول: فكيف لو رأوها؟! فيقولون: لو رأوها لكانوا لها أشد طلباً. قالوا: ويستغيثون بك من النار. فيقول ﷺ: وهل رأوها؟ فيقولون: لا، وعزتك ما رأوها. فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها لكانوا أشد منها هرباً. فيقول: إني أشهدكم أنني قد غفرت لهم، وأعطيتهم ما سألوا، وأعذتهم مما استعاذوا^(١).

والقرآن والسنة مملوءان من الثناء على عباده تعالى وأوليائه بسؤال الجنة ودرجاتها، والاستعاذة من النار والخوف منها.

وقد قال النبي ﷺ لأصحابه: «استعينوا بالله من النار»^(٢). وقال لمن يسأله مرافقته في الجنة: «أعني على نفسك بكثرة السجود»^(٣).

قالوا: والعمل على طلب الجنة والنجاة من النار، مقصود الشارع من أمته، ليكونوا دائماً على ذكر لهما، فلا ينسوهما، ولأن الإيمان بهما شرط في النجاة، والعمل على حصول الجنة والنجاة من النار، هو محض الإيمان.

وقد حض النبي ﷺ أصحابه وأمته على طلب الجنة، فوصفها وجلاها لهم ليخطبوها، وقال: «ألا مشمر للجنة؟ فإنها ورب الكعبة نور يتلأأ، وريحانة تهتز، وزوجة حسناء، وفاكهة نضيجة، وقصر مشيد، ونهر

(١) سبق تخريجه ص ٢٩١.

(٢) رواه فضيل بن غزوان في فضائل الدعاء (١٥٨)، وأبو نعيم في صفة الجنة (٧٠)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٩)، وأبو داود في قيام الليل (١٣٢٠)، عن ربيعة بن كعب الأسلمي.

مَظْرَد...» الحديث. فقال الصحابة: يا رسول الله، نحن المشمرون لها. فقال: «قولوا: إن شاء الله»^(١).

ولو ذهبنا نذكر ما في السنة من قوله ﷺ: مَنْ عَمِلَ كَذَا وكَذَا أدخله الله الجنة.. تحريضاً على عمله لها، وأن تكون هي الباعثة على العمل، لطال ذلك جداً، وذلك في جميع الأعمال. فكيف يكون العمل لأجل الثواب وخوف العقاب معلولاً، والرسول ﷺ يحرض عليه؟!!

قالوا: وأيضاً، فالله سبحانه يحب من عباده أن يسألوه جنته، ويستعيذوا به من ناره، فإنه يحب أن يُسأل، ومن لم يسأله يغضب عليه، وأعظم ما سُئل (الجنة)، وأعظم ما استعيذ به (النار).

قالوا: وإذا خلا القلب من ملاحظة الجنة والنار، رجاء هذه، والهرب من هذه، فترت عزائمه، وضعفت همته، ووهى باعته؛ وكلما كان أشد طلباً للجنة وعملاً لها كان الباعث له أقوى، والهمة أشد، والسعي أتم، وهذا أمر معلوم بالذوق.

قالوا: ولو لم يكن هذا مطلوباً للشارع، لما وصف الجنة للعباد، وزينها لهم، وعرضها عليهم، وأخبرهم عن تفاصيل ما تصل إليه عقولهم منها، وما عداه أخبرهم به مجملًا، تشويقاً لهم إليها، وحثاً لهم على أن يسعوا لها سعيها^(٢).

على أن الإمام ابن القيم وقف موقفًا وسطًا بين الصوفية وبين من رد عليهم وخطأهم من علماء الأمة، فقال بعد أن حكى قول أولئك

(١) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٣٣٢)، والبخاري (٢٥٩١)، وابن حبان في الإسراء (٧٣٨١)، وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف. وضعف إسناده الألباني في الضعيفة، عن أسامة بن زيد.

(٢) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (٧٩/٢).

وردَّ هؤلاء: «والتحقيق أن يقال: الجنة ليست اسمًا لمجرد الأشجار والفواكه، والطعام والشراب، والحدود العينية، والأنهار والقصور، وأكثر الناس يغلطون في مسمّى الجنة، فإن الجنة اسم لدار النعيم المطلق الكامل.

ومن أعظم نعيم الجنة: التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، وقرة العين بالقرب منه وبرضوانه، فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللذة أبدًا، فأيسر يسير من رضوانه أكبر من الجنان وما فيها من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]. وأتى به منكرًا في سياق الإثبات، أي: أي شيء كان من رضاه عن عبده فهو أكبر من الجنة.

قليل منك يكفي، ولكن قليلك لا يقال له قليل^(١)

وفي الحديث الصحيح، حديث الرؤية: «فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إلى وجهه»^(٢). وفي حديث آخر: «أنه سبحانه إذا تجلّى لهم، ورأوا وجهه عيانًا، نسوا ما هم فيه من النعيم، وذهلوا عنه، ولم يلتفتوا إليه»^(٣).

قال ابن القيم: «ولا ريب أن الأمر هكذا، وهو أجل مما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال، ولا سيما عند فوز المحبّين هناك بمعية المَحَبَّة، فإن المرء مع من أحب، فأني نعيم، وأي لذة، وأي قرة عين، وأي فوز، يداني نعيم تلك المعية ولذتها وقرة العين بها؟

(١) من شعر أبي الفتح العباسي، كما في الدر الفريد للمستعصمي (٣٥٦/٨).

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٨١)، وأحمد (٢٣٩٢٥)، عن صهيب الرومي.

(٣) جزء من حديث رواه عبد بن حميد في مسنده (٨٥١)، عن ابن عمر.

وهذا والله هو العلم الذي شَمَّر إليه المحبُّون، واللواء الذي أمَّه العارفون، وهو رُوح مسمَّى الجنة وحياتها، وبه طابت الجنة، وعليه قامت.

فكيف يقال: لا يُعبد الله طلباً لجنته، ولا خوفاً من ناره؟!

وكذلك النار أعادنا الله منها؛ فإن لأربابها من عذاب الحجاب عن الله وإهانتة وغضبه وسخطه والبعد عنه أعظم من التهاب النار في أجسامهم. فمطلوب الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء والصالحين هو: الجنة، ومهربهم: من النار»^(١).

وبعد هذا البيان المشرق الجامع، لم يعد هناك مجال لدعوى أولئك المتطاولين بغير علم، الذين يقارنون بين الجنة الموعودة في الإسلام، والجنة الموعودة في النصرانية، والذين وصفوا الأولى بأنها دار طعام وشراب ومتع بدنية مادية خالصة، ووصفوا الثانية بأنها دار حياة روحية خالصة.

وقد أغنانا ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ ببيانه عن الرد على الشطر الأول، فاستبان لكل ذي عَيْنَيْن أن الجنة دار نعيم بدني وروحي معاً؛ لأنها دار الثواب للإنسان المكوّن من الجسم والروح معاً، ومن حق الكيان الإنساني كله أن ينعم ويثاب، فإنسان الآخرة امتداد لإنسان الدنيا.

أما الشطر الثاني، وهو أن جنة النصرانية روحية محض، فيرد عليه شيخنا دراز رَحِمَهُ اللهُ بأن هذا مخالف لنصوص الأنجيل نفسها: «اقرأ - مثلاً - في إنجيل لوقا قول عيسى ﷺ لأصحابه: من أجل ذلك أعددت لكم

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٧٩/٢، ٨٠).

مملكة السماء.. لكي تأكلوا وتشربوا على مائدتي.. ولكي تجلسوا على العروش، اقضوا في شأن الاثني عشر سبطاً من بني إسرائيل^(١).

وقوله في وصيته لأحد أتباعه: إذا أعددت غداءً أو عشاءً.. فادع إليها بعض الفقراء والعجزة والعُمي والمُقعدين، وكن مغتبطاً بأنهم لا يقدرّون على مكافأتك بمثلها: لأنها سيُرد لك مثلها يوم يبعث الصالحون^(٢).

واقرأ في إنجيل متى وغيره قول عيسى لتلاميذه في مأدبة العشاء الأخير: أقول لكم إني لن أشرب بعد اليوم من عصير العنب هذا، حتى يجيء اليوم الذي أشربه معكم من جديد في مملكة ربي (أبي)^(٣).

واقرأ في إنجيل يوحنا: وسأعطي الفائزين طعاماً من شجرة الحياة التي في جنة الله، سأعطيهم من المَنّ الغيبي، وسيلبسون ثياباً بيضاء، وسيشرب الظامئون من عين ماء الحياة مجاناً، ولن يجوعوا بعدها، ولن يظمؤوا بعدها أبداً، ولن تصيبهم الشمس ولا الحرور^(٤).

واقرأ في إنجيل يوحنا أيضاً وصفه للجنة التي يسمّيها بيت المقدس الجديد: إن المدينة مبنية من الذهب الخالص، كأنها القوارير الصافية، وإن أرضها مفروشة بالأحجار الكريمة من مختلف الأنواع، وإن شجرة الحياة فيها تخرج ثمارها اثنتي عشرة مرة في العام، في كل شهر مرة... إلخ^(٥).

(١) إنجيل لوقا (٢٢/٢٩، ٣٠).

(٢) المصدر السابق (١٤/١٢ - ١٥).

(٣) إنجيل متى (٢٦/٢٩).

(٤) إنجيل يوحنا (٢/٧ - ١٧)، (٣/٥)، (٦/٣)، (٧/٢١ - ٢٧).

(٥) المصدر السابق (٢٢/١، ٢).

هذه النصوص كان يفهمها النصاري الأولون على حقيقتها، ولكنهم أخذوا بعد في تأويلها وجعلها ضرباً من التمثيل، اتقاء لاعتراضات الملاحدة.

والعجيب أن علماءهم لا يزالون مع ذلك مجمعين على أن البعث في المعاد بدني وروحي معاً، كما أنهم لا يزالون يُقرُّون بأن عذاب النار يتناول الجسم والروح، وفقاً لما دلَّت عليه نصوص الأناجيل، مثل قول عيسى لأصحابه: لا تخشوا أولئك الذين يهلكون الجسم، ولا يستطيعون أن يهلكوا الروح، ولكن خافوا ذلك الذي يقدر أن يهلك الروح والجسم في جهنم^(١). وقوله: إن الذين يرتكبون الظلم سيقذفون في النار الحامية التي سيكون لهم فيها العويل وصرير الأسنان^(٢).

أي حجة عقلية أو نقلية جعلتهم هكذا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض؟!^(٣).

ويعقب شيخنا دراز على موضوع النعيم المادي والعقاب الحسي، فيقول: «وفي الحق أن هذه الجوائز المادية والتمتع البدنية، مثلها كمثل الأوسمة التي يهديها الملوك، ليست قيمتها في صورتها وعادتها، ولكن في دلالتها ومغزاها، ألا وهو هذا التكريم والرضوان الذي أشار إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وقد أشار إلى مثل ذلك في الطرف المقابل، إذ عرفنا أن أعظم ما يخشاه العاقل من عذاب النار ليس هو آلامها الحسية، بل ما لها من دلالة

(١) إنجيل متى (٢٧/١٠).

(٢) المصدر السابق (٤٣/١٣).

(٣) كلمات في مبادئ علم الأخلاق من كتاب دراسات في الإسلام ص ٣٦، ٣٧.

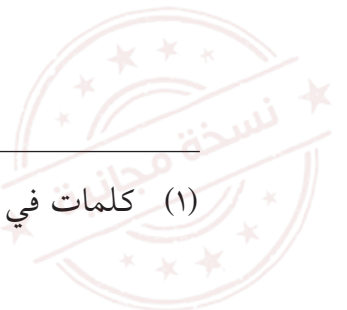
معنوية على الخزي والإهانة: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٩٢] ^(١).

والجنة والنار هما الجزاء الإلهي العادل الذي ينتظر أهل الحق وأهل الباطل، وحزب الله وحزب الشيطان، وفريق الخير وفريق الشر، ذاك الفريقان اللذان لا تخلو منهما الحياة فهما في حرب مشبوبة وصراع دائم، قال تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [السجدة: ١٩، ٢٠].

* * *



(١) كلمات في مبادئ علم الأخلاق ص ٣٦، ٣٧.



(٩)

النار

(النار) هي دار العقاب التي أعدّها الله في الحياة الآخرة لمن كفر به، وكذب رسله، وأعرض عن شرعه، واتبع هواه، ولم يستمع لما جاء عن الله تبارك وتعالى، وسار في ركاب الضالّين المضلّين، الذين لا يؤمنون بالآخرة، ويصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ عَائِلَتِنَا غَافِلُونَ﴾ * أُولَئِكَ مَأْوَهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿ [يونس: ٧، ٨].

ويحكي لنا القرآن قصة أصحاب النار الذين ألقوا فيها، ولم يعد ينفعهم مال، ولا خدم، ولا أقارب، ولا بنون، ولا أنصار، كما حكي القرآن عن سيدنا إبراهيم: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿ [الشعراء: ٨٧ - ٨٩].

وتوضح آيات القرآن الكريم هول النار وكيف تتغيظ على أهلها، وكيف يدور الحوار بين أهل النار وخزنة جهنم: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَيَبْسُ الْمَصِيرُ﴾ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ * قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ * فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿ [الملك: ٦ - ١١].

وكيف يكون التحذير من شدة هولها وبشاعة عذابها، وغلظة خزنتها: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُلُوبُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ

غَلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ * يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا نَعْذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿التحریم: ٦، ٧﴾.

وقال تعالى وهو يحدثنا عن مؤمن آل فرعون الذي نجاه إيمانه، واصفاً مجادلة المستضعفين والمستكبرين من أهل النار، وكيف يلقي كل منهم باللائمة على الآخرين، ثم يعرض استغاثتهم بخازن النار، وطمعهم في التخفيف عنهم من عذابها: ﴿فَوَقَّهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ * وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ * وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَازِنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٤٥ - ٥٠].

وكيف تحيط النار بأصحابها إحاطة السوار بالمعصم، فإذا استغاثوا فإنما يغاثون بعذاب أشد مما يستغيثون منه. قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

ويتحدث في سورة أخرى عن طعامها: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ * خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٥٠].

ويتحدث سبحانه عن استمرار العذاب للكافرين فيها: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦]. وفي سورة هود تقرأ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ أَنْفُسَ إِلَّا بِذُنُوبٍ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُورٍ﴾ [هود: ١٠٥ - ١٠٨].

ثم يذكر موقف أهل النار ساعة دخولها: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَوْقِعَ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧١، ٧٢].

وقال مخاطباً عصاة الجن والإنس: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنَّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِّنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِّنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٨، ١٢٩].

وفي سورة النبأ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاعِينَ مَاءًا ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٢١ - ٣٠].

وقال مقارناً بين نعيم أهل الجنة وجحيم أهل النار: ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نُزُلًا
أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ
الْجَحِيمِ﴾ ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ﴾ ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾
﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ٦٢ - ٦٨].

صنوف العذاب وألوان النكال:

وقد أعدَّ الله في جهنم من صنوف العذاب وألوان النكال ما يُشيب
النواصي، ويذيب القلوب، ويجعل الناس يسارعون في العمل لاجتناب
خطرها والبعد عن لهيبتها، وذلك هو الفوز العظيم، قال تعالى: ﴿فَمَنْ
رُحِّزَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

نار الدنيا ونار الآخرة:

وحسبك أن تعرف من صفة النار أن حرارتها تزيد عن حرارة نار
الدنيا أضعافاً مضاعفة، وأن نار الدنيا بما فيها شيء هين، فعند ذلك
يمسك الإنسان نفسه من الفزع، ويقول كما قال أصحاب رسول الله ﷺ
حين سمعوه يقول: «ناركم هذه، التي يوقد ابن آدم، جزء من سبعين
جزءاً من نار جهنم». قالوا: والله إن كانت لكافية! قال: «إنها فضّلت عليها
بتسعة وستين جزءاً، كلهن مثل حرها»^(١).

وفي رواية للبيهقي: أن رسول الله ﷺ قال: «تحسبون أن نار جهنم
مثل ناركم هذه؟ هي أشد سواداً من القار، هي جزء من بضعة وستين
جزءاً منها». أو: «ثيف وأربعين». شك أبو سهيل^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري بدء الخلق (٣٢٦٥)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٣)، عن
أبي هريرة.

(٢) رواه البيهقي في البعث والنشور (٥٠١).

ولا عجب أن أنعم أهل الدنيا إذا مسّته النار، أنسّته كل ما مرّ به من نعيم، ففي الحديث: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيراً قط؟ هل مرّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب»^(١).

وقودها وسعتها:

والنار التي لا يعلم قدر عظيمها إلا الله، وقودها الناس والحجارة، ومن وقودها تلك الآلهة المزعومة التي كان المشركون يعبدونها في الدنيا، تلقى في النار مع عبدتها، لتكون من أسباب هلاكهم وعذابهم، يقول الله ﷻ للمشرّكين: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وإن جهنم من السعة والامتداد والعمق بحيث تستوعب كل ما يلقي فيها من الناس والحجارة، وتلتهم ذلك الوقود الحجري والبشري ويقال لها: ﴿هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

درّكات النار:

والنار درّكات، تتفاوت في شدتها بحسب أعمال أصحابها في الدنيا، كما يتفاوت انهماك الناس في الدنيا وشهواتها، فمنهم: الغريق فيها حتى أذنيه، ومنهم: الخائض فيها إلى حد محدود.

والكفار إن كان لهم عمل طيب فإنه يخفف عنهم عذابهم بالنسبة لكافر لم يكن له عمل كعملهم، فالكفار جميعاً خالدون في جهنم، ولهم

(١) رواه مسلم في صفة القيامة (٢٨٠٧)، عن أنس.

فيها عذاب شديد - أعاذنا الله - ولكن شدة العذاب تتفاوت بينهم، وفي جهنم طبقات تختلف عن بعضها، ولكل باب من أبوابها جزء مقسوم ممن قُدر عليهم العذاب فيها.

وفي القرآن آياتٌ يشهد ظاهرها بذلك، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ * ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩].

وتخفيف العذاب هناك لا يُشعرهم بهناء، ولكنه يُقنعهم بعدل الله فيهم، ويُقيم الحجة عليهم، ويزيدهم ندمًا على تخلفهم وحرمانهم، حتى يقولوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧]. وليس في هذا القول مُنافاة لما ورد من الآيات في سوء حالهم جميعًا: ففريق منهم في السعير، وفريق في الزمهرير، وفريق في سقر، وآخرون في الدرك الأسفل، وهكذا... مما يؤكد أنَّ العذاب مُتفاوت في نوعه، وأن الشرَّ فيه مُتفاوت.

فأصحاب النار تتفاوت النار في شدتها عليهم، فيلقى كلُّ جزاءه على حسب عمله، ويُقذف في الدرك المناسب له، فإنَّ الله لا يظلم أحدًا، وأخفهم عذابًا لو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها لتمنَّى لو افتدى نفسه بها من شدة ما هو فيه، وهيئات!

وإن المرء لينتابه الفزع، ويتملكه الجزع، حين يعلم أن أهونَ أهل النار عذابًا من له نعلان وشراكان يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل،

ما يرى أن أحداً أشد عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً^(١)، فكيف بمن يكون في الدرك الأسفل من النار؟!!

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦، ٣٧].

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

الأحاديث الكثيرة الصحيحة والحسنة التي وردت في شأن النار:

وإننا لكي يكتمل تصور النار وشدة عذابها في أذهاننا، فنزداد بُعداً وهرباً عن كل ما يقربنا إليها، نسوق بعض الأحاديث التي انتقيناها من (الترغيب والترهيب) للحافظ المنذري سوى ما تقدم ذكره.

وصف النار:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لما خلق الله الجنة والنار، أرسل جبريل إلى الجنة، فقال: انظر إليها، وإلى ما أعددت لأهلها فيها». قال: «فجاء، فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها». قال: «فرجع إليه، قال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها. فأمر بها فحُفَّتْ بالمكاره، فقال: ارجع إليها. فرجع إليها، فقال: وعزتك لقد خفت ألا يدخلها أحد! وقال: اذهب إلى النار، فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها». قال:

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل، على أخمص قدميه جمرتان، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل والقمقم». رواه البخاري في الرقاق (٦٥٦٢)، ومسلم في الإيمان (٢١٣).

«فنظر إليها، فإذا هي يركب بعضها بعضًا، فرجع إليه، فقال: وعزتك، لا يسمع بها أحد فيدخلها. فأمر بها فحُفَّت بالشهوات، فقال: ارجع إليها. فرجع إليها، فقال: وعزتك، لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها»^(١).

قعر النار:

عن خالد بن عُمير قال: خطب عتبة بن غزوان رضي الله عنه، فقال: إنه ذُكر لنا أن الحجر يُلقى من شفير جهنم^(٢)، فيهوي فيها سبعين عامًا ما يدرك لها قعرًا، والله لتملؤنه، أفعجبتم^(٣)؟

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ، فسمعنا وَجْبَةً^(٤)، فقال النبي ﷺ: «أتدرون ما هذا؟». قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا حجر أرسله الله في جهنم منذ سبعين خريفًا، فالآن حين انتهى إلى قعرها»^(٥).

حجارة النار:

عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤، التحريم: ٦]. قال: هي حجارة من كبريت، خلقها الله يوم خلق السماوات والأرض، في السماء الدنيا، يُعَدُّها للكافرين. رواه الحاكم موقوفًا، وقال: صحيح على شرط الشيخين^(٦).

(١) رواه أحمد (٨٦٤٨)، وقال مخرجه: إسناده حسن. وأبو داود في السنة (٤٧٤٤)، والترمذي

في صفة الجنة (٢٥٦٠)، وقال: حسن صحيح. والنسائي في الأيمان والنذور (٣٧٦٣).

(٢) شفير جهنم: أصله من تسميتهم ناحية الوادي من أعلاه شفير الوادي.

(٣) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٧)، وأحمد (١٧٥٧٥).

(٤) الوجبة: المرة من الوجوب، وهو السقوط، وأراد سمعنا صوتًا يشبه صوت سقوط شيء من مكانٍ عالٍ.

(٥) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٤)، وأحمد (٨٨٣٩).

(٦) رواه الحاكم في تفسير سورة البقرة (٢٦١/٢)، وفي تفسير سورة التحريم (٤٩٤/٢)، ولفظه عن =

ومن المعلوم أن موقوف الصحابي الذي لم يطلع على كتب أهل الكتاب في الأمور التي ليس للرأي فيها مجال له حكم المرفوع.

طعام أهل النار:

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، فقال رسول الله ﷺ: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا، لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما بين منكبي الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع»^(٢). والمنكب: مجتمع رأس الكتف والعضد.

تفاوت أهل النار في العذاب، وذكر أهونهم عذاباً:

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن أهون أهل النار عذاباً رجل في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه كما يغلي

= ابن مسعود: إن الحجارة التي سمى الله في القرآن: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦]، حجارة من كبريت، خلقها الله عنده كيف شاء، أو كما شاء. ولم أجده بلفظ المنذري، وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي.

(١) رواه أحمد (٢٧٣٥)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والترمذي في صفة جهنم (٢٥٨٥)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٥)، والنسائي في الكبرى في التفسير (١١٠٠٤)، وابن حبان في مناقب الصحابة (٧٤٧٠)، والحاكم في التفسير (٢٩٤/٢)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٥٥١)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٢). وكل ما صح عن النبي ﷺ من أمور الآخرة، فهو من الغيب الذي نؤمن به، ولا نستبعده. فتلك دار لها قوانينها الخاصة، فكيف وقد رأينا من صنع الإنسان المخلوق ما يذهل العقول؟!

الْمَرْجَل بِالْقُمْقُم»^(١). رواه البخاري ومسلم، ولفظه: «إن أهون أهل النار عذابًا من له نعلان وشراكان من نار، يغلي منهما دماغه، كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا، وإنه لأهونهم عذابًا».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إن أهون أهل النار عذابًا: أبو طالب، وهو منتعل بنعلين، يغلي منهما دماغه»^(٢).

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومن تأخذه النار إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حُجْرَتِهِ، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه، ومنهم من تأخذه النار إلى تَرْقُوتِهِ»^(٣).

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يؤتى بأهل الدنيا [من أهل النار] فيُصبغ في النار صبغة، ثم يقال له: يا ابن آدم، هل رأيت خيرًا قط؟ هل مرَّ بك نعيمٌ قط؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مرَّ بك من شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مرَّ بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»^(٤).

أين النار؟

يسأل بعض الناس عن قول الله ﻋَﻠَﻴْهِ السَّلَام: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. إذا كانت الجنة عرضها السماوات والأرض، فأين النار إذن؟

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٥٦٢)، ومسلم في الإيمان (٢١٣).

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٢١٣)، وأحمد (٢٦٣٦).

(٣) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٥)، وأحمد (٢٠١٠٣).

(٤) رواه مسلم في صفة القيامة (٢٨٠٧).

والواقع أن هذا الكون الذي نعيش في جزء صغير منه ليس مقصوراً على السماوات والأرض، وإن كنا حتى الآن لا نعرف السماوات ما هي، فهناك فوق السماوات من ملك الله ﷻ ما لا تبلغه عقولنا، ولا يصل إليه علمنا.

ولهذا يقول المسلمون كما علّمهم النبي ﷺ بعد القيام من الركوع: «اللهم ربنا لك الحمد، ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد»^(١). وهذا ما يحدثنا العلم المعاصر عن بعضه، ويقيسه بملايين السنين الضوئية.

فإذا كانت الجنة عرضها السماوات والأرض، فليس معنى ذلك أنه ليس هناك في ملك الله ما يتسع للنار؛ بل هناك ما يتسع للنار ولغيرها من هذا الملك الواسع الرحب الفسيح.

وهذا السؤال سؤال قديم.. فقد سئل الصحابة، وسئل قبلهم النبي ﷺ من بعض أهل الكتاب عن معنى هذه الآية: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وقالوا: فأين النار؟ فكان النبي ﷺ يقول لهم: «أين الليل إذا جاء النهار؟»^(٢). وفي رواية عن أبي هريرة رواها البزار: أن رجلاً سأل هذا للنبي ﷺ، فقال له: «أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شيء؟ فأين النهار؟». فقال السائل: النهار حيث شاء الله ﷻ. قال النبي ﷺ: «كذلك النار تكون حيث شاء الله ﷻ»^(٣).

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٧٦)، وأحمد (١٩١٣٧)، عن ابن أبي أوفى.

(٢) رواه أحمد (١٥٦٥٥)، وقال مخرجه: حديث غريب، وإسناده ضعيف. وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١٧٧/٧): حديث غريب وإسناده لا بأس به. عن التنوخي.

(٣) رواه البزار (٩٣٨٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٩٠٢): رجاله رجال الصحيح.

قال ابن كثير في تفسيره معلقاً على هذا الخبر: «وهذا يحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون المعنى في ذلك أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار ألا يكون الليل في مكان، وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النار تكون حيث شاء الله ﷻ. وهذا أظهر.

والثاني: أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون من الجانب الآخر، فكذلك الجنة في أعلى عليين، فوق السماوات، تحت العرش، وعرضها كما قال الله ﷻ كعرض السماء والأرض، والنار في أسفل سافلين، فلا تنافي بين كونها كعرض السماوات والأرض، وبين وجود النار»^(١).

* * *

(١) تفسير ابن كثير (١١٨/٢)، وانظر كتابنا: فتاوى معاصرة (٤٩/١).

(١٠)

الجنة

ونختم حديثنا عن الدار الآخرة بالجنة كما ختم بها الإمام المنذري كتابه (الترغيب والترهيب)؛ بدأ بالنار، وانتهى بالجنة، تيمُّناً وتفاؤلاً بأن يجعلنا الله من أهلها.

فالجنة هي دار الثواب التي أعدها الله ﷻ في الحياة الآخرة للذين آمنوا بالله ورسله، ولم يفرّقوا بين أحد من رسله، أو للمتقين من عباده، وأعد لهم فيها من كل ما تشتهيهِ الأنفس، وتلذه الأعين، وكما قال رسول الله ﷺ: «قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(١). كما قال تعالى: ﴿نَجَافِي جُؤْبُهُمْ عَنِ الْمُضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧].

وكما أعد الله النار وما فيها من عذاب أليم للعصاة والمشرّكين فقد أعد الجنة وما فيها من نعيم مقيم للمؤمنين الصالحين، وكما أن عذاب النار يملأ قلوب أصحابها حسرة وندامة، وخوفاً ورُعْباً، فإن نعيم الجنة يملأ قلوب أهلها بهجة وسعادة، وسلاماً وأمناً.

ترتيب ذكر الجنة والنار في القرآن:

وفي كثير من الأحيان يذكر الله النار أولاً، ثم يثني بالجنة، كما قال تعالى في سورة النازعات: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا

(١) سبق تخريجه ص ٥٦٩.

سَعَى * وَبَرَزَتْ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى * فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ * وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى * [النازعات: ٣٤ - ٤١].

وكما في سورة هود، فقد ذكر الشقي قبل السعيد، وذكر الذين شقوا أولاً، ثم ختم بالذين سُعدوا، وهم الذين لهم الجنة، عطاؤهم فيها غير مجذوذ، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٌ * [هود: ١٠٢ - ١٠٨].

وفي سورة البقرة بدأ الله ﷻ بذكر النار التي أعدت للكافرين، ثم ثنى بذكر الجنة، قال تعالى مخاطباً الكفار الذين لن يستطيعوا أن يأتوا بأية من مثل القرآن: ﴿إِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ * وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * [البقرة: ٢٤ - ٢٥].

والجنة هي الحسنى التي أعدها الله لعباده المحسنين، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦]، وقد قال المفسرون: الحسنى في الآخرة الجنة، والزيادة هي التمتع برؤية الله ﷻ.

وقد قال تعالى في وصف وجوه أهل السعادة في الآخرة: ﴿وُجُوهُ يُومِضُونَ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿[التوبة: ٧١، ٧٢].

وقد ذكر الله في سورة آل عمران كل ما يحب الناس من الشهوات، ثم عرض عليهم ما هو أعظم منها وأرفع وأزكى، وهو الجنة، فقال تبارك وتعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ ﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَمُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥].

نعيم الجنة لا يزول:

وقد أعد الله لأهل الجنة نعيمًا لا يزول، وسعادة لا تفتنى، ولذة لا تنقضي، وقرة عين لا تنقطع، لا يخطر ببالهم شيء إلا وجدوه، ولا تشتهي أنفسهم أمرًا إلا أجيبوا إليه، فهم كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

وشتان بين نعيم الدنيا ونعيم الجنة، فإن نعيم الدنيا متاع زائل، مشوب بالأكدار والأحزان، أما نعيم الجنة فخالد باقٍ، وأهله في سرور

دائم وصفاء تام، لا يعرفون الأكدار والأحزان، ولا تعرفهم الأكدار والأحزان، قد نزعت من قلوبهم الأحقاد والأضغان، فقلوبهم صافية، ونفوسهم طاهرة لا اختلاف بينهم ولا تباغض.

قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].

صور من نعيم الجنة:

في الجنة من النعيم الذي أعده الله لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فمن ذلك:

أنهار الجنة:

ما أعده الله للمتقين من أنهار كثيرة، تموج بالنعيم العظيمة، وتجري بالخيرات العميمة.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

فهذه أصناف أربعة من أنهار الجنة، نفى الله عن كل واحد منها ما يعرض له في الدنيا من آفات، فآفة الماء أن يأسن من طول مكثه، وآفة اللبن أن يتغير طعمه بالحموضة، وآفة الخمر كراهة مذاقها، وما ينتج بسببها من شرور تنفي لذة شربها، وآفة العسل عدم تصفيته.

عن حكيم بن معاوية القشيري، عن أبيه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في الجنة بحر للماء، وبحر للبن، وبحر للعسل، وبحر للخمر، ثم تشقق الأنهار بعد»^(١).

نهر الكوثر:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة: حافته من قصب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج»^(٢).

وعن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «بيننا أنا أسير في الجنة، إذا أنا بنهر حافته قباب اللؤلؤ المجوّف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك». قال: «فضرب الملك بيده، فإذا طينه مسك أذفر»^(٣).

طعام أهل الجنة وشرابهم:

وما أعده فيها من الطعام والشراب ذكره القرآن بقوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ * وَفَنِكَهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ١٧ - ٢٠].

وقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَنِكَهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٢٧ - ٣٣].

(١) رواه أحمد (٢٠٠٥٢)، وقال مخرجه: إسناده حسن. والترمذي في صفة الجنة (٢٥٧١)، وقال: حسن صحيح. والدارمي في الرقاق (٢٨٧٨)، وابن حبان في المناقب (٧٤٠٩).

(٢) رواه الترمذي في التفسير (٣٣٦١)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الزهد (٤٣٣٤)، والطبري في التفسير (٦٨٨/٢٤)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٩٨).

(٣) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٨١)، وأحمد (١٢٩٨٩).

وكلما جاءهم نوع من الثمار خُيِّلَ إليهم أنه مثل سابقه، فإذا هو لا يشبهه إلا في لونه وشكله واسمه، أما طعمه فمختلف.

قال تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يأكل أهل الجنة ويشربون، ولا يمتخطون، ولا يتغوَّطون، ولا يبولون، طعامهم ذلك جشاءً كريح المسك، يلهمون التسبيح والتكبير كما تلهمون النَّفْسَ»^(١).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن الرجل من أهل الجنة ليشتهي الشراب من شراب الجنة، فيجيء الإبريق، فيقع في يده، فيشرب، ثم يعود إلى مكانه.

رواه ابن أبي الدنيا موقوفاً بإسناد جيد^(٢). والموقوف في مثل هذا في معنى المرفوع.

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي ﷺ، فقال: يا أبا القاسم، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال: «نعم، والذي نفس محمد بيده، إن أحدهم ليُعطى قوة مائة رجل في

(١) يعني: أن التسبيح والتكبير وذكر الله تعالى يصدر منهم بدون كلفة ولا معاناة، كما يصدر النَّفْسُ من الإنسان الحي في الدنيا، فهو عمل غير إرادي، فإن الجنة دار مثوبة وليست دار تكليف.

والحديث رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣٥)، وأحمد (١٤٧٦٩)، وأبو داود في السنة (٤٧٤١).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الدنيا في صفة الجنة (١٣٣).

الأكل والشرب والجماع». قال: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، وليس في الجنة أذى! قال: «تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كرشح المسك، فيضمُر بطنه»^(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن طير الجنة كأمثال البُخْت^(٢)، ترعى في شجر الجنة». فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذه لطيْر ناعمة. فقال: «أكلتها أنعم منها». قالها ثلاثاً. «وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها». رواه أحمد بإسناد جيد^(٣)، والترمذي وقال: حديث حسن. ولفظه: قال سئل النبي ﷺ: ما الكوثر؟ قال: «ذاك نهر أعطانيه الله - يعني في الجنة - أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طير أعناقها كأعناق الجُرُز»^(٤). قال عمر: إن هذه لناعمة. فقال: رسول الله ﷺ: «أكلتها أنعم منها»^(٥).

نساء أهل الجنة:

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لغدوة في سبيل الله أو رَوْحة خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قَوْس أحدكم أو موضع قدّه - يعني سوطه - من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو أطلعت امرأة من

(١) رواه أحمد (١٩٢٦٩)، وقال مخرجه: حديث صحيح. والنسائي في الكبرى في التفسير (١١٤١)، والطبراني في الكبير (١٧٧/٥)، والأوسط (٧٧٤١)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٥٦٨٦): رواه أحمد والنسائي، ورواته محتج بهم في الصحيح. والطبراني بإسناد صحيح.

(٢) البُخْت بضم الموحدة وإسكان الخاء المعجمة: هي الإبل الخراسانية.

(٣) رواه أحمد (١٣٣١١)، وقال مخرجه: صحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٧٣٣): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير سيار بن حاتم وهو ثقة.

(٤) الجُرُز: جمع جزور وهي الناقة.

(٥) رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٥٤٢)، وحسنه.

نساء أهل الجنة إلى الأرض لمألت ما بينهما ريحًا، ولأضواء ما بينهما، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»^(١).

(النصيف): الخمار.

و(القاب): هو القدر. وقال أبو معمر: قاب القوس من مقبضه إلى رأسه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن أول زمرة يدخلون الجنة في صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضواء كوكب دري في السماء، ولكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب»^(٢).

غناء الحور العين:

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات سمعها أحد قط، إن مما يغنين به: نحن الخيرات الحسان، أزواج قوم كرام، ينظرون بقرة أعيان، وإن مما يغنين به: نحن الخالدات فلا نموت، نحن الآمات فلا نخفن، نحن المقيمات فلا نطعن». رواه الطبراني في الصغير والأوسط، ورواهما رواة الصحيح^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٦)، ومسلم في الإمارة (١٨٨٠)، مختصرًا.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٢٧)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣٤).

(٣) رواه الطبراني في الصغير (٧٣٤)، والأوسط (٤٩١٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٧٦٠): رواه الطبراني في الصغير والأوسط، ورجاله رجال الصحيح.

لباس أهل الجنة وحُللهم:

وأما لباس المؤمنين وفرشهم وأرائكهم وسُرُرهم في الجنة، فكما قال الله ﷻ: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

وقال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس، ولا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(١).

فرش أهل الجنة:

قال تعالى: ﴿مُتَّكِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤].

وإذا كانت بطائنهم كذلك فكيف بظاهرها؟

وعن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﷻ: ﴿بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]. قال: أخبرتم بالبطائن، فكيف بالظواهر؟
رواه البيهقي موقوفاً بسند حسن^(٢).

وحياة المؤمنين في الجنة ليست كحياتهم في الدنيا، فلا يجري عليهم في الجنة ما كان يجري عليهم من ضرورات الحياة، فلا يبولون،

(١) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها مفرقا (٢٨٢٤، ٢٨٣٦)، ورواه بهذا اللفظ أحمد (٨٨٢٧).

(٢) رواه الحاكم في التفسير (٤٧٥/٢)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، والبيهقي في البعث والنشور (٣٠٩).

ولا يتغوَّطون، ولا يتفلون، ولا يمتخطون، وإنما تعرق أجسامهم رشحًا كالمسك^(١).

ويزين ذلك النعيم كله شباب لا يذوى، وصحة لا تبلى، وحياة لا تفنى، كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، ينادي مناد: إن لكم أن تصحُّوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبُّوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا، وذلك قول الله ﻋَﻠَﻴْﻚ: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]»^(٢).

أشجار الجنة:

ومن نعيم الجنة: أشجار ممدودة الظلال، كثيرة الأغصان، دانية القطوف، لا يحيط بها الطرف لعظمها.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، إن شئتم فاقروا: ﴿وَزَلَّ مَمْدُودٍ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ [الواقعة: ٣٠، ٣١]»^(٣).

(١) كما في الحديث المتفق عليه: «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوَّطون، ولا يتفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك...». رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٢٧)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣٤)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣٧)، وأحمد (٨٢٥٨)، والترمذي في التفسير (٣٢٤٦).

(٣) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥١)، وأحمد (١٢٣٩٠)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٢٩٣).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام لا يقطعها». وفي رواية للترمذي: «ذلك الظل الممدود»^(١).

وإذا هفت نفس المؤمن إلى شيء من طعام أو شراب أو لباس أو غير ذلك من صنوف النعيم وجده بين يديه.

النعيم الروحي في الجنة:

وليست الجنة دار نعيم مادي فحسب - كما ذكرنا - وإنما هي دار للنعيم الروحي أيضًا:

١ - فمن ذلك: إحلال رضوان الله عليهم، فلا يسخط عليهم أبدًا، وذلك بعد أن يُفيض الله عليهم من نعمه، ويُسبغ عليهم من فضله، حتى يروا أنفسهم وقد أُعْطُوا كل ما يشتهون، وفي الحديث: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدًا من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»^(٢).

(١) نوكد هنا: أنه لا ينبغي لنا أن نستبعد شيئًا من أمور الآخرة، لأنها مخالفة لما أَلْفناه. فقدرة الخالق العظيم لا تحُدُّها مألوفاتنا القاصرة، وكل شيء لا يحكم العقل المجرد باستحالته، وصح به الخبر عن المعصوم، فلا يسع المؤمن إلا أن يقول: آمنا وصدقنا.

والحديث: متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٥٥٣)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٨)، كما رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٥٢٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٥٤٩)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٩)، عن أبي سعيد الخدري.

٢ - ومنها: رؤية الله ﷻ : فأنعِم نعيم في الجنة، وأعظم فوز لأهل الجنة: رؤية الله ﷻ عياناً، والتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم، وتلك هي الغاية التي شَمَر إليها المُشْمرون، وتسابق إليها المتسابقون، وتنافس فيها المتنافسون.

قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣].

وقد اتفق الأنبياء والمرسلون والصحابة والتابعون وأئمة الإسلام على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة جهرة كما يرون القمر ليلة البدر.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تضارُّون في رؤية القمر ليلة البدر؟». قالوا: لا يا رسول الله. قال: «هل تضارُّون في الشمس ليس دونها سحاب؟». قالوا: لا. قال: «فإنكم ترونه كذلك»^(١).

وعن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله ﷻ: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: أَلَمْ تَبَيِّضْ وجوهنا؟ أَلَمْ تَدْخُلْنَا الجنة وتنجنا من النار؟». قال: «فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم» ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]^(٢).

وعن أبي موسى رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوَّفة، عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهلٌ ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمن، وجنتان من فضة، أنيتهما وما فيهما،

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٨٠٦)، ومسلم في الإيمان (١٨٢).

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٨١)، وأحمد (١٨٩٣٥)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٢)، والنسائي في النعوت (٧٧١٨).

وجنتان من ذهب، أنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنت عدن»^(١).

درجات الجنة:

وكما أن النار دَرَكَات، فإن الجنة دَرَكَات، بعضها أعلى من بعض، لكل طائفة من المؤمنين درجة بحسب منازلهم من الإيمان والعمل الصالح في الدنيا، فليس المؤمن القوي كالمؤمن الضعيف، ولا المجاهد في سبيل الله كالقاعد عن الجهاد قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرُومًا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

وقد فضّل الله المؤمنين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين الذين حبسهم العذر درجة، وفضلهم على القاعدين الذين لا عذر لهم درجات، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦].

وقد جاء في السنة الصحيحة: «إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»^(٢). وعن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين مائة عام»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٨٧٩)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣٨)، كما رواه أحمد (١٩٦٨١)، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٢٨).

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (٧٩٢٣)، وقال مخرجه: حديث حسن. والترمذي في صفة الجنة (٢٥٢٩)، وقال:

حسن صحيح.

وورد أنّ لصاحب القرآن الذي كان يقرؤه في الدنيا، ويهتدي به، ويدعو إليه منزلة عظيمة عند الله تعالى، فهو يصعد بكل آية يقرؤها درجة في الجنة، كما جاء في المسند، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد، فيقرأ ويصعد بكل آية درجة، حتى يقرأ آخر شيء معه»^(١).

وهذا الحديث صريح في أن درجات الجنة تزيد على مائة درجة، ويجمع بينه وبين الحديث السابق بأن تكون المائة درجة التي أعدها الله للمجاهدين في سبيله من جملة الدرجات التي لا يعلم عددها إلا الله، أو تكون هذه المائة هي نهاية الدرجات.

ولنختم بذكر أحاديث انتقيناها من كتاب (الترغيب والترهيب) للمنذري مما لم يسبق ذكره، لتزيدنا بشرى، ولتكون حافزة لنا لنكون من أهلها بفضل الله ورحمته.

(١) رواه أحمد (١١٣٦٠)، وقال مخرجه: صحيح لغيره. وابن ماجه في الأدب (٣٧٨٠)، وقال في مصباح الزجاجة (١٢٥/٤): في إسناده عطية العوفي وهو ضعيف.

أحاديث في الجنة ونعيمها

امتداد ريح الجنة:

عن أبي بكرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل نفسًا معاهدة بغير حقها لم يَرَح رائحة الجنة، فإن ريح الجنة ليُوجد من مسيرة مائة عام»^(١).
وفي رواية: «وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام»^(٢).

صفة دخول أهل الجنة الجنة:

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده، إن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهَجَرَ». أو: «هجر ومكة»^(٣).

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: «ليَدْخُلَنَّ الجنة من أمتي سبعون ألفاً - أو سبعمائة ألف - متماسكون، آخِذٌ بعضهم ببعض، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»^(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على أشد كوكب دريٍّ في السماء إضاءة، لا يبولون، ولا يتغوَّطون، ولا يمتخطون، ولا يتفلون،

(١) رواه أحمد (٢٠٥١٥)، وقال مخرجه: حديث صحيح. وابن حبان في مناقب الصحابة (٧٣٨٢). والمعنى ثابت بجملة أحاديث صحيحة، وإن اختلفت المسافة من أربعين إلى سبعين، إلى مائة، إلى خمسمائة عام. وكلها تؤكد قيمة العهد، وجريمة الاعتداء على المعاهد.

(٢) رواه أحمد (٢٠٥٠٦)، وقال مخرجه: حديث صحيح. وابن حبان في المناقب (٧٣٨٣).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧١٢)، ومسلم في الإيمان (١٩٤).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٥٥٤)، ومسلم في الإيمان (٢١٩).

أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة، أزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء»^(١).

وفي رواية: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة، صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يمتخطون، ولا يتغوطن، أنيئتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة، ورشحهم المسك، لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ شوقيهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم، ولا تباغض، قلوبهم قلب [رجل] واحد، يسبحون الله بكرة وعشيًا»^(٢).

قال ابن أبي شيبه: على خلق رجل. يعني: بضم الخاء. وقال أبو غريب: على خلق. يعني: بفتحها.

«الألوة» بفتح الهمزة وضمها، وبضم اللام، وتشديد الواو وفتحها: من أسماء العود الذي يتبخّر به. قال الأصمعي: أراها كلمة فارسية عرّبت.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة الجنة جُردًا»^(٣) مُردًا مكحلين، بني ثلاث وثلاثين»^(٤).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٢٧)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣٤) (١٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري بدء الخلق (٣٢٤٥)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣٤) (١٧)، كما رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٥٣٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٣٣).

(٣) الجرد: جمع أجرد، وهو من لا شعر على جسده. والمرد: جمع أمرد، وهو الذي لا شعر في وجهه.

(٤) رواه أحمد (٢٢١٠٦)، وقال مخرجه: حسن لغيره. والترمذي في صفة الجنة (٢٥٤٥)، وفيهما: «أبناء ثلاثين أو ثلاث وثلاثين سنة».

ما لأدنى أهل الجنة فيها:

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: أن موسى عليه السلام سأل ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ فقال: رجل يجيء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة. فيقول: رب كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب. فيقول له: لك ذلك ومثله ومثله ومثله. فقال في الخامسة: رضيت رب. فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتئت نفسك ولذت عينك. فيقول: رضيت رب. قال (موسى عليه السلام): رب، فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر^(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة رجل صرّف الله وجهه عن النار قبل الجنة، ومثّل له شجرة ذات ظل، فقال: أي رب، قرّبني من هذه الشجرة أكون في ظلها». فذكر الحديث في دخوله الجنة وتمنيّه، إلى أن قال في آخره: «إذا انقطعت به الأمانيّ قال الله: هو لك وعشرة أمثاله». قال: «ثم يدخل بيته، فتدخل عليه زوجته من الحور العين، فيقولان: الحمد لله الذي أحياك لنا وأحيانا لك. قال: فيقول: ما أُعطي أحدٌ مثلاً ما أُعطيْتُ»^(٢).

غرف الجنة:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدريّ الغابر في

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٨٩)، والترمذي في التفسير (٣١٩٨).

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٨٨)، وأحمد (١١٢٦).

الأفق من المشرق والمغرب، لتفاضل ما بينهم». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟! قال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»^(١).

وفي رواية لهما: «كما تراءون الكوكب الغارب»^(٢). بتقديم الراء على الباء.

«الغابر» بالغين المعجمة والباء الموحدة، المراد به هنا: الزاهب الذي تدلّى للغروب.

وعن أبي مالك، عن النبي ﷺ: «إن في الجنة عُرفاً يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى بالليل والناس نيام»^(٣).

خيام الجنة:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوّفة، طولها في السماء ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً». رواه البخاري ومسلم والترمذي، إلا أنه قال: «عرضها ستون ميلاً»^(٤). وهو رواية لهما.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٦)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣١).

(٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٥٦)، عن أبي سعيد، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣٠)، عن سهل بن سعد.

(٣) رواه أحمد (٢٢٩٠٥)، وقال مخرجه: إسناده حسن. وابن خزيمة في الصيام (٢١٣٧)، وابن حبان في البر والإحسان (٥٠٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥١٦٢): رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٤) سبق تخريجه.



سُوقِ الْجَنَّةِ:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة سوقاً يأتونها كلَّ جمعة، فتهب ريح الشَّمال، فتحثو في وجوههم وثيابهم بخير، فيزدادون حسناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً، فتقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً. فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً»^(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: يقول أهل الجنة: انطلقوا إلى السوق، فينطلقون إلى كُثبان المسك، فإذا رجعوا إلى أزواجهم قالوا: إنا لنجد لَكُنَّ ريحاً ما كانت لَكُنَّ. قال: فيقلن: ولقد رجعتم بريح ما كانت لكم إذ خرجتم من عندنا.

رواه ابن أبي الدنيا موقوفاً بإسناد جيد^(٢).

أعلى ما يخطر على البال أو يجوّزه العقل من حُسن الصفات المتقدمة فالجنة وأهلها فوق ذلك:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله ﻋَزَّ وَجَلَّ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». واقروا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]^(٣).

(١) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣٣).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة (٢٤٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة (٢٨٢٤)، كما رواه أحمد (٩٦٤٩)، والترمذي في التفسير (٣١٩٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨)، والنسائي في الكبرى في التفسير (١١٠١٩).

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: شهدت من رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسًا وصف فيه الجنة حتى انتهى، ثم قال في آخر حديثه: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». ثم قرأ هاتين الآيتين: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧] ^(١).

وتقدم قريبًا في وصف نساء الجنة حديث أنس رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابٌ قَوْسٍ أَحَدُكُمْ - أَوْ: مَوْضِعٌ قَدَّهُ - فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لِأَضَاءَتِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا - يَعْنِي: خِمَارُهَا - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ^(٢).

(القاب) هنا قيل: هو القدر، وقيل: من مقبض القوس إلى سيّته، ولكل قوس قابان.

و(القِدُّ) - بكسر القاف وتشديد الدال - هو السوط.

ومعنى الحديث: ولقدر قوس أحدكم أو قدر الموضع الذي يوضع فيه سوطه خير من الدنيا وما فيها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء. رواه البيهقي موقوفًا بإسناد جيد ^(٣).

(١) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٥)، وأحمد (٢٢٨٢٦)، عن سهل بن سعد الساعدي.

(٢) سبق تخريجه ص ٦٠٦.

(٣) رواه البيهقي في البعث والنشور (٣٣٢).

خلود أهل الجنة وأهل النار، وما جاء في ذبح الموت:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت كهيئة كبشٍ أَمْلَحَ، فينادي به منادٍ: يا أهل الجنة. فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت. وكلهم قد رآه، ثم ينادي منادٍ: يا أهل النار. فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت. وكلهم قد رآه، فيذبح بين الجنة والنار^(١)، [ثم] يقول: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت». ثم قرأ: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]. وأشار بيده إلى الدنيا^(٢). رواه البخاري، ومسلم، والنسائي، والترمذي، ولفظه قال: «إذا كان يوم القيامة أُتِيَ بالموت كالكبش الأملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيذبح وهم ينظرون، فلو أن أحداً مات فرحاً لمات أهل الجنة، ولو أن أحداً مات حزناً لمات أهل النار»^(٣).

«يشرئبون» بشين معجمة ساكنة، ثم راء، ثم همزة مكسورة، ثم باء موحدة مشددة: أي يمدون أعناقهم لينظروا.

(١) الموت معنى من المعاني، لا يُحسُّ ولا يُرى. وليس بجسم في صورة كبش أو غيره. فلا بد من تأويل الحديث. وقد ذكر الشراح له تأويلين: الأول أن الله يخلق هذا الجسم ثم يذبح مثلاً؛ لأن الموت لا يطرأ على أهل الآخرة. والثاني: أنه تصوير وتمثيل، لأن الموت لما عدم بالنسبة لأهل الجنة والنار صار بمنزلة الكبش الذي ذبح. وهذا أظهر، كما قال الأبي في شرح مسلم (٢٢٠/٧)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

ومن العلماء من أثر ترك الخوض في التأويل، باعتبار هذا من عالم الغيب الذي نؤمن به ولا نبحت في كنهه. ورحم الله امرأ عرف حده، فوقف عنده. وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧٣٠)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٩).

(٣) رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٨)، وحسنه، والنسائي في الكبرى في التفسير (١١٢٥٤).

سؤال الله الجنة والاستعاذة به من النار:

قد علّمنا القرآن أن نستعيد من عذاب جهنم في قوله تعالى على لسان عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿[الفرقان: ٦٥، ٦٦].

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن: «قولوا: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات»^(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل الله الجنة ثلاث مرات، قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة. ومن استجار من النار ثلاث مرات، قالت النار: اللهم أجره من النار»^(٢).

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن لله ملائكة سيّارة يتبعون مجالس الذكر». فذكر الحديث إلى أن قال: «فيسألهم الله ﻋَـلَـيْهِمُ السَّلَامُ وهو أعلم: من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عباد لك يسبحونك ويكبرونك ويهلّلونك، ويحمدونك ويسألونك؟ قال: فما يسألوني؟ قالوا: يسألونك جنتك. قال: وهل رأوا جنتي؟ قالوا: لا أي رب. قال: فكيف لو رأوا جنتي؟ قالوا: ويستجيرونك. قال: ومم يستجيرونني؟ قالوا: من نارك

(١) رواه مسلم في المساجد (٥٩٠)، وأحمد (٢١٦٨).

(٢) رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٥٧٢)، وقال: وروى عن أبي إسحاق، عن بُريد بن أبي مريم، عن أنس، موقوفاً أيضاً. والنسائي في الاستعاذة (٥٥٢١)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٤٠)، وابن حبان في الأدعية (١٠٣٤)، وقال الأرناؤوط: حديث صحيح. والحاكم (٥٣٤/١)، وصححه إسناده، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٥٠٢).



يا رب. قال: وهل رأوا ناري؟ قالوا: لا. قال: فكيف لو رأوا ناري؟ قالوا: ويستغفرونك. قال: فيقول: قد غفرتُ لهم، وأعطيتهم ما سألوا، وأَجَرْتُهم مما استجاروا..» الحديث^(١). و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾، ﴿رَبَّنَا اقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

* * *



(١) سبق تخريجه ص ٢٩١، وفيه: «إن لله ملائكة يطوفون».



غير مرخصة للطباعة

الركن السادس: الإيمان بالقدر

من أركان الإيمان، وركائز العقيدة في الإسلام: الإيمان بالقدر. كما ثبت في حديث جبريل المشهور في تفسير (الإيمان)، وكان من ذلك: «وتؤمن بالقدر خيره وشره»^(١).

معنى القدر:

معنى القدر: أن هذا الكون وما فيه لا يسير جزافاً، ولا يقع شيء فيه اعتباطاً، أو يحدث أنفأ، بغير علم وتدبير. وإنما علم الله سبحانه في الأزل الأشياء قبل وقوعها، وقدرها على ما تكون عليه، قدر زمانها ومكانها، ومقدارها وشكلها، وخصائصها وصفاتها وأحوالها، وسجل ذلك كله في كتاب مسطور، وإمام مبين، لم يفرط فيه من شيء، فهي تقع بإرادته وقدرته، حسب ما قدرها سبحانه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

مراتب القدر:

فمعنى تقدير الله لشيء ما، يتضمن إثبات حقائق أو مراتب أربع:

(١) سبق تخريجه ص ٢٣.

الأولى: أن الله عَلمه قبل وقوعه، فإن علم الله المحيط لا يغيب عنه شيء، دقّ أو جلّ، صَغُر أو كبر. وهو يعلم الشيء قبل أن يقع، كيف سيقع ومتى سيقع وأين سيقع.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وما علم الله أنه سيقع، فلا بدّ أنه واقعٌ، وما علم أنه لا يقع، فلن يقع أبداً، وما علم أنه يقع على صفة خاصة، وحالة معينة، فسيقع لا محالة على هذه الصفة وتلك الحالة. ولا يملك مخلوق ما، ولا المخلوقات جميعاً أن تغير مما علمه الله شيئاً، وإلا استحال العلم الإلهي جهلاً.

الثانية: أن كلّ ما يقع في الكون إنما هو بمشيئة الله النافذة، وإرادته الكونيّة العامّة، لا يخرج عن ذلك عمل عامل، ولا قول قائل.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ولهذا اتفق المسلمون على أن (ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن).

الثالثة: أن كلّ ما في الكون هو بخلق الله تعالى، وأثر قدرته، وليس له شريك في الخلق.

﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].

الرابعة: أن الله تعالى قد سجّل ذلك منذ القدم في كتاب عنده هو: (اللوح المحفوظ).

وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، على أحد التفسيرين^(١).

وقال سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦].

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. فدلّ ذلك على أن الناس قد كُتِبَ لهم أو عليهم ما يحدث لهم أو يحدثونه، وقال الرسول ﷺ في حديث ابن عباس: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^(٢).

الإيمان بالقدر في السنة:

جاء في السنة الصحيحة المستفيضة: أن الإيمان بالقدر ركن من أركان العقيدة الإسلامية الستة، كما حدّد ذلك حديث جبريل المشهور الذي رواه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، أن جبريل سأل النبي ﷺ،

(١) التفسير الثاني: أن الكتاب في الآية هو القرآن الكريم.

(٢) رواه أحمد (٢٦٦٩)، وقال مخرجه: إسناده قوي. والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦)، وقال:

حسن صحيح.

عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة. فحين سألته عن الإيمان، قال: «الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»^(١).

فلا يتحقق إيمان عبد حتى يؤمن بالقدر.

وروى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه، من حديث علي رضي الله عنه مرفوعاً: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، وبالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر»^(٢).

وحين بلغ ابن عمر أن أناساً يزعمون: أن لا قدر، وأن الأمر أنف^(٣). قال لمن أخبره: إذا لقيت هؤلاء، فأخبرهم أنني بريء منهم، وأنهم برآء مني. والذي يحلف به عبد الله بن عمر، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً، فأنفقه - أي: في سبيل الله - ما قبل الله ذلك منه، حتى يؤمن بالقدر^(٤).

وقال عبادة بن الصامت لابنه: يا بُنَيَّ، إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. فقال: رب، ماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة». سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مني»^(٥).

(١) سبق تخريجه ص ٢٣.

(٢) رواه أحمد (٨٥٧)، وقال مخرجه: رجاله ثقات رجال الشيخين. والترمذي في القدر (٢١٤٥)، وابن ماجه في المقدمة (٨١).

(٣) الأنف - بضمين - الأمر الذي يكون بادي الرأي من غير تقدير سابق، ولا نظام مرسوم يجري عليه، أي مستأنف لم يسبق به علم الله.

(٤) رواه مسلم في الإيمان (٨).

(٥) رواه أحمد (٢٢٧٠٥)، وقال مخرجه: حديث صحيح. وأبو داود في السنة (٤٧٠٠)، عن عبادة بن الصامت.

أمّا هذا القلم، ما هو؟ وكيف هو؟ وكيف يكتب؟ فهو من عالم الغيب الذي نؤمن به، ولا نعرف كُنْهه، ولا نطلب حقيقته، كالعرش، واللوح، والكرسيّ ونحوها. كل الذي يعيننا هنا أن ما يكتبه هذا القلم الإلهي في الكتاب الممكنون هو (القدر).

وقد ورد في القدر والإيمان به أحاديث كثيرة، تقصّها أحد جهابذة العلماء - العلامة ابن الوزير في «العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم» - فبلغت (٢٢٧) حديثاً، منها (٧٢) حديثاً في وجوب الإيمان بالأقدار، و(١٥٥) في ثبوتها^(١).

قال الحسن البصري: من كَذَّبَ بالقدر فقد كَذَّبَ بالإسلام؛ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّرَ أَقْدَارًا، وَخَلَقَ الْخَلْقَ بِقَدَرٍ، وَقَسَمَ الْأَجَالَ بِقَدَرٍ، وَقَسَمَ الْأَرْزَاقَ بِقَدَرٍ، وَقَسَمَ الْبَلَاءَ بِقَدَرٍ، وَقَسَمَ الْعَافِيَةَ بِقَدَرٍ، وَأَمَرَ وَنَهَى^(٢).

الإيمان بالقدر في القرآن:

أما القرآن، فلم يذكر الإيمان بالقدر باعتباره ركنًا مستقلًا من أركان العقيدة، بل اكتفى بالأركان الخمسة: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والملائكة والكتاب والنبیین، كما جاء في آية: وفي غيرها من الآيات. قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]

(١) يقول: وقد كثرت الأحاديث في وجوب الإيمان به كثرة توجب التواتر، فقد ذكرت منها في العواصم أكثر من سبعين حديثاً، وذكرت مع ذلك نحو مائة وخمسين حديثاً في صحة ذلك مما ليس فيه ذكر وجوب الإيمان به، وذكرت مما ورد من كتاب الله تعالى نحو مائة آية. إيثار الحق على الخلق لابن الوزير ص ٢٧٨، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٨٧م.

(٢) رواه ابن بطة في الإبانة (١٦٧٦).

وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فذكر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وأشار إلى الإيمان باليوم الآخر بقوله: ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. فذكر الأركان الخمسة.

وقال أيضاً: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

فهكذا رأينا القرآن الكريم لم يذكر (القدر) صراحة ضمن متعلقات الإيمان، مثل الخمسة المذكورة.

والسر في ذلك: أن الإيمان بالقدر داخل ضمناً في الإيمان بالله، بل هو جزء حقيقي منه؛ لأن معناه: الإيمان بإحاطة علم الله تعالى بكل شيء، وشمول إرادته لكل ما يقع في الكون، ونفوذ قدرته في كل شيء، وقد صرحت آيات القرآن بأن الله قَدَّرَ كل شيء في مواضع شتى من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢]، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [يونس: ٦١].

الإيمان بالقدر بمقتضى الكمال الإلهي:

إن الإيمان بالقدر الذي جاء به الإسلام، ليس إيماناً بالحظ (البخت) أو الصدفة. كلا، الإيمان بالقدر على النحو الذي ذكرناه، إنما هو إيمان

بمقتضى الكمال الإلهي الذي تميّزت به عقيدة الإسلام، وصحّحت به أوهام الفلسفات، وانحراف الديانات في شأن الألوهية. فليس الإله في الإسلام إلهاً معزولاً عمّا يجرى في الكون، لا يعلمه، ولا يتدخل فيه بتدبير ولا تصريف، كـ (إله أرسطو)، الذي لا يعرف إلا ذاته، ولا يعلم عن هذا الكون شيئاً، ولا يدبر فيه أمراً، أو (إله أفلوطين) الذي لا يعلم ذاته نفسها!

وليس كـ (إله المجوس)، الذي له نصف الكون يدبره ويتصرّف فيه، وهو ما يتعلق بالخير والنور، أما النصف الآخر وهو ما يتّصل بالشرّ والظلمة، فذلك من شأن إله آخر، فهما إلهان إذن: أحدهما إله الخير والنور، والآخر إله الشر والظلمة. والحرب بينهما سجال، حتى ينتصر إله الخير في النهاية.

وليس هو كـ (آلهة اليونان)، التي تخطط في تصرفاتها خبط عشواء، والتي تعيش في حرب مع البشر، حتى إن رواياتهم عن القدر وضرباتة للناس تمثله هازئاً بهم، متحدّياً لهم، يطاردهم ويتجنّى عليهم. ولهذا كثر الحديث في أدبهم عن قسوة القدر، وعن القدر الأعمى، والقدر الغاشم، ونحو ذلك.

وليس كـ (إله بني إسرائيل) الذي تصوّره توراتهم المحرّفة، وكتبهم وأساطيرهم، غيوراً منتقماً مدمراً، متعصباً لشعب إسرائيل دون العالمين، خائفاً من الإنسان أن يأكل من شجرة الحياة، فيصبح كواحد من الآلهة! نادماً على ما يفعله في بعض الأحيان، عاجزاً عن مقاومة الإنسان، حتى إن إسرائيل ليصارعه فيصرعه!!

ليس هذا الذي تتصوّره أو تُصوِّره الديانات والفلسفات هو إله الإسلام، إنما الإله في الإسلام هو مالك الملك، وصاحب الخلق والأمر، ربُّ العالمين، هو خالق كلِّ شيء، ومُدبِّر كلِّ أمر، بيده ملكوت كلِّ شيء، وإليه يرجع الأمر كله. لا يخرج شيء عن قبضة قهره، ولا حيٌّ أو جماد عن دائرة سلطانه، يحكم ما يريد، ويفعل ما يشاء، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وهو مع هذا برٌّ كريم، عدلٌ رحيم، عليمٌ حكيم، لا يظلم أحداً، ولا يأخذ مخلوقاً بذنب غيره، ولا يبخره أجر سعيه، فلا يخاف أحد عنده ظُلماً ولا هضمًا. والظلم: أن يعاقبه بما لم يعمل. والهضم: أن يضع أجر ما قد عمل. والله سبحانه لا يعاقب بغير سيئة، ولا يُضيع أجر حسنة، بل يضاعفها كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

هذا هو الإله الذي يجري كلُّ شيء في الكون بتقديره وتدبيره، بعلمه ومشيئته ومقتضى حكمته. وعلى هذا الأساس كان إيمان السلف بالقدر من الصحابة، ومن تبعهم بإحسان. فليس الإيمان بالقدر إيماناً بالبخت والمصادفات، والعشوائية في الكون، كهؤلاء الذين ينقلون إلى العربية التغيرات اليونانية والغربية عن القدر، فتراهم يقولون: (القدر الأعمى، والقدر الأحمق، والقدر الغاشم، وعبث الأقدار) ونحوها. وهي ألفاظ وتعبيرات يبرأ منها الإسلام والمسلمون.

إنما هو إيمان بإحاطة علم الله، وعموم مشيئته، وشمول قدرته، وربوبيته لكلِّ ما في الكون، وأن كلَّ ما يحدث في الوجود، إنما يتمُّ بناءً على ترتيب أو تصميم سابق، وتدبير قديم، وتقدير عزيز عليم.



مجالات القدر:

نستطيع أن نقسّم المجالات التي يجري فيها القدر الإلهي إلى ثلاثة:

المجال الأول: ما يجري في الكون الكبير من حولنا:

ويتعلّق بالنظام الكوني العام من دوران الأفلاك، وحركات الكواكب، وتصريف الرياح، وإجراء السحاب، وإنزال الأمطار، واختلاف الليل والنهار، وما يجري على جميع بني آدم والحيوانات والنباتات والجمادات على تنوعها وتباينها، من الذرة إلى المجموعة الشمسية، إلى المجرات العظيمة في الفضاء الهائل.

فهذه الأشياء علوّيها وسفليّتها، ما نُبصر منها وما لا نُبصر، كلّها تجري بتقدير الله، لا يعزّب عن علمه منها شيء، ولا يخرج عن قبضة مشيئته وقدرته منها شيء، فهي تسير وَفْقاً لما قدّره ربّها من سنن وقوانين، نَظَمَ بها عَقْدَ هذا الكون وَفْقَ مشيئته وحكمته تعالى.

ومراتب القدر الأربع جارية عليها: العلم، والكتابة، والمشية، والقدرة. ولا دخل لمخلوق صغر أو كبر في هذا النظام العام وتسييره، ولا قدرة له على تغييره، ولقد انكسفت الشمس مصادفة يوم موت إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، فظنّ بعض الناس أنها انكسفت لموته، فبادر ﷺ، بنفي هذا الوهم، وقال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا تنكسفان لموت أحد ولا لحياته»^(١).

ويقول تعالى: ﴿وَأَيَّاهُمْ إِلَّالُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٠٦٠)، ومسلم (٩١٥)، كلاهما في الكسوف، عن المغيرة بن شعبة.

حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ
النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٧-٤٠﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠].

فهذه المخلوقات والأجرام العظيمة خاضعة لمشیئة الرحمن، مسخرات بأمره، جارية بتقديره، ولعل هذا الخضوع لأمر الله ومشیئته المهيمنة هو المعبر عنه في القرآن بالتسبيح: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

المجال الثاني: ما لا دخل لنا فيه من خلقنا وحياتنا:

ما يتعلّق بنا نحن المكلفين ممّا ليس لنا فيه أدنى إرادة ولا اختيار، مثال ذلك: خُلِقْنَا أنفسه، لماذا خُلِقْنَا؟ ولماذا خُلِقْنَا بشرًا؟ ولماذا خُلِقَ هذا ذكرًا وهذه أنثى؟ ولماذا وُلِدَ هذا من أب عربي، وهذا من عجمي؟ ولماذا وُلِدَ في هذا المكان؛ ولم يولد في غيره، وفي زمان معيّن دون غيره؟ ولم كان هذا أبيض، وذاك أسود؟ ولماذا كان هذا غبيّا، وذاك عبقریّا، وهذا طويلًا عملاقًا، وذاك قصيرًا قزمًا؟ لماذا يعيش هذا مائة عام، ويموت هذا في مئة الصبا^(١)؟

هذه الأسئلة وما شابهها ليس لها جواب إلا محض المشیئة الإلهية والقدرة الإلهية، فالله تعالى هو الذي يقدر ويخصّص ويختار ويشاء: ﴿وَرُبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]، ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠]،

(١) مئة الصبا أي: أوله.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾
 [آل عمران: ٦]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾
 [آل عمران: ١٤٥]، ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١].

ففي هذه الأمور المذكورة نحن مسيرون مجبورون، تجري علينا المقادير بمراتبها الأربع السابقة، ولسنا مسؤولين عن شيء مما ذكر، ولا نحاسب عليه دنيا أو آخرة. لا نسأل عن ذكائنا أو غبائنا، ولا عن بياضنا أو سوادنا، ولا عن طولنا أو قصرنا، ولا عن أعمارنا أو آجالنا، ولا عن آبائنا وأمهاتنا، ولا عن شعوبنا وقبائلنا، ولا عن غنانا وفقرنا، ولا عن صحتنا وضعفنا.

إنما علينا أن نرضى بما قدّر الله لنا في ذلك، ونوقن أن فيما قدّره حكمة قد تتجلى لنا، وقد تخفى علينا، وقد نعرف منها شيئاً، وتغيب عنا أشياء. وهذا ما أحسن سلفنا الإيمان به، وسلّموا لله فيه، فصنعوا الأعاجيب، وحقّقوا المعجزات، أو ما يشبه المعجزات.

المجال الثالث: أعمالنا الإرادية الاختيارية:

أعمالنا الاختيارية، ونعني بالاختيارية: تلك التي يشعر الإنسان من نفسه أن له فيها إرادة وقصدًا، وأن له عليها سلطة وقدرة، مثل الأكل والشرب واللبس من المباحات، ومثل الصلاة والصيام والإنفاق والحج والجهاد والذكر من الطاعات، ومثل الزنى والسرقة والقتل وشرب الخمر وأكل الربا من المحظورات.

فهل هذه الأعمال يجري عليها القدر بمراتبه الأربع، كما جرى في المجالين السابقين؟ وبعبارة أخرى: هل هذه الأعمال التي نشعر بأننا

مختارون لها، قادرون عليها، واقعة حسب علم الله تعالى وكتابتها القديمة، وبمشيئته تعالى وقدرته النافذة؟

أما علم الله بالأفعال قبل وقوعها، وكتابتها إيّاها في اللوح المحفوظ؛ فهو ممّا اتفق عليه طوائف المسلمين، من المعتزلة، وأهل السنة، وغيرهم، ولم يخالف فيه إلا (قدماء القدرية) الذين أدركهم بعض الصحابة: كابن عمر، وابن عباس، وجابر، وغيرهم. وحكموا بكفرهم، ومروقهم من الإسلام؛ لأنهم يُكذّبون صريح القرآن، وما علّم من الدين بالضرورة، وكان ذلك بعد عهد معاوية، أيام الصراع بين ابن الزبير وبني أمية. وأول من قال بذلك (مَعْبَدُ الْجُهَنِيِّ)^(١). وهؤلاء قد انقضوا، ولم يطل بقاؤهم، ولكن الذي وقع الاختلاف فيه، هو إرادة الله لأعمال المكلفين، وخلقه إيّاها: هل تقع أعمال العباد بإرادتهم وقدرتهم هم، أو بإرادة الله تعالى وقدرته؟ أو تقع شركة بين الله والعباد؟ وما الذي للرب الذي للعبد في هذه الأعمال؟

وبعبارة أخرى: هل الله يريد أعمال العباد كلّها؛ طاعاتٍ ومعاصي؟ وهل هو خالقها وفاعلها، أم العبد هو المريد الفاعل الخالق لكل أعماله؟

هذا الموضوع الشائك قد زلّت فيه أقدام، وضلّت أفهام، وافتقرت فيه طرق أهل الكلام، ما بين مفرّطين ومفرّطين ومعتدلين.

(١) معبد بن عبد الله بن عويمر الجهني البصري، أول من قال بالقدر في البصرة، له رواية، أحد من شهد (الحكمين)، خرج مع ابن الأشعث وجرح، واختلف في سنة وفاته قيل: (٨٠ أو ٩٠هـ). سير أعلام النبلاء (٤/١٨٦، ١٨٧).



الإنسان بين الجبر والاختيار:

اختلف الفلاسفة وأهل الملل والنحل من قديم، في هذه القضية الخطيرة، وفي الإجابة عن هذا السؤال الكبير: هل الإنسان مختار في أفعاله أو مجبور، مخير أم مسير؟

سؤال حير الإنسان، وأقلق الباحثين، في مجال الفلسفة أو في مجال الدين، وشغل الخواص والعوام، ولا يزال يشغل الجميع إلى اليوم.

ومن المجيبين عن هذا السؤال من مال إلى جانب الحرية والتخير، ومنهم من جنح إلى جهة الإجبار والتسيير، ومنهم من أجاب إجابة لا تنفع غلة، ولا تشفي علة؛ لأن الموضوع متشعب ومركب معقد. فقال بعض الفلاسفة: هو حر في ميدان من القيود! وقال بعضهم: هو مجبور على أن يختار! وقال غيرهم: هو مواطن في عالمين!

ولا غرو أن وجدنا صدى هذا الخلاف القديم، عند الطوائف المختلفة من أهل الإسلام، الذين خاضوا في لجج هذه القضية، وما يعتورها من مشكلات.

وقد رأينا فيها من غلا في جانب وشطح، ومن غلا في الجانب المقابل وجنح، ومن نهج النهج الأوسط، الذي قال فيه الإمام علي (عليه السلام): عليكم بالنمط الأوسط، الذي يلحق به التالي، ويرجع إليه الغالي^(١).

المعتزلة فرطوا في إثبات القدر:

فالمفراطون أخرجوا معاصي العباد وقبائح أعمالهم من دائرة ما أراد الله تعالى وخلقها، وقالوا: إن الله جل شأنه لم يشأ ضلالة الضالين، ولا

(١) عمدة الكتاب لأبي جعفر النحاس ص ٣٢٠، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، نشر دار ابن حزم، الجفان والجابي للطباعة، ط ١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

معصية العاصين، ولم يخلقها، بل لم يخلق شيئاً من أفعال العباد الاختيارية. وجعلوا الإنسان هو الذي ينفرد بخلق أفعال نفسه، ويستبدُّ بإرادتها، ولا شأن لله بها إرادة ولا خلقاً.

وإذن تكون الطاعات والمعاصي، والحسنات والسيئات كلها من خلق العباد أنفسهم، وقعت بمحض إرادتهم وقدرتهم لا غير، وهؤلاء هم المعتزلة، الذين يطلق عليهم اسم (القدرية)، ويبدو أنهم أول من تكلم في أمر القدر، وجادلوا فيه، فنُسبوا إليه، مع أنهم نفاة لا مثبتون للقدر.

الجبرية والقدر:

وفي مقابل المعتزلة الذين فرّطوا في أمر القدر، ظهرت طائفة أفرطت كلّ الإفراط، أنكروا أن يكون الإنسان فاعلاً لأفعاله الإرادية، وأن تكون له قدرة لها تأثير في مقدورها، وأن تكون له مشيئة في أفعاله، وإنما الفاعل لأفعال العباد، المُريد لها هو الله، الذي لا يبرز شيء في الكون من العدم إلى الوجود إلا بمشيئته الفذة، وقدرته المنفردة.

أما الإنسان فليس إلا محلاً لأفعاله، تجري عليه كما تجري على الآلات، وهؤلاء هم (الجبرية) الذين يرون الإنسان مجبوراً مسيراً، لا إرادة له ولا قدرة ولا اختيار، حتى غلا بعضهم فقال: إن حركاته بمنزلة حركات الأشجار إذا هبَّت عليها الريح.

وأول من ظهر منه هذه المقالة هو (الجهنم بن صفوان)، وكان ذلك في أواخر دولة بني أمية، بعد ظهور القدرية الأول، ثم انقراضهم، وظهور المعتزلة بعدهم، وقد أنكر السلف على (جهنم) وأتباعه أشدَّ الإنكار، كما أنكروا على الطائفة الأخرى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «قابل القدرية قوم من العلماء والعُباد وأهل الكلام والتصوف، فأثبتوا القدر، وآمنوا بأن الله خالق كل شيء وربّه ومليكه، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهذا حسن.

ولكنهم قصّروا في الأمر والنهي، والوعد والوعيد^(١)، أفرطوا حتى غلب بهم الأمر إلى الإلحاد، فصاروا من جنس المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

فأولئك القدرية - يعني المعتزلة - وإن كانوا يشبهون المجوس، من حيث إنهم أثبتوا فاعلاً لما اعتقدوه شرّاً غير الله سبحانه، فهو لاء - أي: الجبرية - شابهوا المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾.

فالمشركون شرّ من المجوس؛ لأن المجوس يُقرّون بالجزية، باتفاق المسلمين، حتى ذهب بعض المسلمين إلى حلّ نسائهم وطعامهم. والمقصود: أن من أثبت القدر واحتجّ به على إبطال الأمر والنهي، فهو شرّ ممن أثبت الأمر والنهي ولم يثبت القدر^(٢).

موقف الأشاعرة:

ومن علماء الكلام المنتسبين إلى أهل السنة من تبرأ من (اسم) الجبرية، ولكنه وقع في (مُسمّاه) من حيث لا يدري، أو أوشك أن يقع.

ومن هؤلاء الأشعرية - ويقال لهم أيضاً: الأشاعرة - وهم أتباع الإمام الكبير الشيخ أبي الحسن الأشعري (ت: ٣٢٤هـ)، الذي كان من

(١) لأن مقتضى الفكرة الجبرية: أن الأمر والنهي عبث، وأن الوعد والوعيد لا معنى له، ما دام الإنسان مجبوراً.

(٢) مجموع الفتاوى (٩٩/٨، ١٠٠).

المعتزلة، ثم خالفهم وتركهم، وأعلن انتسابه إلى السنة، وإلى الإمام أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١هـ)، وصار رأس مذهب مشهور معلوم.

والمشهور عن الإمام الأشعري: أنه لم يجعل للإنسان قدرة مؤثرة في مقدورها، بل أثبت له شيئاً سمّاه (الكسب)، فالله خالق الفعل، والعبد هو كاسبه.

ولكن ما حقيقة الكسب؟ وما تأثيره في حدوث الفعل؟

هنا يضطرب قول الأشعري ومن وافقه اضطراباً عظيماً، وتختلف عباراتهم اختلافاً كثيراً. وخلاصة ما قالوه: أن قدرة العبد لا تأثير لها في حدوث مقدورها، ولا في صفة من صفاته، وأن الله أجرى العادة بخلق مقدورها مقارناً لها، فيكون الفعل خلقاً من الله إبداعاً وإحداثاً، وكسباً من العبد لوقوعه مقارناً لقدرته.

وقالوا: إن العبد ليس مُحدثاً لأفعاله، ولا مُوجداً لها. ومع هذا يقولون: إنا لا نقول بالجبر المحض، بل نثبت للعبد قدرة حادثة مقارنة للفعل، والجبر المحض لا يثبت للعبد قدرة.

والكسب بهذا المعنى لا يحل المشكلة، ولا يفسّر لنا علة التكليف ومناطه الذي به يثاب المرء ويُعاقب، ويلزم منه ألا يكون هناك بين القادر والعاجز فرق، فإن مجرد الاقتران لا اختصاص له بالقدرة، فإن فعل الإنسان يقارن حياته وعلمه وإرادته وغير ذلك من صفاته، فإذا لم يكن للقدرة تأثير إلا مجرد الاقتران، فلا فرق بين هذه القدرة وغيرها.

وبهذا نرى أن الكسب الذي أثبتته الأشعري، وجعله مناطاً للتكليف، وأساساً لترتب الجزاء من الثواب والعقاب؛ ليس في الحقيقة (أمراً

وجوديًا) إيجابيًا مؤثرًا، إنما هو مجرد مقارنة قدرة الإنسان لفعله المقدور له، من غير تأثير لها في إيجاد المقدور.

ولهذا عدّه المحققون من (مُحَالَات الكلام)، وضربوا به المثل في الخفاء والغموض، فقالوا: «أخفى من كسب الأشعري»!

ومذهب الأشعري في هذه المسألة قريب من مذهب الجهميّة الجبريّة، الذين سلبوا الإنسان قدرته واختياره، حتى غلا بعضهم، فجعل حركته الاختيارية بمنزلة حركات الأشجار عند هبوب الرياح.

وبعض الأشاعرة يغفلون في إثبات القدر، حتى لا تستطيع أن تفرّق بينهم وبين الجبرية. ومن هؤلاء الإمام فخر الدين الرازي، الذي قال فيه ابن تيمية: «كان جبريًا محضًا»^(١).

هذا هو المشهور عن الأشعري والأشاعرة، ولكن رُوي عنه وعن جماعة من أصحابه الكبار - ومنهم الرازي نفسه - قول آخر، أدنى إلى الحق الذي جاء به صريح القرآن وصحيح السنة، كما سيتضح فيما يلي.

مذهب المحققين من علماء السنة:

والمذهب الوسط بين الذين فرّطوا في إثبات القدر - وهم المعتزلة - والذين أفرطوا فيه - وهم الجهمية ومن قاربهم من الأشعرية - هو مذهب أهل العلم والاعتدال من أهل السنة والحديث، الذين لم يرجعوا في هذه القضية إلى مصدر غير الإسلام، ولم يحتكموا إلى غير كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وخلاصة هذا المذهب تصوّره الحقائق التالية:

(١) مجموع الفتاوى (٣٠٧/٨).

١ - أننا نعلم بضرورة العقل والحس، أن لنا أفعالاً اختيارية تستند إلى إرادتنا وقدرتنا، وأننا إذا أردنا الحركة يَمُنَّة لم تقع يَسْرَة، وإذا أردنا أن نأكل الخبز لم نأكل التراب، وإذا أردنا الصلاة في المسجد لم نذهب إلى الحانة، وأننا نفرِّق بالضرورة بين حركة الصاعد على السلم والساقط منه، ونعلم أن الأول مختار في حركته، والثاني غير مختار.

٢ - ونعلم بضرورة الشرع، الذي جاء به كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ: أن الله هو الذي خلق فينا الإرادة والقدرة، اللتين بهما نُحدث أفعالنا، وهذه الإرادة والقدرة المخلوقة فينا هي أساس تكليفنا، ومناط مسؤوليتنا عن أعمالنا في الدنيا والآخرة. وعلى هذا ترتب المدح والذم، وكان الثواب والعقاب، وقامت سوق الجنة والنار، ودلَّت على ذلك النصوص الشرعية.

٣ - وهذا لا ينافي الاعتقاد بأن الله خالق كلِّ شيء، وأن كلَّ ما في الكون حادث بمشيئته وقدرته، ذلك أن الله تعالى هو خالق الإنسان بكلِّ ما فيه من قُوى وطاقات، وصفات مادية ومعنوية. ومن جملة هذه القُوى: الإرادة والقدرة، اللتان يُوجدُ الإنسان بهما جميع أفعاله الإرادية، والله تعالى هو الذي جعلهما سبباً لإحداث الفعل، حسب سُنَّته تعالى في الخلق، ولا ريب أن خالق السبب التام خالقٌ لمسبَّبه، ولو لم يشأ سبحانه وجود فعله لما خلق السبب الموجد له.

٤ - وبهذا الاعتبار نستطيع أن نقول: إنَّ الله هو خالق أفعال العباد؛ لأنَّ سنَّته تعالى أن يخلق الأشياء بوسائط وأسباب، ومن هذه الوسائط ما خلقه تعالى في الإنسان من قدرة وإرادة واختيار، كما أن الإنسان هو مُحدث أفعاله بإرادته واختياره وقدرته حقيقة.

هذا القول المعتدل الموافق للنصوص، وبه نخلص من ورطات المعتزلة والجبرية كليهما، ونثبت للإنسان إرادة مُرَجَّحة، وقدرة مؤثرة في مقدورها، بإقدار الله وتمكينه سبحانه.

وأبرز من وضَّح هذا المذهب ونصره، وأزال عنه غبار الشبهات والاعتراضات، هو: إمام الحرمين الجويني - من كبار أصحاب الأشعري، وشيخ حجة الإسلام الغزالي - وبعده شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، وبعدهما الإمام ابن الوزير اليميني.

بل قالوا: إن الأشعري نفسه ذكر في كتابه (الإبانة) ما يدل على أنه إنما نفى عن قدرة العبد الاستقلال لا أصل التأثير بإذن الله وتمكينه، وحينئذ يكون إمام الحرمين موافقاً لما قاله الأشعري.

وكتاب (الإبانة) هو آخر مصنفات الإمام الأشعري، وهو المعول عليه في المعتقد من بين كتبه، كما دلَّ عليه كلام الحافظ ابن عساكر في كتابه عن الأشعري^(١).

نصوص القرآن تؤيد هذا المذهب:

فالذي يستقرئ النصوص الواردة في هذه القضية يجد:

أولاً: أنَّ القرآن والسنة قد أسندا الأفعال إلى العباد في عشرات ومئات من الآيات والأحاديث، تارة بالاسم العام مثل: (يعملون،

(١) من جملة ما قال عن الإبانة: «وما ذكره في معنى كتاب (الإبانة)، فقول بعيد من أقوال أهل الديانة، كيف يصنف المسلم كتاباً يخلده، وهو لا يقول بصحة ما فيه ولا يعتقده؟! وقوله لا أحسن الله له رعاية: إن أصحاب الأشعري جعلوا الإبانة من الحنابلة وقاية. فمن جملة أقواله الفاسدة، وتقولاته المستبعدة الباردة». تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري لابن عساكر ص ٣٨٨، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٤هـ.

يكسبون، يصنعون) ونحوها، وتارة بأسمائها الخاصة مثل: (يتقون، يعبدون، يؤمنون، يكفرون، يشركون، ينفقون، يجاهدون، يقتلون، يصلحون، يفسدون)، وما إلى ذلك.

والأصل في إسناد الفعل إلى فاعله أن يكون على سبيل الحقيقة لا على المجاز، وبخاصة أن بعض هذه الأفعال يستحيل أن يُسند إلى الله تعالى مثل: الزنى، والسرقه، والإفساد، ونحوها. ومثل: التقوى، والعبادة، والصلاة، ونحوها.

ثانيًا: أن القرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتيب حصول الخيرات في الدنيا والآخرة، وحصول الشرور في الدنيا والآخرة على أعمال العباد، ترتب الجزاء على الشرط، والمعلول على العلة، والمسبب على السبب، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع كما قال ابن القيم^(١)، وذلك مثل ﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩، وعدة مواضع أخرى]. ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥، وعدة مواضع أخرى]. ﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ [الكهف: ١٠٦]، ﴿وَجَزَاءُ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةٌ وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢]، ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

فلولا أن الإنسان هو فاعل الفعل، والمسؤول عنه، ما حاسبه الله عليه ولا آخذه به، وعاقبه عليه، ومن ظن أن الله تعالى يعذب عبده بما لا إرادة له فيه، ولا قدرة له عليه، ولا تأثير له في فعله، بل يُعَذِّبه على فعله هو

(١) الجواب الكافي لابن القيم ص ١٨.

سبحانه، فقد ظنَّ بالله تبارك وتعالى، ظنَّ السوء، وجعل له مثل السوء، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ^(١).

ثالثًا: أن الآيات القرآنية قد أثبتت للإنسان مشيئة وإرادة بها يختار ويرجح، كما أثبتت له قوة واستطاعة بها يفعل ويؤثر، ولكن هذه القوة وتلك المشيئة مستمدتان من قدرة الله تعالى ومشيئته، وليستا مستقلتين عن الله أبدًا.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧]، ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩]. وفي سورة أخرى ذكرت هذه الآية نفسها، ثم أعقبها قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٥، ٥٦]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧ - ٢٩].

فلإنسان - بنص هذه الآيات - مشيئة وإرادة، ولكنها تابعة لمشيئة الله تعالى وإرادته، فهو يشاء أعماله ويريدها؛ لأن الله هو الذي شاء له أن يكون حرًا مريدًا، فمشيئته ليست من ذاته ولا بذاته، ولكنها من الله وبالله.

(١) قال: «ولا نظن به ظن السوء ونجعل له مثل السوء أنه يعاقب عباده على ما لم يفعلوه ولا قدرة لهم على فعله. بل على ما فعله هو دونهم واضطهرهم إليه وجبرهم عليه، وذلك بمنزلة عقوبة الزمن إذا لم يطير إلى السماء، وعقوبة أشل اليد على ترك الكتابة، وعقوبة الأخرس على ترك الكلام». شفاء العليل ص ٥٤.

وكذلك للإنسان قوّة وقدرة، ولكنها ليست من ذاته ولا بذاته، بل من الله وبالله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤]. ولهذا كان من المُجمّع عليه بين المسلمين كافة أن (لا حول ولا قوة إلا بالله).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]، ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

فالإنسان - كما تُصوّره نصوص القرآن والسنة - مخلوق حرٌّ مُريد، له قدرة إيجابية فاعلة، ولكن من الذي خلقه كذلك، وجعله كذلك؟ من الذي وهبه العقل الذي يدبّر، والإرادة التي تُرجّح، والقدرة التي تنفّذ، ولو شاء ما منحه شيئاً من ذلك، ولو شاء لسلبه ما أعطاه؟ إنّه الله.

هذا هو التوازن الذي اتّسمت به عقيدة الإسلام في شأن الإنسان، كما اتّسمت به شريعته وأخلاقه، فليس هو (آلة) تنفعل ولا تفعل، تتأثّر ولا تُؤثّر، كما توهم بعض الناس، وليس هو (إلهًا) يخلق ما يشاء، ويفعل ما يريد بإطلاق، كما ظنّ آخرون، ولكنه (مخلوق) إيجابي فعّال، كرّمه الله، وجعله في الأرض خليفة، واستعمره فيها، ومنحه من الطاقات والمواهب ما يستطيع به السيادة في الكون، والخلافة في الأرض، والعمارة لها، والانتفاع بما سخر الله له، في السماوات وفي الأرض، ولكن كلّ ذرة فيه إنما هي بخلق الله، وكلّ ما يقدر عليه إنما هو بإقدار الله، وكلّ ما يشاؤه ويختاره إنما هو بتمكين الله، وكلّ ما يفعله إنما هو في دائرة سلطان الله، ووفق سننه تعالى التي نصبها في الكون، ورتّب عليها آثارها، وجعل من شأنها العموم والثبات، فلا تحابي ولا تبدّل، فلن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

هذا ما تصوّره النصوص المُحكّمة، وهو ما يحسّه الإنسان من نفسه، وما يشهده في غيره.

أمثلة مما قاله هؤلاء الأئمة:

يقول إمام الحرمين في كتابه: (النظامية): (قد تقرّر عند كل حازٍ بعقله، مترقٍ عن مراتب التقليد في قواعد التوحيد: أن الرب ﷻ مطالب عباده بأعمالهم في حياتهم، وداعيهم إليها، ومُثيهم ومُعاقبهم عليها في مآلهم، ومبيّن بالنصوص التي لا تتعرض بالتأويلات: أنه أقدرهم على الوفاء بما طالبهم، ومكّنهم من التوصل إلى امتثال الأمر، والانكفاف عن مواقع الزجر، ولو ذهبوا أتوا الآي المتضمّنة لهذه المعاني لطلال المرام، ولا حاجة إلى ذلك، مع قطع اللبيب المنصف به.

ومن نظر في كليات الشرائع، وما فيها من الاستحثاث والزواج عن الفواحش الموبقات، وما نيط ببعضها من الحدود والعقوبات، ثم تلفت على الوعد والوعيد، وما يجب عقده من تصديق المرسلين في الإنباء عما يتوجّه على المردة العتاة، من الحساب والعقاب، وسوء المنقلب والمآب، وقول الله لهم: لم تعدّيتم وعصيتم وأبيتتم، وقد أرخيت لكم الطّول^(١)، وفسحت لكم المَهْل، وأرسلت الرسل، وأوضحت المحجّة، ﴿لئلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]؟ فمن أحاط بذلك كلّ، ثم استراب في أن أفعال العباد واقعة على حسب إيثارهم واختيارهم واقتدارهم، فهو مصاب في عقله، أو مستقر على تقليده، مصمّم على جهله^(٢)!

(١) الطّول والطّيل: الحبل الطويل يشد أحد طرفيه في وتد أو غيره والطرف الآخر في يد الفرس ليدور فيه ويرعى ولا يذهب لوجهه. لسان العرب مادة (ط. و. ل).

(٢) انظر: العقيدة النظامية ص ٤٢، ٤٣، نشر المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «اعلم أن العبد فاعل على الحقيقة، وله مشيئة ثابتة، وله إرادة جازمة، وقوة سالحة، وقد نطق القرآن بإثبات مشيئة العباد في غير ما آية كقوله: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿[التكوير: ٢٨، ٢٩]، ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩]، ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النَّفْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿[المدثر: ٥٥، ٥٦].

ونطق بإثبات فعله في عامة آيات القرآن: «يعملون، يفعلون، يؤمنون، يكفرون، يتفكرون، يحافظون، يتقون»^(١).

وقال في مقام آخر: «مَنْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْعِبَادَ بِمَا يَعْجِزُونَ عَنْهُ إِذَا أَرَادَهُ إِرَادَةً جَازِمَةً، فَقَدْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَهُوَ مِنَ الْمَفْتَرِينَ، الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاهُكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

قال أبو قلابة: هذا لكل مفترٍ من هذه الأمة إلى يوم القيامة.

لكن مع ذلك يجب أن نعلم أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن»^(٢).

وقال المحقق ابن القيم: «العبد بجملته مخلوق لله تعالى، جسمه وروحه، وصفاته وأفعاله وأحواله، فهو مخلوق من جميع الوجوه، وخُلِقَ عَلَى نَشْأَةٍ وَصِفَةٍ يَتِمَكَّنُ بِهَا مِنْ إِحْدَاثِ إِرَادَتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَتِلْكَ النَّشْأَةُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَتَكْوِينِهِ، فَهُوَ الَّذِي خَلَقَهُ وَكَوَّنَهُ كَذَلِكَ، وَهُوَ لَمْ يَجْعَلْ نَفْسَهُ كَذَلِكَ، بَلْ خَالَقَهُ وَبَارَأَهُ جَعَلَهُ مُحَدِّثًا لِإِرَادَتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَبِذَلِكَ أَمْرُهُ وَنَهَايُهُ، وَأَقَامَ عَلَيْهِ

(١) مجموع الفتاوى (٣٩٣/٨).

(٢) المصدر السابق (٤٤٠/٨).

حُجَّتُهُ، وعرضه للشواب والعقاب، فأمره بما هو متمكّن من تركه، ورَتَّبَ ثوابه وعقابه، على هذه الأفعال والتروك التي مكّنه منها، وأقدره عليها وناطها به، وفطر خلقه على مدحه وذمّه عليها: مؤمنهم وكافرهم، المقر منهم بالشرائع والجاحد لها. فكان مريدًا شائيًا بمشيئة الله له، ولولا مشيئة الله أن يكون شائيًا لكان أعجز وأضعف من أن يجعل نفسه شائيًا، فالربُّ سبحانه أعطاه مشيئة وقدرة وإرادة، وعرفه ما ينفعه وما يضره، وأمره أن يُجري مشيئته وإرادته وقدرته في الطريق التي يصل بها إلى غاية صلاحه»^(١).

من شبهات الجبريين: سبق العلم الإلهي:

يقول الجبريون: إن سبق العلم الإلهي بوقوع الفعل من الإنسان أو بعدمه ينفي اختياره فيه، فإذا علم الله أن زيدًا من الناس سيشرب الخمر؛ كان شربه واقعًا لا محالة، وعدم شربه ممتنعًا قطعًا، وإلا لانقلب العلم القديم جهلاً.

وهذه الشبهة باطلة من وجوه:

أولها: أن الله يعلم الأمور على ما هي عليه، فهو يعلم أن فلانًا سيقترف هذا الإثم بإرادته واختياره، فهو يقع حسب ما علم.

الثاني: أن العلم صفة كاشفة فقط، وليست موجبة مؤثّرة، إنما المُوَجِّب المؤثّر هو مشيئة الله تعالى وقدرته، والعلم إنما يكشف حقائق المعلومات. فهو أشبه بالمرآة التي تعكس حقيقة الشيء، كما هو، ولا تُنشئه.

الثالث: أن سبق العلم بوقوع الفعل أو عدمه، لو كان يقتضي الجبر، لكان الله جلّ شأنه مجبورًا على أفعاله، ولم تكن مقدورة لله؛ لأنها كلّها

(١) شفاء العليل لابن القيم ص ١٣٧، ١٣٨.

مما سبق به العلم. والنصوص القطعية والبراهين العقلية والإجماع: على أنه تعالى مختار في أفعاله كلها.

ولقد ذكرتُ وأنا أدرس موضوع القدر لطلابي مثلاً موضعاً لهذه الفكرة: وهو ما إذا كان أستاذ يدرس لتلاميذه، وهو يعرفهم معرفة جيدة، فكتب في مفكرته الخاصة ملاحظة أمام اسم كل واحد منهم، فزيد سيأخذ درجة ممتاز، وعمرو درجة جيد جداً، وبكر درجة مقبول، وخالد راسب. ثم في آخر السنة بعد الامتحانات بالفعل، كان ما أخذه كل واحد منهم من الدرجات وفقاً لما كتبه الأستاذ في مفكرته، فهل من حق هؤلاء الطلاب - إذا علموا بما كتبه أستاذهم في مفكرته - أن يقولوا له: أنت كتبتَ عندك مقدماً مفكرةً أو تقريراً بتقديرانا؟ لأن ما كتبه الأستاذ إنما كتبه لنفسه، وهو لا يؤثر في طلبته شيئاً، إنما يعبر عن صدق علمه أو كذبه.

شبهات أخرى للجبريين:

ومن أدلة الذين يميلون إلى الجبر أو شبهاتهم التي يشوشون بها: أنهم يقولون: إذا كان للإنسان إرادة ومشية في أعماله الاختيارية، فما علاقتها بإرادة الله ومشيته؟

أَيكون للإنسان مشية دون مشية الله؟ أي مستقلة عنها.

أم يكون للإنسان مشية فوق مشية الله؟ أي غالبية عليها.

أم يكون للإنسان مشية مع مشية الله؟ أي شريكة لها.

فإن ادّعيتُم أن له مشية دون مشية الله، فقد اكتفى بها عن مشية الله، واستغنى عن الله.

وإن زعمتم أن له مشيئة فوق مشيئة الله، فقد جعلتم مشيئة المخلوق غالبة على مشيئة الخالق.

وإن قلتم: إن له مشيئة مع مشيئة الله، فقد جعلتم مع الله شريكاً في مشيئته.

فاختاروا لكم إحدى هذه الثلاث: إما الاستغناء عن الله، أو الغلبة على الله، أو الشرك مع الله!

وجوابنا: أننا لا نختار أحد هذه الأقسام الثلاثة، بل نختار قِسْماً آخر لم تذكروه. وهو: أن للإنسان مشيئةً بمشيئة الله، كما أن له قدرةً بإقدار الله. وهذا الذي نقوله هو الذي يشهد به الحسُّ والواقع، كما أنه الذي جاءت به النصوص المُحْكَمَات. فالإنسان يحسُّ من نفسه في أعماله الاختيارية أنه يريد ما وينويها، وهو يفكر فيها أولاً، ويزن نتائجها بعقله، ثم يعزم أن يفعل أو يترك، فإذا صمَّم على الفعل أقدم طائعاً مختاراً، وإلا أعرض وغير وجهته.

ومع هذا يحس أحياناً بتحول فجائي في نفسه عن شيء كان يرغب فيه، فيفسخ عزمته، ويحوّل وجهته، أو يتّجه فجأة إلى شيء كان راغباً عنه، نافراً منه، فإذا هو طالب له، ساعٍ إليه، وحريص عليه!

ويقول الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ۖ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۖ هُوَ أَهْلُ النَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ ۖ﴾ [المدثر: ٥٤ - ٥٦]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۖ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۖ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۖ﴾ [التكوير: ٢٧ - ٢٩].

فقد أثبتت هذه الآيات الكريمة للإنسان مشيئة خاصة، ولكنها مستمدة من مشيئة الله، فالإنسان بنص هذه الآيات يشاء بمشيئة الله، أو

هو يريد؛ لأن الله أراد له أن يريد، فلإنسان مشيئة ليست مستقلة عن مشيئة الله، ولا فوقها، ولا معها، إنها مشيئة بالله، ومن الله.

وفرق كبير بين هذه المشيئة الإنسانية وبين مشيئة الله تعالى.

هذه مشيئة مخلوقة، وتلك مشيئة خالقة، هذه مشيئة تابعة، وتلك مشيئة مستقلة، هذه مشيئة محدودة، وتلك مشيئة مطلقة، هذه مشيئة ناقصة، وتلك مشيئة كاملة.

مشيئة الإنسان تحدُّها قدرته المقيّدة، وطاقته القاصرة، فكم من أشياء يريدّها ويسعى إليها، ولا تتحقّق، وكم من أشياء يريدّها، فلا يتحقّق إلا نقيضها، وكم من أشياء يكرهها، تحلُّ به رغم إرادته، وكم من أشياء يحبّها، تأتي إليه سعيًا دون جهد منه أو محاولة.

وهذا ما جعل بعض الناس يؤمنون بشيء يسمونه (الحظ) أو (البخت) أو (الجَدّ) كقول بعضهم:

إذا الجَدّ لم يك لي مُسعدًا فما حركاتي إلا سكون
إذا لم يكن ما يريد الفتى على رغمه فليُرد ما يكون^(١)

وقول الآخر:

أريد فلا أعطى، وأعطى ولم أُرِد ويقصر علمي أن ينال المغيَّب^(٢)

أما مشيئة الله تعالى فلا يحدها شيء، ولا يحول دونها حائل، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

(١) البيتان لصفي الدين الحلبي، كما في ديوانه ص ٦٦٨، نشر دار صادر، بيروت.

(٢) البيت لبشار بن برد، كما في الأغاني (١٥٨/٣)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ.

ويحتج بعض المجبرة بما يروى عن الإمام علي رضي الله عنه ، وقد سألهم أحدهم عن القدر، فقال علي: إني سئلك عن ثلاث، ولن يجعل الله لك ولمن أنكر المشيئة مخرجًا، أخبرني: أخلقك الله ^{وَجَلَّ} كما شاء أو كما شئت؟ قال: بل كما شاء.

قال علي: أفتجيء يوم القيامة كما شاء أو كما شئت؟ قال: بل كما شاء.

قال علي: أخلقك لما شاء أو لما شئت؟ قال الرجل: لا، بل لما شاء. قال علي: فليس لك من المشيئة شيء^(١).

وعلى الرغم من عدم صحة هذه الرواية - ففي إسنادها كذاب - فليس فيها دليل لدعاة الجبر، فإن الله قد خلق الإنسان كما يشاء، لما يشاء، وسيبعثه يوم القيامة كما يشاء، ولكن مما لا ريب فيه أن الذي خلق الإنسان كما شاء، قد أعلمنا في كتابه أنه شاء له أن يكون كائنًا ذا إرادة، وقد خلقه لما يشاء من عبادته وخلافته في الأرض، وليبتليه بالخير والشر، وبهذا نرى أن هذه الكلمات «خلق الله الإنسان كما يشاء لما يشاء» ليست حجة للجبريين؛ بل هي أساس لإثبات مسؤولية الإنسان الثابتة بمشيئة الله قطعًا.

قدرة الإنسان وقدرة الله:

وما حدث من خلاف في إرادة الإنسان ومشيئته، وعلاقتها بالمشيئة الإلهية، حدث مثله في قدرة الإنسان وصلتها بالقدرة الإلهية، وأثرها في أفعال الإنسان.

(١) رواه الآجري في الشريعة (٤٢٢)، وفيه: عبد الملك بن هارون بن عنترة، كذاب. انظر: لسان الميزان (٢٧٦/٥).

هل تُعدّ قدرة الإنسان مؤثّرة في وجود فعله أم لا؟

يقف الكثيرون حيارى بين طرفي السؤال: فإن قيل بالتأثير، لزم الشرك بإثبات قدرة مع قدرة الله، وإن سلّينا التأثير عن قدرة العبد، لزم من ذلك أن يكون مجبوراً غير مختار، فكيف توجّه إليه الأمر والنهي، والوعد والوعيد، وترتّب عليه الثواب والعقاب، وقامت سوق الجنة والنار؟

والمخرج من هذا أنا لا نقول ما قاله المعتزلة من إثبات قدرة تنفرد بالتأثير والاختراع، وتستبدّ بالخلق والابتداع، فيلزم من هذا نوع من تأليه الإنسان، وتقييد سلطان الألوهية.

كما لا نقول بإثبات نوع من المشاركة والمعاونة في صفة من صفات الفعل أو في وجه من وجوهه، كما قال بعض علماء الكلام من أهل السنة أنفسهم، فإنه لولون من إشراك المخلوق مع الخالق في التأثير، وإن كان دون الإشراك الأول.

وإنما نقول: إنّ خروج الفعل من العدم إلى الوجود كان بخلق الله بواسطة القدرة المخلوقة التي أودعها سبحانه في عبده، بمعنى أن القدرة المخلوقة هي سبب وواسطة في خلق الله تعالى الفعل لها، كما خلق جميع المُسبّبات والمخلوقات بوسائط وأسباب.

وليس إضافة التأثير بهذا التفسير إلى قدرة العبد شركاً، وإلا كان إثبات جميع الأسباب شركاً، وقد قال الحكيم الخبير يصف السحاب: ﴿فَأَنْزَلْنَاهُ أَمْمَاءً فَخَرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]. ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠]، وقال: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]. فبيّن أنه ساق السحاب بالرياح، وأنبت النبات بالماء، كما بيّن أنه المعذّب للكافرين، وأنّ أيدينا أسباب وآلات ووسائط وأدوات في وصول العذاب إليهم.

نحن لا نقول بإثبات قدرة للإنسان المخلوق فوق الله، ولا دون الله، ولا مع الله، بل نقول: بإثبات قدرة له من الله وبالله.

وبهذه القدرة يفعل ويترك، ويأخذ ويعطي، ويؤمن أو يكفر، ويتقي أو يفجر، ولهذا كان المجمع عليه أنه: (لا حول ولا قوة إلا بالله). فلإنسان حول وله قوة، ولكن حوله ليس من نفسه، وقوته ليست بذاته، وإنما حوله وقوته بالله.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [الكهف: ٣٩]، وقال جلَّ شأنه: ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧].

ولا شك أن هذه القدرة المودعة في الإنسان نعمة عظيمة، والنعمة كلها من الله إيجاباً وإمداداً، ﴿ وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

هذا هو الإنسان، حرٌّ مختار مريد ذو قُوَّةٍ إيجابية فاعلة، ولكن من الذي خلقه كذلك؟ وجعله كذلك؟ من الذي وهبه العقل الذي يدبر، والإرادة التي ترجح، والقدرة التي تنفذ؟ إنه هو الله.

فلا تعارض إذن بين الاعتقاد بفاعلية الإنسان وإيجابيته والاعتقاد بالفاعلية الشاملة لله جلَّ شأنه؛ لأن فاعلية الإنسان ليست إلا أثراً لفاعلية الله الواحد القهار. وهذا هو الذي نصَّ عليه أئمة أهل السنة بصريح العبارة.

فهذا إمام الحرمين في كتابه (النظامية) ينكر على من قال: لا أثر لقدرة الإنسان في مقدوره أصلاً؛ لأن هذا القول إبطال للشرع، وتكذيب لما جاء به المرسلون، إذ لم يبق - بناء على هذا القول - متعلق لتكليف العباد.

ولم يرتضِ إمام الحرمين جواب مَنْ قال: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. فإن هذا الجواب ليس له حاصل، وكلمة حق أريد بها باطل، فإن الله تعالى طالب عباده بما أخبر أنهم ممكنون من الوفاء به، فلم يكلفهم إلا على مبلغ الوُسْع والطاقة، كما أنكر أن يكون وقوع الفعل شركة بين القدرة الإنسانية الحادثة، والقدرة الإلهية القديمة، فإن الفعل الواحد يستحيل حدوثه بقادريْن، إذ الواحد لا ينقسم، فإما أن يقع بقدرة الله فتستقلُّ به، ويسقط أثر القدرة الحادثة، أو العكس.

ويستحيل أن يقع بعضه بقدرة الله تعالى، فإنَّ الفعل الواحد لا بعض له، وكذلك يمتنع القول بأنَّ العبد خالق أعماله، فإنَّ فيه الخروج عما درج عليه سلف الأمة واقتحام دركات الضلال (بدعوى الاستغناء والاستقلال عن الله تعالى).

قال: «وهذه مهواة، لا يسلم من غوائلها إلا مُرشد موفّق، إذ المرء بين أن يدّعي الاستبداد - أي كما هو قول المعتزلة - وبين أن يُخرِج نفسه عن كونه مطالبًا بالشرائع، وفيه إبطال دعوة المرسلين - أي كما هو قول الجبرية - وبين أن يثبت نفسه شريكًا لله، في إيجاد الفعل الواحد - أي كما هو قول بعض متكلمي أهل السنة - وهذه الأقسام بجملتها باطلة».

قال: «ولا يُنْجِي من هذا الملتطم ذكر اسم محض، ولقب مجرّد، من غير تحصيل معنى - أي كقول الأشعري بالكسب - وذلك أن قائلًا لو قال: العبد يكتسب، وأثر قدرته الاكتساب، والرب سبحانه خالق لما العبد مكتسب له. قيل له: ما الكسب؟ وما معناه؟ وأدبرت الأقسام المتقدمة على هذا القائل، فلا يجد عنها مهربًا»^(١).

(١) العقيدة النظامية ص ٤٤، ٤٥.

يريد بالأقسام المتقدمة: أن يكون للكسب الأثر في إيجاد الفعل مستقلاً عن قدرة الله، أو شركة بينهما، أو يستقل ببعض الفعل، أو لا يكون لهذا الكسب أثر في إيجاد الفعل أصلاً، وكلها باطلة.

ولهذا لزم القول بأنَّ للإنسان قدرةً حادثةً مؤثرةً في مقدورها، ولكن كيف يتفق هذا مع الاعتقاد بشمول قدرته ومشيئته تعالى لكل شيء، ومع جواز إضافة الأفعال إليه تعالى؟

إنَّ إمام الحرمين يوضح ذلك فيقول: «قدرة العبد مخلوقة لله تعالى باتفاق القائلين بالصانع، والفعل المقدور بالقدرة الحادثة واقع بها قطعاً، ولكنه يضاف إلى الله سبحانه تقديرًا وخلقاً، فإنه وقع بفعل الله، وهو القدرة، فعلاً للعبد، وإنما هي صفته، وهي ملك لله، وخلقٌ له، فإذا كان موقع الفعل خلقاً لله، فالواقع به مضافٌ خلقاً إلى الله تعالى وتقديرًا، وقد ملك الله العبد اختياراً يصرف به القدرة، فإذا أوقع بالقدرة شيئاً، آل الواقع إلى حكم الله، من حيث إنه وقع بفعل الله.

ولو اهتمت إلى هذا الفرقة الضالة - يعني: المعتزلة - لم يكن بيننا وبينهم خلاف، ولكنهم ادَّعوا استبداداً بالاختراع، وانفراداً بالخلق والإبداع، فضلوا وأضلوا»^(١) انتهى كلام إمام الحرمين.

فإضافة الأفعال إليه تعالى إضافة صحيحة؛ لأنه شاءها وقدرها، بل خلقها، من حيث إنها نتيجة ما انفرد بخلقها تعالى، وهو القدرة، ولو لم يُرد وقوع مقدورها لما أقدره عليه، ولما هيأ له أسباب وقوعه، ومن هُدي إلى هذا استضاء له الحق المبين.

(١) العقيدة النظامية ص ٤٦ - ٤٨.

قال ابن القيم: «ولا تظن به تعالى، ظنَّ السَّوء، وتجعل له مثل السَّوء: أنه مُعاقِبٌ عباده على ما لم يفعلوه، ولا قدرة لهم على فعله، بل على ما فعله هو دونهم واضطرهم إليه، وجبرهم عليه، وذلك بمنزلة عقوبة الزَّمن (المُتَّعِد) إذا لم يَطر إلى السماء، وعقوبة أشلَّ اليد على ترك الكتابة، وعقوبة الأخرس على ترك الكلام»^(١)!

شيوع عقيدة الجبر:

ظلَّ المسلمون في العهد النبوي وعهد الصحابة وتابعيهم بإحسان على إيمانهم النقي الفطري بِقَدَرِ الله تعالى، الذي تلقَّوه من صريح القرآن، ومن هدي النبوة، والذي لا ينافي عندهم أبدًا مسؤولية الإنسان عن أعماله الاختيارية، بناء على إرادته لها، وقدرته عليها، وكسبه أو اكتسابه لها، حتى دخلت على المسلمين أفكار وثقافات جاهلية، تسرَّبت إليهم من أمم أخرى، ذات أديان محرَّفة، أو نحل وفلسفات بشرية قاصرة، فكدرت عليهم صفاء عقيدتهم، ولوَّثت مجرى الإيمان النقي المتوازن، بأدرانها وأدناسها، وإفراطها أو تفريطها.

لهذا يقال: إنَّ أول مَنْ ابتدع الكلام في القدر والجدال فيه: رجل من المجوس، سماه بعضهم (سيسويه) أو (سوس)، وعنه تلقَّى مَعْبِدُ الجُهَنِيِّ في البصرة، وعن معبد أخذ غِيلَانُ الدمشقي^(٢).

(١) شفاء العليل لابن القيم ص ٥٤.

(٢) غيلان بن مسلم الدمشقي، كاتب من البلغاء، تنسب إليه فرقة (الغيلانية) من القدرية، وهو ثاني من تكلم في القدر ودعا إليه، لم يسبقه سوى معبد الجهنِّي، وكان يقول بالقدر خيره وشره من العبد، (ت: ١٠٥هـ). الأعلام للزركلي (١٢٤/٥)، نشر دار العلم للملايين، ط ٥، ٢٠٠٢م.



ويقال أيضاً: إِنَّ أول ما حدث الكلام في القدر في الحجاز، كان حينما احترقت الكعبة في عهد الأمويين، فقال رجل: احترقت بقدر الله تعالى! فردّ عليه آخر قائلاً: لم يقدر الله هذا!

واختلاف الناس في مثل الأحداث الكبيرة وارد، ونزاعهم في تعليلها وراد أيضاً، وليس من الضروري أن يكون ذلك من فعل السياسة، فالميل إلى (الفكرة الجبرية) موجود في كثير من الناس، وليس من خلق السياسة وابتداعها حتمًا، كما ذهب إلى ذلك بعض من كتبوا في القدر.

ولكن سياسة الاستبداد والطغيان من شأنها أن تُروّج القول بعقيدة (الجبر)، وتُشيعها قاصدة أو غير قاصدة.

أما قاصدة، فلأن العقيدة (الجبرية) تُشيع في الناس الاستسلام للأمر الواقع، والخضوع لما هو كائن بالفعل، دون محاولة للتغيير، أو عزيمة على المقاومة، فإنما يغيّر ويقاوم مَنْ يرى لنفسه إرادة وقدرة، أما مَنْ يرى نفسه مجرد ريشة في مهبّ رياح الأقدار، فمن أين له إرادة لمقاومة الفساد، أو التغيير للمنكر، أو الأخذ على يد الظالم؟ إنه يقول: إِنَّ الله يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ يَشَاءُ، وَيَنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ، فلا تعترض على مشيئة مالك الملك. وينشد قول الشاعر:

ملكُ الملوك إذا وهبَ لا تسألنَّ عن السببِ
الله يعطي مَنْ يشا ء فقِفْ على حدِّ الأدبِ
وهو كلام حقّ أريد به باطل.

وشيوع مثل هذه الأفكار في مجتمع ما، يخدم - ولا شك - السلطان القائم، ويطوّع له الشعوب، ويُسلّس قيادها له، بدون حاجة إلى استعمال القوة والعنف، فهذا هو قدرها، وهذا هو نصيبها! فلا غرو أن يروج هذه الفكرة أو العقيدة أئمة الجور، وسلاطين الاستبداد، وأصحاب الملك العضوض، والملك الجبري، لما وراءها من إفادة لهم.

وأما غير قاصدة، فلأن تسلّط الحكم المستبد على الرقاب، وتحكّمه في الدماء والأموال والأعراض والحرّمات، وسكوت الألسنة عن المعارضة، وعجز الأيدي عن المقاومة، يخلق لدى الجماهير، رُوحاً انهزامية، وفلسفة تشاؤمية، تبرر هذا الاستسلام والعجز والانهزام و(اللامبالاة).

والعقيدة الجبرية تمثّل هذه الفلسفة المتقاعسة، وتُغذّي هذه الروح الانهزامية، وتبرّر هذا النكوص، وتغلّفه بغلاف ديني، فيهرب بعض الناس من المسؤولية - مسؤولية الإصلاح والتغيير وجهاد الظلم والمنكر - ويحمل وزر الأمور كلّها على كاهل القدر، فإذا رأوا الأموال تُصادر ظلماً، قالوا: هذا قضاء الله. وإذا رأوا الدماء تُسفك حراماً، قالوا: هذا قدر الله. وإذا وجدوا الحياة كلّها تسير في طريق الشيطان، قالوا: إرادة الله، أقام العباد فيما أراد.

وبهذا العجز والكسل والجبن والهرب، يُريح الناس أنفسهم من تحمّل التبعة، مفتين أنفسهم بأنهم ليس لهم من الأمر شيء، ناسين قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]. وقول الرسول ﷺ:

«إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ، وَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعْتَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ»^(١).

وعلى أهل العلم والدعوة ورجال الثقافة والتربية، أن يقاوموا شيوع العقيدة الجبرية في أوساط المسلمين، فهي عقيدة مدمرة، تقتل رُوح الإبداع، وروح المغامرة، وتُنشئ في الإنسان الرضا بواقعه الأدنى، دون طموح إلى المثل الأعلى.

وعلى الجميع أن يشيعوا بدل عقيدة الجبر: العقيدة الصحيحة، التي تؤمن بالقدر، وتؤمن في الوقت ذاته بمسؤولية الإنسان عن نفسه، وعن المجتمع من حوله، فهذا هو مقتضى التكليف، واستخلاف الإنسان في الأرض، وإنزال الكتب، وبعث الرسل، ورصد الثواب والعقاب، وقيام سوق الجنة والنار.

وعلى الجميع أن يرفضوا (كلَّ الجبريات) المختلفة، من (جبرية سياسية) تؤمن بأن (الدنيا لعبة إسرائيل)، وترى (العالم أحجّاراً على رقعة الشطرنج)، وأن هناك حكومة خفية، تحرك العالم من وراء ستار.

ومن (جبرية اجتماعية) ترى الفرد (دُمّية) يحرك خيوطها المجتمع، الذي يصنع للفرد أفكاره، وميوله وتوجّهاته، التي تخطّط له حاضره ومستقبله، كما هي فلسفة (دور كايم)، ومن وافقه من الاجتماعيين^(٢).

(١) رواه أحمد (١)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود في الملاحم (٤٣٣٨)، والترمذي في الفتن (٣٠٥٧)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٥)، وصحّحه الألباني في الصحيحة (١٥٦٤)، عن أبي بكر الصديق.

(٢) انظر: الدين لدرّاز ص ١٥٠ وما بعدها.

يجب أن نرفض الجبريات كلّها، لنعلن أن الإنسان مخلوق حرّ
مختار، مكلف مسؤول، وليس ريشة في مهبّ الهواء، وأنه لا ينفعه في
الدنيا إلا عمله، ولا في الآخرة إلا أن يسعى لها سعيها وهو مؤمن،
﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ
الْأَوْفَى﴾ [النجم: ٣٩ - ٤١].

* * *

منشأ الإفراط والتفريط في القدر

ومعظم الانحراف والفساد من الإفراط والتفريط الذي دخل على عقائد الفرق المختلفة في مسألة القضاء والقدر، أو الجبر والاختيار، إنما جاء من عوامل أربعة، هذه العوامل هي:

أولاً: ضيق النظر إلى صفات الألوهية:

أول دلائل الإفراط والتفريط يتمثل في ضيق النظر إلى صفات الله ﷻ، فالجبرية نظروا إلى شمول مشيئة الله تعالى، وعموم قدرته، وعظيم ملكه، وكمال ربوبيته، وهيمنته على كل ما في الوجود، وأنه تعالى رب كل شيء ومليكه، وخالق كل شيء، ومُقدّر كل شيء، ومُدبّر كل شيء، فلا ربّ غيره، ولا خالق سواه.

ومن هنا عظموا الله أن يقع في ملكه شيء بغير مشيئته المباشرة، وقدرته المباشرة، فكل ما يفعله العباد إنما هو فعل الله في الحقيقة، وإن نسب إلى العباد مجازاً. ولكنهم أغفلوا جانباً هاماً من صفات الألوهية، وهو جانب العدل الكامل، والحكمة البالغة، والرحمة الواسعة، التي وصف الله بها نفسه، إذ كيف يكلف عباده بما يفعله هو، لا بما يفعلون هم؟ وكيف يلومهم ويوبّخهم على ما ليس من عملهم، وكيف يدخلهم النار خالدين فيها أبداً، وهم ليسوا إلا آلات في يد القدر؟ إنهم يكونون حينئذ كما قال الشاعر:

ألقاه في اليمّ مكتوفاً، وقال له إياك إياك أن تبطلّ بالماء^(١)

(١) البيت منسوب إلى الحسين بن منصور الحلاج، كما في وفيات الأعيان لابن خلكان (١٤٣/٢)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت.

والمعتزلة: نظروا إلى الجانب الذي أغفله الجبرية من صفات الله تعالى، وأنه سبحانه حكّم عدل، ولا يظلم أحداً، ولا يعاقبه على ما لم يعمل، كما أنه حكيم لا يأمر ولا ينهى عبثاً، ويستحيل أن يكون الله هو خالق العمل، والإنسان هو حامل وزره، ومستحق العقاب عليه، كما أنّ هذه المعاصي والشرور التي تصدر عن العباد، لا يمكن أن تكون من الله وبإرادته؛ لأنه أعدل وأحكم وأرحم من أن يريد القبائح والشرور ويقدرها.

ظنّ المعتزلة أنهم إذا أثبتوا مشيئة عامّة، وقدرة تامّة، وخلقاً متناولاً لكلّ شيء، لزم من ذلك القدر في عدل الله تعالى وحكمته، فعندهم أن العبد هو المُحدث الخالق للطاعة وللمعصية، والله تعالى ما خلق هذه ولا تلك، ولا أراد هذه ولا تلك.

وليس عندهم لله نعمة على عباده المؤمنين في الدنيا، وإلا وقد أنعم بمثلها على الكفار، فأبو بكر وأبو لهب، وعمر وأبو جهل، مستوون في نعمة الله الدينيّة، إذ كلّ منهم أرسل الله إليه الرسول، ومكّنه من الفعل، لكن هذا فعّل الإيمان بنفسه من غير شيء خصّه الله به، وذلك فعّل بنفسه الكفر من غير شيء حُرّم منه، والله حبّب الإيمان إلى هذا وهذا، وكرّه الكفر والفسوق والعصيان إلى هذا وهذا، ولكن المؤمنين كرهوا ما كرّه الله إليهم، بغير نعمة خصّهم بها، والآخرون لم يكرهوا ما كرّه الله إليهم. وبهذا نزّهوا الله في جانب، وأغفلوا الجانب الآخر الذي نظر إليه دعاة الجبر ومن قاربهم، من عموم المشيئة والقدرة والخلق.

فالجبرية: نظروا إلى الصفات التي بها كمال ملك الله، والمعتزلة: نظروا إلى الصفات التي بها تمام حمد الله.

والحقيقة أنه تعالى له الملك وله الحمد، كما نطق كتابه الكريم:
﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾
[التغابن: ١].

ثانيًا: ضيق النظر إلى الإنسان نفسه:

وثاني الأسباب والدلائل على الإفراط والتفريط هي ضيق النظر إلى
الإنسان نفسه: هل هو فاعل أو منفعل أو هما جميعًا؟
وهذا العامل مُترتب على العامل الأول. ذلك أن في الموجودات
نوعين ظاهرين:

أ - فاعل لا يفعل أبدًا، وهو الله تعالى.

ب - منفعل لا يفعل أبدًا، وهو الجمادات والآلات وما في معناها.

فإلى أي النوعين يُنسب الإنسان؟

أما الذين سيطر على تفكيرهم ومشاعرهم عدلُ الله تعالى وحكمته
ورحمته، وتنزيهه عن الظلم والسفه والعبث - وهم المعتزلة ويسمّون
(القدرية) - فنظروا إلى الإنسان باعتباره فاعلاً محضاً، غير منفعل في
فعله. وقالوا: إنه هو خالق أفعال نفسه، بمحض إرادته وقدرته، مستقلاً
عن إرادة الله وقدرته. فكانهم خلعوا على الإنسان شيئاً من صفات
الألوهية، فهو يفعل وحده ما يريد، وإن لم يُرده الله، وهو يعصي الله
برغم مشيئة الله، وهو الذي يهدي نفسه أو يضلّها إن شاء.

وأما الذين سيطر على تفكيرهم ومشاعرهم عظمة ملك الله، ونفوذ
مشيئته، وعموم قدرته، فلم يشهدوا في الإنسان إلا مخلوقاً منفعلاً غير
فاعل أصلاً، تجري عليه الأحكام والأفعال، كما تجري على الآلات،

وجعلوا حركته بمنزلة حركات الأشجار، ولم يجعلوه فاعلاً إلا على سبيل المجاز، ف (قام وقعد، وأكل وشرب، وصلى وصام) عندهم بمنزلة (مَرَضَ وأَلِمَ ومات) ونحو ذلك ممّا هو فيه منفعل محض.

وكلا الفريقين نظر إلى المسألة بعين عوراء - كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ - ولم يعطِ الأمر حقّه^(١).

وأساس هذا النظر الجزئي أو الجانبي للألوهية أو للإنسان: هو التصورات الدخيلة التي غزت أفكار المسلمين من بيئات دينية، أو فلسفية أخرى، ما بين معظم للإنسان حتى يكاد يجعله إلهاً، وما بين محقّر لشأنه حتى يكاد يتصوره جماداً.

والذين وفّقهم الله إلى الاعتدال من أهل العلم والسنة، أعطوا كلا الأمرين حقّه، ولم يبطلوا أحدهما بالآخر، ونظروا إلى الإنسان باعتباره فاعلاً منفعلاً. هو فاعل على الحقيقة، وذو قدرة مؤثّرة، وإرادة مرجّحة، ولكنه في هذه الفاعليّة منفعل للفاعل، الذي لا ينفعل بوجه من الوجوه، وهو الله الواحد القهار. فهو فاعل؛ لأنّ الله خلقه فاعلاً، وهو مريد؛ لأنّ الله تعالى أراد له أن يكون مريداً، وجعله مريداً مختاراً.

ثالثاً: تفريق النصوص:

وثالث الأسباب هنا هو: تفريق النصوص، أعني تفريق النصوص في القضية الواحدة، أو أخذ بعضها دون بعض، أو ضرب بعضها ببعض: فكلّ صاحب مذهب أو فكرة يُكوّن مذهباً أو فكرته نتيجة التقليد، أو التأثير، أو التفكير الخاص، ثم يحاول أن يجزّ النصوص لتؤكّد فكرته،

(١) شفاء العليل ص ١٣٤.

وتنصر ما ذهب إليه، فإذا وجد نصوصاً أخرى تعارضه، وتنقض دعوته، أو لا تتفق معها، ردّ هذه النصوص إن استطاع، أو اعتسف تأويلها، وأخرجها عما يفهمه المعتدل منها.

والسائر في هذا الدرب إنما يتبع سنن أهل الكتاب، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، فيما نعه الله عليهم، وقرّعهم عليه أشدّ التقريع، وذلك أنهم آمنوا بما وافق أهواءهم من الكتاب، وكفروا بما خالفها، أو حرّفوه وبدّلوا معناه.

وفي ذلك جاء القرآن الكريم مخاطباً لهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]، كما قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦].

المعتزلة مثلاً يستدلون لمذهبهم بإنكار الله على المشركين قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ويقولون: إن إنكاره عليهم قولهم يدلُّ على أنه تعالى لم يشأ منهم الشرك. ولو أنصفوا لوجدوا الآيات الأخرى في نفس السورة (الأنعام) تقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]. والجبرية يستدلون لمذهبهم بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، فيقولون: قد نطق القرآن بأن أعمال الإنسان - حسنات كانت أو سيئات - من عند الله: وليست من عند الإنسان. وهذا هو مذهبنا.

ويغفلون أن الحسنه والسيئة في الآية ليست هي الطاعة والمعصية، بل هي النعمة والمصيبة، فهي مثل قوله: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿ [الأعراف: ١٦٨]، وقوله: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وإذا كانت الحسنات والسيئات في الآية هي النعم والمصائب من النصر والفتح، أو من الفشل والهزيمة، وما إلى ذلك، فالقسمان من عند الله الذي يتلى بهذه وتلك، تبعاً لسنة وحكمته: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ونسبة السيئة إلى الرسول ﷺ إنما هي من باب التطيُّر به وبدعوته، على نحو ما حكى الله عن قوم فرعون في نسبتهم الحسنة إلى أنفسهم، والسيئة إلى موسى ﷺ وأصحابه المؤمنين: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

ثم يقطع هذه الآية التي استشهدوا بها من سورة النساء عن الآية التالية، وهي قوله سبحانه: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، فإضافة الآية سبب السيئة إلى الإنسان نفسه تبطل تعلُّقهم بالآية الأولى.

ولا تناقض بين هذه الآية والآية السابقة، فإنَّ إضافة الأمور كلها إلى الله، باعتبار أنَّه سبحانه رب كلِّ شيء، وواضع نظام الكون كله، بسننه وأسبابه ومسبباته، فصَحَّ أن يقال: كلُّ شيء من عنده.

وإضافة الحسنة إلى الله والسيئة إلى الإنسان نفسه، إضافة صحيحة أيضاً، ذلك أن الحسنة - بمعنى النعمة - منه تعالى بكلِّ وجه من الوجوه، وبدون أدنى عمل من العبد، حتى الحسنة بمعنى الطاعة، الله هو الذي هدى الإنسان إليها، وأقدره عليها، ويسر له سبيلها.

أما السيئة - بمعنى المصيبة - فمن الإنسان نفسه، وتجاوزه لحدود الله وتفريطه في شرع الله، أو في سنن الله، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وخاطب سبحانه المسلمين عندما انكسروا في غزوة أحد، وقتل منهم سبعون من خيارهم، بعد أن كانوا قد انتصروا في بدر، وقتلوا فيها سبعين من المشركين، وأسرُوا سبعين، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

والأشاعرة يستدلون لمذهبهم في أن الله خالق أفعال العباد، بقوله تعالى على لسان الخليل إبراهيم في مخاطبة قومه من عباد الأصنام: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]. أي: خلقكم وخلق عملكم، بناء على أن (ما) مصدرية، مع أن السياق يفيد أن المعنى: خلقكم وخلق ما تعملونه وتنحتونه من الأصنام، و(ما) حينئذ موصولة، ومعنى هذه الآية متمم للآية التي قبلها: ﴿قَالَ اتَّعَبُدُونِ مَا نَنحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥].

وهكذا نجد تفريق النصوص بعضها عن بعض، أو قطعها عن سياقها الذي وردت فيه، أمرًا مشتركًا بين الطوائف والفرق المتنازعة في هذا الميدان وفي غيره من ميادين الخلاف الفكري.

رابعًا: عدم تحديد المفاهيم:

ومن أمثلة الإفراط والتفريط: موقفهم من الإجابة عن هذا السؤال: هل يريد الله جلّ وعلا، المعاصي والقبائح من عباده أو لا يريدونها؟

فإذا كان الكفر والضلال والظلم والفساد قد وقع بإرادته تعالى، فكيف يتفق هذا مع اتّصافه تعالى بالعدل والحكمة، والجود والرحمة.

فهو البرّ الكريم، الرحمن الرحيم والعلي الحكيم؟

وإذا كان هذا الكفر والفسوق والعصيان واقعاً بغير إرادته، فكيف يتفق مع اتّصافه سبحانه بأنه مالك الملك، وصاحب الخلق والأمر، ومن بيده ملكوت كل شيء، وما شاءه كان، وما لم يشأ لم يكن؟

ثار هذا السؤال عند المسلمين بعد عصر الرسالة والصحابة، واختلف نظّارهم في الإجابة عنه. وجلّ الخلاف ناشئ من إطلاق الألفاظ المحتملة لأكثر من معنى، وعدم تحديد مفاهيمها تحديداً دقيقاً، يجلو غموضها، ويفصّل إجمالها. ذلك أن لفظة الإرادة تطلق ويراد بها أحد معنيين:

الأول: الإرادة اللازمة لمحبة المراد، والرضا عنه، والأمر به.

الثاني: الإرادة بمعنى المشيئة العامة التي يضادها القهر والإرغام.

وتسمّى الإرادة بالمعنى الأول (الإرادة الدينيّة) أو (الشرعيّة)، وهي لا تستلزم وقوع المراد، بل قد يُرده الله من عباده، ولا يقع منهم، بل يقع خلافه.

وقد ذكرت هذه الإرادة في مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا * [النساء: ٢٦ - ٢٨].

وتسمّى الإرادة بالمعنى الثاني (الإرادة الكونيّة)، وهي التي تستلزم وقوع المراد، وهي التي يقول فيها المسلمون: (ما شاء الله كان، وما لم

يشأ لم يكن). وفيها جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

إذا تبين هذا الفرق نستطيع أن نقول: إنَّ الله لا يريد المعاصي بالمعنى الأول - أعني الإرادة الدينيّة - لأنه تعالى لا يحبُّ الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يأمر بالفحشاء كما نطق القرآن الكريم، بل قال تعالى لما نهى عنه من العقائد والأعمال والأخلاق: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨]، وفي هذا نصٌّ على أنَّ السيئات والقبايح يكرهها الله.

وأما الإرادة بالمعنى الثاني - الإرادة الكونيّة - فلا ريب أنَّ كل شيء في الكون خاضع لسلطانها، بمعنى أنَّ شيئاً في الوجود لا يحدث رغم إرادة الله سبحانه وإلا كان عاجزاً مقهوراً، وهو الواحد القهار.

وعلى هذا المعنى جاء مثل قول نوح: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ملاحظة هامة:

وهنا ملاحظة جديرة بالتأمل وبالتسجيل والتنبيه: وهي أن الآيات التي ذكرت الإرادة بالمعنى الأول، جاءت في صورة الخبر الصريح إثباتاً ونفيًا، مثل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٨]، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ

لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴿[المائدة: ٦]﴾، هكذا بصفة الإخبار الصريح.

أما الآيات التي ذكرت الإرادة بالمعنى الكوني الآخر، فلم تجيء في مثل هذه الصورة، بل جاءت في صورة الشرط: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]. ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ومثل هذه الصيغة الشرطية لا تستلزم الوقوع حتمًا، فليس لازماً بالضرورة أن يريد الله إغواء قوم أو إضلالهم أو فتنهم، ولو أراد ذلك ما منعه مانع، ولا وقف في سبيله معترض؛ لأنه خالق كل شيء، والملك كله بيديه.

فالآيات بهذا تقرّر المبدأ فقط، ولا تخبر عن الوقوع، ولهذا لم يجيء في القرآن الكريم مثل هذا التعبير الخبري: (إنما يريد الله أن يغويكم)، أو (أولئك الذين يريد الله أن يضلهم)، وما جاء في مثل هذه الصورة إنما نسب فيه الإضلال إلى الشيطان لا إلى الله، مثل قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

كل ما جاء في القرآن هو نفي العجز عن الله، وتوهم أن يكون شيء في العالم قد حدث برغمه ودون مشيئته، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدًى﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وهذا التمحيص يوجب على كل كاتب أو متحدّث في هذه المسألة الخطيرة أن يتحرّى الدقّة في عباراته، وألا يطلق الألفاظ المُجمّلة والمحتملة لأكثر من معنى. ومن الخير كل الخير أن يلتزم العبارات

الواردة نفسها في كلام الله وكلام رسوله، فيكتفي هنا أن نقول: لو شاء الله ما عصى العصاة، ولا أشرك المشركون. بدل أن يقول: إن الله يريد الشرك والعصيان. ثم يحتاج إلى تفسير الإرادة بالإرادة الكونيّة، وربما كان الكثيرون لا يفهمون التفرقة بين الإرادة الكونيّة والإرادة الدينيّة. فيأخذون من إطلاق إرادة المعاصي أن الله يرضاها ويحبّها.

وما أحسن ما قال بعض المحقّقين: «لا يقال: إن الله يريد الكفر وسائر المعاصي على الإطلاق. لأنه يوهّم الخطأ، لكن نقول: إن جميع ما يحدث في سلطانه تعالى بإرادته، ويجب الاحتراز عما يوهّم الخطأ، كما يجب عن الخطأ نفسه»^(١).

ضلال المعتزلة وغلّة الصوفيّة في الإرادة:

ولقد وهم المعتزلة حين ظنّوا أن الإرادة تلازم الرضا والأمر دائماً، فما أَراده الله فقد رضيّه وأمر به، وممّا لا شكّ فيه ولا جدال أنه لا يرضى المعاصي، ولا يأمر بها، فهو إذن لا يريدّها، وهي تقع بإرادة الإنسان وحده، دون إرادة الله ﷻ، هكذا كان رأيهم.

والواقع أن لا تلازم بين الإرادة والأمر، فقد يريد الله تعالى الشيء ويأمر به، كإيمان المؤمنين، وقد يريده ولا يأمر به، ككفر الكافرين، وقد يأمر به ولا يريده، كإيمان أهل الكفر.

كما ضلّ الجبرية وكثير من المتصوفة، حين زعموا أن الإرادة تستلزم الرضا والمحبة، وما دام الكفر والعصيان بإرادة الله، فقد صار مرضياً ومحبوباً لله ﷻ، وعلينا نحن أن نرضى به ولا ننكره.

(١) إيثار الحق على الخلق لابن الوزير ص ٢٤٠.

ومن المتصوفة مَنْ قال: إن الكافر أو الفاسق قد أطاع الله بكفره أو فسقه؛ لأنه وإن خالف الأمر، فقد وافق الإرادة والمشیئة، فهو ينفذ مشیئة الله في الكون وفي الناس، وتنفيذ المشیئة كتففيذ الأمر، كلاهما طاعة!

وفي هذا قال بعضهم:

أصبحتُ منفعلاً لما تختاره مني، ففعلي كلُّه طاعات

بل بالغ بعضهم فقال: كُفرتُ برَبِّ يُعصى!!

ولهذا ترى مثل هؤلاء المتصوفة لا ينكرون على أهل الظلم والفساد، ودعاة الباطل والإلحاد؛ لأنهم يقولون: مَنْ نظر إلى الخلق بعين (الشریعة) مَقْتَهُم، وَمَنْ نظر إليهم بعين (الحقیقة) عَذَرَهُم!

وإنما يُعذرون؛ لأنهم مجبورون أولاً على ما هم فيه. ثانياً: لأنهم ينفذون إرادة الله وقدره فيهم. فهذه هي (الحقیقة) المزعومة في نظرهم! وعبرَ عن ذلك الشيخ محيي الدين بن عربي في أبياته الشهيرة التي تنسب إليه:

لقد كنتُ قبل اليوم أنكر صاحبي	إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فدیر لرهبان، ومرعى لغُزلان
وبيت لأوثان، وكعبة طائف	وألواح توراة، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهتُ	ركائبه، فالحب ديني وإيماني ^(١)

(١) انظر: ديوان ترجمان الأشواق لابن عربي ص ٦٢، ٦٣، تحقيق عبد الرحمن المصطفى،

نشر دار المعرفة، بيروت.

وهذه الفكرة نجد نَضَحَهَا على عوام الناس، حين يُدْعَوْنَ إلى تغيير منكر، أو تقويم معوج، أو إصلاح فساد، فتسمعهم يقولون: أقام العباد فيما أراد!

وهذه الفكرة معارضة للشرع، مضادة للدين، الذي أمر بمعاداة الكفر والفسوق، وبتغيير المنكر، باليد أو باللسان أو بالقلب، حسب الاستطاعة، ولعن الذين لا يتناهون عن المنكر على ألسنة أنبيائه، وجعل السكوت على المنكر والرضا به موجباً لعذاب الله وبلائه في الدنيا والآخرة، وجعل من أوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله، والموالاتة في الله، والمعاداة في الله. قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

الصوفيّة وعقيدة الجبر:

ولقد شاعت بين بعض طوائف المتصوفة روح جبريّة دخيلة على الإسلام، ولكن العارفين منهم أنكروها، وقرّروا بقوة ووضوح ما للإنسان من حرية واختيار.

قال جلال الدين الرومي: «لو كان الجبر ما توجّه الأمر والنهي إلى الإنسان، وما كُلف الإنسان بالشرائع والأحكام، فهل سمع إنسان يأمر حجراً وينهاه؟!». ويقول: «إنّ القرآن كله أمرٌ ونهيٌّ، ووعد ووعد، ولم نسمع عاقلاً يأمر الرخام، أو ينهي الحديد!».

«إن الإنسان مفطور على عقيدة الاختيار، وهو يمثل هذه العقيدة، ويطبقها في حياته اليومية، ويقرّر بعمله وسلوكه الاختيار، وينكر الجبر

فلا يعاقب الجماد، ولا يغضب على الحجر والخشب والسيل والنار والريح، مهما لحقه الأذى والعنت من هذه الأشياء!!».

ويتساءل جلال الدين: «إذا سقط عليك جذع من السقف، وجرحك جرحاً شديداً، وأدماك وآلمك، فهل يثور غضبك على هذا الجذع؟ وهل تعاقبه وتقول له: لماذا كسرت يدي وأذمت رأسي؟ كذلك إذا جاء سيل أو فيضان، فذهب بأثاثك ومتاعك، أو هاجت الريح وطارت بعمامتك، اشتعلت غضباً على السيل أو الريح، وتصديت لهما بالعتاب أو العقاب؟!

لكن إذا تعرّض إنسان لإهانتك ثرت عليه، وعاقبته عقاباً شديداً، فدلّ ذلك على أنك مميّز بين المجبور والمختار، وتعتقد أنّ الإنسان صاحب العمل، وتعتقد أنّ الإنسان صاحب اختيار وإرادة، فتحاسبه، وتعاقبه، وتشكوه وتلومه، ولا تقبل له عذراً؛ لأنه مخير ليس بمجبور».

ولا يقتصر جلال الدين على ذلك، بل يقرّر أن الحيوان يعرف ذلك، ويميز بين المجبور والمختار، وتهديه إلى ذلك فطرته، ف«إذا ضربت كلباً بحجر هجم عليك وأراد أن يعضّك، ولم يُقبل إلى الحجر وينتقم منه! كذلك إذا ضرب السائق بعيراً، وهاج البعير، لم يثر على الهراوة التي ضرب بها، إنما يثور على الجمال المسرف في ضربه. فعاز عليك أيها الإنسان العاقل أن تنسب الجبر إلى الإنسان، ويفوقك الحيوان غير العاقل في فهم هذه الحقيقة وإدراكها!!»^(١).

(١) نقلاً عن رجال الفكر والدعوة في الإسلام لأبي الحسن الندوي ص ٣٥٠، ٣٥١.

المنهج الواجب اتباعه إزاء المفرطين والمفرّطين

والمنهج السليم الذي يجب على المنصف اتباعه إزاء هذه الفرق المختلفة في الإثبات والنفي، المتفاوتة في الإفراط والتفريط، هو ما وضحه المحقق السلفي ابن القيم في كتابه (شفاء العليل)، حيث قال: «وأرباب هذه المذاهب مع كل طائفة منهم خطأ وصواب، وبعضهم أقرب إلى الصواب، وبعضهم أقرب إلى الخطأ، وأدلة كل منهم وحجته إنما تنهض على بطلان خطأ الطائفة الأخرى، لا على إبطال ما أصابوا فيه.

فكل دليل صحيح للجبرية، إنما يدلُّ على إثبات قدرة الربِّ تعالى ومشيتته، وأنه لا خالق غيره، وأنه على كلِّ شيء قدير، لا يستثنى من هذا العموم فرد واحد من أفراد الممكنات، وهذا حقٌّ، ولكن ليس معهم دليل صحيح ينفي أن يكون العبد قادرًا مريدًا فاعلاً بمشيئته وقدرته، وأنه هو الفاعل حقيقة، وأفعاله قائمة، وأنها فعل له، لا لله، وأنها قائمة به، لا بالله.

وكلُّ دليل صحيح يقيمه القدرية، فإنما يدلُّ على أنَّ أفعال العباد فعلٌ لهم، قائمٌ بهم، واقعٌ بقدرتهم ومشيتهم وإرادتهم، وأنهم مختارون لها غير مضطرين ولا مجبورين، وليس معهم دليل صحيح ينفي أن يكون الله سبحانه قادرًا على أفعالهم، وهو الذي جعلهم فاعلين.

فأدلة الجبرية متضافرة صحيحة على مَنْ نفى قدرة الرب سبحانه على كلِّ شيء من الأعيان والأفعال، ونفى عموم مشيئته وخلقه لكلِّ موجود، وأثبت في الوجود شيئاً بدون مشيئته وخلقه.

وأدلة القدرية متضافرة صحيحة على مَنْ نفى فعل العبد، وقدرته ومشيتته واختياره، وقال: إنه ليس بفاعل شيئاً، والله يعاقبه على ما لم يفعل، ولا له قدرة عليه، بل مضطر إليه مجبور عليه.

وأهل السنة، وحزب الرسول، وعسكر الإيمان، لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، بل هم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه، وهم مع هؤلاء فيما أصابوا فيه، فكلُّ حقٍّ مع طائفة من الطوائف فهم يوافقونهم فيه، وهم برآء من باطلهم، فمذهبهم جَمْعُ حقِّ الطوائف بعضه إلى بعض، والقول به، ونضره، وموالاته أهله من ذلك الوجه، ونفي باطل كلِّ طائفة من الطوائف وكسره ومعاداة أهله من هذا الوجه.

فهم حُكَّام بين الطوائف، لا يتحيّزون إلى فئة منهم على الإطلاق، ولا يردُّون حقَّ طائفة من الطوائف، ولا يقابلون بدعة بدعة، ولا يردُّون باطلاً بباطل، ولا يحملهم شأن قوم يعادونهم ويكفرونهم على ألا يعدلوا فيهم، بل يقولون فيهم الحق، ويحكمون في مقالاتهم بالعدل، والله سُبْحَانَهُ أمر رسوله أن يعدل بين الطوائف، فقال: ﴿فَإِذْ لَكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ [الشورى: ١٥]، فأمره سبحانه أن يدعو إلى دينه وكتابه، وأن يستقيم في نفسه كما أمره، وألا يتبع هوى أحدٍ من الفرق، وأن يؤمن بالحق جميعه، ولا يؤمن ببعضه دون بعض، وأن يعدل بين أرباب المقالات والديانات، وأنت إذا تأملت هذه الآية، وجدت أهل الكلام الباطل، وأهل الأهواء والبدع من جميع الطوائف أبخس الناس منها حظاً، وأقلهم نصيباً، ووجدت حزب الله ورسوله وأنصار سنته هم أحقُّ بها وأهلها^(١).

(١) شفاء العليل ص ٥١، ٥٢.



القدر والأسباب

إذا كان القدر معناه: أَنَّ اللهَ عَلِمَ الأشياءَ وأرادها قبل وقوعها، فهي ستقع لا محالة، وَفُقَ علمه وإرادته، وإلا تَخَلَّفَ علمه، وانتقضت إرادته سبحانه؛ فهل يعني ذلك أطراح الأسباب، ونبذ الوسائل الموصلة إلى الغايات والنتائج، فَإِنَّ ما قَدَّرَهُ اللهَ كائن نافذ، لا رادَّ لقضائه، ولا معقَّب لحكمه، ولا معارض لقدره؟

فإذا قُدِّرَ للمريض أن يشفى، وأن تسري في أوصاله العافية، فإنه لا بدَّ سيتحقَّق له الشفاء، سواء عُرض على الطبيب أم لا، وسواء تناول الدواء أم لا! وإذا قُدِّرَ للمحارب أن ينتصر، فإنَّ النصر سيأتيه لا محالة، وإن لم يعدَّ العدة ورباط الخيل، وإن قُدِّرَ له الخذلان والهزيمة، جاءته تجرُّ أذيالها، وإن اتَّخذ العدد والعتاد، وجَهَّز السلاح والزاد!

هكذا يتوهَّم بعض الناس، فيُخَيَّل إليه أَنَّ الإيمان بالقدر ينافي اتِّخاذ الأسباب، ما دامت النتائج مُقدَّرة ومفروغاً منها من قديم.

وخطأ هؤلاء قد جاء لسوء فهمهم لمعنى القدر؛ فقد ظنُّوا أَنَّ اللهَ يَقْدِرُ المُسَبِّبات مفصولة عن أسبابها، والنتائج معزولة عن مقدّماتها، والآثار بغير مؤثراتها، وهو خطأ بيّن.

فإنَّ اللهَ يَقْدِرُ المُسَبِّب والسبب معاً، والنتيجة والمقدّمة جميعاً، ذلك أَنَّ القدر يتعلَّق بكلِّ حادث في العالم، لا يغيب عنه شيء، ويتعلَّق بالأشياء على ما تكون عليه، فإذا قَدَّرَ اللهَ لمريض أن يشفى، لم يَقْدِرْ هذه النتيجة وحدها، بل يَقْدِرْ أنه يذهب إلى طبيب، فيعرض نفسه عليه، فيكتب له دواء يتناوله، فهو يشرب دواءً خاصّاً، أو يحتمي من طعام

معين، أو يسلك سلوكاً ما، يترتب عليه - حسب سنة الله - أن يبرأ من مرضه، ويشفى من عِلته.

وكذلك إذا قدر الله لمريض أن يموت، أو لسليم أن يمرض، فإن الله يقدّر الأمور مقرونة بأسبابها، فإنها كلها داخلية في القدر.

ومن الإنصاف أن نقول: إنّ هذا الخطأ أو الوهم في معنى القدر، قد وقع فيه بعض الناس منذ عهد الرسول والصحابة، ولكنهم وجدوا مَنْ يصحح لهم الفهم، ويطرد الوهم، ويردهم إلى الصراط، فقد قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله، أرايت أدوية نتداوى بها، ورُقَى نسترقى بها، وثقاة نتقي بها، هل تردُّ من قدر الله شيئاً؟ فقال: «هي من قدر الله»^(١).

وما أبلغ هذه الكلمات النبوية: «هي من قدر الله!». فالمسببات من قدر الله، وأسبابها من قدر الله، والآثار والنتائج من قدر الله، والمؤثرات والمُقدّمات الموصلة إليها من قدر الله أيضاً.

ولما كان عمر رضي الله عنه، في طريقه إلى الشام، ثم علم بوقوع الطاعون فيه، استشار المسلمين، ثم قرّر الرجوع إلى المدينة بمن معه من الصحابة، حتى لا يتعرضوا لوباء الطاعون، فقال أبو عبيدة: أتفرُّ من قدر الله، يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم، نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله.

كره عمر لمثل أبي عبيدة - في جلالته وسابقته - أن يفوته مثل هذا المعنى في فهم القدر، فبيّن له أن القدر محيط بكلّ شيء، فالذي يفرون

(١) رواه أحمد (١٥٤٧٢)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف على خطأ فيه. والترمذي (٢٠٦٥)، وقال: حسن. وابن ماجه (٣٤٣٧)، كلاهما في الطب، وحسنه الألباني في تخريج مشكاة الفقر (١١)، عن أبي خزيمة.

منه قدر الله، والذي يفرون إليه قدر الله، فالطاعون قدر من الله، والوقاية منه قدر من الله كذلك.

ثم ضرب عمر له مثلاً فقال: أرأيت إن كانت لك إبل، وكانت أمامك أرض خصبة، وأرض جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيته بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيته بقدر الله؟ فقال أبو عبيدة: بلى. قال عمر: فذلك كذلك^(١).

إن قدر الله حقاً، وقدر الله نافذ، ولكنه ينفذ من خلال السنن التي أقام الله عليها نظام الكون، ومن خلال الأسباب التي خلقها سبحانه وشرعها، ليستقيم عليها أمر الوجود ونظام التكليف، فهذه السنن والأسباب جزء لا يتجزأ من قدر الله الشامل المحيط.

القدر والعمل الصالح:

ومن فروع الوهم السابق ما دخل على أذهان كثير من الناس: أن الإيمان بالقدر ينافي السعي في الطاعات وعمل الصالحات، فما علمه الله في الأزل، وسبقت به المقادير، وخطه القلم في الكتاب المكنون، لا بد أن يحدث، ولا مفر من وقوعه، وإلا انقلب العلم جهلاً.

فإذا كان في علم الله أن زيداً من الناس من أهل الشقاوة، ومن أصحاب النار؛ فلن يستحيل هذا الشقي إلى سعيد، ويصبح يوماً من أهل الجنة، وإذا كان في سابق العلم الإلهي أن عمراً من الخلق من أهل السعادة، ومن أهل الجنة؛ فهو لا محالة من أهلها، ولن يصير يوماً من أهل الشقاوة، ومن أهل النار. ولهذا قيل: السعيد من سعد في بطن أمه،

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٢٩)، ومسلم في السلام (٢٢١٩).

والشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد لا يشقى، كما أن الشقي لا يسعد، فلا فائدة إذن من العمل وتعب النفس، والقدر نافذ، والمكتوب واقع لا محالة.

وهذا يدل على جهل شديد، وضلال بعيد، من وجهين:

أولاً: أن علم الله سبحانه يتعلّق بالأشياء على ما هي عليه في الواقع، وكذلك يكتبها ويقدرها على ما هي عليه، فإن العلم يطابق المعلوم، وهو سبحانه قد علم وقدر أن المكوّنات تكون بأسبابها؛ لأن ذلك هو الواقع، فمن زعم أن الله يعلم أو يقدر النتائج بدون مقدماتها، والمسبّبات بدون أسبابها، فقد قال على الله الباطل.

إن الله يعلم ويكتب في لوحه المحفوظ: أن فلاناً يؤمن ويعمل صالحاً، فيدخل الجنة مع السعداء، وأن فلاناً يعصي ويفسق، فيدخل النار مع الأشقياء. كما علم وكتب: أن فلاناً يتزوّج فلانة، ويدخل بها، فيأتيه ولد، وأن فلاناً يأكل فيشبع، ويشرب فيرتوي، وأن آخر يغرس شجرة، فيجتنى منها ثمرة.

فمن قال من الناس: إن كان قد سبق لي أني من أهل الجنة، فأنا أدخلها، ولو بلا عمل! كان هذا مناقضاً لما علمه الله وقدره. ومثال ذلك من يقول: إن كان الله قد قضى لي بولد، فسيأتي، ولو لم أتزوّج وأدخل بالمرأة التي قدر الله أن تكون أم الولد!!

فقائل ذلك لا ريب أنه جاهل أحمق، فإن الله إذا كان قدّر له أن يُرزق بولد، فقد قدره بسببه، فانتظار المُسبّب المُقدّر المكتوب، بدون السبب المُقدّر المكتوب معه، لا يكون إلا حُماً وضلالاً بعيداً.

ثانيًا: أنَّ الشيء إذا عُلِمَ وكُتِبَ، وأُخبر عنه بذلك، لا يكفي ذلك في وجوده، ولا يوجب الاستغناء عمَّا به يكون من الأسباب والعلل، التي لا يتمُّ إلا بها، كالفاعل وقدرته ومشيتته وآلاته.

ذلك أن العلم ليس سببًا موجبًا بنفسه لوجود المعلوم، بل هو مطابق له على ما هو عليه، ولا يُكسبه صفة، ولا يكتسب منه صفة.

والعلم بالمستقبل والخبر عنه، كالعلم بالماضي والخبر عنه، وذلك كعلمنا بالأمور التي كانت قبلنا وإخبارنا عنها، كالموجودات التي كانت قبل وجودنا، كعلمنا بالسموات والأرض. بل كعلمنا بالله تعالى وأسمائه وصفاته، فإنَّ هذا العلم ليس له تأثير في وجود المعلوم بالإجماع، بل بالضرورة.

وبهذا نتبيَّن: أن القول بأنَّ السعيد لا يشقى، والشقي لا يسعد، كلام صحيح، لكن من قَدَّر الله سعادته، يكون سعيدًا بالأعمال، التي جعلها الله أسباب السعادة وربطها بها، والشقي لا يكون شقيًّا إلا بالأعمال التي جعلها الله من أسباب الشقاوة، ومن جملتها الاتكال على القدر السابق، وترك العمل الواجب.

وفي الصحيحين - واللفظ للبخاري - عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا النبي صلى الله عليه وسلم، فقعد وقعدنا حوله، ومعه مِخْصَرَةٌ، فنكس، فجعل ينكُت مِخْصَرَتَهُ، ثم قال: «ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا وقد كُتِبَ مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كُتِبَت شقية أو سعيدة». فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فَمَنْ كان منا من أهل السعادة، فيصير إلى عمل أهل السعادة، وأما مَنْ كان منا من أهل الشقاوة، فيصير إلى أهل الشقاوة.

قال: «أما أهل السعادة، فيُيسَّرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فيُيسَّرون إلى عمل أهل الشقاوة». ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥ - ١٠]^(١).

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، أعلم أهل الجنة من أهل النار؟ فقال: «نعم». قيل: ففيم يعمل العاملون؟ فقال: «كلُّ مُيسَّر لما خُلِقَ له»^(٢). وفي بعض روايات البخاري: «كلُّ يعمل لما خُلِقَ له». أو: «لما يُسَّر له»^(٣).

فدلَّت هذه الأحاديث ونظائرها على أنَّ القدر سابق لا يمنع العمل، ولا يوجب الاتكال عليه، بل يوجب الجِدَّ والاجتهاد؛ ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال: ما أنا أشدَّ اجتهدًا مني الآن^(٤).

وهذا ممَّا يدلُّ على جلاله فقه الصحابة رضي الله عنهم، فإنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أخبرهم بالقدر السابق، وجريانه على الخلق بالأسباب، فإنَّ العبد ينال ما قُدِّرَ له بالسبب الذي أُقْدِرَ عليه، ومُكِّنَ منه، وهَيَّئَ له، فإذا عمل بالسبب، أوصله إلى القدر الذي سبق له في أمِّ الكتاب.

إنَّ المكتوب في القَدَم: هو سعادة السعيد بما يُسَّر له من العمل الصَّالح، وشقاوة الشقيِّ بما يُسَّر له من العمل السيِّئ، ليس المكتوب أحدهما دون الآخر.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٣٦٢)، ومسلم في القدر (٢٦٤٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٥٥١)، ومسلم في القدر (٢٦٤٩).

(٣) رواه البخاري في القدر (٦٥٩٦).

(٤) الإبانة لابن بطة (١٥٦/٣).

فما أمر به المكلف من واجبات، أو ما نُهي عنه من محظورات، هو من الأسباب التي ينال بها السعادة، والمقدّر المكتوب هو مجموع السعادة والعمل الذي تنال به السعادة.

وإذا ترك المُكَلَّف ما أمر به، مُتَّكِلاً على الكتاب السابق، كان ذلك من المكتوب المُقدَّر الذي يصير به شقيّاً، وكان قوله ذلك بمنزلة مَنْ يقول: أنا لا أكل ولا أشرب، فَإِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ لِي الشَّيْبَ والرِّي، فسأشبع وأرتوي. أو يقول: لا أتزوج ولا أقرب النساء، فَإِنَّ قُدْرَ لِي ولد فسيكون!

القدر والأرزاق:

ومن مضامين القدر التي حدث فيها الخلط وسوء الفهم: ما يتعلق بـ (الأرزاق).

والمراد بالرزق: حُظُّ الإنسان من طيّبات الحياة، ومن أضدادها، من سَعَةِ المأكَل والمشرب، والملبس والسكن، والمال والزوجة والولد، وسائر ما يحرص الناس عليه من متاع الحياة، وما يقابلها، فكلُّها داخل في مفهوم (الرزق).

وهذا الرزق مقدَّر مقسومٌ للإنسان من الله تعالى، فمنهم مَنْ قَدَّرَ لَهُ السَّعَةُ في رزقه، ومن قدر عليه الضيق، ومنهم الوسط. ورازق الجميع هو الله تعالى، كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وهو الذي تكفل بتهيئة الرزق للجميع، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]. ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

وكثير من الناس يفهمون من قولنا: إِنَّ الرزق مُقَدَّرٌ مَقْسُومٌ من الله تعالى: أنه لا فائدة في السَّعي لطلب الرزق، وأنَّ مَنْ قَدَّرَ الله له الغنى سيغتنى، وإنَّ قعد في بيته، ومن قَدَّرَ عليه الفقر سيفتقر، وإن كان من أذكى الناس وأنشطهم، وأكثرهم سعيًا وكدًا.

فالحق أنَّ الله تعالى قَدَّرَ الرزق مقرونًا بسببه، فإنَّ الأسباب مقدَّرة، كما أن مسبباتها مقدَّرة. فالله تعالى قَدَّرَ أن فلانًا يُعمل عقله وذكاءه، ويُجهد جسمه وأعضائه في الكد والاجتهاد في طلب المعاش، فيوسَّع عليه في الرزق، وآخر يخلد إلى الكسل، ويرضى بالدون، وبالعيش الهون، فيضيِّق عليه في الرزق.

ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥]، ومعنى الآية: أنَّ مَنْ اجتهد، وسعى، ومشى في مناكب الأرض، والتمس الرزق في خباياها؛ أكل من رزق الله. ومن تقاعس، ولم يمش في مناكب الأرض؛ لم يستحق أن يأكل من رزق الله تعالى.

وضمن الله تعالى لرزق الأحياء، وأن عليه رزق كلِّ دابة في الأرض: يعني أنه هيأ لها أسباب الرزق في هذه الأرض برها وبحرها. فالله تعالى حين خلق الأرض، بارك فيها وقدر فيها أقواتها.

وقبل أن يخلق الله تعالى البشر، ويمكِّنهم في الأرض، جعل لهم فيها معاش كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]. ثم قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكِئَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١]، فدلَّ القرآن على أن تهيئة المعاش والأرزاق للناس قد تمَّت قبل أن يخلقهم.

ولكن سنة الله تعالى: ألا يُنال الرِّزْقُ إلا بسعي وعمل، وهذا ما أمر به الشرع أيضًا. فُسِّنَ الله في خلقه، وأوامره في شرعه، تُوجب على الإنسان أن يعمل لكسب رزقه. فمن قعد عن الكسب فقد خالف السُّنن الكونيَّة، والأحكام الشرعيَّة معًا.

وعندما رأى عمر رضي الله عنه، جماعة يقعدون في المسجد بعد صلاة الجمعة وقد انتشر الناس، سألهم: مَنْ أنتم؟ قالوا: متوكلون! قال: بل أنتم متواكلون! لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أنَّ السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة^(١)! وإنما يرزق الله تعالى الناس بعضهم من بعض. أما قرأتم قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

هذا هو منطق الصحابة في فهم الرزق. السَّعي والانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله، وليس القعود والتواكل بدعوى التوكل، والاعتماد على أنَّ الرزق مقسوم، وما كان لك سوف يأتيك. فهذه دعاوى غير مُسلَّمة على علتها. ولذا نرفض قول الشاعر:

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرُّك والسكون!
جنون منك أن تسعى لرزق ويُرزق في غشاوته الجنين^(٢)!

فإنَّ ما قاله هذا الشاعر هو الجنون، فإنَّ الشارع قد أمرنا أن نسعى لكسب أرزاقنا، زارعين وصانعين ومحترفين، وصائدين وتاجرين، وعاملين في شتَّى مجالات الحياة، متعبدين لله تعالى بذلك، حتى سَمَّى

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٦٢/٢).

(٢) البيتان لابن الراوندي، كما في معاهد التنصيص للعباسي (١٤٧/١)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، نشر عالم الكتب، بيروت.

الله طلب الرزق: الابتغاء من فضل الله، وهي تسمية توحى بالرضا والقبول، وتحدث القرآن عن عُمّار المساجد، فقال: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُ جَحْرَهُ وَلَا بَيِّعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]، فليسوا دراويش متبطلين، إنما هم (رجال أعمال) كما نقول في عصرنا.

واعتبار الشاعر السعي للرزق جنوناً؛ لأن الجنين يُرزق في غشاوته: مردود عليه؛ لأن الجنين لا يملك أن يسعى، فكان من سنّة الله أن يُرزق في غشاوته. فأين الإنسان المكلف من الجنين في بطن أمه؟!

أسباب تفاوت الناس في الأرزاق:

صحيح أن من الناس الأذكاء، من يكدح ويجتهد ويصل الليل بالنهار، ولا يناله من الرزق إلا القليل، ومنهم من يبذل من الجهد القليل، ويأتيه الرزق الكثير، ومنهم من يأتيه الرزق بغير جهد ولا كلل، وهذا يكون لعدة أسباب:

١ - أن يكون هناك خلل في الأوضاع وعوج في الأنظمة، فيأتي توزيع الثروة غير عادل، وهذا لا يجوز أن يستمر، ويجب أن يُصلح ويعدّل.

٢ - أو تكون الأوضاع الطبيعية غير متكافئة، فمن يعمل في بيئة خصبة مساعدة، غير من يعمل في بيئة قاحلة تعوقه، ولا يتوقع أن تكون فرصة من يعمل في أمريكا مثل من يعمل في صحراء أفريقيا.

٣ - أو تكون هناك أقدار لا يعرف الإنسان سرّها، يسمّيها بعض الناس الحظ أو البخت أو الطالع، أو نحو ذلك، ويسمّيها المؤمنون (حكم القدر). فقد نجد تاجرَيْن متجاوِرَيْن، يبيعان سلعة واحدة، بأسعار

واحدة، وأحدهما لا يكاد يدخل عليه أحد، والآخر على محله زحام دائم! وهذا ما شاهدناه بأعيننا كثيرًا.

ونجد من الناس عاملاً متقناً، أو صانعاً متقناً، ولكنه لا حظ له، وهو الذي يقول عنه المثل العامي: (سبع صنايع، والبخت ضايع)! وآخر ليس له هذه الموهبة، ولكنه سعيد الحظ، لا يكاد يضع يده في شيء إلا ربح، وتنهل عليه المكاسب دون أن يدبر لها أمراً.

وقد يرزق الله الإنسان من فضله بلا جهد منه، كمریم عليها السلام، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

هنا ينفع الإيمان بما قدر الله، والرضا بما قسم، ففيه راحة وسكينة للنفس، كما جاء في الحديث: «ارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس»^(١). وهذا هو (غنى النفس) الذي جاء في الحديث الصحيح: «وليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس»^(٢).

ولا ريب أن التفاضل في الأرزاق من سنن الله في الوجود، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١].

ولكن ممّا لا ريب فيه أيضاً: أنّ بعض هذا التفاضل من ظلم الناس بعضهم لبعض، ومن سوء توزيع الثروة بين أهل الوطن الواحد، فلا ينبغي أن يحمل هذا على كاهل القدر، وأن يؤدي هذا إلى التشكيك في عدل الله تعالى وحكمته في خلقه، حتى قال بعضهم:

(١) رواه أحمد (٨٠٩٥)، وقال مخزّجوه: حديث جيد. والترمذي في الزهد (٢٣٠٥)، وقال: حديث غريب. عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٤٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٥١)، عن أبي هريرة.

كم عاقل عاقل تلقاه مفتقرًا وجاهل جاهل تلقاه مرزوقًا
 هذا الذي ترك الأبواب حائرة وصيّر العالم النحرير زنديقًا^(١)
 وقد علّق على ذلك الإمام الراغب الأصفهاني في باب (سبب إخفاق
 العاقل، وإنجاح الجاهل). فقال: «الحكمة تقتضي أن يكون العاقل في أكثر
 الأحوال مُقَلًّا، وذلك أنه لا يأخذ المال إلا كما يجب، من الوجه الذي يجب،
 وفي الوقت الذي يجب، ثم إذا أخذه وتناوله لم يدّخره عن مكْرمة تعنُّ له.
 والجاهل أسهل عليه الجمع من حيث لا يبالي فيما يتناوله، بارتكاب
 محظور، واستباحة محجور، واستنزال الناس عما في أيديهم بالمكر،
 ومساعدتهم على ارتكاب الشرّ، طمعًا في نفعهم له.

وكثيرًا ما ترى مَنْ هم في جملة الموصوفين بقوله تعالى: ﴿فَمِنْ
 النَّكَاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾
 [البقرة: ٢٠٠]، شاكين لبختهم، فبعضهم يغضب على الفلك، وبعض يعتب على
 القدر، وبعضهم يتجاوز الأسباب، فيعاتب الله تعالى... وذلك لحرصهم على
 ارتكاب المقابح، ولجهلهم بما يُقيّض الله لعباده من المصالح.
 وقول الشاعر:

هذا الذي ترك الأبواب حائرة وصيّر العالم النحرير زنديقًا^(٢)
 فالذي يصير بذلك زنديقًا، فبأن يُسمّى الجاهل الشرير أولى من أن
 يُسمّى العالم النحرير»^(٣).

(١) انظر كتابنا: الإيمان والحياة ص ١٣٢ - ١٣٣، فصل: الرضا، نشر مكتبة وهبة، القاهرة.

(٢) البيتان لابن الراوندي، كما في كنوز الذهب لسبط ابن الجوزي (٣٢٦/٢)، نشر دار القلم،
 حلب، ط ١، ١٤١٧هـ.

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٢٧، تحقيق د. أبي اليزيد العجمي، نشر دار السلام، القاهرة،
 ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.



القدر والآجال:

وكما قدر الله تعالى الأرزاق، قدر الآجال والأعمار، فالعمر محدود ومعلوم، سبق بتحديدته القدر، فكلُّ امرئ معلوم أنه سيعيش كذا وكذا سنة، عشرين أو سبعين أو مائة أو أكثر، وسُجِّل ذلك في كتاب عند الله. وإذا جاء أجله لا يؤخَّر ولو لحظة واحدة. وهذا ما نطق به القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

والمراد بالساعة هنا: اللحظة من الزمن، وليست الساعة الفلكية التي هي ستون دقيقة.

ولما قُتل في غزوة أحد من المسلمين من قُتل، وأخذ المنافقون من ذلك قضية يلكونها بالسنتهم، ويلومون المسلمين على خروجهم لقتال المشركين، وأنَّ إخوانهم الذين قتلوا لو كانوا عندهم ولم يخرجوا للقتال؛ ما ماتوا وما قُتلوا، فردَّ عليهم القرآن أبلغ الرد، مُنذِّدًا بهم وبموقفهم، فقال: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقال عجل: ﴿وَمَا يَعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

والمُعَمَّر: مَنْ يعيش عمرًا طويلًا في العادة. وَمَنْ ينقص من عمره: مَنْ يعيش عمرًا قصيرًا، قدره بعضهم بما قبل الستين. والضمير في

(عُمُرِهِ)، عائد على الجنس لا على العين؛ لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله تعالى لا ينقص من عمره.

قال ابن جرير: «وهذا كقولهم: عندي ثوب ونصفه. أي: ونصف ثوب آخر. وقولهم: لا يثيب الله مكلِّفًا ولا يعاقبه إلا بحق، والمعاقب غير المثاب، ولكن المراد: الجنس»^(١).

وجاء عن ابن عباس في تفسير الآية: ليس أحدٌ قضيتُ له بطول العمر والحياة، إلا وهو بالغ ما قدَّرت له من العمر، وقد قضيتُ ذلك له. فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدَّرت لا يزداد عليه. وليس أحدٌ قدَّرتُ له أنه قصير العمر والحياة، ببالغ العمر (أي الطويل)، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له، فذلك قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١]. يقول: كلُّ ذلك في كتاب عنده^(٢).

وبعضهم فسَّر: ﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ [فاطر: ١١]، بمعنى ذهاب العمر قليلاً قليلاً: سنة بعد سنة، وشهراً بعد شهر، وجمعة بعد جمعة، ويوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، الجميع مكتوب عند الله في كتابه^(٣).

ومنهم من فسَّر نقص العمر بقلة البركة فيه، والزيادة في العمر ببقاء البركة فيه، كما قال ابن عطاء الله: رُبَّ عمر اتسعت آماده وقلَّتْ أمداده. ورُبَّ عمر قليلة آماده كثيرة أمداده^(٤). وجاء في ذلك الحديث الشريف: «مَنْ سَرَّه أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ فِي أَثَرِهِ - أَي فِي أَجَلِهِ - فَلْيَصِلْ رَحْمَهُ»^(٥).

(١) تفسير الطبري (٤٤٨/٢٠).

(٢) رواه البيهقي في القضاء والقدر (٢٦١).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٥٣٨/٦، ٥٣٩).

(٤) حكم ابن عطاء الله شرح زروق ص ٤٣٨.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٨٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٧)، عن أنس.

ونعود هنا إلى بيان معنى تقدير الآجال، قصيرة أو طويلة، لنبيّن أنها مقدّرة مع أسبابها، وليست منفصلة عنها، كما يتوهم عوام الناس.

فمن قُدّر له طول الأجل: قُدّر له أنه سيتهياً له من الأسباب، من توافر الغذاء الصحي، وطيب الهواء النقي، وممارسة العمل البدني أو الرياضي المناسب، والابتعاد عما يضرّ بالبدن تناوله، من المسكرات أو المخدّرات أو الأشياء الضارة، كالتدخين، أو طول السهر، أو ارتكاب المحرمات. فهو بهذه الأسباب يطول عمره، وهذه الأسباب مقدّرة كمسبباتها.

ومن قُدّر له قصر العمر، قُدّر له: إنه سيبتلى بسوء التغذية، أو سوء التهوية، أو الإصابة بعدوى، أو تناول ما يضرّه ويؤذيه، أو يصيبه حادث في طريق، أو يموت في كارثة عامة كالزلازل، أو يقتله قاتل عمداً أو خطأ، فيموت وينتهي أجله بواحد من هذه الأسباب أو غيرها. ولكنه مات في وقته المقدّر له، وفي (أجله المسمى) عند الله.

فلا انفصال في الأقدار بين المسبّبات وأسبابها بحال، وخطأ الناس هنا دائماً يتمثل في تصورهم تقدير المسبّبات كالموت والقتل والحوادث والأمراض بمعزل عن الأسباب، والنبي ﷺ قد فصل في ذلك حين سئل عن الأدوية: هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: «هي من قدر الله»^(١). فما أحكمه وأبلغه وأوجزه من جواب!

* * *

(١) سبق تخريجه ص ٦٧٨.

الاحتجاج على المعاصي بالقدر

بعض الناس يحتجّون بالقدر على معاصيهم وسيئات أعمالهم، ويحملون عليه وزرَ تفريطهم في الحقوق، أو في أداء الواجبات، أو انتهاكهم للمحرّمات، ويقولون: هذا مكتوب علينا، سبق به القدر، وجرى به القلم، ولا مفرّ ممّا قدّر الله وكتب، ولو شاء ما فعلناه.

ولهؤلاء سلف من المشركين الذين عبدوا من دون الله آلهة أخرى، وحرّموا ما أحلّ الله افتراءً على الله، فلما دُعوا إلى التوحيد والحق، احتجّوا بأنّ ما هم عليه من شرك وأباطيل، إنما هو بمشيئة الله تعالى.

وقد ذكر القرآن عنهم ذلك في عدّة مواضع، منكرًا عليهم، ورادًا لقولهم، وأوضح هذه المواضع ما جاء في سورة الأنعام حيث قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

احتجّ أعداء الله في هذه الآية بمشيئته وقدره على إبطال أمره ونهيه، وأنه لولا رضاه بشركهم وتحريمهم، ومحبته له، ما أقرّهم عليه، ولا شاءه منهم. وعارضوا بذلك شرعه، ودعوة رسله. قالوا: كيف يأمرنا الله بشيء، قد شاء منا خلافه؟ وكيف يكره منا شيئاً، قد شاء وقوعه، ولو كرهه لم يمكنّا منه، ولحال بيننا وبينه؟ هذا مضمون احتجاجهم، فكيف ردّ القرآن عليهم؟

لقد كذّبهم فيما ادّعوا، وأخبر أنّ هذا تكذيبٌ منهم لرسله، وأنّ رسله متّفقون على أنه سبحانه يكره شركهم ويمقته، وأنه لولا بغضه ومقته، لما أذاق المشركين بالله عذابه، فإنه لا يعذب عبده على ما يحبّه.

ثم طالبهم بالعلم - أو الدليل - على صحّة مذهبهم بأن الله أذن فيه، وأنه يحبّه، ويرضى به، ومجرّد إقراره لهم قدرًا، لا يدل على ذلك عند أحد من العقلاء. وإلا كان الظلم والفواحش والسعي في الأرض بالفساد والبغي محبوبًا له ومرضيًا.

ثم أخبر سبحانه: أن مستندهم في ذلك إنما هو الظنّ، وهو أكذب الحديث، وأنهم لذلك كانوا أهل الخرص والكذب.

وجوه الفساد في الاحتجاج بالقدر على المعاصي:

والاحتجاج بالقدر على المعاصي والآثام خطأ وضلالة من وجوه:

١ - أن هذا القول (الاحتجاج بالقدر)، يلزم منه أن يستوي أولياء الله وأعداء الله، ولا يتميّز الأبرار من الفجّار، ولا أهل الجنّة من أهل النّار، فإن هؤلاء جميعًا قد كتب الله مقاديرهم، قبل أن يخلقهم، وهم مع هذا قد انقسموا إلى سعيد بالإيمان والعمل الصالح، وإلى شقيّ بالكفر والفسوق والعصيان.

قال تعالى: ﴿أَفَجَعَلُ الْمُؤْمِنِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

٢ - أنّ سبق القدر - لو كان عذرًا للعصاة المذنبين - لكانت الأمم الظالمة التي أهلكها الله، ودمّر عليها، وأنزل بها نقمته، مثل عاد، وثمود، وقوم نوح، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وفرعون، وهامان، وقارون، وغيرهم من الكفرة المفسدين؛ معذورين فيما صنعوا، مظلومين بما

عوقبوا به. أي أن الله تعالى قد ظلمهم حين أخذهم بعقابه، على ذنوب هم فيها معذورون، مع أن الله سبحانه يقول: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]، ويقول بعد أن تحدّث عن بعض الأقوام وكفرهم وإعراضهم: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وإذن يكون القول بأن هؤلاء المهلكين معذورين، من الكفر البواح الذي اتفق عليه أرباب الديانات جميعاً.

٣ - أن القائلين بهذا القول من الاحتجاج بالقدر، متناقضون تناقضاً صريحاً؛ فإن القدر - لو كان حجة - قول لا يقره أحد، ولا يتعاشر عليه اثنان، ولا تستقيم عليه جماعة، ولا تقوم به مصلحة في دين أو دنيا، فلا يُلام مُقَصِّر، ولا يُعاقب مجرم، ولا يُحاسَب ظالم، ولا يُجاهَد عدو، ولا يقاوم باطل، ولا يُقام حدٌّ، ولا يُؤمر بمعروف، ولا يُنهى عن منكر، ومقتضى هذا فسادٌ في الحياة، وهلاك المجتمع كله.

ويلزم الذي يحتجُّ بالقدر ويتعلل به، ألا ينكر على من يظلمه ويعتدي عليه، فيهضم حقه، أو يسلب ماله، أو يهتك عرضه، أو يستحلُّ دمه، وكذلك كل من يهلك الحرث والنسل، ويسعى في الأرض فساداً.

ولا ريب أن هؤلاء ينكرون على من يظلمهم أو يعتدي عليهم، ولا يزال أحدهم يلوم زيداً، ويبغض عمرًا، ويشكو بكرًا، حتى إن الذي ينكر عليهم مقاتلتهم هذه يبغضونه ويعادونه، ولا يعتذرون له بما اعتذروا لأنفسهم.

وهذا كله دليلٌ على كذبهم في دعواهم، وتناقضهم في قولهم،
والتناقض دليل الفساد والبطلان.

فتبين بهذا أن قولهم فاسد في العقل، كما أنه ضلالٌ في الشرع.

٤ - أن تعلل المذنب العاصي بالقدر جهل؛ لأنه تعلل بما لا يجوز
التعلل به، وهو مع ذلك تعلل لا ينفع صاحبه، بل يضره، فإن الاعتلال
بالقدر ذنبٌ ثانٍ يعاقب عليه أيضاً.

وقد روي أن رجلاً سرق فقال لعمر: سرقت بقضاء الله وقدره. فقال
له: وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره^(١)!

وإنما اعتلّ بالقدر إبليس حيث قال بعد أن عصى واستكبر وطرده:
﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحجر: ٣٩]. فنسب الإغواء إلى
الله، ولم يذكر أنه عقوبة على استكباره وكفره.

وأما آدم فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. فمن أراد الله سعادته ألهمه أن يقول ما قال
آدم عليه السلام، ومن كُتبت عليه شقوته اعتلّ بعلّة إبليس، فيكون كالمستجير
من الرمضاء بالنار.

فالمسلم يؤمن بالقدر ولا يعتذر به عن تقصيره وتعدّيه، فمن احتجّ
بالقدر، فحجّته داحضة، ومن اعتذر به، فعذره غير مقبول.

وقد شبّه شيخ الإسلام ابن تيمية من يتعلّل بالقدر عند وقوع الذنوب،
برجل طار إلى داره شرارة نار، فقال له العقلاء: أطفئها لئلا تحرق المنزل

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٢٣٤/٣).

فأخذ يقول: من أين كانت؟ هذه ريح ألقته وأنا لا ذنب لي في هذه النار. فما زال يتعلّل بهذه العلل حتى استعرت وانتشرت وأحرقت الدار وما فيها^(١).

هذه حال مَنْ شرع يحمّل الذنوب على المقادير، ولا يردّها بالاستغفار والمعاذير، بل حاله أسوأ من صاحب الشرارة، فربّما لم يكن له يد فيها ولا تقصير، بخلاف المذنب، فإنه مسؤول عن ذنبه.

هل احتج آدم على الذنب بالقدر؟

جاء في الصحيحين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجّ آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم، أنت أبونا، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة. فقال آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه، وخطّ لك التوراة بيده! أتلومني على أمر قدّره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟». فقال النبي ﷺ: «فحجّ آدم موسى، فحجّ آدم موسى، فحجّ آدم موسى»^(٢). ومعنى حجّه: غلبه.

وفي رواية: «احتجّ آدم وموسى عند ربّهما، فحجّ آدم موسى. فقال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنّته، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض! قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كلّ شيء، وقربك نجياً، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟

(١) مجموع الفتاوى (٢٠٠/٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢) (١٣)، كلاهما في القدر، عن أبي هريرة.

قال موسى: بأربعين عامًا.

قال آدم: هل وجدت فيها: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ، فَغَوَىٰ﴾؟

قال: نعم.

قال: أفتلومني على أن عملت عملاً كتب الله عليّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟».

قال رسول الله ﷺ: «فحجَّ آدمُ موسى»^(١).

وفي لفظ: «أن موسى قال لآدم: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة»^(٢). وفي لفظ آخر: «فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة»^(٣).

لقد تسرّع بعض الناس فأنكروا هذا الحديث حين ظنوه سنداً للاحتجاج على الذنوب بالقدر، وتمحّل له آخرون تأويلات غير مقبولة، واتّخذ آخرون تكأة يتوكّؤون عليها، ويستندون إليها إذا وقعوا في الذنوب والآثام.

والحديث لا مطعن في صحّته، فقد رواه الشيخان، من حديث أبي هريرة، ورؤي في السنن بإسناد جيد من حديث عمر رضي الله عنه.

ومعنى الحديث واضح، لا يحتاج إلى تكذيب ولا تمحّل، ولا مستند فيه للمحتجّين على الذنوب بالأقدار؛ فإنّ موسى حين لام آدم لم

(١) رواه مسلم في القدر (٢٦٥٢) (١٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٠٩)، ومسلم في القدر (٢٦٥٢) (١٥).

(٣) رواه أبو داود في السنة (٤٧٠٢).

يُلْمُهُ على ما فعل لأجل حقِّ الله في الذنب، وإنما لآلمه لأجل ما حدث لذريته من المتاعب والآلام؛ بسبب أكله من الشجرة وخروجه من الجنة، وهبوطه إلى الأرض، فكأنَّ موسى أراد بِمُحَاجَّتِهِ: أن يحمِّل أباه آدم مصيبة البشريَّة كلها وعنادها، بسبب اللقمة التي أكلها من الشجرة، لهذا كان قوله: «لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟». ولم يُقَلْ له: لماذا عصيت؟ أو لماذا أكلت من الشجرة التي نُهيَتْ عنها؟

وآدم على حقٍّ حين دافع عن نفسه، فحجَّ موسى وخصَّمه بأنَّ حياة البشر على الأرض وتكليفهم فيها، وآلامهم بها، قدَّر سبق من الله قبل وجود آدم.

والمؤمن مأمور عند نزول المصائب أن يرجع إلى القدر، ويحتمي به، فإنَّ سعادة العبد أن يفعل المأمور، ويترك المحذور، ويسلم للمقدور، ولهذا علَّمنا رسول الله ﷺ أن نقول عند حلول ما نكره: «قدَّر الله، وما شاء فعل»^(١).

فمن الخطأ الواضح، بل من الضلال المبين، أن يُعتقد أن موسى كليم الله إنما لام آدم على ذنبه ومعصيته، وأنَّ أبا البشر آدم اعتذر عن وقوع المعصية بالقدر السابق.

ذلك أنَّ آدم كان قد تاب من ذنبه، وتقبَّل الله توبته، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَجَبْنَاهُ رَبُّهُ، فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، وموسى ﷺ ومن هو دون موسى منزلة، يعلم أنه بعد التوبة والمغفرة، لا يبقى وجه للامامة على الذنب، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

(١) رواه مسلم في القدر (٢٦٦٤)، وأحمد (٨٧٩١)، عن أبي هريرة. وسيأتي بتمامه في ثمار الإيمان بالقدر.

وآدم أعلم بالله جلّ شأنه من أن يحتجّ بالقدر على الذنب، كيف وقد اعترف به، واستغفر منه بقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]؟ وموسى أعلم بالله من أن يقبل هذه الحُجّة أو هذا الاعتذار.

فإن هذا لو كان عذراً لعذر به إبليس عدو آدم، وعذر به فرعون عدو موسى، وعذر به كل عدو لله، ولبيّ للشيطان، وبطل بذلك أمر الله ونهيه، وانهار الدين كله من أساسه.

هذا جواب شيخ الإسلام ابن تيمية^(١).

ولتلميذه الإمام ابن القيم جواب آخر: وهو أنّ الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع، ويضرّ في موضع.

فينفع إذا احتجّ به بعد وقوعه، والتوبة منه، وترك معاودته - كما فعل آدم - فيكون في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد، ومعرفة أسماء الرب وصفاته، وذكرها ما ينفع الذاكر والسماع؛ لأنه لا يدفع بالقدر أمراً ولا نهياً، ولا يبطل به شريعة، بل يخبر بالحق المحض على وجه التوحيد، والبراءة من الحَوْل والقوة.

وأما الموضع الذي يضر الاحتجاج به، ففي الحال والمستقبل، بأن يرتكب فعلاً محرماً، أو يترك واجباً، فيلومه عليه لائم، فيحتجّ بالقدر على إقامته عليه وإصراره، فيبطل بالاحتجاج به حقاً، ويرتكب باطلاً. كما احتجّ به المصرون على شركهم وعبادتهم غير الله بقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

(١) مجموع الفتاوى (١٠٨/٨).

فهذا ضدُّ احتجاج مَنْ تبيَّن له خطأ نفسه، وندم وعزم كلَّ العزم على ألا يعود، فإذا لامه لائم بعد ذلك قال: كان ما كان بقدر الله.

قال ابن القيم: «ونكته المسألة: أنَّ اللوم إذا ارتفع صحَّ الاحتجاج بالقدر، وإذا كان اللوم واقعاً، فالاحتجاج بالقدر باطل»^(١).

مَنْ هُوَ الْمَعْذُورُ حَقًّا؟

إنَّ سبقَ القدر بالعمل، أو المعصية والمنكر، لا يجعل الإنسان معذوراً؛ لأنَّ القدر لا ينفي ولا يعارض وجود العلم بالعمل، والمشية له، والقدرة عليه.

إنما المعذور حقاً مَنْ فقد العلم بالعمل، أو الإرادة له، أو القدرة عليه. وهذا هو المعذور عند الله.

فمَنْ فقد العلم بأن لم يكن أهلاً للمعرفة، كالصبي والمجنون، أو مَنْ لم تبلغه الدعوة، كان معذوراً، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال الرسول ﷺ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبُرَ، وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ»^(٢).

وكذلك يعذر مَنْ لا إرادة له في العمل، كالمُكره والناسي والمخطئ، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]. وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْرَهَا عَلَيْهِ»^(٣).

(١) شفاء العليل ص ١٨.

(٢) رواه أحمد (٢٤٦٩٤)، وقال مخرّجوه: إسناده جيد. وأبو داود في الحدود (٤٣٩٨)، والنسائي في الطلاق (٣٤٣٢)، عن عائشة.

(٣) رواه ابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٥)، وابن حبان في إخباره عن مناقب الصحابة (٧٢١٩)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري. والطبراني في الأوسط (٢١٣٧)، والحاكم في =

وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

ومثل ذلك المضطر، فإن إرادته كلا إرادة، لوجود الضرورة الملجئة. قال تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وكذلك يعذر العاجز عن العمل المكلف به، فإنه يسقط عنه إلى بدله، أو إلى غير بدل، فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وإلا ما آتاها، فالاستطاعة شرط في التكليف، قال تعالى: ﴿فَأَتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال في الحج: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال في الجهاد: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال القرآن على لسان سيدنا شعيب: ﴿قَالَ يَتْلُوا آيَاتِ اللَّهِ أَنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَضَكُمْ عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. وفي الحديث: «إذا أمرتكم بأمر، فأتوا منه ما استطعتم»^(١).

ولهذا يصلي قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم يستطع فمضطجعاً أو مستلقياً كيفما استطاع. والمريض في الصيام يفطر ويقضي، والشيخ الكبير يفطر ويفدي.

= الطلاق (١٩٨/٢): وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٦٤)، عن ابن عباس. وحسنه النووي في الأربعين، وهو الحديث التاسع والثلاثون. (١) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، عن أبي هريرة.

هل يُدفع القدر؟

يتصوّر بعض الناس أنّ القدر لا يُدفع، فمن قَدَّر الله عليه الفقر، فهو فقير، ومن قَدَّر الله له الغنى، فهو غني، ومن قَدَّر له العافية فهو معافى، لا محالة، ومن قَدَّر عليه المرض، فسيمرض ولا بد.

ومن أجل هذا يقول هؤلاء: إنّ الدعاء لا ثمرة له، ولا فائدة فيه؛ لأنه لا يغيّر من المقدور شيئاً؛ لأن ما قُضي كائن، وما قُدِّر نافذ، بالدعاء أو بعدمه، والدعاء لا يغيّر من الواقع المقدور شيئاً.

ونقول لهؤلاء:

١ - ما أمر به الله من أقدار قد غيَّب علمه عنا، واختصَّ به نفسه، لحكمة بالغة، ونحن لا نعرف أن الأمر مقدَّر لنا أو علينا إلا بعد وقوعه. أما قبل ذلك فكل الممكنات مستوية الوقوع وعدمه بالنسبة إلينا.

إنّما الغيب كتاب صانه عن عيون الخلق ربُّ العالمين ليس يبدو منه للناس سوى صفحة الحاضر حيناً بعد حين^(١)

ومن هنا وجب علينا أن نُقدِّم على قول الحق أو عمل الخير، وكأنه ليس هناك قدر سابق، أو ليس علينا أن ننظر إلى ما قدر الله، بل إلى ما شرع الله. فهذا هو الذي في استطاعتنا، وهو الأنفع لنا.

وهذا يوجب علينا أن نعتصم بالدعاء إلى الله؛ لأنه أمر ندب إليه الشرع، وأمر به، وجعله سبباً من أسباب الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، كما يدفع الله به الشرّ والشقاء في الآخرة والأولى.

(١) البيتان للعقاد مترجمين عن الشاعر الإنجليزي بوب، كما في ديوانه: ديوان من الدواوين

ص ١١٨، نشر نهضة مصر، ٢٠٠١م.

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يردُّ القدرُ إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»^(١). ومعنى أنه يرد القدر: أنه يدفعه كما تدفع كل الأسباب مسبباتها.

وقد حكى شيخ الإسلام ابن تيمية عن الصوفي المربي الشهير الشيخ عبد القادر الجيلاني أنه قال:

«كثير من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، وأنا انفتحت لي فيه روزنة (كوة)، فنازعت أقدار الحق بالحق، والولي من يكون منازعاً للقدر بالقدر، لا موافقاً له».

وعقَّب ابن تيمية على ذلك بقوله: «وهو رضي الله عنه كان يعظُّ الأمر والنهي، ويوصي باتباع ذلك، وينهي عن الاحتجاج بالقدر، وكذلك شيخه حماد الدباسي^(٢)، وذلك لما رأوه في كثير من السالكين من الوقوف عند القدر المعارض للأمر والنهي، والعبدُ مأمورٌ بأن يجاهد في سبيل الله، ويدفع ما قدَّر من المعاصي بما يقدر من الطاعة، فهو منازع للمقدور المحظور بالمقدور المأمور، لله تعالى. وهذا هو دينُ الله الذي بعث به الأولين والآخرين، من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين»^(٣).

(١) رواه أحمد (٢٢٤١٣)، وقال مخرَّجوه: حسن لغيره. وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٢)، وابن حبان في الرقائق (٨٧٢)، والحاكم في الدعاء (٤٩٣/١)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، عن ثوبان.

(٢) حماد بن مسلم بن دُدُو، أبو عبد الله الدباس الرَّحْبِي، نشأ ببغداد، كان من أولياء الله أولي الكرامات، انتفع بصحبته خلق، وكان يتكلم على الأحوال، كتبوا من كلامه نحوًا من مائة جزء، وكان قليل العلم أُمِّيًّا، توفي في رمضان سنة (ت: ٥٢٥هـ). سير أعلام النبلاء (٥٦٩/١٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٠٦/٨، ٣٠٧).

وقد ردَّ الإمام ابن القيم على مَنْ سأل عن فائدة الدعاء فقال: «إن المدعوَّ به إن كان قد قُدِّر، لم يكن بد من وقوعه، دعا به العبد أو لم يدعُ، وإن لم يكن قُدِّر، لم يقع، سواء سأل العبد أم لم يسأله».

فذكر أنه يمكن أن يقال لأحد هؤلاء: «إن كان الشبع والرِّيُّ قد قُدِّر لك، فلا بد من وقوعهما، أكلت أم لم تأكل، وإن لم يُقَدَّر لم يقع، أكلت أم لم تأكل، وهكذا في كل الأمور.

فهل يقول هذا عاقلٌ أو آدمي؟

بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التي بها قوامه وحياته، فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً.

إنَّ هذا المقدَّر قُدِّر بأسبابه، ومن أسبابه الدعاء. فلم يُقَدَّر مجرداً عن سببه، ولكن قُدِّر بسببه، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور، ومتى لم يأتِ بالسبب انتفى المقدور.

وهذا كما قُدِّر الشبع والرِّيُّ بالأكل والشرب، وقُدِّر الولد بالوطء، وقُدِّر حصول الزرع بالبذر. وحينئذ فالدعاء من أقوى الأسباب، فإذا قُدِّر وقوع المدعو به لم يصح أن يقال: لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال: لا فائدة في الأكل والشرب، وجميع الحركات والأعمال.

وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء، ولا أبلغ في حصول المطلوب»^(١).

(١) الجواب الكافي ص ٢٦ - ٢٩.



وقال ابن القيم: «الفقيه كل الفقيه: الذي يردُّ القدرَ بالقدر، ويدفع القدرَ بالقدر، ويعارض القدرَ بالقدر. بل لا يمكن للإنسان أن يعيش إلا بذلك؛ فإنَّ الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر، والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر، وهكذا من وفقه الله وألهمه رُشده يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة، فهذا وزان القدر المخوف في الدنيا، وما يضاده سواء، فَرُبُّ الدارين واحد، وحكمته واحدة، لا يناقض بعضها بعضًا، ولا يبطل بعضها بعضًا»^(١).

* * *

(١) الجواب الكافي ص ٣٤، ٣٥.

الإنسان بين الهدى والضلال

باب الهدى مفتوح للجميع:

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي شَاءَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ مَسْئُولًا عَنْ نَفْسِهِ، وَأَنْ يَكُونَ مُصِيرَهُ بِيَدِهِ، وَجَعَلَ فَلَاحَهُ مُرَبُوطًا بِسَعْيِهِ وَكُسْبِهِ، مُنَوِّطًا بِجَهْدِهِ وَجَهَادِهِ، وَرَغْبَتِهِ فِي التَّرَقِّيِّ وَالتَّطْهِيرِ، وَإِثَارِهِ لِلْحَقِّ عَلَى الْهَوَى، وَلِلرُّشْدِ عَلَى الْغِي، وَلِلْهُدَى عَلَى الضَّلَالَةِ.

وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ حَافِلٌ بِالْآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ الَّتِي تَقَرَّرُ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ، الَّتِي عَلَيْهَا يَقُومُ بِنَاءُ التَّكْلِيفِ وَالْخُطَابِ، وَعَلَى أَسَاسِهَا جَاءَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، وَالْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ، وَعَلَيْهَا بُنِيَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ.

لنقرأ على سبيل المثال هذه الآيات:

- ﴿ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ ﴾ [الإسراء: ١٥].
- ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ ﴾ [الأنعام: ١٠٤].
- ﴿ إِنِ احْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ ﴾ [الإسراء: ٧].
- ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ۚ ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۖ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۚ ﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۖ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۚ ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥].



- ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۖ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ۚ ﴾ [القيامة: ١٤، ١٥].
- ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ۖ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ۖ ﴾ [النجم: ٣٩، ٤٠].
- ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].
- ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩].
- ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].
- ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ۖ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ۖ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۖ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ۖ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ۖ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [النازعات: ٣٥ - ٤١].

ولا غرو أن عجب القرآن من الذين لا يؤمنون ولا يهتدون، مع ما يسر لهم من سبل الهدى، وموجبات الإيمان في الأنفس والآفاق.

لنقرأ مثل هذه الآيات:

- ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ [الانشقاق: ٢٠، ٢١].
- ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ ۖ كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ۖ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١].

- ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَانْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ﴾ [النساء: ٣٩].

- ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ [الحديد: ٨].

ومثلها ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

[الحديد: ١٠].

وهل يسوغ في العقل أن يخاطب المَجْبُورَ المسيرَ بمثل هذا الأسلوب الذي يُشعر بأن المكلفين لهم تمام الحرية في الإيمان والهدى، وأن عليهم المسؤولية في الضلال والغى؟

نعمتان هما أصل كل سعادة:

إن الله سبحانه قد أنعم على عباده بنعمتين عظيمتين، هما أصل لكل سعادة، ومصدر لكل خير.

أولاهما: أنه خلقهم في أصل النشأة على الفطرة السليمة الصحيحة، بحيث لو تركت النفس وفطرتها، لاهتدت إلى خالقها سبحانه وآمنت به، فكل مولود يولد على الفطرة، وإنما تنحرف الفطرة بعوامل خارجية، ومؤثرات غريبة عنها، كتأثير الأبوين والبيئة، ونحو ذلك.

الثانية: أنه تعالى هدى الناس هداية عامّة، لم يخص بها قوماً دون قوم، ولا جماعة دون جماعة، ولا فرداً دون فرد، وذلك بما أودع فيهم من عقول، يتمكنون بها من المعرفة، وما أنزل إليهم من كتب، وأرسل إليهم من الرسل، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، ومن رحمة الله وفضله: أنه لا يعذب عباده بموجب ما أودع في فطرتهم، وما رغب في عقولهم، حتى تبلغهم دعوة رسله، فإذا لم تبلغهم كانوا معذورين عنده: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

معنى: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾:

بقيت هنا آيات يشتهب معناها على كثير من الناس، ويتخذها الميالون إلى الجبر سنداً لهم، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨]، ومثل قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾

وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ، يُجْعَلْ صَدْرُهُ ضَيْقًا حَرَجًا ﴿[الأنعام: ١٢٥]، وقوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

فإذا كان الله يضلُّ مَنْ يشاء، ويهدي مَنْ يشاء، وَمَنْ أضلَّهُ فلا هادي له أبداً، فكيف السبيل إلى الهداية والطريق إليها مسدود، إلا أن يشاء الله، وكيف يأمن الإنسان ألا يضلّه الله، ويجعل صدره ضيقاً حرجاً؟

كيف يجد الإنسان سبيل الهدى إذا ختم الله على قلبه وسمعه، وجعل على بصره غشاوة، وجعل بينه وبين الإيمان حجاباً مستوراً؟

هذا ما يقوله الذين يخطفون الآيات خطفاً، دون أن يتدبروها، ويربطوا بعضها ببعض، فإن القرآن يفسر بعضها بعضاً، ويصدق بعضها بعضاً: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

إنَّ الله تعالى يقول: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، كما قال: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩]. وقد جاءت الآيات المحكمات تبين أنَّ الله لا يغفر لأهل الشرك، كما لا يعذب أهل الإيمان والشكر، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ١١٦]، ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَعَاسَمْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، وبعد هذه التخصيصات لم يجز تفسير الآية بإبقاء المشيئة مطلقة، بحيث نرجو المغفرة للمشركين المصيرين، ونخاف العذاب على النبيين والصديقين.

وكذلك آيات الإضلال والختم والطبع التي وردت عامة، فقد خصصتها آيات أخر، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ

﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧]، فالإضلال لم يكن إلا عقاباً جُوزي به الفاسقون، الناقضون للعهد، المفسدون في الأرض، ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٠]، ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ٣٣]، ﴿ وَنَقَلْبُ أَفْئِدَتِهِمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠]، ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥]، ﴿ وَأَمَّا مَنْ يَجَلُ وَأَسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَىٰ فَسَنِيسِرُهُ لِّلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٨ - ١٠]، ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٥]، وفي الآية ردُّ لقولهم: إن قلوبهم خُلِقَتْ غُلْفًا، لا تقبل هدى ولا حقًا، فبيّن أن الله لم يخلق قلبًا مطبوعًا على الكفر، بل يعاقب المعاندين الكافرين بالطبع على قلوبهم. كما قال تعالى: ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [يونس: ٧٤]، وقال: ﴿ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ [المائدة: ١٣]، ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥].

فليس معنى الآيات المذكورة في الختم والطبع، والسد والغشاوة، والران ونحوها، أن الله حال بينهم وبين الهدى، وسدَّ عليهم طريق الإيمان؛ إذ لو صحَّ ذلك لكان لهم الحجة على الله تعالى أن يقولوا: كيف يدعوننا إلى أمر ثم يحول بيننا وبينه؟ كيف يعاقبنا عليه وقد منعنا من فعله؟ وكيف يكلِّفنا بأمر لا قدرة لنا عليه؟ وهل هذا إلا بمثابة من أمر خادمه أو ابنه بالدخول من باب، ثم سدَّه عليه سدًّا محكمًا، لا يستطيع الدخول منه بحال، ثم عاقبه أشد العقوبة على عدم دخوله؟ أو بمنزلة من أمره بالمشي إلى موضع، ثم قيَّده بقيد لا يمكنه معه نقل قدميه، ثم أخذ يعاقبه على عصيانه للأمر؟!!

وإذا كان هذا قبيحاً في حق المخلوقين الفقراء المحتاجين، فكيف ينسب إلى ربِّ العالمين، مع كمال غناه وعلمه، وعدله وإحسانه ورحمته؟ وقد كَذَّبَ الله الذين قالوا: قلوبنا غلف، وفي أَكِنَّة، وأنها قد طُبِعَ عليها، وذَمَّهم على هذا القول، وجعله من جملة جرائمهم الموبقات.

ولكن القوم لما أعرضوا عن الإيمان، وتركوا الاهتداء بهدى الله الذي أرسل به رسله، عاقبهم الله في قلوبهم بالختم والطبع والقسوة ونحوها، جزاءً وفاقاً على كفرهم وصدّهم عن سبيل الله، وهو لونٌ من العذاب الأدنى الذي جاء به الوعيد.

والله تعالى يعاقب على الضلال المقدور بإضلالٍ بعده، ويُثيب على الهدى بهدى بعده، كما يعاقب على السيئة بسيئة مثلها، ويثيب على الحسنة بحسنة مثلها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

وبهذا يتّضح لنا أن الإضلال والختم على القلوب ونحوها، ليست أسباباً للكفر والفسوق والعصيان، بل هي نتائج لها، وعقوباتٌ عليها، وفُقًا لسنّته تعالى في الأسباب والمسببات، وهذا واضح حتى في الآية التي تشبهه على الكثيرين ويعدونها السند الأول للجبر، وهي قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ، يُجْعَلْ صَدْرُهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. فختام الآية يدلُّ على أن سنّة الله أن يجعل هذا الإضلال على الذين لا يؤمنون: كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]، ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

فالذي آتاه الله البصيرة فطمسها، ولوث قلبه بالكذب والكفر، والإسراف والارتياح، والظلم والفسوق، لن يجد هداية الله؛ لأنه سدّ على نفسه طريقها، وأغلق دونه بابها، بسوء عمله وسلوكه، وللسلوك آثار حتمية في النفس، اقتضتها سنة الله في الخلق: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣].

فإن قيل: فكيف جاء الكفر والذنوب الأول، الذي عوقبوا عليه بالختم والطبع ونحوها؟

قلنا: إنّ أول ما يقع من المكلف من الذنوب، إنما يأتي نتيجة التخلية بينه وبين نفسه، دون إضلال من الله تعالى في هذه الحال، ولا تيسير للعسرى.

كلّ ما في الأمر أنه تركه ونفسه، وولاه ما تولى، كما عبّر القرآن عن ذلك بأفصح عبارة فقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]^(١).

تفسير غير مقبول للآية الكريمة:

وقد ذهب بعض المعاصرين في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨]، إلى معنى يصرف الآية عن المتبادر منها لمن يقرؤها فالمعنى المتبادر: أن ضمير الغائب المستتر في فعل ﴿يَشَاءُ﴾، يرجع إلى الله تعالى، أي: أنّ الله تعالى يضلّ من يشاء إضلاله، ويهدي من يشاء هدايته، فكلّ الأمور راجعة إلى مشيئته المطلقة، التي لا يحدها شيء سواه، فهو يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

(١) شفاء العليل لابن القيم ص ١٧٧، ١٧٨ بتصرف.

ولكن هذا المفسر العصري، زعم أن الضمير في ﴿يَشَاءُ﴾، يرجع إلى اسم الموصول ﴿مَنْ﴾، أي: إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ الضلالة لنفسه، ويهدي مَنْ يَشَاءُ الهداية لها، فالذي يشاء هنا هو الإنسان المطلق، وليس الله تعالى. وبهذا تؤكد الآية مسؤولية الإنسان عن نفسه، وأن مصيره بيديه.

ولكن هذا التفسير غير مرضي ولا مقبول، لعدة أوجه:

الأول: أنه غير المتبادر لتالي القرآن.

الثاني: أنه مخالف لأمثاله في القرآن، في نحو قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الفتح: ١٤]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

فهذه الآيات وأمثالها يعود الضمير فيها إلى الله تعالى، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ من عباده المغفرة، بل لما يشاؤه هو، وكذلك يعذب مَنْ يَشَاءُ عذابه هو، ولا أظنُّ أحدًا يشاء العذاب لنفسه، ومثل ذلك الرزق، كما هو واضح من السياق.

الثالث: ما جاء من القرآن في ذلك بصيغة الخطاب لله ﷻ، كما في قوله تعالى على لسان موسى ﷺ يناجي ربه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

أثر الأعمال في النفس:

وهنا حقيقة لا بدَّ أن نقرَّرها بوضوح.

وهي: أن للأعمال آثارها في النفس حسب سنَّة الله، صالحة كانت أم سيئة، كما شرح ذلك ابن تيمية وابن القيم، وقبلهما الغزالي، وغيرهم.

فالصلاة إذا حافظ عليها الإنسان، ووفّاها حقّها من الخشوع والمراقبة والإخلاص، أثمرت لصاحبها نورًا في القلب، وانشراحًا في الصدر، وطمأنينة في النفس، ونشاطًا في البدن، وقوة في العزيمة، وبهاء في الوجه، وانتهاء عن الفحشاء والمنكر، إلى غير ذلك مما نعلمه وما لا نعلمه.

وهذه الآثار هي أسباب مُفضية إلى آثار أخرى من جنسها أو من غير جنسها، أرفع منها وأعظم، وهذه الآثار كلّها نوع من الثواب العاجل على العمل الصّالح.

والعمل السيّئ أيضًا، له أثره ونتائجه المترتبة عليه.

فتعمّد الكذب والخيانة والغدر، يثمر لصاحبه ضيقًا في الصدر، وظلمة في القلب، ونقصًا في اليقين، واسودادًا في الوجه، وبغضًا في قلوب الخلق، واجترأ على ذنب آخر من جنسه أو من غير جنسه، وهكذا.

ومثل ذلك: شرب الخمر أو الزنى أو أكل الربا، تجد لكلّ هذه الأعمال آثارها الحتمية في النفس والسلوك، وفي العقيدة والخلق، وفي العقل والقلب، وفي الوجدان والإرادة.

وهذا شيء نلمسه ونشاهده، في الناس وفي أنفسنا، ولهذا قيل: «إنّ من ثواب الحسنة: الحسنة بعدها، ومن عقاب السيئة: السيئة بعدها».

فهذه الآثار التي تورثها الأعمال هي جزء من الثواب والعقاب وإفضاء العمل إليها واقتضاؤه إيّاها، كإقتضاء جميع الأسباب لمسبباتها. فهو سبحانه خالق الأسباب والمسببات، ومانحها قواها وتأثيراتها، ومجريها وفق مشيئته وحكمته.



والإنسان إذا أكل أو شرب حصل له الشَّبَع والرِّي، نتيجة لازمة لتناول الطعام والشراب؛ فقد ربط الله سبحانه الشبع والري بالأكل والشرب ربطاً محكمًا، ولو شاء ألا يشبعه ويرويه مع وجود الأكل والشرب فعل، إما بالأكل يجعل في الطعام خاصّة الإشباع، أو بأن يجعل في المحل قوة مانعة من القبول، أو بما يشاء ﷻ. ولو شاء الله أن يشبعه ويرويه بلا زاد ولا ماء، ولا أكل ولا شرب، أو بأكل شيء غير معتاد، ما حال دون ذلك حائل.

وبيان ذلك: أن نفس الأكل والشرب باختيار الإنسان ومشيئته، التي هي من فعل الله ﷻ أيضًا، وحصول الشبع عقب الأكل ليس للمرء فيه صنع البتّة، حتى لو أراد دفع الشبع عنه بعد تعاطي الأسباب الموجبة له لم يقدر. وكذلك نفس العمل، هو بإرادته واختياره، فلو شاء أن يدفع أثر ذلك العمل وثوابه بعد وجود موجب لم يقدر.

ومن هنا نعلم: أن ما يصاب به بعض الناس من ختم على قلبه، أو عمى عن رؤية الحق، أو صَمَمٍ عن سماع ندائه، فهو أثر أعمالهم، ومقتضى سلوكهم الاختياري، سنّة الله في خلقه.

يقول العلامة ابن القيم في ذلك ما خلاصته: «إذا أردت فهم هذا على الحقيقة، فتأمل حال من عُرِضَتْ له صورة بارعة الجمال، فدعاه حسنُها إلى محبّتها، فنهاه عقله، وذكره ما في ذلك من التلف والعطب، وأراه مصارع العُشّاق عن يمينه وعن شماله، ومن بين يديه ومن خلفه، فعاد يعاود النظر مرة ومرة، ويحثُّ نفسه على التعلُّق، ويحرّضها على أسباب المحبّة، ويؤدني الوقود من النار، حتى إذا اشتعلت، وشبَّ ضرامها، ورمّت بشررها، وقد أحاطت به، طلب الخلاص، فقال له القلب: هيهات، لات حين مناص! وأنشده:

تولّع بالعشق حتى عشق فلما استقلّ به لم يُطق
 رأى لجة ظنّها موجة فلما تمكّن منها غرق^(١)
 فكان الترك أولاً مقدوراً له، فلمّا تمكّن الداعي، واستحكمت
 الإرادة، قال المحب لعاذله:

يا عاذلي والأمر في يده هلا عذلت وفي يدي الأمر؟
 فكان أول الأمر إرادة واختياراً، ووسطه اضطراراً، وآخره عقوبة
 وبلاء^(٢) انتهى.

* * *

(١) البيتان لابن نحرير محمد بن المظفر، كما في تاريخ الإسلام للذهبي (٦٥/١٠)، تحقيق د. بشار عوّاد معروف، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.
 (٢) شفاء العليل ص ١٣٨.

سرُّ القدر

بقي في القدر (منطقة حرام) يجدر بالعقول الحصيفة ألا تقتحمها، ولا تحوم حول حماها، وهي التي تتعلّق بحكمة الله فيما خصّص واختار من أشياء، وما قضى من ألم وبلاء.

لماذا أعطى هذا، ومنع ذلك؟ ولماذا اختصّ قومًا بلطفه وهدايته، ولو شاء لهدى الناس أجمعين؟ لماذا اقتضت حكمته أن يُعصى ولو شاء ما عُصي؟ لماذا خلق هذا الإنسان الظلوم الجهول الكفور؟ ولماذا لم يخلقه على طبيعة خيرة كطبيعة الملائكة؟

هذه الأسئلة ونظائرها لا جواب لها يشفي إلا التسليم لمحضر المشيئة الإلهية الطليقة من كلّ قيد، إلا ما تقضيه الحكمة الإلهية التي نعلم من آثارها القليل، ونجهل الكثير، وجهلنا بها لا ينفي وجودها.

ويكفي العاقل، كما قال الإمام ابن تيمية: «أن يعلم أن الله عَزَّ وَجَلَّ، عليم حكيم، بهرت الأبواب حكمته، ووسعت كلّ شيء رحمته، وأحاط بكلّ شيء علمه، وأحصاه لوحه وقلمه، وأنّ الله تعالى في قدره سرًّا مصونًا، وعلمًا مخزونًا، احترز به دون جميع خلقه، واستأثر به على جميع بريّته، وإنما يصل أهل العلم به، وأرباب ولايته إلى جُمل من ذلك، وقد لا يؤذن لهم في ذكرها. وربما كلموا الناس في ذلك على قدر عقولهم، وقد سأل موسى وعيسى وعُزَيْر ربنا تبارك وتعالى، عن شيء من سرّ القدر، وأنه لو شاء أن يطاع لأطيع، وأنه مع ذلك يُعصى، فأخبرهم سبحانه أن هذا سره. وفي هذا المقام تاهت عقول كثير من الخلائق»^(١).

(١) مجموع الفتاوى (٣٩٩/٨).

سؤال عن وقوع الشرور والقبائح في العالم:

وينجم هنا سؤال آخر: إذا كان كل ما يحدث في الكون - ومنه الشرور والمعاصي والقبائح والفساد - واقعًا بإرادة الله - الإرادة الكونية - ولو شاء الله ما وقع، فكيف يتفق هذا مع حكمته تعالى ورحمته وبرّه وإحسانه؟ لماذا لم يمنع هذه المعاصي والقبائح والمفاسد؟ لماذا أرادها وهو ذو الحكمة والرحمة؟

هذا السؤال سؤال قديم جديد أيضًا، ومضمونه التساؤل عن سرّ وجود الشرّ في العالم، وكيف يريد الله الشرّ، وهو مصدر كلّ خير ونعمة؟

الجواب:

أن هناك أشياء تُراد لنفسها بالقصد الأول، وأخرى تراد، ولكن لغيرها، فالمراد لنفسه مطلوب، محبوب لذاته ولما فيه من الخير، فهو مرادٌ لإرادة الغايات والمقاصد. والمراد لغيره قد لا يكون في نفسه مقصودًا للمريد، ولا فيه مصلحة له، بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده، فهو غير مقصود له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث إفضاؤه وإيصاله إلى مراده. فيجتمع فيه الأمران: بغضه وإرادته من غير تنافٍ، لاختلاف متعلقهما، كالدواء المتناهي في الكراهية، إذا علم تناوله أن فيه شفاءه، وقطع العضو المتآكل، إذا علم أن في قطعه بقاء جسده، وقطع المسافة الشاقة جدًّا، إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه.

بل العاقل يكتفي في إثارة هذا المكروه، وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عليه عاقبته، وطُوِيَتْ عنه مَغَبَّتُهُ، فكيف بمن لا تخفى عليه

العواقب؟ فهو سبحانه يكره الشيء ويبغضه في ذاته، ولا ينافي ذلك إرادته لغيره، لكونه سبباً لأمر هو أحبُّ إليه من فوته^(١).

حقيقة الأمر أن الله لم يخلق شراً محضاً، ولا شراً غالباً، بل لم يخلق شراً أبداً لا خير فيه، ذلك أنه سبحانه لم يخلق شيئاً إلا لحكمة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها، وجهل بعض الخلق بها لا ينفي وجودها، وحسب أولي الألباب من ذوي الفكر والذكر أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

كلُّ ما خلقه الله - إذن - من الأفلاك والجمادات والنباتات والحيوانات والجن والإنس والملائكة فهو مخلوق لحكمة، ومخلوق لله على أحسن وجه يليق بحكمة الخالق الحكيم: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]، ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ﴾ [المك: ٣]، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

«فالمخلوق باعتبار الحكمة التي خلق لأجلها خير وحكمة، وإن كان فيه شرٌّ من جهة أخرى، فذلك أمر عارض جزئي، ليس شراً محضاً، بل الشر الذي يقصد به الخير الأرجح، هو خير من الفاعل الحكيم، وإن كان شراً لمن قام به.

وظنُّ الظان أن الحكمة المطلوبة التامة قد تحصل مع عدمه، إنما يقوله لعدم علمه بحقائق الأمور، وارتباط بعضها ببعض، فإن الخالق إذا خلق الشيء، فلا بد من خلق لوازمه، فإن وجود الملزوم بدون اللازم ممتنع، ولا بد من ترك أضداده التي تنافيه، فإن اجتماع الضدين المتنافيين في وقت واحد ممتنع.

(١) انظر: مدارج السالكين (١٩٠/٢).

وهو سبحانه: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾، لا يُسْتثنى من هذا العموم شيء، لكن مسمّى (الشيء) ما تُصوّر وجوده، فأما الممتنع لذاته، فليس شيئاً باتفاق العقلاء^(١).

مثال ذلك: خَلَقَ الإنسان، هذا النوع المكلف المختار من الخليقة، فإن إبرازه من العدم إلى الوجود خير لا شرّ فيه، ومنحه العقل المفكر خير لا شرّ فيه، واستخلافه في الأرض ليعمرها خير لا شرّ فيه، وتكليفه طاعة الله فيها خير لا شرّ فيه.

وإنما جاء الشرّ من استعماله ما أوتي من العقل والإرادة والقدرة في غير ما خُلِقَ له، وفي غير ما طُلب منه وأمر به، وجاء كذلك من اختلاف العقول، وتنازع الإرادات بعضها وبعض، هذا الشرّ العارض جاء من الخير الثابت، الذي هو خلق الإنسان ذا عقل وإرادة وقوة ودوافع فطريّة، فهو لازم من لوازم ذلك الخير.

ومثل ذلك يقال في إنزال الأمطار مثلاً، فلا شك أن فيها الخير والرحمة والمنفعة ممّا لا يجادل فيه أحد، ولكنها قد تسبّب ضرراً لبعض الأحياء، ولكنه لازم من لوازم نزول المطر. وهو على كلّ حال شرّ جزئي قاصر، إذا قيس بالخير العام الذي ينال مجموع الخلق بسببها.

على أن حكمة الله التي نوقن بها في كلّ شيء، ولا تتيسّر معرفتها في كلّ وقت، ولكلّ الناس، وفي كلّ أمر.

فكم لله من سرّ خفيّ يدقّ خفاه عن فهم الذكي^(٢)

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٥١٢/٨، ٥١٣).

(٢) ينسب إلى الإمام علي بن أبي طالب، كما في الديوان المنسوب له ص ٢١٧، جمع عبد العزيز الكرم، ط ١، ١٩٨٨م.

ومن الحكيم ما تعجز عقولنا عن إدراكه واستيعابه، فخبّاه الله عنا، رفقا بنا لا ضنا علينا، فحسبنا أن نؤمن بالحكمة فيما خفي علينا سرّه، إيماناً إجمالياً عاماً، وأن نقول ما قال أولو الألباب: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ولهذا لما قال الله ﷻ للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، سألوه عن الحكمة في استخلاف هذا المخلوق الذي ليس مفطوراً على الطاعة مثلهم، والذي عرفوا من طبيعة خلقه أنه يفسد ويقتل: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]؟ فكان الجواب الإلهي: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. فتكفيهم المعرفة المجملّة والإيمان العام في هذا المقام.

فأعتقد أن هذه المنطقة من مناطق القدر، هي التي أمرنا أن نمسك عنها، ولا نخوض فيها، فإنها أكبر من طاقتنا القاصرة، وفوق عقولنا المحدودة، وفيها جاء الحديث: «إِذَا ذُكِرَ الْقَدْرُ فَأُمْسِكُوا»^(١).

ولا أظنّ القدر المراد في هذا الحديث ينافي بحث مسؤولية الإنسان عن عمله، وهل هو مسير في حياته أو مخير؟ فإن تحديد هذه النقطة أمر خطير يقوم عليه بنیان التكاليف كلّها. ومداخل الوهم هنا كثيرة، والمزالق جمّة، فلا بد من مطاردة الأوهام، وتصحيح الأفهام، وبخاصّة

(١) رواه الخرائطي في مساوئ الأخلاق (٧٤٠)، والطبراني (١٩٨/١٠)، وابن عدي في الكامل (١٧٠٥٤)، وضعف إسناده البيهقي في القضاء والقدر (٤٤٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٨٥١): رواه الطبراني، وفيه مسهر بن عبد الملك، وثقه ابن حبان وغيره وفيه خلاف، وبقية رجاله رجال الصحيح. وحسن إسناده العراقي في تخريج الإحياء ص ٣٩، عن ابن مسعود.

أنَّ الأمر يتعلق بفهم مجموعة كبيرة من آيات الكتاب العزيز، وأخرى من أحاديث الرسول الكريم، ضلَّ في فهمها المُفَرِّطون والمُفَرِّطون، وضربوا بعضها ببعض، فشرَّق ببعضها قوم، وغرَّب ببعضها آخرون.

والفرار من قضية القدر كلها - ومنها تحديد مسؤولية المكلفين - لا يحلُّ العقدة، ولا يعالج المشكلة ما دامت هذه الأفهام المغلوطة، والأوهام السائدة، قائمة في الرؤوس، مسيطرة على النفوس.

الممنوع في قضية القدر:

وإنما الممنوع في مسألة القدر أمران:

الأول: هو الخوض فيما لا تبلغ عقولنا معرفة تفاصيله، ولا نستطيع في هذه الحياة كشف أسرارهِ، فهو داخل في المتشابه، الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وموقف المؤمن هنا موقف الراسخين من العلماء، الذين أثنى الله عليهم بقوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

وهذا من إنصافهم ومعرفتهم قدر أنفسهم: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

الثاني: هو تحويل قضية القدر إلى قضية جدلية يتمارى فيها المُتَمَارُونَ، ويتنازع المتنازعون، وينقسم الناس فيها إلى فِرَق، كلُّ منهم يتعصَّب لما يراه، ويجرُّ إليه آيات من كتاب الله تعضده طوعاً أو كرهاً، مُهمِّلاً النظر في الآيات الأخرى، وبهذا يضربون القرآن بعضه ببعض.

وفي هذا وَرَدَ الحديث عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، فكأنما تفقأ في وجهه حبُّ الرمان

من الغضب، فقال لهم: «ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم»^(١).

وروى أحمد هذا الحديث رواية أخرى مفصلة عن عبد الله بن عمرو قال: لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحبُّ أن لي به حُمْر النِّعَم؛ أقبلت أنا وأخي، وإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرِّق بينهم، فجلسنا حَجْرَة - أي: ناحية منفردين - إذ ذكروا آية من القرآن، فتمارَؤا فيها، حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مُغَضَّباً، قد احمرَّ وجهه، يرميهم بالتراب، ويقول: «مهلاً يا قوم، بهذا أُهْلِكَت الأمم من قبلكم: باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكُتُب بعضها ببعض، إنَّ القرآن لم ينزل يكذِّب بعضه بعضاً، بل يصدق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردُّوه إلى عالمه»^(٢).

هذان هما الأمران الممنوعان في قضية القدر، ما يتصل بتقدير المعاصي والآلام والشرور الجزئية في العالم، والمرء في القدر إلى حدِّ التنازع والافتراق وضرب الكتاب بعضه ببعض.

أما ما عدا ذلك، فقد تحدَّث النبي ﷺ عن أمور في القدر، وسئل عن أشياء فيه، فبيَّنهما وصحَّح مفاهيم الناس فيها، وقد بُعث ليبين للناس ما نزل إليهم.

* * *

(١) رواه أحمد (٦٦٦٨)، وقال مخرجه: صحيح. وابن ماجه في المقدمة (٨٥)، وحسنه الألباني

في صحيح ابن ماجه (٦٩)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه أحمد (٦٧٠٢)، وقال مخرجه: حديث صحيح.

ثمار الإيمان بالقدر

للإيمان بالقدر - كما جاء في القرآن والسنة، وكما فهمه سلف الأمة - ثمار مباركة، وآثار طيبة، في عقلية المسلم ونفسيته، في وجدانه وإرادته، وعلاقته بنفسه وبربه، وبمن حوله، وما حوله، وفي الحياة الإسلامية بصفة عامة، يشهد بها كلُّ ذي لب، ويلمسها كلُّ ذي بصر، لما لها من تأثير إيجابي في السلوك الخاص والعام، وفي السلم والحرب، وفي اليسر والعسر، والرخاء والشدة، والنعماء والبأساء.

من هذه الثمار والآثار:

- ١ - القوة في مواطن البأس والخطر.
 - ٢ - الثبات في مواجهة الطغيان.
 - ٣ - الصبر عند نزول المصائب.
 - ٤ - الرضا والقناعة بما قسم الله.
 - ٥ - العزة في طلب الحوائج.
 - ٦ - السكينة وراحة النفس.
 - ٧ - الاتجاه إلى العمل والبناء.
- وستحدث عن كلِّ واحدة من هذه الثمرات بما يجليها.

١ - القوّة في مواطن البأس والخطر:

أما القوّة في مواطن البأس والخطر، وعند ملاقات الأعداء في الحروب، فهو أمر معروف، حدّثنا عنه التاريخ، وأنبأنا به الواقع.

فإيمان المسلم بأن ما قدره الله له أو عليه نافذ لا محالة، وأنه لن يموت قبل أجله المحدد، وأنَّ أحدًا لا يستطيع أن يزيد في عمره، أو ينقص منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤]، وقال: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

والساعة لا يُراد بها الساعة الفلكية التي نتعامل بها اليوم، بل الساعة في اللغة، هي اللحظة الزمنية، فإذا حضر الأجل لا يستطيع صاحبه أن يتأخر عنه لحظة، كما لا يتقدم أيضًا.

وهذا ما جعل المسلمين في الحروب التي تُكْتَب عليهم، لا يبالون: أوقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم، موقنين بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ولهذا كان عليٌّ عليه السلام يخوض الحرب، وهو رابط الجأش، مطمئن النفس، راسخ القدم، وهو ينشد:

أيُّ يوميٍّ من الموت أفقر؟ يوم لا يُقَدَّر، أم يوم قُدِّر؟^(١)
يوم لا يقدر لا أحذره ومن المقدور لا ينجي الحذر

يعني أن الموت إذا كان مقدَّرًا عليه فهو واقع لا محالة، ولا يغني حذر من قدر، فلماذا يحذر ويخاف؟ وإذا لم يكن الموت مقدَّرًا عليه في المعركة، فلا معنى للحذر والخوف منه؛ لأنه مستحيل وقوعه. فعلى أيِّ الاحتمالين لا معنى ولا مجال للخوف من الموت لديه.

(١) العقد الفريد (٩٦/١).

قال السيد جمال الدين الأفغاني في مقال بمجلة (العروة الوثقى) الشهيرة: «الاعتقاد بالقضاء والقدر - إذا تجرّد عن شناعة الجبر - يتبعه الجرأة والإقدام.

وخلّق الشجاعة والبسالة، يبعث على اقتحام المهالك التي توجف لها الأسود، وتنشق منها مرائر الأهوال، ويحليها بحلل الجود والسخاء، ويدعوها إلى الخروج عن كلّ ما يعزّز عليها، بل يحملها على بذل الأرواح، والتخلّي عن نضرة الحياة. كل هذا في سبيل الحقّ الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة.

الذي يعتقد بأن الأجل محدود، والرزق مكفول، والأشياء بيد الله، يصرفها كيف يشاء، كيف يرهّب الموت في الدفاع عن حقّه، وإعلاء كلمة أمته أو ملته، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك؟

اندفع المسلمون في أول نشأتهم إلى الممالك والأقطار يفتحونها ويتسلّطون عليها، فأدهشوا العقول، وحيرّوا الألباب، بما دوّخوا الأمم، وقهروا الدول، وامتدّت سلطتهم من جبال بيرينيه الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا، إلى جدار الصين، مع قلة عدّتهم وعددهم، وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة، وطبائع الأقطار المتنوعة، أرغموا الملوك، وأذلوا القياصرة والأكاسرة، في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة، إن هذا ليُعَدّ من خوارق العادات وعظائم المعجزات»^(١).

٢ - الثبات في مواجهة الطغيان:

ومن ثمار الإيمان بالقدر: أنه يهب صاحبه ثباتاً ورسوخاً في مقاومة الباطل ومواجهة الظلم والطغيان، وإنكار المنكر، لا يهاب فرعوناً متألّهاً،

(١) انظر: مجلة العروة الوثقى ص ٩٣، نشر دار العرب للبستاني، بيروت.

ولا طاغوتًا متجبرًا، شعاره قول الله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

وكما رُوي في بعض الأحاديث، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «ولا يمنع أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه ويدكر بعظيم، فإن ذلك لا يقرب من أجل، ولا يبعد من رزق»^(١).

ذلك أن الناس عادة يخافون على أمرين نفسيين عندهم، وهما: العمر والرزق. والعمر محتوم، والرزق مقسوم.

وكما لا يستطيع أحد أن ينتقص من عمره ساعة، لا يستطيع أن ينتقص من رزقه لقمة، وعبر بعضهم عن ذلك فقال:

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل الرزق في اللوح مكتوب مع الأجل
من يتق الله يرزقه ويعل به من غير محتسب منه ولا وجل
ولهذا وقف المؤمنون في وجه الطغاة والجبارين، ولم يعبؤوا
بجبروتهم، ولم يهِنُوا أمام قوتهم وطغيانهم.

هَدَّدَ الْحَجَّاجُ الْإِمَامَ الْفَقِيهَ سَعِيدَ بْنَ جَبْرِ بِالْقَتْلِ، فَقَالَ لَهُ: لَوْ عَلِمْتُ
أَنَّ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ بِيَدِكَ، مَا عَبَدْتُ إِلَهًا غَيْرَكَ^(٢)!

(١) رواه أحمد (١١٤٧٤)، وقال مخرجه: حديث صحيح دون قوله: «فإنه لا يقرب من أجل، ولا يبعد من رزق أن يقول بحق، أو يذكر بعظيم». والطبراني في الأوسط (٢٨٠٤)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢١٢٨): رواه الطبراني في الأوسط عن أبي سعيد الخدري، ورجاله رجال الصحيح غير شيخ الطبراني.

(٢) في الكشف للزمخشري (٢٦٦/٤): قال الحجاج لسعيد بن جبيرة: أما والله لأبدلك بالدنيا نارًا تلظى. فقال سعيد: لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلها غيرك. نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ.

وقال لامرأة من الخوارج: لأحصدنكم حصداً. فقالت له: أنت تحصد، والله يزرع، فانظر: أين قدرة المخلوق من قدرة الخالق؟ وفي عصرنا رأينا العلماء، والدعاة الشامخين يواجهون المستعمرين وأذناب المستعمرين من الملوك والرؤساء، لا يبالون بما يصيبهم في سبيل الله، كما رأينا مولانا أبا الكلام آزاد في مواجهة الإنجليز حينما سجنوه وحاكموه.

وكذلك رأينا الإمام الشهيد حسن البنا يواجه الطغاة منفرداً، ولا يرده رصاص الجبابرة عن الموت شهيداً. وكما رأينا ربّاني الأتراك الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي حين حاكمته جماعة أتاتورك.

كما رأينا الإمام أبا الأعلى المودودي، حين حاكموه في باكستان من أجل القاديانيين، وحكموا عليه بالإعدام. ثم ألغي الحكم. وكما رأينا الداعية الشهيد سيد قطب، حين حاكموه من أجل كتابه (معالم في الطريق)، وحكموا عليه بالإعدام، ونفذوه فيه، وقبله الفقيه الشهيد عبد القادر عودة، صاحب كتاب (التشريع الجنائي الإسلامي)، وغيره من الكتب.

إنَّ المؤمن لا يخاف على عمره؛ لأنه يعلم أنه أيام معدودة، وأنفاس محدودة، في صحف مكتوبة: كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١].

٣ - الصبر عند نزول المصائب:

ومن ثمرات الإيمان بالقدر: الصبر عند نزول المصائب، فالمؤمن بالقدر لا يسيطر عليه الجزع والفرع، ولا يستبدُّ به السخط والهلع، بل

يستقبل مصائب الدهر بثبات كثبات الجبال، قد استقرّ في أعماقه قول الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۖ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

فإيمانُ المسلم بقدر الله تعالى يمنحه الثبات عند صدمة المصيبة؛ لأنه يعلم أنها مقدّرة مكتوبة من قبل أن تُخلق ويُخلق، ومن هنا لا يستخفُّه الأسى والحزن على ما فات، والفرح بما هو آت، بل هو ثابت متوازن.

ولهذا مدح رسول الله المؤمن فقال: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له»^(١).

والمراد بالمؤمن هنا (المؤمن القوي)، وهو خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وإن كان في كلٍّ خير، والمؤمن القوي هو الذي إذا حلَّ به ما يكره من شدائد الدنيا وكرباتهما، قال في يقين وثقة: «قدَّر الله وما شاء فعل»^(٢)، كما علمه رسوله ﷺ.

عزّى عليّ رجلاً مات ابنه، وكان شديد الحزن عليه، فقال له: يا أبا فلان، إنك إن صبرت نفدت فيك المقادير، ولك الأجر، وإن جزعت، نفدت فيك المقادير، وعليك الوزر.

فالمقادير نافذة في كلا الحالين، ولكن العاقل، هو الذي يختار أن تنفذ المقادير فيه وهو مأجور لا مأزور، ليُبشّر مع الصّابرين،

(١) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٩)، وأحمد (١٨٩٣٤)، عن صهيب الرومي.

(٢) سبق تخريجه ص ٦٩٨.

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧].

٤ - الرضا والقناعة بما قسم الله:

ومن آثار الإيمان بالقدر: رضا المؤمن بما قسم الله، وقناعته بما رزق الله، وهذا يثمر ثمرات طيبة في نفسيّة المؤمن وحياته.

أولاهها: غنى القلب، فمن الناس مَنْ لو أُوتِيَ وادياً من ذهب، لابتغى ثانياً، ولو أُوتِيَ ثانياً لَتَمَنَّى ثالثاً، ومثله كجهنم يقال لها: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد؟!

والغنى الحقيقي ليس إلا غنى النفس، الذي قال عنه الرسول الكريم: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، إنما الغنى غنى النفس»^(١)، وقال: «ارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس»^(٢).

ويقول الشاعر الفارس أبو فراس الحمداني:

إِنَّ الْغَنِيَّ هُوَ الْغَنِيُّ بِنَفْسِهِ وَلَوْ أَنَّهُ عَارِيَ الْمَنَاقِبِ حَافٍ
مَا كُلُّ مَا فَوْقَ الْبَسِيطَةِ كَافِيًا وَإِذَا قَنَعْتَ فَبَعْضُ شَيْءٍ كَافٍ^(٣)

ولا يدري هذا الغنى النفسي، إلا مَنْ رضي بما قسمه الله له، وقنع به.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٤٦)، ومسلم في الزكاة (١٠٥١)، عن أبي هريرة.

(٢) سبق تخريجه ص ٦٨٧.

(٣) البيتان لأبي فراس الحمداني، كما في ديوانه ص ٢٢٣، شرح خليل الدويهي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٤م.

وثانيتهما: الإجمال في الطلب: فهو يسعى إلى رزقه، ويكدح في حياته، ولكن بإجمال واعتدال، وليس كأولئك الذين يلهثون أثناء النهار والليل، مكدودي الأجسام، مشتتي القلوب، مهمومي النفوس، لا يشعرون بهدوء بال، ولا براحة نفس، ولا باطمئنان فكر، فإن حصلوا على المزيد ازدادوا لهثًا وهمًا، وإن أخفقوا امتلأوا نكدًا وغمًا.

وفي الحديث: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفْثٌ فِي رُوعِي: أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ أَجْلَهَا، وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الْطَلَبِ»^(١).

وثالثتها: ألا يتطلع إلى ما ليس في وسعه، وليس من شأنه، ويرضى بما وهب الله له ممّا لا يستطيع تغييره، وفي حدود ما قدر له يجب أن يكون نشاطه وطموحه، فلا يعيش متمنيًا ما لا يتيسر له، متطلعًا إلى ما وهب لغيره ولم يُوهب له، وذلك كتمني الشيخ أن يكون له قوة الشباب، وتطلع المرأة الدميمة إلى الحسناء في غيرة وحسد، ونظرة الشاب القصير إلى الرجل الطويل في حسرة وتلهّف، وطموح البدوي الذي يعيش في أرض قفراء بطبيعتها إلى رفاة الحياة وأسباب النعيم، وكما حدث في عهد الرسول حين تمنى النساء أن يكون لهنّ ما للرجال، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ۚ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۗ﴾ [النساء: ٣٢].

(١) رواه الطبراني (١٦٦/٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢٦/١٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٢٩٣): رواه الطبراني، وفيه عفير بن معدان، وهو ضعيف. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٨٥)، عن أبي أمامة الباهلي.

في حال العسر، وضيق الرزق، التي تحل بالأفراد، ولا تخلو منها حياة الناس، وفي الأزمات الطارئة التي تحل بالأمم نتيجة حرب أو مجاعة أو كارثة أو نحوها، وفي البلاد والدول التي تقل مواردها الطبيعية عن توفير الرفاهية لأهلها، ولا يهتدي كثير منهم سبيلاً لتنمية رزقه، أو للهجرة من بلده؛ تكون القناعة بما رزق الله هي الدواء الناجع، والبلسم الشافي، وتطلع مثل هؤلاء الذين ذكرنا ليس طموحاً ولا علو همّة، إنه طمع في غير مطمع، وتمنّ لما لا يكون، وحرص لا ثمرة له إلا الهم والحزن، اللذان يضيقان القلب.

الرضا مصدر قوة لصاحبه:

والرضا بما قسم الله، والقناعة بما رزق الله وإن قلّ، مصدر من مصادر القوة للمؤمن الراضي القانع، إنه ينظر إلى قصور الأمراء، وخزائن الملوك، ورياش المترفين، كما ينظر راكب الطائرة المحلقة في أعالي الفضاء إلى القرى والمدن والناس، إنه يرى القصور الشاهقة كالعُلب الصغيرة، ويرى البشر كالنمل في جحوره، وهذا يقوّي صاحب الرسالة في مواجهة الباطل، ويجعله كالطود الأشم، لا تؤثر فيه العواصف الهوج. إنه يتغنّى بما تغنّى به الإمام الشافعي رحمته الله حين قال^(١):

أنا إن عشت لست أعدم قوتاً	وإذا متُّ لست أعدم قبراً
همّتي همّة الملوك، ونفسي	نفس حرّ ترى المذلة كفراً
وإذا ما قنعت بالقوت عمري	فلماذا أخاف زيّداً وعمراً ^(٢) ؟

(١) ديوان الشافعي ص ٧٦، تحقيق د. عبد المنعم خفاجي، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، الأزهر، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٥م.

(٢) انظر كتابنا: الإيمان والحياة ص ١٣٢، ١٣٣، فصل: الرضا.

٥ - العزة في طلب الحوائج:

ومن ثمار الإيمان بالقدر: أن يطلب المؤمن حاجته عند مَنْ هي عنده بعزة نفس، لا يطأطئ رأسه، ولا يُذل نفسه، ولا يحني ظهره لمخلوق.

إنَّ الله تعالى كتب العزة للمؤمن، فلا ينبغي له أن يفرط فيها، قال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

فلا يحلُّ لمؤمن أن يذلَّ نفسه لمخلوق مثله من أجل حاجة له عنده، كما يقول المثل المرفوض شرعاً: (إن كان لك عند الكلب حاجة قل له: يا سيدي!).

فقد علَّم النبي ﷺ ابن عمِّه عبد الله بن عباس، وكان غلاماً كلمات على النقيض من هذا المثل وما شابهه، قال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف»^(١).

٦ - السكينة وراحة النفس:

ومن أعظم ثمار الإيمان بالقدر: شعور المؤمن به براحة النفس، وسكينة القلب، فقد علِمَ علِمَ اليقين: أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما

(١) رواه أحمد (٢٦٦٩)، وقال مخرجه: إسناده قوي. والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦)، وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٥١)، عن ابن عباس. وهو الحديث التاسع عشر من الأربعين النووية والخمسين الرجبية.

أخطأه لم يكن ليصيبه، وما كتبه الله له من عافية لا بد أن يدركه، وما قُدر له من بلاء لن يفرّ منه، فلا تعبث به رياح الشك، ولا عواصف القلق المَرَضِيّ، الذي أصبح آفة الحضارة الغربية المادية الحديثة، وأمسوا يقولون عنه: مرض العصر.

لقد نجا المؤمن بالقدر من هذا المرض، وعاش معافى النفس، مرتاح البال، فإن الله وَجَّهَ، بقسطه وحكمته، جعل الفرج والرَّوْح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في السخط والشك.

المؤمن لا يعيش بين (لو) و(ليت):

وإن من أهم عوامل القلق الذي يُفقد الإنسان سكينته النفس وأمنها ورضاها هو تحسُّره على الماضي، وسخطه على الحاضر، وخوفه من المستقبل.

إن بعض الناس تنزل به النازلة من مصائب الدهر، فيظلُّ شهوًراً وأعواماً يجترُّ آلامها، ويستعيد ذكرياتها القاتمة، متحسِّراً تارة، متمنياً أخرى، شعاره: ليتني فعلتُ، وليتني تركتُ، لو أنني فعلتُ كذا لكان كذا. وقديماً قال الشاعر:

ليت شعري وأين مني (ليت)؟ إن (ليتاً) وإن (لوّاً) عناء^(١)!

ولذا ينصح الأطباء النفسانيون، والمرشدون الاجتماعيون، ورجال التربية، ورجال العمل: أن ينسى الإنسان آلام أمسه، ويعيش في واقع يومه، فإن الماضي بعد أن ولى لا يعود.

(١) البيت لأبي زيد الطائي، كما في الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٩٥/١)، نشر دار الحديث،

القاهرة، ١٤٢٣هـ.

ما مضى فات، والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها^(١)
وقد صوّر هذا المعنى أحد المحاضرين بإحدى الجامعات بأمريكا
تصويرًا بديعًا لطلبته حين سألهم: كم منكم من مارس نشر الخشب؟
فرفع كثير من الطلبة أصابعهم، فعاد يسألهم: وكم منكم من مارس
نشر نشارة الخشب؟ فلم يرفع أحد منهم إصبعه، وعندئذ قال المحاضر:
بالطبع لا يمكن لأحد أن ينشر نشارة الخشب، فهي منشورة فعلاً،
وكذلك الحال مع الماضي: فعندما ينتابكم القلق لأمر حدث في
الماضي، فاعلموا أنكم تمارسون نشر النشارة!!

وقد نقل هذا التصوير (دليل كارنيجي) في كتابه الشهير (دع القلق
وابدأ الحياة)، كما نقل قول بعضهم: لقد وجدت أن القلق على الماضي
لا يُجدي شيئاً تماماً، كما لا يجديك أن تطحن الطحين، ولا أن تنشر
النشارة، وكل ما يجديك إياه القلق هو: أن يرسم التجاعيد على وجهك،
أو يصيبك بقرحة في المعدة^(٢).

ولكن الضعف الإنساني يغلب على الكثيرين، فيجعلهم يطحنون
المطحون، وينشرون المنشور، ويكون على أمس الذاهب، ويعضّون
على أيديهم أسفاً على ما فات، ويقلّبون أكفّهم حسرة على ما مضى.

وأبعد الناس عن الاستسلام لمثل هذه المشاعر الأليمة، والأفكار
الداجية هو المؤمن الذي قوي يقينه برّبه، وآمن بقضائه وقدره، فلا يسلم

(١) من شعر أبي زيد الطائي، كما في الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٩٥/١)، نشر دار الحديث،
القاهرة، ١٤٢٣هـ.

(٢) دع القلق وابدأ الحياة لدليل كارنيجي ص ١٢٩، ترجمة عبد المنعم محمد الزيايدي، ط ١٧.

نفسه فريسة للماضي وأحداثه، بل يعتقد أنه أمر قضاء الله كان لا بد أن ينفذ، وما أصابه من قضاء الله لا يقابل بغير الرضا والتسليم، ثم يقول ما قال الشاعر:

سبقت مقادير الإله وحكمه فأرخ فؤادك من (لعل) ومن (لو)
وقول الآخر:

وليس تراجع ما فات مني بـ (لهف) ولا بـ (ليت) ولا (لو أني) ^(١)!
إنه لا يقول: لو أنني فعلت كذا لكان كذا، ولكن يقول: قدر الله وما شاء فعل، فإن «لو تفتح عمل الشيطان». كما علّمه الرسول ﷺ ^(٢).

إنه يوقن أن قدر الله نافذ لا محالة، فلم السخط؟ ولم الضيق والتبرّم؟ والله تعالى يقول: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿[الحديد: ٢٢، ٢٣].

وفي غزوة أحد التي قُتل فيها سبعون من خيار المسلمين، من أصحاب رسول الله ﷺ، نعى القرآن على طائفة من المنافقين ومرضى القلوب، وضعاف الإيمان، عاشوا بين (لو) المتندمة و(ليت) المتحسرة، فيقول: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

(١) شاهد نحوي غير منسوب، انظر: شرح التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهرى (٢٣٣/٢)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

(٢) سبق تخريجه ص ٦٩٨.

ويرد على أولئك الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

المؤمن لا يقف موقف هؤلاء المنافقين، ولا موقف إخوانهم من الكفار الذين نهى القرآن عن التشبُّه بهم في تحسراتهم الأسيفة، وتمنياتهم الحزينة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٦ - ١٥٨].

إن شعار المؤمن دائماً: «قَدَّرَ اللَّهُ وما شاء فعل»^(١). «الحمد لله على كلِّ حال»^(٢). وبهذا لا يأسى على ما فات، ولا يحيا في خضمٍّ أليم من الذكريات، وحسبه أن يتلو قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١]. وهذا يسبغ عليه أيضاً نعمة الرضا وسكينة النفس التي امتنَّ الله بها على المؤمنين^(٣) في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

٧ - الاتجاه إلى العمل والبناء:

وبعد هذه الثمرات الطيبة التي يجتنيها المسلم في نفسه وحياته من خلال الإيمان بقدر الله تعالى، وبعد شعوره براحة النفس، وسكينة الفؤاد،

(١) سبق تخريجه ص ٦٩٨.

(٢) رواه ابن ماجه في الأدب (٣٨٠٣)، والطبراني في الأوسط (٦٩٩٩)، والحاكم في الدعاء (٤٩٩/١)، وصحح إسناده على شرطهما، وسكت عنه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٤٦٤٠)، عن عائشة.

(٣) انظر كتابنا: الإيمان والحياة ص ١١٣ - ١١٥، فصل: سكينة النفس.

وسلامته من التَّحَسُّر على الماضي، والجزع من الحاضر، والقلق من المستقبل، لا يجد المؤمن سبيلاً إلا الاتجاه إلى الإيجابية والبناء، والعمل المثمر في تزكية النفس، وعمارة الأرض، وإصلاح المجتمع، وهداية العالم.

وهذا شأن (المؤمن القوي) الذي هُمَّه امتثال المأمور، واجتناب المحذور والرضا بالمقدور، وهو الذي جاء فيه الحديث الصحيح المعروف: «المؤمن القوي خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، ولا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا. ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل. فإن (لو) تفتح عمل الشيطان»^(١).

أمر المؤمن في هذا الحديث بالحرص على ما ينفعه، سواء في دينه أم في دنياه، والاستعانة بالله على ذلك، فهو الذي يهيئ له الأسباب، ويزيل من طريقه الموانع، كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاحة: هـ]. وقال الشاعر الصالح:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده^(٢)!

ومن العجز المذموم هنا: إلقاء الأحمال على القدر، والاحتجاج به في الإعفاء من المسؤولية، وقديماً قيل: من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير.

وحديثاً قال الشاعر الفيلسوف المسلم الدكتور محمد إقبال: المسلم الضعيف يحتج بقضاء الله تعالى وقدره، أما المسلم القوي، فيعتقد أنه قدر الله الذي لا يُغلب، وقضاؤه الذي لا يُرد!

(١) سبق تخريجه ص ٦٩٨.

(٢) ينسب لعلي بن أبي طالب، كما في الفرج بعد الشدة (١/١٧٧)، تحقيق عبود الشالجي، نشر دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

وقد روي أن بعض الصحابة في زمن الفتوح الإسلامية سأله أحد قوَّاد الفرس: مَنْ أنتم؟ وما حقيقتكم؟ فقال له: نحن قدر الله، ابتلاكُم الله بنا، وابتلانا بكم، فلو كنتم في سحابة في السماء، لصعدنا إليكم، أو لهبطتم إلينا!

وقد روي في (سنن أبي داود)، عن عوف بن مالك: أنه حدَّثهم، أن النبي ﷺ قضى بين رجلين، فقال المقضي عليه لما أدبر: حسبي الله، ونعم الوكيل. فقال النبي ﷺ: «إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكَيْس، فإنْ غلبك أمر، فقل: حسبي الله ونعم الوكيل»^(١).

اعتبر الرسول الكريم استسلامَ الرجل من العجز الذي يلوم الله عليه، وأمره بالكَيْس وهو العقل والفطنة وحُسن التصرُّف، وكره من الرجل المغلوب أن يستسلم ويعجز، وله حيلة في المغالبة والمدافعة، فإذا أتاه ما لا طاقة له بدفعه، وما هو فوق قدرته، ولا حيلة له فيه، فهنا يكون التسليم، ويحسن أن يقول: «حسبي الله ونعم الوكيل».

كما أوصى هذا الحديث المؤمن القوي إذا أصابه شيء من شدائد الدنيا وابتلاءاتها - وما أكثرها - ألا يُسلم نفسه للتحسُّر والأسى على ما فاتته، فيصبح ويمسي، وهو يمضغ كلمات الأسى والأسف، ويقول: لو أنني فعلتُ كذا لكان كذا! على سبيل التَّحسُّر والتمنِّي، ويجتُرُّ الذكريات الحزينة، بل أمره أن يردَّ الأمر هنا إلى قدر الله، ويسلم لأمره وقضائه قائلاً: «قدَّر الله وما شاء فعل»^(٢). معتبراً أن الخير فيما اختاره له، ثم هو لا يقدر على غير ذلك، فما فات مات، والماضي لا يعود، وقد قال أحد

(١) رواه أحمد (٢٣٩٨٣)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف لضعف بقية وجهالة سيف. وأبو داود في الأقضية (٣٦٢٧)، عن عوف بن مالك الأشجعي.

(٢) سبق تخريجه ص ٦٩٨.

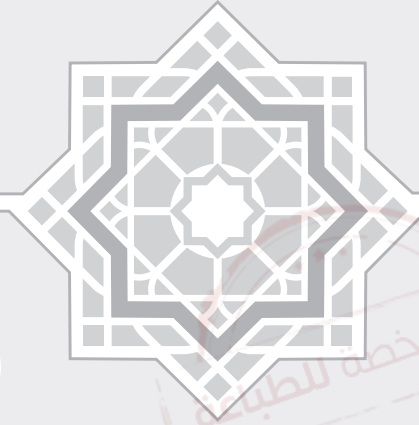


الحكماء: الأمور أمران: أمر لك فيه حيلة، فلا تعجز عنه، وأمر لا حيلة لك فيه، فلا تجزع منه.

فليكن إيجابيًا، وليتجه إلى المستقبل ليعمل ويبني وينتج، لا إلى (اللؤلؤة) التي يقول فيها: «لو أني فعلت، ولو أني تركت»! فإن (لو) هذه - (لو) المتمنية والمتحسرة - تفتح عمل الشيطان. وعمله ليس وراءه إلا الضياع والخسران.



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ



الفهارس العامة



- فهرس الآيات القرآنية الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.
- فهرس الموضوعات.





فهرس الآيات القرآنية الكريمة



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾	١	٢٦٤
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾	٢ - ٤	١٨٦، ٢١٨ ٥١٧، ٥٤٠
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾	٥	٧٣٨
سورة البقرة		
﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾	٣، ٤	٢٧٩، ٤٩٤
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾	٨	٢٨٠
﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾	١٠	٧١١
﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا﴾	٢٢	١٥٨
﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾	٢٣، ٢٤	٣٥٢
﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ﴾	٢٤ - ٢٥	٣٥٢، ٥٩٤ ٦٠٠، ٦٠٤
﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾	٢٦، ٢٧	٧٠٩
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾	٣٠	٢٨٤، ٧٢١

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾	٣٠	٧٢١
﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾	٣٢	٥٥١، ٢٦٨
﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾	٣٤	٣٢١
﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾	٤٤	٣٨١
﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾	٤٨	٥٤٩، ٥٤٢
﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾	٦١	٤٦٢
﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ﴾	٦٢	٤١٢، ٢٨٠
﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَنَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾	٧٩	٣٣٥
﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾	٨٢	٤١٢
﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾	٨٥	٦٦٥، ٣٣٠
﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾	٨٩، ٩٠	٤٥٠
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ﴾	٩١	٣٣١
﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾	٩٧، ٩٨	٢٨٣
﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾	٩٧	٣٧٥، ٢٩٦
﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾	٩٨	٢٩٦
﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾	١٠٩	٤٥٠
﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ﴾	١١١، ١١٢	٥٥٣، ٥٤٠
﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾	١١٩	٤٠٨
﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾	١٢١	٣٦٤
﴿رَبَّنَا نَقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾	١٢٧	٦٢١



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ﴾	١٣٦، ١٣٧	٣٣٠
﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا﴾	١٣٧	٣٣٠
﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾	١٤٣	٥٤٧، ٤٤١، ٤٤٠
﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾	١٤٣	٢٣٩
﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾	١٤٣	٢٦٤
﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾	١٥٦، ١٥٧	٧٣٠
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أُنْزِلَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾	١٥٩ - ١٦١	٣٨٠، ٣١٠
﴿وَاللَّهُمُّ إِلَهُ وَحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾	١٦٣	٩٢
﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾	١٦٤	٣٥
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾	١٦٥	١١٦
﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾	١٦٦، ١٦٧	٨٧
﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾	١٦٧	٥٥٠، ١١٧
﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾	١٦٨، ١٦٩	٣٢٣
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾	١٧٠، ١٧١	٤٥٦، ٨٧
﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾	١٧٣	٧٠١
﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾	١٧٦	٣٥٨
﴿لَيْسَ إِلَهٌ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾	١٧٧	٢٣٠، ٢٣١، ٢٢٧، ٣٩٧، ٣٢٧
﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾	١٨٥	٢٤٢، ٢٦٨، ٢٦٩
﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾	١٨٦	١٢٤

رقم الآية	رقم الصفحة	الآية
٢٠٠	٦٨٨	﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا﴾
٢٠٨	٣٢٣	﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾
٢١٣	٣٢٩، ٣٣٣، ٤٠٨، ٣٩٥	﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾
٢١٦	٢٠٨	﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾
٢١٧	٥٦٠	﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُم عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾
٢٥٣	٦٧٠، ٦٢٤، ٤٠٢	﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾
٢٥٤	٥٥٦، ٥٤٩	﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾
٢٥٥	٢٤٩، ٢٣٨، ١٨٦، ٥٥٤، ٤٨٨، ٤٨٧	﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾
٢٥٦	١٢٠، ١١٨	﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ﴾
٢٥٧	١٢١	﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾
٢٥٨	٢٠٦	﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾
٢٦١	٥٥٩	﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾
٢٦٨	٣٢٣	﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾
٢٧٠	١٤٠	﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾
٢٧٩	٤٣٩	﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾
٢٨٢	٢٠٨	﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾
٢٨٥	٢٨٠، ٢٣، ٦، ٣٩٧، ٣٢٧، ٢٨٢، ٦٢٨، ٥٥١	﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾
٢٨٦	٧٠٧، ٥٣٩، ٢٠٦	﴿لَا يُلْكَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة آل عمران		
﴿الَمْ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا﴾	١ - ٦	١٨٦
﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾	٢	٢٤٩ ، ١٠٠
﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾	٦	٢٦٨ ، ٦٣٣
﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾	٧	٢٢١ ، ٧٢٢
﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾	٨ ، ٩	٢٠٦
﴿كَذَابِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ...﴾	١١	٤٧٤
﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾	١٤ ، ١٥	٦٠١
﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامِنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾	١٦	٥٧٩
﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾	١٩	٤١٤
﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾	٢٦ ، ٢٧	١٨٧
﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنَزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾	٢٦	٢١٨
﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾	٣١	٥٤٣
﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾	٣٧	٦٨٧ ، ٧١٣
﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾	٣٩	١٤٨
﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾	٤٢ ، ٤٣	٣٧٠
﴿وَجِئَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾	٤٥	٤٠٤
﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ﴾	٥٠	٣٧٧
﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾	٦٤	١١٥ ، ١١٦ ، ١٦٥ ، ٤٥٤
﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ﴾	٧٣ ، ٧٤	٣٩٢

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾	٧٩	٣٨٣
﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ﴾	٨١	٤٣٩
﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ﴾	٨٤	٣٣٠
﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾	٨٥	٤١٤
﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ ﴾	٨٧، ٨٦	٣١٠
﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾	٩٧	٧٠١
﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾	١٠٢	٥٩٥
﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾	١١٠	٤٤٠
﴿ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾	١١٣	٣٦٤
﴿ إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَهُ سَوْهَمُ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئُهُ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾	١٢٠	٦٦٦
﴿ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾	١٢٩	٧٠٩
﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾	١٣١	٤٧٠
﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾	١٣٢	٤٣٧
﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾	١٣٣	٥٩٧، ٥٩٦
﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنَبَأًا مُّوجَلًّا ﴾	١٤٥	٦٣٣
﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ﴾	١٥١	١٦٨
﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾	١٥٤	٧٣٦، ٦٨٩
﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾	١٥٤	٧٢٥، ٦٢٥
﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾	١٥٦ - ١٥٨	٧٣٧
﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾	١٥٨، ١٥٧	٥١٠



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾	١٦١	٣٨٢
﴿هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾	١٦٣	٦١١
﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾	١٦٤	٣٣٤
﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾	١٦٥	٦٦٧
﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنِّي أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾	١٦٨	٧٣٧
﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾	١٦٩ - ١٧٠	٤٧٦
﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾	١٨١	٣٣٦
﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾	١٨٤	٣٣٢
﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾	١٨٥	٥٩٠ ، ٤٦٧
﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾	١٨٦	٤٠٢
﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ﴾	١٩١	١٨١
﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾	١٩٥ - ١٩٠	٥٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١
﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾	١٩١	٧٢١ ، ٢٦٨ ، ٢٧٦ ، ٧١٩
﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾	١٩٢	٥٨٦
﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾	١٩٤ ، ١٩٣	٢٠
سورة النساء		
﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾	١١	٢٠٨
﴿وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾	١٢	٢٠٨
﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾	٢٦ - ٢٨	١٨٧ ، ٢٤٢ ، ٦٦٨

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ﴾	٢٦	٦٦٩
﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾	٢٧	٦٦٩
﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾	٢٨	٦٦٩
﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾	٣١	٥٤٨
﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾	٣٢	٧٣١
﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾	٣٦	٢٦
﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾	٣٦	١١٤
﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾	٣٩	٧٠٧، ٤٤٥
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفَهَا﴾	٤٠	١٨٧، ٢٧٢، ٥٥٩، ٦٣٠
﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾	٤١	٥٤٧، ٤٤١
﴿يُخْرِقُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾	٤٦	٦٦٥
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾	٤٨	١٢٢، ١٦٩، ١٨٧، ٥٥٨، ٧١٣، ٤٨٨
﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾	٤٩	٥٩٢
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾	٦٠ - ٦٣	١١٨، ١٠٨
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾	٦٠	١٢١، ٦٧٠
﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾	٧٧، ٧٨	٤٦٨
﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ﴾	٧٨	٦٦٥
﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾	٧٩	٦٦٦
﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾	٨٠	٥٤٣



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾	٨٢	٢٠، ٢١١، ٣٦٤، ٥٥٣، ٧٠٩
﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ ﴾	٩٥، ٩٦	٦١١
﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾	١٠٠	٤٣٨
﴿ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾	١٠٢	٥٢٩
﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴾	١١٠	١٨٧
﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ ﴾	١١٤	٢٧٤
﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى ﴾	١١٥	٧١٢
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾	١١٦	١٦٩، ٤٨٨، ٥٥٨، ٧٠٩
﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا ﴾	١١٧ - ١٢٠	٣٢٣
﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾	١٢٣، ١٢٤	٥٤٠
﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾	١٢٣	١٦٨
﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾	١٢٥	٤٠٤
﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾	١٣٦	٦، ٢٣، ٢٨٠، ٢٨٣، ٣٢٧، ٣٢٩، ٦٢٨، ٣٩٧، ٧٠٩
﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾	١٤٥	٥٩٣
﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ﴾	١٤٧	١٨٧، ٧٠٩
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾	١٥٠، ١٥١	٣٩٩
﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾	١٥٢	٣٩٩
﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾	١٥٥	٧١٠

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن سُبِّهَ لَهُمْ﴾	١٥٧	٣٤٤
﴿وَعَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾	١٦٣	٣٢٨
﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾	١٦٤	٣٧٤، ٢٥٨
﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾	١٦٤	٤٠٠
﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾	١٦٥	٤٠٧
﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾	١٦٥	٦٤٥
﴿لَٰكِنَ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾	١٦٦	٤٢٥، ٢٣٨
﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ﴾	١٧١	١٤٩
﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾	١٧٢	٥١١
سورة المائدة		
﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾	١	٢٤٣
﴿وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾	٣	١٤٣، ١٤٢
﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾	٣	٤١٣
﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾	٥	٥٦٠
﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّن حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾	٦	٦٦٨، ٦٦٩
﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾	١١	٤٧٣
﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِّثْقَلَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾	١٣	٧١٠
﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا﴾	١٥، ١٦	٤١٠
﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّوْهُ﴾	١٨	٥٤٢
﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾	١٩	٤١١



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾	٢١ - ٢٦	٤٢٢
﴿فَإَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾	٢٤	٤٢٣
﴿لَيْنُ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ...﴾	٢٨	٤٧٣
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾	٣٦، ٣٧	٥٩٣
﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾	٣٧	٥٥٠
﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾	٤٠	١٨٨
﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾	٤١	٣٦١
﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾	٤١	٦٧٠، ٦٦٩
﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾	٤٤	٣٢٨
﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾	٤٦	٣٢٨
﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾	٤٨	٤١٣، ٣٥٧
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾	٥١	٧١١
﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾	٦٤	٣٣٦، ١٨٨
﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾	٦٧	٣٨١، ٣٧٩، ٣٧٥
﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾	٦٩	٢٨٠
﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾	٧٢ - ٧٧	٢٣٣، ١٤٩
﴿يَبْنَیْ إِسْرَءِیلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾	٧٢	١٦٩، ١٢٢، ١١٢
﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾	٧٥	٣٧٢
﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾	١٠٩	٥٢٣
﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا﴾	١١١	٣٧٠

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا﴾	١١٤	٢٠٦
﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ﴾	١١٦ - ١١٨	٥٢٣ ، ٣٨٣
﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾	١١٨	١٨٨
سورة الأنعام		
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾	١ - ٣	١٨٨ ، ١٧٩
﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾	٧	٨٨
﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾	٩	٣٦٩ ، ٢٩٠
﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾	١١	٨١
﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾	١٢	١٨١
﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾	١٤	١٨١ ، ١١٦
﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾	١٧	١٣٣
﴿قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾	١٩	١٨١
﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾	٢٩	٤٧٩
﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾	٣٢	٣٥
﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمُّ أَمْثَالِكُمْ﴾	٣٨	٥١٥ ، ٦٥ ٦٢٥ ، ٥١٦
﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ﴾	٤٠ ، ٤١	١٨٢
﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾	٤٦	١٨٢
﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدُوقِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾	٥٢	٣٥٠
﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾	٥٤	٢٦٤



رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٥٧	﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقِصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾	١٠٦
٥٩ - ٦٢	﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾	١٨٨ ، ١٣٩
٥٩	﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَتٍ الْأَرْضِ﴾	٦٢٤
٦٠	﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾	٥٠٢
٦١ ، ٦٢	﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾	٥٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٠
٧٣	﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ﴾	٢٣٨ ، ١٨٨
٧٦	﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾	٣٩
٧٧	﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾	٣٩
٧٨	﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾	٣٩
٧٩	﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا﴾	٢٠٧
٨١	﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾	١٦٣
٨٢	﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾	١٦٣
٨٣	﴿إِنَّ رَبَّنَا حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾	٢٦٨
٩٠	﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتُهُمْ اقْتَدِهْ﴾	٤٠٩ ، ٣٣٨
٩١	﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾	٤٠٧ ، ٣٣٢
٩١	﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾	٨٠
٩٣	﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾	٤٧٤ ، ٤٧٣ ، ٣٠٥
٩٤	﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادًى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾	٥١٣ ، ٤٨٥ ، ١٩
٩٥ - ١٠٣	﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾	١٨٩ ، ٣٨
٩٦	﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾	٥٤

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقُ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ﴾	١٠٢، ١٠٣	٩٠
﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾	١٠٣	٢٣٤، ٢٣٥، ٢٥٣
﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾	١٠٤	٧٠٦
﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾	١٠٧	٦٦٥، ٦٧٠
﴿وَنَقَلِبُ أَفْقِدْتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾	١١٠	٧١٠
﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾	١١٢	٣٢٢
﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾	١١٢	٦٢٤، ٦٦٥، ٦٧٠
﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾	١١٤	١٠٦، ١١٧
﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾	١١٥	٢٥٦، ٢٥٧، ٣٥٧
﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾	١٢١	١٢٧
﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ﴾	١٢٤	٣٧٢
﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَعِدُ فِي السَّمَاءِ﴾	١٢٥	٦٦٩، ٦٧٠، ٧٠٨، ٧١١
﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾	١٢٨، ١٢٩	٥١٠، ٥٥٧، ٥٨٩
﴿يَمْعَشَرُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾	١٣٠	٣١٦
﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾	١٣٧	٦٦٥
﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ﴾	١٤٤	٤٢٥، ٤٢٩
﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾	١٤٨	٦٩٢، ٦٩٩، ٦٣٧، ٦٦٥
﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾	١٤٩	٦٦٥
﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾	١٥١	١١٤



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾	١٥٥ - ١٥٧	٤١٠
﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾	١٦٠	٥٥٩
﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	١٦٢، ١٦٣	١٤٣
﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَازِرَةً وَلَا نُزِرُ أُخْرَى﴾	١٦٤	٥٤١
﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْنَىٰ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾	١٦٤	١٨٢، ١١٦
سورة الأعراف		
﴿الْمَصَّ * كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾	١ - ٣	٥٢٣
﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾	٦	٥٢٣
﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾	٨، ٩	٥٢٠
﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾	١٠	٦٨٤
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾	١١	٦٨٤
﴿قَالَ فِيمَا آغُوتِي لِأَفْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾	١٦، ١٧	٣٢١
﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾	٢٢، ٢٣	٣٨٥
﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾	٢٣	٦٩٥، ٦٩٩
﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾	٣٠	٧١٠
﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾	٣٤	٦٨٩، ٧٢٥
﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوْنَهُمْ﴾	٣٧	٣٠٤
﴿وَنُودُوا أَن تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾	٤٣	٦٠٨
﴿فَهَلْ لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾	٥٣	٥٥٥
﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾	٥٤	١٧٩
﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾	٥٤	١٠٧، ٢٣٩

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾	٥٧	٦٥٢
﴿يَقُومُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾	٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥	١١١
﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾	٥٩	٢٥
﴿أَوْعِظْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾	٦٣	٣٩٨
﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾	٨٩	٢٠٥
﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾	١٣١	٦٦٦
﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً﴾	١٤٥	٣٣٢
﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾	١٤٨	٢٥٧
﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾	١٥١	٢٦٦، ٢٠٥
﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾	١٥٢	٦٤٦
﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾	١٥٥	٧١٣، ٢٠٥
﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾	١٥٦	٢٦٤
﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾	١٥٦	٢٦٥
﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ﴾	١٥٧	٤٢٠
﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾	١٥٨	٣٣١
﴿وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحُسْنَتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾	١٦٨	٦٦٥
﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾	١٦٩	٥٤١
﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾	١٧٣، ١٧٢	٣٢
﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾	١٧٩	٨٦



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾	١٨٠	٢٢٥
﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾	١٨٠	٢٢٥
﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾	١٨٥	٣٥
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾	١٨٧	٤٥٨
﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾	١٨٨	١٣٩
﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾	١٩٤	٢٠٧
﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾	١٩٦، ١٩٧	١٠١
﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾	٢٠٦	٢٩٢، ٣٠٨
سورة الأنفال		
﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُبْدِمُكُمْ بِالْفَلَاحِ مِنَ الْمَلَكَةِ﴾	٩، ١٠	٣٠١
﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾	١٢	٣٠١
﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾	١٣	٤٣٨
﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾	٢٥	٦٥٨
﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾	٤٢	٤٦٢
﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾	٤٩	١٦٤
﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾	٥٠	٣٠٥، ٤٧٤
﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾	٦٠	٧٠١
﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يَشِخَ فِي الْأَرْضِ﴾	٦٧، ٦٨	٣٨٨، ٣٨٢، ٣٥٠
سورة التوبة		
﴿قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾	١٤	٦٥٢
﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾	٢٤	٤٣٧

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾	٣٠	٩٢
﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْكَبًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾	٣١	١٢٧، ١٢٨
﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾	٣٨	٤٦٨
﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾	٤٣	٣٨٧، ٣٨٢، ٣٥٠
﴿قُلْ لَن يَصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾	٥١	٧٢٧، ٦٢٥
﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾	٦٢	٤٣٨
﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾	٧٢، ٧١	٦٠١
﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾	٧٢	٥٨٥، ٥٨٢
﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾	١٠٠	٤٢٤
﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾	١٠٥	٢٧٨
﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾	١١٣	٤٤٩، ٣٥٠
سورة يونس		
﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾	٢	٤٠٨، ٣٩٨
﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾	٣ - ٦	٥٥٤، ١٠١
﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُو الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾	٤	٥٠٠، ٤٩٨
﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾	٧، ٨	٥٨٧
﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي﴾	١٥	٣٩٢
﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾	١٨	٤٨٧، ١٢٤، ٥٥٣، ٥٤٢
﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾	٢٢	٩٣، ٣٢
﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾	٢٦	٦١٠، ٦٠٠



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ ﴾	٢٨ - ٣٠	٥١٣
﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ ﴾	٣١ - ٣٥	١٨٢
﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾	٣١	٤٤٦، ١٢٤
﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾	٣٢	٢٧٢
﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾	٣٣	٧١٠
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾	٤٤	٢٧٢، ١٨٩
﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾	٤٥	٥١٢
﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾	٥٥، ٥٦	١٨٩
﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ﴾	٦١	١٩٠، ٢٥٣، ٦٢٤، ٦٢٨
﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ﴾	٦٦	١٠١
﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ آيَاتٍ لِّتَسْكُنُوا فِيهِ وَالتَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾	٦٧	١٩٠
﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾	٦٨	٢١٧، ١٩٠
﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾	٧٤	٧١٠
﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾	٨١	٤٢٩
﴿ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ﴾	٨١	١٣٦
﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾	٨٥، ٨٦	٢٠٥
﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْطَى الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ ﴾	١٠١	٢٤٥، ٨٨، ٣٥
﴿ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾	١٠٥ - ١٠٧	١٠١
﴿ وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بَضْرٍ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾	١٠٧	٢٦٤، ٢٤١، ١٦٤
﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾	١٠٩	٢٠٨، ١٠٦

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة هود		
﴿كَتَبْنَا أَحْكَمَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَضَّلْنَا مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾	١	٣٥٤
﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾	٤ - ٦	١٧٨
﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾	٦	٢٦٥، ٦٨٣
﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾	١٣	٣٥٢
﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾	١٨	٥٢٥
﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾	٢٥، ٢٦	١١١
﴿قَالُوا يَنْحُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾	٣٢	٣٧٩
﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾	٣٤	٦٧٠
﴿وَلَا يَفْعَلُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾	٣٤	٦٦٩
﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾	٤٥ - ٤٧	٣٨٥
﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾	٥٤ - ٥٦	١٦٤
﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾	٥٦	٢٠٥
﴿فَلَمَّاءَ آيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾	٧٠	٢٨٧
﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾	٧٧ - ٧٩	٢٨٩
﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾	٨٤	١١١
﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾	٨٨	٧٠١
﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾	١٠١	٦٩٤
﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾	١٠٢ - ١٠٨	٦٠٠
﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾	١٠٥ - ١٠٨	٥٨٩



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾	١٠٦، ١٠٧	٥٥٧
﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ ﴾	١١٤	٥٤٨
﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾	١١٨	٦٧٠
سورة يوسف		
﴿ وَالْقِيَاسَ سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾	٢٥	١٤٨
﴿ حَسَّ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾	٣١	٢٨٨
﴿ يَصْدِجُ السَّجْنَ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾	٣٩	١٦٢
﴿ إِنْ أُلْحِمَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾	٤٠	١١٧، ١٠٦
﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾	٦٤	٢٦٥
﴿ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنِّي بَابٍ وَاحِدٍ وَاَدْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾	٦٧	١٠٧
﴿ فَلَنْ أُبْرِجَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَيْ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾	٨٠	١٠٧
﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾	٩٠	٣٩٠
﴿ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴾	٩٢، ٩١	٢٦٥
﴿ إِنْ رَّبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾	١٠٠	٤٦٤
﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾	١٠١	٢٠٥
﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ﴾	١٠٥	٣٥
﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾	١٠٦	١٣٢
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾	١٠٩	٣٧٠، ١٥
سورة الرعد		
﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾	٢ - ٤	١٧٨

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّرَةٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَابٍ وَزَرَعٌ وَنَخِيلٌ﴾	٤	٦٦
﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾	٦	٢١٤
﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾	٧	٤٢٤
﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾	٨ - ١١	١٩٠
﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾	٨	٥٠
﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾	١٠	٢٥٤
﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾	١١	٣٠١، ٣٠٠
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾	١١	٧٠٧، ٦٤٢، ٤١٩
﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾	١٦	٦٢٤
﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ لِلْهَادِثِينَ	١٨	٥٢٥
﴿جَنَّتْ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾	٢٣	٣٠٦
﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾	٢٧	٤٢٤
﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾	٣٨	٤١٧
﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾	٤٣	٤٢٤
﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾	٤٣	٤٢٧، ٤٢٤
سورة إبراهيم		
﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾	١	٣٣٢
﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾	١١	٣٦٨
﴿مِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمًا﴾	١٨	٥٥٨
﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾	٢٧	٧١١



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾	٣٢ - ٣٤	١٧٨
﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعَلِّنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾	٣٨	٢٠٥
﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾	٤٠، ٤١	٢٠٥
﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾	٤١	٥٦٠
﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾	٤٨	٥٠٨
سورة الحجر		
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾	٩	١٥، ٣٢٩، ٣٥٤، ٣٦٢
﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾	١٤، ١٥	٨٨
﴿وَلِإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾	٢١	٥٠
﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾	٢٤، ٢٥	٥١١
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾	٢٦، ٢٧	٣١٥
﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾	٣٩، ٤٠	٣٢٤
﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾	٣٩	٦٩٥
﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾	٤٧	٥٣٤، ٥٥٦
﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾	٤٨	٦٠٢
﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾	٤٩	٣٦٧
سورة النحل		
﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾	٣ - ١٨	١٧٧، ٢٤٧
﴿لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾	١٢	٣٥

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿لَقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ﴾	١٣	٨٨، ٣٥
﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾	١٨، ١٧	٢٤٧
﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾	٣٢ - ٢٨	٣٠٤
﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾	٣٥	٤٠٠
﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾	٣٦	١١٩، ١١١، ٢٥ ٤٠٠، ٣٩٩
﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾	٣٨	٤٨٠
﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾	٤٠	٦٦٩، ٢٤١
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾	٤٣	٣٧٠
﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾	٤٤	٥٤٣
﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾	٥٣	٦٥٣
﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾	٥٩ - ٥٧	٢٨٧
﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾	٦٩، ٦٨	٣٧١، ٦١
﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾	٧١	٦٨٧
﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾	٩٠	١٩٠
﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾	٩٦	٥٧٥
﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾	٩٧	٥٣٩
﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾	١٠٥	٣٧٧
﴿إِلَّا مَن أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾	١٠٦	٧٠٠
﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾	١١١	٥٣٩



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾	١١٦	٤٢٩
﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾	١٢٠	٤٠٤
﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾	١٢٦	٥٦١
﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾	١٢٧	٦٥٣، ٦٤٤
﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾	١٢٨	١٩٠
سورة الإسراء		
﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾	١	١٤٧
﴿وَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾	٢	٣٢٨
﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾	٣	٤٠٤، ٣٩٠
﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾	٧	٧٠٦
﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾	١١	٤٦٢
﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾	١٣، ١٤	٥١٨
﴿مَنْ أَهْتَدَى فَأَنْمَاهُ يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾	١٥	٧٠٦
﴿وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى﴾	١٥	٣٤٤
﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾	١٥	٧٠٨، ٧٠٠، ٣٩٥
﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾	١٦	٢٤١
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾	١٨	٤٦٢
﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾	٢٢، ٢٣	١١٤
﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾	٣٨	٦٦٩
﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾	٤٠	٢٨٧

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾	٤٤	٦٣٢
﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفُنًا أَءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾	٤٩	٤٨٠
﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾	٥١، ٥٠	٥٠٢
﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾	٥٧	٥٧٨
﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْنَنَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾	٦٢ - ٦٤	٣٢٣
﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾	٦٦	٢٦٤
﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾	٧٠	٤٠٥
﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾	٧٤، ٧٥	٣٨٠
﴿ وَمَنْ أَلِيلٍ فَتَهَجَّدَ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾	٧٩	٥٤٥، ٤٤٢
﴿ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾	٨٠	٢٠٦
﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾	٨٥	٧٢٢، ٦١٩، ٤٧٦
﴿ قُلْ لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ﴾	٨٨	٣٥٢، ٣١٦، ٢٦١ ٤١٨، ٣٥٨
﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾	٩٣	٣٦٩
﴿ أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾	٩٤	٣٦٩
﴿ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾	٩٥	٣٦٩
﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾	٩٦	٤٢٥
﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبُكْمًا وَصَمًا ﴾	٩٧	٥١١
﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾	١٠٥	٣٥٧
﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾	١١١	٢١٨



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الكهف		
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾	١	١٤٧
﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾	٤	٤٠٨
﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَحِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا﴾	١٧	٧٠٩
﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾	٢٩	٦٤٣
﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾	٢٩	٥٨٨
﴿يُحَلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾	٣١	٦٠٧
﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾	٣٥، ٣٦	٤٨٤
﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾	٣٩	٦٥٣، ٦٤٤
﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْنِدًا﴾	٤٥	٢٤٦
﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾	٤٧، ٤٨	٥١٣، ٥٠٩
﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَفَرَى الْمُجْرِمِينَ مَشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾	٤٩	٥١٨، ٢٩٩
﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾	٤٩	٥١٩
﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾	٤٩	٢٧٢
﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾	٥٦	٤٠٩
﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾	٥٨	٢١٣
﴿أَخْرَقَهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾	٧١	٣٨٧
﴿أَقْنَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾	٧٤	٣٨٧
﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ﴾	٨٢	٤٠٢
﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾	٨٢	٣٨٧

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿فَارَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾	٨٢	٢٤١
﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا﴾	١٠٦	٦٤٢
﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾	١٠٧	٤١٣
﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنفِدَ كَلِمَتُ رَبِّي﴾	١٠٩	٢٥٧
﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾	١١٠	٣٧٣، ٣٦٩
﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾	١١٠	١٢٢
سورة مريم		
﴿وَأَتَيْنَهُ الْخُكُمَ صَبِيًا﴾	١٢	٣٧٢
﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًا﴾	١٤	٣٩٠
﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾	١٧ - ١٩	٣٧١، ٢٨٩
﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾	١٧	٣٧٠
﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾	٣٢	٣٩٠
﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ﴾	٣٥، ٣٦	٢٠٧
﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحُسْرَى إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾	٣٩	٦١٩
﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾	٤١	٣٧٩
﴿يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾	٤٢	٢٥٥
﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾	٥٤	٣٩٠، ٣٧٩
﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾	٥٦	٣٧٩
﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾	٦٦، ٦٧	٤٨١
﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾	٦٨، ٦٩	٥١٢



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾	٧٢، ٧١	٥٣٣
﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾	٨٢، ٨١	٤٨٨
﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾	٨٦، ٨٥	٥١٤
﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾	٩٥ - ٩٣	٥١٣، ٢٣٢
سورة طه		
﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى ﴿	٨ - ٤	٢٢٤، ١٩٠، ١٠٠
﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾	٨، ٧	٢٥٣
﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا ﴿	١٣ - ٩	٢٥٨
﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّئَلَّا نَعْلَهُ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿	٤٦ - ٤٣	٢٧٥
﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾	٤٦	٢٧٥
﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾	٤٩	٦٠
﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَىٰ﴾	٥٠	٢٥٠، ٦٦، ٦٠، ٤١
﴿وَقَدْ حَابَ مِنَ افْتَرَى﴾	٦١	٤٢٩
﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾	٦٩	١٣٦
﴿يَوْمَ يُفْعَلُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾	١٠٢	٥١٢
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾	١٠٧، ١٠٦	٥٠٨
﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾	١٠٩	٥٥٤، ٥٤١، ٥٣٨
﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ، عِلْمًا﴾	١١٠	٢٣٥، ٢٣٤
﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾	١١١	٢٤٩
﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾	١١٢	٥٤١

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ، فَغَوَىٰ ۖ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ، فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾	١٢١، ١٢٢	٣٨٥، ٣٨٣، ٣٤٤
﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ، فَغَوَىٰ﴾	١٢١	٦٩٧
﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ، فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾	١٢٢	٦٩٨
﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ، مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾	١٢٦ - ١٢٤	٥١٢
﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾	١٣٤	٤٠٨
سورة الأنبياء		
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾	٧	٣٧٠
﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾	١٦	٢٦٨
﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾	٢٠	٣٠٨، ٢٩٢، ١٣
﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾	٢١، ٢٢	٩٦
﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾	٢٢	٩٥
﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾	٢٣	٦٥٤
﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ۖ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾	٢٤، ٢٥	٩٦
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ﴾	٢٥	٤١٢، ١١١
﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۖ لَا يَسْأَلُونَهُ، بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾	٢٦، ٢٧	٢٨٨
﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾	٢٦ - ٢٨	٩٢
﴿لَا يَسْأَلُونَهُ، بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾	٢٧، ٢٨	٥٥٤
﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾	٢٨	٥٣٨، ٤٨٧
﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾	٣٥	٦٦٦
﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾	٣٧	٤٦٢



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿بَلْ مَنَعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾	٤٤	٤٤٦
﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾	٤٧	٥٥٠، ٥٢٠
﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾	٤٧	٥٩٢
﴿سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ ۖ إِبْرَاهِيمُ﴾	٦٠	٣٧٢
﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾	٧٩، ٧٨	٣٨٦
﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾	٨٠	٥٢٩
﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾	٨٣	٢٦٦
﴿كُلُّ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾	٨٥	٣٩٠
﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلَضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾	٨٨، ٨٧	٣٨٤
﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾	٩٨	٥٩١
﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾	١٠٣	٣٠٢
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾	١٠٧	٣٣١
﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ۖ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾	١١٢	١٠٧
سورة الحج		
﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾	٦، ٥	٤٩٩، ٢٤٧
﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾	٧ - ٥	٥٠١، ٤٩٩، ٤٢٧
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾	٩، ٨	٨٧، ٢٨
﴿يُكَلِّتُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾	٢٣	٦٠٧
﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾	٣١	١٦٦
﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾	٣٨	١٩١

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾	٤٦	٨١
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾	٥٢	٣٧٦
﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَدَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾	٦٢ - ٦٦	١١٠، ١٧٧
﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾	٦٨، ٦٩	١٠٦
﴿وَإِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّكَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾	٧٣	٩١
﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾	٧٤ - ٧٦	١٩١
﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾	٧٥	٣٧٢
﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾	٨٣	٢٠٦
سورة المؤمنون		
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾	١٢ - ١٦	٤٦٠
﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾	١٤	٢٤٦، ٧١٩
﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾	١٨	٥٠
﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾	٢٤	٣٦٩
﴿يَقُومُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾	٣٣	١١١
﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾	٣٧	٤٩٤
﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾	٤٤	٤٠٠
﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾	٨٤ - ٨٩	١٠٣، ١٨٢، ٤٤٥
﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾	٩١	٩٥
﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾	٩٧، ٩٨	٢٠٦
﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾	١٠٠	٤٧٥



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾	١٠٩	٢٦٦، ٥٢٦
﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لَا تَرْجِعُونَ﴾	١١٥، ١١٦	٢٦٨
﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾	١١٨	٢٠٦، ٢٦٦
سورة النور		
﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾	١٨	٢٦٨
﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُوتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾	٣٥	١٩١
﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾	٣٧	٦٨٦
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً﴾	٣٩	٥٥٨
﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾	٤٥	١٩١
﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فِرْقٌ مِنْهُمْ﴾	٤٧ - ٥٤	١٠٨
﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾	٥١	٤٣٨
﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾	٦٣	٥٤٣
سورة الفرقان		
﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾	٢	٥٠، ٢٤٣، ٦٢٣
﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾	١٧ - ١٩	٥١٤
﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾	١٨	٤٤٦
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾	٢٠	٣٦٩
﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾	٢٣	٥٥٨
﴿وَيَوْمَ يَعْزُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾	٢٧ - ٢٩	٥٥٦
﴿الَّذِينَ يَحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ﴾	٣٤	٥١١

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾	٤٧ - ٤٩	١٩١
﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾	٥٣، ٥٤	١٩١، ٤٧٥
﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾	٥٨	٢٣١، ٢٤٩
﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾	٦١	١٩١
﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ﴾	٦٢	٦٤٣
﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾	٦٥، ٦٦	٥٧٩، ٦٢٠
سورة الشعراء		
﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾	٢٣، ٢٤	٢٠٧، ٢٣٤
﴿قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾	٦١	٢٧٥
﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾	٦٢	٢٧٥
﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾ * أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ﴾	٧٢، ٧٣	٢٥٥
﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾	٧٧ - ٨٢	١٩٢
﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾	٨٧ - ٨٩	٥٨٧
﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ * إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	٩٧ - ١٠١	٥٥٦
﴿كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾	١٠٥	٣٩٨
﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾	١٠٧	٣٩١
﴿كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾	١٢٣	٣٩٨
﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾	١٤١	٣٩٨
﴿وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾	١٩٢ - ١٩٥	٢١٥، ٢٩٥، ٣٧٥



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة النمل		
﴿وَحَمِّدُوا بِهَا وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلوًا﴾	١٤	٤٤٨
﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِي﴾	١٩	٢٠٥
﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾	٥٩ - ٦٤	٢٤٨ ، ١٨٣
﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾	٦٠	٦٥٢
﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾	٦٥	١٣٩
﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَضَ كُلَّ شَيْءٍ﴾	٨٨	٧١٩ ، ٤١
﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ ءَايِنُهُ ۚ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾	٩٣	١٧٤
سورة القصص		
﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقَيْهِ فِي إِلِيمٍ﴾	٧	٣٧٠
﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾	١٥ ، ١٦	٣٨٣
﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾	٢٦	٣٩٠
﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ...﴾	٤٥	٤٠٨
﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾	٤٧	٤٠٧
﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا﴾	٥٩	٤٠٨
﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾	٦٥	٣٩٧
﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۚ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾	٦٨ - ٧٠	١٩٢
﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۚ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾	٦٨	٦٣٢ ، ٢٤٣
﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾	٧١ - ٧٣	١٨٣
﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾	٨٨	٢٣١ ، ٢٠٨ ، ١٠٦

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة العنكبوت		
﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾	٢٠	٢٤٦
﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾	٤٠	٦٩٤
﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾	٥١	٣٥٣
﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾	٥٢	٤٢٥
﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾	٦٠	٦٨٣
﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾	٦١	١٨٥ ، ١٠٣ ، ٧٣
﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾	٦٣	١٨٥ ، ١٠٣ ، ٧٣
﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾	٦٤	٤٦٦
﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾	٦٥	٩٣
﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾	٦٩	٧٠٧
سورة الروم		
﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾	٨	٣٥
﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾	١٩	٢٤٩
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾	٢٠ - ٢٦	١٧٧
﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ﴾	٢٧	٤٨١ ، ٢٥٠
﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾	٣٠	٢١٢
﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾	٤٠	١٩٢
﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾	٤١	٦٤٢ ، ٥٧٢ ، ٥٥٩



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾	٥٠	٢٦٤
﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾	٥٤	١٩٢، ٤٦٣، ٦٤٤
سورة لقمان		
﴿يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾	١٣	١٦٣
﴿وَلِينَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾	٢٥	١٨٥
﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾	٢٦ - ٣١	١٧٦
﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾	٢٧	٢٥٧
﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾	٣٤	٤٥٨
سورة السجدة		
﴿لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾	٣	٤٠٨
﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾	٤	١٠٠
﴿ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾	٦ - ٩	١٩٢
﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾	٧	٤١، ٧١٩
﴿قُلْ يَنُفِثُكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾	١١	٣٠٤
﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾	١٣	٦٧٠
﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾	١٦، ١٧	٥٩٩، ٦١٨
﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾	١٧	٤٧٠، ٥٦٩، ٦١٧
﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا﴾	١٩، ٢٠	٥٨٦
﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾	٢٦	٣٥
﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾	٢٧	٣٥

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأحزاب		
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾	١ - ٣	٢٠٨
﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾	٥	٧٠١
﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾	٦	٦٢٥
﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ﴾	٧	٤٠٣
﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾	٢١	٤٠٩، ٤٠٤، ٣٦٥
﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾	٣٦	٤٣٨
﴿وَمَن يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾	٣٦	٤٣٨
﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾	٣٧	٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٠، ٣٨١
﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾	٣٩	٣٧٥
﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾	٤٣	٣١٠
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾	٤٥، ٤٦	٤٠٨، ٣٦٧
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾	٥٧	٤٣٩
﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾	٦٣	٤٥٩
﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾	٦٧	٤٥٦
﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾	٦٩	٤٠٤
سورة سبأ		
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾	١، ٢	١٩٢
﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾	٣	٢٣٨



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ﴾	٣	٢٣٨
﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ﴾	١٣	٣١٥
﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجُنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ﴾	١٤	١٤٠
﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفْعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾	٢٣	٥٥٤
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ﴾	٣٤	٤٤٧
سورة فاطر		
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا﴾	١ - ٣	١٩٣، ٢٨٦، ٢٩٠، ٢٩١
﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾	٦	٣٢٢
﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾	٨	٧٠٨، ٧٠٩، ٧١٢
﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾	٩	٤٩٩
﴿وَمَا يَعْمرُّ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾	١١	٦٣٣، ٦٨٩، ٦٩٠، ٧٢٨
﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾	١٥	٢١٧
﴿وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾	١٨	٥٤١
﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾	٢٤	٣٩٩، ٤٠٠
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾	٢٩، ٣٠	٣٦٣
﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾	٣٣، ٣٢	٥٥٥
﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾	٣٤	٦٠٢
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾	٣٦	٥٨٩
﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾	٣٧	٥٩٢

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾	٣٨	١٩٣
﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾	٤٠	١٨٣
﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾	٤١	١٩٣
﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾	٤٢	٤١٠
﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾	٤٥	٥٥٩
سورة يس		
﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾	٣ - ٦	٤١٠
﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَنتَ بِأَبَاوَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾	٦	٤٠٨
﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾	٣٦	١٩٣، ٣٩، ٩٤
﴿وَأَيُّهُ لَّهُمْ أَلِيلٌ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾	٣٧ - ٤٠	٦٣١
﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾	٣٨ - ٤٠	٥١
﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾	٣٨	٢٤٤
﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾	٣٩	٢١٧
﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾	٤٠	٩٤
﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾	٤٩، ٥٠	٥٠٩
﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾	٥١، ٥٢	٥١٠
﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾	٥١	٤٥٧
﴿قَالُوا يَتَوَلَّىَٰنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾	٥٢	٣٧٧
﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾	٦٥	٥٢٢
﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾	٦٦، ٦٧	٥٣٢



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴾	٧٥، ٧٤	٤٨٨
﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾	٧٨ - ٧٩	٥٠٠، ٢٥٠
﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾	٧٨ - ٨٣	١٩٣
﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾	٧٩	٤٨١
﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴾	٨٠	٥٠٣
﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾	٨١، ٨٢	٤٨٢
﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾	٨١	٥٠٢
﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ ﴾	٨٢، ٨٣	٢٤٢، ٢٥٦، ٤٨٣، ٦٥٠
سورة الصافات		
﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾	١ - ٥	١٩٤
﴿ إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴾	٦	٤٨٣
﴿ أَعَادَا مِنَّا وَكُنَّا نُرَابًا وَعَظْمًا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ * أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾	١٦، ١٧	٤٨٠
﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾	٢٢ - ٣٢	٥١٤
﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾	٦٢ - ٦٨	٥٩٠
﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾	٩٥	٦٦٧
﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾	٩٦	٦٦٧
﴿ قَالَ يَبْنَئِي إِيَّيَّ أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾	١٠٢	٣٧٤
﴿ فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾	١٤٩، ١٥٠	٢٨٧
﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ، مَقَامٌ مَّعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾	١٦٤ - ١٦٦	٢٩٢

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَأِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿	١٦٧ - ١٦٩	٤١٠
﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿	١٨١، ١٨٢	١٩٤
سورة ص		
﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿	٢	٤٤٨
﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿	١٧	٣٩٠
﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿	١٨، ١٩	٥١٦
﴿وَطَنَ دَاوُدَ أَمَّا فَتَنَّهُ فَأَسْتَغْفِرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿	٢٤، ٢٥	٣٨٥، ٣٨٣
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿	٢٦	٥٢٢
﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿	٢٧، ٢٨	٤٦٨، ٤٩٦
﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ ﴿	٢٨	٤٦٩، ٦٩٣
﴿كَتَبْنَا أُنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَتَهُ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿	٢٩	٣٦٤
﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿	٣٠	٣٩٠
﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿	٤٤	٣٩١
﴿قَالَ يَٰإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَتَسْتَكْبِرُ ﴿	٧٥ - ٨٣	٣٢١
سورة الزمر		
﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴿	٣	١٠١، ١٢٤، ٢٠٧، ٤٨٧، ٧١١
﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴿	٧	٢٤١
﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿	١٠	٥٢٦
﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ﴿	١٧	١٢١
﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿	١٩	٥٥٠



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾	٢١	٤٩٩
﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي ﴾	٢٣	١٩٤
﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ ﴾	٢٩	١٦٢
﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾	٣٨	١٨٦ ، ٢٦
﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾	٤٢	٥٠٢ ، ١٩٤
﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا ﴾	٤٣ ، ٤٤	٥٣٧ ، ٤٨٧
﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾	٤٦	١٩٤
﴿ قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾	٥٣	٢٦٥ ، ٢٦٤ ، ١٩٤
﴿ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾	٦٢ ، ٦٣	٢٢٧ ، ١٩٤
﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرِيَّ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾	٦٤ - ٦٦	١٠١
﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾	٦٧	١٩٤
﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾	٦٨ - ٧٠	٥٠٩ ، ٤٦١
﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾	٧٠	٥١٠
﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾	٧١ ، ٧٢	٥٨٩
﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ﴾	٧١	٣٨٠
﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾	٧٣	٣٠٦
﴿ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾	٧٣	٣٠٢
سورة خافر		
﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾	٢ ، ٣	١٩٥
﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾	٧ - ٩	٥٦٢

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾	٧	٢٦٤
﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾	٧	٣٠٥
﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾	١٦ - ١٣	١٩٥
﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾	١٦	٥١٧، ١٨ ٥٥٤، ٥٤٠
﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾	١٧	٥١٠
﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾	١٧	١٨
﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ﴾	١٨	٥٥٥، ٥٤٩، ٥٣٨
﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾	١٨	٤٨٩
﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾	١٩	٢٣٨
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾	٢٨	٧١١
﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾	٣٥	٧١٠
﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾	٤٤	٢٠٧
﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾	٤٥ - ٥٠	٥٨٨
﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾	٤٦	٤٧٢، ٤٧٤
﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾	٤٩	٣٠٦
﴿لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾	٥٧	٤٨٢
﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾	٦٠	١٢٥
﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾	٦٤، ٦٥	١٩٥
﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾	٦٧، ٦٨	١٩٥
﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾	٧٩ - ٨١	١٩٥



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة فصلت		
﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾	١٩ - ٢١	٥٢١
﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ﴾	٢٢	٥٢٢
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾	٢٦	٣٥١
﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾	٣٠ - ٣٢	٣٠٥، ٣٠٢
﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾	٣٤	٥٦١
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾	٣٧	١٦٦
﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾	٣٨	٢٩٢
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا آمَنَ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ﴾	٤٠	٢٥٣
﴿وَإِنَّهُ لَكِنْتُ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾	٤١، ٤٢	٣٥٤
﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾	٤٢	٣٢٩، ١٥
﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾	٤٦	٧٠٦، ٥٣٩
﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾	٤٧	٢٣٨
﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾	٤٩، ٥٠	٤٨٥
﴿سَرِيهِمْ أَيْتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾	٥٣	١٧٤، ٧٩
﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾	٥٣	٣٠
سورة الشورى		
﴿حَمْدٌ عَسَقَ﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ﴾	١ - ٥	١٩٥
﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾	٩ - ١٢	١٩٦
﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾	٩	١١٧

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾	١١	٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٥٢
﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾	١٣	٣٩٥، ٤٠٣
﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾	١٥	٣٢٩، ٣٣٠، ٦٧٦
﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾	١٧	٤٥٩
﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾	٢١	١٢٧
﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾	٢٤	٤٣٠
﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾	٢٥، ٢٦	٢٦٥
﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾	٣٠	٥٥٩، ٦٤٢، ٦٦٧
﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾	٤٠	٥٦١
﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾	٤٩، ٥٠	٦٣٢
﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾	٥١	٣٧٣، ٣٧٤
﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾	٥٢، ٥٣	٣٩٢
سورة الزخرف		
﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾	٦	٤٠٠
﴿وَلِينَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾	٩ - ١٢	١٢٤، ١٨٥
﴿وَإِذَا بَشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾	١٧ - ١٩	٢٨٧
﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾	٢٦، ٢٧	١١٩
﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾	٢٩	٤٤٦
﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾	٣٢	٤٤٩
﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ﴾	٣٣ - ٣٥	٥٠٤



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُفْتَرِينَ ﴾	٥٣	٤٤٨
﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾	٦٧	٥٥٦
﴿ وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾	٧١	٦٠١
﴿ وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴾	٧٧	٣٠٦
﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾	٧٨ - ٨٢	١٩٦
﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴿	٧٨	٤٦٨
﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾	٨٠	٥١٨ ، ٢٥٣ ، ٢٩٩
﴿ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾	٨٢	٢٣٥
﴿ وَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾	٨٥	٤٥٨
سورة الدخان		
﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿	٦ - ٨	١٩٦
﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ ﴾	٣٨ - ٤٢	٤٩٦ ، ١٨١ ، ١٩٦
﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُورِ * طَعَامُ الْأَثِيرِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴾	٤٣ - ٥٠	٥٨٨
سورة الجاثية		
﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾	١٢ ، ١٣	١٩٦
﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾	٢١ ، ٢٢	٤٩٦ ، ٤٦٩
﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾	٢٢	١٩٧
﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾	٢٣	٧٠٩
﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾	٢٤ ، ٢٥	٤٧٩
﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾	٢٦	١٩٧
﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾	٣٦ ، ٣٧	٤٨٤ ، ١٩٧

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الأحقاف		
﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾	٤	١٨٤
﴿أَتُنْذِرِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾	٤	٩٦
﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾	٦، ٥	٥١٣
﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾	٨	٤٢٩، ٤٢٤
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾	٣٣	٥٠٢، ٤٨٢
﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ﴾	٣٥	٤٠٣
سورة محمد		
﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾	١	٥٢٥
﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾	١٠	٨١
﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ﴾	١٥	٦٠٢
﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾	١٧	٧١١
﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾	٢٤	٣٦٤
﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَكُمْ أَخْبَارَكُمْ﴾	٣١	٢٣٩
﴿هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءَ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ﴾	٣٨	١٩٧
سورة الفتح		
﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرْدَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾	٤	٧٣٧، ١٩٧
﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَكِيمًا﴾	٧	١٩٧
﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾	١٤	٧١٣، ١٩٧



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾	٢٣	٧١٢
﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾	٢٤	١٩٧
سورة الحجرات		
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾	١	٤٣٨
﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾	١٣	١٦٥
﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾	١٤	٥٣٩
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ﴾	١٥	٥٣٩
﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾	١٨	١٩٨
سورة ق		
﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾	٣	٤٨٠، ٤٨٢
﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا هِيَ مِنْ فُجُجٍ﴾	٦ - ١١	٣٥، ١٧٦
﴿أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾	١٥	٤٨١، ٥٠١
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْثُوسٍ بِهِ فَنَنْصُرْهُ﴾	١٦	١٩٨
﴿إِذْ يَنْفَلِقُ الْمَتْلَقَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾	١٧، ١٨	٢٩٨، ٢٩٩
﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾	٢٨، ٢٩	١٩٨
﴿هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾	٣٠	٥٩١
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾	٣٧	٨٨
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾	٣٨	١٩٨، ٣٣٦
﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾	٤٢	٥١٠
﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾	٤٤	٥١٠

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الذاريات		
﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصَرُونَ﴾	٢٠، ٢١	١٧٤، ٣٤
﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصَرُونَ﴾	٢١	٢٧٠، ٢٤٥
﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾	٢٤ - ٢٨	٢٨٨
﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ﴾	٤٧ - ٥٠	٤٨٣، ١٩٨
﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾	٤٩	٩٤
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾	٥٦ - ٥٨	١١٤، ١٩٨، ٣١٥، ٣١٦
﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾	٥٨	٦٨٣، ٢١٣
سورة الطور		
﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾	٣٤	٣٥٢
﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾	٣٥ - ٤٣	١٨٤، ٣١٥، ٧٣٦
﴿فَدَرَّهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾	٤٥ - ٤٧	٤٧٥
سورة النجم		
﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾	١ - ٤	٤٢٩
﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾	٣، ٤	١٧١، ٣٨١، ٣٩٣، ٤١٧
﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُرْمَرَةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾	٥ - ١٠	٢٨٨، ٢٩٥
﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾	١٠	١٤٧
﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾	١٣ - ١٥	٢٩٦
﴿وَكَمْ مِنْ مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا﴾	٢٦	٤٨٨، ٥٣٨، ٥٥٤



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا﴾	٣١	٤٩٧
﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾	٣٦، ٣٧	٣٢٧
﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾	٣٧	٤٠٤، ٣٩٠
﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾	٣٩ - ٤١	٧٠٧، ٦٦٠
﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾	٤٢ - ٥٥	١٩٨
﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾	٥٢ - ٦٢	٢٤٨
سورة القمر		
﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾	٧، ٨	٥١٠، ٤٥٧
﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَحْدَةً لَّكُمِجَ بِالْبَصَرِ﴾	٤٩ - ٥٥	١٩٩، ٥٠ ٦٢٨، ٦٢٣
﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾	٥٢	٦٢٨
سورة الرحمن		
﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾	١ - ٢٧	١٩٩، ١٧٥
﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾	٥ - ٧	٩٤
﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾	٨، ٩	٤٠٩
﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾	١٤، ١٥	٣١٥
﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾	١٥	٣١٦
﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾	١٩، ٢٠	٤٧٥
﴿سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ * فَإِذَا آتَىٰ آيَةُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾	٣١ - ٣٣	٣١٦
﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَإٍنَهَا مِّنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾	٥٤	٦٠٧

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾	٧٤ ، ٥٦	٣١٧
﴿نَبْرَكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾	٧٨	٢١٨
سورة الواقعة		
﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾	١٧ - ٢٠	٦٠٣
﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾	٢٧ - ٣٣	٦٠٣
﴿وَوَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾	٣٠ ، ٣١	٦٠٨
﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَمْنُونَ * ءَأَسْرُ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾	٥٨ - ٧٤	١٨٤
﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾	٦٠	٥٠٣
﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾	٦١	٥٠٠
﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾	٦٢	٥٠١
﴿إِنَّهُ لَفَرْعَانٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾	٧٧ - ٧٩	٢٩٣
سورة الحديد		
﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾	١ - ٦	١٩٩ ، ١٠١
﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾	٣	٢٣١ ، ٢٢٧ ، ٢١٧
﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾	٧	٤٣٧
﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِنُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾	٨	٧٠٧
﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾	١٠	٧٠٧
﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾	١٢ ، ١٣	٥٣١
﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾	٢٠	٤٦٧



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾	٢٢، ٢٣	٦٢٥، ٦٢٨ ٧٢٩، ٧٣٦
﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾	٢٥	٣٣٣، ٤٠٨
سورة المجادلة		
﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾	١	٢٥٣، ٢٧٣
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كَبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾	٥	٤٣٨
﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ ﴾	٦	٢٩٩، ٥٢٠
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾	٧	٢٠٠، ٢٥٤ ٢٧٣، ٤٦٢
﴿ اسْتَحْذَرُوا عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَأَنْسَهُمْ ذِكْرُ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴾	١٩	٣٢٠
﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ ﴾	٢٢	٦٧٣
سورة الحشر		
﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾	٧	٥٤٣
﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا ﴾	٨	٤٣٨
﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا ﴾	١٠	٥٦٠
﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ ﴾	١٦	٣٢٠
﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴾	٢٠	٦٩٣
﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾	٢٢ - ٢٤	١٠١، ٢٠٠
سورة الممتحنة		
﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾	٤	١١٩
﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ ﴾	٧	٢٠٠
﴿ ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾	١٠	١٠٧

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الصف		
﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾	٤	٢٠٠
﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾	٥	٧١٠، ٧١١
﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾	٦	٤٢٠
﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾	٧	٤٢٩
﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾	٨، ٩	٢٠٠
سورة الجمعة		
﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾	١ - ٣	٢٠٠
﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾	٢	٤١٠
﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾	١٠	٦٨٥
سورة المنافقون		
﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾	٨	٧٣٣
﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾	١١	٦٨٩، ٧٢٥
سورة التغابن		
﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾	١ - ٤	٢٠١، ٦٦٣
﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾	١١	٧٣٧
﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾	١٦	٧٠١
سورة الطلاق		
﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ	٣	٥٠، ١٤٥، ٢٠٨
﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾	١٢	٢٠١



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة التحريم		
﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْنِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾	١	٣٨٤، ٣٨٢
﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾	٣	٣٦٧
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَوْا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾	٦، ٧	٢٨٦، ٢٩١، ٢٩٣، ٣٠٦، ٥٨٧، ٥٩٤
سورة الملك		
﴿تَبَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾	٢، ١	١٧٥، ٢٠١
﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ﴾	٣	٤١، ٧١٩
﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾	٥	٤٨٣
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيُسَّ الْمَصِيرُ﴾	٦ - ١١	٥٨٧
﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾	١٣، ١٤	٢٠١، ٢٥٣، ٢٧٤
﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾	١٣	٢٥٣
﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾	١٤	١١٧، ٢٣٦
﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾	١٥	٢٠١، ٦٨٤
﴿ءَاْمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾	١٦ - ٢١	١٨٤
سورة القلم		
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾	٤	٣٨٩، ٣٩١، ٤٠٤، ٤٢٠
﴿أَفَنَجْعُلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾	٣٥، ٣٦	٦٩٣
﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾	٤٨ - ٥٠	٣٨٥

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الحاقة		
﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾	١٧	٣٠٥
﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿	١٨ - ٣٤	٥٢٤
﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿	٤٤ - ٤٧	٣٧٨، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٩٣، ٤٢٥
سورة نوح		
﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾	٤	٥٠٩، ٧٢٥
﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴿	١٥ - ٢٠	٢٠١
﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُعْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾	٢٥	٤٧٤
﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾	٢٨	٢٠٥
سورة الجن		
﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾	١	٣١٨
﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾	٢	٣١٨
﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَنِيعَهُ وَلَا وَلَدًا﴾	٣	٣١٩
﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾	٦	٣٢٤
﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا﴾	١١	٣١٧
﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾	١٤، ١٥	٣١٧
﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾	٢٦ - ٢٨	١٣٩، ٢٠٢
سورة المزمل		
﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿	٨، ٩	٢٠٢
﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾	١٩	٦٤٣، ٦٤٦



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة المدثر		
﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾	٣٠، ٣١	٣٠٦
﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾	٣١	٢٨٢
﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾	٣٧	٦٤٣
﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾	٣٨	٥٣٩
﴿قَالُوا لَوْ نَكُنْ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَوْ نَكُنْ نَظْعُمُ الْمَسْكِينِ﴾	٤٣ - ٤٨	٥٥٥
﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾	٤٨	٥٣٨، ٤٨٩، ٤٨٧
﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ * كَانَهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾	٤٩ - ٥١	٧٠٧
﴿كَلاَّ إِنَّهُ تَذَكُّرٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾	٥٤ - ٥٦	٦٤٣، ٦٤٦، ٦٤٩
﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾	٥٥، ٥٦	٦٤٣، ٦٤٦
﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النُّقُولِ وَأَهْلُ الْغُفْرِ﴾	٥٦	٢٠٢
سورة القيامة		
﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾	١٤، ١٥	٧٠٧
﴿إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ * فَإِذَا قُرْآنُهُ تُنَادَى فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾	١٧، ١٨	٣٨١
﴿كَلاَّ بَلْ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَيَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾	٢٠، ٢١	٤٦٢
﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾	٢٢، ٢٣	٦٠١
﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾	٢٣	٦١٠
﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَنَى﴾	٣٦ - ٤٠	٥٠١
سورة الإنسان		
﴿وَجَزَلْنَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾	١٢	٦٤٢

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾	٢٣	٣٢٨
﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾	٢٨ - ٣١	٢٠٢
﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾	٣٠	٦٤٣، ٢٤٠
سورة المرسلات		
﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسًا شَمِخَاتٍ﴾	٢٥ - ٢٧	٢٠٢
سورة النبأ		
﴿أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقَنَّاكَ أَزْوَاجًا﴾	٦ - ١٦	٢٠٢
﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلظَّالِمِينَ مَأْبَا * لَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾	٢١ - ٣٠	٥٨٩، ٥٥٧
﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾	٢٩	٢٩٨
﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾	٣٨	٥٣٨، ٢٩٤
سورة النازعات		
﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾	١٥ - ١٩	٢٥٨
﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾	٢٣	٥١٦
﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَدَهَا * رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيَهَا﴾	٢٧ - ٣٣	٥٠٢، ١٨٥
﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾	٣٤ - ٤١	٧٠٧، ٥٩٩
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾	٤٢ - ٤٤	٤٥٨
سورة عبس		
﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي﴾	١ - ١١	٣٨٧، ٣٨٠، ٣٥٠
﴿بِأَيِّدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾	١٥، ١٦	٢٩٣
﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾	١٧ - ٢٣	٤٦٦، ٤٦١



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ثُمَّ أَمَانَهُ، فَأَقْبَرَهُ، ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ، ﴿كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ، ﴿	٢١ - ٢٤	٤٩٩
﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ، ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا، ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا، ﴿	٢٤ - ٣٢	٢٠٣
سورة التكويد		
﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، ﴿وَأِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ، ﴿وَأِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ، ﴿	١ - ٥	٥٠٨
﴿وَأِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ، ﴿	٥	٥١٥، ٥١٦
﴿وَأِذَا الْتُفُوسُ زُوِّجَتْ، ﴿	٧	٥١٧
﴿إِنَّهُ، لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، ﴿	١٩، ٢٠	٢٨٦، ٢٩٥
﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ، ﴿	٢٣	٢٩٥
﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ، ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ، ﴿	٢٧ - ٢٩	٦٤٣، ٦٤٦، ٦٤٩
سورة الانفطار		
﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ، ﴿وَأِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ، ﴿وَأِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ، ﴿	١ - ٥	٥٠٨
﴿وَأِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ، ﴿كِرَامًا كَنِينٍ، ﴿يَعْمَلُونَ مَا تَعْلَمُونَ، ﴿	١٠ - ١٢	٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٩، ٥١٨
﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ، ﴿	١٩	٤٥٨، ٥٤٠، ٥٤٩
سورة المطففين		
﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، ﴿	٦	٤٥٨
سورة الانشقاق		
﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ، ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ، ﴿وَأِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ، ﴿	١ - ٥	٥٠٨
﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، ﴿	٧ - ١٣	٥٢٤
﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، ﴿	٨	٥٢٥
﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ، ﴿	٢٠، ٢١	٤٤٥، ٧٠٧

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة البروج		
﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾	١٦ - ١٢	٢٠٣
﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾	١٦	٢٤٠
سورة الطارق		
﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾	٤	٣٠٠
﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾	٧ - ٥	٢٤٧
سورة الأعلى		
﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾	٧ - ١	٢٠٣ ، ١٧٣ ، ٧١
﴿سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى﴾	٦	٣٨١
﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾	١٥ ، ١٤	٧٠٦
﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾	١٧ ، ١٦	٤٦٢
﴿إِنَّ هَذَا لَنِيَ الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾	١٩ ، ١٨	٣٢٧
سورة الغاشية		
﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِلَهِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾	٢٠ - ١٧	٧٣
سورة الفجر		
﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾	١٢ ، ١١	٤٨٤
﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾	١٤	٢٧٤
﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾	٢٢	٢٩٤
سورة البلد		
﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَالْوَالِدِ وَمَا وَلَدَ﴾	٤ - ١	٤٦٤



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الشمس		
﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾	٨ ، ٧	٧٧
﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾	١٠ - ٧	٧٠٦
سورة الليل		
﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾	١٠ - ٥	٦٨٢
﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾	١٠ - ٨	٧١٠
﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾	١٣ ، ١٢	٢٠٣
سورة الشرح		
﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾	٤	٤٣٧
سورة التين		
﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ﴾	٨ ، ٧	١٠٧
سورة العلق		
﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾	٢ ، ١	٣٦
﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾	١٤	٢٥٣
﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾	١٨ ، ١٧	٣٠٦
سورة البينة		
﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾	٧	٤١٣
سورة الزلزلة		
﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشُنَانًا لِّيمْرَوْا أَعْمَلَهُمْ﴾	٨ - ٦	٥١٨
﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾	٨ ، ٧	٤٩٤ ، ٥١٩ ، ٥٢١ ، ٥٥٠ ، ٥٩٢

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة العاديات		
﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَخُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾	٩ - ١١	٢٠٣
سورة العصر		
﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾	١ - ٣	٤١٣
سورة الفيل		
﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾	١ - ٥	١٥٧، ٢٠٤
سورة قريش		
﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ * إِلَّا فِيهِمْ رِحْلَةَ الْشِتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾	١ - ٤	١٥٧، ٢٠٤
سورة الكوثر		
﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾	١	٤٤٣
﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾	٢	١٤٣
سورة الإخلاص		
﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾	١ - ٤	١٠٠، ٢٠٤، ٢١٨، ٣٤٤
﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾	٤	٢١٧، ٢٢٠، ٢٣٢
سورة الفلق		
﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾	١ - ٥	٢٠٤
﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾	٤	١٣٦
سورة الناس		
﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾	١ - ٣	٢٠٤، ٢١٨



فهرس الأحاديث النبوية الشريفة



الحديث	رقم الصفحة
أ	
أتدرون ما هذا؟	٥٩٤
أتشفع في حدٍّ من حدود الله يا أسامة؟	٥٣٦
اتقوا النار، ولو بشقِّ تمرّة	٥٧١
أجعلتني لله ندًّا؟ قل: ما شاء الله وحده	١٤٩
أجل، كما يوعك رجالان منكم	٣٩١
احتجّ آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم، أنت أبونا، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة	٦٩٦
احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألتَ فاسأل الله	٧٣٣
أحيانًا يأتييني في مثل صلصلة الجرس، وهو أشدُّه علي	٢٩٥، ٢٦٠
إذا أحسن أحدكم إسلامه: فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها	٥٦٠
إذا أمرتكم بأمر، فاتوا منه ما استطعتم	٧٠١
إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله ﷻ: تريدون شيئًا أزيدكم؟	٦١٠
إذا دخل أهل الجنة الجنة، ينادي منادٍ: إن لكم أن تصيحوا فلا تسقموا أبدًا	٦٠٨
إذا ذكرَ القدرُ فأمسكوا	٧٢١
إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله	١٦٤
إذا سمعتم المؤذنَ، فقولوا مثل ما يقول، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ	٤٤٣

رقم الصفحة	الحديث
٦١٩	إذا كان يوم القيامة أُتِيَ بالموت كالكبش الأملح، فيوقف بين الجنة والنار
٥٤٤، ٤٤٠	إذا كان يوم القيامة كنتُ إمامَ النَّبِيِّينَ وَخَطِيبَهُمْ، وصاحبَ شفاعتهم غير فخر
١٣٥	أذهب البأس رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك
٥٩٧	أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شيء؟ فأين النهار؟
٣٧٨	أرأيتكم لو أخبرتكم أَنَّ خيلاً بالوادي تُريد أن تُغَيِّرَ عليكم أكنتم مُصَدِّقِي؟
٧٣٠، ٦٨٧	ارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس
٥٤٤	ارفع رأسك يا محمد، وقل يسمع، واشفع تشفع
٥٨٠	استعيذوا بالله من النار
٥٦٣	أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله؛ خالصاً من قلبه
٧	الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة
٤٣٥	أصابَت الناس سنة على عهد رسول الله ﷺ
٥٧٠	أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصلُّوا الأرحام، وصلُّوا بالليل والناس نيام
٥٦٩	أعددتُ لعبادي الصالحين في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعتُ
١٣٥	اعرضوا عليَّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً
٤٤١	أُعْطِيت ما لم يُعْطَ أحد من الأنبياء
٥٨٠	أعني على نفسك بكثرة السجود
٢٥٦	أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق
٢٥٦	أعوذ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة
١٥٩	أَغِيْظُ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه
٥٢٩	أفضل ما أكل الرجل من كسبه، وكان داود يأكل من كسبه
٢٩٣	ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة
٢٩٤، ٢٩٢	ألا تصفون كما تصفُ الملائكة عند ربها؟! فقلنا: يا رسول الله
٥٨٠	ألا مشمر للجنة؟ فإنها ورب الكعبة نور يتلأأ، وريحانة تهتزُّ



رقم الصفحة	الحديث
١٥١	ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد
٥٧٠	ألك أم؟ الزمها، فإن الجنة عند رجلها
١٥٥	الله أكبر، إنها السنن، قلتم - والذي نفسي بيده -
٤٣٦	اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني
١٧٢	اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك
٢٩٧	اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل
٢٣١	اللهم رب السماوات السبع، ورب الأرض، ورب كل شيء
٥٩٧	اللهم ربنا لك الحمد، ملء السماوات، وملء الأرض
١٦٥	اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك لك.
٤٣٦	اللهم سلط عليه كلبك
١٥٤	اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد
٥١٢	أليس الذي أمشاه على رجله في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه
٥١٢	الأمر أشد من أن يهتمهم ذاك
٢١٥	إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم
٤٣٦	إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين
١٤٨	إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين
٤٧٣	إن أحذكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي
١٥٩	إن أخنع اسم - أي: أوضع اسم وأذلّه - عند الله، رجل تسمى: ملك الأملاك.
٦١٥	إن أدنى أهل الجنة منزلة رجل صرّف الله وجهه عن النار قبل الجنة
٦٠٦	إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات سمعها أحد قط
٥٢٦	إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة
١٥٩	إن الله هو الحَكَم، وإليه الحُكَم
٧٠٠	إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه

رقم الصفحة	الحديث
٥٣١	إن الله وعدني أن يدخل الجنة من أمتي أربعمئة ألف
٥٢٥	إن الله يُدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستتره، فيقول: أتعرف ذنب كذا
٦٠٩	إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعديك
٧٣٩	إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكَيْس
٦١٥	إن أهل الجنة ليتراءؤن أهل الغُرَف من فوقهم، كما يتراءؤن الكوكب الدريّ
٥٩٦	إن أهون أهل النار عذاباً: أبو طالب، وهو متعل بنعلين، يغلي منهما دماغه
٥٩٦، ٥٩٥، ٥٩٣	إن أهون أهل النار عذاباً رجل في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه
٦١٣	إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر
٦٠٦	إن أول زمرة يدخلون الجنة في صورة القمر ليلة البدر
٦٢٦	إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. فقال: رب، ماذا أكتب؟
٥٢٣	إن أول ما يُحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته
٧	أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره
٢٧٤، ٧	أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك
٧	أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان
٣٧١	أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مدْرَجَتِهِ ملكاً
٥٧٣	إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى عليه، لا يُلقي لها بالاً
١٣٨، ١٣٥	إن الرُّقى والتَّمَائم والتَّوَلَةَ شرك
٧٣١	إنَّ روح القدس نفث في رُوعي: أنَّ نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها
٣٧٤	إنَّ رُوحَ القُدُس نفث في رُوعي: أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها
٤٠١	إنَّ الشمس لم تُحبس إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس
٦٠٥	إن طير الجنة كأمثال البُخْت، ترعى في شجر الجنة.
٤٧٢	إن العبد إذا وُضع في قبره، وتولَّى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم
٦١٠	إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوَّفة، عرضها ستون ميلاً



رقم الصفحة	الحديث
٦١٧	إن في الجنة سوقًا يأتونها كلَّ جمعة، فتهب ريح الشَّمال
٦٠٩	إن في الجنة شجرة يسير الراكبُ الجَوَادَ المُضَمَّرَ السريعَ مائةَ عامٍ لا يقطعها.
٦٠٩، ٦٠٨	إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائةَ عامٍ لا يقطعها
٦١٦	إن في الجنة غُرْفًا يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها
٦١١، ٥٦٩	إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله
٤٧٢	إن للقبر ضغطة، ولو كان أحدٌ ناجيًا منها نجا منها سعد بن معاذ
٦١٦	إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوّفة، طولها في السماء ستون ميلًا
٣٠٣	إن لله رِجَالٌ ملائكة سيّاحين في الأرض، يبلغوني من أمّتي السلام
٣٠٣	إن لله ملائكة سياحين في الأرض فضلاً عن كُتّاب الناس
٦٢٠	إن لله ملائكة سيّارة يتبعون مجالس الذكر
٥٧٩، ٣٠٢، ٢٩١	إن لله ملائكة يطوفون في الطرق، يلتمسون أهل الذكر
٢٩١	إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رِضًا بما يطلب
٦٩٧	أن موسى قال لآدم: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة
٦٥٩	إنّ الناس إذا رأوا الظالم، ولم يأخذوا على يديه
١٥٣	أنّ النبي ﷺ بعثه وأمره ألا يدع قبرًا مشرفًا إلا سَوّاه
٤٣٥	أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا بالزُّوراء، فدعا بقَدَح فيه ماء
٥٤٤	أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة
٥٤٥	أنا سيد الناس يوم القيامة، هل تدرون ممّ ذاك؟
٤٤٠	أنا سيّد ولدِ آدم ولا فخر
٤٤٤	أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع
٤٤٢	أنا سيّد ولدِ آدم يوم القيامة ولا فخر، وبِيدي لواء الحمد ولا فخر
٤٤٢	أنا لها
١٥٩	أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب
٢١٧	أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء

رقم الصفحة	الحديث
٤٤١	إنكم تتمون سبعين أمةً، أنتم خيرها وأكرمها على الله
٣٨٨	إنما ظننتُ ظنًّا، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن ما حدثكم عن الله
٢٩٦	إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خُلِقَ عليها غير هاتين المرأتين
٥٨٢	أنه سبحانه إذا تجلَّى لهم، ورأوا وجهه عيانًا، نسوا ما هم فيه من النعيم
٤٣٥	أنهم كانوا مع النبي ﷺ يوم الحديبية أربع عشرة مائة
٥٧٣	إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير! بلى، إنه كبير
٢٩٢، ٢٨٢	إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحُقَّ لها أن تتط
٥٤٤	إني لأرجو أن أشفع يوم القيامة عددًا ما على الأرض من شجرة ومدرّة
٢٢٨	أوجدتموه؟ قالوا: نعم. قال: ذلك صريح الإيمان
٦١٤	أول زمرة تلج الجنة، صورهم على صورة القمر ليلة البدر
٣٧٤	أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصّادقة في النوم
٥٢٤	أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء
٧	الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، وبلقائه، ورسله وتؤمن بالبعث
٢٨٢، ٢٣	الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره
٦٢٦، ٣٩٧	الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر
٥٩٧	أين الليل إذا جاء النهار؟
ب	
٤٣٦	«باسم الله». فضرب ضربة، فكسر ثلث الحجر
١٢٧	بلى، إنهم حرّموا عليهم الحلال، وحلّلوا لهم الحرام، فاتبعوهم
٦٠٣	بينما أنا أسير في الجنة، إذا أنا بنهرٍ حافتاه قباب اللؤلؤ المجوّف
٤٤٣	بينما أنا أسير في الجنّة، إذا أنا بنهرٍ حافتاه قباب الدّر المجوّف
ت	
٢٩١	تبكين أو لا تبكين، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه



رقم الصفحة	الحديث
٥٩٠	تحسبون أن نار جهنم مثل ناركم هذه؟ هي أشد سوادًا من القار
٥١٢	تُحْشَرُونَ حُفَاةً غُرَاةً غُرْلًا
٥١٤	تُذَنِّى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ
٢٣٤	تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللَّهِ، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ
٤٣٦	تَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ
ث	
١٣٧	ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: مَدْمَنُ الْخَمْرِ، وَمَصْدَّقُ السَّحَرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ
٥٣٢	ثُمَّ يَضْرِبُ الْجِسْرَ عَلَى جَهَنَّمَ، وَتَحُلُّ الشَّفَاعَةُ، وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ.
ج	
٢٩٦	جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ . قَالُوا: جَبْرِيلُ! ذَاكَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْحَرْبِ
ح	
٥٧٠	الْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ
٥٦٠	الْحَسَنَةُ عِنْدِي بِعَشْرَةِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ أَوْ أَزِيدَ
٧٣٧	الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ
خ	
٣١٦ ، ٢٨٤	خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ
د	
١٠٥	الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ
ر	
٣٠٧	رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتْيَانِي.. قَالَا: الَّذِي يُوْقِدُ النَّارَ مَالِكُ خَازِنِ النَّارِ..
٢٨٦	رَأَيْتُهُ مِنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ، سَادًّا عِظَمَ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ
٧٠٠	رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبُرَ، وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ

الحديث	رقم الصفحة
س	
سألت ربي فوعدني أن يُدخل الجنة من أمتي..	٥٣٠
سبحانك ما عبدناك حق عبادتك	٣٠٨
السبع الموبقات	١٣٦
سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل	٥٧١
السيد: الله تبارك وتعالى	١٤٨
ص	
الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان	٥٤٨
صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس	٥٧٣
ط	
الطيرة شرك، الطيرة شرك	١٤٥
ع	
عَجِبَ رَبُّنَا ﷻ مِنْ رَجُلٍ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَانْهَزَمَ أَصْحَابُهُ، فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ	٣١١
عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ	٧٢٩
عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمْرُونَ مَعَهُمُ الرِّهْطَ	٥٢٧
عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ	٣٧٦
عَشَ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحْبَبُ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مَفَارِقُهُ	٤٦٧
عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله	٥٧١
غ	
غَدَوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا	٦١٨
غزا نبي من الأنبياء، فقال للشمس: أنت مأمورة وأنا مأمور	٤٠١
ف	
فأتاه النبي ﷺ، فوضع يده عليه فسكت	٤٣٤



رقم الصفحة	الحديث
٢٩٨	فإذا أنا بسحابة قد أظلّتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل، فناداني
٧	فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم
٥١٥	فتصهّروهم الشمس، فيكونون في العرق كقدر أعمالهم
٢٧٣	فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله
٥٨٢	فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجهه
٦٠٣	في الجنة بحر للماء، وبحر للبن، وبحر للعسل، وبحر للخمر
٦١١	في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين مائة عام
٥٦٤	فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون، فيقول الجبار: بقيت شفاعتي
٥٤٤	فيقال: محمد، فيفتح له، فيجيء حتى يقوم بين يدي الله، فيسجد
٥٣٣	فيمر أولكم كالبرق. قلت: بأبي أنت وأمي، أي شيء كمرّ البرق؟
٦١٨، ٤٧٠	فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر
ق	
٥٩٩	قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت
١٦٠	قال الله تعالى: يُؤذنيني ابن آدم، يسبُّ الدهر وأنا الدهر، أَقْلَبُ الليل والنهار
٦١٧	قال الله ﷻ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت
٤٧١	القبر أول منزل من منازل الآخرة، وآخر منزل من منازل الدنيا
٧٢٩، ٦٩٨ ٧٣٩، ٧٣٧	قدّر الله وما شاء فعل
٢٩٧	قرن ينْفُخ فيه
٤٤٩	قُلها يا عم، كلمة أشفع لك بها عند الله يوم القيامة
٦٢٠	قولوا: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر
١٤٨	قوموا إلى سيدكم أو قال: خيركم...

رقم الصفحة	الحديث
ك	
٢٢٨	كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء
٣٦٥	كان خُلِقَ القرآن
٥٦٤	كل نبيٍّ قد سأل سؤالاً - أو قال: لكل نبيٍّ دعوة دعا بها - فاستُجيب
٦١٦	كما تراءون الكوكب الغارب
٣٧٨	كنتم تتهمونه على الكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال له: لا.
٦٠٣	الكوثر نهر في الجنة: حافته من قصب، ومجراه على الدر والياقوت
٢٩٧	كيف أنعم؟ وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه
ل	
١٥٤	لا تتخذوا قبوري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم
١٥٣	لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبوري عيداً، وصلُّوا عليّ
١٥١	لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها
١٣٠	لا تحلفوا بآبائكم
٥٢٣	لا تزولُ قدما عبدٍ يوم القيامة، حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه
١٤٧	لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، إنما أنا عبد
١٥٨	لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان. ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان
٦٢٦	لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله
٥٧٤	لا يدخل الجنة قتّات
٥٧٤	لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر
٧٠٣	لا يردُّ القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر
٢٢٩	لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا: خلق الله الخلق، فمن خلق الله؟
٥١٥	لَتُؤَدَّنَ الحقوقُ إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقتصرَ للشاة الجماء من الشاة



رقم الصفحة	الحديث
١٥٢	لعن الله زوّارات القبور، والمتّخذين عليها المساجد والسُّرج
١٤٣	لعن الله مَنْ ذبح لغير الله، لعن الله مَنْ لعن والدَيْه، لعن الله مَنْ آوى محدثاً
٣٢٤	لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات، والمتفلجات للحسن
٣٢٤	لعن الله الواصلة والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة
١٥١	لعنة الله على اليهود والنصارى، اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد
٦٠٥	لغْدوة في سبيل الله أو رَوْحة خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قَوْسٍ أحْدكم
٢٨٦	لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة
٣٨٨	لقد هممت أن أنهي عن نكاح الغيلة
٥٦٣	لكل نبيّ دعوة، فأريد إن شاء الله أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة
٥٦٤	لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجّل كلُّ نبيّ دعوته
٥٩٣	لما خلق الله الجنة والنار، أرسل جبريل إلى الجنة، فقال: انظر إليها
٥٥٩	لما قضى الله الخلق، كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش
٣٨٩	لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي
٥٩٥	لو أن قطرة من الزُّقُوم فُطرت في دار الدنيا، لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم
٧٣٦	لو تفتح عمل الشيطان
٤٣٩	لو كان موسى حيّاً ما وسّعته إلا اتباعي
٤٦٧	لو كانت الدنيا وزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافراً منها شربة ماء
٦١٣	ليَدْخُلَنَّ الجنةَ من أمتي سبعون ألفاً - أو سبعمائة ألف - متماسكون
٧٣٠	ليس الغنى عن كثرة العَرَض، إنما الغنى غنى النفس
١٦٣	ليس كما تقولون، أو لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ﴿يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾
١٤٠	ليس منّا من تطيّر أو تُطِيرَ له، أو تكهّن أو تُكهّن له، أو سحر أو سُحر له
٢٤٩	ليَهْنِكَ العلم أبا المنذر



رقم الصفحة	الحديث
م	
٣٠٢	ما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم
٣١١	ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام
٤٠١	ما أدري تبّع أنبيًا كان أم لا؟ وما أدري ذا القرنين أنبيًا كان أم لا؟
٣٨٨	ما أظنه يصلح
٥٩٥	ما بين منكبَي الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع
٥٤٤	ما سألته ربي، وما أطمعني فيه، وإني لأقوم المقام المحمود يوم القيامة
٢١٤	ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل
٧٢٣	ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم
٤٥٩، ٧	ما المسؤول عنها بأعلم من السائل
٣٤٦	ما من الأنبياء نبيٍّ إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر
٥٧١	ما من عبدٍ يصوم يومًا في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار
٣١١	ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو
٦٨١	ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا وقد كُتِبَ مكانها من الجنة
٣٩٥	مثلي ومثل الأنبياء قبلي، كمثّل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله
٢٣٨	مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله..
١٣٩	مَنْ أتى عرافًا فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة
١٣٩	مَنْ أتى كاهنًا، فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد
٥٧٣	من أحب أن يتمثّل له الرجال قيامًا، فليتبوأ مقعده من النار
٥٧٠	من اغبرّت قدماه في سبيل الله حرّمه الله على النار
٣٠٢	من أفضل المسلمين
١٣٨	مَنْ اقتبس شُعبة من النجوم، فقد اقتبس شُعبة من السحر
٥٧٠	من بنى لله مسجدًا، بنى الله له بيتًا في الجنة



رقم الصفحة	الحديث
١٣٣	من تعلق تميمة فقد أشرك
١٣٣	مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً، فَلَا أَتَمَّ اللَّهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً، فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ
١٣٠	مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ
١٣١	مَنْ حَلَفَ وَقَالَ فِي حَلْفِهِ: وَاللَّاتِ وَالْعِزَّى. فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
٥٢٥	مَنْ حُوسِبَ عُذْبٌ. فَقُلْتُ أَوَّلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟
١٤٥	مَنْ رَدَّتْهُ الطَّيْرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ. فَقَالُوا: فَمَا كِفَارَةُ ذَلِكَ؟
٦٢٠	مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الْجَنَّةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَتِ الْجَنَّةُ: اللَّهُمَّ ادْخُلْهُ الْجَنَّةَ.
٦٩٠	مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُسَيِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ فِي أَثَرِهِ - أَيْ فِي أَجَلِهِ - فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ
٥٧١	مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْجِيَهُ اللَّهُ مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلْيَنْفُسْ عَنْ مُعْسَرٍ، أَوْ يَضَعْ عَنْهُ
١٣٦	مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا، فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ
١٤١	مَنْ عَمَلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ
٥٧١	مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كِرْبَاتِ الدُّنْيَا
٥٧٠	مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُؤَادًا نَاقَةً وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ
٥٧٧	مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
١١٨	مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، حُرِّمَ مَالُهُ وَدَمُهُ
٥٧٤	مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحُهَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا
٦١٣	مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهِدَةً بِغَيْرِ حَقِّهَا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ
١٣٠	مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَذَرَ
١٦٩	مَنْ لَقِيَ اللَّهَ يَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ
٦٢٦	مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي
٥٧٤	مَنْ مَاتَ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ
١٤٢	مَنْ نَذَرَ أَنْ يَطِيعَ اللَّهَ فَلْيَطِيعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ
٢٨٩	«مَنْ هَذَا؟». قَالَتْ: هَذَا دَحِيَّةُ

رقم الصفحة	الحديث
٦٠٧	من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس، ولا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه
٥٩٦	منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومن تأخذه النار إلى ركبتيه
٧٢٣	مهلاً يا قوم، بهذا أهلكتم الأمم من قبلكم: باختلافهم على أنبيائهم
٧٣٨	المؤمن القوي خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير.
ن	
٥٩٠	ناركم هذه، التي يوقد ابن آدم، جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم
٣٨٦	نزل نبيي من الأنبياء تحت شجرة، فلدغته نملة، فأمر بجهازه فأخرج من تحتها
٦٨٢	نعم. قيل: ففيم يعمل العاملون؟ فقال: كلُّ مُيسَّر لما خُلِق له
٦٠٤	نعم، والذي نفس محمد بيده، إن أحدهم يُعطى قوة مائة رجل
٤٨١	نعم ويبعثك ويدخلك النار
٥٧٣	نفس المؤمن معلقة بدينه، حتى يُقضى عنه
١٥٣	نهى أن تُجصَّص القبور، وأن يُكتب عليها
١٥٢	نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر
هـ	
٦١٠	هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله.
١٤٢	هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يُعبد؟
٦٩١، ٦٧٨	هي من قدر الله
و	
٦٢٥	واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء
٦١٣، ٥٤٧	والذي نفس محمد بيده، إن ما بين مصراعي من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر. أو: هجر ومكة
٣٩٤	والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري
٦١٣	وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام



رقم الصفحة	الحديث
٦٢٣	وتؤمن بالقدر خيره وشره
٤٤١	وجعلت أمتي خير الأمم
٥٣٠	وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً
١٦٥	وكونوا عباد الله إخواناً
٧٢٧	ولا يمنع أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه ويذكر بعظيم
٦٨٧	وليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس
١٣١	ويحك، ما هذه؟ قال: من الواهنة. قال: أما إنها لا تزيدك إلا وهناً
٥٣٢	ويضرب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يُجيزها
ي	
٢٧٥	يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما، لا تحزن إن الله معنا
٥٦٩	يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى
١٤٨	يا أيها الناس، قولوا بقولكم، ولا يستهويكم الشيطان، أنا محمد
٥٢٢	يا رب ألم تجزني من الظلم؟ قال: يقول: بلى
٧	يا عمر، أتدري من السائل؟
١١٣	يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟
٥٤٤	يا محمد، ارفع رأسك، قل تسمع، سل تعطه، اشفع تشفع. فأرفع رأسي
٥٤٣	يا محمد ارفع رأسك، واشفع تشفع، وسل تعطه
٦٠٤	يأكل أهل الجنة ويشربون، ولا يمتخطون، ولا يتغوطون، ولا يبولون
٥٤٤	يبعث الناس يوم القيامة، فأكون أنا وأمتي على تل
٣٠١	يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر
٥٤٣	يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة
٥٦٣	يخرج قوم من النار بشفاعة محمد، فيدخلون الجنة ويُسمَّون الجهنميين
٥٦٣	يخرج من النار قوم بالشفاعة كأنهم الثعالب

رقم الصفحة	الحديث
٥٣٤	يخلص المؤمنون من النار، فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار
٥٦٣	يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من بني تميم
٦١٤	يدخل أهل الجنة الجنة جُزْدًا مُزْدًا مُكْحَلِينَ، بني ثلاث وثلاثين
٥٢٩	يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفًا بغير حساب
٢٨٢	يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه آخر ما عليهم
٥٦٣	يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته
١٤٥	يُعجبني الفأل. قالوا: وما الفأل؟ قال: الكلمة الطيبة
٦١٢	يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد
٦١٩	يؤتى بالموت كهيئة كبشٍ أَمْلَحَ، فينادي به منادٍ: يا أهل الجنة.
٥٩٦	يؤتى بأنعم أهل الدنيا [من أهل النار] فيصبغ في النار صبغة
٥٩١	يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة
٥٢٠	يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وُزن فيه السماوات والأرض لوسعهم

* * *

فهرس الموضوعات

- ❖ من الدستور الإلهي للبشرية ٦
- ❖ مشكاة النبوة الخاتمة ٧
- مقدمة ٩
- الإيمان بالله ١٠
- الإيمان بالملائكة ١٢
- الإيمان بالكتب ١٤
- الإيمان بالرسل ١٥
- الإيمان باليوم الآخر ١٨
- الإيمان بالقدر ١٩
- أركان الإيمان ٢١
- ❖ الركن الأول: الإيمان بالله تعالى ٢٣
- الإيمان بالله أصل العقائد كلها ٢٣
- وجود الله ٢٥
- وجود الله فوق الجدال والشبهات ٢٥
- سبب الإلحاد في أوربا ٢٦
- رذاذ من الإلحاد يصيب الشرق ٢٧



٢٩	□ دلائل وجود الله
٢٩	أولاً: دلالة الفطرة
٣٢	اشتراك الأمم في أصل الإيمان
٣٣	ثانياً: دلالة الكون
٣٤	عناية القرآن بالكون
٣٦	الأدلة الكونية الأربعة
٣٦	١ - دليل الخلق
٤٠	٢ - دليل التسوية
٤٣	يد الإنسان
٤٤	الأذن الوسطى
٤٤	حاسة الإبصار في العين
٤٥	اللسان جهاز الذوق
٤٥	الجهاز العصبي
٤٦	عملية الهضم
٤٧	العقل
٤٩	٣ - دليل التقدير
٥٠	الماء
٥٠	الشمس
٥٣	الكواكب والنجوم
٥٤	الهواء
٥٧	ضوابط وموازين
٥٨	الجسم الإنساني
٥٩	٤ - دليل الهداية
٦١	مملكة النحل
٦٢	مملكة النمل



- ٦٣ طير الحمام
- ٦٣ كلام ابن القيم عن هداية الحيوانات
- ٦٧ النطفة نقطة البداية
- ٦٨ العمارة الإنسانية
- ٧٠ والآن ما موقف الماديين؟
- ٧١ زعم المصادفة
- ٧١ وَرَدُّنَا عَلَى هَؤُلَاءِ
- ٧٧ ثالثاً: دلالة الأخلاق
- ٧٨ رابعاً: دلالة الوحي
- ٨٠ خامساً: دلالة التاريخ
- ٨٤ □ الحُجُبُ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ اللَّهِ
- ٨٤ ١ - الانحصار في دائرة الحس
- ٨٦ ٢ - الغفلة
- ٨٦ ٣ - التقليد
- ٨٧ ٤ - المكابرة
- ٩٠ □ حقيقة التوحيد
- ٩٠ تركيز الإسلام على التوحيد
- ٩١ ضلال أكثر الناس عن عقيدة التوحيد
- ٩٢ دلالة الفطرة على وحدانية الله تعالى
- ٩٣ دلالة العقل
- ٩٥ دلالة النقل
- ٩٦ التوحيد جوهر الإيمان بالله
- ٩٨ تُرَى مَا مَضمون هذا التوحيد؟
- ١٠٠ التوحيد المأمور به
- ١٠٢ أولاً: توحيد الربوبية أو الخالقية

- ١٠٣ ثانيًا: توحيد الإلهية
- ١٠٤ معنى العبادة
- ١٠٥ صور العبادة وأنواعها
- ١٠٦ أهمية توحيد الإلهية
- ١٠٦ ثالثًا: توحيد الحاكمية
- ١٠٧ الحكم القدري الكوني
- ١٠٨ الحكم الأمري التشريعي
- ١١٠ □ لا إله إلا الله عنوان التوحيد
- ١١١ التوحيد هو المهمة الأولى للرسول
- ١١٢ التوحيد شعار الإسلام
- ١١٣ التوحيد حق الله على العباد
- ١١٤ التوحيد رسالة المسلم في الحياة
- ١١٥ التوحيد رسالة الأمة الإسلامية إلى الأمم
- ١١٦ □ لماذا يتحقق التوحيد؟
- ١١٦ أولاً: إخلاص العبودية لله
- ١١٨ ثانيًا: الكفر بالطواغيت
- ١١٩ ولكن ما معنى الطاغوت؟
- ١٢١ ثالثًا: اتقاء الشرك والحذر منه
- ١٢٢ □ الشرك
- ١٢٢ أنواع الشرك
- ١٢٢ الشرك الأكبر جليّ وخفيّ
- ١٢٣ من الشرك الأكبر الخفي: الدعاء والاستعانة بالموتى
- ١٢٥ شرك القبور وشرك القصور
- ١٢٦ من الشرك الأكبر: اتّخاذ غير الله مشرّعاً
- ١٢٩ ألوان من الشرك الأصغر



- الحلف بغير الله ١٣٠
- لبس الحُلَّة والخيط ١٣١
- تعليق التمايم ١٣٢
- التميمة من القرآن، ومن أسماء الله تعالى ١٣٣
- الرُّقَى ١٣٤
- السحر ١٣٦
- التنجيم من السحر ١٣٧
- التَّوَلَّه سحر وشرك ١٣٨
- الكهانة والعرافة ١٣٨
- النذر لغير الله ١٤٠
- حكم الوفاء بالنذر لغير الله ١٤١
- الذبح لغير الله ١٤٢
- الطَّيْرَة شرك ١٤٤
- الإسلام يسد المنافذ إلى الشرك ١٤٧
- الغلو في تعظيم النَّبِيِّ ﷺ ١٤٧
- الغلو في الصَّالِحِينَ ١٤٩
- تعظيم القبور ١٥١
- ١ - اتخاذها مساجد ١٥١
- ٢ - الصلاة إليها ١٥١
- ٣ - إضاءتها وإيقاد السرج عليها ١٥٢
- ٤ - البناء عليها وتجسيصها ١٥٢
- ٥ - الكتابة عليها ١٥٣
- ٦ - تعليتها ورفعها ١٥٣
- ٧ - اتخاذها عيداً ١٥٣
- الحكمة في هذا التحذير ١٥٤

- التبرك بالأشجار والأحجار ونحوها ١٥٥
- الألفاظ الموهمة للشرك ١٥٨
- آثار التوحيد في الحياة ١٦١
- أ - تحرير الإنسان ١٦١
- ب - تكوين الشخصية المتزنة ١٦١
- ج - التوحيد مصدر لأمن النفس ١٦٢
- د - التوحيد مصدر لقوة النفس ١٦٣
- هـ - التوحيد أساس الإخاء والمساواة البشرية ١٦٤
- مفسد الشرك وأضراره ١٦٦
- ١ - الشرك مهانة للإنسانية ١٦٦
- ٢ - الشرك وَكْر للخرافات ١٦٧
- ٣ - الشرك ظلم عظيم ١٦٧
- ٤ - الشرك مصدر للمخاوف ١٦٨
- ٥ - الشرك معطل لإيجابية الإنسان ١٦٨
- ٦ - آثار الشرك في الآخرة ١٦٩
- كمالات الله العليا ١٧٠
- (صفاته العلا وأسماءه الحسنى) ١٧٠
- كيف نعرف كمالات الله؟ ١٧٠
- ضلال الناس في معرفة صفات الله ١٧٠
- ما معنى (نعرف الله)؟ ١٧١
- أولاً: دلالة الكون على الله تعالى وصفاته العلا ١٧٣
- ثانياً: دلالة القرآن على الله تعالى وصفاته العلا ١٧٩
- بيان آيات الله في خلقه ١٨٠
- أسلوب الاستفهام التقريري أو السؤال والجواب ١٨١
- واقراً في سورة يونس ١٨٢



- ١٨٢ واقرأ في سورة المؤمنون
- ١٨٣ واقرأ قوله تعالى في سورة النمل
- ١٨٣ اقرأ في سورة القصص
- ١٨٣ وفي سورة فاطر
- ١٨٤ وفي سورة الأحقاف
- ١٨٤ واقرأ في سورة الطور
- ١٨٤ واقرأ قوله تعالى في سورة الواقعة
- ١٨٤ واقرأ في سورة الملك
- ١٨٥ وفي سورة النازعات
- ١٨٥ ويدخل في هذا الأسلوب نحو قوله تعالى في سورة العنكبوت
- ١٨٥ وفي سورة لقمان
- ١٨٥ وفي سورة الزخرف
- ١٨٦ وفي سورة الزمر
- ١٨٦ أسلوب التقرير والإخبار المباشر
- ١٨٦ اقرأ قوله تعالى في سورة الفاتحة
- ١٨٦ واقرأ قوله تعالى في سورة البقرة
- ١٨٦ وفي سورة آل عمران
- ١٨٧ واقرأ في سورة النساء
- ١٨٨ واقرأ في سورة المائدة
- ١٨٨ واقرأ في سورة الأنعام
- ١٨٩ واقرأ في سورة يونس
- ١٩٠ واقرأ في سورة الرعد
- ١٩٠ واقرأ في سورة النحل
- ١٩٠ واقرأ في سورة طه
- ١٩١ واقرأ في سورة الحج

- ١٩١ واقرأ في سورة النور
- ١٩١ واقرأ في سورة الفرقان
- ١٩٢ وفي سورة الشعراء على لسان إبراهيم
- ١٩٢ وفي سورة القصص
- ١٩٢ وفي سورة الروم
- ١٩٢ وفي سورة السجدة
- ١٩٢ واقرأ في سورة سبأ
- ١٩٣ اقرأ في سورة فاطر
- ١٩٣ واقرأ في سورة يس
- ١٩٤ واقرأ في أول سورة الصافات
- ١٩٤ وفي آخر السورة
- ١٩٤ واقرأ في سورة الزمر
- ١٩٥ واقرأ في سورة غافر
- ١٩٥ واقرأ في سورة الشورى
- ١٩٦ واقرأ في سورة الزخرف
- ١٩٦ وفي سورة الدخان
- ١٩٦ وفي سورة الجاثية
- ١٩٧ وفي سورة محمد
- ١٩٧ وفي سورة الفتح
- ١٩٨ وفي سورة الحجرات
- ١٩٨ وفي سورة ق
- ١٩٨ وفي سورة الذاريات
- ١٩٨ وفي سورة النجم
- ١٩٩ وفي سورة القمر
- ١٩٩ وفي سورة الرحمن



١٩٩	وفي سورة الحديد
٢٠٠	وفي سورة المجادلة
٢٠٠	وفي سورة الحشر
٢٠٠	وفي سورة الممتحنة
٢٠٠	وفي سورة الصف
٢٠٠	وفي سورة الجمعة
٢٠١	وفي سورة التغابن
٢٠١	وفي سورة الطلاق
٢٠١	وفي سورة الملك
٢٠١	وفي سورة نوح
٢٠٢	وفي سورة الجن
٢٠٢	وفي سورة المزمل
٢٠٢	وفي سورة المدثر
٢٠٢	وفي سورة الإنسان
٢٠٢	وفي سورة المرسلات
٢٠٢	وفي سورة النبأ
٢٠٣	وفي سورة عبس
٢٠٣	وفي سورة البروج
٢٠٣	وفي سورة الأعلى
٢٠٣	وفي سورة الليل
٢٠٣	وفي سورة العاديات
٢٠٤	وفي سورة الفيل
٢٠٤	وفي سورة قريش
٢٠٤	وفي سورة الإخلاص
٢٠٤	وفي سورة الفلق



- ٢٠٤ وفي سورة الناس
- ٢٠٤ أدعية الرسل والمؤمنين
- ٢٠٦ محاوره الرسل لأقوامهم
- ٢٠٧ مناقشة القرآن لأصناف المشركين
- ٢٠٨ الأمر والنهي والتوجيه الإلهي
- ٢٠٨ دلالة هذا الحشد من النصوص القرآنية
- ٢١٠ اختلاط المسلمين بأهل الملل والنحل
- ٢١١ المجادلة في البديهيّات والتشكيك في المسلّمات
- ٢١١ الجدل حول صفات الله
- ٢١٢ معركة جدلية عقيمة
- ٢١٣ فما سر هذا الخلاف الذي تحول إلى معركة ضارية؟
- ٢١٤ فتنة خلق القرآن
- ٢١٦ التزام تعبيرات القرآن في شؤون العقيدة
- ٢١٨ منهج القرآن في ذكر أسماء الله تعالى وصفاته
- ٢١٩ خلاصة رأينا في مسألة الأسماء والصفات
- ٢٢٥ □ أسماء الله الحسنی
- ٢٢٥ دعاء الله بأسمائه الحسنی والتحذير من الإلحاد فيها
- ٢٢٥ أوجه الإلحاد في أسماء الله تعالى
- ٢٢٧ □ صفات الله تعالى الأول
- ٢٢٨ خواطر تمرّ بالنفس
- ٢٢٩ مثال يوضح المقام
- ٢٣١ ❖ الآخر
- ٢٣٢ □ ليس كمثله شيء
- ٢٣٣ زيغ الأديان المحرّفة في صفات الله
- ٢٣٣ عجز الإنسان عن إدراك صفات الله



- ٢٣٦ العلم □
- ٢٣٦ الدليل العقلي على صفة العلم
- ٢٣٨ علم الله ليس كعلم البشر
- ٢٤٠ الإرادة □
- ٢٤١ الإرادة غير الأمر والعلم
- ٢٤٢ نوعا الإرادة
- ٢٤٢ أ - إرادة كونية
- ٢٤٢ ب - إرادة شرعية
- ٢٤٣ مظاهر الإرادة
- ٢٤٥ القدرة □
- ٢٤٩ الحياة □
- ٢٥٠ خصائص تميّز حياة الخالق عن غيره
- ٢٥٢ السمع والبصر □
- ٢٥٢ الله السميع
- ٢٥٣ الله البصير
- ٢٥٤ كيف يسمع الله تعالى وكيف يرى؟
- ٢٥٤ الدليل العقلي لإثبات الصفتين
- ٢٥٦ الكلام □
- ٢٥٨ الكلام من صفات الذات
- ٢٦٠ الفرق بين صفة الكلام وكلام الله المنزل وقراءة القارئ
- ٢٦١ كلام الإمام السهروردي في صفة الكلام
- ٢٦٤ الرحمة □
- ٢٦٤ رحمة الله ورحمة الإنسان
- ٢٦٥ أرحم الراحمين
- ٢٦٦ من آثار رحمة الله تعالى

- الحكمة ٢٦٨
- رأي السلف وغيرهم في تعليل أفعال الله تعالى ٢٦٩
- مشاهد حكمة الله تعالى في الكون ٢٧٠
- العدل ٢٧٢
- أثر الإيمان بأسماء الله وصفاته ٢٧٣
- ❖ الركن الثاني: الإيمان بالملائكة ٢٧٧
- كلمة حول عالم الغيب وعالم الشهادة ٢٧٧
- ترتيب أركان الإيمان في القرآن ٢٨٠
- السُّرُّ في ترتيب الإيمان بالملائكة قبل الكتب والرُّسُل ٢٨١
- تعريف الملائكة ٢٨١
- وجوب الإيمان بالملائكة ٢٨٢
- خلق الملائكة ٢٨٤
- صفات الملائكة في القرآن والسُّنة ٢٨٦
- عِظَمُ خَلْقِ الملائكة ٢٨٦
- الملائكة لا تأكل ولا تشرب ولا تتوالد ولا توصف بذكورة ولا بأنوثة ٢٨٧
- حُسْنُ الملائكة وجمالهم ٢٨٨
- قدرتهم على التشكُّل ٢٨٨
- الملائكة أولو أجنحة ٢٩٠
- عبادة الملائكة ٢٩١
- أخلاق الملائكة ٢٩٣
- أعمال الملائكة ٢٩٤
- ١ - جبريل عليه السلام ٢٩٥
- ٢ - ميكائيل عليه السلام ٢٩٦
- ٣ - إسرافيل عليه السلام ٢٩٧
- ٤ - ملك الجبال ٢٩٧



- ٥ - الملائكة المسجلون للأقوال والأعمال والحسنات والسيئات ٢٩٨
- إحصاء الله تعالى أعمال العباد ٢٩٨
- ٦ - الملائكة الرُقباء يسجلون أعمال المؤمنين والكافرين ٢٩٩
- ٧ - الملائكة الحفظة الذين يحرسون العباد ٣٠٠
- ٨ - تأييد الرسل وتثبيت المؤمنين ٣٠١
- ٩ - حضور مجالس الذكر والطاعة ٣٠٢
- ١٠ - ملك الموت ٣٠٤
- ١١ - حملة العرش ٣٠٥
- ١٢ - خزنة الجنة ٣٠٦
- ١٣ - خزنة النار ٣٠٦
- أثر الإيمان بالملائكة في حياة المسلم ٣٠٧
- الجن ٣١٢
- عالم الغيب وعالم الشهادة ٣١٢
- أصناف الناس من الإيمان بالغيب ومنه وجود الجن ٣١٢
- تعريف الجن ٣١٤
- خلق الجن ٣١٥
- تكليف الجن ٣١٦
- الجن في القرآن ٣١٧
- إيمان الجن بالقرآن ٣١٨
- تنزيهه سبحانه عن صاحبة والولد ٣١٩
- الشياطين ٣٢٠
- المعركة بين الشيطان والإنسان ٣٢١
- تحذير القرآن من الشيطان وعداوته لنا ٣٢٢
- خطوات الشيطان في التزيين والإغواء ٣٢٣
- اعتقادات غريبة في الجن ٣٢٤

❖ الركن الثالث: الإيمان بالكتب السماوية ٣٢٧

١ - تعريف الكتب السماوية ٣٢٧

٢ - وجوب الإيمان بالكتب ٣٢٩

٣ - أثر الإيمان بالكتب ٣٣١

أ - كمالُ حكمة الله سبحانه ٣٣٢

ب - تأييد الرسل وإظهار صدقهم ٣٣٢

ج - الدلالة على وحدة الرسالات ٣٣٢

د - الحكم بين الناس حين الاختلاف ٣٣٣

هـ - الحكم بين الناس بالعدل ٣٣٣

و - الهداية والرحمة ٣٣٤

٤ - تحريف الكتب التي سبقت القرآن ٣٣٥

تحريف التوراة ٣٣٥

الدليل على تحريف التوراة ٣٣٥

تحريف العقيدة في التوراة ٣٣٦

بعض الدراسات حول تحريف التوراة ٣٣٩

تحريف الزبور ٣٤١

تحريف الإنجيل ٣٤٢

إنجيل أم أناجيل؟ ٣٤٢

الأدلة على تحريف الأناجيل ٣٤٣

أ - نسبة الولد إلى الله سبحانه ٣٤٤

ب - نسبة الصلب إلى عيسى عليه السلام ٣٤٤

ج - تحميل خطيئة آدم في أكليه من الشجرة لبنيه ٣٤٤

د - اعتماده في أحكامه وشرائعه على التوراة (العهد القديم) ٣٤٤

□ القرآن الكريم ٣٤٦

المعجزة الخالدة ٣٤٦



- أدلة يجدها دارس القرآن ٣٤٦
- ١ - فقدان الطابع الشخصي والبشري ٣٤٦
- ٢ - شهادة العقل الحر ٣٤٧
- آيات العتاب ٣٥٠
- ٣ - شهادة القلب والفطرة ٣٥١
- التَّحْدِي بالقرآن ٣٥٢
- مراحل التَّحْدِي بالقرآن ٣٥٢
- خصائص القرآن الكريم ٣٥٤
- ١ - القرآن حَفِظَهُ الله من التغير ٣٥٤
- ٢ - القرآن آخر الكتب المنزلة وناسخ لها ٣٥٦
- ٣ - القرآن هو الحق والصدق ٣٥٧
- ٤ - القرآن مهيمن على الكتب قبله ٣٥٧
- ٥ - القرآن معجز ٣٥٨
- الفرق بين القرآن الكريم والكتب الماضية ٣٥٨
- واجبنا نحو القرآن الكريم ٣٦٣
- ❖ الركن الرابع: الإيمان بالرسول عليهم الصلاة والسلام ٣٦٧
- (١) تعريف الرسول وصفاتهم ٣٦٧
- تعريف الرسول والنبى ٣٦٧
- تعريف الرسول اصطلاحاً ٣٦٨
- ١ - الرَّسُولُ بَشَرٌ ٣٦٨
- ٢ - الرَّسُولُ رَجُلٌ ٣٧٠
- هل يُنبأ الأنبياء قبل سن الأربعين؟ ٣٧٢
- ٣ - الرسالة اصطفا ٣٧٢
- ٤ - الرسول يُوحى إليه ٣٧٣

- معنى الوحي ٣٧٣
- طُرُقُ الْوَحْيِ ٣٧٣
- ٥ - الرسولُ مأمورٌ بالتبليغ ٣٧٥
- الفرق بين النبي والرسول ٣٧٥
- أهمُّ صفاتِ الرُّسُلِ ﷺ ٣٧٧
- ١ - الصِّدْق ٣٧٧
- ٢ - الفَطَانَةُ ٣٧٩
- ٣ - التبليغ ٣٧٩
- ٤ - العِصْمَةُ ٣٨٠
- ٥ - مكارمُ الأخلاق ٣٨٩
- ٦ - الكمالُ في الخلقة الظاهرة، والسلامة من الأمراض المنفّرة ٣٩١
- الفرق بين الرسل وبين المصلحين والزعماء ٣٩١
- (٢) وجوب الإيمان بالرسول عليهم الصلاة والسلام ٣٩٥
- الإيمان بالرسول ركن أساسي في العقيدة ٣٩٦
- لكلِّ أمة رسول ٣٩٩
- عَدَدُ الرُّسُلِ ٤٠٠
- التفاضل بين الأنبياء والرسل ٤٠٢
- أولو العزم من الرُّسُلِ ٤٠٢
- (٣) حكمة إرسال الرسل عامة ٤٠٥
- لا غنى للإنسان عن هداية الرسل ٤٠٥
- ١ - بيان حكمة الله وعدله ٤٠٧
- ٢ - قطع المعاذير في الدنيا والآخرة ٤٠٧
- ٣ - إزاحة الغفلة والإعداد للهداية ٤٠٨
- ٤ - رفع الاختلاف ورد الناس إلى أصول يتفقون عليها ٤٠٨
- ٥ - إقامة القسط بين الناس ٤٠٨
- ٦ - الأسوة الحسنة ٤٠٩



- (٤) حكمة إرسال محمدٍ خاصّة ٤١٠
- ١ - بالنسبة للعرب ٤١٠
- ٢ - وبالنسبة لأهل الكتاب ٤١٠
- أصول الرسائل واحدة ٤١١
- (٥) آيات الرسل ٤١٥
- تعريف المعجزة ٤١٥
- شرح التعريف ٤١٥
- وجه دلالة المعجزة على صدق الرسول ٤١٧
- وجوب الإيمان بالمعجزات ٤١٧
- أنواع المعجزات ٤١٧
- (٦) دلائل نبوة محمد ﷺ وفضائله ٤٢٠
- توفيق الله لنبيه وتأييده لدعوته ٤٢٥
- محاورة بين ابن القيم وأحد كبار أحبار اليهود ٤٢٧
- علام يدل هذا؟ وماذا نُسَمِّيهِ؟ ٤٢٨
- أفضل الأنبياء والمرسلين ٤٣٧
- أ - رَفَعَ ذِكْرَهُ وَعَلُوُّ قَدْرِهِ عَلَى جَمِيعِ الْمَخْلُوقَات ٤٣٧
- ب - أَخَذَ الْعَهْدَ لَهُ ﷺ عَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُل ٤٣٩
- ج - إِمَامَتُهُ ﷺ الْأَنْبِيَاءِ بَيْتِ الْمَقْدَس ٤٤٠
- د - وَهُوَ إِمَامُ الْمُرْسَلِينَ فِي الْآخِرَةِ أَيْضًا ٤٤٠
- هـ - تَفْضِيلُ أُمَّتِهِ عَلَى الْأُمَم ٤٤٠
- ما أكرم الله به نبيه في الآخرة ٤٤١
- ١ - الشَّهَادَةُ ٤٤١
- ٢ - الْمَقَامُ الْمَحْمُود ٤٤٢
- ٣ - لِيَوَاءِ الْحَمْد ٤٤٢



- ٤ - الوسيلة ٤٤٢
- ٥ - الكوثر ٤٤٣
- ٦ - إكرامُ الله تعالى نبيّه محمدًا ﷺ بأولّياتِ المعالي في الآخرة ٤٤٣
- (٧) لماذا لم يؤمنوا؟ ٤٤٥
- موانع الإيمان بالله وبرسوله ٤٤٦
- ١ - الترف والمتعة ٤٤٦
- ٢ - الكبر والشقاق ٤٤٧
- ٣ - البغي والحسد والعصبية ٤٥٠
- ٤ - حب الملك والرياسة ٤٥٠
- ٥ - التقليد واتّباع الآباء والكبراء ٤٥٦
- ❖ الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر ٤٥٧
- (١) بين يدي القيامة ٤٥٧
- لا يعلم موعد يوم القيامة إلا الله ٤٥٨
- (٢) الدار الآخرة ٤٦٠
- مراحل حياة الإنسان ٤٦٠
- هذه الحياة هي العاجلة ٤٦٢
- هذه الحياة هي الدنيا (السفلى) ٤٦٢
- الكَبَدُ شأن هذه الحياة ٤٦٣
- دنيا التغيُّر ٤٦٥
- قصر العمر في الحياة الدنيا ٤٦٦
- الدنيا متاع الغرور ٤٦٧
- الدنيا متاع قليل ٤٦٨
- تلك هي الدنيا ٤٦٩
- دارنا الحقيقية ٤٧٠



□ (٣) القبر أول منازل الآخرة ٤٧١

سؤال القبر وعذابه ٤٧١

أدلة القرآن على عذاب القبر ٤٧٢

عالم البرزخ ٤٧٥

هل عذاب القبر للبدن أم للروح أم لهما معاً؟ ٤٧٦

□ (٤) الإيمان بالآخرة وأصناف الناس حول هذا الإيمان ما بين جاحد لها،

ومشكك فيها، وجاهل بحقيقتها، وموقن بها ٤٧٨

١ - الجاحدون المنكرون ٤٧٨

٢ - الشاككون والمترابون ٤٨٠

استبعاد المشركين للبعث ٤٨٠

أولاً: الإعادة أهون من البدء ٤٨١

ثانياً: خلق ما هو أكبر من الإنسان ٤٨٢

ثالثاً: القدرة الإلهية لا حصر عليها ٤٨٣

٣ - الذين يجهلون العدالة الإلهية ٤٨٤

آخرة هؤلاء ليست كما يتوهمونها ٤٨٤

اعتماد المشركين وكثير من أهل الكتاب على نفع الشفاعة لهم عند الله ٤٨٦

الشفاعة عند الله لها شروط ٤٨٧

من شروط الشفاعة أن تكون بعد إذن الله ٤٨٨

الشفاعة لمن يرتضيه الله، لا للأصنام ولا لمن والاه ٤٨٨

المشركون لا تقبل شفاعتهم ٤٨٨

٤ - الذين يؤمنون بتناسخ الأرواح ٤٨٩

٥ - الموقنون بالآخرة وهم أهل العدل والفضل من الرسل وأتباعهم ٤٩٣

□ (٥) كيف أثبت القرآن البعث بعد الموت؟ ٤٩٨

الدلائل القرآنية على إمكان البعث ٤٩٩

١ - خشوع الأرض في الخريف ثم حياتها بالربيع ٤٩٩



- ٢ - إعادة أجزاء الإنسان في الحياة مشهودة باستمرار، وهي تدل
 ٥٠٠ على إعادة الكل بعد البلى
- ٣ - إعادة أهون من الخلق الأول، وكله على الله هيّن ٥٠٠
- ٤ - الاستدلال بخلق ما هو أعظم من خلق البشر ٥٠٢
- ٥ - الاستدلال باليقظة بعد النوم على جواز الحشر ٥٠٢
- ٦ - الاستدلال بالموت على إثبات البعث ٥٠٣
- إقامة الدلالة على أن المعاد حق واجب ٥٠٣
- (٦) أحداث كونية كبيرة ٥٠٨
- أولها: تهديم هذا الكون وتبدله ٥٠٨
- ثانيها: إماتة كل من بقي في الأرض (نفخة الصعق) ٥٠٩
- ثالثها: إحياء الله الموتى وبعثهم من قبورهم جميعاً (نفخة البعث) ٥٠٩
- رابعها: الحشر وشيّدته ٥١٠
- حشر الكفار على وجوههم غُمياً وزُرْقاً ٥١١
- حشر الكفار مع الشياطين ٥١٢
- يُحْشَرُ كل إنسان وحده ٥١٣
- شَتَان بين حَشَر المتقين وسَوَق المجرمين ٥١٤
- دنو الشمس من رؤوس الخلائق ٥١٤
- هل تُحْشَر البهائم والوحوش وغير المكلفين؟ ٥١٥
- خامسها: عقد محكمة العدل الإلهية الكبرى ٥١٧
- تطair الصحف وقراءة كل امرئ كتابه ٥١٨
- وزن الأعمال بالميزان الإلهي ٥١٩
- كيف يكون الميزان؟ ٥٢٠
- شهادة السمع والأبصار والجلود ٥٢١
- حساب الناس ومساءلتهم أمام الله ٥٢٢
- السؤال والحساب للناس جميعاً ٥٢٣



- أول ما يُحاسب عليه العبد يوم القيامة ٥٢٣
- الحساب اليسير والعسير ٥٢٤
- من هم الذين يدخلون الجنة بغير حساب؟ ٥٢٦
- نصب الصراط والمرور عليه ٥٣١
- أقسام المارّين على الصراط ٥٣٢
- وصف الصراط ٥٣٣
- قنطرة الحقوق ٥٣٤
- (٧) الشفاعة ٥٣٥
- الشفاعة لأهل الإيمان ٥٣٥
- معنى الشفاعة ٥٣٥
- وهي نوعان: محمودة ومذمومة ٥٣٥
- شروط الشفاعة المقبولة ٥٣٧
- حقائق لا يجوز الخلاف عليها ٥٣٨
- سعادة الإنسان موقوفة على إيمانه وعمله ٥٣٨
- العبرة بالمضامين وليست بالعناوين ٥٣٩
- الملك والتدبير في هذا اليوم لله وحده ٥٤٠
- العدل المطلق شعار هذا اليوم ٥٤١
- إسقاط الأوهام الزائفة عن الشفاعة ٥٤١
- الشفاعة المنفية والمثبتة في القرآن ٥٤٢
- السُّنة مبينة للقرآن ٥٤٢
- الشفاعة الثابتة في الآخرة ٥٤٣
- الأولى: الشفاعة العظمى (المقام المحمود) ٥٤٣
- والشفاعة الثانية: الشفاعة للعصاة والمذنبين من أهل التوحيد ٥٤٧
- من ينكر الشفاعة؟ ٥٤٩
- الآيات التي تنفي الشفاعة عندهم ٥٤٩

- ٥٤٩ الآيات التي تناقض فكرة الشفاعة عندهم
- ٥٥٠ المنطق العقلي الذي استند عليه منكر الشفاعة
- ٥٥٠ الرد على مَنْ أنكر الشفاعة
- ٥٥٠ فأما من جهة العقل
- ٥٥٢ وأما من جهة النقل
- ٥٥٢ ١ - آيات نفي الشفاعة
- ٥٥٤ الشفاعة لأهلها بشرطها
- ٥٥٤ من لهم الشفاعة
- ٥٥٥ من لا شفاعة لهم
- ٥٥٧ استدلال نفاة الشفاعة بآيات عدم الخروج من النار والرد عليهم
- ٥٥٩ معاملة الله عباده بين قانون العدل وقانون الفضل
- ٥٦٢ الشفاعة تكريم من الله تعالى لعباده المؤمنين
- ٥٦٥ □ (٨) الجزاء الأخروي (الثواب والعقاب)
- ٥٦٥ تفاوت الأجزية في الجنة والنار على الأعمال ثوابًا وعقابًا بين الأديان
- ٥٦٥ الجزاء في اليهودية والنصرانية
- ٥٦٨ شمول الجزاء وتنوعه في الإسلام
- ٥٦٨ المثوبات الروحية والأخلاقية والمادية والاجتماعية
- ٥٦٩ المثوبات الأخروية أكثر المثوبات وأشهرها
- ٥٧٢ العقوبات المادية المعجلة
- ٥٧٢ العقوبات الروحية والنفسية المعجلة
- ٥٧٣ العقوبات الأخروية أكثر العقوبات ذكرًا
- ٥٧٤ سر تفاوت الجزاء على الأعمال ثوابًا وعقابًا
- ٥٧٤ وقفة مع المعارضين لفكرة الثواب والعقاب
- ٥٧٥ فئة الفلاسفة
- ٥٧٥ فئة الصوفية



- الرد على الفلاسفة ٥٧٥
- الرد على مبالغات الصوفية ٥٧٧
- (٩) النار ٥٨٧
- صنوف العذاب وألوان النكال ٥٩٠
- نار الدنيا ونار الآخرة ٥٩٠
- وقودها وسعتها ٥٩١
- درجات النار ٥٩١
- الأحاديث الكثيرة الصحيحة والحسنة التي وردت في شأن النار ٥٩٣
- وصف النار ٥٩٣
- قعر النار ٥٩٤
- حجارة النار ٥٩٤
- طعام أهل النار ٥٩٥
- تفاوت أهل النار في العذاب، وذكر أهونهم عذابًا ٥٩٥
- أين النار؟ ٥٩٦
- (١٠) الجنة ٥٩٩
- ترتيب ذكر الجنة والنار في القرآن ٥٩٩
- نعيم الجنة لا يزول ٦٠١
- صور من نعيم الجنة ٦٠٢
- أنهار الجنة ٦٠٢
- نهر الكوثر ٦٠٣
- طعام أهل الجنة وشرابهم ٦٠٣
- نساء أهل الجنة ٦٠٥
- غناء الحور العين ٦٠٦
- لباس أهل الجنة وحلّهم ٦٠٧
- فرش أهل الجنة ٦٠٧



- ٦٠٨ أشجار الجنة
- ٦٠٩ النعيم الروحي في الجنة
- ٦١١ درجات الجنة
- ٦١٣ □ أحاديث في الجنة ونييمها
- ٦١٣ امتداد ربح الجنة
- ٦١٣ صفة دخول أهل الجنة الجنة
- ٦١٥ ما لأدنى أهل الجنة فيها
- ٦١٥ غرف الجنة
- ٦١٦ خيام الجنة
- ٦١٧ سوق الجنة
- أعلى ما يخطر على البال أو يجوّزه العقل من حُسن الصفات المتقدّمة
- ٦١٧ فالجنة وأهلها فوق ذلك
- ٦١٩ خلود أهل الجنة وأهل النار، وما جاء في ذبح الموت
- ٦٢٠ سؤال الله الجنة والاستعاذة به من النار
- ٦٢٣ ❖ الركن السادس: الإيمان بالقدر
- ٦٢٣ معنى القدر
- ٦٢٣ مراتب القدر
- ٦٢٥ الإيمان بالقدر في السنة
- ٦٢٧ الإيمان بالقدر في القرآن
- ٦٢٨ الإيمان بالقدر إيمان بمقتضى الكمال الإلهي
- ٦٣١ مجالات القدر
- ٦٣١ المجال الأول: ما يجري في الكون الكبير من حولنا
- ٦٣٢ المجال الثاني: ما لا دخل لنا فيه من خلقنا وحياتنا
- ٦٣٣ المجال الثالث: أعمالنا الإرادية الاختيارية



- ٦٣٥ الإنسان بين الجبر والاختيار
- ٦٣٥ المعتزلة فرّطوا في إثبات القدر
- ٦٣٦ الجبريّة والقدر
- ٦٣٧ موقف الأشاعرة
- ٦٣٨ ولكن ما حقيقة الكسب؟ وما تأثيره في حدوث الفعل؟
- ٦٣٩ مذهب المحققين من علماء السنة
- ٦٤١ نصوص القرآن تؤيد هذا المذهب
- ٦٤٥ أمثلة مما قاله هؤلاء الأئمة
- ٦٤٧ من شبهات الجبريين: سبق العلم الإلهي
- ٦٤٨ شبهات أخرى للجبريين
- ٦٥١ قدرة الإنسان وقدرة الله
- ٦٥٢ هل تُعدّ قدرة الإنسان مؤثّرة في وجود فعله أم لا؟
- ٦٥٦ شيوع عقيدة الجبر
- ٦٦١ □ منشأ الإفراط والتفريط في القدر
- ٦٦١ أولاً: ضيق النظر إلى صفات الألوهية
- ٦٦٣ ثانياً: ضيق النظر إلى الإنسان نفسه
- ٦٦٤ ثالثاً: تفريق النصوص
- ٦٦٧ رابعاً: عدم تحديد المفاهيم
- ٦٦٩ ملاحظة هامة
- ٦٧١ ضلال المعتزلة وغلاة الصوفيّة في الإرادة
- ٦٧٣ الصوفيّة وعقيدة الجبر
- المنهج الواجب اتباعه
- ٦٧٥ إزاء المفرّطين والمفرّطين
- ٦٧٧ □ القدر والأسباب
- ٦٧٩ القدر والعمل الصالح

- ٦٨٣ القدر والأرزاق
- ٦٨٦ أسباب تفاوت الناس في الأرزاق
- ٦٨٩ القدر والآجال
- ٦٩٢ □ الاحتجاج على المعاصي بالقدر
- ٦٩٣ وجوه الفساد في الاحتجاج بالقدر على المعاصي
- ٦٩٦ هل احتج آدم على الذنب بالقدر؟
- ٧٠٠ مَنْ هو المعذور حقاً؟
- ٧٠٢ ❖ هل يُدفع القدر؟
- ٧٠٦ □ الإنسان بين الهدى والضلال
- ٧٠٦ باب الهدى مفتوح للجميع
- ٧٠٨ نعمتان هما أصل كلّ سعادة
- ٧٠٨ معنى: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾
- ٧١٢ تفسير غير مقبول للآية الكريمة
- ٧١٣ أثر الأعمال في النفس
- ٧١٧ □ سرُّ القدر
- ٧١٨ سؤال عن وقوع الشرور والقبائح في العالم
- ٧١٨ الجواب
- ٧٢٢ الممنوع في قضية القدر
- ٧٢٤ □ ثمار الإيمان بالقدر
- ٧٢٤ من هذه الثمار والآثار
- ٧٢٤ ١ - القوّة في مواطن البأس والخطر
- ٧٢٦ ٢ - الثبات في مواجهة الطغيان
- ٧٢٨ ٣ - الصبر عند نزول المصائب
- ٧٣٠ ٤ - الرضا والقناعة بما قسم الله



- الرضا مصدر قوة لصاحبه ٧٣٢
- ٥ - العزة في طلب الحوائج ٧٣٣
- ٦ - السكينة وراحة النفس ٧٣٣
- المؤمن لا يعيش بين (لو) و(ليت) ٧٣٤
- ٧ - الاتجاه إلى العمل والبناء ٧٣٧
- فهرس الآيات القرآنية الكريمة ٧٤٣
- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ٨٠٥
- فهرس الموضوعات ٨٢١

* * *

